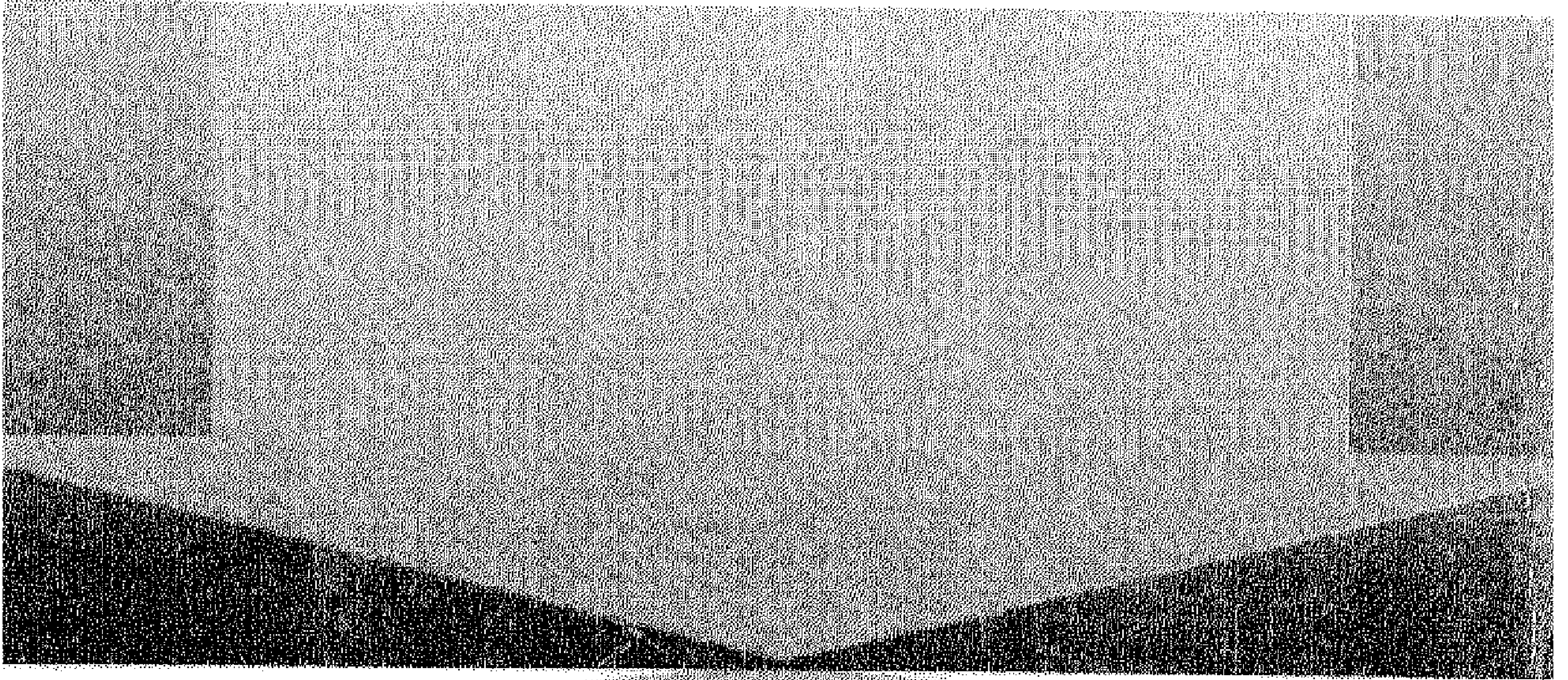
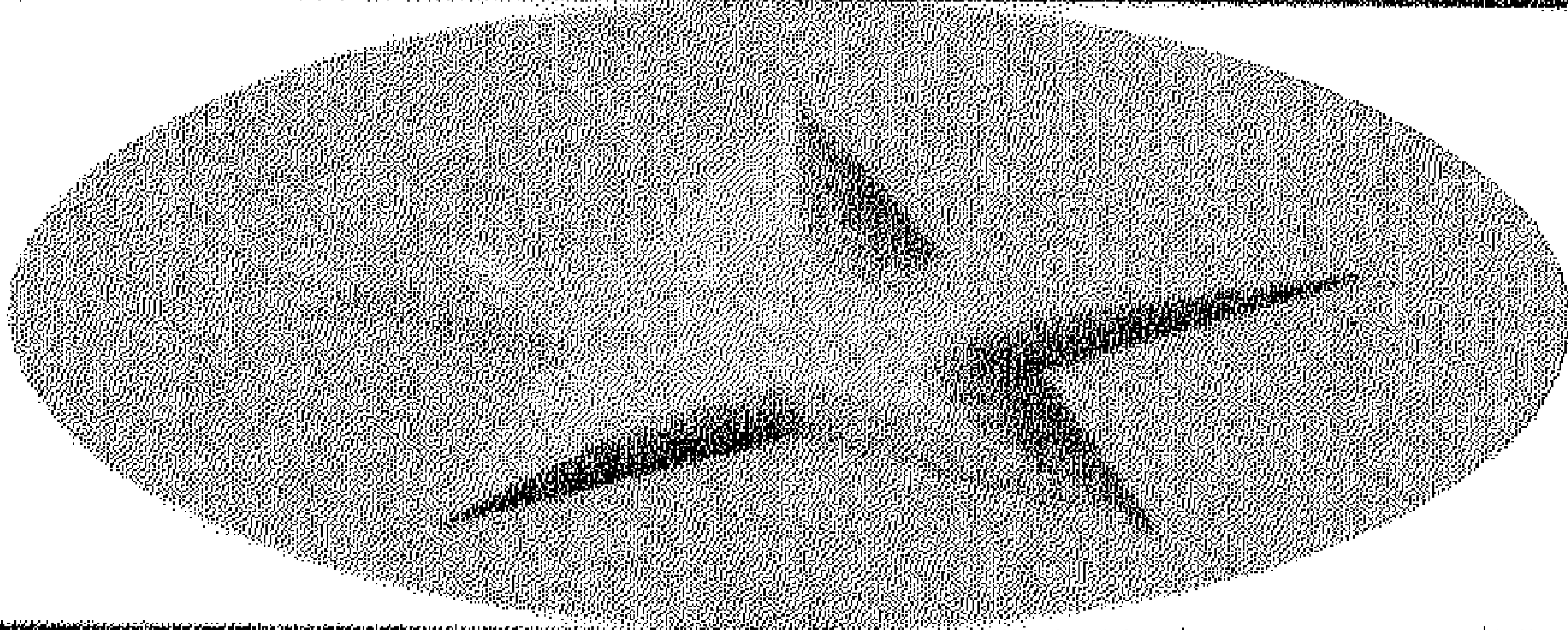
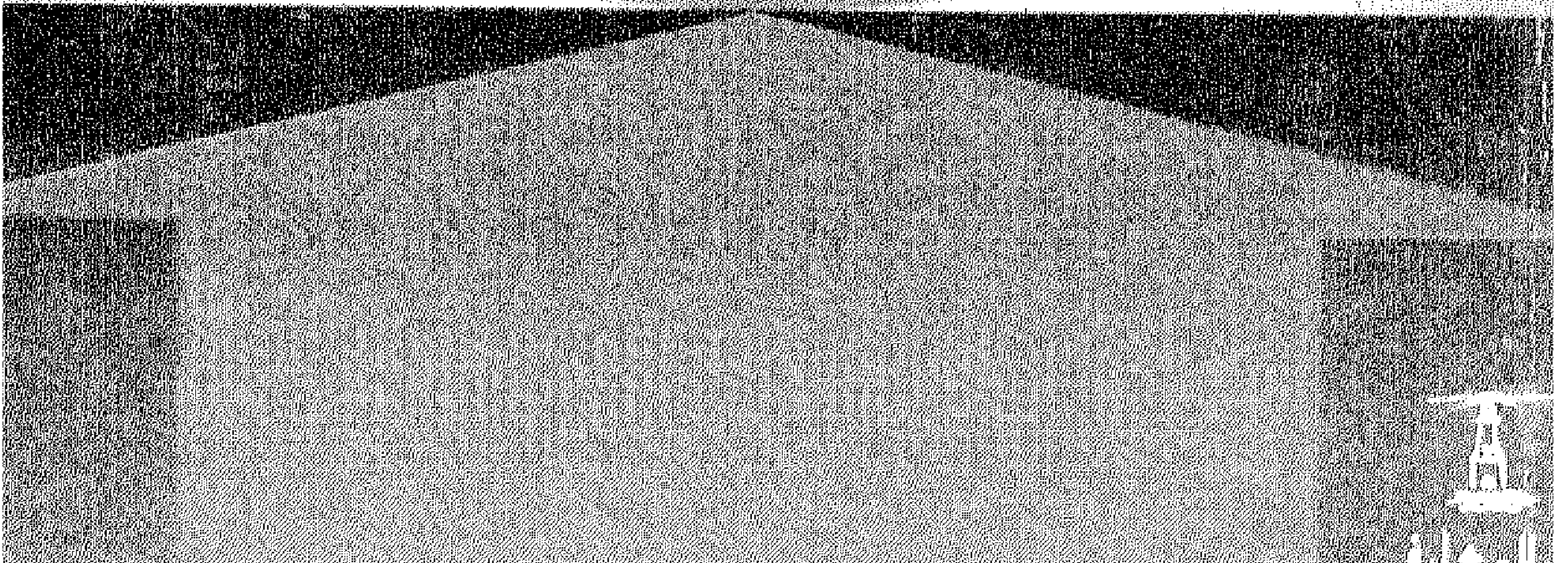
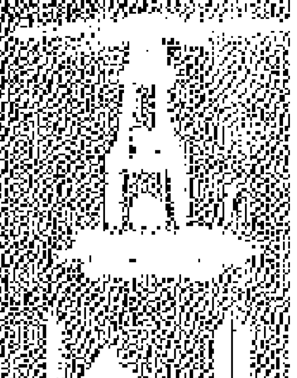
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور عبد الله الأشعل

المسلمون والنظام العالمى الجديد

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

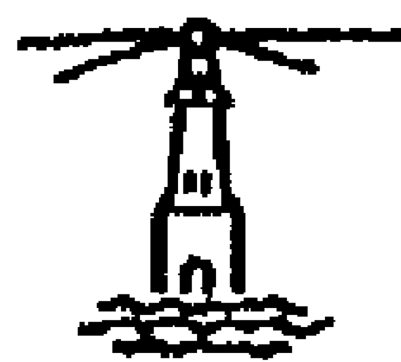
[٦٤١]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور عبد الله الأشعل

المسلمون والنظام العالمى الجديد



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهداء

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا
وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ، إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

صدق اللَّهُ العظيم

مقدمة

يعانى العالم الإسلامى من مشكلات جمة ويسعى إلى تسوية هذه المشكلات بالطرق السلمية وتنقسم هذه المشكلات إلى ثلاثة أقسام: **الأول** يضم المشكلات التى تعاني منها الدول الإسلامية بداخلها وتثقل بذلك حركتها، والقسم الثاني يتضمن المشكلات التى تقع بين الدول الإسلامية بعضها البعض فتعكر صفو العلاقات الإسلامية وتتطلب تسوية هذه المشكلات بالطرق السلمية تفاديًا للصدام بين هذه الدول. وأما القسم **الثالث** فيشمل المشكلات التى تثور بين الدول الإسلامية والدول غير الإسلامية بسبب القضايا غير الإسلامية أو الأقليات الإسلامية التى تعيش فيها. وقد كان ضروريًا أن نحدد مفهوم القضية الإسلامية المعاصرة حتى يمكن انتقاء عدد منها وفق معيار معين لمعالجتها. ولما كانت معالجة القضايا الإسلامية ومتابعتها تتم بشكل متناثر قد تفلت تفاصيلها من القاعدة العامة فقد رأينا تقديم هذه الباقة من القضايا الحيوية بأسلوب مبسط وبطريقة شاملة تعطي فكرة دقيقة وعامة عن المشكلة من وجهة النظر الإسلامية آملين أن يكون لهذا الجهد ما يساعد على توضيح القضايا الإسلامية المعاصرة للقارئ العام والمتخصص على السواء.

ولا شك أن الاختيار بين هذه القضايا أملته ضرورات عملية وهو المنهج الذى سار عليه كل الكتاب من الفقهاء والباحثين منذ أقدم العصور ومثال ذلك مسائل الإمام أحمد بن حنبل والقضايا الكبرى في الإسلام وهو عنوان

تكرر كثيرا لعدد من المؤلفين القدامى روعى فيه منهج الانتقاء سواء انصب البحث على قضايا تاريخية أو مسائل اعتقادية.

ونحن نطمع أن نثير بهذه الدراسة الموجزة اهتمام القارئ المسلم بقضايا أمته والتحديات التى تواجهها وهى تستشرف القرن الحادى والعشرين وبداية الألفية الثالثة.

د. عبد الله الأشعل

القاهرة في أول مارس ١٩٩٩

الفصل الأول

تحولات النظام الدولى ومفهوم القضايا الإسلامية

تواتر الحديث عن «الهموم الإسلامية» مع تزايد الخلافة العباسية فى مرحلتها الثانية وخاصة عندما بدأ عصر التراجع فى القرن الخامس عشر فى أطراف الدولة الإسلامية خاصة الغربية فى الأندلس وشبه جزيرة أيبرية. وكان المصطلح يعنى فى البداية، فى بدايات القرن الثالث عشر، الاحتلال الصليبى لبيت المقدس فى إطار الحملة الصليبية الممتدة منذ نهايات القرن العاشر والتى تراجعت بعد هزيمة الصليبيين فى حطين والمنصورة ثم تأججت بحركة الاسترداد Reconquesta الصليبى فى الأندلس التى أسلمت فكريًا وتاريخيًا لميلاد الاستعمار الغربى على قاطرة حركة الكشوف الجغرافية، وليس صدفة أن تنهار الحصون الإسلامية فى الأندلس فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأن يطارد ملوك قشتالة[1] والبرتغال فلول آخر الأمراء المسلمين عبر المتوسط إلى المغرب وأن يطلقوا على المسلمين فى المنطقة «المورز» Moores وهو نفس الاسم الأسبانى الذى أطلقه الأسبان على مسلمى الفلبين، وهى صفة تحمل معنى الانكسار والهزيمة والتخلف والبربرية والبؤس، وهى حينذاك صفة مستهجنة كريهة تأنف الشعوب أن تلحق بهم.

---

(١) تشمل أسبانيا والبرتغال.

وعلى الجانب الآخر ولدت الدولة العثمانية معاصرة لميلاد الإمبراطوريا الروسية الأرثوذوكية، فتمضى الإمبراطورية الإسلامية تتابع ما ارتضا بعض المؤرخين حركة الفتوح الإسلامية جنوبًا وغربًا حتى أبواب فيينا وتتوقف حركة الفتوح فى منتصف القرن الخامس عشر، وهى نفس الفترة التى تجددت فيها الروح الصليبية فى أوربا، وهدفها هذه المرة غزو العالم الإسلامى، ووقف زحف الدولة الإسلامية، ومهاجمة الدولة الإسلامية الشيعية الصفوية بل واستئناسها في إيران ثم تدبير الوقيعة والفتنة بين قطبى العالم الإسلامى طهران والآستانة آنذاك، والسعى إلى تدمير الدولة العثمانية فى جهازها الحاكم فى العاصمة، وتقطيع أوصالها فى الأقاليم المفتوحة. ثم تستدير الإمبراطورية الروسية لابتلاع الشعوب الإسلامية فى آسيا الوسطى فى نوبة ثالثة والضغط على أعصاب الدولة العثمانية ومحاربتها ومناهضتها وتفتيت قواها حتى تنطلق الأساطيل الروسية عبر البوسفور والدردنيل إلى المتوسط.

وقد لوحظ أيضًا التعاصر بين هجمات المغول من الشرق على مقر الخلافة فى بغداد فى الوقت الذى هاجم فيه الصليبيون بشدة الشام ومصر، وأن يتحقق الانتصار الإسلامى المتقارب فى حطين ضد الصليبيين وفى عين جالوت ضد المغول.

وهكذا تمثلت هموم العالم الإسلامى فى هذا الوقت المبكر ليس فقط فى الدسائس والمؤامرات بين عروش أوطانه، وإنما فى تراجع اندفاعه ثم العمل على غزوه وطمس هويته وإرجاعه إلى عصور الظلام.

ولعل جمال الدين الأفغانى هو أبرز من قدم تنظيرًا بسيطًا للقضية الإسلامية التى تلخصت فى تخلف الشعوب الإسلامية وتدهور وعيها

وتفرقها وسطوة الاستعمار أو تآلبه بها وتكالبه عليها، فاقترح حلا لكل ذلك «الجامعة الإسلامية» التى يرتبط أعضاؤها بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وما أعقب ذلك من نداءات النهضة الإسلامية.

ولا شك أن وجود الدولة الإسلامية ونشأة التيارات الإسلامية فى أرجائها قد أكسبت مفهوم القضية الإسلامية طابعًا خاصًا بحيث صار كل شر يلحق الدولة العلية نكبة إسلامية مثلما صار كذلك كل هزيمة غربية لجيوشها سواء فى البلقان أو ضد الروس أو فى طرابلس ١٩١١م.

ولم يكن التيار الوطنى العلمانى الذى يعتبر تركيا دولة استعمارية يشاطر التيار الإسلامى هذه الرؤية، مما أدى إلى نشأة مفهوم خاص للقضية الإسلامية، فضاق المفهوم وارتبط بالإسلام أكثر من ارتباطه بعموم المسلمين. وكثيرًا ما أوقع هذا التناقض الحرج فى صفوف الحركة الوطنية المصرية التى ناصرت تركيا ضد بريطانيا ثم فجعت بإلغاء الخلافة وتبنى العلمانية فانقلب أتاتورك البطل المسلم الذى رفعه أحمد شوقى إلى مرتبة خالد بن الوليد فى معارك الترك ضد القوات الأوربية فى الأناضول فى نهايات الحرب الأولى وما بعدها، بقوله «الله أكبر كم فى الفتح من عجب: يا خالد الترك جدد خالد العرب» تحول خالد الترك إلى زنديق مرتد تاجر بمشاعر المسلمين وابتز عواطفهم وأطاح بقبلتهم فاستحق اللعنة فى كل صلاة. وكان إلغاء الخلافة هو النكبة الإسلامية الكبرى حينذاك. ولعلنا نذكر أن احتلال مصر وتونس ثم ليبيا والمغرب قد نظر إليها فى إطار العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى منذ الحروب الصليبية واعتبر موجة متجددة للهجمة الصليبية على الديار الإسلامية، مثلما اعتبرت المواجهات بين الفرنسيين والسوريين فى ميسلون ثم احتلال سوريا نكبة

عربية وهَمًّا إسلاميًا بل اتسمت حادثة دنشواى فى مصر فى بعض الأوساط بالثنائية: الإسلامية الصليبية.

ولا شك أن احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ ثم الصراع العربى الإسرائيلى قد فسر أيضا تفسيرًا دينيًّا، بحيث خلص التيار الإسلامى إلى أن قيام إسرائيل هو امتداد للحركة الاستعمارية الاستيطانية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا الصراع هو الفصل الجديد من الصراع القديم بين المسلمين واليهود منذ العصر النبوى، وأن موقف المسلمين من اليهود يجب أن يرتكز على سياسات الرسول ﷺ إزاء غدرهم، وموقف القرآن الكريم – وفق تفسير معين – يقوم على أن الصراع حتمى وقدرى، ولكنه محسوم وفق الرواية القرآنية. وهكذا اعتبر الصراع العربى الإسرائيلى قضية إسلامية خاصة وأن قبلتها القدس الشريف التى جمعت ولخصت كل رموز الصراع بين المنطقة والطامعين فيها. ومن أجل الدفاع عن هذه القضية نشأت أصلاً منظمة المؤتمر الإسلامى، التى أكدت فى ميثاقها تكريسها لهذه القضية إلى جانب بقية القضايا الإسلامية الأخرى، كما اعتبرت جدة مقر المنظمة المؤقت إلى أن يأذن الله بتحرير القدس الشريف لتصبح مقر المنظمة الإسلامية.

ولعلنا نذكر أيضا أن المؤتمر الإسلامى هو الثالث فى سلسلة ظاهرة المؤتمرات الإسلامية التى استنهضها قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة الإسلامية حيث انعقدت سلسلة المؤتمرات الإسلامية فى القاهرة ومكة المكرمة ثم مؤتمر القدس ١٩٣١ ليبحث المشكلة الفلسطينية فى مرحلة هامة فى المشروع الصهيونى باعتبارها مشكلة إسلامية، وانتخب الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين رئيسا للمؤتمر.

ولقد عالجت قضية الصراع العربى الإسرائيلى فى دراسة بعنوان أصول التنظيم الإسلامي الدولى صدرت بالقاهرة عام ١٩٨٨ على أنها قضية إسلامية عند نقطة معينة وهى تحولها من قضية عربية قبل ١٩٦٧ إلى قضية إسلامية باحتلال إسرائيل للقدس الشرقية، مع العلم أن القدس الغربية احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨ دون أن يتحدث عنها أحد، ربما لأن الأردن وإسرائيل قد اقتسما القدس حينذاك، بحيث أصبحت القدس الشرقية امتدادًا للضفة الغربية التى اتحدت مع الضفة الشرقية مكونة المملكة الأردنية الهاشمية، وربما لأن القدس الشرقية هى مهد المقدسات وهى لذلك أكسبت الصراع مسحته الدينية.

ومن الممكن أن نتصور عدة معايير لتحديد ما هى القضية الإسلامية. المعيار الأول الذى يقوم على اتصال القضية بدولة إسلامية، وبذلك تصبح القضية الإسلامية هى تلك التى تكون دولة إسلامية أو أكثر طرفًا فيها، سواء كان الطرف الآخر مسلمًا أو غير مسلم. ومثالها الحرب العراقية الإيرانية والغزو العراقى للكويت، حيث الأطراف إسلامية، وتؤدى هذه الصراعات إلى ضعف مجمل مقدرات العالم الإسلامى بل وتحقيق استفادة غيره على حسابه فيما تحتاج شعوب إسلامية أخرى ما تهدره هذه الصراعات من أموال وما تفوته من فرص للتنمية والتقدم. بل إن معاناة الشعب العراقى بسبب سياسات قيادته أصبحت مأساة إسلامية وأفتى شيخ الأزهر بأن إعانة هذا الشعب تصح من زكاة المسلمين، وحيث استغلق حل هذه المأساة.

وبهذا المعيار أيضا يعتبر الصراع السياسى الإيرانى الأمريكى قضية إسلامية، كما يعد رفض فرنسا الجلاء من جزيرة مايوت فى جزر القمر،

والأقليات الإسلامية في دول غير إسلامية كالفلبين والصين وروسيا وغيرها قضايا إسلامية.

فإذا اعتبرنا كل نزاع بين دول إسلامية قضية إسلامية، فذلك يستجيب لهاجس الخوف على تمزق العلاقات الإسلامية. ولكن الأخذ بهذا المعيار سوف يوسع قائمة القضايا الإسلامية، وإن ضيق مفهوم القضية الإسلامية. أما إذا صارت كل مشكلة بين أى دولة إسلامية أو بين أقلية إسلامية وحكومتها غير الإسلامية قضية إسلامية، فقد يحدث ذلك قطيعة متصلة بين عموم العالم الإسلامي والدولة الأجنبية طرف المشكلة مع الطرف الإسلامي، وهذه نظرة غير موضوعية تضعف مصداقية الموقف الإسلامي دوليا وتخلق استقطابا بين المسلمين وغيرهم، فضلاً عن أن هذه نظرة غير واقعية لا تنسجم مع ما يحدث بالفعل حيث لكل مشكلة معطيات معينة تحكم مواقف الدول الأخرى منها. وليس التصنيف بسيطًا وآليًا وسهلاً كما يوحي به ظاهر هذا المعيار. وربما تحفظنا في شأن قضية العلاقة بين الأقلية الإسلامية وحكومتها غير الإسلامية أو دولتها التى تعيش فيها غير الإسلامية، حيث يختلف الأمر من حالة لأخرى كما سنرى عند عرض قضايا الأقليات الإسلامية.

وقد اعتقدت أندونيسيا عام ١٩٧٥ أن قضية تيمور الشرقية قضية إسلامية ضد دولة غير إسلامية وهى البرتغال فعرضت القضية على مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي السابع في إسطنبول في مايو ١٩٧٦ الذى اكتفى بالإشارة إليها في بيانه الختامي صارفا النظر عن أطرافها

أوموضوعها*، وأمام تعقد معايير المشكلة الإسلامية لا مناص من اللجوء إلى معيار تعسفي، بحيث تكون المشكلة الإسلامية هي ما تعتبره الدول الإسلامية كذلك. وهو تعريف يتخطى كافة التقسيمات الجغرافية والسياسية، كما أنه يتسم بالمرونة حيث يخضع لما تقرره عموم الدول الإسلامية وبناء على هذا المعيار حددنا عددًا من القضايا التي ينطبق عليها هذا التعريف والتي لا نظن أن هناك خلافًا كبيرا بين الكتاب على اعتبارها كذلك وهذه القضايا هي القدس الشريف، وقضية البوسنة والهرسك والمشكلة الأفغانية خاصة في مرحلة الحرب الأهلية ومشكلة الشيشان رغم أن الشيشان يمكن بالمعيار الثاني أن تعد من الأقليات الإسلامية، ثم قضايا الأقليات الإسلامية الكبرى في مختلف الدول غير الإسلامية والمشكلة القبرصية من زاويتها الإسلامية ثم أضفنا قضية نحسب أن المعيار ينطبق عليها ولكنها ليست محل إجماع الكتاب، ولعلها تعالج لأول مرة في هذا السياق، وهي المشكلة الكردية. ثم أضفنا مشكلة كشمير رغم أنها يمكن أن تعد من قضايا الأقليات الإسلامية، ولكنها تتمتع بخصوصية تبرر أن نفرد لها معالجة خاصة، وأخيرًا مشكلة كوسوفو. وأخيرًا بدا لنا أن الإرهاب الدولي قد ارتبط بالإسلام ومن ثم صار لزامًا

(*) توشك مشكلة تيمور على التسوية إما بالإستقلال أو بالحكم الذاتي تحت إشراف الأمم المتحدة، وقد أصبح هذا الحل ممكنا منذ إعلان أندونيسيا في أوائل فبراير ١٩٩٩ تخليها عن موقفها السابق بضم الإقليم، تحت وطأة الإنهيار السياسي والإقتصادي الذي شهدته طوال عام ١٩٩٨ وانتهى بسقوط نظام سوهارتو وتولي الرئيس حبيبي بدلا منه.

على الأقلام الإسلامية أن تناقش هذه القضية بوصفها تهم عموم المسلمين وفقًا للمعيار الذى اخترناه فى هذا الصدد.

ومما يذكر أن جداول أعمال المؤتمرات الإسلامية قد حفلت بالقضايا التى تؤثر على الدول الأعضاء، وعلى علاقاتها فيما بينها. وليس معنى ذلك أن هذه القضايا قد أصبح لها طابع إسلامى بمجرد إدراجها على جدول الأعمال، بل إن الاعتراف لها بالطابع الإسلامى أو لبعضها قد يضر القضية ذاتها. ومثال ذلك، فإن جزر القمر قد أصرت على أن يظل على جدول أعمال المؤتمرات الإسلامية بند دائم يتعلق بجزر مايوت القمرية وهى الجزر التى رفضت فرنسا الجلاء عنها بعد استقلال جزر القمر وظلت قرارات المنظمة الإسلامية تطالب فرنسا بالرحيل، بينما تعقد الموقف فى يوليو ١٩٩٧ عندما تزعم عبد الله إبراهيم حركة فى جزر مايوت تطالب بالإبقاء على الوجود الفرنسى، بل والزحف لإسقاط حكومة جزر القمر، مما خلط الأوراق وأحال الموقف فى البلاد إلى حرب أهلية ليس من الصعب أن نتبين ما يجب أن يتبع من مواقف فيها، وهى التأكيد على استقلال البلاد وحريتها فى تقرير النظام الذى ترتضيه وجلاء القوات الأجنبية عن كامل أراضيها ورفض الانفصال. والطريف أن فرنسا رفضت دعوة انفصالية أخرى تركزت فى جزيرة أنجوان القمرية.

أما أزمة الخليج فقد اعتبرت مشكلة إقليمية واسعة النطاق ليس لها أى طابع إسلامى وهى ببساطة احتلال دولة لدولة أخرى بذرائع مختلفة لا يقبلها منطق التعامل الدولى الراهن. غير أن العراق الذى حاول تشتيت الانتباه وخلق تقاطعات متعددة كسبًا للوقت، وحرصًا على تمزيق المعارضة

للاحتلال قد رفع الراية الإسلامية وصور الأمر على أنه صراع بين معسكر الإسلاميين وغير الإسلاميين. وامتد الانقسام على هذا النحو داخل الدول العربية والإسلامية، وكأن غزوه للكويت هو قمة الجهاد، ومن فروض الشريعة، وأن زحفه لتحرير فلسطين والقدس يجب أن يمر لا محالة بابتلاع الكويت. والغريب أن الراية الإسلامية التى رفعها العراق قد انطلت على كثيرين وأدت إلى انقسام الموقف الإسلامى انقسامًا مخزيًا، وأظهرت تصدعًا مخيفًا فى موازين الحكم فى العقل العربى والإسلامى تمامًا مثلما كان الصراع بين إيران والعراق الذى زعمت فيه إيران أنه صراع بين الحق الذى تمثله إيران والباطل الذى يمثله العراق أو بين الإسلام والكفر. كما أن العراق بدوره قد صور الصراع على أنه صراع بين العراقيين المسلمين الخلص وبين المجوس عبدة النار والشمس الوثنيين، وادعى الإعلام العراقى أن إيران الوثنية قد دخلت الإسلام دخول المنافقين، وأنها لم تتألف قلوبهم للإسلام فانتهزت الفرصة تلو الأخرى للنيل من المسلمين فى العراق. وكلا الحجتين تافهة وضارة بمجمل القضايا الإسلامية. وكانت النتيجة أن عانى العالم الإسلامى من أضرار حرب طويلة أضعفت مركزه وقضاياه ودعاواه كما أضاعت عليه ثروات كان الأولى أن تبذل فى تنمية مجتمعاته الفقيرة. وأخيرًا فلابد من الإشارة إلى أن المضمون الإسلامى للدعاية العراقية إبان الاحتلال العراقى للكويت لم يغفل عن التأكيد على الأصول الإسلامية القريبة من آل البيت للزعيم العراقى، وكذلك شعار العدل الاجتماعى بين فقراء العالم وأغنيائه الذى بشر به الإعلام العراقى وبث الكثير من الآمال الزائفة وأثار الكثير من النفوس المتعطشة لهذه المعانى النبيلة.

كذلك تناولت المؤتمرات الإسلامية الخلاف الإقليمى بين ليبيا وتشاد الذى بدأ فى منتصف الثمانينات، وانتهى بحكم لمحكمة العدل الدولية عام ١٩٩٤ لصالح تشاد. ولا يجوز أن يستدل من معالجة هذه القضية فى المؤتمرات الإسلامية على أنها قضية إسلامية؛ ذلك أن هذه القضية قد بحث لها أطرافها عن إطار للتسوية يناسب كل طرف، وقد لا يناسب الآخر، وانتهى الأمر بإدراجها فى المؤتمرات الإسلامية. ولم يكن ممكنًا حلها إلا باتفاق طرفيها بقدر من الشجاعة على الفصل فيها قضائيًّا عن طريق محكمة العدل الدولية.

وأخيرًا تجدر الإشارة إلى أن الصراع المتعدد الأبعاد الذى نال كلاً من الجارين المسلمين موريتانيا والسنغال قد حاول هو الآخر أن يجد طريقه إلى محفل مناسب، ولكن حساسية الخلاف بين دولة عربية وأخرى إفريقية حال دون نظره فى الجامعة العربية أو فى منظمة الوحدة الأفريقية خوفًا من تزايد حدة الخلاف بين العروبة والأفريقانية، كما لم يكن مناسبًا أن يسوى الخلاف فى منظمة المؤتمر الإسلامى، رغم أنه خلاف بين طرفين مسلمين أعضاء فى المنظمة، لاعتبارات عملية، كما أن الخلاف فى إطار الأمم المتحدة كان محوطًا بالكثير من التداعيات ولذلك نجحت الوساطات الثنائية بعيدًا عن المنظمات الإقليمية فى تسويته ودون أن يلتصق به وصف الإسلام أو القضية الإسلامية.

الفصل الثانى

المشكلة الكردية

لأول مرة عمدنا إلى اعتبار المشكلة الكردية مشكلة إسلامية ولو لم يطلب أحد عرضها على منظمة المؤتمر الإسلامى أو غيرها. وأسباب اعتبارها مشكلة إسلامية كثيرة أولها أنها تخص الشعب الكردى المسلم، الذى ينتسب إليه صلاح الدين الأيوبى صاحب حطين واسترداد بيت المقدس، وثانيها أن الأكراد يتوزعون بين دول إسلامية أساسًا وهى تركيا وإيران والعراق وسوريا(*)، وثالثها أن المجتمع الدولى صار يستخدم الورقة الكردية على الوجه الذى يخدم مصالح بعض دوله. فأكراد العراق اكتشف الغرب فجأة أنهم ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان التى ترتكبها حكومة بغداد فقط بعد غزو العراق للكويت واستصدر مجلس الأمن القرار ٦٨٨ فى أبريل ١٩٩١ لتزويدهم بالمعونات ثم توسع فى تفسير القرار فجعله أساسًا لشل يد حكومة بغداد عن أكراد العراق فى الشمال وعن شيعته فى الجنوب بإنشاء مناطق حظر الطيران شمال خط العرض ٣٦ شمالاً والخط ٣٢ جنوبًا، ثم عدل فى سبتمبر ١٩٩٦ ليبدأ بالخط ٣٣ جنوبًا. ولنفس السبب، أى مناهضة حكومة بغداد كهدف أساسى. اجتهدت الولايات المتحدة فى ضم صفوف الأكراد العراقيين ووقف القتال بين حزب الاتحاد الديمقراطي وبين الحزب الوطنى الديمقراطى حتى يتفرغا لمهمتين الأولى تأكيد استقلالهم عن بغداد والثانية التعاون مع القوات التركية ضد حزب العمل الكردى التركى. على الجانب الآخر

(*) يوجد أكراد أيضا بنسبة أقل فى روسيا.

يعاون الغرب تركيا فـى تعقب أكرادهـا حتـى داخـل الأراضـى العراقيـة وسبب التمييز وتغير المواقـف وعـدم الالـتزام مـن جـانب الغـرب بموقـف موحد إزاء قضايا حقوق الإنسان هو أن الغرب الذى ساند العراق وحرضـه على مهاجمة إيران عام ١٩٨٠ قـد أغمـض عينيـه عـن ممارسـات بغـداد البربرية ضد الأكراد مثلما اتخذ موقفًا مماثلاً إزاء أكراد إيران طـوال حكـم الشاه عندما كان الشاه يعتمد سياسة القمع والإبادة لأكراد إيران. ولقد بلغ الغرب بموقفه من استغلال مآسى الشعب الكردى واللعب بورقته لأغراض سياسية لا تعدم فى كل مرة غطاء أخلاقيًا أو قانونيًا متهالكًا حدًا لا يمكن إغفاله، وآخر هذه المواقف مساعدة واشـنطن لتركيـا علـى اعتقـال زعيـم حزب العمل الكردى عبد الله أوجلان يوم ١٩٩٩/٢/١٨ بعد تـردده علـى روسيا وإيطاليا واليونان منذ خروجـه مـن سـوريا فـى أواخـر عـام ١٩٩٨ بضغط هائل من تركيا.

أما الشعب الكردى فقد عانى داخل الدول الإسلامية ما لم تعانيه أيـة أقلية إسلامية فى دول غير إسلامية رغم أنه يشكل نسبًا عالية من مجموع السكان حيث يشـكل حـوالى ١٥٪ مـن سـكان إيـران، و٢٥٪ مـن سـكان العراق وتركيا وبضعة آلاف فى سـوريا، ويصـل مجمـوع الشـعب الكـردى حوالى أربعين مليونا*.

(*) تصل به بعض التقديرات إلى ٢٣ مليونا بينما ترفعه تقديرات أخـرى إلى خمسين مليونا، وأسباب اختلاف التقديرات واضحة وتتمثل فى عدم وجود إحصـاء رسمى فى الدول المضيفة للأكراد، وتضارب المصالح السياسية فى الـدول الثـلاث ورفعها أو خفضها لأعدادهم حسب المواقف والظروف.

وتتلخص مشكلة الشعب الكردى المسلم المتميز فى ثقافته ولغته أن بعض غلاته يطمحون فى إقامة دولة لهم تضم شتاتهم، ولكن هذه المحاولات فشلت فى كل مرة لاعتبارات تتعلق بعلاقات القوة فى هذه المنطقة الحساسة فقضت الأقلية الكردية فى كل دولة بالاندماج فى المجتمعات التى تعيش فيها مع المطالبة بأن يكون لها شىء من التميز أو الحكم الذاتى داخل الدولة أو يعترف على الأقل بهويتها الثقافية المختلفة ضمن أعراق الدولة. ولكن هذا الهدف لاقى صعوبات كبيرة، وتعرضت هذه الأقلية للإبادة بصورها المختلفة في هذه الدول، إما لسحق مطالبها أو لتشتيت تواجدها الإقليمى فى مناطق استراتيجية مثل العراق، أو لدمجها بالقوة فى الولايات والمحافظات. غير أن محاولات الحكم الذاتى الكردى فى العراق كادت تنجح عام ١٩٧٢ لولا الصراعات الكردية وانقسام طوائف الجالية وأحزابها ثم استغلال إيران لهم ضد العراق، مما اضطر العراق إلى توقيع اتفاقية الجزائر فى مارس ١٩٧٥ التى تنازل العراق بموجبها فى شط العرب لإيران مقابل وقف إيران مساندتها لأكراد العراق الذين استفحلت قوتهم ضد الجيش العراقى.

وهكذا أصبح الأكراد ورقة فى صراعات دول المنطقة مثلما استغلهم الغرب فى مواقفه ضد النظم القائمة أو لصالحها. ففى العلاقات الإيرانية العراقية تصدرت مشكلة أكراد العراق قائمة الخلافات بين البلدين فى فترات مختلفة، حيث ساندت إيران الشاه أكراد العراق ضد حكومة بغداد فى وقت واجهت فيه بغداد تحديات من التيارات الشيوعية داخل الجيش وتنامى قوة الأكراد العسكرية. والراجح أن علاقات بغداد مع الاتحاد السوفيتى (السابق) كانت أحد عوامل ودوافع طهران لإزعاجها

بالورقة الكردية. ويبدو أن هذه الورقة نجحت فى إرغام بغداد على تقديم تنازل جوهرى فى شط العرب لإيران كما حذرت بغداد بأن هناك قيودًا على حركتها خاصة وأن الأكراد يشكلون نسبة عالية من سكان العراق.

والمحقق أن بغداد حاولت استخدام أكراد إيران أيضا للضغط على طهران عند احتدام الصراعات بينهما خاصة بعد عام ١٩٧١ وتجدد صراع البلدين هذه المرة حول وراثة بريطانيا فى الخليج، مثلما حاولت بغداد استخدام هذه الورقة ضمن الحلقة العربية المناهضة لمواقف إيران الشاه المؤيدة لإسرائيل قبيل عام ١٩٦٧، والمناهضة للسياسات الإيرانية التوسعية فى الخليج إبان العصر الاستعمارى البريطانى منذ ثورة العراق ١٩٥٨، خاصة وأن طهران وبغداد كانتا دعامة حلف بغداد فى سلسلة الأحلاف المضادة للمد الشيوعى فى المنطقة فى ذلك الوقت.

وفى العلاقات التركية العراقية: لا يبدو أن العراق أمكنه استخدام أكراد تركيا للضغط على حكومتها لتقديم بعض التنازلات فى مجال مياه نهر الفرات الذى تتحكم فيه تركيا، ولكن العراق منذ أزمة الخليج وانحسار سيطرته على شمال أراضيه يعانى من حملات تركية مكثفة تجتاح أراضيه تعقبا لحزب العمال الكردى. ورغم احتجاج العالم العربى والاتحاد الأوروبى على هذه الانتهاكات، فالثابت أن واشنطن تساند العمليات التركية، كما تساند مساعى تركيا لضمان تعاون الاتحاد الوطنى الديمقراطى معها ضد حزب العمل الكردى. وقد اكتسبت المعارضة للعمل التركى أبعادا خاصة فى ضوء عدد من الاعتبارات الواضحة أولها أن

هناك شبهة فى أن تركيا تمهد لضم بعض الأقاليم العراقية حيث نسب إلى زعمائها حديثهم عن تبعية الموصل لتركيا، وأضعف مثل لهذه الاحتمالات أن تعمد تركيا إلى إنشاء منطقة أمنية فى الأراضى العراقية لضمان أمن حدودها بعد أن ضعفت سلطة الدولة العراقية فى المنطقة بعد إنشاء مناطق حظر الطيران العراقى. وثانى هذه الاعتبارات هو التعاون العسكرى المتنامى بين تركيا وإسرائيل الذى تباركه وتدعمه واشنطن وهو قطعا ضد المصالح العراقية والعربية، وهو مرتبط بما يجرى فى تركيا من صراع بين التيار الإسلامى والتيار العلمانى الذى يحميه الجيش ولا تمانع واشنطن فى تدخله عسكريًا إذا اقتضى الأمر خلافًا لمواقفها أحيانًا من دور الجيش فى الحكم. أما ثالث هذه الاعتبارات فهو أن التصرفات التركية المدفوعة أصلاً بالحاح مشكلة الأكراد لديها وبسعيها للاندماج فى شبكة التحالفات والمصالح العربية، هذه التصرفات تهدد بإنشاء أحلاف مضادة فى المنطقة وتدخل المنطقة فى دوامة من عدم الاستقرار وربما تؤدى إلى المواجهات العسكرية بدلاً من التعاون.

والأكراد قضية أولية أيضا فى العلاقات السورية التركية حيث تتهم أنقرة دمشق بمساندة حزب العمال وبمنحه المساندة الإقليمية والتدريب ضمن محاولة سوريا الضغط على تركيا لتنفيذ التزاماتها فى مياه نهر الفرات، وتنكر سوريا ذلك. ولاشك أن تركيا مستعدة للتعاون الأمنى مع سوريا بما يؤمن الحدود السورية التركية من مخاطر حزب العمال التركى. وقد توترت العلاقات التركية السورية طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٩٨ وهددت تركيا بالعمل عسكريا ضد سوريا مادام عبد الله أوجلان زعيم الحزب الكردى فى أراضيها وتدخلت مصر لحل المشكلة وبدأت

محادثات التعاون الأمنى بين البلدين بعد رحيل أوجلان إلى روسيا ثم ترحيله منها رغم موافقة البرلمان (الدوما) على منحه اللجوء السياسى.

وطبيعى أن المشكلة التركية التى ينظر إليها فى المنطقة على أنها مشكلة عرقية لم تكن معروفة منذ نشأة الدولة الإسلامية الكبرى وعاصمتها دمشق ثم بغداد لأن الرابطة الإسلامية هى التى شدت هذه الأقاليم إلى عاصمة الخلافة فلما نشأت الدول الحديثة فى المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى بدأت المشاكل العرقية فى الظهور، ولكن المشكلة كانت مشكلة داخلية فى هذه الدول جميعًا ولم تعرف أبعادها الإقليمية حينذاك.

والطريف أن مؤتمرات الصلح عقب الحرب العالمية وتركيزها على حماية الأقليات لم تعرض لهذه الأقلية الإسلامية واهتمت بالأقليات المسيحية داخل الدولة العثمانية سعيًا إلى تفتيتها.

وتعتبر المشكلة الكردية أحد مؤشرات تغير السياسات العالمية التى أعطت الأكراد أحيانًا آمالاً كاذبة تحت شعار تقرير المصير، ثم اقتضت المصالح الدولية فى المنطقة رفض إقامة دولة كردية وإنما اكتفت باللعب بالورقة الكردية وأوجهها وأقسامها ووفق تغير هذه المصلحة.

كذلك عانى الأكراد من تغير السياسات الوطنية داخل الدول التى يعيشون فيها. وهى لهذا السبب اعتبرت أساسًا مشاكل داخلية لم تعرف طريقها إلى المؤتمرات أو المنظمات الدولية، ومن باب أولى لم يكن ممكنًا عرضها على منظمة المؤتمر الإسلامى حتى فى أحلك لحظات الصراع بين العراق وإيران. ونحن إذ نعرض المشكلة ضمن معاناة الشعوب الإسلامية فإنها لا تصلح للعرض على أى منظمة دولية للاعتبارات السابق ذكرها، كما لا نحبذ ذلك، ولكننا رأينا أن الدول الإسلامية التى يجب أن تعنى

بشئون الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية هى أولى بحل مشاكل أقلياتها الإسلامية بمساعدة العالم الإسلامى وذلك على الأسس التالية:

١ – ارتبطت المشكلة الكردية داخل كل بلد تعيش فيه بظروفه التاريخية والاجتماعية. ولذلك فالأكراد جزء من شعوب هذه الدول، ومن المصلحة تعدد الأعراق والمواريث الثقافية فى الشعب الواحد مع ضرورة التمشى مع الآمال الثقافية لهذه الأقلية ضمن الوحدة الكبرى للوطن الأم.

٢ – ضرورة فصل الشعوب الكردية فى دول هذه المنطقة عن ألاعيب السياسة وتعقيدات العلاقات الإقليمية والكف عن استخدام الورقة الكردية ضمن صراعات المنطقة سواء كان الاستخدام من جانب دول المنطقة أو من دول أخرى خارجها.

٣ – أن التوافق بين أبناء الشعب الكردى فى دول المنطقة لا يجب أن يكون على حساب السلامة الإقليمية والانسجام الاجتماعى لشعوب هذه الدول، ومن الخطر التسليم للشعب الكردى بقيام وحدة سياسية تبدأ بها فصلاً جديدًا من المشاكل بدلاً من حلها.

٤ – إجراء دراسة موضوعية متعمقة حول العلاقة بين فشل جهود تسوية المشكلة الكردية وطنيًا، وبين مراحل تطور الدول التى يقيم فيها الأكراد وتطور علاقاتها الخارجية، واعتبار هذا العمل من مهام المنظمات الإسلامية التى تنهض بها بالتعاون مع الدول الإسلامية المعنية دون حرج حرصا على جزء هام من شعوب هذه الدول التى تهدده التطورات التى تشهدها المنطقة بالإبادة والإفناء، ولا يعقل أن يهب الغرب بعقليته التمييزية التى أشرنا إليها بحجة حماية حقوق هذه الأقلية فيضيف إلى

مآسى هذا الشعب ما لم يعد بطاقته تحمل المزيد منها. ذلك أن تركيا يهمها التحالف مع أكراد العراق بعد التوفيق بينهم لمساعدتها على تصفية أنشطة حزب العمال الكردى فى شمال العراق.

وأخيرًا: فلاشك أن اهتمام الدول الإسلامية بمكافحة الإرهاب لهو من أوجه التعاون البناء، ونحسب أن بعضها مما تضع القضية الكردية فى مقدمة همومها ينصرف فهمها للإرهاب على أنه الإرهاب الكردى، بينما تراه دول أخرى تستخدم الورقة الكردية عملاً من الأعمال الهادفة إلى الحصول على حق تقرير المصير، أو فى الأقل دفاعًا شرعيًّا عن البقاء فى مواجهة بطش سلطات بعض الدول بهم. وهذه كلها مفاهيم يجب دراستها فى ضوء توصيات دراسة المشكلة الكردية أولاً فى الإطار الإسلامى فهو أولى الأطر دون غيرها بدراستها والخلوص إلى حل مرض لها.

الفصل الثالث

قضية القدس

لمدينة القدس مكانة خاصة عبر التاريخ منذ بناها اليبوسيون وأسموها ريبوس وهم بطن من بطون العرب الأوائل واستوطنوا المنطقة حوالى ٣٠٠٠ ق. م. ويشير «العارف» صاحب «تاريخ القدس» (دار المعارف – ١٩٩٤) إلى خضوع القدس تمامًا فى عهد تحوتمس الثالث ومن تلاه من الفراعنة لمصر. ثم انتقلت ريبوس من المصريين إلى الملك داود عام ١٠٤٩ ق. م ولكن سليمان عاهد المصريين وتزوج ابنة الفرعون ليأمن عدم مساندتهم لأهل يبوس ضده. وانقسم أبناء سليمان وتحاربوا فاستغل شيشاق فرعون مصر الفرصة واحتل أورشليم عاصمة يهوذا عام ٩٧٠ ق. م ثم غزاها الآشوريون ٧٢٦ ق. م أى أن بنى إسرائيل حكموا القدس ٧٩ عاما فقط قبل أن يمتلكها الفرعون .ة أخرى. ثم احتلها المكابيون ١٦٧ ق. م حتى ٣٧ ق. م عندما ا ننها الرومان. وقد احتل القدس ثم البابليون عام ٥٩٩ ق. م ثم الفرس عام ٥٣٨ ق. م ثم اليونانيون (الاسكندر) ٣٣٢ ق. م.

وإذا كانت القدس مقدسة على عهد داود وسليمان والمكابيين من رؤساء وملوك اليهود، فإن قدسيتها الإسلامية قد اتضحت بالإسراء والمعراج حيث أصبحت قبلة المسلمين بعد فرض الصلاة عليهم فى تلك الليلة المباركة، وحيث ورد ذكرها تكريمًا وتعظيمًا فى القرآن الكريم ﴿سبحَان الذِى أسْرَى بعبْدِه ليْلاً مِنَ المسْجِدِ الحرَامِ إلىَ المسْجِدِ الأقْصَى الَّذِى باركْنَا

حَوْلَهُ..﴾ والملاحظ أن الإسراء بالمسجد الأقصى تم فى وقت كانت القدس فيه تحت سيطرة الرومان.

ولما أبدى الرسول صلى الله عليه وسلم رغبة فى فتح بيت المقدس (إيلياء) من يد الرومان واصل الخلفاء الوصية فحاصرها عبيدة بن الجراح أربعة أشهر، فاشترط أهلها ألا يسلموا المدينة إلا إلى شخص الخليفة، فوافق عمر والتقى برهبانهم وكتب لهم «العهدة العمرية» وهى وثيقة الأمان لهم عام ١٥ هجرية، وأشهد عليها خالد بن الوليد وعبد الرحمن ابن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان، وأعطى أهل القدس لعمر عهدًا مقابلاً. وقد عمر كنيسة القيامة والهيكل وبنى المسجد فوق الصخرة المشرفة وضمت القدس إلى الشام فى عهد معاوية بن أبى سفيان ٦٤١ م حيث بنى عبد الله بن مروان مسجدى الصخرة والأقصى. ودخلت القدس ضمن فلسطين تحت حكم العباسيين، ثم استولى عليها الطولونيون ٨٧٨ م ثم الإخشيديون والفاطميون، وانتقلت بعد ذلك منذ القرن الحادى عشر إلى الأتراك السلاجقة، ثم الأراتقة (الأرتقيين) من التركمان. واحتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩ م واسترد فلسطين صلاح الدين بعد معركة حطين عام ١١٧٨م ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ، ثم استرد القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٩٢ هـ، ٢ أكتوبر ١١٨٧ م. وانتقلت القدس إلى مماليك مصر ثم إلى الأتراك العثمانيين، فإبراهيم باشا فالأتراك ثانية حتى دخلت فى الانتداب البريطانى مع بقية فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ثم احتل اللورد اللنبى القدس خلال الحرب الأولى، فأصبحت القدس هى الهدف الأول لحركة الاستيطان الصهيونية القائمة على الهجرة وشراء الأراضى والاستيطان.

وللقدس أسماء عدة سميت بها منذ عصر اليبوسيين، ولكن الراجح أن كلمة القدس عرفت منذ القديم، حيث ذكرها أبو العلاء المعرى في شعره عام ١٠٧٥ م «واخلع حذاءك إذ حاذيتها ورَعًا: كفعل موسى كليم الله في القدس». وذكرها العماد الأصفهاني عام ١٢٠٠ م وابن سرور المقدسي وابن اسحق المقدسي في تاريخ القدس (١٣٧٤). فالاسم معروف على الأقل منذ بداية الحكم الإسلامي وأضاف اسم القدس الشريف.

ويذكر «عارف العارف» أن مساحة القدس في أواخر عهد الانتداب البريطاني كان ١٩٩، ٢٢ كم² يملك العرب منها ٥٥,٣٤٪ واليهود ٢٥,٥٥٪ وللحكومة ٢,٧٧٪، والطرق والميادين العامة ١٦,٣٤٪. وكان عدد سكانها في هذا الوقت عام (١٩٤٧) ١٦٤ ألف نسمة منها ٦٥,١٠٠ ألف للعرب، ٩٩,٤ ألف لليهود.

وفي نهاية الحرب الأولى كان المسلمون ٢٦,٢٢٪ والمسيحيون ٢٤,٥٩٪ واليهود ٤٩,١٩٪، وفي نهاية ١٩٤٤ زادت نسبة اليهود إلى ٦٠,٤٤٪ على حساب المسلمين ٢٠,٤٥٪ والمسيحيين ١٧,٩١٪. ويذكر أنه عندما احتل صلاح الدين القدس عام ١١٨٧ كان سكانها ٤٤ ألفًا منهم ١٥ ألفًا من المسيحيين، وفي عام ١٨٠٠ ذكر السائح اليهودى بتاحيا أنه زار القدس وكان بها يهودى واحد. غير أنه في عام ١٦٧٠ كان اليهود ١٥٠ نفسًا ثم عاد المؤرخ سركيس وذكر أن القدس عام ١٨٩٠ بلغت نسبة اليهود فيها ٦٧,١١٪ بينما كان المسلمون ١٦,٨٨٪ والمسيحيون ١٦,٠١٪، وكان إجمالي سكانها ٤٥ ألفًا. وهكذا تغلبت نسبة اليهود على المسلمين والمسيحيين خلال حوالى مائتي عام، وهو وقت معاصر لنشاط الحركة الصهيونية الدينية والثقافية (انظر تفاصيل هذه الحركة وآثارها على فلسطين كتاب ريجينا الشريف «الصهيونية غير اليهودية» – عالم

المعرفة – ديسمبر١٩٨٥)، (انظر أيضا المقدسات المسيحية والإسلامية الكثيرة فى القدس وتواريخها فى «عارف العارف»: ص٢٣٩ وما بعدها).

وعندما تخلت بريطانيا عن انتدابها على فلسطين بعد أن أعدتها تمامًا خلال مرحلة الانتداب للمسعى اليهودى لإقامة الدولة العبرية، وتقرر تقسيم فلسطين وفق قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ فى ١٩٤٧/١١/٢٩، اعترض العرب ووقعت أول مواجهة مسلحة عربية يهودية عام ١٩٤٨ انتهت بوقف إطلاق النار وقيام الدولة العبرية ثم دخولها الأمم المتحدة. وكان الأردن قد ضم القدس الشرقية مع الضفة الغربية بينما استولت إسرائيل على الجزء المخصص لليهود فى قرار التقسيم بالإضافة إلى القدس الغربية، بينما كان يتعين قيام دولة عربية إلى جانب اليهودية، أما القدس بأكملها فتركت فى قرار التقسيم بوضع منفصل خاص لا يجوز المساس به لحين قيام اتحاد فيدرالى بين الدولتين العربية واليهودية وتقرير القدس عاصمة لدولة الاتحاد. فإذا كان احتلال إسرائيل للقدس الغربية يمثل أول خرق لقرار التقسيم بشأن القدس، فإن ضم الأردن للقدس الشرقية ١٩٥٠/٤٩ ضمن الضفة الغربية، واحتفاظ مصر إداريا بإدارة قطاع غزة كان من قبيل حرص مصر والأردن على الأراضى الفلسطينية من التهام إسرائيل لها، واحتفاظهما بهذه الأراضى أمانة فى أعناقهما لحين تحرير فلسطين، وهو تعهد قطعته الحكومتان على نفسيهما فى الجامعة العربية.

وفى عام ١٩٦٧ احتلت إسرائيل بقية الأراضى الفلسطينية بما فيها القدس الشرقية بالإضافة إلى أراض سورية ومصرية حيث ساومت إسرائيل بهذه المكاسب الإقليمية لفرض التسوية التى تناسبها.

ومنذ احتلال إسرائيل للقدس الشرقية عام ١٩٦٧ ظهرت أصوات في الكنيسيت تطالب بضمها إلى القدس الغربية واعتبارها عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل. وبينما كانت إسرائيل تفكر فيما يجب أن تتبع من سياسات إزاء الأراضى المحتلة اتجه فكرها منذ البداية إلى ضم القدس كلية. وبالفعل أصدر الكنيسيت عام ١٩٨٠ مرسوما بضم القدس واعتبارها عاصمة إسرائيل الأبدية وظل موقفها هكذا حتى الآن على الأقل من حيث السياسة العامة. وخلال الفترة من ١٩٦٧ حتى الآن عملت إسرائيل على تهويد المدينة المقدسة وتشجيع استيطانها من اليهود وتقليص الوجود العربى فيها وتغيير هويتها الحضارية والجغرافية والسكانية ثم محاولة فرض أمر واقع دولى بتشجيع نقل مقار البعثات الدبلوماسية إليها على أساس أن الدولة فى القانون الدولى تختار عاصمتها وعلى البعثات الأجنبية بموجب التشريعات الدبلوماسية في مختلف الدول أن تقيم في العاصمة.

ولكن وضع القدس مختلف حيث لها وضعية خاصة بموجب قرار التقسيم، وحرصت الجمعية العامة ومجلس الأمن على تأكيد أن القدس لا يجوز المساس بها من طرف واحد، وأن القدس الشرقية جزء من الأراضى الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ كما أكدت اليونسكو وغيرها من الوكالات المتخصصة على الطابع الخاص للمدينة. وعندما قرر الكنيسيت اعتبار القدس عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل أصدر مجلس الأمن القرار ٤٧٨ فى ١٩٨٠/١١/١١ بعدم الاعتراف بالتشريع الإسرائيلى وطالب إسرائيل بالالتزام بالشرعية الدولية.

ولقد قامت منظمة المؤتمر الإسلامى أصلاً لدعم قضية القدس وأنشأت لها لجنة القدس منذ عام ١٩٧٥ برئاسة الملك الحسن وإدارة للقدس بالأمانة العامة للمنظمة وصندوق لدعم صمود القدس ضد التهويد ودعم هويته الإسلامية، وكذلك تحاول الجامعة العربية دعم صمود الشعب الفلسطينى فى مواجهة التهويد.

وقد تقرر فى اتفاق المبادئ الفلسطينى - الإسرائيلى الموقع عليه فى واشنطن ١٩٩٣/٩/١٣ أن تكون القدس والمستوطنات واللاجئون والحدود هى الموضوعات التى تجرى حولها مفاوضات تحديد الوضع النهائى للأراضى الفلسطينية. ومعنى ذلك أنه لا يجوز لأى من الطرفين المساس بالمدينة منذ توقيع هذا الاتفاق الذى ضمنته مصر والأردن وروسيا والنرويج والولايات المتحدة ووقع رؤساؤها عليه تعزيزًا لاحترامه ونفاذه. وبينما احترم العالم كله ذلك وأكده فى مختلف المناسبات تراخت الولايات المتحدة إزاء سياسات إسرائيل الهادفة إلى طمس هوية المدينة، تارة عندما قررت شق نفق تحت المسجد الأقصى أو عندما قررت بناء ٦٠٠٠ وحدة سكنية للمستوطنين اليهود على جبل أبو غنيم واستمرت فى ذلك مما أوقف عملية السلام. وبدلاً من تصدى واشنطن لهذه الخطوات لإنقاذ مسيرة السلام قرر مجلس النواب الأمريكى بأغلبية كبيرة رصد مبالغ لنقل مقر السفارة الأمريكية (مؤقتا) من تل أبيب إلى القدس وهو ما أثار التساؤلات حول جدية موقف واشنطن رغم رفض الإدارة الأمريكية للقرار بسبب عدم ملاءمة توقيته وليس بسبب تناقضه مع ما يجب أن يكون عليه الموقف الأمريكى. ولقد أكدت القمة الإسلامية فى إسلام أباد فى مايو ١٩٩٧ وفى اجتماع لجنة القدس على مستوى القمة مساندتها

للموقف الفلسطيني إلا أن ذلك، بجانب تصدى الشعب الفلسطينى الأعزل الحظر والبناء، لم يوقف المخطط الإسرائيلى.

والحق أنه منذ وصول حكومة الليكود بزعامة بنيامين نتانياهو إلى الحكم فى مايو١٩٩٦ وهى تُشَجِع المستوطنين وتُعرقِل عملية السلام وتَعمد إلى تشديد قبضتها على القدس وانتحال مختلف الوسائل لإغلاق بيت الشرق الفلسطيني الذى يؤكد به الفلسطينيون مركزهم الدولى فى القدس.

فكيف تأثرت قضية القدس بالتحولات على قمة النظام الدولى منذ مراحل الحرب الباردة الأولى وما بعدها؟ الملاحظ أن الوضع الدولى المتميز للقدس قد تقرر عام ١٩٤٧ بإجماع أقطاب النظام الدولى ولم يكن عليه خلاف. وعندما احتلت إسرائيل القدس الشرقية عام ١٩٦٧ عارضتها الدول الرئيسية الشرقية والغربية وصدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ عام ١٩٦٧ بالإجماع مؤكدا هذه الحقيقة، ثم أجمع المجلس عدة مرات على رفض أى مساس بوضع القدس خاصة رفض المجلس لقرار الكنيست بضم القدس عام ١٩٨٠، رغم الموقف الأمريكي المتعاطف مع إسرائيل فيما عدا ذلك من عناصر الصراع العربى الإسرائيلى.

وقد اختارت إسرائيل عام ١٩٨٠ للإعلان رسميا عن موقفها التشريعى من القدس على أساس اعتقادها أن السلام المصرى الإسرائيلى باتفاقية ١٩٧٩، واكتفاء مصر بالتحفظ لموقفها إزاء القدس فى المراسلات المصرية الأمريكية على هامش اتفاقيتى كامب ديفيد قد جعل القدس لقمة سائغة لفرض أمر واقع عليها فى وقت تفرقت فيه السبل وتمزقت الصفوف العربية فور توقيع الاتفاق المصرى الإسرائيلى فى مارس ١٩٧٩، فأصبحت القدس فى نظر إسرائيل أرضا لا مالك لها، بعد أن شككت فى البداية

فى أحقية الأردن فى ضم القدس بينما أكدت أحقية إسرائيل فى ضمها إليها سواء ثمنا لانتصارها على الأردن تارة، وتارة أخرى بالرجوع إلى دعاوى الحق التاريخى والدينى، وهى دعاوى كما هو واضح لا تقوم على أى أساس مقبول.

- ورغم هذا التقدير الإسرائيلى الخاطئ أجمع مجلس الأمن ودوله الدائمة على رفض الموقف الإسرائيلى. ويترتب على قرار المجلس عام ١٩٨٠ بعدم الاعتراف بالتصرف الإسرائيلى فى القدس الشرقية شل يد جميع الدول عن الإتيان بأى تصرف يمس وضع القدس بما فى ذلك نقل البعثات الدبلوماسية والقنصلية إلى القدس، وهو الأمر الذى تصدى له المجلس فى قرارات أخرى عندما فكرت بعض الدول فى نقل بعثاتها إلى القدس. ولقد سبق لمجلس النواب الأمريكى أن أوصى بنقل السفارة الأمريكية وبشراء قطعة أرض لهذا الغرض، ثم قرر المجلس نفسه مرة أخرى فى أوائل يونيو ١٩٩٧ المخصصات المالية والترتيبات الأخرى التى يتعين على وزارة الخارجية الأمريكية اتخاذها.

ويلاحظ أن الموقف الأمريكى المؤيد لسياسة إسرائيل لتغيير هوية القدس يناقض قرارات مجلس الأمن واتفاق إعلان المبادئ الفلسطينى الإسرائيلى الذى شهد عليه الرئيس كلينتون فى ١٩٩٣/٩/١٣ فى واشنطن. والموقف الأمريكى المشار إليه يناقض موقف المجتمع الدولى بأسره وخاصة موقف دول الاتحاد الأوربى التى تتمسك بخط الشرعية الدولية فى هذا الشأن.*

---

* راجع بيان الاتحاد الأوربى فى ١٩٩٩/٣/١٠ الذى يؤكد على أن القدس أراض محتلة لا يجوز تقرير مصيرها من طرف واحد أو المساس بهويتها السكانية.

ولما كانت سياسة التهويد الإسرائيلية تنطوى ليس فقط على انتهاك المركز القانونى للقدس فى ظل قرار التقسيم وقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة والوكالات المتخصصة والسياسية الرسمية لكل الدول، وإنما تنطوى أيضا على تمييز لا مبرر له لليهود على سائر أصحاب الديانات الأخرى المسلمين والمسيحيين، فقد اتخذ الفاتيكان موقفًا عادلاً من الزاويتين المشار إليهما كما اتخذ أقباط مصر موقفًا مماثلاً للموقف المصرى الرسمى.

يتضح مما تقدم أن تحولات النظام الدولى خلال مراحل الحرب الباردة ثم بعد انتهاء الحرب الباردة لم تؤثر على تماسك الموقف الدولى الرسمى بما فى ذلك موقف الإدارة الأمريكية إزاء قضية القدس، ولكن لوحظ أن الولايات المتحدة تتخذ مواقف متناقضة، فهى تتمسك رسميا بقرارات الأمم المتحدة وتعلن ذلك، ولكنها من ناحية أخرى تستخدم الفيتو ضد مشروعات القرارات الهادفة إلى مناهضة الاستيطان اليهودى فى القدس. وقد حدث ذلك عندما تقدمت المجموعة العربية بمشروع قرار لإلغاء قرار إسرائيل بشق نفق تحت المسجد الأقصى، كما استخدمت واشنطن الفيتو مرة أخرى ضد مشروع قرار يطالب إسرائيل بوقف البناء فوق جبل أبو غنيم.

والغريب أنه فى الحالتين حظى مشروعا القرارين بأغلبية ١٤ صوتا ضد الصوت الأمريكى المعارض، كما أنه فى الحالة الأولى حاول الرئيس الأمريكى تسوية الموقف سياسيًا فدعا إلى قمة فى واشنطن حضرها الملك حسين وياسر عرفات ونتنياهو ورفض الرئيس مبارك حضورها لعدم

جدواها، ورغم اقتناع الرئيس كلينتون بأن التصرف الإسرائيلي غير مشروع وغير حكيم، رفض الوفد الأمريكي السماح بصدور قرار من مجلس الأمن بوقف قيام إسرائيل بشق النفق. وحدث نفس الشيء عندما أصرت إسرائيل على البناء فوق جبل أبو غنيم حيث حاول المبعوث الأمريكي دينيس روس التوصل إلى تسوية للمشكلة. ورغم إدراك واشنطن بعرقلة إسرائيل لهذه المساعي استخدمت الفيتو مرة أخرى ضد المشروع المطالب بوقف بناء المستوطنة على جبل أبو غنيم فى القدس الشرقية.

ولم يختلف الموقف الدولى لدى الدول أو فى الأمم المتحدة عن الموقف فى منظمة المؤتمر الإسلامى التى أكدت على ضرورة التصدى لمحاولات تهويد القدس والمحافظة على هويتها الحضارية.

وأخيرًا فإنه من الضرورى تأكيد الموقف القانونى العادل للجانب الفلسطينى فى القدس، خاصة وأن التصرفات الإسرائيلية والأمريكية تجعل مفاوضات الوضع النهائي حول القدس غير ذات موضوع لأن العبرة بما يحدث على الأرض. ورغم ذلك فالمساندة القانونية مفيدة فى تعزيز الموقف الفلسطينى. ولذلك نقدم فيما يلى دلالات الموقف الأمريكى بشىء من التفصيل وكذلك ما يجب عمله من الناحية القانونية. ولكن يجب أن نشير إلى أن الموقف الأمريكى ليس جديداً وأن الكونجرس سبق عام ١٩٩٥ أن قرر بناء ونقل السفارة الأمريكية إلى القدس بحلول عام ١٩٩٩، ثم قرر مجلس النواب تخصيص مبلغ ١٠٠ مليون دولار (٢٥ مليونا لعام ١٩٩٦ و ٧٥ مليونا أخرى لعام ١٩٩٧) وغير ذلك من الخطوات التنفيذية.

ومن ناحية أخرى لم تكترث إسرائيل والولايات المتحدة بقرارات القمة الإسلامية فى إسلام أباد فى مايو ١٩٩٧ والتى قررت مع الجامعة العربية تجميد العلاقات مع إسرائيل، وسبب عدم فعالية هذه القرارات هو عدم جدية الدول الإسلامية والعربية فى تنفيذها وإصدارها لهدف إعلامى أو سياسى وهو الضغط على صانع القرار الإسرائيلى دون جدوى.

وقد تضمن قرار الكونجرس الصادر فى ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ عددًا من الادعاءات التى تؤكد أن القدس عاصمة لإسرائيل وأن من حقها أن تختار العاصمة التى تريدها متجاهلاً وضع القدس الخاص. أما القدس الغربية فقد أوجز الأستاذ أحمد يوسف القرعى فى مقاله الثالث بجريدة الأهرام عدد ٣ يوليو ١٩٩٧ بعنوان «القدس ومواجهة قانون الكونجرس الأمريكى» ملابسات إعلانها عاصمة لإسرائيل حيث بدأت إسرائيل بتشكيل محكمتها العليا واتخذت القدس مقرًّا لها فى ١٩٤٨/٩/١٥، ثم تعمد أول رئيس لإسرائيل حليم وايزمان أن يؤدى اليمين القانونية فى القدس فى ١٩٤٩/٢/١٧، وفى ١٩٤٩/١٢/٥ أعلن الكنيست أن القدس جزء من إسرائيل ثم أعلن بن جوريون فجأة نقل العاصمة إلى القدس.

وعمدت إسرائيل إلى نقل الدوائر الرسمية تباعا إلى القدس الغربية فانعقد الكنيست الأول بعد ٤٨ ساعة من إعلان بن جوريون أن القدس عاصمة إسرائيل ثم نقل الكنيست نفسه فى ١٩٥٠/٣/١٣ ووزارة الخارجية فى يونيو ١٩٥٤ وهكذا.

وقد قامت إسرائيل بهذه الحملة المنظمة فى الوقت الذى كانت تحاول فيه الانضمام إلى الأمم المتحدة حيث قبلت بشروط أهمها احترام قرار التقسيم وحقوق بقية الأهالى من سكان فلسطين، ورغم تأكيد أبا إيبان مندوب إسرائيل أمام الجمعية العامة عام ١٩٤٩ أن وضع القدس يختلف عن وضع الأراضى التى تقوم عليها السيادة الإسرائيلية.

القدس ودلالات الموقف الأمريكى وأهمية المنهج القانونى:

يكتسب قرار مجلس النواب الأمريكى بنقل مقر السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس «مؤقتا» دلالات هامة أولها عزم الولايات المتحدة – رغم كل شىء – على تأكيد تبعية القدس لإسرائيل حتى لو كان هذا الموقف يناقض الدور السياسى الأمريكى فى عملية السلام، كما يعد انتهاكًا صارخًا لاتفاق أوسلو الذى وقع عليه الرئيس كلينتون جنبًا إلى جنب مع روسيا ومصر والأردن والنرويج كشهود، **وثانيها** أن القرار يمثل استمرارًا للخط الأمريكى الثابت فى هذه المسألة رغم استمرار الموقف السياسى للإدارة الأمريكية لاعتبارات تتعلق باستمرار الدور الأمريكى حتى لو لم يسفر هذا الدور عن فعالية وإيجابية، **وثالث** هذه الدلالات أن توقيت القرار حيث توقفت عملية السلام وتوشك أن تنهار إن لم تتخط مرحلة الاحتضار الحالى رسالة لإسرائيل باستمرار التصرف من طرف واحد فى القدس، ضاربة عرض الحائط باتفاق أوسلو الذى يقضى بحجز قضية القدس لمفاوضات الوضع النهائى. وهذا يعنى بداهة عدم أحقية أى من الطرفين فى الإتيان بأعمال من طرف واحد من شأنها تغيير وضع

المدينة بأى شكل وتجميد الوضع الذى كانت عليه لحظة التوقيع فى ١٩٩٣/٩/١٣ ورابع هذه الدلالات أن القرار وصف نقل السفارة بأنه مؤقت وذلك بهدف التخفيف من وطأته على المتطلعين إلى أوهام العدالة الأمريكية، وآخر هذه الدلالات تعمد مجلس النواب الأمريكى انتهاك قرارات الأمم المتحدة منذ قرار التقسيم الذى تبنته وفرضته واشنطن مرارا بعشرات القرارات من الجمعية والمجلس والوكالات المتخصصة التى تؤكد على عدم مشروعية أى تصرف فى القدس أو يمس وضعها المحجوز للاتفاق بين الأطراف.

وإذا كنا لا يجوز لنا أن نصادر على نتائج المساعى السياسية المبذولة من أطراف دولية وإقليمية لإعادة قطار السلام إلى مساره وفق مرجعياته قدر المستطاع، فإنه صار ملحًّا الآن أن تتحرك الحكومات العربية لتعزيز الملف القانونى للقدس خاصة وأن قرار إسرائيل بالبناء فى جبل أبو غنيم ينطوى على مضامين خطيرة أهمها أن القرار عصف بالتزام مزدوج وهو عدم بناء مستوطنات فى الأراضى الفلسطينية منذ أوسلو، وعدم البناء بشكل خاص فى القدس على أساس أن المستوطنات والقدس من موضوعات التفاوض على الوضع النهائى. والمضمون الثانى الذى لا يقل خطورة هو أن قرار البناء هو إجهاض للمرحلة الانتقالية والقفز فوقها قبل استكمالها لفتح ملفات الوضع النهائى، وخلق أمر واقع أمام المفاوضين يفرغ المرحلة النهائية من مضمونها مادامت إسرائيل - ومعها الولايات المتحدة - قد قررت ما تريده بشأن المستوطنات والقدس. ومن هنا يصبح العمل القانونى وجيهًا رغم كل ما نعرفه عن عدم جدوى القانون فى صراع ذى صفات معروفة وانحياز الوسيط إلى أحد طرفى النزاع. ولذلك نرجو أن

يشمل التحرك القانونى مستويين على أساس أن وضع القدس يستند إلى مصدرين للمرجعية وهما قرار التقسيم وقرارات الأمم المتحدة اللاحقة وأقصد فى هذا السياق القدس بأكملها الغربية والشرقية معا حيث نص قرار التقسيم على الاحتفاظ للقدس بوضع خاص Corpus Separatum إلى أن يتفق الطرفان على وضع متفق عليه للمدينة المقدسة. وليس هناك أى أساس قانونى لاستيلاء إسرائيل على القدس الغربية، وإنما توارد الحديث عن القدس الشرقية بعد احتلال إسرائيل لها من الأردن عام ١٩٦٧، وليس هناك فى نظرنا تناقض بين ما قرره قرار التقسيم بشأن القدس وما قرره مجلس الأمن فى قراره ٢٤٢ الذى وضع أسس التسوية وأهمها انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة ومنها القدس الشرقية، بما لا يعنى التسليم أو السكوت على احتلالها للقدس الغربية.

وفى ضوء ما تقدم يتعين على الدول الإسلامية والعربية أن تتحرك فى اتجاهين:

الاتجاه الأول: تحكيمى أساسه اتفاق واشنطن حيث يجب أن تطلب السلطة الوطنية أو أى من الدول الشاهدة الموقعة على اتفاق واشنطن عام ١٩٩٣ أن يلجأ الطرفان الفلسطينى والإسرائيلى إلى التحكيم مادام التفاوض قد فشل فى حل المنازعات المتعلقة بتفسير وتنفيذ الاتفاق كما فشل الوفاق الذى حاولته الولايات المتحدة من خلال مبعوثها الخاص.

الاتجاه الثانى: قضائى، وذلك على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: أن تطلب الجمعية العامة للأمم المتحدة من محكمة العدل الدولية أن تصدر رأيا استشاريا حول وضع القدس على أساس قرار التقسيم واتفاق أوسلو، واستنادًا إلى سلطة الجمعية العامة فى ذلك.

المستوى الثانى: أن تطلب أى من الدول ذات المصلحة فى قضية القدس أن تقوم محكمة العدل الدولية بالفصل فى النزاع حول القدس وفق قرار التقسيم رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧ الذى يعطى المحكمة أساس الاختصاص فى نظر كل نزاع ينشأ حول تفسير أو تطبيق المسائل الواردة فى قرار التقسيم ومنها القدس ولم يحدد القرار طرفًا معينًا يحق له إثارة هذا الأساس لاختصاص المحكمة القضائى.

المستوى الثالث: أن يتم عرض النزاع حول القدس على محكمة العدل الدولية للفصل فيه على أساس الاختصاص المعقود للمحكمة فى قرار التقسيم، ويجوز للسلطة الفلسطينية أن تقدم طلبًا بذلك للمحكمة بوصفها الطرف المختص صاحب المصلحة المباشرة فى النزاع.

وللاستناد إلى قرار التقسيم ميزتان: **الأولى** أنه يتفادى البحث فى مدى أحقية السلطة الوطنية فى التقاضى أمام المحكمة وهو حق محجوز للدول الأطراف فى نظام المحكمة الأساسى، والمعروف أن فلسطين تتمتع بمركز المراقب الدائم فى الأمم المتحدة ولكنها ليست عضوًا فى الأمم المتحدة ولعضو الأمم المتحدة بحكم كونه طرفًا فى الميثاق وضع الطرف فى نظام المحكمة بشكل آلى، وليس العكس صحيحًا.

أما **الميزة الثانية** فهى أن إسرائيل لا تستطيع الاحتجاج بعدم قبولها لاختصاص المحكمة فيما يتعلق بهذه المسألة على أساس تحفظها على مثل هذا الاختصاص فى المسائل المتعلقة بأقاليمها.

وبناء على ما تقدم يجوز للسلطة الوطنية أن تطلب كإجراء عاجل قيام المحكمة بفرض إجراءات تحفظية بوقف الأعمال الإسرائيلية والأمريكية

فى القدس التى من شأنها التأثير على الحق الفلسطينى المفترض فى المدينة المقدسة، أما فى الموضوع فيطلب من المحكمة بيان المركز القانونى للقدس فى ضوء قرار التقسيم والتزامات الأطراف فى نطاق اتفاق أوسلو.

وأخيرا لا يجوز أن تصادر الآمال المعقودة على فرص التسوية السياسية الجارية أهمية تعزيز الملف القانونى للقدس: فكل من السياسة والقانون وظيفته فى هذه المواجهة المصيرية المعقدة.

القدس فى مفاوضات الوضع النهائى:

أريد أن أرفع حرجاً منذ البداية فيما يتعلق بالقدس وهو أنى أصدر فيما أكتب عن عاطفة دينية، ومن ثم لا داعى ولا أريد أن أمثل أحدًا أو جهة. فلقد انتهى مؤتمر واى بلانتييشن إلى عدد من النتائج الهامة على رأسها – بالنسبة لنا – هو أن الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى قد اتفقا على أن تبدأ محادثات تحديد الوضع النهائى بعد توقيع الاتفاق بعدة أيام فى نفس الوقت الذى ينفذ فيه كل منهما ما التزم به وفق جدول زمنى وضحه الاتفاق كما هو معلوم. ولما كانت القدس فى مقدمة الموضوعات التى حجزها اتفاق أوسلو والاتفاقات التنفيذية وأخيراً اتفاق واى بلانتييشن وهو–عندنا–اتفاق تنفيذى هو الاخر، يفترض أنه أبرم فى إطار أوسلو–فمن الواجب أن نسارع إلى استشراف مستقبل هذه القضية المحورية خلال المحادثات ولكننا نود ابتداء أن نضع المناقشة حول مستقبل المدينة فى إطار عدد من الاعتبارات الواجب إيضاحها وهى:

أولاً: أن قضية القدس تعادل أو تفوق القضية الفلسطينية برمتها. ذلك أن سقوط القدس في يد إسرائيل عام ١٩٦٧ وإن أكمل احتلال فلسطين، فإن دلالته تمثلت فى وقوف العالم الإسلامى كله مع العالم العربى فى الصراع ضد إسرائيل، وعندما اتجهت إرادته إلى إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى، فقد جعل جدة عاصمتها المؤقتة ريثما تتحرر القدس، كما جعل هدف المنظمة الأول تحرير الأماكن المقدسة فى فلسطين. ومؤدى ذلك أن مساندة العالم الإسلامى للفلسطينيين محورها القدس، على أساس أن المدينة المقدسة تخص الفلسطينيين كأرض ولكنها تهم المسلمين والمسيحيين كقبلة روحية مقدسة تستصرخ ضمائرهم ومعتقداتهم طلبا للعتق والحرية. وهذه هى النقطة التى لا يجوز للمفاوض الفلسطينى أن يعمل فيها الاعتبارات الفلسطينية بينما العالمان الإسلامى والمسيحى خلف أسوار المفاوضات.

ثانيًا: كان الاعتبار المتقدم المحيط بالقدس هو الذى دفع الفاتيكان إلى أن يصدر وثيقة من ثمانى نقاط يوم ١٩٩٨/١٠/٢٩ تحدد رؤيته لمستقبل المدينة وتصر على وضع دولى خاص بها. وهو نفس الاعتبار الذى دعا المنظمات الإسلامية الشعبية والرسمية إلى إبراز اهتمامها بمستقبل القدس فى التسوية النهائية، وأظن أنه أحد الاعتبارات التى دعت الأردن إلى أن يطلب رسميًا مشاركته فى محادثات الوضع النهائى. وفى ضوء ذلك أصبحت المناقشة وضرورة الاتفاق على رأى موحد إسلاميا ومسيحيا حول المدينة أمرًا بالغ الأهمية مثلما هو ظاهر الإلحاح والعجلة.

ثالثاً: الوضع فى المدينة وبسببها محل قلق العالم وسبب صدامات يومية بين الفلسطينيين الرافضين لتهويدها والإسرائيليين المصرين على تأكيد اعتبارها عاصمة أبدية ودائمة لإسرائيل، مثلما أصبح الموقفان المتناقضان تماماً مثارًا لدراسات ومشاورات لأطراف إقليمية ودولية سياسية وأكاديمية فى محاولة لوضع صيغ عملية ومقبولة من أطراف النزاع للمدينة المقدسة.

رابعاً: إذا كان المفاوض الفلسطينى لا يملك التسليم بوضع للمدينة يلقى رضَى المسلمين والمسيحيين، فإن من حق هذا المفاوض أن يقف وراءه المسلمون والمسيحيون. كما أن التفاوض حول وضع المدينة المقدسة لا يجب أن يترك ليعكس ميزان القوة المختل على الأرض بين الفلسطينيين العاجزين والإسرائيليين الأقوياء بهم وبغيرهم.

خامساً: أن بدء المفاوضات حول المدينة المقدسة يتم فى وقت لا تتكافأ فيه الفرص للمفاوض الفلسطينى. ذلك أن اتفاق واى بلانتيشن قد خلق مناخًا تستغله الولايات المتحدة وإسرائيل بما يعطى الانطباع بتعاون إسرائيل فى عملية السلام ويرفع عنها الضغوط الدولية، وهذا المناخ سوف يؤثر بشدة على نتيجة مفاوضات الوضع النهائى فى المسائل المتبقية وكلها حيوية وفى مقدمتها القدس.

فى ضوء الاعتبارات السالف إيرادها فإن تناقض المواقف الفلسطينية والإسرائيلية تناقضًا تاما وميل ميزان القوة لصالح إسرائيل خاصة وأنها تضع يدها بالفعل على المدينة التى ستنتقل إليها السفارة الأمريكية فى منتصف العام القادم، يجعل المفاوضات حول القدس مثار جدل وقلق فى

آن واحد. ومن الخطر أن تتضارب المواقف الفلسطينية والأردنية والإسلامية حول القدس بينما الموقف الإسلامى ثابت وهو أن المدينة شرقها وغربها بمفهومها المحدود الموسع عاصمة إسرائيل الأبدية ولايمكن تجزئتها. فكيف يتحدد الموقف العربى والإسلامى؟ هل يتخذ قرار تقسيم فلسطين أساسًا له لتكون القدس شرقها وغربها ذات وضع خاص يجب الاتفاق عليه؟ أم يتمسك العرب بالقدس الشرقية لتكون عاصمة الدولة الفلسطينية وتترك القدس الغربية لإسرائيل، ويعزز هذا النظر أن الشرعية الدولية بعد عام ١٩٦٧ تؤكد أن القدس أراض محتلة ضمن الضفة الغربية ويسرى عليها ما يسرى على الأراضى الفلسطينية المحتلة وفقا للوضع القانونى للاحتلال الحربى؛ مثلما تصر الشرعية الدولية على أن تكف إسرائيل يدها عن تغيير الطابع الجغرافى أو السكانى أو الحضارى للمدينة، وأن تمتنع من باب أولى عن ضمها أو إدعاء أى حق سيادى فيها ما دام الاحتلال لا يرتب أية حقوق سيادية لسلطة الاحتلال.

وما دامت هذه دعوة لتكوين الموقف الإسلامى بالتنسيق مع الفاتيكان، فمن المفيد الإشارة إلى الجهود الأكاديمية والاتجاهات الدولية المختلفة حول مستقبل القدس، والتى يمكن إيجازها فيما يلى:

١ - الاتجاه الذى انتهت إليه دراسات المركز الإسرائيلى الفلسطينى للأبحاث والمعلومات منذ عام ١٩٩٢ وحتى الآن ومؤداه أن تظل المدينة موحدة جغرافيًا ومقسمة سياسيًا حسب الأحياء العربية واليهودية، بحيث تمارس إسرائيل السيادة على الحياء اليهودية وتمارس الدولة الفلسطينية سيادتها على الأحياء العربية، ويتولى كل جانب إدارة الجزء

الذى يخصه، ثم يتم التعاون بين الجانبين لتطوير هياكل المدينة. وتتصور هذه الخطة أحكامًا بشأن مركز الأماكن المقدسة والنظام القانونى لها، ونظام الشرطة.

٢ - توسيع حدود المدينة بحيث تشمل أربعة أمثال مساحة القدس بإضافة مساحات متساوية من إسرائيل والضفة الغربية وإدماج حوالى نصف مليون مقيم من كل جنسية فى القدس الكبرى.

ويهدف هذا الاتجاه إلى تجاوز مسألة السيادة بحيث يلتقى هذا الاتجاه مع الاتجاه السابق على أساس أن تخضع المنطقة اليهودية لإسرائيل مثلما تخضع المنطقة الفلسطينية للدولة الفلسطينية وتكون القدس عاصمة كل دولة منهما.

٣ - اعتماد صيغة السيادة المشتركة الإسرائيلية الفلسطينية على المدينة المقدسة أسوة بسوابق تاريخية مثل السيادة المشتركة البريطانية الفرنسية على جزر هيبريد الجديدة، وسيادة فرنسا وأسبانيا على أندورا. وفقا لهذا الاقتراح تكون القدس عاصمة الدولتين ويديرها مجلس بلدى شامل ومجالس محلية للمناطق، وينزع سلاح المدينة، مع قيام اتحاد اقتصادى للدولتين.

٤ - التمييز بين البلدة القديمة داخل الأسوار، والمناطق الواقعة خارج الأسوار، فتخضع المدينة القديمة لمجلس عالى يمثل الأديان الثلاثة، ثم تخضع المناطق الفلسطينية والإسرائيلية خارج الأسوار كُلٍ للدولة التى تتبعه.

ولاشك أن كل هذه المقترحات تعول على عدد السكان العرب واليهود بالقدس، ومن ثم حاولت إسرائيل - برغم الحظر الدولى - أن تكون كفة اليهود أرجح عن طريق سياسة التهويد، حتى تضمن النتيجة إذا ما اقترحت أن يكون الحل عن طريق إجراء استفتاء فى المدينة وهو من الحلول المغرية فى الأمم المتحدة، وتم اعتماده كأحد صور التعبير عن تحقيق الحق فى تقرير المصير.

وأخيرا نستكمل الصورة العامة للأفكار المطروحة بشأن القدس للإفادة بها في دراسة الموقف العربى بنتائج الدراسة التى جرت خلال العامين الماضيين وشارك فيها ممثلون من السلطة الوطنية الفلسطينية وإسرائيل والأردن وجامعة هارفارد ومعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا وليونارد هوسمان المدير السابق لمعهد السياسات الاجتماعية والاقتصادية فى الشرق الأوسط بجامعة هارفارد المشارك فى الدراسة والذى لخص نتائجها حول النقاط الخمس التى ستشملها مفاوضات الوضع النهائى. أما بالنسبة للقدس فقد أشار إلى أن الدراسة أكدت أن القدس ستظل موحدة، وأن الخدمات فيها ستوزع كما سيتم مشاطرة السيادة فى بعض هذه الخدمات، وهذا لا يناقض قيام إسرائيل بحماية القدس من الأعداء الأجانب! وسوف تظل المدينة عاصمة للدولتين، ولكن إسرائيل وهى صاحبة السيادة الأوضح على مدينة منزوعة السلاح سوف تتكفل بالأمن الخارجى بالاتفاق مع الدولة الفلسطينية. فالسيادة يمكن اقتسامها، كما يمكن أن تكون مكافحة الجريمة وإقرار الأمن مسئولية مشتركة.

ولنا على هذه الاتجاهات التى يتم تداولها حاليا أربعة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن القدس ستظل موحدة وعاصمتين لدولتين مما يشبع رغبة كل من الفلسطينيين والإسرائيليين ودعاواهم بأن القدس عاصمة دولتهم، وهذا يسمح بنقل السفارات إلى القدس المخصصة للحكومة الإسرائيلية.

الملاحظة الثانية: أن كل المقترحات تفترض قيام دولة فلسطينية وعاصمتها القدس فى مكان ما من القدس العادية أو الكبرى حسبما رأينا.

الملاحظة الثالثة: أن مكافأة عمليات تهويد القدس واضحة فيما ستناله إسرائيل، وكان الأولى ألا تعتمد هذه المشروعات والخطط بالتصرفات الإسرائيلية منذ احتلال القدس الشرقية عام ١٩٦٧.

الملاحظة الرابعة: الفصل فى مستقبل القدس بين الأماكن المقدسة وغيرها من المساحات فأين يقع الموقف الإسلامى والمسيحى بين القطبين: قرار التقسيم أم الموقف الإسرائيلى الحالى إزاء المدينة المقدسة؟!!

الفصل الرابع

قضية البوسنة والهرسك*

يبلغ عدد سكان مسلمي البوسنة ٢ مليون نسمة أى ٤٣٪ من السكان (تعداد ١٩٨٨) والإسلام هو المحور الذى استندت عليه البوسنة كقومية ضد القوميات الأخرى. تحولت بلاد البوسنة من النصرانية إلى الإسلام عقب أول هزيمة لملك البوسنة على يد العثمانيين عام ١٣٦٤ بتحريض من البابا أوربان الخامس حيث تكون تحالف ضد المسلمين وضم التحالف ملك الصرب والبوسنة وأمراء الرومان والمجر، وهزمهم إميل بك العثمانى فى معركة صنديقية الصرب ثم تشكل تحالف صليبى من الصرب والبلغار والأولاخ والأبان والبولنديين والمجر وملك البوسنة. وظلت الهبات

---

* بدأت المشكلة فى أبريل ١٩٩١ بإعلان جمهورية البوسنة والهرسك استقلالها عن االإتحاد اليوغوسلافى الذى كان لايزال قائما، فاحتدم الصراع بين الجمهورية الفتية وبين جمهورية الصرب التى تشكل أغلبية الاتحاد مثلما هو وضع روسيا فى الاتحاد السوفيتى السابق، ثم توسع الصراع عندما دخل الصرب فى البوسنة فى صراع مع المسلمين والكروات ثم أصبحت المشكلة مأساة إسلامية عندما أصبح المسلمون والكروات هدفا للتطهير العرقى وقد عالجتها من هذه الزاوية فى إطار تاريخى، وليس ثمة من يمنع من تجدد العنف بها. ففى ١٩٩٩/٣/١٠ أعلن المنسق العام لقوات الأطلنطى فى سراييفو عزل رئيس جمهورية الصرب داخل البوسنة وهو ما لقى إحتجاجا صربيا واسعا يوشك أن يؤدى إلى إنهيار ترتيبات اتفاق دايتون الذى قسم البوسنة ومنع إقامة دولة إسلامية بوسنية موحدة يتعايش فيها الصرب والكروات مع المسلمين.

والثورات المسيحية ضد الحكم العثمانى، كما استمرت مساندة فرنسا والنمسا وروسيا لهذه الثورات، وطالبت الدول الأوربية تركيا بتنفيذ عدد من المقترحات لإصلاح وحل مشكلة الهرسك عام ١٨٧٦. والطريف أن مؤتمر برلين ١٨٧٨ برئاسة بسمارك مستشار ألمانيا وضم النمسا وروسيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وتركيا درس مذكرة بسمارك متضمنة الإصلاحات فى البلقان قد نصت على استقلال الجبل الأسود والصرب وبلغاريا ورومانيا وبقاء البوسنة والهرسك تحت الحكم العثمانى على أن تديرها الإمبراطورية النمسوية المجرية،وتم الاتفاق بين النمسا وتركيا فى ٢٦فبراير١٩٠٩على إلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا. تضم البوسنة ٤٤٪ مسلمين سلاف،١٧٪من الكروات الكاثوليك، ٣١٪ من الصرب الأرثوذكس.

وقد بُعِثَت البوسنة عام ١٩٤٣ حين أنشأ تيتو جمهورية البوسنة والهرسك كمنطقة عازلة بين جمهورية الصرب وكرواتيا. اعترف بالمسلمين كقومية عام ١٩٧١ مع سائر القوميات الأخرى وسجل ذلك دستور ١٩٧٤ فانتماؤهم إلى البوسنة أو الأتراك لا يحقق هويتهم. فعل تيتو ذلك توددًا للمسلمين.

يقع إقليم البوسنة والهرسك ضمن أراضى الاتحاد اليوغسلافى السابق ويسكنه أغلبية مسلمة إلى جانب الصرب والكروات. ويرجع الوجود الإسلامى فى البوسنة إلى الاحتلال العثمانى لشبه جزيرة البلقان فى القرن السادس عشر. ولكن الأقلية الإسلامية فى المنطقة التى استشرى فيها نفوذ روسيا وكنيستها الأرثوذكسية قد دخلت بسبب ارتباطها بالاستعمار التركى حسبما رأته شعوب المنطقة فى صراعات دينية وعرقية منذ أمد طويل، وكانت أولى ضحايا عمليات الثورة الوطنية ضد الأتراك وخلال

الحروب البلقانية الأولى والثانية وحتى أثناء الحرب العالمية الأولى حيث ساندت بريطانيا وفرنسا أعمال المقاومة ضدهم بسبب انضمام تركيا إلى الألمان ودول الوسط التى هزمت فى الحرب وكان الثمن الذى دفعته تركيا هو التخلي عن المنطقة وبقية ممتلكاتها خارج تركيا بموجب اتفاقية لوزان عام ١٩٣٢، مما فتح الباب أمام استقلال دول البلقان ونشأة مملكة يوغوسلافيا عام ١٩٢٩ شاكلة البوسنة والهرسك.

ثم تعرض المسلمون مرة أخرى للاضطهاد بعد نشأة الحكم الشيوعى فى يوغوسلافيا عام ١٩٤٨ بعد تحررها من الغزو الألمانى، مثلما وقع مسلمو ألبانيا تحت الحكم الشيوعى القريب من الجناح الصينى فى الحركة الشيوعية العالمية، بينما ضم الاتحاد الشيوعى اليوغوسلافى المتمرد على موسكو إقليما يضم أقلية مسلمة ألبانية هو إقليم كوسوفو.

وطوال هذه العصور عانى المسلمون من الصرب الذين يشكلون الأغلبية لسكان يوغوسلافيا والتى تسمى باللغة الصربية أرض السلاف الكبرى حيث يمثل سلاف الاتحاد السوفيتى السابق جوهر الأسرة السلافية. ولاشك أن الرابطة العرقية والمذهبية الدينية من العوامل الأساسية فى فهم مواقف الدول الخارجية من الأزمة اليوغوسلافية.

وقد آذن الاتحاد اليوغوسلافى الذى حافظ تيتو (الكرواتى) على وحدته واستقلاله على الانهيار -فى الواقع- بعد وفاة الرئيس تيتو فى يونيو ١٩٨٠ ثم أخذ الاتحاد يترنح تحت وطأة سيطرة الصرب، ورغبتهم فى ابتلاع بقية الأعراق حتى بدأ الانشقاق الفعلى حتى قبل إعلان الوفاة الرسمية للاتحاد السوفيتى فى ١٩٩١/١٢/٣١، حيث أعلنت البوسنة والهرسك وكرواتيا استقلالها فى أوائل ١٩٩٢ بعد أن بدأ الصراع العرقى

بالفعل منذ أبريل ١٩٩١ ضمن موجة استقلال الوحدات المشكلة للاتحاد السوفيتى فى آسيا والبلطيق، فتصدت الصرب والجبل الأسود لحركات الاستقلال واعتبرتها حركات انفصالية لابد من إعادتها بالقوة إلى حظيرة الاتحاد تحت سيطرة الصرب التى تمسكت باسم يوغوسلافيا. ولكن إصرار الجمهوريات على الاستقلال أفسح لها مجال العضوية فى الأمم المتحدة باسمها الجديد بينما أطلق على الصرب والجبل الأسود اسم يوغوسلافيا الجديدة، ولم تفلح مساعى الأخيرة لا فى وقف موجة الاستقلال باستخدام الجيش الصربى ولا فى منع هذه الجمهوريات الفتية من الانضمام إلى عضوية المنظمة الدولية.

وتبدأ مشكلة البوسنة والهرسك بتاريخ الاستقلال عام ١٩٩٢. فبعد فشل جمهورية الصرب والجبل الأسود (المونتينيجرو) فى إعاقة استقلال البوسنة ساندت الأقلية الصربية فى البوسنة للسيطرة على البلاد وتدمير مظاهر الدولة فيها. وقد استمرت الحرب الأهلية من يونيو ١٩٩٢ حتى ١٩٩٥/١٠/١٠ تاريخ إبرام اتفاق دايتون للسلام فى البوسنة، وخلال هذه السنوات الثلاث تعرض المسلمون لكل صنوف الإبادة على يد الصرب والكروات منفردين ومتحدين، وحيث تذبذب موقف الكروات تارة مع المسلمين، وتارات أخرى محايدين أو متحالفين مع الصرب.

مشكلة البوسنة فى الإطار الدولى:

تلخصت مشكلة البوسنة فى ممارسة الصرب لكل أعمال إبادة الجنس ضد المسلمين إزاء ضعف الحماية الدولية وعجز المجتمع الدولى عن ردعهم، وفشل محاولات وقف أعمالهم، ودعم جمهورية الصرب للأقلية الصربية فى البوسنة وتعويق استقلال الدولة الناشئة. وقد بحثت المشكلة

فى إطار الأمم المتحدة والمؤتمر الإسلامى، والاتحاد الأوربى وعجزت جميع الهيئات عن قمع الصرب الذين احتلوا معظم الأراضى وقاموا بأعمال لا أخلاقية ضد النساء المسلمات الأمر الذى دفع أستاذا يهوديا هو Meron أستاذ القانون الدولى الشهير بجامعة نيويورك والسفير الإسرائيلى السابق فى جنيف إلى أن يعتبر الاغتصاب الذى مارسه الصرب ضد المسلمات من جرائم إبادة الجنس ومن الجرائم المخلة بسلم الإنسانية وأمنها، مثلما دفع محكمة العدل الدولية إلى إدانة أعمال الصرب، واعتبار الاغتصاب بالفعل جريمة من جرائم الحرب فى أحكام أصدرتها خلال عام ١٩٩٨.

المشكلة البوسنية فى الأمم المتحدة:

أولاً: من الناحية السياسية:

عينت الأمم المتحدة عددًا من الوسطاء ومبعوثًا خاصًا للأمين العام للتوصل بين الأطراف المتصارعة إلى تسوية سياسية للمشكلة، وفى نفس الوقت أصدر مجلس الأمن عددًا كبيرًا من القرارات ثلثها صدرت على أساس الفصل السابع على أمل أن تكون ملزمة لأطراف الصراع. كما صدر عدد كبير من البيانات الرئاسية من مجلس الأمن وكلها تدعو إلى التسوية السياسية، كما تضمنت هذه القرارات عددًا من الخطوات والإجراءات أهمها:

١ ـ إنشاء ست مناطق آمنة لحماية سكانها المسلمين من مذابح الصرب والقوات الصربية.

٢ ـ حظر الطيران فوق سراييفو وإعلانها منطقة آمنة.

٣ - فرض حظر عام وكامل منذ سبتمبر ١٩٩١ على مبيعات الأسلحة والمعدات الحربية إلى يوغوسلافيا، وامتناع الدول عن إتيان كل ما يساهم فى زيادة التوتر، أو يعرقل الحل السلمى التفاوضى للنزاع. وأضاف المجلس بقراره ٧٥٧ فى ١٩٩٢/٥/٣٠ عددًا من الجزاءات الدبلوماسية والتجارية وحظر الطيران الدولى فى يوغوسلافيا ووقف التعاون العلمى والفنى والثقافى مع بلجراد.

٤ - إنشاء قوات للحماية الدولية قوامها ٢٢ ألفا وصلت إلى ٤٠ ألفا من عدد من الدول ولها ثلاث مهمات: الأولى حماية قوافل المعونات الإنسانية وتوصيلها إلى أهدافها، والثانية تأمين مطار سراييفو ونزع سلاح المتصارعين فى المدينة وحولها، وأخيرًا حماية المناطق الآمنة وسكانها.

وقد فشلت مهام الأمم المتحدة جميعًا، بل واتهمت بالعجز والتحيز للصرب، وشارك بعض جنودها فى أعمال النهب والاغتصاب للسكان المسلمين فى المناطق الآمنة، وسهلت هذه القوات مهمة قوات الصرب داخل هذه الكمائن وليس المناطق الآمنة. وقد بلغت الإهانة للقوات الدولية أن احتفظ الصرب ببعض جنودها رهائن، وأمكنهم توسيع رقعة سيطرتهم وإثارة الشقاق والتمرد فى الصفوف الإسلامية مما أدى بالسياسيين الصرب إلى رفض كل مقترحات التسوية رغم أنها أعطت الصرب أكثر من ٧٠٪ من الأراضى بينما لا يجاوز عددهم ٣٠٪ من سكان البوسنة.

وعندما أعلن أمين عام الأمم المتحدة أهمية تدخل حلف الأطلنطى لمساندة القوة الدولية التى أنفق عليها مليارات الدولارات دون جدوى،

رخصت قيادة الحلف للأمين العام إصدار تعليمات لقوات الحلف بالتدخل كلما رأى ذلك مناسبا. وقد ثارت خلافات حادة بين الأمين العام والحلف وبعض الدول الإسلامية حيث اتُّهم الأمين العام بالتقاعس، بينما اتهم الأمين العام سلطات الحلف بغموض التفويض الممنوح له.

ومن ناحية أخرى فشلت مجموعة الاتصال الدولية المشكلة من جانب مجلس الأمن والتى تضم روسيا الاتحادية والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وبريطانيا فى تحسين الموقف المتردى على الأرض، أو إقناع زعماء أطراف الصراع بأية تسوية سياسية، والخلاصة أن المذابح ضد المسلمين لم تتوقف واستمر تقدم القوات الصربية وتحديها للمجتمع الدولى، بينما الكل عاجز عن وقفهم أو إنقاذ المسلمين منهم.

ثانيًا: من زاوية الجرائم الدولية:

إزاء تفاقم جرائم إبادة الجنس تقدمت حكومة البوسنة بشكوى إلى محكمة العدل الدولية طالبة الأمر بإصدار أوامر تحفظية بوقف أعمال الإبادة، وإدانة زعماء الصرب المتورطين فيها واستجابت المحكمة للطلب البوسنى ولكن قرارها لم ينفذ، ولكنه أساس للبحث فى إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة مجرمى إبادة الجنس فى يوغوسلافيا السابقة، وقد أعطى اتفاق دايتون دفعة مهمة فى عمل المحكمة التى منع المتهمين بهذه الأعمال من تولى وظائف سياسية وفقًا للاتفاق، بل يبدو أنه أصبح للمحكمة بدعم من الولايات المتحدة اختصاص مباشر فى القبض على بعض من وردت أسماؤهم فى قائمة الاتهام. ولكن هذا التطور مرتبط بالدور السياسى للولايات المتحدة كما سنرى.

ومما يذكر أن مجلس الأمن قد قرر (القرار ٨٠٨ في ١٩٩٣/٢/٢٢) إنشاء هذه المحكمة ولكن عملها جمد عملا حتى اتفاق دايتون. وفى إطار الاتحاد الاتحاد الأوربى انقسم الرأى مثلما انقسمت مواقف الدول خارج بشأن وسائل تسوية المشكلة، ولكن الإجماع كان محققًا حول أن الصرب قد تجاوزوا كل الحدود وأنهم يرتكپون مذابح وإبادة منظمة ورسمية ومتعمدة للعرق البوسنى المسلم، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن الصراع في البوسنة صراع عرقي، بينما رأى بعضهم أنه صراع دينى، ورأى فريق ثالث أنه صراع عرقي دينى فى آن واحد.

ثالثًا: في إطار منظمة المؤتمر الإسلامى:

اهتمت الدول الإسلامية شعوبًا وحكومات، بقضية المسلمين فى البوسنة وزادها غضبًا تقاعس الأمم المتحدة والمجتمع الدولى، ولذلك قررت القمم الإسلامية منذ عام ١٩٩٢ وكذلك المؤتمرات الوزارية بما فيها المؤتمر الوزارى الاستثنائى فى جدة عام ١٩٩٣ إنشاء لجنة اتصال وزارية سداسية تعمل بالتنسيق مع لجنة الاتصال الخماسية الدولية، وذلك للتوصل إلى تسوية سياسية للمشكلة البوسنية، والعمل على وقف أعمال الإبادة الصربية وتقديم العون الإنسانى للمسلمين. أما على المستوى الشعبى الإسلامى فقد قامت الهيئات الأهلية بحملات واسعة للتبرع لمسلمى البوسنة بل تطوع الكثيرون للجهاد فى صفوفهم، وأصبح هؤلاء المتطوعون يشكلون جزءًا هامًا من الجيش البوسنى الحالى، كما عملت

بعض الدول الإسلامية كالسعودية وغيرها على تعزيز مظاهر الوجود الإسلامى فى سراييفو والمدن البوسنية الأخرى.

اتفاق دايتون والموقف الأمريكي:

رغم أن الولايات المتحدة عضو دائم فى مجلس الأمن الذى كان يعالج المشكلة البوسنية، وكانت عضوًا فى لجنة الاتصال الخماسية الدولية حول البوسنة إلا أنه لوحظ أن واشنطن قد تعمدت ترك الفرصة لأوربا بانقسامها حول البوسنة حتى اتضح للجميع عجز أوربا التام، وانقسام المواقف الفرنسية والألمانية. وقد أبدت الإدارة والكونجرس الأمريكيان تعاطفًا مع ضحايا الإرهاب الصربى من المسلمين، وقررت رفع حظر توريد الأسلحة عنهم ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، وخاصة كلما اكتشفت لجان التحقيق مقابر جماعية أو وقعت مذابح جماعية للمسلمين فى «المدن الآمنة» التى تحرسها القوات الدولية وتغلبها القوات الصربية على تركها، واعتقال أفراد القوات الدولية رهائن لدى الصرب، أو ضرب الصرب لطائرات أمريكية وإيطالية، والتنكيل بالوحدة الفرنسية فى قوات الحماية الدولية. وقد اتهمت الولايات المتحدة هى الأخرى بالتقاعس ولكن واشنطن استخدمت المأساة البوسنية وعجز أوربا والأمم المتحدة عن التصدى للصرب وذلك فى حملتها ضد الأمين العام د. بطرس غالى ومبعوثه الشخصى، مثلما اتُّهم الأمين العام من جانب الرأى العام الإسلامى «بتواطئه مع الصرب المسيحيين بوصفه مسيحيًّا هو الآخر»، واعتبرت الجماعات الإسلامية فى مصر هذا الموقف امتدادًا لمواقفهم

ومعاركهم داخل مصر، خاصة وأن الأمين العام صرح علنًا فى برنامج تليفزيونى بأن هذه الجماعات تناهضه ببساطة لأنه مسيحى، وليس بسبب مواقفه السياسية فى البوسنة.

ولما تحققت واشنطن من عجز غيرها عن التسوية عهدت إلى مساعد وزير خارجيتها السفير هول بروك مهمة التمهيد لاجتماع رؤساء البوسنة وكرواتيا ويوغوسلافيا الجديدة فى ١٩٩٥/١٠/٥ والاتفاق على وقف إطلاق النار ثم بدء المفاوضات فى دايتون التى أسفرت عن اتفاق السلام الشامل الذى أعلنه الرئيس كلينتون فى ١٩٩٥/١٠/٢١. وتضمن الاتفاق الاحتفاظ بالبوسنة كدولة موحدة تضم وحدتين متساويتين فى المساحة تقريبا هما الاتحاد الفيدرالى الإسلامى الكرواتى، والوحدة الصربية ذات الحكم الذاتى بأجهزتها ومؤسساتها وبرلمانها وحكومتها والإبقاء على وحدة مدينة سراييفو بحكومة مركزية تتولى السياسة الخارجية والمسائل الخارجية الأخرى التجارية والمالية والمواطنة والهجرة. ثم تقرر اختيار الرئيس والبرلمان بانتخابات ديمقراطية تحت إشراف دولى، وحظر الاتفاق على المتهمين بارتكاب جرائم الحرب المشاركة فى الحياة السياسية وأبرزهم كاراديتش زعيم صرب البوسنة وراتكو ميلاديتش زعيم قوات الصرب. وتعهد الاتحاد الأوربى بالمساهمة فى تنفيذ الأحكام المدنية من الاتفاق وتقديم مبلغ حوالى بليون ونصف بليون دولار لأعمار البوسنة. أما مجلس الأمن فقد قرر رفع العقوبات عن بلجراد وعن أطراف الصراع فى البوسنة، وذلك بعد قبول أطراف الصراع للاتفاق وإقراره فى البرلمان البوسنى فى ١٩٩٥/١١/٣١ والتوقيع النهائى عليه فى باريس فى ١٩٩٥/١٢/١٤.

أما تنفيذ الاتفاق من الناحية العسكرية فقد تولته قوات أمريكية أساسًا بالتعاون مع وحدات من دول أخرى منها مصر ودول إسلامية، واستخدام امكانيات حلف الأطلنطي في تأكيد نجاح تنفيذ الجوانب العسكرية من الاتفاق. وهكذا أثبتت الولايات المتحدة للجميع أنها القادرة على حل المشكلة حيث فشل غيرها، وألقت بثقلها وراء نجاح الاتفاق وتنفيذه.

ورغم ذلك واجه الاتفاق مشاكل هائلة بين المسلمين والصرب، وبين المسلمين والكروات. فرغم أن الاتفاق لم يقض على الوجود المستقل للصرب في البوسنة إلا أنه لم يعطهم حق إعلان دولة خاصة بهم، كما ترك سراييفو تحت سيطرة الحكومة المركزية، ولم يمنحهم ضمانات خاصة فيها، مثلما اقترحت فرنسا، وتعرض زعماؤهم للمطاردة لمحاكمتهم.

أما العلاقة بين المسلمين والكروات فقد تعرضت لمشاكل كثيرة ووصلت إلى حد الصدام العسكري. فقد رفضت كرواتيا تسليم حكومة البوسنة للمنشق المسلم عبديتش الذي تحالف مع القوات الصربية، بل عززت علاقتها به، وأشركت كرواتيا الأقلية الكرواتية البوسنية في انتخابات كرواتيا.

ومن ناحية أخرى احتج الكروات والصرب على ما اعتبروه تأكيد الطابع الإسلامي للجيش البوسني والحياة العامة وسيطرة الحزب الإسلامي بزعامة الرئيس علي عزت بيجوفيتش على هذه المظاهر العامة.

وعلى أية حال، فإن اتفاق دايتون لم يحقق سوى حل وسط واقعي، فإنه أوقف المذابح ضد المسلمين وأعطاهم مع غيرهم فرصة إعادة البناء،

ولكن الواقع ينـذر بتفجـر الموقـف عندمـا ينتـهى أمـر الوجـود العسـكرى الأجنبى فى البوسنة حيث يسعى كل طرف إلى دعم قدراته انتظارًا لهـذا اليوم. وسبب ذلك أن الاتفاق لم يفلح فى صهر الأعراق الثلاثـة فـى دولـة واحدة قوية تعاو فوق الانقسامات العرقية.

ولعل مواقف الأطراف الدولية من المشكلة البوسـنية تسـهم فـى تجـدد المشكلة ومآسيها. فـالدول الإسـلامية التـى تركـز علـى مساعدة المسـلمين وربطهم بالعالم الإسلامى ينظر إلى عملهم بالكثـير مـن الريبـة مـن جـانب الصرب وحلفائهم. أما الصرب فتؤيدهم بلجراد وموسكو وأثينا، كما تؤيـد الكروات دول أوربية أخرى خاصة ألمانيا لإعتبارات تاريخية.

أما بلجراد فهى الأم الكبرى لصرب يوغوسـلافيا، وأمـا موسـكو فـهى عاصمة الكتلة السلافية الكبرى التى ينتمى إليها الصـرب، وتسـاند أثينـا الصرب لاعتبارات دينية وسياسية، ويخشـى أن تـؤدى هـذه التحالفـات الخارجية إلى نسف جهود التعايش بين الأعراق الثلاثة داخل البوسنة.

وقد ظهرت مشاكل ومضاعفات بعد إبرام اتفـاق دايتـون أهمـها تباعد أطراف الاتفاق عما تصوره الاتفاق من إمكانية خلق إرادة مشـتركة للعيـش بين الأعراق الثلاثة. فقد أصر الصرب على التميز والاستقلال عن الدولـة، كما تباعد المسلمون والكروات وتقاتلوا حيـث أصبـح واضحًـا أن الكـروات ينوون الانفصال عن البوسنة ثم الانضمـام لكرواتيـا. كمـا يحـاول الصـرب الشيء نفسه مع جمهورية الصـرب. كذلـك نشـأت مشـاكل بـين حكومـة البوسنة والولايات المتحدة لإصرار الأخيرة على أن تقـوم البوسـنة بـإجلاء

كل القـوات الأجنبيـة (المجـاهدون مـن الـدول الإسـلامية) وعلقـت منـح المعونات الأمريكية على تنفيذها لهذا الالتزام. وهكذا يلـوح شـبح التقسـيم الفعلى للبوسنة، وهو الاحتمال التى تؤكده التطـورات فـى تلـك المنطقـة، وهو احتمال يلحق أشد الضرر بالمسلمين، إذ يحصرهـم فـى رقعـة أرضيـة مغلقة بعيـدًا عـن المنفـذ البحريـة ووسـط جـيران مـن الأعـداء الطـامعين، ولا يستبعد معه أن تتجدد المذابح العرقية.

الفصل الخامس

المشكلة القبرصية

تقع جزيرة قبرص شرقى البحر المتوسط بين تركيا شمالاً وشرقًا واليونان غربًا، وهذا الموقع الجغرافى أفرز واقعها الديموغرافى والسياسى، وتسبب فى مشكلتها الراهنة. وللمشكلة القبرصية وجهان: الأول عام، والثانى الإسلامى، ولا يمكن الفصل بينهما.

ونعالج هذه المشكلة من زاويتها الإسلامية لعدة أسباب **أولها** أن الصراع بين المسلمين واليونانيين فى الجزيرة صراع بين القومية التركية والقومية اليونانية وامتداد للصراع التاريخى بين المستعمر التركى والشعب اليونانى بما يمثل هذا الصراع من أبعاد دينية، حيث اعتبرت أوربا صراحة أن الثورة اليونانية من ١٨٢١ - ١٨٣٠ جزيرة من الحروب الصليبية لاستنقاذ اليونان المسيحية من براثن الاستعمار العثمانى الإسلامى، ولعل هذا البعد الدينى هو الذى منع الغرب من إدماج تركيا فى مجتمع الأمم المتمدينة خاصة بعد صلح باريس ١٨٥٦ الذى أعقب حرب القرم الروسية الأوربية والتركية، ولا يزال هذا هو موقف الغرب من تركيا.

والسبب الثانى هو أن المشكلة منذ بدايتها وخلال مراحلها تتعلق برغبة جالية إسلامية الاستقلال بوحدة سياسية خاصة بها، وأخيرًا أن الدولة المعنية مباشرة بالمشكلة دولة إسلامية وهى تركيا مهما كان انتماؤها الإسلامى مهزوزًا وغير مستقر من الناحية الإسلامية.

وقد بدأت المشكلة عقب استقلال قبرص مباشرة بصراع بين سكانها المسلمين ونسبتهم حوالى ٢٠٪ وسكانها اليونانيين القبارصة، وعرفت المشكلة طريقها إلى الأمم المتحدة التى أنشأت عام ١٩٦٣ فى الجزيرة قوات لفصل السكان ومنع الاحتكاك دون المساس بالنظام السياسى للبلاد. غير أن التحول الحاسم فى تطور المشكلة بدأ باحتلال القوات التركية للجزيرة عام ١٩٧٤ واقتطاع ٤٠٪ من مساحتها للمسلمين القبارصة. وفى عام ١٩٨٣ أعلنت الجالية الإسلامية القبرصية قيام دولة قبرص الإسلامية الشمالية برئاسة رؤوف دنكتاش ولكن مجلس الأمن أصدر قرارًا جماعيًا (سوى صوت باكستان) استنكر فيه إعلان الاستقلال واعتبره تمزيقًا لوحدة أراضى قبرص وسلامة أراضيها، ودعا الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة إلى عدم الاعتراف بهذا العمل، ولذلك لم يعترف بهذه الدولة الناشئة سوى تركيا.

وقد وضعت تركيا ثلاث أولويات فى سياستها الخارجية وهى المشكلة القبرصية ويرتبط بها الصراع اليونانى التركى حول المشكلة وبسبب علاقاتهما الثنائية، والمسألة الثانية هى الاندماج فى أوربا، وأخيرًا المشكلة الكردية (وتأتى حاليا فى المقام الأول)، بحيث يختلف وضع هذه الأولويات وفق كل مرحلة، فتارة تقفز المشكلة الكردية فى الصدارة، وتارة أخرى، تتبادل الأولوية مع المشكلة القبرصية، بحيث يظل الخط الاستراتيجى لتركيا هو الاندماج فى أوربا مع المحافظة قدر المستطاع على علاقاتها الإسلامية، وهى معادلة خلقت لتركيا مشكلة حادة هى تحديد هويتها الأولوية، بين الثابت والمتغير، وبين الأصيل والدخيل فى توجهاتها الخارجية، كما أن هذه المسألة سوف تحسمها التطورات

الداخلية وتطور المجتمع التركى الذى تعتمل فيه عوامل الانقسام بين دعاة العلمانية والاندماج فى أوربا، وبين دعاة الإسلامية وإحياء دولة الخلافة بمفهوم معاصر.

ولقد مرت المشكلة القبرصية فى سياسة تركيا بمرحلتين الأولى ركزت فيها أنقرة على مناصرة مسلمى شمال قبرص وضمان تأكيد العالم الإسلامى لهم، وإبراز الطابع الدينى للمشكلة فى مواجهة المسيحية اليونانية. فى نفس هذه الفترة وهى النصف الثانى فى السبعينات حتى منتصف الثمانينات تقريبًا حاولت تركيا أيضا تكتيل العالم الإسلامى ضد اليونان من منطلق الانتماء الدينى، وبحيث يناصر العالم الإسلامى تركيا فى خلافاتها مع اليونان سواء بسبب قبرص أو بسبب تجدد النزاع حول تقصيم الجرف القارى فى بحر أيجة.

ولقد واجهت تركيا بهذا الطرح المزدوج مواقف مختلفة فى العالم الإسلامى وفى العالم الخارجى، والتبس هذا الطرح مع تحول النظام الداخلى من الحرب الباردة ذات التيارات العنيفة إلى حرب باردة يتقارب فيها العملاقان فى المواقع والمصالح، ثم إلى انتهاء هذه الحرب الباردة، وما يرتبط بكل هذه التطورات من تغير الأهمية الاستراتيجية لعضوى الأطلنطى تركيا واليونان، بعد أن أعاقت الخلافات الثنائية وحول قبرص فعالية الجناح الجنوبى الشرقى لحلف الأطلنطى.

ولقد كان تغير مواقف واشنطن فى ضوء هذه التطورات ذا دلالة؛ ذلك أن الغزو التركى لقبرص عام ١٩٧٤ أثار غضب الكونجرس الذى بادر بفرض حظر توريد الأسلحة إلى تركيا. وقد ردت تركيا بإغلاق معظم

القواعد الأمريكية لديها بما يعنيه ذلك من حرمان واشنطون من الخدمات الاستراتيجية الحاسمة لهذه القواعد المجاورة لمراكز الصناعات الحربية السوفيتية والراصدة للقدرات الحربية السوفيتية، في وقت كانت مفاوضات سولت الأولى قد بلغت مرحلة دقيقة بشأن ضمانات الرقابة والتنفيذ. وأحدث رد الفعل التركى صدمة للإدارة الأمريكية التى ناهضت قرار الكونجرس وتمكنت من إلغائه، مما فُسر على أن واشنطن لا تمانع فى الغزو التركى للجزيرة. غير أن معارضة واشنطن الحازمة للحكم العسكرى التركى آنذاك، وتمسكها بوحدة الجزيرة وعدم الاعتراف بالدولة الإسلامية فى قبرص الشمالية قد أعاد التوازن للموقف الأمريكى.

ولا شك أن انتهاء الحرب الباردة وانحسار أهمية تركيا الاستراتيجية من زاوية المصالح الاستراتيجية الأمريكية، وتزايد التيار الإسلامى فى تركيا، وقوى اللوبى اليونانى فى الولايات المتحدة، فضلاً عن التعاطف الأمريكى التقليدى مع اليونان لاعتبارات تاريخية وسياسية متنوعة، دفع واشنطن إلى اتخاذ موقف حازم ضد قيام الدولة الإسلامية فى قبرص، وتجدد محاولات تسوية المشكلة القبرصية على أساس وحدة الجزيرة وسلامة أراضيها، والعمل على احتواء الصراع المتجدد بين تركيا واليونان حول قضايا البحر الإقليمى فى بحر إيجة، رغم أن واشنطن تقدر لتركيا دورها فى مساندة السياسة الأمريكية فى أزمة الخليج، ورقابة مناطق الحظر الجوى التى تفرض واشنطن على شمال العراق وجنوبه، وأخيرًا فى توثيق أواصر التعاون العسكرى بين تركيا وإسرائيل.

وقد عكس موقف الأمم المتحدة من المشكلة القبرصية الظروف التى مرت بها المشكلة حيث تمسك مجلس الأمن بوحدة الجزيرة وشجع على

محاولات التسوية السياسية وإزالـة الاحتـلال الـتركى، والرفـض القـاطع لتجزئة الجزيرة وإقامة دولة إسلامية فيها، وعدم الاعتراف بها. وأصبح هذا الموقف تقليديًـا ابتـداء مـن منتصـف الثمانينـات ممـا أدى إلى صـدور قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة حول قبرص بدون تصويت، بعد أن كانت فى العقد السابق مباشرة محل اختلاف عند التصويت. أمـا الموقـف فى الجزيرة فقد تجمد عند هذا الحد: انقسام فعلـى دون اعـتراف الـدول الأخرى بـه، واسـتمرار تعبيرهـا عـن أملـها فـى تجـاوزه وإعـادة توحيـد الجزيرة، وإزاحة الاحتلال الأجنبى، دون ذكر اسم تركيا مراعـاة لبعـض الحساسيات معها.

أما فى الإطار الإسلامى فقد اعتقدت تركيا أن قيام دولة إسـلامية فـى قبرص سوف يحظى باهتمام الدول الإسلامية بمـا يغطـى علـى الاحتـلال التركى العسكرى للجزيرة، ولذلك عمدت تركيا إلى إظهار الاهتمام بمنظمة المؤتمر الإسلامى بشكل مفاجئ فاستضافت مؤتمرهـا الـوزارى عـام ١٩٧٦ قبل أن تكون عضوًا فى المنظمة، وحرصت علـى أن تكـون قضيـة الأقليـة الإسلامية فى قبرص على رأس جـدول أعمـال المؤتمـر الـوزارى، ودعـت رؤوف دنكتاش(*) لعرض قضية اضطهاد الأقلية الإسلامية، وتصدى تركيا لحمايتهم وحقهم فى تقرير مصيرهم بإقامة دولة لهم مما يزيد عدد الـدول الإسلامية.

ولكن الدول الإسلامية التى أبدت تعاطفًا مع مسلمى قبرص لم تقتنـع بالطرح التركى وقررت فى وضوح أنها لا تقـر لأيـة أقليـة إسـلامية بحـق

---

* زعيم القبارصة الأتراك .

الاستقلال وإقامة دولة مستقلة، ولكنها تساند بقوة حق هذه الأقلية في مراعاة خصائصها الثقافية والدينية في إطار الدولة التي تعيش فيها ودون المساس بسيادتها ووحدة أراضيها، ولا تشجع الانفصال أو احتلال أراضي الغير تحت أي ظرف أو مبرر، وتمسكت قرارات المؤتمرات الإسلامية المختلفة بوحدة جزيرة قبرص وسلامة أراضيها، وهو نفس الموقف الذي تؤكده الأمم المتحدة ويتمشى مع الموقف اليوناني. والحق أن تفسير موقف الدول الإسلامية يرجع إلى عدة اعتبارات: الأول: أن موقف اليونان من القضايا العربية خاصة القضية الفلسطينية كان دائمًا متعاطفًا مع الحق العربي والإسلامي خاصة في القدس، ورفضت اليونان الاعتراف القانوني بإسرائيل رغم كل الضغوط الأوربية والأمريكية ضدها حتى وقت قريب، رغم أن اعترافها القانوني لا الفعلي بإسرائيل كان شرطًا من شروط انضمام حكومة اليمين اليوناني برئاسة كرامليس إلى السوق الأوربية عام ١٩٨٠.

أما على الجانب الآخر، فإن تركيا التي اعترفت بإسرائيل منذ عام ١٩٤٩ وهي آنذاك في صف الغرب بموجب مذهب ترومان في أوج بدايات الحرب الباردة وقمة التيار العلماني، تزداد روابطها توثقًا مع إسرائيل، بل بلغ اليوم هذا الترابط مبلغ التحالف العسكري الذي فسر في العالم العربي على أنه إحياء لسياسة الأحلاف يوم أن كانت أنقرة أحد المحاور الرئيسية المعادية للمنطقة العربية.

أما استمرار اهتمام تركيا بالعالم الإسلامي رغم فشل مساعيها لتأمين مساندته لموقفها في قبرص، فيرجع إلى رغبتها في الاستفادة الاقتصادية والتجارية خاصة من دول الخليج، ولذلك لوحظ أن مواقفها السياسية من القضايا الإسلامية المرتبطة بها مباشرة كانت فاترة، فلا يمكن مقارنة

موقف تركيا الباهت إزاء مسلمي البوسنة بموقف اليونان أو روسيا المساند تمامًا للصرب. كذلك لا يمكن مقارنة موقف تركيا من قضايا آسيا الوسطى الإسلامية بموقف الاتحاد الروسي من هذه القضايا وهو موقف مصبوغ بالصبغة الدينية إلى حد كبير، وأخيرًا نشير إلى موقف تركيا الضعيف من قضية الشيشان.

وأخيرًا تجدر الإشارة إلى مواقف المنظمات الأهلية فى الدول الإسلامية المختلفة حيث تعتمد المنظمات على المشاعر الدينية والإخاء الإسلامى دون مراعاة للمحاذير السياسية التى تراعيها الحكومات عادة فى نظرها للقضايا الإسلامية، فاتخذت هذه المنظمات مواقف مؤيدة لقيام دولة إسلامية في قبرص، وانتصرت لإخوانهم المسلمين فى شمال قبرص ضد ما يسمونه بالاضطهاد الصليبى، وبالاستئناف المعاصر للعداء الصليبى للمسلمين خاصة وأن أراضى قبرص كانت قد لعبت دورًا هامًا فى ملحمة الصراع بين المسلمين والصليبيين منذ القرن العاشر الميلادى. وكانت قبرص ومالطة من المحطات الأساسية فى البحر المتوسط لدعم حملات الصليبيين ومنهما انطلق فرسان القديس يوحنا المعمدان. فكأن التاريخ الصليبى لقبرص قد قفز إلى ذاكرة المنظمات والهيئات الأهلية، فربطت بين الأمس واليوم وتشكل وعيها السياسى على أساس هذه العوامل، وامتد نظرها تعزيزًا لرأيها، إلى مغزى الصراع التركى اليونانى واضطهاد أوربا المسيحية للدولة العثمانية طوال القرون السابقة حتى أجهزت على صفتها الإسلامية بإلغاء الخلافة. ويضيف إلى المغزى الدينى للقضية أهمية الخلافة الإسلامية الرمزية فى القسطنطينية التى كانت مقرًا للروم، وما يعنيه ذلك فى الوعى التاريخى الإسلامى.

الفصل السادس

مشكلة كشمير

رغم أن مشكلة كشمير تعتبر بمعظم المقاييس من قضايا الأقليات الإسلامية على أساس أنها مشكلة جالية إسلامية فى دولة غير إسلامية، إلا أن المشكلة تتميز بأمور ثلاثة تجعلها مشكلة قائمة بذاتها. **الأمر الأول** أنها مشكلة أنتجتها عقود الصراع والشقاق الدينى بين المسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية وما أدى إليه ذلك من تقسيم البلاد ونقل للسكان حسب دياناتهم، ولا تزال المشكلة تعد امتدادًا للصراع القديم ولكن بأوضاع أخرى. **والأمر الثانى** أن المشكلة تعتمد فى تطورها على العلاقات الباكستانية الهندية المحكومة بظروف وأوضاع معينة. **والأمر الثالث** هو أن المشكلة لا تتعلق فقط بمعاملة الهند لجالية مسلمة كان يجب أن تكون جزءًا من باكستان، ولكنها تتعلق بالخلاف حول الإقليم الذى تقيم فيه الجالية نفسها. وهذا الاعتبار الأخير هو الفيصل بين وضع المشكلة كمشكلة أقليات، ووضعها ذى البعد الإقليمى. ولإيضاح ذلك نشير إلى أن الدعم الإسلامى للأقلية الإسلامية فى الفلبين مثلا قد يصل إلى حد المطالبة لهم بدولة على إقليمهم جنوب الفلبين، أو الحكم الذاتى فى نطاق سيادة الفلبين وتحت سلطان حكومة مانيلا، بينما المساندة الإسلامية للأقلية الإسلامية فى بريطانيا أو فرنسا لا يعنى المطالبة لهم بالاستقلال فى إقليم داخل الأراضى البريطانية أو الفرنسية، وإنما قصارى ما يحتاجون إليه من دعم هو مساعدتهم على تأكيد هويتهم الثقافية

الإسلامية، ومطالبة الحكومة البريطانيــة أو غيرهـا باحـترام هـذه الهويـة وحمايتهم من الاعتداء عليها، باعتبارهم رعايا هذه الدولة.

ترجع مشكلة كشمير إلى ذلـك الصراع الدامـى والمذابـح بـين المسلمين والسيخ والهندوس، وفشل حزب المؤتمر الهندى فى احتواء الصراع الدينى المتأجج فى شبه القارة الهندية واحترام الهوية الإسـلامية لمسلمى الهنـد. وقد تفاعل المسلمون الهنـود مـع التيـارات الكـبرى فـى العـالم الإسـلامى فسـاندوا أفكـار جمـال الديـن الأفغـانى واشـتركوا فـى كافـــة المؤتمـرات الإسلامية التى أعقبت سقوط الخلافة الإسلامية فى القـاهرة ١٩٢٤ ومكـة المكرمة ١٩٢٦ والقدس ١٩٣١. ولا شك أن معاناة المسلمين فـــى الهنـد قـد لقيت صدى فى العالم الإسلامى الذى رحب بتقسيم شـبه القـارة الهنديـة علـى أسـاس الأغلبيـة الدينيـة فـى المنـاطق المختلفـة، فنشـأت فـى ١٩٤٧/٨/١٥ دولة باكستان الإسلامية. ولما كان التقسيم على أساس نسبة المسلمين وغيرهم فى المناطق الهندية، فقد أعقب التقسيم عمليـات واسـعة لانتقال السكان، كمـا أحـدث التقسيم أوضاعًـا أضحـت معـها الأقليـات الدينية ظاهرة مألوفـة، فضـلاً عـن أن أراضـى باكسـتان كـانت تعترضـها وتقطعها آلاف الأميال من الأراضى الهندية، كما تركـت جيوبًـا إسـلامية تحت الحكم الهندى ظلت ترنو ببصرها إلى الدولة الأم الجديدة. ومن أهم هذه الجيوب جامو وكشمير وهما ولايتـان تسـكنهما الأغلبيـة المطلقـة مـن المسلمين وتُحكـم حكمـا مباشـرا مـن نيودلهـى خلافـا لمـا يقـرره الدسـتور الهندى للولايات الهندية فى الاتحـاد الهنـدى مـن سـلطات واسـعة فـى الإدارة وغيرها.

وكان طبيعيًا أن تتشكل حركات إسلامية قوية تطالب إما باستقلال كشمير أو بحكم ذاتى واضح أو الانضمام إلى باكستان. وقد حكمت مشكلة كشمير عوامل أساسية أهمها تطور العلاقات الهندية الباكستانية، وعلاقات التحالف لكل من الهند وباكستان.

أولاً: العلاقات الهندية الباكستانية:

منذ إنشاء باكستان على أساس إسلامى والصراع بين البلدين يدور حول سعى كل منهما إلى تكوين تحالفات ودعم القدرات والعمل على إضعاف الطرف الآخر. ولما كان إنشاء باكستان قد صادف اشتداد الحرب الباردة الأولى، فقد اتجهت الهند – على خلاف المتوقع – إلى الاتحاد السوفيتى بعد أن وجدت صعوبات كبيرة فى التحالف مع الغرب أو إضعاف التحالف الغربى الباكستانى، أما باكستان فقد تحالفت مع الغرب فى وقت كانت الأحلاف الإقليمية من أهم أدوات الحرب الباردة، وأحد أهم وسائل الغرب لمنع انتشار الشيوعية. وكان الغرب على ثقة من مناعة الهند ضد الشيوعية بسبب تقاليدها الديمقراطية الموروثة عن بريطانيا، كما كان مطمئنا إلى صلابة باكستان بسبب قيامها على الإسلام المناهض بطبيعته للشيوعية المنكرة لكل الأديان.

وهكذا مالت باكستان إلى العالم الإسلامى والغرب، كما عملت الهند على كسب صداقة الاتحاد السوفيتى، ثم تأسيس حركة عدم الانحياز التى اتُخذتها أداة لمناوأة الغرب وباكستان معًا. ثم حدث تقارب بين الصين وباكستان عندما حدثت مواجهات مسلحة على الحدود بين الصين

والهند عام ١٩٦٢. ويبدو أن هذه وغيرها من دوافع الهند إلى إضعاف باكستان كانت أسبابا كافية لمساندة الهند لحركة انشقاق باكستان الشرقية وقيام بنجلاديش عام ١٩٧١، وحيث تحالفت الهند بشدة مع الاتحاد السوفيتي لتحقيق هذا الغرض. وعندما تراخت الحرب الباردة تغيرت الاهتمامات الأمريكية، فنشأت مشاكل وصراعات بين باكستان والولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الباردة. ذلك أن أهمية باكستان الاستراتيجية قد انحسرت مما أدى إلى تقارب هندى أمريكي، فضلاً عن أن التسلح النووى الباكستانى قد اعتبر موجها إلى إسرائيل فيما عرف بالقنبلة الإسلامية، ولذلك طفت على سطح العلاقات الأمريكية الباكستانية مسائل جديدة أهمها المسألة النووية، والإرهاب والديمقراطية والأصولية والمخدرات. وتجدر الإشارة إلى أن التوافق الباكستانى الأمريكى فى شأن دعم مجاهدى أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتى قد أسهم فى توثيق علاقاتهما، فتوافق زوال الاحتلال السوفيتى مع انحسار آخر موجات الحرب الباردة، ومن ثم دخول العلاقات بينهما فى مرحلة ثنائية الصراع كما ذكرنا.

وقد اتسمت علاقات البلدين بالتوتر المستمر وسباق التسلح خاصة النووى بعد أن أعلن عن تصنيع الهند لقنبلة ذرية، وتصاعد التوتر ودخول البلدين فى حرب واسطة النطاق عام ١٩٦٥ توسط الاتحاد السوفيتى لوقفها ولإبرام اتفاقية طشقند عام ١٩٦٦ لتسوية المنازعات المختلفة بين البلدين. وكانت مشكلة كشمير ضمن عوامل التوتر فى العلاقات الثنائية، كما كانت أحد أهم عوامل هذا التوتر فى نفس

الوقت، ولم تستطع الدولتان تسوية المشكلة بسبب رفض الهند قرارات الأمم المتحدة التى نظرت المشكلة منذ عام ١٩٤٩ لأن هذه القرارات تطلبت حل المشكلة على أساس منح سكان كشمير الحق فى تقرير مصيرهم، وهو ما يعني أن يختار السكان إما الاستقلال عن الهند وهم في قلب الأراضى الهندية، أو الانضمام إلى باكستان وهو مستحيل عملاً سواء لاستحالة ضم كشمير إلى باكستان، أو استحالة نقل سكان كشمير إلى الأراضى الباكستانية.

ويرنو سكان كشمير إلى مساندة باكستان وتبنى شكاوى ضد عسف السلطات الهندية، بينما تتهم الهند باكستان بإثارة الجماعات الإسلامية النشطة لمقاومة السلطات الهندية. ونظرًا لتعقد المشكلة على النحو السالف إيضاحه فقد اتفقت الهند وباكستان فى اتفاقية سيملا عام ١٩٧٢ على تسوية المشكلة بجهود ثنائية خارج إطار الأمم المتحدة، وهذا هو السبب فى عدم نظر الأمم المتحدة لها منذ ذلك العام لمشكلة كشمير. ولكن باكستان بدأت تطالب مرة أخرى بتسوية مشكلة كشمير على أساس حق تقرير المصير مما جدد الخلاف بين الهند وباكستان خاصة كلما وقعت أحداث ومواجهات بين مسلمى كشمير والسلطات الهندية أو بعض متطرفى السيخ والهندوس الذين يتعمدون الإساءة لمشاعر المسلمين ودور عبادتهم.

ثانيًا : تطور الموقف الأمريكي والمتغيرات الدولية من كشمير:

أيدت واشنطن مواقف باكستان في كشمير وغيرها، وفى المواجهات العسكرية مع الهند منذ ١٨٤٧ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧١ وكلها تمت فى إطار

الحرب الباردة وحلقة المحالفات التى أشرنا إليها، حيث وقفت موسكو مع الهند على الطرف الآخر. وقد عكس موقف واشنطن وتطوره تحـولات النظام الدولى فبعد مساندتها التامة لباكستان وقرارات الأمم المتحدة، تحولت واشنطن إلى مساندة الحلول السياسية والدبلوماسية، وأخيرًا أدى التقارب الهندى الأمريكى فى التسعينات - مقابل التوتر فى العلاقات الأمريكية الباكستانية - إلى إعلان واشنطن عدم تدخلها فى المشكلة إلا بموافقة الهند. وفى ظل الموقف الأمريكى الجديد سكتت واشنطن عن انتهاكات حقوق الإنسان فى كشمير خاصة عام ١٩٩٥ عندما دمرت الهند مسجدًا أثريا عمره عدة قرون فى كشمير وهدمت آلاف المساكن مما دفع باكستان إلى إعلان تضامنها التام مع شعب كشمير والمطالبة بتطبيق قرارات الأمم المتحدة حول تقرير المصير. وقد لاحظ بعض الدارسين أن واشنطن التى تحرص على توازن القوى بين الهند وباكستان تحرص أيضًا على تخفيف التقارب الصينى الباكستانى ودفع الهند وباكستان لدعم سياستها ضد الصين، ولذلك ذبل اهتمامها بقضية كشمير إزاء أولوياتها الجديدة، وهو ما يتعارض مع مصالح باكستان، وينسجم مع تركيز الدبلوماسية الهندية على حصر المشكلة بين الهند وباكستان دون تدخل أطراف ثالثة.

ثالثًا: الموقف الإسلامى من كشمير:

يجب أن نميز بين الموقف الشعبى، والموقف الرسمى، وموقف منظمة المؤتمر الإسلامى من مشكلة كشمير. فالشعوب الإسلامية تتعاطف تعاطفًا ظاهرًا مع سكان كشمير المسلمين كما تتفهم حركات الكفاح ضد تجاوز السلطات الهندية وتشعر بالأسى لما يصيب هذا الشعب من نكبات

لاستمرار القهر الذى يعانيه وتؤيد تدخل باكستان للدفاع عن جزء من شعبها المسلم. أما الموقف الرسمى الإسلامى فإنه يوفق بين حساسيات علاقاته مع الهند وتضامنه مع شعب كشمير. وأما موقف منظمة المؤتمر الإسلامى والذى يعكس إلى حد ما المواقف الرسمية الإسلامية فقد مر بمرحلتين: المرحلة الأولى منذ قيام المنظمة وحتى منتصف الثمانينات احترمت منظمة المؤتمر الإسلامى الاتفاق الهندى الباكستان حول طرق تسوية المشكلة الكاشميرية والتى كانت تدور حول ما تقرر فى سميلا عام ١٩٧٢ حيث اتفقت الدولتان على تسوية المشكلة بالطرق السياسية الثنائية بعيدًا عن المحافل الدولية. وكان هذا الاتفاق تعديلاً فى موقف الأمم المتحدة التى قررت منذ عام ١٩٤٨ ضرورة منح سكان كشمير الحق فى تقرير المصير عن طريق الاستفتاء. وكان سبب هذا الموقف ليس التعاطف مع الشعب المسلم فى كشمير، وإنما لأن الجمعية العامة كانت تخضع للسيطرة الأمريكية، وكانت باكستان جزءًا من بنية التحالفات الغربية وسلسلة الأحلاف العسكرية التى انتظمت معظم دول المنطقة من جنوب شرق آسيا حتى الشرق الأوسط والعالم العربى. وربما كان هذا الوضع الباكستانى هو الذى أدى إلى تناقض مواقف بعض الدول الإسلامية بسبب تحالفها مع الهند غير الموجه إلى باكستان وحرصها على عدم إغضاب الهند عن طريق مساندة شعب كشمير والنموذج الواضح لذلك هو موقف مصر.

أما المرحلة الثانية فى موقف منظمة المؤتمر الإسلامى من مشكلة كشمير والتى بدأت منذ منتصف الثمانينات فتتلخص فى تغير التحالفات

الإقليمية وتيارات التحالفات العالمية والتى أدت إلى إصرار باكستان على التخلى عن اتفاق سيملا الموقع عام ١٩٧٢ والدخول فى سباق التسلح النووى مع الهند رغم التحفظات الأمريكية بسبب إسرائيل، وكانت أحد نتائج هذا التوجه الباكستانى هو إدراج قضية كشمير على جدول أعمال المؤتمرات الإسلامية، ونلاحظ فى هذا الصدد أن منظمة المؤتمر الإسلامى لم تشأ أن تدخل طرفًا فى القضية.إلا منذ سنوات قليلة فى بداية التسعينات حيث درجت المنظمة الإسلامية على نظر المشكلة والإعلان عن مساندتها لكفاح شعب كشمير. ويبدو أن باكستان لا تمانع فى تسوية المشكلة بالمفاوضات المباشرة مع الهند، وكشفت عن هذه النية فيما تضمنه بيان لاهور الصادر يوم ١٩٩٩/٢/٢١ عقب زيارة رئيس وزراء الهند للاهور بالقطار مفتتحا أول خط حديدى بين البلدين ومعلنا عن ضرورة الحوار بدلا من المواجهة لتوقى آثار المواجهات والتوترات الأخيرة والتى تزداد خطورتها بعد دخول البلدين فى سباق التسلح النووى رسميا منذ أواخر عام ١٩٩٨.

الفصل السابع

المشكلة الأفغانية

عاشت أفغانستان الإسلامية مملكة فقيرة فى أطـراف العـالم الإسـلامى شرقًا وتتصل بدول آسيا الوسطى الإسلامية اقتصاديًّا واجتماعيًّا وحدوديًّا، وهى من الدول الأشد فقرًا فى العالم. وكانت أفغانستان محط أطماع روسيا وبريطانيا شأنها شأن دول آسيوية أخرى ولكن نفوذ الدولتين لم يؤثر على سير الحياة فيها. غير أن مشـكلة أفغانسـتان بـدأت بمحـاولات موسـكو المبكرة صوب أفغانستان خاصة منذ النصف الثانى مـن السبعينات حتـى تمكنت موسكو من التغلغل فى الإدارة والجيش وانتهى الأمـر إلى احتـلال القوات السوفيتية للبلاد فى ديسمبر ١٩٨٠.

وقد نشأ النظام الملكى فى أفغانسـتان منـذ ١٧٤٧ بعـد خـروج الفـرس الذين أسسوا قبل خروجهم دولة موالية لهم فى أفغانستان برئاسـة أحمـد شاه لورانى ثم تـوج محمـد ظـاهر شـاه آخـر ملـوك أفغانسـتان ملكـا فـى ١٩٣٣/١١/٨ وأطيح به فى ١٩٩٣/٧/١٧. وقد انتهج الملـك خـط أجـداده فى الحياد وعدم التأثر بالدول المجاورة للمحافظـة علـى اسـتقلال البـلاد بين المطرقـة السـوفيتية فـى الشـمال والسـندان البريطـانى فـى الجنـوب. ولم يكن دخول الملك فى محالفات عام ١٩٣٧ مـع إيـران والعـراق وتركيـا سوى محاولة لتعزيز جبهة الحياد فى الصراعات المحيطة ببلاده؛ ولكـن حياد أفغانستان قد تعرض لهزات عنيفة خصوصًا بعد قيام الحرب الباردة فاتجه بها رئيس وزرائها داود محمد صوب موسكو ثم عاد رئيس الـوزراء

محمد يوسف فاتجه بها شطر الغرب، ولكن داود ابن عم الملك دبر انقلاباً ضده وألغى بعده الملكية وحاول تطوير البلاد والحصول على العون من كل الاتجاهات ولكنه لم يتمكن من العثور على موْطئٍ قدم ثابت فى هذا الخضم فانتهزت موسكو الفرصة وعززت وجودها داخل الجيش الأفغانى الذى تمكن اليسار فيه من الانقلاب على داود محمد وقتله فى أبريل ١٩٧٨ وكانت تلك بداية المأساة الأفغانية حتى هذه اللحظة. وعندما احتلت موسكو أفغانستان عام ١٩٨٠ لم تكن تتخيل أن تلك نهاية الإمبراطورية السوفيتية والمسمار الأخير فى نعشها.

كان رد الفعل الداخلى للغزو السوفيتى عنيفًا. ففى الداخل قامت حركة المجاهدين الأفغان من مختلف مناطق أفغانستان بتوحيد صفوف الفصائل الثمانية الرئيسية بمقاومة الاحتلال لمدة ثمانى سنوات. وقد وجدت واشنطن فى هذا الغزو فرصة نادرة لإضعاف القوة السوفيتية خارج أراضيها لكى تنتقم من مساندة السوفييت لفيتنام وذلك فى فصل جديد عرف بفيتنام السوفيتية.

فى ضوء ما تقدم قدمت واشنطن دعمًا موصولاً للمجاهدين والدول الإسلامية المؤيدة لهم، وبلغ دعمها للمجاهدين أن أمدتهم بصواريخ استراتيجية، وكادت تعترف بهم بديلاً عن حكومة كابول. كذلك ساندت واشنطن الحملة الدولية فى الأمم المتحدة المناهضة للغزو، والتى تمثلت فى قرارات إدانة (الغزو العسكرى الأجنبى لأفغانستان) وطالبت بعدم الاعتراف بالحكومة الأفغانية المتواطئة مع الغزو، ورفضت ما حاولت موسكو تبريره بأنه احتلال بناء على دعوة الرئيس الأفغانى نجيب الله

الذى قتلته منــذ اللحظـات الأولى للغـزو Intervention by inviatation.
وتضمنت قرارات الأمم المتحدة أيضا دعـم المجـاهدين الأفغـان وتخفيـض مستوى التمثيل الدبلوماسى مع كابول.

أمـا العـالم الإسـلامى فقـد وقـف رسميـا وشعبيا إلى جـانب الجـــهاد الأفغانى، وسارعت منظمة المؤتمر الإسلامى منذ وقوع الغزو الســوفيتى إلى إدانته، ووقف عضوية الحكومة الأفغانية فى المنظمة. وعندما بدأ الجـــهاد الأفغـانى بعـد عـدة شـهور مـن بـدء الغـزو سـاندت المنظمـة المجـــاهدين وزعمائهم عبد رب الرسول سياف وربانى وحرصت علـى التنسـيق بينـهم والتوفيق بين فصائلهم. ثم قررت المنظمة إنــهاء وقـف عضويـة أفغانسـتان عام ١٩٨٨ والسماح للمجاهدين بـدلاً مـن الحكومـة الأفغانيـة، وسـاندت واشنطن هذا الاتجاه ولكنها تحفظـت علـى السـماح للمجـاهدين بتشـكيل حكومة فــى المنفـى، رغـم أن الرئيـس الأمريكـى التقـى بـهم فـى البيـت الأبيض، وترك انطباعًا قويًا بأنه على وشك الاستجابة لمطالبهم السياسية والدبلوماسية.

وقد استغلت واشنطن التورط السوفيتى فــى أفغانســتان. ويذهـب كثـير من الدارسين إلى أن تورط موسكو فى أفُغانستان لــدة ثمـانى سـنوات أدى إلى مشاكل معقدة فى تركيب الجيش السوفيتى المحـارب فى أفغانســتان، وإلى خسائر فادحة وعجـز موسـكو عـن إنـهاء الورطـة، بـل يـرى هـؤلاء الدارسون فى التحليل الأخير أن المغامرة الأفغانيــة قـد أسـهمت – ضمـن عوامل أخرى طبعًا – فى تمزيق الاتحاد السوفيتى وانــهيار قوتـه. ولذلـك اضطرت موســكو إلى إبـرام اتفاقيـات جنيـف ١٩٨٨ مـع واشـنطن والأمـم

المتحدة والمجاهدين لكى يواكب الانسحاب السوفيتى ظهور بوادر انـهيار الإمبراطورية السوفيتية. ولاشك أن السعى إلى إنهاء الحرب الأفغانيـة قـد بدأ بوصول الرئيس جورباتشوف إلى الحكم عام ١٩٨٥ وهو الذى استشـعر وطأة استمرار التـورط السـوفيتى خـارج أراضيـه. ولقـد كـان الجـهاد ضد «الغزو الشيوعى الملحد» من العوامل الهامة التى دفعت عددًا مـن أعضـاء الجماعـات الإسـلامية فـى كثـير مـن الـدول الإسـلامية إلى الانضمـام للمجاهدين، مما سبب مشاكل أمنية لباكستان بعد انتهاء الاحتلال حتـى الآن، كما انخرط بعضهم في الحـرب الأهليـة التـى أعقبـت الانسـحاب. ذلك أنه بعد إتمام الانسحاب تشكلت الخريطة السياسية فـى أفغانسـتان من القوى الآتية:

حزب الجمعية الإسلامية بزعامـة ربـانى المتحـالف مـع أحمـد شاه مسعود بطل الجهاد الأفغانى ضد موسكو، والحـزب الإسـلامى بزعامـة قلب الدين حكمتيار المتحـالف مع عبد الرشيد دستم الشيوعى السابق مـن أصل أمريكى وزعيم الميليشيات الأوزبيكيـة. ومعلـوم أن ربـانى مـن أصل طاجيكى، وأن الطاجيك هم وحدهم المتحدثون باللغة الفارسـية فـى وسـط آسيا. ويشار أيضا إلى أن حركة طالبان والتى كانت تضم الفقراء المنخرطين فى المدارس الدينية من الأفغان فى باكستان كانت ضمن القـوى المحاربـة ضد الشيوعية الملحدة، وأنها انتظرت أن يلتئم شمل المجـاهدين، وتحـل حكومة وحدة وطنية محل الغزو السوفيتى دون جدوى. ولذلك يشار عادة إلى أن الصراع الباكستانى الإيرانى قـد بـدأ خـلال حـرب الجـهاد حيـث أيدت باكستان حركة الطالبان ضـد الأقليـة الطاجيكيـة والأوزبكيـة التـى

تؤيدها إيران والهند وروسيا بينما وجدت الولايات المتحدة فى مساندة الطالبان فى البداية فرصة للضغط على ربانى لقبول مشروع التسوية السياسية الذى عرضته الأمم المتحدة، ولكنها واصلت مساندتها لطالبان مع التحفظ على اتجاهاتها الإسلامية الصارمة. وقد بلغ الاعتقاد بعلاقة طالبان بالأمم المتحدة وباستخدامها أداة للضغط على حكومة كابول أن وصفت طالبان بأنها فصائل مجاهدين تابعة لمحمود المستيرى الممثل الخاص للأمين العام فى أفغانستان واتهموها بالحصول على ٢٥ مليون دولاراً من الأمم المتحدة.

وبانسحاب القوات السوفيتية ١٩٨٩/٨٨ كان يؤمل أن تتقدم فصائل المقاومة إلى تولى مسئولية الحكم الوطنى، ولكن أفغانستان التى عانى شعبها من وطأة الاحتلال والمقاومة وقعت فريسة مرحلة جديدة أشد وطأة وهى الحرب بين رفاق الجهاد، ثم تعقدت المشكلة بانقسام بعض الدول الإسلامية فى تأييدها لفصيل أو آخر، مما جعل أفغانستان ساحة لصراعات إسلامية على أرض أفغانية وبأيد نفس المجاهدين الذين جمعهم والعالم الإسلامى هدف واحد وهو إخراج السوفييت الغزاة.

وقد سيطرت أجنحة المجاهدين على الأقاليم الأفغانية حيث شكل الرئيس ربانى حكومة كابول وأسند إلى أحمد مسعود وزارة الدفاع، بينما ظل عدد من الفصائل الأخرى مسيطرة على بعض المحافظات. ثم ظهرت حركة الطاليبان التى تحدث بقية الفصائل الأخرى، وأشادت بعض الدراسات إلى أن السعودية ودول الخليج وباكستان ساندت الطاليبان بينما أيدت إيران والهند وروسيا حكومة ربانى، وانتهى الأمر إلى تقسيم

أفغانستان بين حركة الطاليبان التى سيطرت على أكثر من ٩٠٪ من الأقاليم بما فيها كابول، بينما سيطر الجنرال رستم، والجنرال أحمد شاه مسعود على أقاليم أخرى.

وإذا كانت الأمم المتحدة والمؤتمر الإسلامى ومعظم أعضاء المجتمع الدولى قد أجمعوا على مساندة الشعب الأفغانى المسلم خلال جهاده ضد الغزو السوفيتى، كل لهدف يسعى إلى تحقيقه، فإن الأمم المتحدة والمجتمع الدولى قد عجزوا عن إقناع أطراف الصراع الأفغانى بوقف القتال والتوصل إلى تسوية سياسية وتشكيل حكومة انتقالية تمهيدًا لإنشاء حكم ديمقراطى منتخب.

وقد لوحظ التعاون والتنسيق بين الأمم المتحدة والمؤتمر الإسلامى فيما قام به المبعوثان الخاصان لكل من الأمينين العامين للمنظمتين بشأن أفغانستان. ورغم الجهود المبذولة فى المنظمتين العالمية والإقليمية والمبادرات وخطط السلام المقدمة منهما لوقف القتال والإشراف على الهدنة ومحاولة إشراك كافة الفصائل وشرائح المجتمع الأفغانى، على النحو الذى نقدمه ببعض التفصيل فيما يلى من صفحات، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا المنهج وإصرار الأمم المتحدة والمؤتمر الإسلامى على ضرورة التسوية السياسية التى تشارك فيها جميع القوى السياسية من البلاد، واستبعاد الحل العسكرى تماماً كان فى واد، وما يجرى على الأرض فى واد آخر. فقد ظهرت منظمة الطاليبان Taliban منذ عام ١٩٩٤ فى ظروف عجزت فيها كافة الجهود الدولية والإسلامية عن إقناع أطراف الأزمة بحل سياسى لأكثر من عامين ١٩٩٢ – ١٩٩٤، وارتبط

ظهورها وأسهم فى فشل هذه الجهود، عندما لقيت طاليبان مساندة باكستان والسعودية وهما ضلعا الثلاثى الرئيسى الإسلامى إلى جانب إيران، فكانت المبادرات السياسية تواجه معارضة ربانى بسبب مساندة نفس الأطراف كحركة الطاليبان المناهضة خاصة وأن العلاقة بين الأمم المتحدة وربانى قد تدهورت الأمر الذى عكسه السفير محمود المستيرى الممثل الخاص السابق لسكرتير عام الأمم المتحدة الذى اتهم مراراً حكومة ربانى بعرقلة خطط السلام ورفضها نقل السلطة إلى حكومة انتقالية مؤقتة.

وعلى الجانب الآخر تساهلت حكومة ربانى - أو نظمت - أعمالاً إرهابية ضد السفارة الباكستانية فى كابول، بينما أسقطت الطالبيان طائرة روسية كانت تقل أسلحة لحكومة ربانى، واحتجزت طاقمها أسرى، ورفضت جهود الإفراج عنهم، ولكنها سهلت فرار هؤلاء الأسرى - على ما يبدو - تجنبًا لتعقيد الموقف مع الأطراف الساعية لإطلاق سراحهم.

وعلى هذا يمكن القول أن كلاً من الأمم المتحدة والمؤتمر الإسلامى قد أسفرت جهودهما عن إخفاق واضح، حيث جاء الحل بالقوة المسلحة التى حسمت الموقف وإن كانت لا تزال هناك جيوش للمقاومة لكل من الجنرال دستم، وأحمد شاه مسعود، وأخيرًا مساندة إيران لحكومة ربانى السابقة بإنشاء حكومة منفى فى شمال البلاد أعلن عنها فى منتصف يوليو ١٩٩٧. فإذا قدر لهذه الجيوش أن تستعصى على الخضوع لسلطة الطاليبان فسوف ينتهى الأمر إما إلى التجزئة الفعلية لأفغانستان أو استمرار الصراع بين الطاليبان وغيرها من الفصائل الأفغانية

المناهضة لها، وهو ما يكلف الشعب الأفغانى أكثر مما يطيق فى الصراع على السلطة بعد أن دفع الثمن راضيًا لتحرير بلاده من الغزو السوفيتى.

تبقى نقطتان، قبل إيضاح موقف المؤتمر الإسلامى والأمم المتحدة ببعض التفصيل، الأولى هى أن المشكلة الأفغانية بدأت جزءًا من صراع الحرب الباردة ثم انتهت جزءًا من صراع السلطة باسم الدين فى العالم الإسلامى، فأصبحت فى مرحلتها الثانية حربًا أهلية تغذيها تضارب المصالح والرؤى بين بعض الدول الإسلامية المتصلة مباشرة بالمشكلة.

والنقطة الثانية تتحصل فى أن الصراع الأفغانى قد تسبب فى نزوح حوالى خمسة ملايين من سكان أفغانستان أى حوالى ربع سكان البلاد تقريبا تحملت باكستان ثم إيران العبء الأكبر من هذه الهجرات، كما تسبب هذا الصراع فى إصابة أعداد كبيرة من أبناء الشعب البرىء بمختلف الإصابات والعاهات بسبب الحروب والألغام، وتدنى المستوى المعيشى والأخلاقى لطوائف الشعب الأفغانى إلى حد أن عظام الموتى كانت تباع فى المحلات التجارية لاستخدامها فى صناعة الأسنان، ومعجون الأسنان، ومخصبات عضوية وغيرها مما يعكس محنة الشعب الاقتصادية والأخلاقية التى اضطرت الناس إلى استباحة حرمة القتلى.

جهود منظمة المؤتمر الإسلامى فى الصراع الأفغانى:

بعد انهيار حكم نجيب الله فى أبريل ١٩٩٢ أبرم المجاهدون اتفاق ١٩٩٢/٤/٢٤ لتشكيل حكومة جديدة. وتشكلت بالفعل فى ١٩٩٢/٤/٢٨ حكومة الدولة الإسلامية. وخلال الشهور التالية اندلع القتال بين الأشقاء.

وقد تعددت نداءات الأمين العام للمؤتمر الإسلامي والمؤتمرات الإسلامية وكل من السعودية وباكستان لوقف القتال والتسوية السياسية دون جدوى. ولم تصمد اتفاقية مكة المكرمة في ١٢ مارس ١٩٩٣ بين المجاهدين التي عقدت بناء على مبادرة سعودية وحضر التوقيع الملك فهد ورئيس وزراء باكستان وأمين عام المؤتمر الإسلامي. وكانت الاتفاقية قد أسندت للمؤتمر الإسلامي مسئولية مراقبة وقف إطلاق النار. وبالفعل اتخذت المنظمة الإسلامية عدة خطوات لهذا الغرض منها تعيين ممثل خاص للأمين العام لشئون أفغانستان ومندوب دائم للمنظمة في إسلام أباد، ولجنة خاصة لمتابعة أوضاعها، وإنشاء آلية لتنفيذ الاتفاق.

كما أعربت المؤتمرات الإسلامية المتعاقبة عن عزمها على المساعدة في إعمار أفغانستان، واستعادة اللاجئين من الدول المجاورة، وعهد بذلك إلى اللجنة الخاصة بأفغانستان في المنظمة، كما طلب من البنك الإسلامي تقييم عمليات الإعمار وإعادة البناء.

من ناحية أخرى فشلت محادثات السلام غير المباشرة في طهران في الفترة من ١١/٢٩ حتى ١٩٩٤/١٢/٧ بين الأطراف الأفغانية التي اشترك فيها ممثلو المؤتمر حول سبل التوصل إلى قرار وقف إطلاق النار وإنشاء آلية لنقل السلطة وإقامة حكومة مؤقتة وبنية أساسية سياسية دائمة في أفغانستان.

وقد فشلت أيضا محاولات المنظمة الإسلامية في نزع أسلحة الجماعات المسلحة وتكوين جيش وطني وقوة شرطة، مثلما فشلت

محادثات غير مباشرة مماثلة فى إسلام أباد مثلما فشلت محادثات طهران.

وإزاء الضغوط الدولية والإسلامية، والأهم إزاء ظهور الطاليبان ومهاجمتها كابول، اضطر الرئيس ربانى وقلب الدين حكمتيار رئيس الحزب الإسلامى إلى توقيع اتفاقية سلام فى ١٩٩٦/٥/٢٤ لتشكيل حكومة مؤقتة برئاسة حكمتيار، ولكن ذلك لم يمنع استمرار الاقتتال بين مختلف الفصائل المسلحة.

أما الأمم المتحدة فقد سارعت منذ بدء الحرب الأهلية إلى تعيين ممثل خاص للأمين العام للأمم المتحدة، تغير عدة مرات، وتعقدت العلاقة بينه وبين الحكومة الأفغانية التى اتهمته بالتدخل فى شئونها، بينما اتهم هو الحكومة برفضها كل المبادرات وتمسك الأقلية الطاجيكية بالسلطة فى كابول ورفض إفساح المجال لإنشاء حكم موسع وطنى.

كذلك أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عددًا من القرارات المطالبة بوقف القتال والتوصل إلى تسوية سياسية وإعمار أفغانستان وعودة اللاجئين وتقديم العون الإنسانى لضحايا العمليات الجريئة.

هكذا نرى بوضوح أن المشكلة الأفغانية فى مرحلتها الأولى إبان الاحتلال السوفيتى كانت جزءًا من الحرب الباردة التى استقطبت الدعم الأمريكى والدولى الساعى أساسًا إلى إضعاف الروس وإحراجهم. وعندما اندلعت الحرب الأهلية بعد انتهاء الحرب الباردة تحولت المشكلة من إطار الاهتمام الدولى غير التقليدى الذى ميز مرحلتها الأولى إلى درجة

هادئة من الاهتمـام ذى الطـابع الإنسـانى، ولكـن المشـكلة دخلـت دائـرة الصراعات الإسلامية، وهو ما لمسناه مـن تنـاقض بـين المسـاعى المكثفـة للمنظمة الإسلامية وبعض دولها التى كانت طرفًا مباشرًا فى الصراع.

كما لاحظنا أن الجهود الإسلامية كانت فى جـانب، وعلـى الجـانب الآخر حسم الموقـف لجـوء الطالبـان إلى القـوة المسـلحة. ونظـن أن عمـوم المسلمين يهمهم أن تتولى حكومة قادرة على فرض الأمـن والسـلام وجلـب الرخاء إلى هذا البلد العريق الذى مزقه الصراع، والذى خـرج منـه جمـال الدين الأفغانى فى أخريات القـرن التاسع عشـر ليدعـو إلى وحـدة العـالم الإسلامى ويقظته، بينما وطنه هو أحوج مـا يكـون الآن إلى إحيـاء دعوتـه وتمثُّل تعاليمه.

ويبدو أن الضغوط الأمريكية والإيرانية قد أقنعـت الطالبـان بالتفـاوض مع المعارضة المسلمة حيث بدأت المفاوضات لأول مرة بشكل تمهيدى فـى الأسبوع الثانى من مارس ١٩٩٩ داخل أفغانستان.

الفصل الثامن

مشكلة الشيشان

يضم الاتحاد الروسى ١٦ جمهورية ذات حكم ذاتى وخمسة من الأقاليم ذات الحكم الذاتى وتسعة من المقاطعات ذات الحكم الذاتى. وكانت الشيشان أنجوس إحدى الجمهوريات الست عشرة ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد الروسى.

تبلغ مساحة جمهورية الشيشان ١١٣٠٠ كم٢ وتقع شمال شرق القوقاز، وهى منطقة حبيسة داخل الأراضى الروسية. تتمتع الشيشان بموارد طبيعية كبيرة مثل البترول والغاز الطبيعى وينتمى الشعب الشيشانى إلى الطائفة الإيبروقوقازية. والحق أن تاريخ العلاقات الروسية الشيشانية هو تاريخ الصراع بين الهيمنة الروسية والمقاومة الشيشانية. وكان الروس باستقلاله وسيادته وعدم الخضوع للروس، وهو شعب صغير العدد لا يتجاوز المليون نسمة، ويسكن الشيشان حوالى ١,٥ مليون منها حوالى ٣٠٪ من الروس.

وقد تعرض الشعب الشيشانى لكل أنواع التعسف والاضطهاد منذ منتصف القرن التاسع عشر، وتحت الحكم الشيوعى الذى شرد هذا الشعب ووزع أبناءه فى سيبيريا وفى مختلف المناطق السوفيتية لطمس هويته والقضاء على تماسكه.

وقد عرفت الشيشان فى العالم العربى والإسلامى مرتين خلال فترة القرن والنصف الماضية. **كانت المرة الأولى** فى أواسط القرن التاسع عشر عندما اشتدت ثورات الشيشان وقدر لها أن تعرف فى العالم الخارجى وهى ثورات لم تتوقف منذ الغزو الروسى لأراضى الشيشان فى القرون الثلاثة التالية لنمو إمارة موسكو فى القرن الرابع عشر وتوسعها حتى نشأت الإمبراطورية الروسية فى جزء منها على أراضى القوقاز وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية. وخلال هذه القرون تسامحت الكنيسة الكاثوليكية الروسية مع مسلمى الشيشان وغيرهم وسمحت لهم بممارسة شعائرهم وبناء دور العبادة والمدارس الإسلامية، ولكن بطش السياسة الروسية لكل مظاهر المقاومة الشيشانية دفعت بعدد من أبناء الشيشان إلى الهجرة إلى العالم العربى حيث تبوأ أبناء هؤلاء المهاجرين عددًا من المناصب الهامة ومثالها وزير الأوقاف الأردنى الحالى وهو ينتمى إلى أصل شيشانى وغيره كثير فى الشام والجزيرة واليمن.

ولعل ثورة الشيشان الكبرى بزعامة شامل فى بداية سبعينات القرن التاسع عشر وبطولات الشيشانيين ضد الروس قد لقيت صدى فى العالم العربى مما يجب توثيقه بمعرفة المؤرخين أخذًا فى الاعتبار ضعف وسائل الإعلام والمواصلات والاتصالات. ويبدو أن الأقليات الإسلامية فى البلاد التى ضمتها الإمبراطورية الروسية قد تأثرت بالصراع الروسى التركى خاصة ذلك الذى أصبح فى القرن التاسع عشر جزءًا من المسألة الشرقية واستعجال بطرسبورج (عاصمة روسيا حينذاك) وفاة تركيا رجل أوربا المريض واقتسام تركته، حيث كانت روسيا تطمع فى السيطرة على

المضايق. وهذه البطولات الشيشانية المدفوعة بالمشاعر القومية والإسلامية يتعين توثيقها كجزء من تاريخ روسيا ومن التاريخ الإسلامى أيضا.

أما المناسبة الثانية فقد وقعت عام ١٩٩٤ عندما قررت موسكو تأكيد سيطرتها على الشيشان بعد صمت على قرار الاستقلال استمر ثلاث سنوات. ولاشك أن قيام الاتحاد السوفيتى فى أعقاب الثورة الشيوعية البلشفية عام ١٩١٧ ومحاولة ضم الشيشان والمناطق الإسلامية قد واجه مقاومة أشد نظرًا لأن الدولة الجديدة لا تعترف بالأديان وعمدت إلى طمس الهوية الإسلامية، كما أنها لا تعترف بالقوميات فسعت إلى البطش بالقومية الشيشانية فى صمت، وتتطلب هذه الأحداث توثيقًا من المتخصصين خاصة وأنه من المعلوم أن الإمبراطورية السوفيتية قد نشأت عبر أكثر من عشر سنوات قهرت فيها وحدات إسلامية وغيرها كدول البلطيق التى ضمتها عام ١٩٣٨ وطردت موسكو السوفيتية بسبب ذلك من عصبة الأمم.

أما أحداث الشيشان التى استمرت من ١٩٩٤-١٩٩٦ وهى موضوع هذا الفصل فقد سبقتها أحداث انهيار الاتحاد السوفيتى خلال ٩٠/ ١٩٩١ ثم ظهور روسيا كوريث للاتحاد السوفيتى السابق فى جميع المجالات. غير أن الوراثة لم تمتد إلى الجوانب الإقليمية حيث استقلت الجمهورية المكونة للاتحاد السوفيتى، وصارت روسيا الاتحادية فى وضع لا يقبل الاستمرار قانونا لأن الاتحاد نفسه كان أحد وأهم مقومات الاتحاد السوفيتى، حيث يسكنه أكثر من نصف سكان الإمبراطورية السوفيتية وتشكل أراضيه ثلاثة أرباع مساحة الاتحاد السوفيتى الشاسعة بثرواتها

وأهميتها الاستراتيجية الهائلة. ولذلك عرضت روسيا على الوحدات السابقة المكونة للاتحاد الروسى القديم مشروع الاتفاقية الاتحادية الجديدة التى قبلتها الوحدات الأخرى عدا جمهورية الشيشان. ولم تحرك موسكو الروسية ساكنا إزاء رفض الجنرال دادابيف (ضابط الطيران السابق فى الجيش السوفيتى وزعيم الشيشان آنذاك) الانضمام إلى الاتحاد والتمسك بالهوية الإسلامية المستقلة مستفيدة من نصوص الاتفاقية الجديدة التى تتظاهر بمنح حرية الانضمام أو الانفصال للأطراف المتعاقدة.

وقد توهم زعماء الشيشان أن المناخ الذى صاحب انهيار الاتحاد السوفيتى فى الغرب ودعمه لحق تقرير المصير للشعوب المكونة للاتحاد السوفيتى يمثل مناخا مناسبا لحرية الاختيار إزاء العرض الاتحادى الروسى.

ويمكن تفسير سكوت موسكو على رفض الشيشان من ١٩٩١ - ١٩٩٤ بعدة أسباب أولها ضعف القيادة الروسية الجديدة وضعف القوات الروسية المزقة بعد انهيار القوة السوفيتية. وثانيها غموض موقف الغرب إزاء النزعات الاستقلالية داخل الجسد الروسى نفسه بعد أن شجع هذا النزعات داخل الجسد السوفيتى، ولم تكن موسكو متأكدة من أن الغرب سوف يقيم خطا واضحا بين تمزيق الاتحاد السوفيتى إلى وحدات كبيرة مستقلة وبين تمزيق الاتحاد الروسى خاصة بنزعات استقلالية إسلامية اعتقد الغرب أنها بتشجيع من إيران بهدف خلق بؤرة إسلامية تهدد التوازن النفسى للغرب فى المنطقة.

فلما استيقنت موسكو أن الغرب يساند التجربة الديمقراطية فى روسيا وتحولها نهائيًا عن الخط الشيوعى إلى الخط الرأسمالى وضمن تبعيتها التامة للخط الغربى داخليًا وخارجيًا نهض الغرب لمساندة موسكو فى جهتين: **الأولى**: الإصلاح الاقتصادى والتحول السياسى ضد النزعات القومية المتطرفة أو النزعات الأصولية الشيوعية، وهما تياران لا تزال قوتهما ظاهرة على الخريطة السياسية والفكرية الروسية.

أما **الجهة الثانية** فهى المحافظة على الاتحاد الروسى بالشكل الذى تريده روسيا، ويعنى ذلك معارضة استقلال الشيشان. ولذلك قام الخط الغربى على الأسس التالية بكل وضوح. **الأساس الأول** اعتبار الشيشان جزءًا لا يتجزأ من الاتحاد الروسى وتجاهل مسألة عدم انضمامها أصلاً إلى اتفاقية الاتحاد الجديدة.

الأساس الثانى أن حركة الشيشان هى أحد النتائج والمضاعفات السياسية والاجتماعية للتحول من الشيوعية إلى الاقتصاد الحر وهى من ثم حركة مؤقتة تنتهى باستتباب النظام الجديد وتأكد ملامحه فى روسيا. أما **الأساس الثالث** فهو أن التساهل مع الحركات الانفصالية سوف يفتح الباب أمام المزيد منها، مما سيؤدى إلى تمزق الاتحاد الروسى، وأنه من مصلحة الغرب أن يظل الاتحاد متماسكًا بقيادة موسكو نظرًا لما يمثله الاتحاد مساحة وسكانًا من خطورة خاصة وأنه يمتلك ٧٥٪ من القوة النووية السوفيتية السابقة.

لكل هذه الأسباب اعتبر الغرب أن حركة الشيشان حركة انفصالية تهدد الاستقلال والسيادة الإقليمية لروسيا الاتحادية وتعد تحديًا لمكانة

موسكو، وتدخلاً فى شئونها الداخلية، بل وحذرت واشنطن فى المراحل الأولى للصراع من مساعدة الشيشان.

ولما واجهت موسكو حركة الشيشان بكل أنواع إبادة العرق وسط مظاهر التمسك الشيشانى بهويتهم الإسلامية والقومية وثقافتهم المتميزة، أصبحت الممارسات الروسية محل انتقاد فى الرأى العام الروسى والعالمى واضطر الاتحاد الأوربى والمنظمات الإنسانية وواشنطن إلى الاهتمام بضحايا الإبادة الروسية دون الالتفاف إلى صلب المشكلة السياسية.

غير أن المنظمات الإنسانية نشرت على نطاق واسع وحشية الممارسات الروسية، كما صار الجيش الروسى عاجزًا عن حسم الموقف ولقى هزائم وخسائر فادحة استدعت نقد شرائح المجتمع الروسى، وأظهرت صورة بائسة لجيش الدولة العظمى الثانية السابقة فى العالم، بينما تمسك الشيشانيون بموقفهم الصلب المطالب بالاستقلال رغم الخسائر الجسيمة والإبادة الشاملة للشعب والبلاد والدمار الهائل لمقدراتها الاقتصادية. ويبدو أن شفقة واشنطن بما أصاب موسكو التى حرصت على مساندتها بكل وسيلة ودعم نظامها تحت ستار دعم الديمقراطية وحقوق الإنسان فى روسيا، قد دفعت واشنطن إلى تشجيع جهود الوساطة الأوربية وتشجيع الجهود الروسية لوضع حد لهذه المأساة، وانتهى الأمر فى كل مرة يتفق فيها على وقف إطلاق النار إلى انتهاك موسكو له، خاصة وأن سلوك موسكو كان واضحاً فى أنه يريد كسب الوقت لقمع الصمود الشيشانى، مع التلويح بتنازلات لواشنطن فى المجال النووى حتى تشترى سكوت واشنطن عن الانتهاكات البربرية لحقوق الإنسان فى الشيشان، والتى

تستحق عرض مرتكبيها على المحاكمة الدولية بتهمة انتهاك قواعد وأعراف الحرب وإبادة العرق الشيشانى الذى استعصى على كل صنوف الإبادة لقهر إرادته وإرغامه على التسليم وسط صمت دولى هائل حتى فى الدول الإسلامية سوى بعض الاهتمامات الشعبية المتقطعة. وسوف نعالج فيما يلى ببعض التفصيل موقف روسيا وسلوكها فى الشيشان ورفضها عروض السلام وانتهاكها لكل اتفاقات وقف إطلاق النار، وموقف واشنطن والهيئات الدولية والاتحاد الأوربى، وأثر الحرب فى روسيا نفسها.

الموقف الروسى:

انتهجت موسكو خطًا متشددًا تجاه مسلمى الشيشان ولم تخلص النية لا فى حل المشكلة ولا فى مراعاة الحد الأدنى لحقوق الإنسان. وارتكبت فى الشيشان سياسة الإبادة وإحراق المدن واستخدام الأسلحة المحرمة دوليا، وقصف المناطق السكنية المدنية والمستشفيات. وقد وجدت بعثات أوربية مقابر جماعية للمدنيين وآثار الأسلحة المحرمة.

ومن ناحية حاولت موسكو شق صفوف المقاومة الشيشانية التى ضربت أروع الأمثلة فى البطولة والفداء، كما عينت حكومة موالية لها فى الشيشان برياسة أحد عملائها وهو دوكوزا مخاييف الذى تعرض للاغتيال.

موقف المجتمع الدولى:

خيم الصمت الرسمى على مواقف الدول الكبرى من أحداث أفغانستان رغم فضح أجهزة الإعلام الدولية وبعثات تقصى الحقائق لما يحدث من

دمار وانتهاكات. بل إن صندوق النقد الدولى قد قرر منح روسيا قرضاً بمبلغ ٦,٢٥ مليار دولار في وقت اشتد فيه فتكها بالمدنيين ونقضها لاتفاقات وقف إطلاق النار. كما قام الاتحاد الأوربى رغم ذلك بتوقيع اتفاق تجارى مع موسكو. ولاشك أن سلوك الصندوق الدولى والاتحاد الأوربى يعكس إعلاءهما لهدف مساندة روسيا ونظامها بغض النظر عن العوار الأخلاقى لسياستها فى الشيشان، ولذلك كان سلوك ألمانيا محل تقدير عندما أعلنت فى ١٩٩٥/١/٢٣ وقف مساعداتها المالية لروسيا إذا واصلت الحرب فى الشيشان ولكن الإعلان لم يثمر فيما استهدفه فى بدايات الحرب.

أما موقف واشنطن فقد أكدت أكثر من مرة أن مشكلة الشيشان شأن داخلى روسى وأنها تعارض الانفصال، ولما افتضحت أجهزة الإعلام السلوك الروسى فى الشيشان حثت واشنطن موسكو على أهمية تسوية المشكلة سياسيا وأغمضت عينها تماماً عن انتهاكاتها لحقوق الإنسان. ولاشك أن الموقف الأمريكى فى الشيشان المجامل لموسكو مدفوع بمصالح أمريكية فضلاً عن تنازلات روسية هامة. فلئن رفضت موسكو لاعتبارات اقتصادية طلب واشنطن وقف التعاون النووى مع إيران، فقد وافقت موسكو على قيام البعثات الأمريكية بالتفتيش على المواقع النووية الروسية.

الموقف الإسلامى:

حاذرت الدول الإسلامية من تناول مشكلة الشيشان فى أى إطار دولى فلم يجسر أحد على طلب إدراجها على جداول أعمال المؤتمرات

الإسلامية، وتمسكت الدول الإسلامية بأن الشيشان شأن روسى داخلى وإن عملت بعض الدول الإسلامية إلى التنبيه إلى قسوة روسيا فى التعامل مع مسلمى الشيشان. ولم تشعر موسكو يومًا تغيرًا أو ضغطًا من جانب الدول الإسلامية. ولكن بعض هذه الدول سمحت بالمساندة المالية الشعبية لمحنةِ المسلمين فى الشيشان. والمحزن أن الدول الإسلامية نقلت أوصاف الأحداث وشخوصها عن وكالات الأنباء العالمية فلم يكن مجاهدو الشيشان الأبطال سوى مجموعة من المنشقين أو المتمردين.

وقد تطور الموقف بين الشيشان وروسيا على أساس إمعان الشيشان فى تأكيد مظاهر استغلالها مثل العلم والنشيد الوطنى والعملة الخاصة وجوازات السفر الخاصة وإصرار الشيشان على إبرام اتفاقيات دولية مع روسيا وعلى استقبال الرئيس الروسى بصفته رئيسًا لدولة أجنبية. كذلك طبقت الشيشان أحكام الإعدام وفقا للشريعة الإسلامية وخاصة فى مجال الحدود مما أثار فزع الدول الأوربية وروسيا. أما موسكو فإنها تنظر بقلق إلى هذه التطورات ويؤيد الاتجاه الغالب الصامت فكرة استقلال الشيشان فى نهاية المطاف والتى أصبحت من المسلمات لدى هذا الفريق بينما يعارض هذا الرأى قسم متشدد يتزعمه الاتجاه الوطنى المتطرف. والراجح أن روسيا ليست مستعدة الآن لتكرار المواجهات العسكرية مع الشيشان. كما أن الشيشانين يتعمدون تأكيد استقلالهم يومًا بعد يوم، وخاصة عندما أصرت الشيشان على أن يقوم الرئيس الروسى بزيارتها فى يناير ١٩٩٨ بوصفه رئيس دولة أجنبية مما أدى إلى إلغاء فكرة الزيارة. أما الموقف الإسلامى وموقف المجتمع الدولى فلا يزال يرى أنها مشكلة داخلية ولذلك

لن يعترف باستقلال الشيشان إذا أعلن وهو ما يهدد به قادة الشيشان، إلا إذا اعترفت موسكو به أولاً.

ونحن نرى ضرورة التعاطف مع الممارسات الدينية والحريات العامة لشعب الشيشان وتأكيد انتمائه للعالم الإسلامى مع المحافظة على التوازنات السياسية فى العلاقات مع موسكو.

وعلى أية حال فإن الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تعانيها روسيا حاليا قد جعلت من مسألة الشيشان قضية هادئة لا تدعو إلى القلق وهى تحت هذه الظروف تمارس مظاهر الاستقلال الداخلى مادامت روسيا غير قادرة على وضعها فعليا تحت سيادتها، بل إن هناك اتجاهاً قد يتزايد إذا استقرت الأوضاع نسبيا فى روسيا يطالب بالتحقيق فى الفظائع التى ارتكبت فى الشيشان. وتشير التقارير إلى دور الصهيونية فى تقويض روسيا، ولذلك فمن المصلحة أن يساند العالم العربى والإسلامى روسيا على اجتياز محنتها الحالية وألا تتحالف هذه الدول مع معاول الهدم الصهيونية لروسيا.

الفصل التاسع

مشكلة كوسوفو*

يقع إقليم كوسوفو ضمن جمهورية الصرب والجبل الأسود (يوغوسلافيا الجديدة) ويضم حاليًا حوالى ١,٨ مليون نسمة من المسلمين الألبان بنسبة ٩٠٪ من عدد السكان والباقى من الصرب. وتشير الإحصاءات إلى أنه ما بين عام ١٩٦١ و ١٩٨١ بدأ عدد السكان المسلمين يتزايد مقابل انخفاض السكان الصرب وكادت كوسوفو أن تصبح بالكامل من المسلمين بسبب اشتداد النزعة القومية الإسلامية من أهل كوسوفو وهم ألبان وعدم قدرة السلطات الصربية على وقف نزوح الصرب من الإقليم. ومعنى هذا أن القومية الصربية التى ازدهرت بعد وفاة الرئيس تيتو عام ١٩٨٠ قد اصطدمت بالنوازع القومية الألبانية فى كوسوفا حينذاك.

ومن الناحية التاريخية هزم الأتراك الصرب فى موقعة كوسوفو فى ١٣٨٩/٦/١٥ ولما هزمت تركيا أمام الصرب فى الحرب البلقانية الثانية عام ١٩١٢ عادت كوسوفو إلى الصرب. ثم استقلت ألبانيا عام

* تتصدر هذه المشكلة قائمة هموم العالم وقت كتابة هذه السطور أول مارس ١٩٩٩ وانعقد مؤتمر رامبوييه فى ضواحى باريس برعاية بريطانية وفرنسية ودعم أمريكى مكثف للتوصل إلى تسوية سياسية للمشكلة، لكن بلجراد تصر على رفض أى دور لحلف الأطلنطى فى ضمان نتائج التسوية، كما يصر ثوار كوسوفو على أن يعقب الحكم الذاتى استفتاء على الإستقلال، وكلا الموقفين يرفضهما الغرب، وقد فشل المؤتمر فى تحقيق أى تقدم ووعد بجولة أخرى فى منتصف مارس فى فرنسا.

١٩١٨ فكان ذلك دافعًا لأهل كوسوفو للتطلع نحو ألبانيا بوصفهم من أصل ألباني.

ولا شك أن الغزو العثماني والسياسات العثمانية في المنطقة قد أدت إلى صراع غلب عليه الطابع الديني والعرقي غزاه تداخل الأعراق. وفي أعقاب المظاهرات الألبانية في الإقليم عام ١٩٦٨ خشي الرئيس تيتو تفجر القومية الصربية فقرّ نظاما للحكم الذاتي في كوسوفو عام ١٩٧٤، ثم تجددت الاضطرابات في الإقليم عام ١٩٨١ عقب وفاة تيتو، وطالب المتظاهرون بتوزيع تركة الرئيس تيتو مصرين على إنشاء جمهورية ضمن الاتحاد اليوغوسلافي. وظل هذا هو مطلب سكان كوسوفو، وهو تحولهم من مستوى الإقليم المتمتع بالحكم الذاتي التابع للحكومة المركزية إلى مستوى الجمهورية في إطار الاتحاد حتى تولى سلوبودان ميلوسوفيتش حكم جمهورية الصرب عام ١٩٨٧ فعمل على وقف هجرة الصرب من كوسوفو واتخذ سياسة قمعية ضد سكان الإقليم المسلمين عانى منها الآلاف من سجن وتعذيب وتشريد.

وكان رد الفعل المبدئي لسكان كوسوفو عام ١٩٩٢/٩١ هو ظهور الزعيم السياسي إبراهيم روجوفا الذي دعا إلى المقاومة السلمية وإنشاء مجتمع متكامل من سكان الإقليم يتمتع بخدماته الخاصة به من رئاسة وحكومة برلمان ومدارس وجامعات وغيرها ثم أعلنت حركة روجوفا «تجمع كوسوفا الديمقراطي» استقلال الإقليم وأيد الاستفتاء العام في سبتمبر ١٩٩١ هذه الخطوة الذي شارك فيه ٨٧٪ من ألبان كوسوفو وصوت لصالح الاستقلال سكان الإقليم جميعًا تقريبًا عدا الصرب منهم، وانتخب روجوفا رئيسا

للجمهورية الجديدة. ولكن الجمهورية الجديدة لم يعترف بها سوى ألبانيا التى فتحت فى تيرانا بعثة دبلوماسية لها، تماما كما حدث عندما أعلن مسلمو قبرص استقلالهم من طرف واحد فى أواسط الثمانينات ولم يعترف بهم حتى اليوم سوى تركيا مع فارق واحد، هو أن مجلس الأمن رفض الاعتراف باستقلال قبرص الشمالية التركية وأصر على استقلال جزيرة قبرص ووحدة أراضيها وتمسك بموقف المجتمع الدولى المطالب بتحرر شمالها من الاحتلال التركى، أما فى حالة كوسوفو فلم يتدخل مجلس الأمن، لأن إعلان الاستقلال من طرف واحد تم فى وقت بدأ فيه الاتحاد اليوغوسلافى فى التفكك والانهيار مع انهيار الاتحاد السوفيتى، وذلك أمام تحدى القوميات الأخرى لسطوة الصرب فى البلاد مما تسبب فى اندلاع الصراع فى البوسنة والهرسك كما هو معلوم.

وقد رفضت عصبة كوسوفو الديمقراطية الدخول فى صراع عسكرى مع بلجراد، وحاولت الاستفادة من الروح الجديدة التى أشاعها اتفاق دايتون فى البوسنة عام ١٩٩٥ فوقع إبراهيم روجوفا فى ١٩٩٦/٩/٢ مع ميلوسوفيتش اتفاقا لإعادة فتح المدارس والجامعات الصربية مقابل امتناع الألبان عن المشاركة فى الانتخابات اليوغوسلافية، ولكن هذا الاتفاق لم يصمد أمام اضطرابات الطلبة فى بداية أكتوبر ١٩٩٧ التى قمعها البوليس الصربى بقسوة، وقد انقسم سكان كوسوفو بين مطالب بالاستقلال التام، أو الحكم الذاتى فى إطار الدولة اليوغوسلافية الجديدة، كما طالب بعضهم بالانضمام إلى ألبانيا، وهذا القسم الأخير هو الذى تصدى للسياسة السلمية لإبراهيم روجوفا وتشكل جيش تحرير كوسوفو. وقد بدأ مسلسل

المواجهات المسلحة بين جيش تحرير كوسوفو والقوات الصربية منذ فبراير ١٩٩٨ وكان واضحا للمراقبين أن الصرب أصروا على احتلال الإقليم والتنكيل بسكانه وممارسة عمليات التطهير العرقى ضدهم مثلما فعل الصرب فى البوسنة والهرسك.

وقد أجمع رد الفعل الدولى على ضرورة وقف تجاوزات القوات الصربية وانسحابها من الإقليم لإتاحة الفرصة للتسوية السلمية التفاوضية بين زعماء الإقليم والزعامة الصربية، وتمسك مجلس الأمن بهذا الخط وهدد الصرب بأن يرخص لقوات حلف الناتو بضرب هذه القوات فى الإقليم، ومنع الطيران الصربى من عمليات القمع ضد المدنيين من سكان الإقليم، وحتى كتابة هذه السطور (نوفمبر ١٩٩٨) لا يزال الموقف جامدا، فرغم أن المبعوث الأمريكى الخاص هوبروك الذى نفذ اتفاق دايتون فى البوسنة قد اتفق مع الرئيس الصربى سلوبودان ميلوسوفيتش على تسوية سلمية للمشكلة إلا أن القوات الصربية لا تزال تمارس أعمال البطش بالمدنيين المسلمين، ولا يزال حلف الأطلنطى يهدد بالتدخل واللجاجة القانونية حول مدى حق الحلف فى التدخل ضد إقليم لا يزال تابعًا لدولة قائمة، وهو الاعتراض الذى تثيره روسيا الاتحادية والصين. أما الموقف الروسى فيرجع إلى العلاقة العرقية بين السلاف الروس والصرب والديانة الأرثوذكسية المشتركة، ولكن الموقف الصينى يفسر بحساسية الصين إزاء أية ذرائع للتدخل فى الشئون الداخلية للدول حتى تدفع عن نفسها الحملات المختلفة للتدخل باسم الدفاع عن حقوق الإنسان. وأيا كان الدافع إلى معارضة التدخل العسكرى فى كوسوفو، فإن زعماء كوسوفو

أنفسهم غير مقتنعين بجدوى التهديد الأجوف بالقوة ولا بجدوى استخدام القوة حقا، وإنما يسعون إلى تسوية سياسية سلمية لهذه المشكلة الدامية.

أما فى العالم الإسلامى، فقد أصبحت مشكلة كوسوفو صورة أخرى لمأساة البوسنة ويسؤوه أن يرى المسلمين ينكل بهم دون رد فعل جدى من جانب القوى الفاعلة فى المجتمع الدولى. وقد لوحظ أن رد فعل المنظمات الإسلامية الشرعية وغير الشرعية فى العالم الإسلامى قد تجاوبت مع المشكلة بما يتفق مع توجهاتها، بل أصبحت كوسوفو مناسبة جديدة تشبه الجهاد الأفغانى ضد السوفييت وتنظر بعض الحكومات إلى المضاعفات الأمنية لتطور الصراع فى كوسوفو من زاوية مشاركة المعارضة الإسلامية المسلحة فى الصراع إلى جانب الألبان ضد الصرب. ولم يكن صعبًا أن تدين المنظمات الإسلامية الرسمية مواقف الصرب وهو استمرار لموقفهم فى البوسنة، ولكن العالم الإسلامى الذى يدين أعمال البطش العنصرى ضد المسلمين يطالب بتسوية المشكلة سلميًا ولا يتخذ العالم الإسلامى موقفًا إزاء مسألة انفصال الإقليم أو حكمه الذاتى أو استمراره تحت الإدارة الصربية، لأن هذه مسألة حساسة، وللعالم الإسلامى موقف واضح وهو التمسك بسيادات الدول وسلامة أراضيها ولا يحبذ الانفصال أو استقلال الأقليات الإسلامية.

للاطلاع على دراسة حديثة للمشكلة من الناحية التاريخية يمكن الرجوع إلى:

Noel Malcolm, Kosovo. A Short history, Mac Millan, London, 1998

الفصل العاشر

الأقليات الإسـلامية

الأقلية الإسلامية هى أفراد المسلمين المقيمـين فـى بلـد غـير الإسلامى بصرف النظر عن عدد هذه الأقلية أو نسبتها إلى مجموع عدد سـكان هـذا البلد. فقد تفوقت نسبة المسلمين من سكان بلد معين نسبة أبناء الديانـات الأخرى ومع ذلك لا يكون هذا البلد ـ لظروف خاصـة ـ بلـدًا إسـلاميًّا، ولذلك جرى العمل على أن البلد الإسلامى هو الـذى يعتـبر نفسـه كذلـك وهو الحل الذى اعتمدته منظمة المؤتمر الإسلامى بعـد أن أعياهـا البحـث والاستقرار على معيار موضوعـى كعـدد السـكان المسـلمين، أو النـص فـى دستور الدولة على هويتها الدينية وغير ذلك من المعايير الموضوعية. ولذلك قبلت تركيـا عضـوًا فـى منظمـة المؤتمـر الإسـلامى التـى لا تضـم إلا دولاً إسلامية على أساس أن الحكومة التركية بطلبـها هـذا تعتـبر تركيـا دولـة إسلامية، وأن الشعب التركى شعب مسلم له تاريخه الطويل فى الإسلام، رغم أن دستور الدولة ينص على أنها دولة علمانية. وهذا هو نفس موقـف أندونيسيا وماليزيا اللتين يطغى فيـهما عـدد المسـلمين وأشـخاص الحكـام المسلمين على ما عداهم. وكانت تلك حالة إيران قبـل الثـورة الإسـلامية، ولا تزال تلك حالة لبنان.

أما معظم الدول الإسلامية فتنـص دسـاتيرها علـى أنـها دول إسـلامية وللشريعة الإسلامية مكانة خاصة فى حياتها التشريعية. كذلك الحال فى شأن عدد من الـدول الإسـلامية فـى إفريقيـا التـى انضـم بعضـها للمؤتمـر

الإسلامى لمجرد أن رئيسها كان مسلمًا ولا يشكل المسلمون فيها الأغلبية المطلقة مثل سيراليون وأوغندا عيدى أمين، والجابون (الحاج عمر بونجو).

على أن فكرة الأقلية الإسلامية التى تشير إلى العدد الأقل بالنسبة إلى بقية أصحاب الديانات الأخرى، قد تتخذ معنى مختلفًا، حيث يكون المسلمون من الكثرة بحيث لا يتمتعون إلا بنفوذ سياسى يجعلهم فى مرتبة القلة غير المؤثرة ومثال ذلك أن في إثيوبيا وموزمبيق وكينيا حوالى ٤٠٪ من السكان المسلمين دون أن يقابل ذلك أثر معادل للقوة العددية. أما الحالة النموذجية لهذا التصويت فهو ألبانيا التى يشكل المسلمون فيها أكثر من ٩٠٪ ومع ذلك كانت دولة غير إسلامية منذ نشأتها كدولة وانفصالها عن الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، ثم انتقلت إلى الحكم الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية، وليس الخيار الإسلامى مطروحًا مطلقًا لأسباب عديدة أهمها عدم موافقة أوربا على قيام دولة إسلامية على أراضى القارة، وضعف الانتماء السياسى الإسلامى لسكانها بعد طول الممارسات الناهضة لنموذج الحياة الإسلامية.

وكما تختلف الأقليات الإسلامية فى عددها ونسبتها داخل الدولة، تختلف أيضًا ظروف تكوينها. ويمكن أن تنقسم الأقليات الإسلامية من هذه الزاوية إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: مجموعة الأقليات الإسلامية التى تشكل جزءًا أصليًا من سكان الدولة لكنها تفترق عن بقية السكان في الدين، فأصبحت الدولة نفسها إما علمانية لا تتبنى دينًا بعينه وتلتزم بتشجيع الأديان جميعًا والحفاظ

على مشاعر معتنقيها، وإما أن يصبح دين الدولة هو دين الأكثرية من سكانها ومثال ذلك الفلبين وبورما والصين والاتحاد السوفيتى وروسيا وغيرها.

المجموعة الثانية: هى الأقليات الإسلامية التى وفدت على البلاد مع الهجمات الاستعمارية أو انتقالات السكان المصاحبة للغزوات الحربية. وأهم أمثلة ذلك المسلمون فى البلقان فى دول الخمس بجانب تركيا (اليونان ـ يوغوسلافيا بلغاريا ـ رومانيا - ألبانيا) ويتفاوت أعداد المسلمين فى هذه الدول، فهم أقلية سياسية أو أكثرية عددية فى ألبانيا بينما يعتبرون أقلية سياسية وعددية فى الدول الأربع الأخرى، ولم تفلح أكثريتهم السابقة فى تركيا فى تغيير هوية الدولة من العلمانية إلى الإسلام مرة أخرى.

وقد وفد مسلمو البلقان مع الفتوح العثمانية فى القرن الخامس عشر وارتبطوا فى أذهان بقية طوائف السكان بأنهم أصحاب دين مخالف وقومية مناقضة، كما أنهم - فى نظر السكان - جزء من الميراث الاستعمارى، وهذا هو تفسير جزئى لما يعانيه المسلمون فى البوسنة، وما كان يعانيه المسلمون فى بلغاريا تحت الحكم الشيوعى حين عمدت السلطات إلى تغيير هويتهم وأسمائهم وعجزت تركيا عن التصدى للسلطات البلغارية حينذاك وضم المشكلة على جدول أعمال المؤتمرات الإسلامية حتى انتهت بسقوط الحكم الشيوعى فى أوائل التسعينات.

وأما المجموعة الثالثة: فتضم الأقليات التى تشكلت من أفراد نزحوا لأسباب متفاوتة عبر حقب طويلة من الزمن من أوطانهم الأصلية إلى بلاد أخرى فشكلوا مع غيرهم الوافدين من أوطان مختلفة أقلية تتحد فى الدين

وتفترق فى الأصول العرقية والاجتماعية ولكنها انصهرت بقدر ما فى نمط الحياة والمجتمع فى الدولة المضيفة. ومثال ذلك المسلمون فى الولايات المتحدة وأوروبا وأستراليا وكندا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا الذين دفعتهم ظروف بلادهم واستهوتهم آمالهم فى بلاد المهجر، وتضاءلت روابط أبنائهم بأوطانهم الأصلية وتوثقت بدرجات متفاوتة فى المهاجر. فقد تشكلت الجالية الإسلامية في بريطانيا أساسًا من شبه القارة الهندية خاصة إبان الصراع بين الهندوس والمسلمين الذى أفضى إلى التقسيم والفصل على أساس الدين، أما فى فرنسا فقد تشكلت الجالية الإسلامية أساسًا من شمال إفريقيا، وفى الحالتين ارتبط نشوء الجالية الإسلامية فى هاتين الدولتين لظروف استعمارها لهذه المناطق. أما الأقليات الإسلامية فى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا فقد نشأت بسبب تشجيع هذه الدول للهجرة إليها من الدول النامية، ومما ساعد هذه الأقليات على الشعور بذاتها الإسلامية هو فرص العمل ومناخ التسامح والتعددية الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية الذى يسود هذه الدول. أما الأقليات الإسلامية الإفريقية فقد تكونت من بعض أبناء الدول الإفريقية الذين تحولوا إلى الإسلام، أما الأغلبية الساحقة فهم أبناء المهاجرين والنازحين فى هجرات فردية أو أسرية من شبه القارة الهندية وشبه الجزيرة العربية واليمن.

ولاشك أن الأقليات الإسلامية فى هذه المجموعة لم تعمد إلى الهجرة من أوطانها هجرة جماعية أو دينية، وإنما هجرت أوطانها على امتداد فترات طويلة. ولذلك لا يجوز الخلط بين هذه الأساليب التى تكونت بها

الجاليات الإسلامية، والنزوح الجماعى والانتقالات القهرية لسكان إفريقيا من مكان إلى آخر داخل القارة.

ويختلف تعداد الأقليات الإسلامية فى العالم ويتراوح التعداد بين ٢٠٠ـ ٣٠٠ مليون نسمة، والسبب فى هذا التفاوت الكبير هو عدم وجود تعداد يعتد به لهذه الأقليات فى معظم الدول خاصة تلك التى تعمد إلى التقليل من أعداد أقلياتها الإسلامية لظروف خاصة بها.

وتنشغل كل أقلية بظروف حياتها أو بصعوبات وجودها، ولذلك لا توجد رابطة أو وعى معين بين كل الجاليات الإسلامية في العالم. أما علاقة هذه الجاليات بالدول الإسلامية فهى تتوقف على شعور بعض الدول الإسلامية بأهمية مساندة هذه الأقليات. ومثال ذلك تقوم الهيئات الدينية فى مصر والسعودية والكويت والإمارات وليبيا بجهود واضحة لبناء المساجد والمدارس والمراكز الثقافية الإسلامية والعبرية وتقديم المنح الدراسية لأبناء هذه الجاليات لتلقى التعليم الإسلامى والعربى بمؤسساتها التعليمية.

وتحاول منظمة المؤتمر الإسلامي من خلال جهودها وإدارة الأقليات بالأمانة العامة التنسيق بين جهود الهيئات والدول الإسلامية فى دعم الأقليات الإسلامية، كما تقوم المنظمة نفسها ببناء الجامعات والمراكز التعليمية الإسلامية فى بعض الدول الإفريقية والأوربية والولايات المتحدة.

ومن الطبيعى أن تختلط مساعدة الدول الإسلامية للأقليات الإسلامية بمساعدتها لأبنائها المهاجرين فى الدول الأجنبية لربطهم بالوطن

والمحافظة على هويتهم فى مواجهة نمط الحياة السائدة فى مجتمعات المهجر.

وتختلف قضايا الأقليات الإسلامية من بلد لآخر ولكنها تشترك جميعًا فى ضرورة مساعدتها على توفير المناخ الثقافى والروحى الإسلامى خاصة لتنشئة أجيالهم على القيم الإسلامية ومواجهة التيارات المادية والانحرافات المختلفة ونمط الحياة الذى يعد من النظام العام فى دول المهجر.

وبعد هذه القضية العامة، تتنوع قضايا هذه الأقليات. ففى فرنسا مثلا أصبحت الأقلية الإسلامية جزءًا من المجتمع الفرنسى من الناحية القانونية ولكن نظرًا لتزايد أعداد المسلمين فإن الحاجة تزداد أيضًا إلى التوفيق بين ثوابت الحياة الفرنسية ومتطلبات الحياة الإسلامية، وهذا هو السبب فى نشوء رد فعل اجتماعى فى أوساط اليمين الذى يكره الأجانب عمومًا ويصل عداؤه إلى حد التصفية الجسدية لبعض أبناء هذه الجاليات، كما تثار من حين لآخر قضايا الحجاب والزى الإسلامى وغيره، وكلها قضايا مرتبطة بوجود مجتمع غريب فى تقاليده الاجتماعية والدينية فى فرنسا. ومثال ذلك ما نجده أيضا مما تعانيه الجالية الإسلامية التركية فى ألمانيا من صور التعسف والاضطهاد، وما يعانيه المسلمون فى بريطانيا مما يعتبرونه عدم المساواة الرسمية فى معاملة الأديان حيث تحظى المسيحية وحدها بالحماية، الأمر الذى تكشف فى قضية سلمان رشدى، وحملة اليمين البريطانى ضد المسلمين وعاداتهم فى الأضحية، مما دفع ولى عهد بريطانيا إلى تخفيف حدة هذه المواجهات بتصريحات متعاطفة

مـع الإسـلام والمسـلمين. وقـد اشـتد حملـة الاضطـهاد لكـل الرمـوز الإسـلامية فـى الغـرب تحـت عنـوان الإسـلام والغـرب وتوهـم مجموعـة من المثقفين فى الغرب أن الإسلام هو العـدو الجديـد للغـرب بعد سقوط الشيوعية، ومثال هذه الحملة مقال نشره هتنجتون أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد فـى مجلـة الشئون الخارجيـة الأمريكيـة عـام ١٩٩٤ عمـا أسمـاه صـراع الحضـارات حيـث توهـم تحالفًـا بـين الإسـلام والوثنية فى آسيا ضد الغرب.

ولاشك أن توهم العداء الإسلامى ناتج عن محاولة البعض إحياء الـروح الصليبية، واستحضار العصور الوسطى وقرون الصراع الدينـى بـين الشـرق الإسلامى والمتعصبين من مسيحى الغرب منـذ القـرن العاشـر حتـى القـرن الخامس عشر، وهى الحركة التى وجدت امتدادًا لها فى حركة الكشوف الجغرافية ثم الحركة الاستعمارية الواسعة. فإذا كان الامتداد الإسلامى قد استمر منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر تقريبـا أى طيلـة سـبعة قرون، فإن الغرب قد بدأ مده المسعور صوب الشرق بأكملـه وليـس الشـرق الإسلامى وحده فى موجات متتابعة من المستكشـفين المغـامرين وهـم نـواة الحركة الاستعمارية التى لم تنحسر نهائيًّا إلا بعد مضى قرنين كاملين من الزمان.

وتتباين مشاكل الأقليات الإسلامية مـن بلـد إلى آخـر فتبـدأ بمواجهـة العنت والاضطهاد من جانب اليمين المتطرف السياسى والدينى الذى يعمد إلى إيذاء مشاعر المسلمين والاستخفاف بتقاليدهم والتصدى لبعـض مظـاهر احتفالاتهم، مرورًا بشعورهم بأن حرياتهم الدينيـة ليسـت مكفولـة بـالقدر

الكافى. أما الحريات السياسية فهى مرتبطة بطبيعة النظم السياسية التى يعيشون في ظلها، كما أنها تدخل بشكل أوسع فى دائرة أخرى وهى مشكلة الحريات السياسية إمَّا للعمالة المهاجرة، وإمَّا للأقليات، ولكلا الموضوعين حيثياته وقواعده، بل إن عِظَم مشاكل المهاجرين والأقليات قد جعل لكل منهما فرعًا مستقلا من فروع القانون الدولى العام، ولذلك لا يجوز أن نعالج مشاكل الحريات السياسية للأقليات الإسلامية بمعزل عن التيارات الدولية فى هذين الموضوعين الكبيرين.

غير أن هناك بعض الأقليات الإسلامية التى تواجه السياسات التعسفية والتمييزية من السلطات المركزية في بلادها وهى جزء لايتجزأ من شعب الدولة التى تعيش فيها ولذلك نشأت طائفة جديدة من مشاكل الأقليات الإسلامية التى تبدأ بالمطالبة بتحسين أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمساواة بينها وبين أبناء الشعب فى بلادها، والاهتمام بالأقاليم التى تعيش فيها إذا كانت تمثل غالبية سكان هذه الأقاليم، كما تتدرج المطالبة فى مثل هذه الأحوال بحيث تتواضع إلى حد المطالبة بالحكم الذاتى ولكنها تنشط أحيانًا عندما يستحيل عليه التوفيق بين احتياجاتها ومواقف الحكومة المركزية فتعلن رغبتها فى الاستقلال بدولة خاصة بها.

وللتمثيل على ما تقدم يكفى أن نلقى نظرة عجلى على الأقلية الإسلامية فى الهند والصين وروسيا ثم نخصص بعض التفصيل لمشكلة الأقلية الإسلامية فى الفلبين التى أصبحت قضية دولية لا يجوز أن تعالج فى سطور قليلة بحيث تكون المعالجة متناسبة مع حجم المشكلة وأهميتها.

أما الأقلية الإسلامية فى الهند والتى تربو عند المسلمين على ثمانين مليونا وتنخفض عند السلطات الهندية إلى نصف هذا العدد فهى ولاشك من بقايا تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧ ولم يكن هناك مناص من أن تظل أقلية ضمن الأكثرية من السيخ والهندوس رغم ما تعانيه من احتكاكات وما يثيره ذلك من فتن اجتماعية ودينية تصل إلى حد ارتكاب المجازر المتبادلة وتدنيس دور العبادة والأعمال الانتقامية التى يمليها العيش المشترك والانتماء إلى ديانات متباينة ولذلك فإن حل هذه المشكلة لا يمكن أن يتم إلا بالتفاهم مع الحكومة الهندية على برنامج يتضمن عدم التمييز بين أبناء الشعب الهندى وتأكيد احترام تقاليد كافة الأديان السماوية والوثنية والعمل على التنمية الاجتماعية والثقافية وترقية الحياة بحيث تختفى مظاهر الاحتكاك الاجتماعى. وليس معقولاً أن تطالب هذه الأقلية أو أن يؤيدها أحد فى العالم الإسلامى بإقامة دولة تهفو إلى الانضمام إلى باكستان الدولة الأم فى هذه الحالة كما أنه لا سبيل إلى خلق روح قومية هندية تتجاوز الأديان الآن رغم أن هذه الدعوة التى تبناها حزب المؤتمر الهندى قد نجحت فى لحظة معينة بعد أن تعززت بالقيم الديمقراطية وبعد أن تخففت من الملايين المسلمة عندما أنشئت باكستان.

أما الأقلية الإسلامية فى الصين والتى يختلف التعداد الرسمى عن التعداد الإسلامى لها فيتراوح بين ٤٠ ومائة مليون نسمة وهو على أى حال رقم متواضع إذا قيس بالعدد الاجمالى لسكان الصين، فإن الأقلية التى نشأت كجزء من الصين منذ قرون عديدة قد اندمجت فى الحياة

الصينية وعانت من قمع أصحاب الديانات فى النظام الشيوعى، ويبدو أن انتقال الصين تدريجيا من النظام الشيوعى إلى نظام أكثر انفتاحًا لم يتضمن إطلاق الحريات الدينية ولذلك تظهر من حين إلى آخر خصوصًا فى الفترة الأخيرة ثورات إسلامية تواجهها السلطات بالقمع المناسب، وتطالب هذه الثورات بتحسين ظروف حياة الجالية الإسلامية كما طالبت مؤخرًا بحكم ذاتى فى إطار الدولة الصينية على الأقل فى وضع يماثل الأقاليم الصينية الأخرى. ولا تزال هذه الأقلية تقوم بمواجهات مع السلطات الصينية، كما أنه يبدو أن عدم استعداد هذه السلطات للتفاهم مع هذه الأقلية قد دفعها إلى القيام بأعمال إرهابية واسعة حتى فى العاصمة بكين. أما موقف العالم من مشاكل الأقليتين المسلمتين فى الهند والصين فيمكن أن نسجل عليه الملاحظات الآتية:

١ - بالنسبة للأقلية الإسلامية فى الهند يعمد العالم الإسلامى إلى مساندتها ويعتبرها جزءًا من مشاكل العلاقات الثنائية بين الهند وباكستان ولكنها تفترق قطعًا عن مشكلة كشمير. أما العالم الخارجى وخاصة واشنطن فيعتبر أن هذه المشاكل سببها التخلف الاجتماعى والاقتصادى إلى الوفاق الاجتماعى والتسامح بين أبناء العقائد المختلفة.

٢ - وأما الأقلية الإسلامية فى الصين فلم يحرك العالم الإسلامى إزاءها ساكنًا لسبب واضح وهو ما يرجوه العالم الإسلامى للصين من مكانة فى قابل الأيام حتى تصبح قوة عظمى توازن قوى النظام الدولى الجديد، وبذلك تطغى هذه الرغبة على ما يأمله العالم الإسلامى من حكومة بكين من الاهتمام بمشاكل الأقلية الإسلامية، مع ملاحظة تعقيد الوضع الصينى وتعدد أديانه وأعراقه وقومياته وتفهم العالم الإسلامى

لمخاطر انهيار الصين إذا سمحت بقدر من التسامح مع الأقليات المختلفة. أما العالم الخارجي وخاصة واشنطن فإنه يعالج قضايا حقوق الإنسان بالقدر اللازم لخدمة مصالحة ولا نعتقد أن الأقلية الإسلامية في الصين تدخل في دائرة هذه المصالح ومن ثم أغفلها الساسة وأجهزة الإعلام واعتبرها ارهابًا صراحًا بل أضاف البعض ما يحدث في الصين إلى حركة الإرهاب الإسلامية العالمية التي يضعون لها الأطر والقواعد لتأصيلها.

قضية المسلمين جنوب الفلبين:

تعتبر الأقلية الإسلامية في الفلبين ذا وضع خاص، فهي ليست أقلية وافدة وإنما جزء من الشعب الفلبيني تحول إلى الإسلام منذ حركة انتشار الإسلام في آسيا خاصة في عهد السلطان محمود الغزنوي (الدولة الغزنوية). ولما احتل الفلبين الأسبان في القرن السادس عشر ضمن حركة الاستعمار الأولى شجع الأسبان المسيحيين وأهملوا المسلمين في إطار منظورهم الذي خرجوا به من شبه جزيرة أيبريا وهو النظرة الصليبية الثنائية بين المسلمين والمسيحيين، بل إنهم أطلقوا على كل مسلم في طريقهم اسم المورز مثلما أطلقوا نفس الاسم على مسلمي شمال إفريقيا عندما كانوا يطاردون أمراء الممالك الإسلامية المنقرضة على أراضيهم. وهكذا أنشأ الأسبان تقليدًا راسخًا في علاقة صراع مستمرة بين المسيحيين والمسلمين في الفلبين ولم تتغير هذه النظرة عندما هزمت الولايات المتحدة أسبانيا عام ١٨٩٨ وأجلتها عن الفلبين وحلت محلها. وقد ظلت سياسة الحكومة المركزية في مانيلا منذ استقلال الفلبين عام ١٩٤٦ على تمييزها ضد جزر الماندناو جنوب الفلبين التي يسكنها المسلمون وهي أقلية تقدر

بحوالى ستة ملايين نسـمة تعيـش فـى منطقـة عـامرة بـالثروات الطبيعيـة وتحتل موقعًا استراتيجيا مرموقا. وقد أدت هذه الظـروف إلى قيـام حركـة إسلامية معارضة لسياسات مانيلا ثم تحولت هـذه الحركـة السياسـية إلى حركة مسلحة ودخلت فى مواجهات مع الحكومة.

وفى أوائل السبعينات نشأت منظمة المؤتمر الإسلامى وسط تزايد أسهم العالم الإسـلامى والصحـوة البترولية، واتجـهت المنظمـة إلى دعـم قضايـا الأقليات الإسلامية ومنها جبهة تحرير جنـوب الفلبـين المعروفـة بجبهـة مورو واضطرت حكومة مـانيلا مـع اشتداد العمـل الإسـلامى المسـلح فـى الداخل وتزايد ضغوط الدول الإسلامية فى الخارج، وحاجتها إلى البـترول إلى توقيع اتفاق طرابلس عام ١٩٧٦ مع زعيم الجبهة نور ميسوارى ووقـع وزراء خارجيـة أربـع دول إسـلامية هـم أعضـاء اللجنـة الرباعيـة علـى الاتفاق كشهود، وهى نفس اللجنـة التـى تـابعت القضيـة فـى المؤتمـر الإسلامى. ويقضى اتفاق طرابلس بمنح حكم ذاتـى للمقاطعـات الإسـلامية فى ميندناناو.

غير أن الحكومة الفلبينية راوغت فى تنفيذ الاتفاق، ورفضـت تضمـين الدستور الجديد الصادر عام ١٩٨٨ أحكام اتفاق طرابلس، وفضلت حكومة مانيلا قمع حركة المعارضة الإسلامية. ولـما اشـتدت هـذه الحركـة وافقـت الحكومة على أن توقع اتفاقًـا آخـر للسـلام توسـطت فـى توقيعـه منظمـة المؤتمـر الإسـلامى عـام ١٩٩٦ يركـز علـى منـح الحكـم الذاتـى للمنـاطق الإسلامية.

وقد تجددت أعمال العنف فى جنوب الفلبين منذ نهايات عام ١٩٩٨ ولكن حساسية الدول الإسلامية تجاه قضية مسلمى مورو لم تكن بنفس الدرجة خاصة وأن الدول الأسيوية المهتمة بالمشكلة وفى مقدمتها أندونيسيا قد تعرضت لصعوبات ومشاكل تهدد بالقضاء على الدولة ذاتها، ومن بين هذه الصعوبات فتنة طائفية حادة بين المسلمين والمسيحيين ظلت البلاد تحاذر منها طوال تاريخها المعاصر.

الفصل الحادى عشر

الإسلام والإرهاب

راج فى أعقاب نهاية الحرب الباردة القول فى الغرب أن الإسلام هو العدو الجديد بعد انهيار الشيوعية وأن خطر الإسلام يرجع فى جزء منه إلى طبيعته الإرهابية وتعصبه ورفضه لأنماط الحياة الأخرى وتضمنه على تعاليم الجهاد ضد غير المسلمين، وما تضمنه القرآن الكريم من أحكام تحض المسلمين على معاداة اليهود والنصارى. ويستدل أصحاب هذه النظرية على صحتها بأعمال الجماعات الإسلامية التى تعرف أيضا بالجماعات الأصولية fondamentalistes integristes سواء فى الجزائر أو مصر، وتوصف أعمالهم أيضًا بأنها أعمال إرهابية بربرية همجية ويقترن عملهم بالإسلام لأنهم يكفرون مجتمعهم ويطالبون بالعودة إلى الإسلام الأول الذى لا يعترف بما استجد، فأوغل بعضهم فاعترف فقط بالقرآن وأنكر السنة، وترخص بعضهم فاعترف بالسنة والقرآن وأسقط مصادر الشريعة الأخرى. كذلك يستدلون على علاقة الإسلام بأعمال هذه الجماعات بإعلانها أنها تعمل باسم الإسلام ويرتدى أعضاؤها الزى الإسلامى، ويعادون أنماط الحياة الغربية ويدعون إلى نمط إسلامى معين للمرأة والحياة بشكل عام.

وتبنى هذه النظرية أركانها حول الصورة غير المتسامحة والعنيفة للإسلام على تصورها للتجربة الإسلامية فى إيران واتهامها بإرغام الشعب على نمط إسلامى مرسوم، وخاصة موقف إيران من سلمان رشدى وكتابه «آيات شيطانية».

أما المصدر الثالث لهذه النظرية فهو انخراط صراع المجاهدين الأفغان فى صراع ضار أعمى قادتهم عن المبادئ الإسلامية وغلب المصالح السياسية على كل ماعداها. ثم يضاف المصدر الرابع وهو تورط بعض الإسلاميين فى تفجير مركز التجارة العالمى. أما فى المصدر الخامس وهو ما لاحظه بناة هذه النظرية وغيرهم من أن الحرب الإيرانية العراقية قد شهدت ملاحم الوحشية المتبادلة وطرفاها يرفعان لواء الإسلام ويعتبر كل خصم خصمه خارجًا عن الإسلام. وقد بلغ الأمر حدًّا مخجلاً عندما نشر الشيخ محمد على تسخيرى (المسئول فى الثمانينات عن الشئون الخارجية فى مكتب المرشد العام على خامينى) كتابًا لشرح الآية الكريمة ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىَ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾. وخلص إلى أن العراق خارج عن دائرة الخطاب فى الآية الكريمة لأنها توجب على المسلمين أن يصلحوا بين طائفتين من المؤمنين، وهو لا يعتبر العراق طائفة مؤمنة. وأخيرًا فإن مصادر تشكيل صورة الإسلام هو ما يعتبره أنصار هذه النظرية مظاهر التخلف الاجتماعى والاقتصادى وانتهاك حقوق الإنسان بالمفهوم الغربى الذى ينكر على الإسلام قواعده فى التمايز بين المرأة والرجل فى الميراث والشهادة وحظر زواج المسلمة من غير المسلم وحظر التبنى، والحدود وغيرها مما يعتبره أصحاب النظرية بدائية ترجع إلى عصور تقادم بها العهد وعصور غمرتها أنوار المدنية ومصابيح التنوير. والحق أن قسمين من الكتاب والمثقفين المسلمين قد أسهموا فى تعزيز بعض جوانب هذه النظرية عندما خلطوا بين ما يجوز وما لا يجوز خاصة بعد أن استهدف بعضهم لسخط بعض الجماعات الإسلامية.

ثم هناك مصدر آخر خارجى دفع بنظرية العداء للإسلام أو صورة المسلم القبيح الإرهابى المخرب قدما، وهذا المصدر هو إسرائيل وغلاة المتطرفين من اليهود الذين اعتبروا أعمال الجماعات الإسلامية فى لبنان وفلسطين (الجهاد - حزب الله وغيرهما) الموجهة ضد إسرائيل وسياساتها ضربًا صارخًا من ضروب الإرهاب. وحثوا السلطة الفلسطينية على التصدى لهذا الإرهاب إن أرادت أن يكون لها دور فى التسوية، وعلى السلطة الفلسطينية أيضًا أن توفر الأمن والحماية من «الإرهاب الإسلامى والعربى» للمستعمرات اليهودية فى الأراضى الفلسطينية ولأعمالهم ضد السكان الفلسطينيين ولأنشطتهم الاستيطانية وممارساتهم الدينية المختلفة فى هذه «الأرض المقدسة».

والطريف أن تفريد المسلمين دون غيرهم وإلصاق الإرهاب بهم يأتى فى وقت التبس فيه على العالم التمييز بين الإرهاب وغيره من الأعمال المشروعة. ونتج هذا اللبس والعنف ضد غيرهم سواء من المسلمين أو غير المسلمين، فالرسالات كلها من عند عزيز حكيم. ولسنا بحاجة إلى استخدام الأسلوب الاعتذارى أو التبريرى الذى ساد بعض الكتابات الإسلامية وهى تحاول تفنيد هذه المزاعم وذلك للتأكيد على أن الإسلام هو دين السلام وأن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض كأنما قتل الناس جميعا، وأن الإسلام جعل القصاص حياة لأولى الألباب كما يعلم أنصار هذه النظرية أن القرآن والسنة زاخرتان بأحكام العلاقة المثالية بين المسلم وأخيه، وأهل الكتاب، ورعاية الجار والمحتاج وغيرها، كما يفصل بين علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله، مع تأكيد الرابط

بينهما فلا يجوز أن يفهم أداء الشعائر على أنه منقطع الصلة بصلاح الإنسان وتحقيقه لما استخلفه الله أصلاً فى الأرض، وليفهم هؤلاء أن كلنا لآدم وآدم من تراب، وأن الناس تتفاضل أمام الله بالتقوى بالمفهوم الصحيح.

مما تقدم يتضح أنه لا يجوز أن يستدل على الإسلام بأفعال بعض المسلمين، فالإسلام حجة عليهم، وليسوا هم عنوانًا أو حجة على الإسلام. فالمقطوع به فى جميع الديانات أنه لا حق لأحد أن ينصب نفسه فوق غيره دينًا واستقامة ثم يبيح لنفسه أن يعاقب هو نيابة عن الله من يعتبره خارجًا عن الدين كما يفهمه هو وكل ما تستند إليه النظرية الغربية مما تلاحظه من سلوكيات إنما هو مستهجن أيضًا لدى العقلاء من المسلمين، وهى على أية حال سلوكيات دافعها سياسى ولا علاقة لها بالإسلام فنسف مقر مركز التجارة العالمى واستمرار الصراع فى الجزائر وغيرها والصراع بين العراق وإيران سابقًا أو إقحام الدين لتبرير غزو الكويت، كل ذلك لا يقره دين ولا ترضى عنه شريعة. أما اعتراض النظرية الغربية على ما تراه انتهاكًا لحقوق الإنسان ومبدأ المساواة فى الشريعة الإسلامية فى قضية تعليمية لا نملك، ولا حق لهم، المساس بأحكامها.

أما قضية سلمان رشدى وأمثالها مثل تسليم نسرين الهاربة إلى السويد من بنجلاديش، فالملاحظ أن الدول الغربية التى تبيح حرية الفكر والاعتقاد وتفسح المجال للمساس بالعقائد الدينية ويكون لمن تمسهم كتابات أو أفعال معينة أن يلجأ للقضاء إذا توفر المقتضى، وهكذا يكون تسوية أمثال هذه المشاكل ولا حاجة إلى تصعيدها، كما حدث فى موقف

إيران. فهو لا شك يعكس غيره على المقدسات الإسلامية ولكن أسلوب حماية هذه المقدسات من العبث هو موضع الخلاف، والمهم تفهم المناخ العلمانى الذى يسود الدول الغربية والتى لا تنظر إلى الأديان نظرة روحية. فهذا نظامها العام الذى يناقض النظام العام الإسلامى.

أما استهجان البعض للحدود الإسلامية ونظم التوارث والأسرة والأحوال الشخصية، وعدم اقتناعهم بسمو التشريع الإلهى الإسلامى فى ذلك، فهو أمر ليس مجالا للخلاف بين الغرب والمسلمين ومادام الغرب لا يؤمن بمصدر التشريع الإسلامى فلا أهمية لاقناعه بحكمة التشريع، علما بأن الغرب يسلم بعظمة التشريع اليهودى، ولا يثير شيئا ضد الإرهاب الصهيونى واليهودى والمسيحى ويوشك أن يعتبر هذا الإرهاب بطولة وعبقرية.

العدد
القادم

إسلامية المعرفة

دكتور محمد عمارة

فهرس

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

مقدمة.. ٧

الفصل الأول: تحولات النظام الدولى ومفهوم القضايا الإسلامية ٩

الفصل الثانى: المشكلة الكردية ١٩

الفصل الثالث: قضية القدس ٢٧

الفصل الرابع: مشكلة البوسنة والهرسك ٤٩

الفصل الخامس: المشكلة القبرصية ٦٣

الفصل السادس: مشكلة كشمير ٧١

الفصل السابع: المشكلة الأفغانية ٧٩

الفصل الثامن: مشكلة الشيشان ٩١

الفصل التاسع: مشكلة كوسوفو ١٠١

الفصل العاشر: الأقليات الإسلامية ١٠٧

الفصل الحادى عشر: الإسلام والإرهاب ١٢١

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع		١٩٩٩/٤٩٦٨
الترقيم الدولى	977-02-5791-5	ISBN

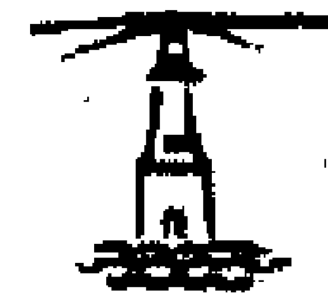
١/٩٩/٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي شاع في الغرب تصور أن الإسلام هو العدو الجديد للغرب وأنماط الحياة الغربية، فاتجهت الهجمات عنيفة وقاتلة تشبه حروب الإبادة ضد المسلمين في البلدان التي يسكنها أقليات إسلامية.

وهذا الكتاب يلقى الضوء - لأول مرة - على المشاكل الخطيرة وحروب الإبادة التي يلقاها المسلمون في الشيشان، وكسوفو، والبوسنة، والهرسك، والمناطق الكردية، وحتى فلسطين، وكشمير، وقبرص، وغيرها.

في إيجاز وعمق ستعرف كل شئ داخل هذا العدد.



دار المعارف

٤٠٦٩٩٩/٠١

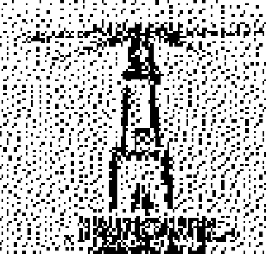


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور محمد عمارة

إسلامية المعرفة.. ماذا تعني..؟



دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

[٦٤٢]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور محمد عمارة

إسلامية المعرفة

ماذا تعني؟



دار المعارف

إن الذيـن عنـوا بإنشـاء هـذه السلسـلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فـى شـىء واحـد ، هو نشر الثقـافة مـن حيث هـى ثقافـة ، لا يريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشـعوب العربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تدعوهـم هذه القـراءة إلى الاسـتزادة مـن الثقافـة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقـى وأخصـب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تمهيد

إسلامية المعرفة.. أو التأصيل الإسلامي للمعرفة - في أدق.. وأبسط.. وأوفى التعريفات - هي:

الإيمان بوجود علاقة ما بين المعارف والعلوم التي يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذي يتدين به هذا الإنسان، الذي يكتسب هذه المعارف ويحصّل هذه العلوم.. وذلك انطلاقا من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته ومعايير التدين به على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التي صاغت وتصوغ «النموذج الثقافي» لهذا الإنسان الذي يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم..

فالمعتقد الديني يلون نظرة الإنسان للحياة، وفلسفة رؤيته للكون، ويؤثر في تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيسي في تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والولاء والبراء، والانتماء والمفارقة، وقسمات الذات وسمات الآخر.. إلخ.. ومن ثم يسهم هذا المعتقد الديني في تمايز الثقافة، التي تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها.

وإذا كان التصنيف الموضوعي للمعارف والعلوم يميز - انطلاقا من موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم - بين:

● العلوم الشرعية .. من مثل علوم العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن وعلومه.. والحديث وعلومه.. إلخ..

● والعلوم الإنسانية والاجتماعية .. من مثل الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والنفس، والفلسفة، والآداب والفنون.. إلخ..

● والعلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة -.. من مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والرياضيات.. إلخ..

فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز هي الأخرى فنسبة العلاقة - أي الأسلمة - بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة، لأن الشرع والوحي والدين - أي الوضع الإلهي المطلق - هو موضوع هذه العلوم - حتى لتسمى هذه العلوم الشرعية: علوما شرعية ومعارف دينية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين.. حتى أن الاجتهاد البشرى فيها، والفكر الإنسانى فى ميادينها - أى المعرفة الإنسانية المكتسبة فى علومها - محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها، التى هى وضع إلهى ووحى سماوى، يمثل الإطار الحاكم لأى تفكُّر أو اجتهاد وتجديد فى هذه المعارف والعلوم..

ويلى هذه المعارف والعلوم الشرعية، فى العلاقة بالدين - ومن ثم فى نسبة الأسلمة - معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأن موضوعات هذه العلوم هى النفس الإنسانية، التى تتأثر تجاربها وخبراتها واختياراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها بعقائد الدين ومبادئه وقواعده وأحكامه وفلسفته فى التشريع.. فمناهج وتجارب وحقائق ومقاصد هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها النفس الإنسانية - على المستوى الفردى والاجتماعى - ولأن هذه النفس الإنسانية قد اصطبغت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الدينى، ومعايير الحلال والحرام الشرعية،

وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواريث المصطبغة أو المتأثرة بمطلقات الدين.. وأيضا، لتنوع وتعقد عوالم النفس الإنسانية وفرادة واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، كان تلون وتمايز المعارف الإنسانية في ميادين هذه العلوم.. فمهما بلغت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذى تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية..

بل إن تأثيرات المعتقد الدينى تظل فاعلة حتى فى نفس الذين مرقوا من الدين وألحدوا فيه.. تظل - كما يقول جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤- ١٣١٤ هـ -١٨٣٨- ١٨٩٧ م) - كأثر الجرح المندمل!.. فإذا هم مرقوا من روحانية الدين ومناسكه وشعائره تظل فيهم عصبيته.. وحتى إذا فارقهم الحب له، فسيظل الكره له شاغلا لنفوس هؤلاء الملحدين فيه!..

فالعروة وثقى، إلى حد كبير، بين المطلق الدينى وبين النسبى الإنسانى فى معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية..

ويلى هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، فى العلاقة بالمطلق الدينى، حقائق ومعارف وقوانين العلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة..

ففى هذا الحقل من العلوم والمعارف - التى تمثل المادة موضوعاتها- يكون الحياد كاملا، والموضوعية تامة فى الحقائق والمعارف والقوانين المستخلصة من التجارب فى موضوعات هذه العلوم.. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض.. إلخ.. إلخ.. موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية.. وما التطور فيها والتراكم

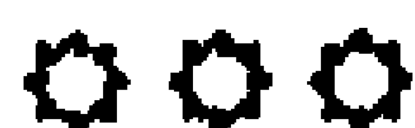
المعرفى والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب فى ميادين هذه العلوم.. فلا أسلمة على الإطلاق فى الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما ترد الأسلمة - فقط - فى توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين - على المستوى الفردى والاجتماعى - يضبط توظيف هذه الحقائق، بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقق مقاصده الشرعية، بينما الانفلات من الدين قد يوظفها فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب - مثلا - لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته.. لكن هذه العقائد هى التى تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها لاستثمار العنب كى يكون خمرا.. والبعض يقف بوظائفها - فى زراعة العنب - عند الطيب الحلال..

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات - وهى ثابتة - تقف العقائد عن حدود ضوابط وظائفها.. فالبعض يشوه بها خلق الله، ويخلط بها الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين، وقيم الإيمان الدينى..

فالأسلمة، فى ميادين العلوم الطبيعية، لا دخل لها ولا تأثير فى حقائق وقوانين هذه العلوم، وعلاقتها بهذه العلوم خاصة بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة ومقاصد هذا التوظيف، فقط لا غير..

فإسلامية المعرفة - أى العلاقة بين المطلق الدينى والوضع الإلهى الثابت - وبين المعارف الإنسانية - الكسبية والنسبية - قائمة دائما وأبدًا.. لكن نسبتها وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف - فى الدرجة - باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.. فهى عالية جدًا فى العلوم الشرعية.. وكبيرة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. وواقفة فى العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذه العلوم..



وإذا كانت هذه هى حقيقة إسلامية المعارف والعلوم.. وهى تبدو على هذا النحو من البداهة التى لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. فإن غرابة وشذوذ إنكار واستنكار هذه الحقيقة - حقيقة وجود علاقة ما بين المعتقد الدينى - وخاصة دين الإسلام المتميز بمنهاجه الحياتى الشامل - وبين المعرفة تتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكرين لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينكرون وجود علاقات للفلسفات والأنساق والمرجعيات الفكرية غير الإسلامية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية ! !..

● فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية.. أى وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والمنهج والمعتقد المادى فى تميز نسق فلسفى - أى علم اجتماعى - بالصبغة المادية.. فلم يكون الإنكار والاستنكار - فقط - للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية الإسلامية وبين الفلسفة، على النحو الذى يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة؟!

● ولا أحد ينكر وجـود فلسفة وضعيـة، تقف بحقائـق العلـم عند الواقع وقوانينه ومعارفه.. فلم يكون الإنكـار لتميّز معرفـى يحدثـه العـالم والمعارف إذا هو أضاف إلى آيات الكون آيات الوحـى.. وضم إلى معـارف الواقع المادى نبأ السماء عـن المغيبـات التـى لا يسـتقل بإدراكهـا عقـل الإنسان وتجاربه الحسية؟!..

● ولا أحد قد أنكر أو استنكر وجود «علم اجتمـاع ماركسـى»، تلوّن بالفلسـفة الماديـة الماركسـية - الماديـة الجدليـة.. والماديـة التاريخيـة - وبالمقاصد الشيوعية فى إقامة مجتمع البروليتاريا اللاطبقى..

فلم يكون الإنكـار والاستنكار-فقط-لوجـود «علـم اجتمـاع إسـلامى» كثمرة لعلاقة الإسلام بمناهج وحقـائق هـذا العلـم فـى عقـول ومجتمعـات المتدينين بالإسلام؟!.. وكثمرة لإعمـال سـنن الله وقوانينـه فـى الاجتمـاع البشرى؟!..

● بل لقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة، وجود علـم اجتماعى للاهوت التحرير[1] فى أمريكـا اللاتينيـة.. بـل وحـاول بعضـهم استلهام وتوظيف هذا اللون مـن الفلسـفة فـى العلـوم الاجتماعيـة بواقعنـا الإسلامى..

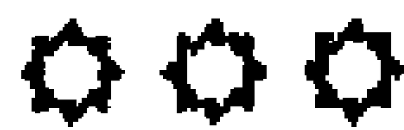
فلـم يسـتنكر هـذا البعـض الصبغــة الإسـلامية فــى علــم الاجتمــاع الإسلامى؟!.. أم أن تأثير «لاهـوت التحريـر» فـى علـم اجتمـاع أمريكـا اللاتينية حلال، وتأثير الإسلام فى علم الاجتماع عندنا حرام؟!..

---

(١) لاهوت التحرير: تفسير اجتماعى للإنجيل، ينحاز إلى الفقراء والمسـتضعفين، تبلـور فـى أوسـاط عـدد مـن القساوسـة الكـاثوليك - ذوى النزعـة اليسـارية.. وربمـا الماركسية - فـى أمريكـا اللاتينيـة.. ولقـد اتخـذت منـه البابويـة الكاثوليكيـة - فـى الفاتيكان - موقفا معاديا.

● ولا أحد ينكـر ولا يستنكر ما قـرره «مـاكس فيـبر» Max Feber (١٨٦٤ - ١٩٢٠ م)[1] عـن علاقـة البروتسـتانتية بالرأسماليـة ـ فلسـفة واقتصادا واجتماعا ـ بل لقد غدا هذا الذى قالـه «مـاكس فيـبر» إحـدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجـود علاقة بين الدين الإسلامى وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد متميزة معارفها بالإسـلام، ومصطبغـة بفلسفة الإسلام المتميزة فـى علاقـة المسـلم - فـردا ومجتمعـا - بـالثروات والأمـوال.. وذلـك انطلاقـا مـن نظريـة الخلافـة والاسـتخلاف الحاكمـة للعـلاقة بين المـالك الحقيقـى للـثروة - وهـو الله سـبحانه وتعـالى - وبين الخليفة والنائب والوكيل - وهو الإنسان مالك المنفعة ـ فى الثروات والأموال..

فلم يكون «حلال» الذى قرره «ماكس فيبر» رغم أنها تدع مـا لقيصـر لقيصر ولا تجعله لله - لم يكون «حلالها» هذا «حراما» على الإسلام - رغم منهاجه الحياتى الشامل ، وتقرير القرآن الكريم لفلسـفة متمـيزة فـى علاقة الإنسان - فردا ومجتمعا - بالثروات والأموال ؟! .



إننا ـ فى الحقيقة وواقع الأمر ـ أمـام تناقض فى مواقف هـذا النفر- المنكرين لإسلامية المعرفة - يبلغ درجة الغرابة والشذوذ.. ولا تفسـير لـه إلا الجهل بالإسـلام - إذا حسـنت النوايا - أو الكراهية لرؤية أيـة آثـار للإسـلام فـى حيـاة المجتمعـات الإسـلامية ، ومعـارف العلـوم الإنسـانية والاجتماعية فى هذه المجتمعات..

---

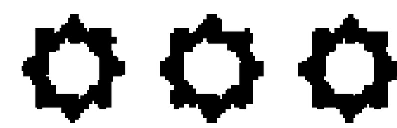
(١) عالم اجتماع ألمانى.. من أهم مؤلفاته (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) - سنة ١٩٠٥ م - (والمفاهيم الأساسية فى علم الاجتماع) - سنة ١٩٢١ م.

فالليبراليون الرأسماليون – من أعداء إسلامية المعرفة – يقبلون بوجود «روح بروتستانتية» – يسمونها «الإصلاح الدينى» – كى تقبلها جماهير أمتنا – لتصنع هذه الروح الرأسمالية، وتصبغ الليبرالية التى يريدون..

والماركسيون الماديون – من أعداء إسلامية المعرفة – يريدون الفلسفة المادية التى تفسر وتغير «البناء التحتى» – الاجتماعى والاقتصادى وما يرتبط به من بناء فوقى بورجوازى – في الفكر – لتستبدل به «بناء تحتيا» شيوعيا، و «بناء فوقيا» شموليا.

وعلى ما بين الليبراليين والماركسيين من خلاف يبلغ حد التناقض العدائى.. نراهم يجتمعون على الإنكار والاستنكار لإسلامية المعرفة الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الإسلام، رغم إيمان كل فريق منهم بتأثير فلسفى وفكرى في علم الاجتماع الذى يدعو إليه كل فريق، ويريد إقامته فى مجتمعات الإسلام..

فعلاقة البروتستانتية بالاجتماع الرأسمالى – عندهم – مقبولة.. وعلاقة المادية الجدلية والمادية التاريخية بالاجتماع الاشتراكى والشيوعى – عندهم – مقبولة.. بينما علاقة الإسلام بالاجتماع الإسلامى هى وحدها الحرام، عند هذا النفر من المثقفين..



وإذا كان «التغريب» هو الداء الذى صنع ويصنع هذا الشذوذ الغريب فى موقف هذا النفر الذين ينكرون علاقة الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. فلقد يكون مفيدا فى علاج هؤلاء المرضى –

الذين لا يستشهدون إلا بكل ما هو غربى.. ولا يحتجون إلا بما هو غربى.. ولا يسلمون إلا بما هو غربى - قد يكون مفيدا فى علاج مرضهم هذا - الغربى الغريب! - أن نلجأ إلى «الصيدلية الغربية» لنأتى منها بعلاج لهذا المرض الذى بلغ بهم هذا الحال الشاذ والعجيب..

● فالمستشرق الإيطالى «كارل نلينو» Carlo Nallio (١٨٧٢ - ١٩٣٨م) قد كتب دراسة عن «محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية»، أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة الإسلامية، ميّزت هذه الفلسفة - تبعا لتميّز الإسلام - عن الفلسفة اليونانية[1].. أى أن هناك - برأى هذا المستشرق - إسلامية للمعرفة الفلسفية فى حضارة الإسلام ومعارف المسلمين..

● والمستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم» Alfred Guillaume يؤكد على أن الوسطية الإسلامية، التى جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويؤاخى بين الحكمة والشريعة، قد صبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة المتميزة.. فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين، وامتازت بها عن الفلسفات الأخرى التى انحازت إلى العقلانية المادية المجردة، أو إلى المثالية الباطنية الخالصة.. فأصبح للإسلام - كما يقول «جيوم» - «فلسفة منطقية.. تدرس بوصفها من صميم العقيدة

---

(١) ترجم هذه الدراسة ونشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى، فى كتابه (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) ص ٢٤٥ - ٢٩٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

الدينيـة..»[1].. فلقـد أثمـر الإسـلام معرفـة إسـلامية فـى هـذا العلـم الاجتماعى – الفلسفى – ..

● والمستشرق الفرنسى «ديفيد سـانتيلانا» David de Santillana (١٨٤٥ – ١٩٣١ م) – وهـو حجـة فـى القـانون الرومانى وفـى الفقـه الإسلامى – يؤكد على علاقة النزعـة الدنيويـة الغربيـة بالطـابع النفعـى الدنيوى للقانون الرومانى.. وعلى علاقة الوسطية الإسـلامية – الجامعـة بين الدنيا والآخرة – بتميّز القـانون وفقـه المعـاملات الإسـلامى، عندمـا ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الدينـى والمقصـد الأخلاقـى.. أى أن هناك تأثيرا للإسلام فى المعرفـة القانونيـة – وهـى علـم اجتمـاعى – وإسلامية للمعرفة القانونية فـى حضـارة الإسـلام.. يؤكـد «سـانتيلانا» على هذه الحقيقـة المعرفيـة التـى مايزت بـين القانـون الإسـلامى وبـين القانون الرومانـى.. فيقـول «إن معنـى الفقـه والقـانون بالنسـبة إلينـا وإلى الأسلاف – (فى الحضارة الغربية) – : مجموعـة مـن القوانـين السـائدة التى أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليـه. وسـلطانه مسـتمد مـن الإرادة والإدراك وأخـلاق البشـر وعاداتـهم.. إلا أن التفسـير الإسـلامى للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامى هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمتـه لا يـأثم تجـاه النظـام الاجتمـاعى فقـط، بـل يقـترف خطيئـة دينيـة أيضـا، فالنظـام القضـائى

---

(١) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٣٧٩. ترجمة جرجس فتح الله.. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التى يستمد منها المجتمع الإسلامى وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنما هى مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما، والأخلاق والآداب، فى كل مسألة، ترسم حدود القانون. فالشريعة الإسلامية شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلا..»[1].

فالدين الإسلامي وشريعته الإلهية قد صبغت القانون الإسلامى بصبغة ميزته عن القانون الروماني.. أى أننا بإزاء إسلامية للمعرفة فى هذا العلم الاجتماعى-علم القانون وفقه المعاملات-يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير.

فهل تجدى هذه الشهادات الغربية - بحسبانها «روشتات» من «الصيدلية الغربية» لعلاج ذلك المرض التغريبى الشاذ، الذى جعل نفرا من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية - وبعضها ديانات - وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. اللهم إلا إذا كان الأمر بإزاء الإسلام، فإنهم ينكرون ويستنكرون أية علاقة له بالمعارف والعلوم؟!.

لقد سبق لفيلسوفنا ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ - ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) عندما أراد معالجة ذات المرض الفكرى، عند نفر من معاصريه الذين لا يؤمنون إلا بما هو يونانى - وكان يسميهم «العوام»! - أن سلك

---

(١) سانتيلانا (القانون والمجتمع) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٤١١، ٤٣٨، ٤٣١ مرجع سابق.

نفس الطريق في علاج ذات المرض.. مرض «العاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين[1]، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم»، فعرض نصوص الفلسفة المشائية اليونانية، ليقنع بها هؤلاء «العوام».. ثم نبه على الفلسفة الإسلامية الحقة - المصطبغة والمتميزة بالإسلام - فلسفة المشرقيين - أو الحكمة المشرقية - المتميزة عن الحكمة الغربية - فلسفة اليونان -[2]..

فهل يفيد هذا المنهاج في العلاج؟!..

أم يظل هؤلاء المرضى بالاستلاب التغريبي على جمودهم الفكري، يتحدثون عن علم اجتماع ماركسي.. أو مسيحي.. أو وضعي.. أو حتى لاهوتي تحريري.. إلخ.. مستثنين - فقط - علاقة الإسلام وتأثيراته في المعارف الإنسانية؟!..

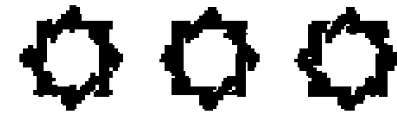
لقد كتب واحد من هؤلاء - منذ سنوات - مقالا ناريا يستنكر فيه استخدام كلمة «إسلامي» في تسمية أحد المستشفيات.. فلما لفتُّ نظره إلى أن بالقاهرة - منذ ١٩٢٧ م - مستشفى - كبيرا وشهيرا - اسمه «المستشفى القبطي» - ولم يهاجم أحد تسميته هذه عبر هذه العقود من السنين - صمت هذا الكاتب.. لكن دون أن يقلع عن الهجوم على

---

(١) المشاؤون هم أتباع مدرسة أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) سموا بذلك لأن التعليم في مدرسته الفلسفية - «اللوقيوم» - كان يتم أثناء السير.. المشي.. ولقد تأسست هذه المدرسة في أثينا سنة ٣٣٥ ق.م واستمرت نحو ألف عام.

(٢) نلينو (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ص ١٧٨ - ٢٨٢. بحث منشور بكتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية). مرجع سابق.

أى إطلاق لكلمة «الإسلامى» على أية مؤسسة من المؤسسات، أو علم من العلوم الإنسانية.. الأمر الذى فضح ويفضح موضوعية هذا النفر من المثقفين والكتاب!..



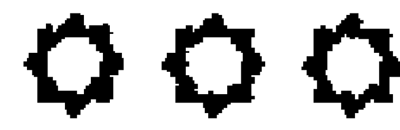
هذه هى «إسلامية المعرفة» - أو التأصيل الإسلامى للمعرفة - .. والتى تعنى - فى أدق وأبسط العبارات - :

العلاقة القائمة بين الدين الإسلامى - عندما يتدين به الإنسان - وبين المعارف والعلوم التى يبدعها هذا الإنسان المتدين بالإسلام..

فالعقيدة - أية عقيدة - وخاصة إذا كانت الإسلام الشامل لكامل منهاج هذه الحياة وما بعد هذه الحياة - إنما تمثل «المنظار» الذى يرى المعتقد بها الكون والاجتماع من خلال عدساته.. فتقوم علاقة ما بين هذه العقيدة وبين المعارف والعلوم التى يبدعها هذا الإنسان.

وهذه العلاقة - إسلامية المعرفة - لا تنفى «النسبية» عن المعرفة الإنسانية.. ولكنها تنبه وتكشف وتبرز علاقة هذه المعرفة الإنسانية النسبية بالمرجعية الدينية المطلقة والمحيطة والكلية.. فهى تنفى النسبية المطلقة عن المعرفة الإنسانية، فى ذات الوقت الذى لا تزعم فيه لهذه المعرفة الإنسانية صفات الإطلاق.. فحتى معارف الإنسان الدينية هى نسبية، وجزء من المطلق الدينى.. والعلم الإلهى هو المتفرد بالعموم والشمول والإحاطة والإطلاق..

وهكذا تبلغ إسلامية المعرفة مبلغ الحقيقة، وتصل فى البداهة إلى درجة المعلوم من الفطرة السوية بالضرورة.. أى التى لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. مطلق العقلاء.



لكن خطر القضية.. وكم اللبس المحيط بها – فى دوائر الخصوم والأنصار! – يستدعى ما هو أكثر من التمهيد.. يحتاج إلى تفصيل للدعوة، يتضمن ضبط مصطلحاتها – .. وإلى إقامة للحجة على صدق مقولاتها.. وإلى نفى للشبهات المحيطة بها.. وإلى تبيان مكانة هذه القضية – إسلامية المعرفة – فى مشروعنا الحضارى، المرشح ليكون دليل عمل ينير لأمتنا طريق النهوض والإقلاع الحضارى، والانعتاق من ربقة التخلف الموروث والاستلاب الحضارى الوافد.. وقبل كل ذلك: جذور القضية فى الموروث الحضارى لأمة الإسلام..

وللوفاء بهذه المهام.. ننتقل من سطور هذا التمهيد إلى صفحات فصول هذا الكتاب.

دكتور محمد عمارة

الفصل الأول

شعار جديد.. لمضمون قديم

« إسلامية المعرفة » .. ..

هذا شعار جديد عرفته حياتنا الفكرية والثقافية منذ سنوات .. وكأى شعار جديد فلقد قوبل بردود فعل متباينة ومتفاوتة ، تراوحت ما بين التأييد .. والحذر .. والحماس ، غير الواعى ، له .. أو ضده!..

وإذا كان هذا الشعار جديدا ، وإذا كانت جدته قد كانت سببا فى الكثير من علامات الاستفهام التى قامت من حوله .. فإن من الضرورى ، جلاءً لحقيقته ، أن نبدأ هذا الحديث بالإشارة إلى حقيقتين :

الأولى : أن جدة هذا الشعار – « إسلامية المعرفة » – لا تعنى جدة المضمون الذى يعبر عنه ، ولا جدة القضية التى يطرحها .. فإسلامية المعرفة – كما سيقيم الدليل عليها هذا الحديث – هى مهمة فكرية ، ورسالة ثقافية عرفتها حضارتنا منذ ظهور الإسلام .. وأول كتاب عرض لهذه القضية – فى تاريخنا الحضارى–هو القرآن الكريم : فشعار « إسلامية المعرفة » يوحى بالموقف القائل بقيام علاقة ما بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية.. وهذه هى المهمة الفكرية والرسالة الثقافية التى عرفتها حضارتنا الإسلامية منذ ميلادها وتبلورها، والتى قدمتها بديلا إسلاميًا فى المعرفة للنموذج المادى فى المعرفة، الذى كان معروفا وسائدا فى حضارات أخرى، غير الحضارة الإسلامية، قبل وعند ظهور الإسلام.

ولذلك ، فإننا نأمل أن تكون الإشارات التى يقدمها هذا الفصل لتاريخ مضمون هذا الشعار - علاقة الإسلام بالمعارف الإنسانية - فى تاريخنا الحضارى والفكرى والثقافى ، شاهدا على أن جدة الشعار لا تعنى أن مضمونه « بدعة فكرية » ، لأنه فى حقيقته مُسلَّمة من المسلمات الفكرية الراسخة فى علوم حضارة الإسلام ..

والثانية : من الحقائق ، التى نشير إليها الآن ، هى أن جدة هذا الشعار قد أثارت - وهذا طبيعى أحيانا - ردود أفعال متباينة تجاهه :

● فهناك - غير الذين ينكرونه ويستنكرونه ، لأنهم ينكرون ويستنكرون - بوعى - أن تكون للإسلام علاقة - أية علاقة - بأى من معارف وعلوم المدنية والحضارة والحياة - هناك - غير هؤلاء - الذين نفهم موقفهم ولابد أن نحاورهم - هناك الذين ينكرونه لجهلهم بحقيقة مراميه ومقاصده .. وهناك الذين يظلمون هذا الشعار - « إسلامية المعرفة » - عندما يرفعونه ، ويستخدمونه ، مع جهلهم بحقيقة ما يعنيه !.. فيسيئون إليه أشد من إساءة العقلاء من أعدائه ، لأنهم يقدمون « الحجج » السلبية التى يستفيد منها هؤلاء الأعداء..

فى مواجهة هذا الشعار الذى يطرح قضية : قيام علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية .. وطبيعة ومدى هذه العلاقة.. هناك مواقف، وردود أفعال ..

● فمن الناس من يظن أن « إسلامية المعرفة » هى « كهانة - كنسية » جديدة ، فى دوائر المعرفة .. تريد أن تجعل من علوم ومعارف الحياة ، المدنية والحضارية ، « دينا خالصا ! » فتقدسها قدسية

الدين، وتثبتها ثبات الدين - فهى حجر جديد على الاجتهاد فى علوم الحياة ، وتجميد لها وجمود يحول بينها وبين التطور والتغيير .. وبهذا الفهم للقضية ، نراهم يناصبونها العداء ، مخافة أن تعيد ، من جديد ، السيرة الأولى للكنيسة الأوربية مع العلم والعلماء ..

● ومن الناس من يحسب أن إسلامية المعرفة إنما تعني فصالا تاما وكاملا مع العلوم والمعارف الإنسانية - الاجتماعية منها والطبيعية - التى أبدعها العقل الإنسانى فى الحضارات غير الإسلامية .. فهذه معرفة إسلامية .. وتلك كافرة .. والفصال كامل والخصام تام بين الكفر والإسلام!.. فهم يخشون أن يفضى أمر إسلامية المعرفة بنا إلى قطيعة مع ثمرات العقل غير المسلم فى المعارف والعلوم ، فنزداد عزلة ونوغل فى الانغلاق ، اللذين يفضيان بنا إلى الذبول والانقراض!..

● ومن الناس من توهم أن إسلامية المعرفة لا تعنى ولا تكلف ولا تقتضى أكثر من إضافة بعض من آيات القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة إلى مناهج وحقائق وقوانين العلوم التى أبدعتها مدارس الفكر الغربى - الإنسانية منها والطبيعية - فكما نستعين باكتشافات العلم الغربى على اكتشاف الاعجاز العلمى فى آيات القرآن الكريم ، نستطيع أن نستعين بآيات القرآن الكريم لإضفاء « الإسلامية » على هذا العلم الغربى .. وكفى الله عقولهم « شر » الاجتهاد والإبداع..

● لكن هناك ـ غير هؤلاء جميعا - من يتحفظون على جميع هذه المواقف والرؤى .. ويرون أن إسلامية المعرفة ، وإن تكن شعارا جديدا ، إلا أنه يعبر ، برأيهم ، عن رسالة فكرية جليلة ومهمة ثقافية ثقيلة الحمل! تمثل واحدة من السمات الثوابت والقسمات الأصيلة فى حضارتنا الإسلامية منذ ظهر الإسلام..

وللبرهنة على ذلك .. كان لابد من ضبط وتفسير المصطلح والشعار - إسلامية المعرفة - لتبيان المقاصد ، وتبديد الغموض .. ليؤيد من يؤيد عن بينة .. ويعارض من يعارض عن بينة .. ويقلع الذين يمتهنون القضية عن هذا الذى يفعلون.

ولابد كذلك ، من وضع القضية فى مكانها وإطارها الطبيعى الصحيح .. كبديل إسلامى ، ومذهب إسلامى فى المعرفة ، يقابل ويخالف المذاهب المادية والوضعية والحسية فى المعرفة .. وإقامة الدليل على أن هذا هو مكان وخطر هذه القضية .. كانت البديل الإسلامى فى المعرفة، الذى واجه به القرآن الكريم مذاهب الشرك فى المعرفة المادية.. وكانت البديل الإسلامى فى المعرفة ، الذى واجه به فكرنا الإسلامى المبكر مذاهب الذيانات الوضعية فى المعرفة « الحسية - التجريبية » ، عندما رأتها هذه المذاهب مصدرا وحيدا لمعارف الإنسان .. فكانت هى - إسلامية المعرفة - « مقالة الإسلاميين » - فى المعرفة الإنسانية - التى واجهوا بها مقالات غير الإسلاميين - فى هذا الميدان .

كانت كذلك ، فى النشأة ، وفى التطور .. كما هى الآن ، عندما يطرحها هذا الشعار الجديد - إسلامية المعرفة - ليواجه بها مذاهب الحضارة الغربية فى المعرفة .. المادية منها والوضعية .. والتجريبية .. والوضعية المنطقية .. والسلوكية .. وغيرها من المذاهب التى تشترك فى نفى العلاقة بين « كتاب الوحى » - الدين - وبين « كتاب الوجود» -المُدْرَك بحواس الإنسان ..

وتلك هى المهمة التى تطمح لبلوغها صفحات هذا الكتاب إن شاء الله..

الفصل الثانى

التعريف.. والضبط للمصطلحات

والآن .. .. ..

ماذا يعنى هذا المصطلح - الشعار - « إسلامية المعرفة » ؟؟..

● إن « الإسلامية » ، هى النسبة إلى الإسلام .. وإذا كان الإسلام - لغة - هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول ﷺ من البلاغ الإلهى، المتمثل فى القرآن الكريم، ومن البيان النبوى ، المتمثل فى السنة النبوية الصحيحة .. فإن الإسلام - فى الاصطلاح - هو الدين ، الذى وضعه الله، سبحانه وتعالى لعباده ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [1].. فهو : وضع إلهى، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول ﷺ.. من البلاغ الإلهى ، والبيان النبوى..

فالإسلام - فى الاصطلاح - هو: الوضع الإلهى .. وفى اللغة .. هو الانقياد لهذا الوضع الإلهى .. أى الانقياد لله ، ولما جاء من الشرائع والأحكام ، التى تلقيناها عن رسول الله[2].

« فالإسلامية » هى النسبة إلى هذا الدين الذى وضعه الله ، أى إقامة العلاقة مع الوحى ونبأ السماء ..

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩٠.

(٢) انظر: الجرجانى [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م. و[معجم ألفاظ القرآن الكريم] - وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة - طبعة ١٩٧٠م.

● أمـا « المعرفـة » فإنـها : خـلاف الإنكـار .. وإدراك الأشـياء وتصورها .. فهى : العلم الكسبى الخاص بالبسيط والجزئـى والـذى فيـه إدراك وتصور - وتلك صفات وجهود بشرية إنسانية-.

وعندما يـراد « بـالعلم » : الاعتقـاد الجـازم المطـابق للواقـع .. أو : إدراك الشيء على ما هو به.. أو : حصـول صورة الشـيء فـى العقـل .. فإنه - وفق هذه التعريفات - يكون مرادفا للمعرفـة ، لاشـتراكه معـها فـى كونـه كسـبيا ، معتمـدا على الإدراك والتصـور .. وخاصـا بالبسـيط وبالجزئيات..

أما عندما يكون العلم : صفة للإحاطة بالكليات والجزئيات جميعـا ، على نحو يكون فيه العلم علّة وسببا للموجـود والمعلـوم - وليـس معلـولا لهما - وغير متوقف على الإدراك والتصور - وأمثالهما مـن الخصـائص البشرية الإنسانية - فذلك هو العلم الإلهى.. المفارق للمعرفة .. لأن علـم الإنسان ومعرفته معلولة ومسببة عن الموجود ، وليست سببا وعلة لوجـود هذا الموجود..

فالعلم: منه الكسبى - المرادف للمعرفة - ومنه غير الكسبى - وهو العلـم الإلهـى .. ولا يسـمى معرفـة .. لأن المعرفـة كسـب ، بـالإدراك والتصور ، فى نطـاق البسـيط والجزئـى .. وليـس هكـذا علـم الله ، غـير الكسبى ، والمحيط بالكليات والجزئيات..

فكل « معرفة » هى « علم » .. وليـس كـل « علـم » هـو بـالضرورة « معرفة » .. والله سبحانه وتعالى ، عالم .. ولا يوصف بالعارف .. أمـا الإنسان فإنه عالم وعارف، بهذا المعنى الذى حددناه..

وفيما هو بسيط.. يقال: علمته ، وعرفته .. ولا يقال علمته فيما لا يحاط به ، لخروجه عن البسيط .. ولذلك يقال : عرفت الله .. ولا يقال علمته ! ، لأن المعرفة تقال فيما يُدْرَك بآثاره ، ولا تُدْرَك ذاته..

ولارتباط المعرفة بالكسب وبالواسطة – أدوات الإدراك والتصور – كانت خاصية إنسانية .. ويشهد على هذا قول رسول الله ﷺ : « **أنا أعلمكم بالله ، وإن المعرفة فعل القلب** » ، لقوله تعالى : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾[1] .. ..[2].

وكما لا يقال: الله عارف.. كذلك لا يقال فى حقه، سبحانه: عاقل: كما لا تطلق الدراية عليه أيضا[3].

أى أن بين « المعرفة » و« العلم » خصوصا وعموما..

فالمعرفة إنسانية ، لأنها كسبية ، وبالوسائط ، وخاصة بالبسيط والجزئى ، وما يُدْرَك بآثاره ، ولا يُدْرَك كنه ذاته .. وتلك من سمات وخصائص وحدود الإنسان .. أما العلم فإنه أعم من المعرفة ، إذ فيه الكسبى ، الواقف عند البسيط والجزئى – وهذا هو العلم الإنسانى – الذى هو معرفة إنسانية .. وفيه كذلك ، العلم غير الكسبى ، علم ما هو

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٥.

(٢) رواه البخارى.. «ولو سأل سائل: لم قال الرسول: «أعلمكم» ولم يقل : أعرفكم؟. فالجواب: أن مصدر المعرفة النبوية هنا هو الوحى لا الكسب. فهى علم»

(٣) انظر فى هذه المعانى [معجم ألفاظ القرآن الكريم] و [التعريفات] – للجرجانى – و [المعجم الفلسفى] وضع: د. مراد وهبة، ويوسف كرم، ويوسف شلالة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

مركب، العلم المحيط، والكلى ، والمُسبِّب للموجودات ، وليس المنعكس عنها .. وهذا هو علم الله ، سبحانه وتعالى..

ولذلك ، فإن « الوحى »، رغم بلوغه لنا عن طريق الرسول ﷺ هو « علم » ، لا « معرفة » ، لأنه تنزيل الله ، وبلاغ الرسول ، ولا كسب فيه من الرسول ولا اكتساب.. أما فهمنا له، فهو علمنا به ومعرفتنا له، بالكسب والاكتساب!.. فالعلوم الشرعية فيها « علم إلهى» - هو البلاغ القرآنى وبيانه النبوى - وفيها « معرفة إنسانية » - هى اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى البلاغ القرآنى والبيان النبوى..

هذا عن الضبط والتعريف والتفسير لمصطلحات الشعار.. شعار « إسلامية المعرفة ».. فمعناه إذن : العلاقة بين الإسلام وبين المعرفة.. أى الصلة بين « كتاب الوحى» - القرآن الكريم - وبيانه النبوى - وبين « كتاب الوجود » - ومعارف الإنسان فى علوم الوجود - الإنسانية منها والطبيعة..

فهى - إسلامية المعرفة - إذن: المذهب القائل بوجود علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية ، والرافض لجعل الواقع والوجود وحده المصدر الوحيد للعلم الإنسانى والمعرفة الإنسانية..

هى المذهب الذى يقيم المعرفة الإنسانية على ساقين اثنتين: « الوحى» - وعلومه - و « الكون » - وعلومه - .. وليس على ساق واحدة هى « الوجود »..

ولذلك، كان تميز هذا المذهب فى المعرفة، أيضا باعتماد كل أدوات وسبل المعرفة ، المناسبة لإدراك حقائق ومعارف كل من المصدرين..

وليس، فقط، اعتماد الحواس – وتجاربها – لأنها إن نهضت بمهام الإدراك لحقائق « الوجود » « وعالم الشهادة » ، فلن تفي بإدراك حقائق وتصورات « كتاب الوحى » « وعالم الغيب »..

وإذا كانت المعارف والعلوم منها ما هو : « إلهى – شرعى » ، ومنها ما هو : « بشرى.. ومدنى.. وحضارى.. ودنيوى ».. فإن هذا التقسيم لا يعنى « **الفصل** » التام بين « الإلهى – الشرعى » وبين « البشرى – المدنى ».. وإنما يعنى « **التمييز** » فقط، بين العلوم والمعارف التى « موضوعها: الوحى – القرآن – وبيانه – السنة ».. فهى : إسلامية الموضوع والمصدر والمنطلقات والمقاصد والغايات .. وفيها من « المدنى » : اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى فهم الوحى وبيانه ، وبذلهم الوسع واستفراغهم الجهد فى استنباط الجزئيات من الكليات .. وفى تقعيد ذلك علوما لها هندسة العلوم!..

« **التمييز** » – وليس « **الفصل** » التام – بين هذه العلوم « الشرعية » وبين العلوم « المدنية البشرية الحضارية » – الإنسانية منها والطبيعية – والتى موضوعها « الكون » – مادته.. وظواهره.. وطاقاته – و«النفس الإنسانية» – فى ذاتها.. واجتماعها.. وعلاقاتها.. فموضوعات هذه العلوم « المدنية » ومنطلقاتها ليست «الوحى والدين» ، وإنما هى «الكون والإنسان والاجتماع الإنسانى »..

وإذا كانت العلوم والمعارف « الإلهية – الشرعية » هى إسلامية الموضوع والكليات والمنطلقات .. وفيها من « المدنى » اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى الفروع والجزئيات وفى التقعيد .. فإن علوم

« الكون » ومعارفه « بشرية – مدنية » الموضوع والكليات والمنطلقات.. وإسلاميتها إنما تعنى إيجاد علاقة بينها وبين السنن الإلهية ، التى جاء بها الوحى ، فى الكون والإنسان والاجتماع .. وكذلك توظيف هذه العلوم والمعارف – عن طريق أسلمة فلسفتها – لتحقيق المقاصد والغايات الشرعية التى جددها الوحى « حكمة » لخلق الله، سبحانه وتعالى ، الكون والإنسان .

فعلاقة « كتاب الوحى : الإسلام » بالمعارف قائمة – أو يجب أن تقوم – فى كل أنواع المعارف والعلوم.. لكن المدى المُحَقّق « للإسلامية » فى هذه المعارف والعلوم يتفاوت، « كمًّا » و « كيفا »، فى « الإلهى – الشرعى » منها عن « البشرى – المدنى » .. كما يتفاوت فى «الإنسانى – الاجتماعى » منها عن « الطبيعى »..

هذا عن التعريف.. والضبط لمصطلحات هذا الشعار..

الفصل الثالث

أمثلة.. وتطبيقات

وإذا كان هذا هو معنى المصطلح والشعار : « إسلامية المعرفة » .. أى إقامة العلاقة بين « الإلهى » و « الإنسانى » فى العلوم والمعارف.. والعلاقة المناسبة التى تقيم المعرفة الإنسانية على الساقين –« الإلهى » – « والكونى » – فتحفظ لها وعليها « التوازن – الحق » ، وتعصمها من « الثنائية .. والانشطار » ، وذلك دون أن يصبح « الإنسانى » « إلهيا » ، له قدسية الإلهى وثباته .. ودون أن يصبح « الإلهى » « إنسانيا » ، كما هو الحال عند الذين جعلوا الدين وضعا بشريا وإفرازا لعقل الإنسان وثمرة من ثمرات الاجتماع الإنسانى .

إذا كان هذا هو المعنى المراد من المصطلح والشعار .. فإن قضيتنا الأساسية – قضية إسلامية المعرفة – هى خاصة بهذه العلوم والمعارف « البشرية – المدنية » .. فهى التى من الممكن أن تكون « إسلامية » – إذا قامت العلاقة بينها وبين « كتاب الوحى » ومن الممكن أن تكون « لا إسلامية » – إذا وقفنا بمعارفها عند « كتاب الوجود » والأدوات الحسية للإدراك ..

وإسلامية هذه المعارف معناها : أن يصدر إدراكنا وتصورنا ومعرفتنا لموضوعاتها حال استحضارنا السنن والقوانين والضوابط والمقاصد الشرعية المتعلقة بها ، والتى جاءت « فى كتاب الوحى » وفى بيانه النبوى ..

أى اكتشاف علاقة « كتاب الوجود » بـ « كتاب الوحى » أثناء دراسة وتطبيقات هذه العلوم البشرية - المدنية .. الحضارية ..

ولعل هذا الكتاب ، عندما يركز على معنى إسلامية المعارف الإنسانية ، أن يقيم الدليل - ولو بشكل سريع وغير مباشر - على « إلهية» «العلم الدينى» ، الذى زعمت مذاهب المعرفة المادية والوضعية بشريته ! .. ولحسن الحظ . فليست هذه بالقضية المثارة ، وذات الأنصار، فى واقعنا الفكرى .. وإنما القضية المثارة .. والتى تستحق التركيز عليها ، هى إسلامية أو لا إسلامية معارف وعلوم الإنسان ! ..

وإذا كان الأمر كذلك .. فلعل أمثلة نضربها على ما تعنيه إسلامية المعرفة فى بعض قضايا هذه العلوم والمعارف البشرية - الاجتماعية منها والطبيعية - لعل أمثلة نضربها على ما تعنيه هذه العلاقة ، المحققة للإسلامية ، أن تكون مفيدة بل وضرورية ، عند هذا الحد من هذا البحث.

● فنحن ، مثلا ، إذا درسنا علم الاقتصاد ، باعتباره : العلم الذى يبحث فى مشاكل التوفيق بين الموارد المحدودة وحاجات الإنسان غير المحدودة ، والمتفاوتة فى الأهمية .. أى علم تدبير الحلول لمشكلة الإنسان الاقتصادية - التى تتعدد فيها غاياته .. وتختلف أهمية كل منها .. وتقل وسائل الوصول إليها .. مع إمكانية استعمالها فى أغراض متضاربة[1] ..

---

(١) انظر - فى هذا التعريف - [معجم العلوم الاجتماعية] - وضع اليونسكو طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

إذا نحن درسنا علم الاقتصاد بهذا الاعتبار، وفقط.. كانت المعرفة الاقتصادية المستخلصة من هذه الدراسة متحررة من « الإسلامية ».

أما إذا نحن درسنا الاقتصاد باعتباره علم تدبير إشباع وكفاية الاحتياجات ، فى ضوء الموارد ، وعلى ضوء وفى إطار : السنن الإلهية والضوابط الشرعية والمبادئ والكليات الإسلامية - من مثل فلسفة الإسلام فى الملكية - الله هو المالك الحقيقى - مالك الرقبة - فى الثروات والموارد والأموال .. ونظرية الاستخلاف والخلافة الإنسانية عن الله - استخلاف الإنسان ، من حيث هو إنسان ، مستخلف عن الله فى الموارد والثروات والأموال .. له فيها ملكية مجازية - ملكية الانتفاع.. المحكومة فى الحيازة .. وفى الاستثمار .. وفى الانفاق - بمقاصد الشريعة ، التى هى بنود عقد وعهد التوكيل والاستخلاف ..

إذا نحن درسنا الاقتصاد فى ضوء هذا «الإطار الإلهى»، نكون قد أقمنا علمه على ساقين، واستقينا معارفه من مصدرين « كتاب الوجود » - الموارد .. والاحتياجات - و «كتاب الوحى» - الفلسفة الإسلامية فى الأموال - وهنا تتحقق « الإسلامية » لـ« المعرفة » الاقتصادية ، على النحو الذى يميزها عن نظيرتها فى الفلسفات والمناهج المادية والوضعية ..

وإن حال نبى الله شعيب ، عليه السلام ، مع قومه - أهل « مدين » - والحوار الذى دار بينهما - والذى حكاه القرآن الكريم - حول المفاهيم الاقتصادية ، وضوابطها الدينية وحول التطبيقات والمعاملات الاقتصادية ، المضبوطة بالضوابط الدينية .. أو المتحررة من هذه الضوابط.. إن هذا الحوار لهو نموذج لهذا الذى نقول ..

فشعيب ، عليه السلام ، كان يرى : أن التوحيد والإيمان والصلاة والعبادة – أى الدين – يقتضى ضوابط للسلوك الإنسانى فى الاقتصاد والمعاملات المالية – توفية المكاييل والموازين بالقسط (العدل)، والامتناع عن بخس الناس أشياءهم فى البيع والشراء.. والحذر من الإفساد فى الأرض.. إلخ . فدعا قومه إلى إقامة العلاقة بين « الدين » وبين «الاقتصاد » .. فى الفكر والتطبيقات ..

أما قومه، الذين عصوه ، فإنهم كانوا يرفضون الربط والعلاقة بين «الدين» وبين «المعاملات المالية والاقتصادية» .. فهو يريد اقتصادا مضبوطا بضوابط الدين ، قائما على معارف «الوحى» و «الواقع» كليهما.. بينما هم يريدون الفصل ما بين الدين والاقتصاد .

هو يريد «إسلامية الاقتصاد»—فالدين عند الله الإسلام—فى جميع الرسالات، وعند كل المرسلين—وهم يريدون تحرير الاقتصاد من العلاقة بالإسلام .

والقرآن الكريم يحكى هذا الحوار ، المجسّد لهذه القضية .. والذى بدأه نبى الله شعيب ، عليه السلام ، مخاطبا قومه ، فقال :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[1] .

---

(١) سورة هود الآيات ٨٤ : ٨٦.

لكن قومه أجابوه –مستنكرين دعوته لإسلامية الاقتصاد، وضبط المعاملات المالية بضوابط الدين – ومدافعين عن مذهب تحرير الاقتصاد من العلاقة بالدين .. فقالوا : **﴿ يا شعيب ! أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا او أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾**[1] ..

لقد عجبوا من ربط دعوته بين « التوحيد » للمعبود ، وبين « ضبط التصرفات المالية » بضوابط « دين ودعوة التوحيد » .

فرد عليهم شعيب ، معلما إياهم أن الدين – دين البيّنة الإلهية – يقتضي ضبط الأموال – التي هي رزق الله – بضوابط الإصلاح الديني .. وذاكرًا لهم أنه يريد لهم الالتزام بما يلتزم هو به ، حتى لا يحل عليهم غضب الله ، الذى حل بالأقوام السابقين ، الذين عصوا نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا ، عليهم السلام .. فقال :

﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[2].

على هذا النحو حكى القرآن الكريم ذلك الحوار الذى دار بين شعيب وبين قومه، حول علاقة « كتاب الوحى» بـ«واقع الاقتصاد» .

---

(١) سورة هود الآية ٨٧.

(٢) سورة هود : الآيتان ٨٨ ، ٨٩.

فإذا حسب الإنسان نفسه سيد هذا الكون .. واعتقد الإطلاق والإباحة الكاملة لحريته فى التصرفات المالية والتدابير الاقتصادية ، فلن يراعى – فى طرائق الكسب .. والاستثمار .. والإنفاق – إلا منفعته، ولذته، ومصلحته – وفق معاييره الإنسانية البحتة فى «المنفعة» و«اللذة» و«المصلحة» – وهنا يكون اقتصاده متحررا من ضوابط الوحى والدين.

أما إذا آمن الإنسان بأنه ليس سيد هذا الكون، وإنما هو خليفة عن سيد هذا الكون وبارئه وراعيه ، سبحانه وتعالى.. وأنه ليس مالك الرقبة – المالك الحقيقى.. والمطلق الحرية.. فى الأموال والموارد والثروات.. وإنما هو وكيل ومُسْتَخْلَفَ فى هذه الموارد والأموال والثروات.. فإن طرائقه، عندئذ فى الكسب .. والاستثمار– والإنفاق ، لابد وأن تكون – إذا أراد أن يكون مطيعا لمن استخلفه – محكومة ومضبوطة بالإطار والفلسفة والمبادئ المتمثلة فى عقد وعهد الاستخلاف .. أى المقاصد الشرعية فى الأموال .. وهنا ينضبط الاقتصاد بكافة الضوابط الإسلامية ، التى جاء بها «الوحى» و«بيانه» فى الكسب والاستثمار والإنفاق.. من مثل: فلسفة الإسلام فى الملكية والحيازة.. وأحكامه فى الكنز.. والاحتكار.. والفروض التى فرضها الله فى الأموال.. والقواعد التى قررها للمعاملات..إلخ.

وهنا – بإقامة هذه العلاقة بين آيات الاقتصاد فى « كتاب الوحى » وبين باب الاقتصاد من « كتاب الكون » ، تتحقق إسلامية الاقتصاد ، فى المعرفة وفى التطبيقات !..

وإذا نحن درسنا علم السياسة ، سياسة المجتمع ، والدولة ، والعلاقات الدولية ، باعتبار السياسة هى : الإدراك والتصور والعمل

لما هو « ممكن » من الخيارات « الواقعية » والقائمة والمحتملة ، تحقيقا للمصلحة - مطلق المصلحة .. وللمنفعة - مطلق المنفعة - واقفين بهذا العلم عند كونه « فن ممارسة القيادة والحكم ، وعلم السلطة أو الدولة .. وفرع « العلم المدنى » ، الذى يبحث أصول الحكم وتنظيم شئون الدولة تدبيرا تغلب فيه الجودة والإتقان ..

إذا نحن درسنا علم السياسة ، باعتبار أن هذه هى مضامينها ومقاصدها ، كانت دراستنا له متحررة ومتحللة من الإسلامية .. فلا تكون السياسة ، عندئذ « سياسة شرعية » .. وهذا المنحى فى دراسة السياسة هو الذى جعلها فى المنظور الغربى « نفعية صرفة » - دون تقييد النفع بالقيود الشرعية - فبررت غاياتها كل الوسائل ، بصرف النظر عن مدى أخلاقية تلك الوسائل .. فكان « الصراع » و « القوة » أهم العناصر الرئيسية فى المفهوم الغربى للسياسة[1].

أما إذا نحن أقمنا العلاقة بين «الإسلامية» وبين «المعرفة السياسية».. أى الصلة بين «لشرعى» و«المدنى» فى هذا العلم - الذى هو من العلوم «الإنسانية - المدنية » - فإننا سنضبط مفاهيمه وممارساته بالمنطلقات والمقاصد الشرعية ..

وهذه العلاقة بين «الشرعى» و«المدنى» لن تجعل السياسة دينا خالصا، ومقدسا، ثابتا - لأنها ليست من أركان الدين وأصول الاعتقاد

---

(١) انظر فى هذه المضامين : [المعجم الفلسفى] وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة سنة ١٩٧٩م. و [معجم العلوم الاجتماعية] وضع اليونسكو - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م. و [قاموس علم الاجتماع] بإشراف د. عاطف غيث طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م. و [موسوعة السياسة] المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت سنة ١٩٨٣م.

وثوابت الشرع – ولم ينزل الوحى وينطق الرسول ﷺ بكل ما هو لازم لها وفيها .. كما أن إقامة هذه العلاقة بين « الإسلامية » وبين « المعرفة السياسية» .. لا تعنى بحال من الأحوال تجاهل « الواقع السياسى» وخياراته، ولا التقليل من مكانته فى المعارف السياسية .. ولا تجاهل «المصلحة والمنفعة » المبتغاة من علم السياسة. وإنما تعنى هذه العلاقة : الإضافة إلى « الواقع » وضبط خياراته ، وليس إلغاءه أو تجاهله أو الغض من قيمته، وضبط « المصلحة والمنفعة » وليس تجاهلها .. فهى تضيف إلى «الواقع»، كمصدر للمعرفة السياسية، «مصدر الوحى» بسننه الإلهية فى الاجتماعى الإنسانى ، وبالقيم والتكاليف والمقاصد الشرعية والحكم المراد تحقيقها من الاجتماع والمجتمعات .. وتضبط «المصلحة والمنفعة» حتى تكون «المصلحة الشرعية المعتبرة»، وليست المصلحة المطلقة والمتحررة من أخلاقيات الدين.

فهى العلاقة التى « تضيف .. وتضبط » تضيف « للواقع المادى » و « للمعرفة الحسية » .. وتضبط « الخيارات » المختارة بالمقاصد الشرعية التى حددها الإسلام لسياسة الناس ..

وعندئذ لن نجد السياسة : « فن الممكن من خيارات الواقع » – هكذا بإطلاق – وإنما سنجدها : « الأفعال والتدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح – بالمعنى الإسلامى – وأبعد عن الفساد – بالمعنى الإسلامى – حتى وإن لم ينزل بها الوحى أو يشرعها الرسول » .. كما قال واحد من علماء السلف – على بن عقيل البغدادى [٤٣١ – ٥١٣هـ / ١٠٤٠م – ١١١٩م].

وسنجد فى السياسة ، عندئذ : « الكليات – والمبادئ – الثوابت » التى تمثل « أطرا » « للجزئيات – الفروع – المتغيرات » ، التى تتطور

بحسب « المصلحة الشرعية المعتبرة » ، ووفقاً لاختلافات الأزمان والأماكن وتبدل العادات والأعراف[1].

وفي « السياسة الشرعية » سنجد «للدولة-السلطة » معنى متميزا عن معانيها في «السياسة المدنية»، غير الإسلامية .. فهي ليست الجهاز المحايد تماما بين طبقات وفرقاء المجتمع .. وليست جهاز القوة والقهر للطبقات والفرقاء المحرومين من السيطرة والسيادة فيها .. وإنما هي « دولة التوازن » بين الفرقاء الممثلين للتعددية في مجتمعها .. فالتوازن هو الوسط .. أي العدل .. بين الفرقاء المتعددين..

● ففي قانونها توازن بين مبادئ الشرعية .. التي هي حاكمية الله - « السيادة » - وبين فقه العاملات - الفروع - الذي هو ثمرة لاجتهاد مجتهدي الأمة ، ينمو ويتطور مواكبة للمصالح الشرعية المعتبرة ..

● وفي قيادتها توازن بين « عدل ولاة الأمر » وبين « طاعة الأمة ».. فانتفاء « العدل » يحل الأمة من « طاعة » أولياء الأمور !.. وأعلى مراتب رأس الدولة هي مرتبة «الاجتهاد» - ولا عصمة لمجتهد - أما الأمة فلإجماعها « العصمة » .. « **وإن أمتي لا تجتمع على ضلالة**»[2].. وحتى عندما كان رأس الدولة «النبي -الرسول» الذي يوحي إليه ، فإنه كان يميز بين « تبليغه عن ربه » ، الذي هو معصوم فيه ، لا ينطق عن الهوى .. وبين « إمامته السياسية وقيادته

---

(١) انظر : ابن القيم [إعلام الموقعين] جـ ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م. و [الطرق الحكمية في السياسة الشرعية] ص١٧ - ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

(٢) رواه ابن ماجة ..

للدولة»، بالاجتهاد البشرى والإنشاء للتدابير والسياسات .. وعن هذه الاجتهادات السياسية تحدث ﷺ في مرض موته ، عندما صعد المنبر وخطب الناس فقال : « **أيها الناس ،من كنت جلدت له ظهر فهذا ظهرى فليَسْتَقِدِ**[1] **مِنِّي ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منى ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى .. »**[2] ! ..

« فالعصمة » للأمة .. وأعلى مراتب الحاكم هى « الاجتهاد » ، حتى ولو كان نبيا ورسولا ..

● وسنجد « شورى الأمة » مقيدة بسيادة وحاكمية الشريعة – التى هى وضع إلهى – وفى ذات الوقت هى ملزمة لدولتها .. فهى فريضة إلهية وضرورة شرعية واجبة ، وليست مجرد « حق » يجوز لها أن تتنازل عنه إن هى أرادت ذلك .. هى فريضة حتى على رسول الله ﷺ .. ﴿ **وشاورهم فى الأمر ..** ﴾[3].. وصفة من صفات الأمة المؤمنة .. ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[4]. وهى ملزمة للحاكم ، حتى ولو كان نبيا ورسولا .. لأنها اجتهاد فيما فيه اجتهاد ، ولم يقطع الوحى فيه بتشريع .. وشورى الأغلبية نافذة فى كل الحالات .. ورسول الله ﷺ ،

---

(١) أى فليقتص..

(٢) رفاعة الطهطاوى نهايةالايجاز فى سيرة ساكن الحجاز – جـ ٤ ص ٣٨٨ من [أعماله الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩.

(٤) سورة الشورى الآية : ٣٨.

هو القائل لأبى بكر وعمر: «**لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما..**»[1].. والقائل – وهو رأس الدولة وحاكمها – : « **لو كنت مُؤَمِّرًا أحدًا دون مشورة المؤمنين لأمَّرْتُ ا بن أم عبد !**»[2] – عبد الله بن مسعود .

وعلاوة على أن « إقامة الدولة » إنما تتم بشورى الأمة واختيارها وبيعتها .. فإن حق الطاعة الذى « للدولة » على «الأمة » يظل مشروطا ومرهونا ببقاء «الدولة» ممثلة « للأمة »، وموضع الرضا منها .. فالقرآن لم يتحدث عن « ولى الأمر » الفرد .. وإنما تحدث عن « أولى الأمر » – فى الموطنين اللذين ورد فيهما هذا المصطلح فى القرآن الكريم – لقد اختار صيغة « الجمع » لا «الفرد» .. وربط الطاعة « لأولى الأمر » بكونهم من « الأمة » ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ [3] .. ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم..** ﴾ [4] .. فهو يزكى القيادة الجماعية الشورية للدولة .. ويشترط لطاعة أولى الأمر من قبل الأمة ، أن يكونوا منها ، أى موضع اختيارها ومصدرا لثقتها ، وأهلا لقيادة دولتها وسياسة مجتمعها ، والممثلين لمصالحها الشرعية المعتبرة..

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد.

(٣) سورة النساء الآية : ٥٩.

(٤) سورة النساء الآية : ٨٣.

● وسنجد فى « أمة » هذه « الدولة » : التعددية فى إطار الوحدة .. تعددية أهل الشرائع الدينية المختلفة ، فى إطار الإيمان الدينى .. وتعددية التيارات التى تتنوع اجتهاداتها فى الفروع ، داخل إطار الوحدة فى الأصول ..

سنجد ذلك –ومثله كثير – فى «دولة» «السياسة الشرعية »، التى تتميز «معرفتها السياسية» بـ«الإسلامية»، أى إقامة العلاقة بين ماهو « شرعى » وما هو « مدنى » فى هذا العلم من علومنا الإنسانية.

● وإذا نحن درسنا موضوعات « العلم الزراعى »–أرضا.. وبذرا.. وماء.. ومناخا – فإن حقائق هذا العلم وقوانينه– كواحد من العلوم الطبيعة – لن تتغاير بتغاير معتقدات وحضارات وقوميات ولغات الدارسين.. ففى العلوم التى تتميز « موضوعاتها » بالثبات والحياد .. تتميز حقائقها وقوانينها، هى الأخرى، بالثبات والحياد – فهى « مشترك إنسانى عام »– ليس فيها شرقى وغربى، أوإسلامى ومسيحى أو مؤمن وكافر .. «فالواقع» هو مصدر معرفتها.. «والحواس» هى أهم أدوات المعرفة فيها.

لكن « إسلامية العلم الزراعى » ، تتأتى عندما نقيم العلاقة بين المقاصد الشرعية من الزراعة وبين تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذا العلم الزراعى .. أى عندما نقيم العلاقة بين « الخصوصية الإسلامية » فى « فلسفة العلم الزراعى » وبين « حقائق وقوانين الزراعة » . التى هى « مشترك إنسانى عام ».

فحقائق وقوانين العلم الزراعى - ككل حقائق وقوانين العلوم - إذا نحن وظفناها في دعم الإيمان بخالق هذا الكون ، الذى أمرنا بالنظر والتدبر ، والذى أعاننا عليه، قادنا هذا الموقف إلى العلماء الذين هم أكثر خشية لله ، لأنهم الأكثر معرفة بأسرار العلوم الكاشفة عن بعض أسرار الله في الأكوان . ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [1].

أما إذا لم توظف الحقائق العلمية هذا التوظيف الإيمانى ، فإنها قد تقود وتفضى إلى علماء لا يعلمون سوى ظاهر من الحياة الدنيا .. ومن ثم يقودهم الغرور إلى تأليه العلم والعلماء باعتباره « دين العصر » وباعتبارهم «الروحانيين الجدد»!.. ولقد شهدنا ، عندما تقدمت العلوم فى أوربا حديثا، وفى ظل «المادية.. والوضعية» «علماء» صاحوا صيحة منكرة ، فقالوا : لقد مات الله ؟! .. تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا ..

ووجه آخر لهذه القضية .. فكما يمكن توظيف حقائق العلم لدعم الإيمان .. أو لزعزعته .. فإن من الممكن توظيف تطبيقات هذه الحقائق فى تحقيق مقاصد الشريعة ، طاعة الله ، سبحانه وتعالى ، أو فى المحرمات ، عصياننا لله ! .. فإذا كانت حقائق زراعة « العنب » لا تتغاير بتغاير المعتقدات .. فإن زراعة « العنب » لـ«الخمر» هى تطبيق وتوظيف غير إسلامى لحقائق وقوانين زراعته ..

كذلك فإن « كيمياء » تركيب وتصنيع «السماد» الذى يستخدم فى تسميد الأرض الزراعية.. هى حقائق وقوانين تجريبية ، تدخل فى العلم الطبيعى ، الذى هو «مشترك إنسانى عام»، لا تتغاير بتغاير

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢٨.

الحضارات والعقائد والفلسفات .. فليست فى « كيمياء السماد » خصوصيات حضارية .

لكن فلسفة استخدام وتوظيف هذا العلم الطبيعى تختلف باختلاف المقاصد والغايات المحركة للإنسان الذى يوظفه ويطبقه .. وباختلاف نظرة هذا الإنسان للطبيعة – الأرض .. والبيئة – التى يوظف فيها ثمرات هذه « الكيمياء » ..

● فالحفاظ على التوازن بين المكونات الطبيعية والقوى الذاتية والعناصر الخِلْقِيَة للأرض الزراعية وبين طاقاتها فى الإنتاج الزراعى وقدراتها على العطاء .. هو موقف وفلسفة تجعل استخدام « كيمياء السماد » بالقدر الذى يحفظ هذا التوازن ..

أما فلسفة : « قهر الأرض » – النابعة من فلسفة : « قهر الإنسان للطبيعة » – لتعطى الآن أكبر عائد مادى وأوفر محصول ، فى أقصر وقت ، بصرف النظر عن الأذى الذى يصيبها ، عندما يختل توازن تركيبها ، بغلبة « الصناعى » على « الطبيعى » فيها .. وعلى حساب مستقبلها – والذى هو مستقبل الأجيال الآتية لتحيا عليها : – أما هذه الفلسفة – فلسفة قهر الطبيعة ، لتعطى أعلى معدلات الوفرة المادية ، فى اللحظات الآنية –فلسفة : « واغنم من الحاضر لذاته !» – بأى ثمن .. وبصرف النظر عن النتائج ! .. فإنها هى التطبيقات التى تتغاير وتختلف باختلاف الفلسفات والعقائد والحضارات ..

وأيضا.. فإن استزراع الغابات هو السبيل إلى قيام الغابات! ولهذا الاستزراع قوانينه وحقائقه العلمية ، العامة والثابتة.. كما أن قطع أشجار

الغابات هو السبيل إلى الحصول على أخشابها.. ولذلك آلياته وقوانينه العامة.. وليس هناك مغايرة فى حقائق وقوانين الاستزراع للغابات.. ولا فى حقائق وقوانين القطع لأشجارها، بتغاير مذاهب الأمم والحضارات والديانات..

لكن إزالة الغابات، وتجريد الأرض منها، لزرع أرضها بالمحاصيل الأخرى.. أوللانتفاع بأخشابها.. أو لإقامة المشروعات غير الزراعية عليها.. أو إبادتها بالتلوث وبالحروب.. دون اعتبار لعامل التوازن البيئى الذى يحافظ وجودها عليه، ويخل به قطعها وإزالتها .. هى فلسفة متميزة فى النظر إلى الطبيعة ، وفى التعامل مع البيئة والمحيط.. إنها الفلسفة التى نشهد اليوم آثار شيوع تطبيقاتها ، فى صور الإخلال بتوازن البيئة ، الأمر الذى يجر على الإنسانية الكوارث والمخاطر الجسام .

إن الفيضانات والسيول التى تعانى منها بلاد عدة فى شبه القارة الهندية ، لها علاقة عضوية بتجريد جبال الهملايا من غاباتها .. وإن الجفاف الناشئ عن تغير مواعيد ومقادير الأمطار التى تسقط على بلاد القارة الأفريقية ، هو ثمرة مرة لتجريد هذه القارة من غاباتها .

ومثل هذه « الأمراض » تحدث وتشيع فى أمريكا اللاتينية - فى حوض الأمزون - وغيرها من المناطق التى وظفت فيها حقائق العلم الطبيعى وقوانينه ، لتحصيل أكبر عائد مادى فى أقصر وقت ، بصرف النظر عن تأثيرات ذلك على توازن البيئة والمناخ ..

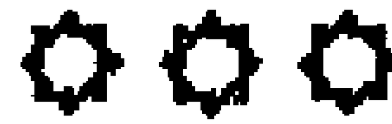
وقس على ذلك قضية « كيمياء المبيدات الحشرية » .. تلك التى لا تتغاير ، هى الأخرى ، حقائق علمها وقوانين تجاربها .. لكن فلسفات توظيفها ، وأساليب استخداماتها هى التى تتغاير .. وكذلك ثمرات هذه

التطبيقات .. فإما حفاظ على توازن الحياة والأحياء – كل الحياة وجميع الأحياء – وعلى عناصر الوجود – كل ظواهر الوجود – على النحو الذى يؤدى فيه هذا التوازن وظائفه فى « النفع » وفى الحفاظ على « الوجود » .. وإما خلل يدخل بالإنسانية وبالطبيعة فيما أدخلتهما فيه الفلسفات المادية الحديثة من تطبيقات أثمرت ما نعانيه الآن من مُرّ الثمرات .

فحقائق العلم الطبيعى لا تتغاير .. وقوانينه لا تختلف ـ بتغاير واختلاف العقائد والفلسفات والحضارات ـ لكن فلسفة تطبيقه ، ومقاصد توظيفه هى التى تختلف وتتغاير باختلاف المعتقدات وبتغاير الحضارات ..

إننا مدعوون – انطلاقا من « إسلامية فلسفة العلم الطبيعى » ـ إلى النظر فى آيات كتاب الوحى التى أشارت إلى الجبال كأوتاد للأرض .. **﴿ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا ﴾**[1]..

ونحن مدعوون ، كذلك إلى النظر فى الآيات التى تحدثت عن التوازن والميزان بين كل أنواع الخلق وسائر أصناف المخلوقات .



إن التعددية فى الألوهية – ونفى التوحيد – هى – بالدليل العقلى ـ مصدر الفساد والإفساد فى المخلوقات **﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله**

---

(١) سورة النبأ الآيات : ٦ – ٨.

رب العرش عما يصفون ﴾ [1].. بينما التعددية، وتوازن الفرقاء المختلفين فى كل عوالم الموجودات التى خلقها الله متعددة لتتوازن ﴿وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [2]. ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [3]..

بينما هذه التعددية ، فى المخلوقات ، والتوازن بين فرقائها ، هى المقتضية للعدل والصلاح فى هذه المخلوقات . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ [4].

فالتعددية .. فى طبقات الأرض ، وفى مكوناتها .. وقيام التوازن بين هذه الطبقات وهذه المكونات .. والتعددية فى طبقات السماء ، وفى مكوناتها .. وقيام التوازن بين هذه الطبقات وهذه المكونات .. هو المعبر عن قيام إسلامية المعرفة فى فلسفة علوم الطبيعة التى تدرس ظواهرهما وقواهما وما فيهما من آيات وطاقات ..

وهذا هو معنى « إسلامية فلسفة العلم الطبيعى » .. التى تقف عندها « إسلامية المعرفة » فى « العلوم الطبيعية » ولا تتعداها إلى حقائق وقوانين هذه العلوم، التى هى بنت التجربة ، كمصدر أول لاكتشافاتها ولتطورها ..

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الرعد الآية : ٣.

(٣) سورة الذاريات الآية : ٤٩.

(٤) سورة العلق الآيتان : ٦، ٧.

وقس على هذا المثال ما تعنيه « إسلامية المعرفة » فى العلوم والمعارف الطبيعية الأخرى .. فحقائق وقوانين « الوراثة » لا تتغاير بتغاير المعتقدات والحضارات ، لكن توظيفها يختلف باختلاف فلسفة العلم التى يعتنقها أهل التطبيق والتوظيف لهذه الحقائق والقوانين..

ومثل ذلك : الطب .. والطاقة .. والكيمياء .. والفيزياء .. وغيرها من العلوم البحتة الكونية ..

● وإذا نحن نظرنا إلى علاقة الإنسان بظواهر الطبيعة وقواها ، التى سخرها الله ، سبحانه وتعالى ، لهذا الإنسان ، إكراما له وتكريما .. والتى أشارت إلى بعض منها آيات كثيرة فى القرآن الكريم .. ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ [1].. ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [2] .. ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ [3] .. ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره**

---

(١) سورة إبراهيم الآيتان : ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة النحل الآية : ١٢.
(٣) سورة النحل الآية : ١٤.

ويمسك السماء أن تقع علــى الأرض إلا بإذنــه ، إن الله بالنـاس لـرءوف رحيم ﴾ [١] .. ﴿ ألم تروا أن الله ســخر لكـم مـا فـى السـموات ومـا فـى الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجـادل فـى الله بغير علـم ولا هـدى ولا كتـاب منـير ﴾ [٢] .. ﴿ الـذى جعـل لكـم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سـبلا لعلكـم تـهتدون . والـذى نَـزَّل مـن السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون . والــذى خلـق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام مـا تركبـون . لتستووا علـى ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليـه وتقولـوا سبحان الـذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ [٣] .. ﴿ الله الذى سخر لكـم البحـر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضلـه ولعلكـم تشـكرون . وسـخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه إن فى ذلك لآيــات لقـوم يتفكرون ﴾ [٤] .. ﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعمـوا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومـها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلـك سـخرها لكـم لتكـبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾ [٥] ..

---

(١) سورة الحج الآية : ٦٥.
(٢) سورة لقمان الآية : ٢٠.
(٣) سورة الزخرف الآيات : ١٠ – ١٣.
(٤) سورة الجاثية الآيتان : ١٢، ١٣.
(٥) سورة الحج الآيتان : ٣٦، ٣٧.

إذ نظرنا إلى علاقة الإنسان بهذه الظواهر والقوى التى سخرها الله ، سبحانه وتعالى ، له .. فإننا سنجد لهذه العلاقة ، إذ كانت إسلامية ، ضوابط تميزها عن حالها إذا ما تحررت من ضوابط الإسلام ..

فتدمير ظواهر الطبيعة وقواها وكنوزها - بجعل قهر الإنسان للطبيعة هى فلسفة هذه العلاقة . والاخلال بعلاقات توازنها ، هو مما يتنافى مع المعنى الإسلامى لمصطلح التسخير - تسخير الله هذه الظواهر والقوى والكنوز للإنسان ..

فهذا « التسخير » : هو سَوْق وقهر من الله لهذه الظواهر والقوى .. ولكنه ، بالنسبة للإنسان ، يعنى « الارتفاق » ! .. لقد سخرها الله لنا لنرتفق عليها وبها ، فتكون لنا مرفقا نرتفق به .. وإلا ، فألسنا مطالبين بالرفق بالحيوان ، الذى سخره لنا الله ! .. وأليس قهر « المرفق » وتدميره مما يتنافى مع حكمة خلقه وتسخيره للإنسان ؟! ..

تلك هى « إسلامية علاقات الإنسان بظواهر الطبيعة وقواها» - الأرض - بطبقاتها .. وبحارها .. وأنهارها .. وغاباتها .. وجبالها - - والسموات - بطبقاتها .. وكواكبها .. ونجومها - وأقطارها .. وما بين السماء والأرض من الهواء ..

فبهذه العلاقة الإسلامية ، يحفظ الإنسان ، لا « سلامه » و « سلامته » فقط ، وإنما أيضا يحفظ سلام وسلامة « صفحات كتاب الكون » عندما يحافظ على « توازن واتزان وميزان » هذه « الصفحات » فى هذا « الكتاب » ..

ونحن إذا تأملنا مدلولات مصطلح «الميزان» - وبعض مشتقاته - في المواطن التي جاءت بها في القرآن الكريم، بسياق الحديث عن الطبيعة وقواها ومظاهرها وآياتها، ينكشف أمامنا خطر هذا المعنى لإسلامية علاقة الإنسان بهذه القوى والمظاهر والآيات التى أبدعها الله وسخرها لهذا الإنسان.. ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾ (١) .. فحافظوا فى علاقاتكم بهذه الآيات الكونية على الميزان والتقدير الإلهى ..

﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾ (٢) .. ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (٣).. فكما أننا مطالبون دينا بالحفاظ على « آيات كتاب الوحى » ، فنحن مطالبون ، دينا كذلك ، بالحفاظ على « توازن وميزان » « آيات كتاب الكون والوجود » ..

ومن منا لا يرى هذه الحقيقة ، حقيقة دعوة القرآن إلى « إسلامية العلاقة بين الإنسان وبين قوى الطبيعة وآيات الله في « كتاب الكون » .. يراها مجسدة إذا هو تدبر الآيات الأولى من الرحمن : ﴿**الرحمن ۞ علم القرآن ۞ خلق الإنسان ۞ علمه البيان ۞ الشمس والقمر**

---

(١) سورة الحجر الآيات : ١٩ - ٢٢.

(٢) سورة الشورى الآية : ١٧.

(٣) سورة الحديد الآية : ٢٥.

بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى ألاء ربكما تكذبان * رب المشرقين ورب المغربين * فبأى آلاء ربكما تكذبان * مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان* وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[1]..

[صدق الله العظيم] .

فهذه الآيات والآلاء ، فى « كتاب الكون » التى عرضت آيات « كتاب الوحى » لعلاقات توازنها واتزانها .. مطلوب من الإنسان أن يحافظ على هذا التوازن ، عندما يرافق هذه الآيات ، ويرتفق بهذه النعم ، فيقيم السلام الإنسانى مع آيات الوجود ، ويحقق السلامة له ولآيات هذا الوجود ..

إذن .. ..

وبعد هذا التعريف والضبط للمصطلح - « إسلامية المعرفة » ..

وبعد الإشارات الموجزة لأمثلة شاهدة على ما تعنيه هذه الإسلامية للمعرفة - فى العلوم الإنسانية والاجتماعية .. وفى العلوم الطبيعية .. وفى علاقات الإنسان بظواهر وآيات « كتاب الوجود » ..

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ١ - ٢٥.

يستبين لنا أن جوهر القضية .. وحقيقة الخلاف بين « إسلامية المعرفة » وبين « لا إسلاميتها » هو : الاعتراف بوجود علاقة بين « مصدر الوحى » وبين « مصدر الوجود » - كمصدرين للمعرفة الإنسانية؟ - أو نفى وجود هذه العلاقة..

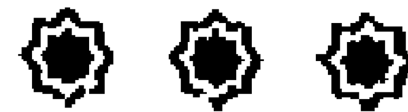
وبتعبير آخر: هل هناك سبيل آخر، غير «الحواس» و « تجاربها» - هو «سبيل الوحى» - لإدراك وتصور وضبط معارف الإنسان فى الوجود - الطبيعى والإنساني ؟ - أم أن « الحواس» و « تجاربها » هى مصدر « المعرفة الحقة » الوحيد، فى هذه العلوم. وما عدا ثمراتها، من «المعارف»، هو «ميتافيزيقا » و «خيال» ؟؟!..

وبصياغة أخرى للقضية : لقد أنزل الله - سبحانه وتعالى - على محمد بن عبد الله ، ﷺ ، وحيه بالقرآن الكريم .. فكان «موضوعا» للعلوم «الشرعية» فى حضارتنا الإسلامية .. ثم ولدت وتبلورت ونمت للمسلمين علومهم «المدنية .. البشرية .. الحضارية».. فهل كان «للوحى» وعلومه علاقات بعلوم «الحضارة المدنية»، وتأثيرات فيها، صبغتها - بدرجات متفاوتة - وضبطتها - على أنحاء مختلفة - بصبغة الوحى وضوابط الشرع الإلهى؟ .. أم أن العلاقة منفكة ، والصلات مقطوعة بين بناء «الإيمان الدينى» و « بناء التمدن الحضارى»؟؟ ..

إن القائلين بـ«إسلامية المعرفة»،لا يجيبون على هذا السؤال بـ«نعم».. لأنهم لا يفصلون، فى مصادر المعرفة، بين كتابى « الوحى» و«الوجود»..

بينما خصوم « إسلامية المعرفة » يجيبون على هذا السؤال بـــ« لا » . لأنهم لا يرون للعلوم الحضارية - بل وحتى للعلوم الدينية - مصـدرا سوى «الواقع» الذى تدركه «الحواس».. فلا شـىء غـير « الواقـع » .. ولا سبيل للمعرفة سوى « الحواس »..

تلك هى القضية .. قضية « إسلامية المعرفة » .. فى حقيقتها .. وفى جوهرها..



الفصل الرابع

النموذج القرآنى لإسلامية المعرفة

وكما سبقت إشارتنا، فإن «إسلامية المعرفة» - كمهمة ثقافية ورسالة فكرية - وكمنهج متميز فى مناهج المعرفة الإنسانية - ليست جديدة، جدة هذا الشعار الذى يعبر به عنها الآن.. فلقد عرفتها حضارتنا الإسلامية، واعتمدتها وتبنتها، كبديل إسلامى للمعرفة المادية والحسية -معرفة الدهريين والمشركين - الذين لم يروا للمعرفة مصدرا سوى «الواقع المحسوس»، ولم يتصوروا لهذه المعرفة أدوات وسبلا سوى «الحواس».. اعتمدت حضارتنا هذا المنهج المتميز منذ ظهور الإسلام..

وشاهدنا على هذه الحقيقة.. هو كتاب الإسلام الأول: القرآن الكريم..

وفى اعتقادنا، أن بالإمكان - بل إنه لواجب - استخلاص منهج كامل، مدعم بالشواهد، لإسلامية المعرفة، من القرآن الكريم..

وإذا كان مقام هذا الكتاب لا يسمح بالإطالة فى عرض هذا النموذج القرآنى لمنهج إسلامية المعرفة، فإن بعضا من الإشارات لعدد من الآيات القرآنية التى عرضت لهذه القضية كافية لإقامة هذا الدليل، ولبيان مذهب القرآن فى هذا الموضوع..

فنحن عندما نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**[1].

نجد القرآن الكريم يحدثنا عن أن مثل الذين لا يرون للمعرفة سبلا غير «الحواس»، ولا لمصادرها مصدرا غير «الواقع المحسوس» - «كتاب الوجود» - هو كمثل الذين لا يرون في «القلب» غير «اللحمة الصنوبرية الشكل، المستقرة في التجويف الأيسر من الصدر» - وهذا هو التعريف «الحسي» لـ «القلب المادى»!.. فليس هناك - عند هؤلاء - للبصر والإدراك سبيل سوى «العين» - «الحاسة».

أما «المنهج الإيماني»، الذى يرى للمعرفة مصدرا ثانيا، غير «الوجود» - هو «الوحي» - ويرى في العوالم «عالما للغيب» - وليس فقط «عالم الشهادة» - ولسبل المعرفة أدوات أخرى، مع الحواس.. أما هذا «المنهج الإيماني»، فإنه يرى في «القلب» ما هو أكثر من «اللحمة الصنوبرية الشكل».. إنه يرى فيه، أيضا: «أداة التفكير والتعقل» و «اللطيفة الربانية» التي لها بالقلب الجسماني تعلق.. وهي حقيقة الإنسان - التي يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة!.. كما عرفه الإسلاميون، الذين فقهوا معنى حديث القرآن عن «عقل القلوب»، و «فقه القلوب»، و «الختم على القلوب».

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٦.

ونحن عندما نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: **﴿الم. غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سَيَغْلِبُون. في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾**[1].

عندما نتأمل هذه الآيات ندرك «بالحواس» وحقائق «الوجود» واقع الروم الذين غلبهم الفرس، في أدنى مكان على سطح الكرة الأرضية، على شاطئ البحر الميت.

لكننا ندرك أيضا، ما هو فوق ذلك «الوجود» «المحسوس».. ندرك «بنبأ الغيب» في «كتاب الوحي» أن الروم هؤلاء الذين غُلبوا - سَيَغْلِبُون الفرسَ - في بضع سنين.. وهذا هو النبأ - غير المحسوس - الذي غدا، بعد بضع سنين من نزول هذه الآيات، «محسوسا» في كتاب «الوجود».

فالوقوف عند سبل وثمرات الطريق الأول - الحسي - في العلم والمعرفة فقط، يقف بصاحبه عند «ظاهر الحياة الدنيا».. عند معطيات «الوجود» وحدها.. عند عالم «الشهادة» - الدنيوي - وحده..

بينما الصدور في المعرفة من المصدرين - «الوحي».. و«الوجود» - كليهما، يضيف معارف لا يفصح عنها «كتاب الوجود» بمفرده،

---

(١) سورة الروم: الآيات ١ - ٧.

ولا تدركها «الحواس» وحدها - كما ينفى الغفلة الإنسانية عن «الغيب» - الآخرة - الذى تفرد به وانفرد «الوحى» - نبأ السماء العظيم!..

● وإذا نحن تأملنا قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون. وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾**[1].

إذا نحن تأملنا هذه الآيات، وجدنا نموذج ذلك الذى:

عبد الدنيا وأهواءها.. فألغى ما وراء «المادة والواقع المحسوس».. ووقف بعلمه دون الإلهى، الآتى بواسطة «الوحى»، أى وقف به فى إطار العلم الدنيوى وحده..

وحال بين سمعه وقلبه وبصره وبين تجاوز الواقع المحسوس..

فإذا جاءته آيات الله، غير المادية، وبراهينه، التى لا تقف فى البرهنة عند الحواس وحدها، ظل منصرفا عنها، مستمسكا بالمحسوس وحده، كمصدر وحيد للمعرفة، وبالحواس فقط، كسبل وحيدة للإدراك، ولذلك طلب أن نأتى له بالموتى من آبائه ليرى

---

(١) سورة الجاثية: الآيات ٢٣ - ٢٥.

منهم ويسمع - بالبصر والسمع الحسيين - نبأ البعث وخبر النشور!.. فهو يريد أن يعرف «بالحواس» معارف «العالم غير المحسوس».

فمعرفة هؤلاء: حسية - دهرية - لا دينية - غير إسلامية - لا ترقى إلى «العلم» - الذى هو إدراك الشيء على ما هو به - وإنما مبلغها أن تقف عند «الظن» - الذى لا يغنى من الحق شيئا، في بعض الأحيان.. ولا يغنى من الحق كل شيء، فى أحيان أخرى..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال: أنَّى يُحْيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾**[1].

عندما نتدبر هذه الآيات نعلم أن هذا الذى مر على القرية الخاوية على عروشها، لم يدرك إلا «ما تحسه الحواس».. فلم ير من هذه القرية إلا «الواقع المادى المحسوس»، والآنى.. ولم يتصور إمكان عمل «دليل: قدرة الذى بدأ الخلق على أن يعيده مرة أخرى»..

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

فأقام له الله سبحانه وتعالى، البرهان «المحسوس» من جنس الذى وقفت عنده مداركه!. فآمن وقال: أعلم أن الله على كل شىء قدير..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم*الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم﴾**[1].

عندما نتدبر هذه الآيات نراها تعرض لحال ذلك الذى لم يستدل بالمصنوع المادى البديع على وجود الصانع المبدع، المفارق للمادة.. والذى غفل عن إعمال «دليل: قدرة الذى بدأ الخلق على أن يعيده» والإعادة - حتى فى المحسوس - أيسر من الاختراع إبتداء.. فوقفت به مداركه عند «ما تحسه الحواس» من «الواقع المحسوس»، فلم ير مما بعد الموت سوى الأجساد التى تحولت عظاما رميما.. ولو أدرك معنى ودلالة التحولات الدائمة فى المخلوقات ومنها تحول الشجر الأخضر - الحى - إلى وقود - ميت - لأدرك قدرة القادر على إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى والحياة والموت ليسا محسوسًا تدركهما الحواس..

---

(١) سورة يس: الآيات ٧٧ - ٨١.

ولكنه وقف، فى مصادر المعرفة وأدواتها، عند «المحسوس» و«الحواس»، لا يتعداهما.

● وعندما نتفكر فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا. وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدًا قل: كونوا حجارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر فى صدوركم، فسيقولون من يعيدنا قل: الذى فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا!**﴾[1].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿**ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا**﴾[2].

عندما نتفكر فى هذه الآيات، نجد كيف أن الذين لم يشهدوا - بالحواس - خلق أنفسهم ﴿**ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدًا**﴾[3].. هؤلاء الذين لم يشهدوا، بالحواس خلق أنفسهم ينكرون ما لا يستطيعون أن يشهدوه، بحواسهم من البعث والنشور.. إنهم لم يصدقوا بإمكان

(١) سورة الإسراء: الآيات ٤٨ - ٥١.

(٢) سورة الإسراء: الآيتان ٩٨ - ٩٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

إعادتهم بعد الموت، لأنهم لم يدركوا ولم يتصوروا معرفة غير التى يحصلونها بالحواس..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: **﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون* ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون* هيهات هيهات لما توعدون* إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين* إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين﴾**[1].

عندما نتدبر هذه الآيات نرى كيف أفضى المنهج «المادى - الدهرى» بأصحابه إلى الإصرار على الكفر الصريح..

لقد أغلظ الترف مداركهم فلم يدركوا سوى ظاهر مارأت عيونهم، فكذبوا رسولهم عندما لم يدركوا فيه آيات صدق النبوة والرسالة.. ووقفت بهم حواسهم عند إدراك ما هو محسوس وحده، فلم يدركوا منه غير ما ترى الحواس من أنه بشر يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون!.. وكذبوا بالبعث عندما لم يستخدموا فى تحصيل معارفه وإمكانه «دليل: قدرة الذى خلق إبتداء على الإعادة مرة أخرى».. فلم تَعْدُ حواسهم من حال ما بعد الموت الأجساد التى تحولت وتتحول إلى تراب وعظام..

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٣٣ - ٣٨.

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون * وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون * وهو الذى يُحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون * بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾[1].

عندما نتدبر هذه الآيات البينات، نرى:

- كيف أشارت إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق لهم من أدوات المعرفة ما هى أكثر من الحواس.. فلقد خلق لهم «الأفئدة» التى تفقه وتعقل.. والتى هى بمثابة اللب والجوهر من الإنسان..

وخلق لهم من أدوات المعرفة أيضا، الحواس.. مثل «السمع والأبصار».

- ثم حدثتهم الآيات القرآنية - آيات «كتاب الوحى» عن ما خلق الله سبحانه وتعالى من آيات «كتاب الكون»: خَلْقُهم فى الأرض وبَثُّهم فى أنحائها.. وحشرهم إلى خالقهم يوم الدين.. والإحياء.. والإماتة.. واختلاف الليل والنهار.. وتعاقبهما..

- لكنهم لما لم يستخدموا من أدوات المعرفة سوى الأدوات الحسية، قصرت بهم معرفتهم عن إدراك مالا يُدرك بالحواس.. لقد عطلوا الأفئدة، والأدوات والسبل التى تدرك ما وراء «المادة»

---

(1) سورة المؤمنون: الآيات ٧٨ - ٨٣.

و «الواقع».. فوقفت معارفهم عند الواقع المحسوس لا تتعداه.. ومن هنا كان قولهم بما قال به «الأولون»، الذين أنكروا البعث، عندما لم يروا فى الإنسان بعد الموت غير «التراب والعظام».

ولما لم يستخدموا غير حواسهم.. ولم يدركوا غير المحسوس.. وأهملوا المصدر الآخر من مصدرى المعرفة - «كتاب الوحى» - ونبأ السماء - والأدلة السمعية - حكموا على معارف هذا المصدر الذى أهملوه بأنها: (أساطير الأولين).

لقد قالوا ما يقوله أحفادهم - الوضعيون - المحدثون: إن المعرفة الحقة هى ما تدركه الحواس، بالتجربة، من معارف «الواقع» وعلومه.. وما عداها فهى ميتافيزيقا وخيالات..

● وأخيرا.. وليس آخرا.. فنحن عندما نتفكر فى قول الله، سبحانه وتعالى: **﴿وإذا رأوا آية يستسخرون * وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾**[1].

عندما نتفكر فى هذه الآيات، نرى كيف عرض القرآن لنقض منهج المعرفة المادية الحسية، ذلك الذى وقف بمصادر المعرفة عند «الواقع المحسوس»، وبأدواتها عند «الحواس».. ذلك المنهج الذى جعل أصحابه لا يدركون من الآيات ما وراء الذى تدركه الحواس، فهم يبالغون فى السخرية من هذه الآيات غير المحسوسة.. حتى لقد

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٤ - ١٧.

حسبوها - لإهمالهم أدوات إدراكها - مجرد سحر خادع للحواس!.. وكيف أيضا، لم يروا فيما بعد الموت إلا ما تدركه الحواس من «واقع» تحول الأجساد إلى تراب وعظام!..

هكذا.. وعلى هذا النحو وأمثاله، عرض القرآن الكريم لكثير من الأمثال التي ضربها شواهد على قصور «المعرفة الحسية» وحدها عن أن تدرك ما يجب أن يدركه الإنسان.. وعجزها عن أن تتصور حقائق «عالم الغيب» فتؤمن به.. أو أن تحيط بما في «كتاب الوحي» ونبأ السماء من حقائق لا تدركها الحواس وحدها..

عرض القرآن لهذه الأمثال، إقامة لمعالم المنهج المتكامل في المعرفة.. ذلك الذي يزامل بين «كتاب الوحي» و «كتاب الوجود»، مصدرين للمعرفة الإنسانية.. ويعتمد كل سبل الإدراك والتصور، تحصيلا للمعارف والعلوم، على اختلاف مصادرها.

فهو المنهج الذي يقيم العلاقة بين «الوحي» و «الوجود»، بين «الشرعي» و «المدني»، منهج «إسلامية المعرفة»

لقد كان القرآن الكريم - وهو كتاب المسلمين الأول - والذي خرجت حضارتهم، بل وأمتهم من بين دفتيه! كان ولا يزال المصدر الأول لصياغة هذا المنهج الإسلامي المتميز في المعرفة..

● فهو يطلب منا أن ندرك ونتدبر آيات «كتاب الوحي» المقروء.. ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[1].. والتدبر هنا لا يدركه الإنسان بمجرد الحواس.. فلا بصر القارئ ولا سمع السامع

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

بمحقق لهذا التدبر المطلوب.. وإنما هـو القلـب إذا أزيلـت مـن علـى أبوابـه الأقفـال!.. ﴿كتـاب أنزلنـاه إليـك مبـارك ليدبـروا آياتـه وليتذكر أولوا الألباب﴾[1].. وهنا أيضا يكون «اللـب» – القلـب – العقل – أداة التدبر والتذكر فى آيات هذا الكتاب الكريم.

● وهو – القرآن الكريم – يطلب منا كذلـك النظـر والتفكـر فـى آيات «كتاب الكون»، المنظور.. ﴿أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلـق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فـى الأرض فـانظروا كيف بدأ الخلق، ثـم الله ينشـئ النشأة الآخـرة، إن الله علـى كـل شيء قدير﴾[2].. ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحـى، ذلكـم الله فـأنّى تؤفكـون. فـالق الإصبـاح وجعل الليل سكنا والشمس والقمـر حسبانا، ذلـك تقديـر العزيـز العليم. وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بـها فى ظلمات البـر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منـه خضـرا نخـرج منـه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات مـن أعنـاب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمـر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[3]..

﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبـهم ويتفكـرون فـى خلق السموات والأرض ربنا مـا خلقـت هـذا بـاطلا سـبحانك فقنـا

---

(١) سورة ص: الآية ٢٩.
(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ١٩، ٢٠.
(٣) سورة الأنعام: ٩٥ – ٩٩.

عذاب النار﴾[1].. ﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾[2]. ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[3].

● بل ويعلمنا القرآن الكريم أن كلا من هذين المصدرين للمعرفة - يعلمنا أن كليهما «تنزيل» إلهى.. وإرادة إلهية.. وتدبير إلهى..

فإذا كان القرآن الكريم - «كتاب الوحى» - هو البلاغ الإلهى.. وإذا كانت السنة النبوية، الثابتة الصحيحة، هى البيان النبوى لهذا البلاغ الإلهى.. فنحن قد عرفنا وتلقينا هذا المصدر للمعرفة من النبوة والرسالة المعصومة..

على حين نحن نتلقى علوم الكون والإنسان بواسطة «الحكمة».. التى هى - وفق التعريف النبوى لها - : «الإصابة فى غير النبوة»[4] - ووفق المعنى اللغوى لها - : «معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[5]..

فنحن نتلقى من الرسول ﷺ «كتاب الوحى».. ونستخلص «بالحكمة» علوم الكون.. والقرآن يعلمنا أن كلا منهما - «الكتاب»

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٢) سورة الروم: الآية ٨.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) «والحكمة: الإصابة فى غير النبوة» - رواه البخارى..

(٥) ابن منظور (لسان العرب) مطبعة دار المعارف - القاهرة.

و «الحكمة» – من عند الله، مصدران للمعرفة الإنسانية، وجناحان لمنهج واحد في استخلاص واستنباط وإدراك وتصور المعارف والعلوم.. ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[1].. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾[2].

بل إن اعتبار «كتاب الوحى» – مع «كتاب الوجود» – مصدرا للمعرفة.. لا تقف ثمراته، فقط، عند إضافة «معارف عالم الغيب» إلى «معارف عالم الشهادة» – التى نستمدها من «كتاب الوجود» – وإنما يضيف هذا الموقف إلى المعارف الإنسانية، عن «عالم الشهادة» إضافات كثيرة وعظيمة مصدرها «كتاب الوحى» أيضا!.. فكتاب الوحى، الذى انفرد بنبأ عالم الغيب، قد عرضت آياته للكثير من «السنن» و «القوانين» الحاكمة والهادية للإنسان الناظر فى كتاب الوجود..

وإذا كانت «السنن الخارقة للعادة» – وهى خارقة «للعادة – المعتادة».. وليست خارقة للقوانين المعقولة؟! – قد اختص الله سبحانه وتعالى بها الذين اصطفاهم من الأنبياء والرسل!.. إقامة للحجة، وتمييزا للحق عن الباطل.. فإن «**السنن الجارية**» هى «القوانين» التى أودعها الله، سبحانه وتعالى فى الوجود الطبيعى

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥١.

(٢) سورة البقرة. الآية ٢٣١.

والإنسانى، ودعا أهل العلم إلى اكتشافها وإلى إعمالهـــا، عندمـا أودع فى «كتاب الوحى» النماذج والأمثال لها وعليها.. فكل أهل المعرفـة مدعوون إلى تأملها، وإلى اتخاذها «سبلا إلهية - شـرعية» للمعـارف «المدنية» فى عالمى الطبيعة والإنسان..

وإذا كانت إشارات قد سبقت إلى بعض مـن هـذه «السـنن» التـى عرض لها القرآن الكريم فى ظواهر الطبيعـة.. وفـى التـوازن بينـها.. فـإن إشـارات إلى بعـض من هـذه «السـنن» الإلهيـة فـى الاجتمـاع الإنسانى، كفيلة باستكمال صورة المعرفة القرآنية فى عالم الشـهادة، وكتاب الوجود..

● فمن القرآن الكريـم نتعلـم سـنة الاقـتران الدائـم بـين «الديـن» والرسالات الإلهيـة، وبـين «الحضـارة» التـى تمثـل طـور الاسـتقرار للإنسـان.. الأمـر الـذى يكشـف لنـا عـن البعـد الحضـارى للديـن والتدين.. ففى «القرية» - مكان القرار والاستقرار - تتوافر إمكانات البنـاء والـتراكم فـى المعـارف النظريـة، التـى تتجسـد تطبيقاتـها فى «التمدن المدنى» - وهما جناحـا الحضـارة - علـى النحـو الـذى لا يتأتى فى «البادية»، بسبب «الترحال»!..

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصـدق الـذى بـين يديـه ولتنـذر أم القرى ومن حولها، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بـه وهـم علـى صلاتهم يحـافظون﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

فالرسول الخاتم، بعث بالكتاب الخالد في أم القرى.. وكانت هجرته إلى ثانية القرى.. ولقد مثلت الهجرة في عهد النبوة، إنجازا عظيما من إنجازات «التحضر»، نقل «البدو» إلى «الحضر»، واستبدال «الحضارة بالبداوة».. حتى لقد اعتبرت العودة إلى «البادية» ردة عن هذه «الحضارة» التي أنجزها الإسلام[1]..

وكذلك كانت هذه «السنة» - سنة اقتران «الدين» بـ «الحاضرة» - والبعد الحضاري - عبر تاريخ كل الرسالات **﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾**[2].

فهي «سنة» من «سنن الاجتماعي الديني» نتعلمها من القرآن الكريم.

● ومن القرآن الكريم نتعلم «سنة الارتباط - إرتباط المقدمة بالنتيجة - بين الظلم والترف والفساد والبغي وبين التدهور والهلاك للاجتماع الإنساني والحضارات»..

﴿وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطَّف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان

---

(١) في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم والنسائي: «أرتددت على عقبيك؟ تعرَّبت؟!».

(٢) سورة القصص: الآية ٥٩.

ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[1].

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[2].

﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[3]، ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير﴾[4].

فإفضاء الترف والظلم والفساد والبغى إلى انهيار وهلاك الحضارات، سنة وقانون من سنن وقوانين الاجتماع الإنسانى، نتعلمها من القرآن الكريم..

● ومن القرآن الكريم نعرف سنة ارتباط الانفراد - الأثرة والاستئثار - مطلق الانفراد - كمقدمة - بالطغيان - كل ومطلق الطغيان..

﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾[5].

فكل استئثار بلون أو ميدان من ميادين «السلطان» - المالى..أو الإدارى.. أو السياسى.. أو فى الرعاية الأسرية - هو مقدمة مفضية حتما إلى الطغيان..

---

(١) سورة القصص: الآيات ٥٧ - ٥٩.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(٣) سورة هود: الآيتان ١١٦، ١١٧.
(٤) سورة الشورى: الآية ٢٧.
(٥) سورة العلق: الآيتان ٦، ٧.

● وكما يعلمنا القرآن الكريم أن وحدانية الخالق هى علة إنتفاء الفساد عن التدبير والرعاية الإلهية فى عوالم المخلوقات، الأرضية والسماوية ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1].. نتعلم منه كذلك سنة وقانون «التعددية» - والتوازن - فى جميع عوالم وأمم المخلوقات..

فغير تعددية وتوازن ظواهر الخلق فى عالم الطبيعة.. هناك التعددية والتوازن فى عوالم الاجتماع الإنسانى..

تعددية وتوازن: الألسن والألوان والقوميات والحضارات، فى إطار وحدة الإنسانية ووحدة الخلق..

وتعددية الشرائع الإلهية، بتعدد أمم الرسالات، فى إطار الدين الإلهى الواحد وتعددية وتوازن: مذاهب «الفروع» فى إطار وحدة «الأصول» - فى العقيدة والشريعة..

وتعددية وتوازن: الأفراد.. والطبقات فى إطار كل أمة من الأمم.. على نحو ما تتعدد الأعضاء فى الجسد الواحد..

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[2].

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.
(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾[1].

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[2].

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأَمْلأَنَ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[3].

● وإذا كان «التوازن» هو الذى يحفظ على الفرقاء المتعددين «الوحدة»، ويحول بينهم وبين «الصراع» الذى ينفى «التعددية»، عندما ينفى طرف بقية الأطراف، بصرعهم وإخلاء «الظاهرة - والساحة» منهم..

وإذا كان «الخلل» - نقيض «التوازن» - يؤدى إلى ذات النتيجة: استبداد طرف بكل المقدرات والثمرات، دون بقية الأطراف، على النحو الذى يلغى «التعددية»، عمليا،.. فإن القرآن الكريم يعلمنا «سنة» و «حكم»: أن **«الدفع»** - الذى هو حراك

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.

اجتماعى - وليس «الصراع» الاجتماعى - هو سنة الله وحكمه وسبيله لإعادة «التوازن» إلى مقامه إذا ما حل محله «الخلل» فى ظاهرة من ظواهر الاجتماع.. فـ «الدفع»: تحويل لمواقع الفرقاء، فى إطار «التعددية»، وليس نفيا من فريق لغيره من الفرقاء..

﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[1].

﴿أذِن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز﴾[2].

﴿إدفع بالتى هى أحسن السيئة، نحن أعلم بما يصفون﴾[3].

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾[4].

تلك إشارات إلى بعض من سنن الاجتماع الإنسانى، التى نجد كتاب الوحى - القرآن الكريم - قد مثل فيها مصدرا للمعرفة فى

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.
(٢) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩٦.
(٤) سورة فصلت: الآية ٣٤.

عالم الشهادة.. تقوم دليلا على تجاوزه لسبل الإنباء عن عالم الغيب، الذى لا تدركه تجارب الحواس..



وعلى درب «البلاغ الإلهى» - القرآن الكريم - سار «البيان النبوى» - سنة الرسول ﷺ..

فكما مثل «الوحى» مصدرا لمعرفة العديد من «سنن» الاجتماع الإنسانى، ومعارف عالم الشهادة - كذلك كانت السنة النبوية - التى هى «البيان النبوى للوحى الإلهى» - فمنها، هى الأخرى نستلهم المعرفة بالعديد من «سنن» هذا الاجتماع..

● فاقتران «العصبية».. والشوكة.. والمنعة القومية - بالنسبة للرسول - أى رسول - اقترانها بالنجاح الذى تحرزه رسالته فى مواجهة الخصوم المنكرين.. هى سنة من سنن «الاجتماع الدينى» تنسحب إلى سنن «الاجتماع السياسى- نتعلمها من سنة رسول الله ﷺ»..

ففى التفسير النبوى والبيان الرسالى لقول الله سبحانه وتعالى عن نوح وقومه: ﴿لو أن لى بكم قوة أو آوىَ إلى ركن شديد﴾[1]..

يقول الرسول ﷺ «قد كان (نوح) يأوى إلى ركن شديد (الملائكة الذين حضروه) - لكنه - (أى نوح) عَنَى عشيرته، فما بعث الله،

---

(١) سورة هود: الآية ٨٠.

عز وجل بعده نبيا إلا بعثه فى ذروة قومه.. وإلا فى منعة من قومه!»[1].

ودور «العصبية الهاشمية» - فى الحقبة المكية من الدعوة الإسلامية - دورها فى الانتصار للدعوة، بحماية النبى، حتى وكثير من أهل تلك العصبية على الشرك - مثل أبى طالب.. والعباس بن عبد المطلب.. وحلفاء المؤمنين إبان المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية فى «شعب بنى هاشم» - شاهد على هذه السنة من سنن الله فى الدعوات والرسالات..

● واقتران إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - وهى فريضة اجتماعية - كفائية - تعنى عموم المشاركة الإيجابية من المسلم فى شئون الاجتماع الإسلامى - اقتران إقامة هذه الفريضة بتقدم الاجتماع وإزدهاره.. واقتران إهمالها والنكوص عنها بتدهور الاجتماع وهلاك نظامه وسيادة المظالم والفوضى فيه.. سنة من سنن الله فى هذا الاجتماع، يحدثنا عنها البيان النبوى، فى حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه**[2] **على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم»**[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) أى تحملونه على الحق قسرا.

(٣) رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد.

فمقاومة الجور والظلم هى التى تحفظ على الاجتماع الإنسانى المعنى الحق للحياة.. «**إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم! فقد تُوُدِّع منهم** »[1].

● وهذه السنة وثيقة الصلة - بل عضويتها - بسنة أخرى، نتعلمها من أحاديث رسول الله ﷺ التى تشير إلى «قانون تعاقب العدل والجور، والخير والشر فى الاجتماع الإنسانى»، وصلة هذا التعاقب بإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

يتحدث الرسول ﷺ عن سنة وقانون تعاقب العدل والجور على الاجتماع الإنسانى فيقول: «**لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره! ثم يأتي الله - تبارك وتعالى - بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره**»[2].

وكذلك الحال مع الخير والشر.. **فحذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - يسأل رسول الله ﷺ «يا رسول الله، أيكون بعد الخير الذى أعطينا شر، كما كان قبله؟!**

قال: نعم!

فسأله حذيفة: فبمن نعتصم؟!

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الإمام أحمد.

قال: بالسيف»[1].

● وهذه السنن وثيقة الصلة بسنة أخرى نتعلمها من حديث رسول الله ﷺ، الذى يجعل القوة، قوة الاجتماع الإنسانى، قرين الفداء والجهاد والاستشهاد، حتى وإن قل تعداد الأمة.. بينما يقترن الوهن والذل بالجبن عن الفداء والجهاد والاستشهاد، حتى وإن كثرت الأعداد؟!.. فرسول الله ﷺ يتحدث عن هذه السنة فى الحديث الذى دار بينه وبين صحابته.. والذى بدأه فقال لهم:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها»

- فقالوا: يا رسول الله، أمن قلّة بنا يومئذ؟!

- قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل! ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهن!

- فقالوا: وما الوهن؟!.

- قال: حب الحياة، وكراهية الموت[2].

● وإلى جانب من هذه الحقيقة تشير الأحاديث النبوية التى تتحدث عن سنة اقتران الجهاد بالعزة، وارتباط النكوص عنه بالإذلال.. فالركون إلى «سلم» لا يحميه «جهاد» سبيل إلى ضياع

---

(١) رواه أبو داود والإمام أحمد.

(٢) رواه أبو داود والإمام أحمد.

«المسلم» الحقيقى من الاجتماع الإنسانى؟!.. «إذا تبايعتم بالنسيئة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

«فالحياة المدنية» تحميها من الذل «الروح الجهادية»، والاقتران قائم بين الدين - والجهاد ذروة سنامه![2] - وبين عزة هذه الحياة.. كما أن الذل قرين «الدعة» التى لا يحميها «الجهاد»..

وإلى هذه السنة، يشير الحديث النبوى الذى يقول فيه ﷺ: «لا يزال أهل الغرب (أى أهل الشدة والجلد) - ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[3].

وذلك لأن ختم النبوة والرسالة قد جعل استمرارية هذه الأمة إلى يوم الدين الحقيقة المترتبة على خلود الإسلام حتى يوم الدين!.. فكانت سنة القيام الدائم لفريق من هذه الأمة على إعلاء أمر الله.. «لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»[4].

وهذه «الجماعة - الأمة» هى التى عصمها الله من الاجتماع والإجماع على الضلال.. «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة»[5].

---

(١) رواه أبو داود والإمام أحمد.

(٢) من حديث رسول الله، الذى يرويه معاذ بن جبل - أخرجه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه ابن ماجة.

فحفظ الدين - الذى وعد الله به - **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[1] - يقتضى دوام إقامته.. أى دوام أمته.. وذلك لا يتأتى دون دوام الجهاد مع أعداء الإسلام والمسلمين.. **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر أو الشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودى خلفي فتعال فاقتله»**[2].

هكذا.. ومن خلال هذه الإشارات إلى عدد من «السنن» و «القوانين»، التى جاءت فى القرآن الكريم.. وفى الحديث النبوى الشريف.. رأينا كيف كان «كتاب الوحى» - بلاغه القرآنى.. وبيانه النبوى مصدرا للمعرفة، فى عالم الشهادة، والاجتماع الإنساني.. إلى جانب كونه المصدر لمعارف الإنسان عن عالم الغيب الذى لا تستقل بإدراكه العقول، ولا تخضع معارفه للحس والتجريب.

وأخيرا.. فمن منا لا يتأمل قول الله سبحانه وتعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾**[3].. ولا يرى ويدرك - على وجه اليقين - كيف جعل القرآن الكريم سبل العلم والمعرفة متعدية للسبل الحسية.. فليس «السمع»

---

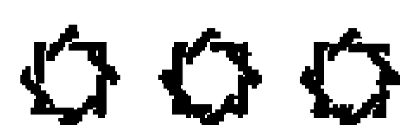
(١) سورة الحجر: الآية ٩.
(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

و«البصر» - الحواس - وحدها - هى سبل المعرفة.. وإنما الفؤاد - مع الحواس - (كل أولئك كان عنه) عن العلم والمعرفة (مسئولا)..

تلك هى إسلامية المعرفة.. المنهج القرآنى فى المعرفة.. وعلى هذا النحو واجه به القرآن الكريم - وبيانه النبوى - المنهج الحسى فى المعرفة، ذلك الذى كان سائدا فى دوائر المشركين والدهريين..

وعلى هذا النحو قام «كتاب الوحى» - فى هذا المنهج - مصدرا للمعرفة فى عالم الغيب والشهادة جميعا.. فزاملت معارفة، وكشفت سننه عن كثير من السنن الجارية فى آيات «كتاب الوجود»، سيان منها ما كان خاصا بعلوم الطبيعة التجريبية، أو بظواهر وعلوم الاجتماع الإنسانى.

فهو تميز.. وهى إضافات.. تحققها إسلامية المعرفة فى هذه الميادين.



الفصل الخامس

وبعد الفتوحات الإسلامية

ولم يكد ينتهي القرن الهجرى الأول، حتى كانت الفتوحات الإسلامية قد وصلت بحدود الدولة الإسلامية ما بين الأندلس والصين.. وأصبحت كل الديانات، السماوية والوضعية، وكل الملل والنحل، وجميع المؤسسات اللاهوتية والمدارس الفكرية والفلسفية، قائمة ونشطة فى دولة الإسلام.. فالفتح قد أقام الدولة، لكن المسلمين ظلوا أقلية عددية فى رعية هذه الدولة لعدة قرون[1].. إذ ﴿**لا إكراه في الدين**﴾[2].. وإذا كان للفتح أن يقيم «الدولة»، فليس له من سبيل إلى إقامة الإيمان «بالدين»، لأن الإيمان: تصديق قلبى، يبلغ مرتبة اليقين.. والإكراه قد يثمر «نفاقا»، لكنه لا يثمر «إيمانا» بحال من الأحوال.

وفى خضم التدافع الفكرى الذى شاع وازدهر بين الإسلام وبين الديانات والنحل والفلسفات غير الإسلامية، تخلقت للحضارة الإسلامية

---

(١) انظر فى الانتشار التدريجى للإسلام: هارى. وهازارد (أطلس التاريخ الإسلامى) ص ٥، ٦ ترجمة إبراهيم زكى خورشيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م. و د. حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام) ص ٣٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م. وأرنولد. سير توماس. (الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٨، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٩، ١٥٣ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م وآدم متز (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) المجلد الأول ص٧٥، ٨٤، ١٠٥ ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

علوم ومذاهب كانت بعض أدواتها في الحوار الفكرى والتدافع المذهبى مع هذه الديانات والفلسفات.. تخلقت العقلانية الإسلامية، التى أعملت العقل فى النقل، وحكمت العقل بالنقل.. فكانت نموذجا للمعرفة الإسلامية التى أرسى القرآن قواعدها - وتخلق علم آداب البحث والمناظرة، الذى جعل حتى من المساجد، أحيانا، ميادين تدافع فكرى بين علماء الإسلام وبين أحبار وعلماء الديانات والفلسفات الأخرى.. وكان ذلك امتدادا وتطويرًا لمنهج النبوة ولدور مسجد المدينة المنورة، على عهد الرسول ﷺ..

ولقد واجه المسلمون، ضمن ما واجهوا، خلال هذا التدافع الفكرى، مذاهب المعرفة غير الإسلامية، تلك التى افتقدت توازن معرفتنا الإسلامية.. واجهوا:

● العقلانية اليونانية، التى لم تعرف الوحى والنقل، فلم تعترف بهما.. فقامت معرفتها على ساق واحدة، هى البرهان العقلى.. حتى لقد اقتربت كثيرا من نموذج المعرفة الحسية.

● والعرفان الغنوصى الباطنى، الذى اعتمد «الحدس» و «الذوق»، فأهمل «الواقع» وغض من شأن «العقل» و «النقل» جميعا..

● وواجهوا «المعرفة الحسية» لمذاهب الديانات الوضعية، التى كانت منتشرة فى البلاد الآسيوية التى دخلت فى دولة الإسلام أو اتصل أهلها بالإسلام والمسلمين..

وأمام هذه «المقالات» غير الإسلامية، وفى مواجهتها، وفى خضم التدافع الفكرى معها، شهدت حضارتنا فن التأليف فى (مقالات

الإسلاميين).. ورأينا. ونحن نراجع عناوين مؤلفات سلفنا فى تلك القرون تلك الثروة العظيمة من المؤلفات التى تخصصت فى الرد على «مقالات» أهل تلك الديانات والمذاهب والنحل والفلسفات..

وعلى سبيل المثال:

فالذين أرّخوا لقائد المعتزلة: أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ هـ - ١٣١ هـ / ٦٩٩ م-٧٤٨ م) يقولون إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد فرغ من الرد على كل المخالفين!.. ومن عناوين الكتب التى ألفها: (كتاب الألف مسألة). وجميعها فى الرد على مذهب «المانوية» الفارسية.

ومما تذكره كتب هذا الفن.. فن (مقالات الإسلاميين) من وقائع التدافع الفكرى بين «إسلامية المعرفة»، التى بلورها الإسلام، وبين مذهب الديانات الوضعية - غير السماوية - فى «المعرفة الحسية»، تلك الحوارات التى دارت بين علماء الإسلام وبين علماء فرقة «السُّمَنِيَّة» - وهى مذهب من مذاهب الديانة الوضعية الهندية.. ينكر أهله الوحى والنبوة والرسالة.. ويقولون: «لا طريق للعلم سوى الحس.»[1].

كان «السمنية» يرون أن المعرفة والعلم هما ثمرة للواقع المحسوس وحده.. ويرون الحواس الخمسة وحدها سبل المعرفة الحقة.. وما عدا ذلك خيال- وبتعبيراتهم فى ذلك العصر: «مجهول»! - أى غير «معلوم».. أى ليس من المعارف والعلوم، التى يصدق عليها هذا الاصطلاح.

---

(١) التهانوى (كشاف اصطلاحات الفنون) - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م.

ولقد دارت بين بعض علماء «السمنية» وبين واحد من علماء المسلمين. وزعيم لإحدى الفرق الإسلامية - وهو الجهم بن صفوان (١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م) - مناظرة حول هذه القضية. قضية «حسية المعرفة».. عجز فيها الجهم عن تقديم مذهب الإسلام فى المعرفة للسمنيين.. فلما بعث إلى واصل بن عطاء بمقالة السمنية، لفت واصل نظره إلى مذهب الإسلام فى المعرفة.. مصادرها.. ووسائل تحصيلها.. فعاود الجهم محاورة السمنيين، الذين انتهى بهم المطاف إلى اعتناق الإسلام على يد واصل بن عطاء.

أما النص الذى يذكر هذه الواقعة، ذات الدلالة الهامة - وهو الذى بقى لنا ضمن ما بقى من أقدم كتاب بلغنا أنه تحت عنوان (مقالات الإسلاميين) -لأبى القاسم البلخى (٣١٩ هـ/ ٩٣١ م)- أما هذا النص فإنه يقول: «ذكر أبو الحسن بن فرزويه: أن قوما من السمنية أتوا جهم بن صفوان فقالوا له:

- هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟

- فقال: لا.

- قالوا: فحدثنا عن معبودك الذى تعبده، أشىء وجدته فى هذه المشاعر؟!.

- قال: لا.

- قالوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل فى المجهول؟!.

فسكت جهم..».

هنا. فى هذا الجزء من هذا النص. نرى مذهب السمنية فى «المعرفة الحسية» التى لا مصدر لها سوى «الواقع المحسوس». ولا سبيل إليها إلا «بالحواس الخمسة».. فهم يرون أن «المعروف» - أى المعرفة - «لا تخرج عن المشاعر الخمسة» - أى الحواس الخمسة!.. ولما كان الله سبحانه وتعالى، لا تدركه - أى لا تجده - هذه المشاعر الخمسة.. فلا سبيل إلى معرفته.. لقد خرج من «المعروف» ودخل - حسب مذهبهم - «فى المجهول»..

على هذا النحو كان مذهب الديانات الوضعية فى المعرفة الحسية.. فكيف واجهها المسلمون؟.. وكيف ردت على هذه المعرفة الحسية مقالات الإسلاميين؟! لنستكمل قراءة النص.. فهو يقول:

«إن الجهم بن صفوان - الذى عجز عن الرد على السمنية - كتب، بوقائع هذه المناظرة، إلى واصل بن عطاء. فكتب إليه واصل:

إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة وعن الدليل.. فارجع إليهم الآن، وقل لهم: هل تفرقون بين الحى والميت؟! وبين العاقل والمجنون؟!. فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يعرف بالدليل لا بغيره».

هنا فى هذا الجزء، من هذا النص، يقدم واصل بن عطاء الإضافة الإسلامية فى نظرية المعرفة.. فهو لا ينكر المعرفة الحسية، ولكنه لا يقتصر عليها، وإنما يضيف إلى أدواتها - المشاعر - الحواس الخمسة - يضيف «الدليل».. والدليل ليس حاسة مادية، وبه يدرك الإنسان المعارف والعلوم غير المادية، والتى لا تخضع لتجارب الحس والحواس..

فالدليل - لغة - هو المرشد والمنبه - واصطلاحا - هو الذى يلزم من العلم به العلم بشىء آخر.. هو الذى يقود الذهن إلى التسليم بحقيقة قضية كانت موضع شك، من قبل، وقد يكون: مجرد أمارة، أو ظاهرة معينة، أو شهادة شاهد، أو ضربا من الاستدلال المنطقى[1]..

فالدليل، ليس فقط الحاسة التى تدرك المحسوس، بل قد يكون: لازم العلم بالمحسوس.. والإدراك به ليس مباشرا، كحال الإدراك بالحواس.. ومثاله: أن يلزم من العلم بالمصنوع البديع - وهو محسوس - العلم بوجود الصانع المبدع - وهو معلوم غير محسوس، لا تدركه الحواس.

لقد أضاف واصل بن عطاء «الدليل» إلى «الحواس الخمسة»، فعبر عن الرفض الإسلامى للمعرفة الحسية، التى تقف بالمعروف عند «الواقع المحسوس» وبأدوات الإدراك عند الحواس الخمسة..

ونحن عندما نتأمل الأمثلة التى طلب واصل من الجهم بن صفوان أن يتحدى بها السمنية نجد نماذج المعرفة الإسلامية، التى واجه بها الإسلاميون خصومهم فى هذا الميدان..

لقد طلب منه أن يقول لهم: «هل تفرقون بين الحى والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟!؟» وإذا كان جوابهم - ولابد أن يكون - بـ «نعم».. لزمتهم الحجة، لأن هذه التفرقة لا سبيل إليها إلا بـ «الدليل». «فالحياة»: ليست مادة، تُدْرك بالحواس.. «والموت»: ليس مادة..

---

(١) انظر: الجرجانى (التعريفات).. و (المعجم الفلسفى) وضع: مجمع اللغة العربية. القاهرة.

وكذلك «العقل» و «الجنون».. جميعها ليست مادة محسوسة تدركها الحواس.

وواصل بن عطاء، يصدر هنا عن الحقيقة القرآنية، التى ضل عنها العلم الغربى، الذى أثمرته موجة الفلسفة المادية والوضعية.. فظن أن «العقل» هو مادة «الدماغ»، وأن الفكر والإدراك والوعى ما هو إلا انعكاس لهذه المادة.. واصل بن عطاء يصدر عن الحقيقة القرآنية التى رأت «العقل»: فعل التعقل، وليس عضوا من أعضاء جسم الإنسان المادية.. والتى هى، لذلك، تحدثت عنه باعتباره «اللب» - الجوهر لإنسانية الإنسان - تارة.. ثم باعتباره «القلب»، لا بمعنى: «اللحمة الصنوبرية الشكل، المستقرة فى التجويف الأيسر من الصدر» وإنما بمعنى أن «القلب» - الجوهر - اللب - النهى - الذى يعقل ويفقه.. والذى - أيضا - يُخْتَم ويُطْبَع عليه بالغشاوات والأقفال، هو: «لطيفة ربانية، لها بالقلب الجسمانى تعلق.. وهى: حقيقة الإنسان. التى يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة!»[1].

لقد صدر واصل بن عطاء، فى حديثه عن «المعروف غير المادى» - من مثل الحياة.. والموت.. والعقل.. والجنون.. والذى يُدْرَك بـ «الدليل» - وليس بالحواس الخمسة.. لقد صدر عن الحقيقة القرآنية.. وعن النمط الإسلامى فى المعرفة، ذلك الذى لا يقف بالمعروف عند «المحسوس»، ولا بأدوات المعرفة عند «الحواس».

---

(١) الجرجانى: (التعريفات).

أما خاتمة هذا النص التراثي، الذى رواه أبو القاسم البلخي. في كتابه (مقالات الإسلاميين) عن أبي الحسن بن فرزويه.. فإنها تقول:

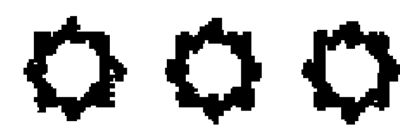
إن جواب واصل بن عطاء لما جاء إلى الجهم بن صفوان «رجع به على السمنية، فقالوا له:

– ليس هذا من كلامك؟! فمن أين لك؟!.

– قال: كتب به إليّ رجل من العلماء، بالبصرة، يقال له: واصل.

فخرجوا إليه – (إلى واصل) – وكلموه، فأجابوه إلى الإسلام»[1].

ذلك مثال – مجرد مثال – لمنهج «إسلامية المعرفة» الذى واجه به الإسلاميون، بعد الفتوحات، مذاهب «المعرفة الحسية»، التي كانت سائدة في دوائر الفكر لدى أهل الديانات الوضعية، التي تنكر «مصدر الوحي» وتقف بالمعرفة وأدواتها ومصادرها عند المحسوس المُدْرَك بالحواس..



وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت الترجمة لعلوم اليونان بـ«علوم الصنعة» – أى علوم التمدن المدني – التي هي «مشترك إنساني عام».. وذلك منذ مشروع الأمير الأموى العالم خالد بن يزيد (٩٠ هـ ٧٠٨ م).. فإنها قد عرفت، في مجرى انفتاحها على هذه العلوم اليونانية، إنسانيات، بل وإلهيات اليونان.. ومنذ القرن الهجرى الثالث أصبحت الفلسفة اليونانية معروضة على العقل العربي.. فبدءًا من

---

(١) البلخي، والقاضي عبد الجبار، والحاكم الجشمي (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٦. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

الكندى، يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م) أصبح أرسطو (٣٨٤ ق. م – ٣٢٢ ق. م) حاضرا فى المكتبة العربية الإسلامية.. فأصبح لـ «المعلم الأول» -- اليونانى -- «المعلم الثانى» – العربى – الذى كتب -- ضمن ما كتب: (إلهيات أرسطو). والذى قال عنه ابن جلجل، أبو داود سليمان ابن حسان الأندلسي: «.. ولم يكن فى الإسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو أرسطاليس.. » فلقد اجتهد لإثبات «التوحيد» و«النبوة» بمنهج اليونان في المعرفة.. مذهب «أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان..»[1].. فكان أن انفتح فى ساحة الفكر الإسلامى باب جديد، وواسع، لمقالات غير الإسلاميين.

ولقد كان طبيعيا أن تستنفر هذه «المقالات» لغير الإسلاميين، «مقالات الإسلاميين».. فشهدت الحياة الفكرية الإسلامية، غير (مقالات الإسلاميين) للبلخى – الذى سبقت الإشارة إليه – كتاب الأشعرى، أبوالحسن (٢٦٠ هـ – ٣٢٤ هـ/ ٨٧٤ م – ٩٧٦ م): الذى حمل ذات العنوان.. وكتاب العامرى: أبو الحسن محمد بن يوسف (٣٨١ هـ / ٩٩٢ م): (الإعلام بمناقب الإسلام)، والذى يعد أول أثر فكرى عثرنا عليه فى مقارنة الأديان الإسلام – واليهودية – والنصرانية -- والزرادشتية – والوثنية – والصابئة – وهو الكتاب الذى أجاب فيه على سؤال: «لماذا أقبل الإسلام وأرفض غيره من الأديان؟؟..».

ثم شهد هذا التدافع الفكرى بين المنهج الإسلامى فى المعرفة ومناهج المعرفة لدى الملل والنحل غير الإسلامية، تلك الأعمال الفكرية البارزة فى

---

(١) انظر: ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) ص ٧٣، ٧٤ تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

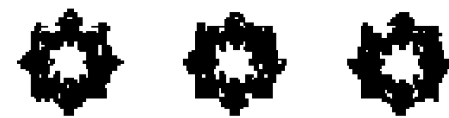
المقارنة والموازنة والمفاضلة بين الأديان (الفصل فى الملل والأهواء والنِّحل) لابن حزم الأندلسى (٣٨٤ هـ ـ ٤٥٦ هـ/ ٩٩٤ م – ١٠٦٤ م) و (الملل والنحل) و (مصارعات الفلاسفة) للشهرستانى، محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ هـ ـ ٥٤٨ هـ / ١٠٨٦ م – ١١٥٣ م)، والبناء الفكرى الذى أقامه حجة الإسلام، أبو حامد الغزالى (٤٥٠ هـ – ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ م – ١١١١ م) لتمييز المنهج الإسلامى عن كل من المنهج اليونانى والمنهج الغنوصى الباطنى – (تهافت الفلاسفة) و (مقاصد الفلاسفة) و (فضائح الباطنية) و (ميزان العمل) و (القسطاس المستقيم) و (معيار العلم) و (إحياء علوم الدين).. إلخ. فلما جاء شيخ الإسلام، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ هـ ـ ٧٢٨ هـ/ ١٢٦٣ م – ١٣٢٨ م) كان جهاده على جبهة تميز المنهج الإسلامى فى المعرفة الوجه الآخر المكمل لجهاده بالسيف ضد أعداء دولة الإسلام وأمته وحضارته. فكما ذاد، بالسيف، عن ديار الإسلام.. ذاد، بالقلم، عن عقيدته، وعن منهاج هذه العقيدة فى تحصيل المعارف والعلوم، فكان من عطائه على هذه الجبهة: (الجمع بين النقل والعقل) – درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول، و (نقض المنطق) – الذى حاول فيه بناء منطق إسلامى، لعقيدة التوحيد، مرتبط بالعربية – لسان الإسلام – بديل لمنطق أرسطو – الخاص بلغة اليونان، ووثنيتها – وكذلك: (الرد على ابن عربى والصوفية) و (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم).. إلخ.

وفى سياق هذا الجهد الفكرى.. الذى استهدف تميز منهاج المعرفة الإسلامى عن منهاج المعرفة الحسية، شهدت المكتبة الإسلامية العديد

والعديد من الكتابات.. والتى يبرز فيها كتاب ابن الوزير اليمنى، محمد ابن إبراهيم (٧٧٥ هـ - ٨٤٠ هـ / ١٣٧٣ م - ١٤٣٦ م): (ترجيح أساليب القرآن على قوانين المبتدعة واليونان).. ذلك الذى أحيا فيه منهج المعرفة القرآنى.. منهج إسلامية المعرفة، فى مواجهة ومقارنة ونقد مناهج المعرفة الحسية، غير الإسلامية..

وهكذا كانت المواجهة بين إسلامية المعرفة وبين مناهج المعرفة الحسية، والغنوصية.. بدءا بالمواجهة القرآنية لمناهج الشرك والدهرية فى المعرفة.. والتى واصل الفكر الإسلامى مسيرتها عندما تصدى لمناهج المعرفة الحسية والغنوصية، تلك التى سادت فى دوائر الفكر لأهل الديانات الوضعية التى تدافعت مع مقولاتها «مقالات الإسلاميين».

لقد ظل «البديل الإسلامى»، فى المعرفة، مرفوعة راياته، فى هذا التدافع الفكرى عبر تلك القرون.



الفصل السادس

والبديل للوضعية الغربية الحديثة

فلما حدث ودخلت حضارتنا الإسلامية فى طور التراجع والجمود ـ لأسباب ليس هذا هو مقام الحديث فيها[1] .. فذبل فيها الخلق والإبداع والتجديد ، وغرق العقل الإسلامى فى بحار الجمود والتقليد .. تصادف زمن ذلك التراجع مع الإحياء والنهضة للحضارة الغربية فى أوربا ..

ولقد قامت النهضة الغربية الحديثة ، فى مناهج المعرفة ونظرياتها ، كرد فعل عنيف ومناقض لتلك المناهج التى سادت فى تلك الحضارة ، إبان عصورها الوسطى والمظلمة ..

كانت الكنيسة الكاثوليكية ، إبان هيمنتها على الحضارة الغربية - سواء فى ظل « القيصرية - البابوية » - التى هيمنت فيها الكنيسة على السلطة الزمنية - أو فى ظل «البابوية - القيصرية » - عندما أصبح « البابوات » « قياصرة » أيضا ! .. كانت هذه الكنيسة قد جعلت « اللاهوت » هو مصدر المعرفة الوحيد .. فقدست المعرفة وثبتتها - جمدتها - عندما جعلت لها قدسية الدين وثباته .. وبعزلها «الواقع» عن أن يكون المصدر الثانى للمعرفة ، منعت « الشرعية » عن ثمرات

---

(١) انظر كتابنا « الطريق إلى اليقظة الإسلامية » - تاريخ التراجع الحضارى وأسبابه ومظاهره - ص ١٨ - ١٣٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م .

معرفة هذا «الواقع» . ومن هنا كان « التحريم » للمكتشفات الجديدة . و « الحرمان الدينى » لمن يطلبون « المعرفة » خارج « اللاهوت ».

لقد جعلت الكنيسة من «المعرفة» شأنا سماويا خالصا . لا مكان فيه «للواقع» وأدوات إدراكه وتصوره .. فجاءت النهضة الغربية الحديثة ، كرد فعل عنيف ومضاد لهذا الموقف الكنسى ، لتجعل من « الواقع المحسوس» المصدر الوحيد للمعرفة ، ولتجعل من التجربة الحسية - المذاهب التجريبية بأنواعها- السبل الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم.

لقد فتحت هذه النهضة الغربية الحديثة صفحة جديدة لمنهج المعرفة الحسية ، الذى عرفه تاريخ الفكر البشرى لدى أصحاب الديانات الوضعية - والذى أشرنا إلى « السُّمَنيَّة » نموذجا له - بل لقد تصاعد رد الفعل هذا بتيارات الوضعية الغربية إلى حد الزعم بأن « الدين : وضع بشرى»! .. وليس « وضعا إلهيا » ، وذلك عندما أنكرت هذه الوضعية « الوحى» كمصدر من مصادر المعرفة الحقيقية ، واعتبرته - فى أحسن الحالات ، وأخف وألطف التعبيرات : ميتافيزيقا ، وخيالات، إن جاز أن يكون تصورات لمرحلة من مراحل طفولة وسذاجة العقل الإنسانى ، فغير جائز أن يكون « معرفة » بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح .

لقد قال الوضعيون الغربيون : « إن العقل الإنسانى قد مر بحالات ثلاث : حالة لا هوتية ، وحالة ميتافيزيقية ، وحالة واقعية » .. هى تلك التى غدا « الواقع » فيها المصدر الوحيد للمعرفة الحقة - فالحق بنظرهم ، هو « ثمرة التجربة » وحدها[1].

---

(١) انظر [القاموس الفلسفى] - مادة المذهب الوضعى - تأليف مراد وهبة ، ويوسف كرم، ويوسف شلاله.

وكما قال « السُّمنِّية » - القدماء : إن ما عدا « المعروف بالحواس » هو « مجهول » .. قال أبو المذهب الوضعى أوجست كونت [١٧٩٨م - ١٨٥٧م] : إن ما عدا « الواقع » المحسوس هو « وهم » من الأوهام ! .. والفكر الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة ، وما بينها من علاقات أو قوانين ، وإن المثل الأعلى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية .. فالتجربة هى مصدر المعرفة الحقة الوحيد- ومن ثم فإنه يجب العدول عن كل بحث فى العلل والغايات وفى المبادئ الأولية .. فكل المعرفة مستمدة من الحس أو التجربة المباشرة ، وليس من الفطرة أو المصدر العقلى أو النظرى أو الاستنباطى[١] .. أما « مصدر الوحى » ، فلقد اعتبرته الوضعية : إفرازا بشريا تلاءم مع مرحلة الطفولة التى مر بها العقل البشرى ، قبل أن يصل إلى « الوضعية - التجريبية » ، عبر « الميتافيزيقا »..

بل لقد شابهت هذه الوضعية الغربية الحديثة ، فى منهجها هذا فى المعرفة ، أسلافها القدماء ، من أبناء الديانات الشرقية الوضعية - مثل « السُّمَنيَّة » التى أشرنا إليها - عندما سارت على ذات الدرب ، « حذو النعل بالنعل » ! .. فقالت بـ « الدين الوضعى » .. فكتب أوجست كونت كتابه [تعاليم الدين الوضعى] سنة ١٨٥٢م..

وفى هذا « الدين الوضعى » ، جعل هذا « المتنبئ الوضعى الجديد . » :

---

(١) المرجع السابق : وانظر كذلك مادة « تجريبى » فى « القاموس الفلسفى » - وضع: مجمع اللغة العربية - القاهرة.

● العبادة للكائن الأعظم – الذى رمز لـه بصورة الأنثى – فـى معابد تحتوى على تماثيل نصفية لمن رآهم قد أحسنوا إلى الإنسانية

● وجعل لهذا الدين الوضعي «تقويما وضعيا»، سميت شـهوره بأسماء: موسى، وأرشميدس ، وفردريك الثاني .. وغيرهم من أمثالهم ..

● أما أعياد هذا الدين ، فهى احتفالات بالعظماء – ولقد جعل أوجست كونت في هؤلاء العظماء الذيـن تقـام الأعيـاد احتفـالا بـهم : أصدقـاءه ، الذين ساندوه في محاولته الفاشـلة لاحتـلال منصب الأستاذية بمدرسة الفنون التطبيقية..

● أما روحانيو هذا الدين الوضعى ، فهم العلماء التجريبيون .. بـدلا من رجال اللاهوت »[1]

فهى إذن « الردة العنيفة » ، و « رد الفعل العنيـف » علـى الموقـف الكنسـى والمـذهب اللاهـوتى فـى مصادر المعـرفة وسـبل تحصيلـها .. لقد جعلت الكنيسـة المعرفـة شـأنا سـماويا خالصـا ، لا علاقـة لـه « بالواقع » . فجاءت الوضعية لتجعلها شأنا أرضيـا « واقعيـا » خالصا لا علاقة له بالوحى ولا بنبأ السماء..

والأمـر الـذى يؤكـد هـذه الحقيقـة هـو مـا ذهـب إليـه أبـو الوضعيـة الغربيـة ، و « متنبـئ دينـها الوضعـى » الجديـد ، فـى تقسيمه لمراحـل تطور المعـارف والعلـوم .. فلقـد رآهـا مراحـل ثـلاث :

---

(١) انظر [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ص ٢٦٧ – إشراف ومراجعة : د. زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

١ – المرحلة اللاهوتية.. وهى مرحلة الحكم الدينى .. التقليدية ، التى اتسقت فيها السلطة بين قوة الملوك الدنيوية وقوة الكهنة الروحانية ..

٢ – والمرحلة الميتافيزيقية .. التى حدث فيها نوع من الفوضى ، تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم ..

٣ – والمرحلة الوضعية .. التى يكون فيها رجال العلم التجريبى قوة روحية جديدة.. وتسود فيها المعرفة الوضعية .. ويصبح الدين وضعيا أيضا!.. وتصبح كل العلوم، حتى الإنسانية منها، طبيعية، فى مناهجها، وفى درجة الحياد والموضوعية والتعميم لقوانينها ومقولاتها– حتى لقد أطلق على علم الاجتماع –الذى أسسه–: «الفيزيقا الاجتماعية»[1].. وقال، فيما قال: «إننا مادمنا نفكر بشكل وضعى فى مادة علم الفلك أو الفزياء ، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة فى مادة السياسة أو الدين ، فالمنهج الوضعى الذى نجح فى علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير »[2] ..

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف ، وكافة العلوم صادرة عن مصدر واحد للمعرفة ، هو « الواقع المحسوس » .. فكل المعارف « تجريبية» ، ومن ثم يمكن التعبير عنها « بلغة الفيزيقا »[3]..

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧.

(٢) محمد أمزيان | منهج البحث الاجتماعى بين الوضعية والمعيارية | ص ٤٦، ٤٧ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى سنة ١٩٩٢م.

(٣) | الموسوعة الفلسفية المختصرة | ص ٤١٧.

هكذا بدأت وتبلورت « الوضعية » الغربية – بمدارسها المختلفة – وانقساماتها التي تمايزت في الفروع والتفاصيل والتخصصات : الوضعية .. والوضعية المنطقية .. والتجريبية .. والسلوكية .. والمادية – بمذاهبها وفروعها .. إلخ .. إلخ..

فكما جَرَّم اللاهوت الكنسي الغربي « المعرفة الواقعية » لجاليليو [١٥٦٤ – ١٦٤٢م] .. جَرَّمت الوضعية الغربية « المعرفة الإيمانية » ، معتبرة إياها : إفرازا بشريا طفوليا ، تجاوزه العقل البشري عندما تجاوزت الإنسانية مرحلة طفولتها..

وهكذا عاد الخلل إلى مصادر المعرفة ، وإلى أدواتها ، عندما قامت على ساق واحدة، هي «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها الأخرى ، « كتاب الوحي » .. عاد إليها هذا الخلل القديم ، من جديد .

لقد غدت الوضعية : « دين الفكر الغربي » ، الذى استبدل « بدين الايمان السماوى » .. ثم اتخذت الأشكال المتعددة في الميادين المختلفة ..

● فهي قد جعلت « الوعي » نشاطا ماديا ، هو انعكاس « للدماغ » ، الذى حسبته « العقل » .. أى أنها قد جعلت « العقل » و « التعقل » مادة .. حتى لا يكون هناك شيء في الإدراك والمعرفة غير الحس والمحسوس والحواس .. وقال هكسلي توماس . هـ [١٨٢٥م – ١٨٩٥م] : « يبدو أن الوعي متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم ، لا أكثر ، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعديل عمل الجسم ، مثلما يلازم صفير البخار حركة القاطرة دونما تأثير على آليتها .. ».. وقال أيضا ، في سياق الادّعاء بهذه «المادية الميكانيكية»:

« إن الأفكار التى أعبر عنها بالنطق . وأفكارك فيما يتعلق بها إنما هى عبارة عن تغيرات جزئية ..» [1]..

ولقد قادت هذه «المعرفة الحسية» ، التى أنكرت « مادون المحسوس والحواس » ، قادت أصحابها إلى « دهرية جديدة » فى الاعتقاد ! ..

فالدهريون الأول قد قالوا : ﴿ **ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ [2] .. ورأوا فى الموت نهاية كل شىء ، يستوى فى ذلك « الجسم» و«العقل» و«النفس» و«الروح» و«الفكر» و«الإرادة» .. فالناس ـ كما قالوا ـ هم مثل الزرع!.. نراه مختلفا ألوانه، ثم يصير حطاما، لا عودة له، ولا بعث ولانشور!.. لأنه ـكما قال هؤلاء الماديون- : « إذا كان التفكير والإرادة نشاطين من أنشطة الدماغ، فسيفنيان بفناء الدماغ. وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة، فلابد من أن يكون كل جزء منه عرضة للفناء..»[3] ..

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية للعلم الغربى، انطلق داروين (تشارلز (١٨٠٩م ـ ١٨٨٢م) ففسر ـ فى الدارونية ـ نشأة الحياة تفسيرا ماديا ـ أو إلى هذه النتيجة قادت أبحاثه فريقا من تابعيه ـ فهى ـ الحياة ـ قد نشأت ذاتية بواسطة التفاعلات والتغيرات الجزئية التى اعترت المواد الأولى التى تخلقت منها ـ تماما كما تخلق الوعى ونشأ من مادة الدماغ،

---

(١) روبرت م. أغروس ، جورج ن ، ستانسيو [العلم فى منظوره الجديد] ص ٢٦ ، ٢٥. ترجمة كمال خلايلى. طبعة الكويت . عالم المعرفة سنة ١٩٨٩م.

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤.

(٣) (العلم فى منظوره الجديد) ص ٢٥.

بالتغيرات الجزئية.. فما قاله هكسلى فى عالم الأفكار. قاله دارون فى عالم الأحياء

وتطبيقا لهذه النزعة المادية ـ فى عالمى الأفكار والأحياء .. فى الاجتماع والأموال والثروات والاقتصاد قال ماركس (كارل) (١٨١٧م ـ ١٨٨٣م) «إن تطور المجتمعات والاجتماع البشرى إنما هو بتأثير المحرك الأول: الواقع المادى.. والاقتصاد ـ قوى الانتاج، وعلاقات الإنتاج.. فالمعرفة مادية، تعكس «الواقع» فى «الفكر»، وهى قائمة على الممارسة، تبدأ بالإدراكات الحسية للأشياء[1] .. ولا شىء غير «الواقع» المنعكس فى «فكر» الإنسان، بواسطة «مادة الدماغ».. أما « الله» و«الدين» ـ وكل ماجاء به «كتاب الوحى» ، فهو خيال وخرافة اخترعها المحرومون، تسلية لأنفسهم، أوالخبثاء الأغنياء تخديرا للفقراء».

ولقد تصاعدت الماركسية بهذه «الدهرية» المنكرة «لمصدر الوحى» والمعادية للدين، من مستوى « الخيار ـ الفردى» إلى حيث جعلتها «مهمة ثورية» دعت « الثوار» إلى النضال لتعميمها على الإنسانية ومجتمعاتها، باقتلاع الدين والتدين اقتلاعا من هذه المجتمعات، جاعلة من هذه «المهمة» جزءا لا يتجزأ من «تحريرها» الإنسان من «القيود».

لقد تنوعت مدارس الفكر الغربى ومذاهبه، وتعددت فى إطار نهضته الحديثة العلوم والمعارف والتخصصات.. لكن الوضعية.. والنزعة المادية.. والمذهب الحسى فى المعرفة.. كانت القاسم المشترك الأعظم فى معظم هذه

---

(١) (الموسوعة الفلسفية) ـ مادة المعرفة ـ وضع لجنة من العلماء السوفيت ـ ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٤م.

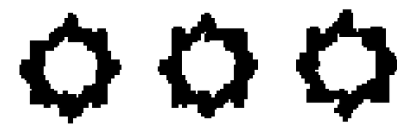
المدارس والمذاهب والمعارف والتخصصات.. حتى لقد انطبع فكر النهضة الغربية الحديثة بهذا الطابع «الدهرى.. الحسي» إلى حد كبير..

ولقد تزامن ذلك مع تراجع حضارتنا الإسلامية.. ومع الموجة الاستعمارية الغربية الحديثة، التي حملت إلى بلادنا الإسلامية ـ بعد خضوعها لهيمنة هذه الموجة الاستعمارية ـ مع النهب الاقتصادى.. والإلحاق الأمني والسياسي.. نزعتها هذه فى المعرفة الحسية، والتوجه المادى.. فأعاد تاريخ المواجهات الفكرية سيرته الأولى من جديد.. مع تغير فى مواقع الفرقاء.. فبعد الفتوحات الإسلامية نهض الإسلاميون بمواجهة مذهب المعرفة الحسية ـ الواقف عند المحسوس والحواس ـ نهضوا بمواجهته بمذهب الإسلام فى المعرفة، فى البلاد التى فتحها المسلمون.. لقد قدموا «البديل الإسلامى» فى المعرفة، كجزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى انتصر، وغدا ـ لأكثر من عشرة قرون ـ منارة العالمين..

واليوم. وبعد الغزو الغربى لوطن العروبة وعالم الإسلام، منذ نحو قرنين من الزمان، اقتحم الفكر الغربى على العقل المسلم دياره ومعاقله، محاولا أن يفرض عليه ـ ضمن ما يريد فرضه ـ نموذجه الحضارى الغربى، المؤسس على النزعة المادية والحسية فى المعرفة.. الأمر الذى يجعل من شعار «إسلامية المعرفة» التعبير عن مهمة ثقافية ورسالة فكرية، هى المدخل والسبيل والأداة لبلورة الطور المعاصر لمشروعنا الحضارى الإسلامى، الذى لابد لنا من إحيائه وتجديده، لنواجه به المشروع الغربى..

فالقضية الآن أكبر من مهمة ثقافية.. وأخطر من رسالة فكرية.. وأعظم من «هم أكاديمى» .. إنها جزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى يمثل بالنسبة ليقظتنا الإسلامية الحديثة.. دليل العمل الذى ينير لهذه اليقظة الطريق.. والرائد الذى لايكذب أهل هذه اليقظة.. وطوق النجاة لأمتنا من هاوية التبعية الفكرية والاستلاب الحضارى، الذى أقام له «الآخر الحضارى» فى عقر دارنا المؤسسات التى تبث مذاهبه فى المعرفة ومناهجه فى صياغة الواقع وتشكيل الحياة..

تلك هى المهمة التى يطرحها شعار «إسلامية المعرفة» على العقل المسلم، فى المنعطف التاريخى، والظرف الحضارى الذى نعيش فيه..



الفصل السابع

وقسمة فى مشروعنا الحضارى البديل

ولعل مما يزيد العقل الإسلامي ثقة في خطر هذه القضية ـ قضية: إسلامية المعرفة ـ واطمئنانا إلى توافر إمكانات النجاح فيها ـ غير القياس على انتصار أسلافنا العظام على الوضعية القديمة والدهرية القديمة ـ أن كثيرا من دوائر الفكر الغربي ذاته قد أخذت تفيق من خدر الاطمئنان الذي خدعتها به موجة المعرفة الحسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين..

لقد شهد العلم الغربي، منذ العقود الأولى للقرن العشرين، العديد من الاكتشافات العلمية، التي يعدها المؤرخون له بمثابة «الثورات» التي كشفت عورات افتقار المعرفة الحسية والمادية إلى التوازن، ومن ثم افتقادها لمقومات «الصدق المعرفي».

● ففي الفيزياء، مثلت أبحاث ونظريات ومكتشفات أينشتاين Einstein (١٨٧٩م-١٩٥٥م). وبور Bohr (١٨٨٥م-١٩٦٢م). وهايزنبيرج Heisenberg (١٩٠١م - ١٩٧٦م) ثورة كبرى..

● وفي ميحث الأعصاب، مثلت أبحاث ومكتشفات شرنجتون Sherrington (١٨٥٧م - ١٩٥٢م) .. وإكلس Eccles من مواليد ١٩٠٣.. وسبرى Sperry (١٨٦٠م - ١٩٣٠م).. وبنفيلد Penfield ثورة جديدة..

● وفي علم النفس، مثلت أبحاث ومكتشفات فرانكل Frankl.. وماسلو Maslow وماى May ثورة أخرى..

● وفى علم الكونيات. جاءت نظرية «الانفجار العظيم»، و«المبدأ الإنسانى»، فتحا علميا جديدا. مثل مع الثورات العلمية فى الفيزياء.. والأعصاب.. وعلم النفس الأسس الجديدة لمعرفة غير حسية. وبمعنى أدق لاتقف على «ساق الحس» وحدها.. وبعبارة أهل الاختصاص من علماء الفيزياء، الذين يحللون مغزى هذه الثورات العلمية، ويؤرخون لها: (فإن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث - الذى كان سائدا فى العلم الغربى - للإنسان ولمكانته فى العالم فحسب، بل هى تقدم تفسيرا جديدا..).

لقد كان التصور السائد فى دوائر العلم الغربى، إبان حقبة الموجة المادية والحسية فى المعرفة، هو «أن لا وجود إلا للمادة، وأن الأشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب، وهكذا يتحتم أن تكون حرية الاختيار وهما من الأوهام ما دامت المادة غير قادرة على التصرف الحر. ولما كانت المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أى شىء، فلا سبيل إلى العثور على حكمة وراء الاشياء الطبيعية - (عالم الغيب) - بل إن العقل ذاته يعتبر نتاجا ثانويا لنشاط الدماغ..

ولقد وصف برتراند رسل Bertrand Rassell (١٨٧٢م - ١٩٧٠م) هذا التصور المادى الذى ساد دوائر المعرفة والعلم الغربى فقال: «لأن يكون الإنسان نتاج أسباب لاتملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات، ولأن يكون منشؤه ونموه ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجرد حصيلة إرتصاف ذات عرضى، ولأن تعجز أى حماسة مشبوبة أو بطولة، أو أى حدة فى التفكير أو الشعور، عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر، ولأن

يكون الاندثار هو المصير المحتوم لكل عناء الأجيال. ولكل التفاني. ولكل عبقرية الإنسان المتألقة تألق الشمس فى رابعة النهار. كل هذه الأمور إن لم تكن حقا غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أى فلسفة ترفضه أن يكتب لها البقاء. وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بأمان إلا فى إطار هذه الحقائق وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم..»..

نعم .. لقد سادت «دهرية القنوط المقيم!» مما وراء المادة.. فى حقبة النهضة الحديثة للمعرفة الغربية ـ الحسية ـ والعلم الغربى ـ المادى ـ الذى عمم هذه النظرة على جميع العلوم، المادية منها والإنسانية..

لكن المؤرخين الجدد، للعلم الغربى، الذين رصدوا الثورات المعاصرة فى هذا العلم. يقولون إن ذلك التصور «الدهرى - القانط» قد طويت صفحته بهذه الثورات العلمية المعاصرة وبمعطياتها فى نظرية المعرفة.. وبعبارة عالم الفيزياء هنرى مارجينو Henry Margenau. إن العقيدة الأساسية للمذهب المادى ـ وهى أن الحقيقة كلها تكمن فى المادة وهذا رأى كان مقبولا بعض القبول فى أواخر القرن الماضى (التاسع عشر) غير أن أمورا كثيرة حدثت فى هذه الأثناء تكذب هذا الرأى..».

وبعبارة عالم الفيزياء فيرنر هايزنبيرج: «إن الفيزياء الذرية المعاصرة قد نأت بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى فى القرن التاسع عشر».

إذن .. فنحن أمام جديد.. وبإزاء تحولات فى مذهب المعرفة الغربية.. تحولات عن النزعة المادية البحتة والحسية الصرفة..

لقد قال الإمام الغزالى قديما: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله».. لقد بدأ جراح الأعصاب «ويلدر بنفيلد» تجاربه على الدماغ،

بهدف إثبات النظرة التى كانت سائدة ـ النظرة المادية ـ «الدماغ يفسر العقل» ـ لكنه وصل ـ عبر دراسة ما يربو على ألف حالة ـ إلى إثبات عكس هذه النظرة المادية.. وصل إلى أن العقل غير الدماغ.. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف، والقدرة على الحركة. لكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.. والعقل، لا الدماغ، هو الذى يراقب ويوجه فى آن معا.. هو الذى يتخذ القرارات وينفذها، مستعينا بمختلف آليات الدماغ»..

لقد وصل بنفيلد إلى هذه الحقائق.. ورتب عليها معطياتها فى نظرية المعرفة.. فكتب فى كتابه (لغز العقل)..

«إنه أقرب إلى المنطق أن نقول: إن العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفا عن الجسم».

وأمام هذا الذى قاله .. نتذكر تعريف الإسلاميين للعقل، بكلمات الشريف الجرجانى (٧٤٠هـ ـ ٨١٦هـ/١٣٤٠م ـ ١٤١٣م): «هو جوهر مجرد عن المادة فى ذاته، مقارن لها فى فعله.. جوهر روحانى خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان.. نور فى القلب يعرف الحق والباطل».

ونتذكر، أيضا، تعريفه لـ«القلب» ، الذى يعقل ويفقه ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ والذى يقول عنه : إنه «لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسمانى الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر، تعلق. وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان.. ويسميها الحكيم: النفس الناطقة.. وهى المدرك والعالم من الإنسان، والمخاطب والمطالب والمعاتب..»

إنه التعريف الإسلامى، الذى لم ير الإنسان مجرد مادة تفرز الفكر بالتفاعلات لجزيئات هذه المادة..

ومن هذا المعنى يقترب العلم الغربي المعاصر، بتجارب علمائه على الأعصاب.

بل لقد خطا ويلدر بنفيلد خطوة أخرى، هامة، عندما قال - متعجبا - وهو الذى بدأ أبحاثه بهدف دعم النظرة المادية والحسية للمعرفة - قال: «. . فياله من أمر مثير، إذن، أن نكتشف أن العالم يستطيع، بدوره، أن يؤمن عن حق بوجود الروح.. و إذا كان العقل والإرادة غير ماديين، فلاشك أن هاتين الملكتين - على حد تعبير «أكلس» .. «لاتخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما..»[1]..

الله أكبر .

إننا بإزاء إيمان «بالروح».. وإيمان بخلودها.. وإيمان بأن تحلل الجسم وفناء المادة ليس نهاية المطاف..

وهنا تضاهي هذه «التجريبية الجديدة» - إن جاز التعبير - «التجريبية الإسلامية» المؤمنة، فيما انتهت إليه من معطيات.. لكن يبقى «البديل الإسلامي» متميزا.. فهو لا ينطلق، في المعرفة، فقط من «الواقع.. والحس.. والتجريب»، وإنما ينطلق، أيضا، من «كتاب الوحي» وهو ما يفتقده ويفتقر إليه هؤلاء «التجريبيون الجدد الغربيون» .

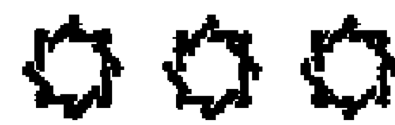
لقد اكتشف بنفيلد «أمرا مثيرا»!.. أما العالم المسلم، الذى ينطلق من «كتاب الوحي» و «كتاب الكون»، فإنه يكتشف، بالتجربة، في «كتاب الكون» : الأسرار التى أودعها صاحب «الوحي» و«خالق

---

(١) العلم فى منظوره الجديد ص٣٩، ٤٢، ٤٣.

الوجود» .. فهو ينطلق من الإيمان الديني.. ينطلق من «الشرعي» . لاكتشاف «المدني - الكوني» . ثم يوظف ثمرات العلم «المدني - الكوني» في دعم الإيمان «الديني - الشرعي». ويكون لذلك أكثر خلق الله خشية لله.. ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (١).

فالتطور الذي يحدث في العلم الغربي المعاصر.. ومعطياته في نظرية المعرفة.. هو مما يدعم ثقتنا في «البديل الإسلامي» .. ويزيد من إلحاح هذه القضية على العقل المسلم.. لتنقية علومنا من آثار الموجة المادية للعلم الغربي الحديث.. ولصياغة هذه العلوم وفق منهاج إسلامية المعرفة.. وللإسهام، بعد ذلك في تزكية وترشيد هذا التوجه الجديد والوليد عند الغربيين..



إن الإسلام الذي صاغ أمته، عندما صبغ حضارتها بصبغة الله - بإقامته العلاقة بين «الشرعي» و «المدني» في المعارف والعلوم..

إن هذا الإسلام، الذي صاغ الأمة.. ومنهاجها في المعرفة، هذه الصياغة الإيمانية المتميزة.. هو الذي صاغ - تبعا لذلك، وبسبب ذلك - علماء هذه الأمة صياغة متميزة كذلك.

«تجريبيون - مؤمنون».. و «روحانيون - ماديون» ! .. فنجت حياتنا الفكرية والعلمية من ذلك «الفصام النكد» بين «النظر و «التجريب» بين «العمل الذهني» و«العمل اليدوي».. بين «الشرعي» و«المدني»..

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

فـالدين : وضـع إلهـي .. يسـوق الإنسـان لعبـادة الله ولعمـران الكـون. مسـتعينا فـي ذلـك كلـه بكتـابي «الوحـي» و«الوجـود».

ومن هنـا :

● كان أبو الوليد بن رشد (٥٢٠هـ - ٥٩٥هـ / ١٢٢٦م - ١١٩٨م) يفزع الناس إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتـواه فـي الطـب!.. فـهو الطبيـب المجـرب.. والفقيـه الأصولي المتكلـم.. الحكيـم!.. إنـه صـاحب (كتاب الكليات) - في الطب - و (بداية المجتهد ونهايـة المقتصد) - في الفقه - و (مناهج الأدلة في عقـائد الملـة) و (فصـل المقـال فيمـا بـين الحكمة والشريعة من الاتصال) - في علم الكلام والتوحيد.

● وكـان ابـن سـينا، أبـو علـي الحسين بـن عبـد الله (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ/ ٩٨٠م - ١٠٣٧م) «الشـيخ الرئيـس» فـي «الشـرعي» و«المدني» .. في «الإلهيـات» و «الطبيعيـات».. فـي «التصـوف» و«النبات والحيوان» و «الهيئة»! فمن آثاره في الطـب (القـانون).. وفـي الحكمـة والإلهيـات (الشـفاء) و(المعـاد) و (أسـرار الحكمـة المشرقية).. وفي التجريب والطبيعة: (النبات والحيوان) و (الهيئـة) و (أسباب الرعد والبرق).. إلخ.

● وكان البغـدادي أبـو منصـور عبـد القـاهر بـن طـاهر (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) - وهو الذي اشتهر بإبداعاته المتميـزة فـي أصـول الديـن - المبرز في الحساب.. وفي الهندسـة!.. حتـى لقـد قـالوا: إنـه كـان يُدرس في سبعة عشر فنا!.. ومن آثاره: (أصـول الديـن) و (وتفسـير

القرآن) و (معيار النظر) و (التكملة في الحساب) و (رسالة في الهندسة).. إلخ.

● وكان الخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم (٥١٥هـ/ ١١٢١م) اللغوى.. الشاعر.. والفيلسوف.. المؤرخ.. والرياضي.. الفقيه.. والمهندس.. الفلكي!.. ولقد بقيت لنا من آثاره (مقالة في الجبر والمقابلة) و (شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس) و (الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة في جسم مركب منهما) و (الرباعيات) و (الخلق والتكليف).. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامي في تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، ومعرفة علمائها.

● وكان الفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م) الإمام في علوم الدين والدنيا جميعا.. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه في: المعقول.. والمنقول.. وعلوم الأوائل».. ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: «مفاتيح الغيب» - في تفسير القرآن الكريم و «معالم أصول الدين»، و «لوامع البينات في شرح أسماء الله الحسنى والصفات» و «الخلق والبعث» في التوحيد وأصول الدين، و «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» و«نهاية العقول» و«البيان والبرهان» - في الفلسفة - و «المباحث المشرقية» - في التصوف - و «السر المكتوم» - في الفلك - و «النبوات» - في النبوة والرسالة - و «النفس» - في

علم النفس - كما أبدع في الهندسة «كتاب الهندسة» و «كتاب مصادرات إقليدس».. إلخ.

هكذا تجسّد توازن وتكامل مصادر المعرفة، في المنهج الإسلامي. وتوازن تكامل أدوات وسبل تحصيلها، في هذا المنهج.. هكذا تجسّد في العلم الإسلامي، وفي العقل الإسلامي، وفي تراث علماء الإسلام.. فكان الاشتغال بجميع العلوم، «الشرعي» منها و «المدني»، و «النظري» منها و «التجريبي»، عبادة وقربة إلى الله، وامتثالا لأوامره وتكليفاته.. فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الإلهية في العمران البشري، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذي استخلفهم خالقهم لإقامته في هذا الوجود.. وفيهما معا، وبهما جميعا يكتشفون آيات الله، سبحانه وتعالى، في الأنفس والآفاق.. فيظل العلم، بهذا المنهج في المعرفة، الباب المفتوح دائما وأبدا لاكتشاف الحقيقة في عالم الشهادة، ودعم قواعد الإيمان بالله وعالم الغيب!.. وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[١].

وإذا كانت هذه هي سمات وثمرات التكامل في منهج «إسلامية المعرفة».. وفي المعارف والعلوم التي أثمرها هذا المنهج.. وفي العلماء الذين التزموه في إدراك وتحصيل هذه المعارف والعلوم.. فلقد كان طبيعيا أن تكون الصورة سلبية وشائهة على جبهة الحضارة التي اختل فيها ميزان هذا المنهج.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

ومن منا لا يدرك ذلك دون كثير عناء إذا هو قارن بين هذا التكامل الذى أشرنا إليه على الجبهة الإسلامية، وبين واقع النهضة العلمية الغربية، ذات المنهج الحسى والمادى فى المعرفة.

● لقد كان التقدم العلمى، فى علوم الدنيا، نقضا وإنكارا للوحى والدين.. حتى لقد قادت الاكتشافات العلمية هناك أصحابها إلى «تأليه الإنسان».. فصاح بعضهم تلك الصيحة المنكرة - المعبرة عن هذا الخلل - فقال: لقد مات الله - تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا! -.

● وكان الكثير من ثمرات هذا المنهج المختل - القائم على ساق المعرفة الحسية وحدها - وخاصة فى العلوم الإجتماعية والإنسانية - ثمرات معتلة.. ففى الوقت الذى زعموا لها حياد ودقة وموضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية، رأينا اكتساح التطور لها كما تكتسح الصحة والعافية العلل والأمراض!.. لقد أثمر هذا المنهج الأعوج مذاهب وفلسفات ونظريات، كانت أقرب إلى «الأمراض الفكرية» وإلى «الفجر - الكاذب»، الذى سرعان ما يتوارى، حتى وإن بهر بعض الأبصار.

وأثمر ألوانا أخرى من المذاهب والفلسفات، كانت تعبيرا خاصا عن أمراض أو ملابسات غربية خاصة.. ومع ذلك، فلقد زعموا لها «العلمية» و «الموضوعية» و «الحيادية» .. فذهبوا يفرضونها على البشرية جمعاء.

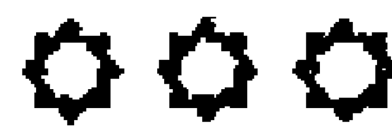
وبسبب من الطابع المادى والحسى لمناهج المعرفة فى هذه النهضة الغربية الحديثة، فلقد تصور الغرب أن هيمنته على الشعوب المستضعفة، وتدميره للبنية الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمعاتها، ومسخه ونسخه

وتشويهه لموروثها ومعرفتها.. ظن ذلك لها «رسالة حضارية» بدفع الرجل الأبيض ضريبة نشرها في العالمين.

وبسبب من هذا الطابع الحسي والمادي، أيضا. كانت التطبيقات الغربية لثمرات عبقريته في العلم الطبيعي.. كانت تطبيقاتها في دمار البيئة وتلويثها والاخلال بتوازنها.. وكما عد قهره للأمم الأخرى «رسالة حضارية» .. فلقد اعتبر العدوان على الطبيعة «رسالة حضارية» أخرى! جعل من عبارات: «قهر الطبيعة » و«السيطرة عليها» و«تسخيرها للإنسان» عناوين عليها.

ولأن هذا المنهج الحسي والمادي، لا يعترف بغير الواقع المحسوس، ولا يؤمن بغير عالم الشهادة فلقد أثمر «الدهرية» التي لا ترى للحياة الإنسانية مقاصد غير «الوفرة المادية» التي تحقق للإنسان لذاته وشهواته. التي لاتتناهى عند حدود!.. وبواسطة القسوة العنيفة، والصراع الذي لا يعرف القيود..

لقد أثمر هذا المنهج في المعرفة الغربية علوما ومعارف ومذاهب تحقق للإنسان «قوة المفترس» الذي يأكل في سبعة أمعاء بينما عجزت عن تحقيق الإشباع الروحي لهذا الإنسان، فاختل توازنه عندما لبت له حاجات الجسد، دون حاجات الروح.. حتى لقد أدى هذا الخلل إلى تهديد الجسد ذاته بالدمار، لغياب دور الروح في ترشيد الإشباع المادي لجسد هذا الإنسان.



إن ما أشرنا إليه من تحولات جديدة في فلسفة العلم الغربي المعاصر.. تحولات عن حسية المعرفة وماديتها .. هي حوافز لمزيد من ثقتنا بمنهجنا

الإسلامى المتميز فى المعرفة.. لابد وأن تدفعنا إلى مزيد من الجهد. لبلورة المنهج ـ منهج إسلامية المعرفة ـ وصياغة علومنا الإنسانية وفلسفة علومنا الطبيعية وفقا له.

وإن ما نشهده من سقوط وتراجع الكثير من مذاهب الغرب ونظرياتـه، التى بهرت الأبصار لعقود عديدة من الزمن.. سقوطها وتراجعـها، كحال الفجر الكاذب، وكشأن الأمراض التى تكتسحها الصحـة والعافيـة.. لهو حافز آخر لمزيد من الجهد الذى يجب أن يبذل فى هذا الميدان.. وإلا فَمَنْ ذا الذى لا يكتشف فى سقوط وتراجع «الماركسية»، و«الداروينية»، و«الوجودية»، و«الفرويدية»، والكثير من مذاهب ومناهج البحث والنقد فى الفنون والآداب.. من ذا الذى لايكتشف فى ذلك ووراءه خلل حقيقى وأكيد فى المنهج المادى والحسـى للمعرفة التى أثمرت هذه المذاهب والنظريات؟!.. ويرى فى هذا تـأكيدا وإلحاحا على ضرورة بلورة المنهج البديل؟!..

لقد ظلمنا بجمودنـا وتقليدنـا لـ«تخلفنا الموروث» المنهج الإسلامى المتميز فى المعرفة، عندما وقفنا عند تراث عصر تراجعنا الحضـارى.. ولم نول المنهج القرآنى فى المعرفة، الذى واجه به علماء عصر نهضتنا مذاهب المعرفة الحسية عند الأمم والنحل الأخرى.. لم نوليه ما هو أهل له من الاهتمام.

وظلمنا هذا المنهج الإسلامى، مرة أخرى بتقليدنـا «للنموذج الغربى» فى نظرية المعرفة.. فحلت الوضعية والمادية والتجريبية ـ بمعانيها الغربية ـ واحتلت المكان الأرفع فى علومنا الإنسانية والاجتماعية، وفى فلسفة علومنا الطبيعية.

ولقد كان هذا التقليد ــ لتخلفنا الموروث .. وللوافد غير العلمى، وغير الملائم ــ السبب الأول فى فقرنا الشديد فى الإبداع.

وما كان لأمة أن تبدع فى علوم حضارتها المتميزة، إلا إذا هى بلورت منهاجها المتميز فى المعرفة.. وإذا كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة مدعوة إلى بلورة «بديلها الحضارى»، كدليل لنهضتها المنشودة، وذلك حتى لا تسقط فى هاوية «التبعية» و«الاستلاب الحضارى».. أو تضل الطريق.. فإن المدخل إلى هذا الإنجاز هو «إسلامية المعرفة» حتى يأتى هذا «البديل إسلاميا» حقا.. فقضيتنا، إذن قضية «إسلامية المعرفة» – هى جزء من «مشروع حضارى بديل» وليست مجرد قضية ثقافية خاصة بدوائر المثقفين والمفكرين..

إنها قضية أمة تريد أن تنهض، فى مواجهة تحديات شرسة.. وقضية دين، أنعم الله علينا بأن هدانا إلى التدين به..

وقضية حضارة صاغ أسلافنا العظام علومها ومعارفها بهذا المنهاج..

ولن يصلح البديل الحضارى الإسلامى المعاصر، الذى نريد به مواجهة الخلل المعرفى الحديث، إلا بما صلح به البديل الحضارى الإسلامى الأول، الذى واجه به أسلافنا الخلل المعرفى القديم.

إنها قضية«قديمة – جديدة» .. تمثل واحدة من أبرز القسمات التى تميز ويتميز بها الإسلام.. الدين.. والحضارة.. على غيره من النحل والفلسفات والحضارات.

إن «إسلامية المعرفة» تعنى : «حضارة ــ مؤمنة» تقوم على «عقلانية . متدينة» ، يبدعها «علماء ــ هم أكثر الناس خشية لله»..

● وإذا كانت « الوضعية الغربية » ، التي عزلت « المعرفة » عن «الدين.. والوحي.. ونبأ السماء» .. بل وجعلت « الدين: وضعا بشريا»!.. إذا كانت هذه « الوضعية » قد أثمرت ــ وأثمرها ــ نموذج فيلسوفها «أوجست كونت».. ذلك الذى قطع المحاضرات التى بدأ إلقاءها سنة ١٨٢٦م (الفلسفة الوضعية) ــ وهى التى كونت «مؤلفه الرئيسى» ــ قطعها بسبب إصابته بمرض عقلى!.. أعقبه محاولته الانتحار غرقا فى نهر السين سنة ١٨٢٧م لفرط اليأس والقنوط..

والذى تعرف على «كارولين ماسان» ــ وهى بغى ــ فساعدته أثناء احترافها للبغاء!.. ثم تزوجها!.. فلما انفصل عنها هام حبا بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة البوليس ــ هو «كلوتيلد دى فو»، فكان حبه لها ــ كما يقول مؤرخو فكره ــ السبب فى اتخاذ كتاباته طابعا جديدا. فقال بخضوع العقل للقلب!.. ودعا إلى «تعاليم الدين الوضعى»[1]..

إذا كان هذا هو حال «علم» و «علماء» المعرفة الحسية، و «الفصام النكد» بين «الأرض والسماء» .. بين «الكون والوحى» .. بين «الدنيا والآخرة» .. بين «المدنى والشرعى» ..

● فإن لإسلامية المعرفة شأنا آخر، وثمرات مغايرة، ونماذج من العلماء مختلفين..

لقد كان عالمنا أبو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠هـ ــ ١٤٤هـ/ ٦٩٩م ــ ٧٦١م) فارسا من فرسان الثورة فى سبيل الشورى والحرية والعدل.. وصرحا من صروح العقلانية الإسلامية التى واجهت مقولات الشرك

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٦٦، ٢٦٧.

والزيغ والإلحاد.. وفى ذات الوقت كان الرجل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال!.. ويشير الناس إليه، إذا رأوه، قائلين: «هذا خير الناس»..

إنه «الثائر» الذى يقول: «إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب»

والفيلسوف العقلانى، الذى يدعو ربه فيقول: «اللهم اغننى بالافتقار إليك! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك!.. اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة!»..

وهو القائد المطاع فى قومه وأنصاره.. والذى يحج إلى بيت الله الحرام، سيرا على قدميه - من البصرة إلى مكة - أربعين مرة، فى أربعين عاما.. يمشى على قدميه، وخلفه بعيره، يحمل عليه الفقراء والضعفاء![1]..

هذه هى «بضاعتنا».. وتلك «بضاعة» الوضعيين - الماديين.

إنه نسق فكرى متكامل.. وبديل حضارى متميز لإعادة التوازن الذى أصابه الخلل بالانحراف «الحسى» و«المادى» ذلك الذى أقام «الوضعية.. المادية» العرجاء!..



(١) انظر دراستنا عنه، بكتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٦٠ - ١٧٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

المصادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة :

«صحيح البخارى » طبعة دار الشعب ـ القاهرة

«صحيح مسلم» طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

«سنن الترمذى » طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م

«سنن النسائى» طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م

«سنن أبى داود » طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م

«سنن ابن ماجة » طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

«سنن الدارمى » طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

«مسند الإمام أحمد» طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ

● الكتب المطبوعة :

آدم متز : (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

ابن جلجل : (طبقات الأطباء والحكماء) تحقيق : فؤاد سيد، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ابن القيم : (إعلام الموقعين) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م، (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

ابن منظور : (لسان العرب) طبعة دار المعارف ـ القاهرة.

البلخى ، والقاضى عبد الجبار، والحاكم الجشمى : (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق : فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

التهانوى : (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩٢م

الجرجانى (الشريف) : (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م

جيوم : (الفلسفة وعلم الكلام) ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ ــ ضمن كتاب (تراث الإسلام).

روبرت م . أغروس ، جورج ن . ستانسيو : (العلم فى منظوره الجديد) ترجمة كمال خلايلى . طبعة الكويت سنة ١٩٨٩م.

حسين مؤنس (دكتور) : (أطلس تاريخ الإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م

روزنتال (م) ، يودين (ب) : (الموسوعة الفلسفية) ترجمة : سمير كرم، طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

زكى نجيب محمود (دكتور) (إشراف) : (الموسوعة الفلسفية المختصرة) . طبهة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

سانتيلانا : (القانون والمجتمع) ترجمة جرجيس فتح الله : طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م ضمن كتاب (تراث الإسلام).

الطهطاوى (رفاعة رافع) : (الأعمال الكاملة) ج٤- دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م

عبد الوهاب الكيالى (دكتور) (إشراف) : (موسوعة السياسة) طبعة بيروت سنة ١٩٨٣م.

مجمع اللغة العربية ـ القاهرة : (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م. (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م

محمد أمزيان : (منهج البحث الإجتماعى بين الوضعية والمعيارية) ـ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى . واشنطون سنة ١٩٩٢م.

محمد عمارة (دكتور) : (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م . (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م

محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة

مراد وهبة (دكتور) ، يوسف مراد ، يوسف شلالة : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

نلينو : (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ترجمة : د. عبدالرحمن بدوى طبعة القاهرة ضمن كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥

هارى . و هازارد : (أطلس التاريخ الإسلامى) ترجمة إبراهيم زكى خورشيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

وينسنك (أ . ى) ـ وآخرين : (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف) طبعة ليدن ١٩٣٦م – ١٩٦٩م

اليونسكو : (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م

فهرس

الموضوع — الصفحة

تمهيد 5

الفصل الأول شعار جديد لمضمون قديم.. .. .. ١٩

الفصل الثاني التعريف .. والضبط للمصطلحات ٢٣

الفصل الثالث أمثلة .. وتطبيقات ٢٩

الفصل الرابع النموذج القرآنى لإسلامية المعرفة ٥٣

الفصل الخامس وبعد الفتوحات الإسلامية ٨١

الفصل السادس والبديل للوضعية الغربية الحديثة ٩٣

الفصل السابع وقسمة فى مشروعنا الحضارى البديل ١٠٣

المصادر.. .. .. ١١٩

العدد القادم

العالم العربى
عند مفترق الطرق

دكتور محمد نعمان جلال

في المكتبات

المسلمون والنظام العالمى الجديد

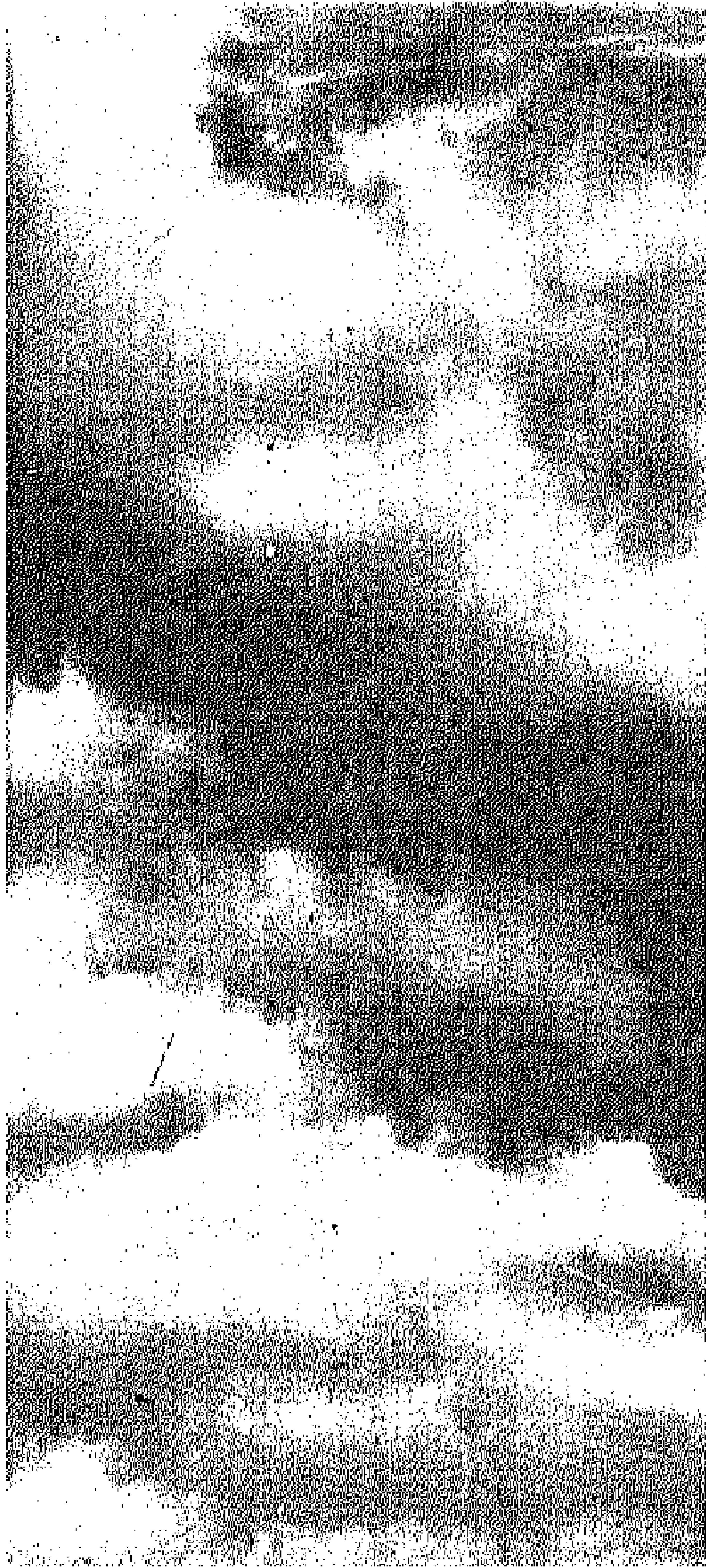
د. عبد الله الأشعل

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

رقم الإيداع	١٩٩٩/٧١٧٠	
الترقيم الدولى	977-02-5834-2	ISBN

١/٩٩/٣٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

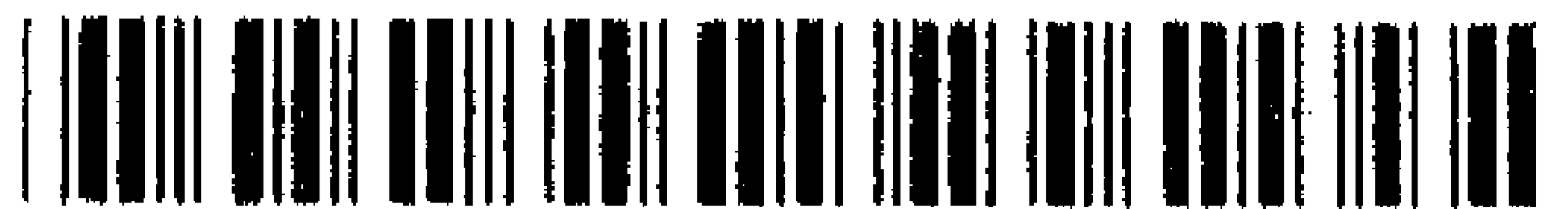


هل هناك علاقة بين الإسلام والمعارف الإنسانية ؟
إن الكثيرين لا يجادلون فى وجود فلسفة مادية، وعلم إجتماعى ماركسى، وسياسات ليبرالية- أى وجود علاقات للمرجعيات الوضعية بالمعارف الإنسانية- لكنهم يرفضون هذه العلاقات إذا كانت المرجعية هى الإسلام!!
وهناك من يخشى أن تعنى إسلامية المعرفة وجود كيمياء مسلمة وأخرى كافرة!
وهناك من يتوهم أن إسلامية المعرفة هى تزيين العلوم الغربية بآيات من القرآن الكريم! وللحوار مع كل هؤلاء، وصولاً إلى كلمة سواء، يصدر هذا الكتاب.



رالمعارف

٤٠٧٠١٨/٠١



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور محمد نعمان جلال

العالم العربي عند مفترق الطرق



دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

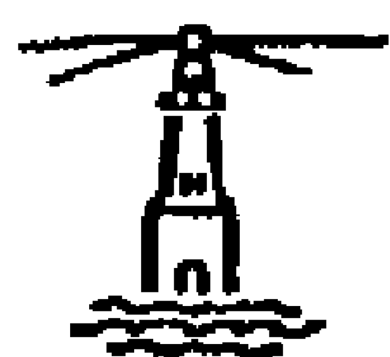
[٦٤٣]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

دكتور محمد نعمان جلال

العالم العربى عند مفترق الطرق



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

فى ديسمبر عام ١٩٧٧ كتبت مقالاً بعنوان «هل آن الأوان لمواجهة الواقع» تناولت فيه تحليل الوضع العربى الراهن آنذاك ، والقضية الفلسطينية ، والدور المصرى. إلا أن هذا المقال لم يقدر له النشر واحتفظت به ضمن أوراقى الخاصة ربما لأن الأفكار التى طرحتها لم تكن تلائم المرحلة ، أو كانت تعد هرطقة سياسية ، ولكن خلاصة تلك الأفكار هى الدعوة لضرورة إعادة الوعى للشعب الفلسطينى ليتولى بنفسه تقرير مصيره ، ورفع الوصاية العربية عنه ، وكذلك أهمية اضطلاع مصر بدور قيادى فى العالم العربى ، ليس هو دور الشقيقة الكبرى ، الذى يتردد كشعار أحيانا ؛ إنما هو دور يقارب ما يوصف به دور رئيس الوزراء فى النظم البرلمانية ، إنه الأول بين متساوين ، خاصة فى ظل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم العربى ، دور ينبع من التراث والحضارة ، إنه يمكن أن يكون دور القاطرة أو دور صاحب المبادرة ، إنه ليس دورًا يقوم على الفرض والإملاء ، أو على التراجع والانزواء ، كما طالبت فى ذلك المقال بعبور داخلى مصرى لإصلاح الأوضاع والقضاء على البيروقراطية والروتين ، وإفساح المجال لتعدد حقيقى للأحزاب والآراء ، حيث يمكن الانطلاق لغد أفضل ، وإقامة بنيان أكثر رسوخا واستقرارًا.

وأشعر وأنا أعود لهذا المقال فى مطلع عام ١٩٩٩ ، الذى وجدته صدفة وأنا أقلب أوراقى ، أن كثيرًا مما كنت أفكر فيه قد تحقق ،

ولكن فى نفس الوقت أدرك أننا ، كعرب أولا وكمصريين ثانيا ، ما نزال نقف على أعتاب مفترق طرق ، بعد أن عصفت التغيرات الدولية والإقليمية بكثير مما كنا نعتقد أنه من الثوابت ، وفى نفس الوقت لم يتطور فكرنا ومنهجنا العملى بما يتلاءم مع المتغيرات ويستوعبها ، وأخشى ما أخشاه أنه إذا لم نجد البوصلة السليمة ، للتأكيد على هويتنا وهى واضحة ولا لبس فيها ، وإنما عليها غلالة من التراب والشك ، وبلورة دورنا وهو غير محدد ، ويعتريه حالة من تأثير سيولة المتغيرات الدولية ، وصياغة فكرنا وهو الذى أصابه بعض التشويش بفعل فترات من القمع والقهر ، أقول: إنه فى هذه الحالة يخشى أن يكون تهميش وضعنا ، وتحولنا إلى حالة جديدة من التبعية هو المصير الذى ينتظرنا ، ما لم نضع الخطة السليمة ، ونجعل العمل هو القيمة العليا لتقييم الأفراد فى المجتمع ، وما لم نساير المتغيرات وفى مقدمتها تلك المتعلقة بإعلاء مفهوم حقوق الإنسان والديمقراطية ، وما لم ندرك طبيعة أمننا القومى بمفهومه الشامل وبلورة خطة للتعامل مع ذلك . آخذين فى الحسبان كافة هذه الاعتبارات والمتغيرات.

لقد حاولت جهدى أن أبحث فى تلك الموضوعات المتصلة بنا كأمة ، وبدورنا ، وبعلاقاتنا مع دول الجوار ، ولست أزعم أننى أقدم فلسفة ، أو أطرح حلولاً ، وإنما أسعى فقط للتعريف ببعض القضايا المتصلة بنا كعرب ، وبدورنا ، ونحن على أعتاب القرن

الحادى والعشرين. وقصارى ما أتطلع إليه هو إثارة الاهتمام بهذه القضايا ، فإذا كان التوفيق حليفى فهذا من فضل الله ، وإن حدث أى تقصير فى التحليل أو فى إدراك أبعاد القضايا فإن ذلك مسئوليتى وحدى.

ولا شك أن هذه الدراسة تقوم على الإيمان بالانتماء إلى أمة عربية، وأن هذه الأمة لها دورها التاريخى ، ليس استنادًا إلى مفاهيم غيبية أو مثالية ، وإنما انطلاقا من اعتبارات موضوعية تاريخية وثقافية ، واعتبارات مصلحية اقتصادية وسياسية وأمنية ، ومع هذا فإن هذه الأمة العربية ما تزال تعانى من الخلاف والاختلاف ، من التجزئة والتشرذم وهذا يرجع لطبيعة مرحلة التطور الاجتماعى والاقتصادى من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرجع إلى دور النخب والقيادات السياسية والفكرية كما يرجع من ناحية ثالثة لتأثير العوامل المتصلة بالسياسة الدولية ومصالح القوى المسيطرة فى العالم. وأيا كانت الأسباب ومهما كانت العقبات فإن ذلك لا ينبغى أن يحجب الرؤية الصحيحة ، أو أن يدفعنا إلى حالة من اليأس ، وإنما علينا أن نعمل دائبين ، غير مكترثين بالصعوبات والعقبات ، التى ينبغى أن نحللها بموضوعية ، وأن نعالجها بالتدريج لنبنى لبنة فوق لبنة ، لعل الصرح يكتمل يوما ما ، وإذا انهار لسبب أو لآخر ، فإن الأجيال التالية سوف تدرك أننا بذلنا الجهد ، وأن مسئوليتهم أن يواصلوا العطاء لاستكمال البنيان.

لا شك أن الجيل الذى أنتمى إليه عاش فى خضم الحركة والفكر والنشاط المتصل بالمد القومى العربى هذا المد كانت له أبعاده المتنوعة من سياسية واقتصادية وفكرية ، وباختصار أنه كان دعوة لبناء الأمة أو ما يطلق عليه البعض الآن المشروع القومى العربى. وهذا الجيل يواجه الآن مأزق الوضع الراهن ، ولذا فهو لا شك يعانى مما نراه من حالة التردى والتمزق فى عالمنا العربى فى هذه اللحظة التاريخية. ويطرح التساؤل الملح والمستمر والمختلط بمشاعر متنوعة هل يمكن إعادة اللحمة من جديد أو هل يمكن السعى لبناء روابط عربية مهما بدت محدودة وجزئية إنها تشكل لبنات فى بناء كبير لعله يتحقق يوما ما فى المستقبل أو على الأقل فإن الأمل كبير فى إيقاف حالة التردى والتدهور الحالية وخاصة حالة الإحباط النفسى التى تصيب الكثيرين.

وأبادر للقول بان النظام العربى لا شك يواجه مأزقا حقيقيا وقبل أن نحلل أسباب هذا المأزق وكيفية الخروج منه علينا أن نكون صرحاء غاية الصراحة فى نقد أنفسنا ، أمناء غاية الأمانة فى تشخيص الداء ، واقعيين غاية الواقعية فى رسم خطط المستقبل.

ولعل الصراحة تقتضى أن نقول: إن كثيرًا من المثقفين العرب لم يؤدوا دورهم كما ينبغي وانقسموا شيعًا على أحسن الفروض واستراح بعضهم لبريق المال وإغراءات السلطة والمنصب ، ومن هنا تصارعوا مع بعضهم البعض ، كل فريق من المثقفين ناصر فريقًا من ذوى السلطة والسلطان مما دفع المفكر الكويتى د. محمد الرميحى لكى

يكتب مقالا فى جريدة الحياة فى ١٩٩٤/١١/١٧ ينعى فيه هذه الحالة بعنوان: «المثقفون العرب هل هم فى حاجة إلى تثقيف؟». ولم يقدر للمجتمع العربى أن تظهر لديه شخصيات من بين المثقفين ورجال الفكر السياسى يسمو حقيقة على المطامع والأهواء على غرار «مونيه» داعية الوحدة الأوروبية أو على غرار «جاك ديلور» ودوره فى العمل من أجل الاتحاد الأوروبى.

ومن باب الأمانة نقول إن عجز كثير من المثقفين قاد إلى عجز النظم واهتزاز القيم ، فخرج الجيل الحالى ليجد نفسه ممزقًا ما بين تيارات متصارعة ، وهزائم متلاحقة ، وتخلف مستمر ، وشعارات لم تتحقق ، فظهر ما عرف باسم أزمة الانتماء أو اغتراب الشباب والمثقفين دون أن يقدر لجيل الثمانينات والتسعينات اكتشاف طريق حقيقى للأمل والتطلع للمستقبل ، وازداد الأمر سوءًا إن بعض المثقفين عادوا يطرحون التساؤل حول أساسيات مثل: الانتماء العربى والنظام العربى والأمن العربى وكأننا نعود القهقرى ، فى حين أن العالم كله ينطلق للأمام بالدعوة للتكتلات السياسية والاقتصادية ، ونحن نحلم ونفكر ونتصرف بعقلية عصر الطوائف والملل والنحل التى جلبت الكوارث على الأمة العربية والإسلامية.

إنه من واقع معايشتى لهياكل النظام العربى ومؤسساته المتعددة ولنصوصه ومواثيقه أقول: إنه لا تنقصنا هذه الهياكل ، ولا تنقصنا المواثيق ، وإنما ينقصنا المصداقية ، وتنقصنا الإرادة والعزيمة ، إن ما ينقصنا فى المقام الأول هو القيم العملية الحقيقية التى يجب أن نربى عليها الجيل لعل الأمور تنصلح فى المستقبل.

إننى ألمس فى قاهرة المعز لدين الله ما أطلق عليه البعض «ألف مكلمة ومكلمة» استعارة مما يقال: إن بالقاهرة «ألف مئذنة مئذنة». كثيرًا من الندوات ومراكز الأبحاث والأوراق ، ولا يخامرنى أدنى شك أن بعض البلاد العربية بها ندوات مماثلة ، ولكن يمكن القول: إن قليلين هم الذين يحرصون على تنفيذ تلك الأفكار العظيمة ، أو حتى يقرءون ويحللون ، قد يقال: إن المثقف أدى دوره بطرح فكره وتصوره للمستقبل ، وفى تقديرى المتواضع ، أن هذا لا يكفى ، إن المثقف عليه أن يسعى لوضع أفكاره موضع التنفيذ وأن ينقلها إلى صاحب القرار ، يحاوره ويجادله حتى يقنعه. كثيرة هى الأفكار المثالية التى يطرحها المثقفون ويستريح ضميرهم بهذا ، ولكن هذا لا يكفى ، إن المطلوب أن يتفاعل المثقف بعقلانية وواقعية مع البيئة التى يعيش فيها ومع صانع القرار قبل أن يتخذ القرار ، وأن يؤثر على الحركة السياسية ، وعلى الأحزاب والتنظيمات أن تعمل من أجل تغيير الواقع العربى بأسلوب ديمقراطى من خلال العمل السياسى الحقيقى.

أما عن الهياكل المؤسسية العربية الكثيرة فلابد من إعادة النظر فيها وتقليصها واستبعاد ما يمثل الازدواجية وانعدام الفعالية وتحويل جامعة الدول العربية إلى إطار حقيقى للعمل العربى المشترك ، كما يجب أن تعيد جامعة الدول العربية النظر فى أسلوب عملها ووضعية موظفيها وحصيلة أدائهم لعملهم وكذلك أن تعيد الدول العربية تقييم موقفها من قرارات الجامعة العربية وتنفذ ما يتفق عليه بإخلاص ، وتعترض على ما لا توافق عليه بشجاعة ، حتى إذا ما تم اتخاذ قرار

ما فلابد من الالتزام به وتنفيذه كاملا على نحو ما يحدث فى الاجتماعات الأوروبية.

إن القادة العرب عليهم أن يدركوا أن حركة التاريخ ومسيرته تربط مصير هذه الأمة بعضها ببعض ، ولكى يعيشوا فى إطار التاريخ وليس على هامشه أو خارجه ، فلابد من أن تتحد كلمتهم وقراراتهم ، وأن يدرسوا بدقة المتغيرات التى حولهم والتحديات التى تواجههم وأن يرسموا الطريق للخروج من هذا المأزق ، وليس هناك من يستطيع أن يفرض إرادته وسلطته على رجال السياسة سوى المثقف العربى المدرك حقيقة دوره ، والواقع التاريخى الذى يعيش فيه ، والمستقبل الذى يتطلع إليه ، ومن هنا فإننى أدعو المثقفين قبل غيرهم أن يتحركوا ويضطلعوا بدور اللوبى الضاغط لتحقيق الوئام العربى وتجميع الصفوف وبعث العمل العربى المشترك وتنشيطه ودفعه دفعا لتحقيق ولو الحد الأدنى من الآمال العربية المشتركة ، وبدون مبالغة أو زهو فإن على المثقف المصرى مسئولية خاصة فى الاضطلاع بدور الريادة للمثقفين العرب فى تجميع الصفوف وحفز الهمم وليس ذلك أمرا سهلا لاعتبارات عديدة منها تعدد الانتماءات الفكرية للمثقفين ، ومنها المعاناة المعيشية والارتباط بمصادر متعددة للدخل ، ولكن من الضرورى المحاولة ، وقرع الأجراس للتحذير من المخاطر القادمة قبل أن تقرع الأجراس لنا عندما يصبح الخطر حقيقة محدقة بل ماثلة.

من هذا المنطلق الفكرى والمرتبط بالأزمة والمأزق العربى الراهن أعددت هذه الدراسة والتى تنقسم إلى الفصول الخمسة التالية :

الفصل الأول: طبيعة المتغيرات فى عالم اليوم.

الفصل الثاني: موقف الأمم المتحدة من القضايا العربية.

الفصل الثالث: تحديات المستقبل أمام جامعة الدول العربية.

الفصل الرابع: الموقف العربى من قضية حقوق الإنسان .

الفصل الخامس: البعد الاقتصادى فى العمل العربى المشترك.

ويرجع اختيار هذه الموضوعات للدراسة إلى ارتباطها الوثيق بالمتغيرات فى عالم اليوم والحاجة لتحليل الوضع العربى من خلالها بهدف إثارة الاهتمام بالحالة الراهنة غير المرضية وغير المطمئنة لعل ذلك يكون حافزا لإعادة التفكير من قبل القيادات السياسية والنخب الفكرية والجماهير الشعبية فى وسيلة للخروج من المأزق.

ويمثل البعد الاقتصادى وحقوق الإنسان جوهر الأزمة فى العالم العربى، أما الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية فإن الهدف من تناول موقفهما هو بيان وضع المنظمة الدولية والمنظمة الإقليمية من تلك القضايا وغيرها ذات الصلة بإعداد العالم العربى للقرن الحادى والعشرين فى ضوء خبرة أكثر من نصف قرن من حياة هاتين المنظمتين.

وتأتي هذه الدراسة لتتكامل مع دراسة سابقة بعنوان »مستقبل الأمن العربي« وبهذا فإنه يحدوني الأمل أن أكون قد قدمت صورة شاملة أو شبه شاملة عن العرب فى البيئة الدولية المتغيرة. وهم فى مفترق الطرق على أعقاب القرن الحادى والعشرين وكم أكون فى غاية السعادة إذا بدأ كسر طوق الحلقات المفرغة التى يسير فيها العمل العربى المشترك .

الفصل الأول

طبيعة المتغيرات فى عالم اليوم

لن نعرض تفصيلا لهذه المتغيرات وإنما سنكتفى بالإشارة الموجزة لعدد منها ودلالات ذلك وانعكاساتها على وضع العالم العربى ، ولقد برزت تلك المتغيرات خلال الربع قرن الأخير ، وازدادت بروزا فى السنوات العشر الأخيرة على وجه التحديد.

المتغير الأول: تحلل الاتحاد السوفيتي وانهيار الكتلة الاشتراكية وهو الحدث الجلل الذى تفاعل على الساحة الدولية منذ صعود جورباتشوف إلى سدة السلطة فى الاتحاد السوفيتي وبلغ قمته وأوجه فى عام ١٩٩٧ بموافقة دول حلف شمال الأطلنطى (الناتو) على انضمام بعض دول أوربا الشرقية للحلف وبذلك أعلن رسميا إسدال الستار على الانقسام الحاد فى العالم . ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل أعلن الرئيس الروسى يلتسين بأنه قرر عدم توجيه صواريخ بلاده نحو دول حلف الأطلنطى.

ولعل التساؤل المطروح من الذى يهدد روسيا الاتحادية الآن؟ وما جدوى تسلحها بأسلحة حديثة؟ والتساؤل الثانى ما أثر ذلك على منطقة الشرق الأوسط وبالأحرى على العالم العربى؟

لقد أصبح واضحا تمام الوضوح أن الاتحاد الروسى قد استسلم تماما للقوة الغربية العسكرية والاقتصادية والسياسية وأنه يسعى لإثبات حسن نواياه يوما بعد يوم سواء فى سلوكه اليومى فى

المنظمات الدولية أو فى مواقفه فى المؤتمرات والمحافل الدولية أو فى تصريحاته وإعلاناته الرسمية.

ومع هذا فإنه لا يجب أن نشطب الاتحاد الروسى تماما من حسابات القوى الدولية فإذا كان القرن التاسع عشر شهد إطلاق اسم رجل أوربا المريض على الإمبراطورية العثمانية فإن العقد الأخير من القرن العشرين يشهد إطلاق رجل أوربا المريض على روسيا الاتحادية ولكن شتان ما بين الحالتين فتركيا أو الدولة العثمانية كانت أوروبية فى الموقع وليس فى الروح والحضارة ، ولذلك فرغم سقوط الدولة أو الإمبراطورية العثمانية وتحول تركيا إلى العلمانية فإن أوربا ما تزال لم تقبلها عضوًا كاملاً فى داخلها لاختلاف التراث الحضارى فى المقام الأول. ولكن روسيا الاتحادية رغم مرضها فإن الدول الغربية تسعى لمساعدتها ولضمها لأوربا لأن روحها الحضارية وتراثها السياسى والدينى واحد أو متشابه على أقل الفروض ، كما أن روسيا كانت عضوًا فى الوفاق الأوروبى European Concert منذ بداية القرن التاسع عشر ومن هنا فإن التنافس بينها وبين الدول الأوربية الأخرى هو تنافس فى إطار العائلة الأوربية بخلاف وضع تركيا فالتنافس والاختلاف بين أطراف متغايرة حضاريا وثقافيا.

ومن ثم فلا عجب أن نجد موقف الاتحاد السوفيتى بالمبادرة بالاعتراف بقيام إسرائيل عام ١٩٤٨ لا يختلف كثيرًا عن موقف روسيا الاتحادية بتعزيز علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع إسرائيل عام ١٩٩٨ وفى تقديرى أن منطق المصلحة القومية هو الدافع

الرئيسى فى كلتا الحالتين ، وأما موقف الاتحاد السوفيتى فى فترة المد القومى العربى بالتحفظ فى العلاقات مع إسرائيل فكان هدفه السعى للمصلحة القومية الروسية أكثر منه إيمانا بعدالة القضية العربية أو الفلسطينية ولا تثريب عليه في ذلك فالسياسة مصالح أكثر منها مبادئ وإن رفعت الدول كثيرًا شعارات المبادئ كحلية فى إطار العلاقات العامة فى المجال الإعلامى والسياسى الدولى.

وتأثير هذا المتغير انعكس على الوضع العربى فى حالات عديدة ولعل فى مقدمتها الحسابات الخاطئة لنظام صدام حسين فى غزوه للكويت وتصوره أن الاتحاد السوفيتى سيستخدم الفيتو أو انه سينذر التحالف المضاد له على غرار ما حدث عام ١٩٥٦ مع مصر وكذلك انعكس أثره فى التسلح العربى والقرارات السياسية العربية الخاصة بالسلام فى الشرق الأوسط وهذه أمور واضحة تمام الوضوح ليست فى حاجة إلى مزيد يكفى الإشارة إلى أن روسيا كرئيس مشارك فى عملية السلام ليست فى الحقيقة سوى مراقب أو متفرج على اللعبة.

المتغير الثاني: سيطرة القطب الأوحد على مقاليد السياسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى العالم واتجاهه لفرض قِيَمه ومفاهيمه ومثله وسياساته ومواقفه على شتى دول العالم.

ورغم هذا فإن الأمور الدولية لم تستقر تماما والصراعات لم تختفِ، بل يمكن القول: إن الصراع الدولى انتقل من المستوى العالمى بين الكتلتين إلى مستويات ثلاثة أدنى من ذلك من حيث الاتساع والشمول وإن لم تكن أقل خطورة من حيث استمرار النزيف البشرى.

المستوى الأول هو بين الدول التى خرجت من رحم الكتلة الاشتراكية السابقة مثل تفكك يوغسلافيا الاتحادية فى إطار عملية صراع عرقى دموى بلغ ذروته فى البوسنة ثم كوسوفو وعجز المجتمع الدولى عن وقف عملية إبادة الجنس التى تعرض لها المسلمون فى البوسنة واستمرار ذلك عدة سنوات مليئة بالمخازى للأمم المتحدة وللدول الكبرى وخاصة أوربا التى انتقل الصراع إلى أطرافها ولما بلغ اليأس مداه تدخل العملاق الأوحد بتسوية مفروضة وتتسم بالغموض فى إطار اتفاق دايتون للسلام ما زال يمثل تسوية هشة يمكن أن تنفجر فى أية لحظة ، ويمكن أن ينضم لهذا النمط من الصراعات ذلك الذى يدور فى طاجيكستان من حرب أهلية وفى الصومال ورواندا وبوروندى وليبيريا والكونغو وأفغانستان.

المستوى الثانى بين الدول المتجاورة والتى انشغلت فى حروب أو تسابق للتسلح فيما بينها ، وهناك عدة دول فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فضلا عن الصراع بين أرمينيا وأذربيجان.

المستوى الثالث هو صراع ذو بعد اقتصادى بين دول الشمال المتقدمة ودول الجنوب النامية واتضاح عجز النظم السياسية والاقتصادية فى دول الجنوب عن الوفاء باحتياجات شعوبها وفى نفس الوقت عدم رغبة دول الشمال فى تقديم مساعدة حقيقية وميلها لاستخدام هذه المساعدات لأهداف سياسية.

ويتمثل انعكاس هذا المتغير على الشرق الأوسط فى العجز عن إتمام تسوية مرضية للقضية الفلسطينية وعدم تحقيق تقدم فى

المباحثات السورية اللبنانية الإسرائيلية وفى التوتر بين دول المنطقة مما يهدد باحتمالات غير منظور حسابها بدقة خاصة فى ظل استمرار التشدد الإسرائيلى ، وتغذية التطرف المتمثل فى حزب الليكود وعدم اتخاذ القطب الأوحد موقفا يضمن احترام وتنفيذ الاتفاقيات المعقودة بين الإسرائيليين والفلسطينيين ويحقق جدية العملية التفاوضية من أجل سلام عادل تتم فيه الالتزامات المتبادلة والمتوازنة لإقامة شرق أوسط جديد ، عبر عن التطلع له بعض قادة المنطقة. وصبت إليه نفوس شعوبها ولكن فى ظل عدم الحزم فى مواجهة التطرف الإسرائيلى وعدم ضمان التحرك لمواجهة الجمود فإن احتمالات اندلاع العنف بصورة أو بأخرى قائمة ومحتملة مما يهدد الموقف فى المنطقة بأسرها.

المتغير الثالث: سعى المجتمع الدولى وبخاصة القوى الاقتصادية الكبرى للتكتل فيما بينها وبخاصة تجمع الاتحاد الأوروبى وتجمع النافتا وتجمع الآسيان وهذه التجمعات تضم دولا متقدمة أو نمورا ناشئة وأصبحت هذه التجمعات نقاط جذب عالمية عبر وسائل متعددة بحيث أضحت دول معينة مهددة بأن تترك فى العراء وكذلك أضحت مناطق أخرى عاجزة عن تفعيل مؤسساتها الاقتصادية ، ولعل فى التجمعات الاقتصادية والسياسية العربية خير مثال على هذا العجز والإخفاق مما يعكس ضعف الإرادة السياسية وقلة الإدراك لمخاطر استمرار التمزق والخلافات وعدم توافر التفكير العقلانى المنطقى. ويمثل هذا المتغير أخطر المتغيرات على الشرق الأوسط لأن

الضعف الاقتصادى ينعكس فى ضعف سياسى وهاجس أمنى وهما بدورهما يزيدان الضعف الاقتصادى من خلال استنزاف الموارد المتاحة فى أغراض الدفاع والحماية من الأعداء الحقيقيين أو الوهميين بدلاً من بلورة استراتيجية تعاون اقتصادى يزيل مخاوف الأمن ويعزز البنيان السياسى للكيانات الصغيرة.

المتغير الرابع: هو بروز القيم الجديدة الخاصة بحقوق الإنسان وسعى الغرب لفرض مفاهيمه وتفسيراته على المستوى العالمى. وكذلك قضايا البيئة والمخدرات والإرهاب وهذه القضايا متداخلة ومتشابكة وبخاصة قضيتى المخدرات وغسيل الأموال والإرهاب وتأثيراتهما على مناطق عديدة.

المتغير الخامس: ظهور دعوات لمفاهيم الصراع الحضارى فى القرن الحادى والعشرين ، ومن ذلك تلك الأفكار التى يروج لها صامويل هننجتون عالم السياسة بجامعة هارفارد وبخاصة ما يتعلق بالنظر للإسلام باعتباره عدو الغرب الأول بعد سقوط الشيوعية. هذا فضلا عن ارتباط ذلك بظاهرة المد الأصولى الإسلامى واتخاذه وسائل العنف لتحقيق أهدافه. ولا شك أن تخوف الغرب له مبرراته التاريخية منذ الحروب الصليبية ، وله مبرراته الحديثة لاستخدام بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة العنف والإرهاب كوسائل لتحقيق أهدافها سواء فى الصراع الوطنى المتمثل فى بعض الدول العربية الإسلامية والذى بلغ ذروته فى دولة مثل الجزائر والتى يلقى

أبرياء مصيرهم المشئوم يوميا، وكذلك أفغانستان التى أصبحت رمزا لأن تأكل الثورة ليس فقط أبناءها بل وأيضا شعبها في صراع قبلي وطائفي لا نظير له ولكن من الإنصاف أن نقول إن موجة التطرف الدينى ليست قاصرة على الدول الإسلامية بل تمتد لدول هندوسية أو مسيحية كأيرلندة وإلى إسرائيل حيث يتم تدليل الجماعات اليهودية المتطرفة ، وهذا كله يمثل خطورة على منطقة الشرق الأوسط ذات الحساسيات الدينية المفرطة ، وذات الاحباطات السياسية والقومية وذات العجز الاقتصادى والمعاناة المستمرة ولعل وضع الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة هو خير دليل على ذلك.

والتساؤل المطروح هو حول دور النظام العالمى والتنظيمات الإقليمية فى مواجهة هذه المتغيرات ، ورغم المحاولات لتقديم حلول أو اقتراحات بحلول ، فإن التوصل لمثل هذه الحلول العملية مازال أمرا لم يتحقق ويحتاج لإرادة دولية وإرادة إقليمية وإرادة وطنية لرسم استراتيجية ناجحة لمواجهة هذه المتغيرات.

المتغير السادس: ثورة التكنولوجيا والاتصالات وهذه الثورة البالغة التقدم والمتطورة باستمرار وبسرعة فائقة أصبحت تضع معظم دول العالم فى مصاف الدول الفقيرة والتى تعيش على فتات التكنولوجيا وفى نفس الوقت أصبحت سماواتها مفتوحة أمام الأقمار الصناعية للبث الإعلامى وما تحتويه من قيم ومفاهيم وسلوكيات لا تراعى الحساسيات والخصائص الإقليمية ، ويزيد من مخاطر ذلك

أن قوى الإرهاب والمخدرات أصبحت تستخدم وسائل التكنولوجيا والاتصالات الحديثة بدرجة تفوق إمكانيات الكثير من الدول النامية.

تلك هى أبرز المتغيرات فى عالم اليوم الذى يستعد لدخول القرن الحادى والعشرين حيث يسود الجهل والفقر والمرض معظم ما يسمى بدول العالم النامى وتسود التكنولوجيا لدى قلة من دول العالم.

الفصل الثانى

الأمم المتحدة والقضايا العربية

لقد كانت وما زالت الأمم المتحدة تمثل المنبر العالمى الذى تستطيع أن تلجأ إليه كافة دول العالم على قدم المساواة على الأقل من الناحية الشكلية ، لتعبر عن آرائها وسياساتها وتوجهاتها فى شتى القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية. وتنشغل أجهزة الأمم المتحدة المتعددة بكل ذلك وكان للقضايا العربية قصب السبق والقدح المعلى على منبر المنظمة الدولية وبين كواليسها وداخل أجهزة مختلفة.

ونتناول فى هذا الفصل بإيجاز كيف تطورت معالجة الأمم المتحدة للقضايا العربية وسيتبين لنا فى ثنايا العرض كيف طرأ التغير على هذه المواقف عبر الزمن ونتيجة تأثير المتغيرات العالمية والإقليمية.

المبحث الأول
أهم القضايا العربية فى الأمم المتحدة

عالجت الأمم المتحدة معظم القضايا السياسية والأمنية والإنسانية فى المنطقة العربية ويمكن تقسيم تلك القضايا إلى مجموعات:

الأولى: القضايا الإنسانية ذات البعد الاجتماعى ومنها قضايا المساعدات للمنكوبين فى اليمن ، ومصر، والصومال والسودان وجيبوتى وغيرها نتيجة الزلازل والكوارث الطبيعية ، ويمكن اعتبار قرارات الجمعية العامة منذ الدورة ٣٣ عام ١٩٧٨ بخصوص المساهمة فى تعمير لبنان وتنميتها نتيجة ما أصابها من الحرب الأهلية التى اندلعت منذ عام ١٩٧٥ فى إطار هذه المجموعة. وهذا النوع من القضايا ليس خلافيا ويحظى عادة بتوافق الآراء.

الثانية: القضايا الإنسانية ذات البعد السياسى مثل المساعدات للأكراد فى شمال العراق بموجب قرار مجلس الأمن ٦٨٨ والمعونات للشيعة فى جنوب العراق والمعونات للسودان فى إطار ما سمى خط الحياة life - line operation فى الفترة من ٨٩ – ١٩٩١ ثم بحث الحالة فى جنوب السودان والتى عينت لها الأمم المتحدة مبعوثا خاصا بعد ذلك عام ٩٢ – ١٩٩٣. وهذا النوع من القضايا يتسم بطابع الخلاف بين المنظمة الدولية والدولة المعنية ويحتاج لمفاوضات مستمرة.

الثالثة: قضايا الحروب الأهلية والحالة الرئيسية هنا تتعلق بالوضع فى الصومال. ولكن سبق ذلك الحرب بين ليبيا وتشاد حيث

قدمت تشاد شكوى للجمعية العامة للأمم المتحدة فى الدورة ٤٢ عام ١٩٨٧ وإدراج بند بعنوان «عدوان ليبيا على تشاد واحتلالها له» وإن لم يبحث واكتفى بالمساعى الحميدة والوساطة فى إطار منظمة الوحدة الإفريقية وكذلك بعرض بعض جوانب النزاع على محكمة العدل الدولية.

أما قضية الصومال فقد بدأت بالمساعدات الإنسانية ثم تطورت لتصبح الأمم المتحدة طرفا فى النزاع وموضع اتهام من قبل بعض الفصائل الصومالية.

وهنا نسوق الملاحظات التالية:

١ - إن المسئولية الرئيسية للأزمة الصومالية نبعت من الصراع الداخلى بين الصوماليين أنفسهم ليس فقط فى صراع الصوماليين ضد حكم سيادبرى بل وأيضا فى انقسامهم على أنفسهم بعد ذلك ومن هنا شكل الوضع فى الصومال مأساة إنسانية بكل أبعادها حيث كان الأفراد يموتون جوعًا وأثار عرض هذه المناظر على شاشات التليفزيون الرأى العام العالمى.

٢ - إن الأمم المتحدة تدخلت فى المرحلة الأولى من خلال أجهزة الإغاثة ولكن عمليات العصابات ونهب المعونات جعلت الأزمة تستفحل مما اقتضى تدخلا عسكريًا من الأمم المتحدة وبخاصة من الولايات تحت شعار استعادة الأمل Restore Hope وهو ما رحبت به كافة الفصائل فى البداية طمعا من كل فصيل للاستفادة من العملية لصالحه.

٣ – إنه وقعت احتكاكات بين عناصر الأمم المتحدة وبين جماعة عيديد مما أدى لتحول الأمم المتحدة من طرف محايد إلى طرف خصم، ولم يوجه لها هذا الاتهام من مجموعة عيديد فحسب بل من فصائل صومالية أخرى ومن ثم أصبحت قوات الأمم المتحدة هدفًا للهجوم من قبل عدة فصائل ، وسعى البعض لتصويرها بأنها قوات احتلال وطالبوا بانسحابها. وبعد صراع تراجعت الأمم المتحدة فى مسعى جديد للعودة للدور المحايد وأصدر مجلس الأمن قرارًا بوقف مطاردة عيديد وأنصاره ودعا لإعادة التحقيق فى حادث مقتل أفراد القوات الباكستانية وسعت الأمم المتحدة لتهدئة الأمور مع مختلف الفصائل.

٤ – إن تداخل العوامل الإنسانية والسياسية لدول الإقليم والقبائل الصومالية وللقوى الخارجية زاد من تعقيد المشكلة.

٥ – إن مختلف قرارات مجلس الأمن الخاصة بالصومال ومنها القرار رقم ٨٨٦ الصادر فى ١٨ نوفمبر ١٩٩٣ أكدت على أن الهدف من عملية الأمم المتحدة هو إعادة السلام والاستقرار فى الصومال وتحقيق المصالحة الوطنية وفقا للاتفاقية الموقعة بين الفصائل الصومالية فى أديس أبابا فى يناير ١٩٩٣ ومؤتمر المصالحة فى مارس ١٩٩٣ ، كما أشارت تلك القرارات أيضا إلى نزع أسلحة الفصائل الصومالية وطالبت بوقف تدفق الأسلحة عبر الحدود وأكدت على المساعدات الإنسانية للشعب الصومالى والتى عقد المؤتمر الرابع لها فى أديس أبابا فى ٢٩ نوفمبر – ١ ديسمبر ١٩٩٣.

٦ – إن الدول العربية شاركت مع الأمم المتحدة فى عملية الصومال وكان أداؤها لحسن الحظ موفقا فى المساعدة ولم يحدث احتكاك خطير بينها وبين الشعب الصومالى وإن تكبدت بعض الخسائر المحدودة.

الرابعة: قضايا التحرر من الاستعمار ومن أبرز مظاهرها حاليا قضية الصحراء وهى من القضايا الخلافية العربية وبخاصة بين الجزائر والمغرب وقد عرضت القضية على الجمعية العامة للأمم المتحدة فى الدورة ٢٩ حيث أصدرت القرار ٣٢٩٢ فى عام ١٩٧٤ بطلب الرأى الاستشارى لمحكمة العدل الدولية بشأن الوضع فى الصحراء الغربية وانتهت المحكمة بقرارها فى أكتوبر ١٩٧٥ بأنها لم تتحقق من وجود أى مبرر يدفعها إلى اقتراح تعديل القرار ١٥١٤ الخاص بتصفية الاستعمار من الصحراء الغربية وبصفة خاصة من تقرير المصير لسكان الإقليم ، وكما هو معروف فإن الخلاف بين وجهتى نظر الجزائر ومؤيديها أن قضية الصحراء من قضايا تصفية الاستعمار ، ومن ثم لابد من تطبيق حق تقرير المصير ، وأن الصراع الدائر هو بين المغرب والبوليساريو. فى حين أن وجهة نظر المغرب أن الصحراء أرض مغربية ولابد من إعادتها للوطن الأم استنادا لنظرية الحقوق التاريخية. وتحظى قضية الصحراء الغربية بمتابعة أكثر عمقا فى مجلس الأمن ومن خلال نشاط السكرتير العام وممثله الشخصى وخططه لتسوية النزاع وإجراء استفتاء ، ولكن الجمعية العامة أصدرت عدة قرارات فى هذا الشأن أيضا.

الخامسة: قضايا الصـراع الدولى: وهنـا تظـهر ثلاثـة أنـواع مـن القضايا:

١ - الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠ - ١٩٨٨ والقضايـا المتصلـة بالحرب العراقية الإيرانية وتنفيذ قرار مجلس الأمن ٥٩٨ لم تنته بعد وإن كانت موضـع مشـاورات هادئـة حاليـا إلا أنـها يمكـن أن تعـود للسطح مرة أخرى ويمكن القول إن الأمم المتحدة عالجت هذه الحرب فى أطر ثلاث:

الأول: مجلس الأمن الذى أصدر قراره ٥٩٨ فى يوليو عـام ١٩٨٧ والذى قبلته العراق ولكن إيران لم تقبله إلا فى أغسطس ١٩٨٨ وأدى ذلك لقبول وقف إطلاق النار وبدء المفاوضات بين الطرفين.

الثانى: المساعى الحميـدة للسكرتير العـام للتوفيـق بين الطرفـين وتقريب وجهتى نظرهما من أجل تطبيق قرار مجلس الأمن ٥٩٨ وقد ارتبط بذلك موضوعات الإشـراف علـى وقـف إطـلاق النـار - تبـادل الأسرى - التعويضات ونحو ذلك. وفى ضوء استقرار العلاقـات بـين الدولتـين واتخـاذ الأمـم المتحـدة إجـراءات لتخفيـض تواجـد قــوات المراقبين على الحدود لتنفيذ باقى عناصر القرار فقـد أنشـأ السـكرتير العام عام ١٩٩٠ مكاتب اتصال للأمـم المتحـدة فـى كـل مـن طـهران وبغداد لمتابعة الاتصالات. وفى أكتوبـر ١٩٩٣ أبلـغ السـكرتير العـام مجلس الأمن بقراره إنهاء تواجد مكـاتب الاتصـال هـذه اعتبـارًا مـن ١٩٩٣/١٢/٣١ وأن تتم هذه الاتصالات من خلال البعثتين الدائمتـين لكل من إيران والعراق فى نيويورك.

الثالث: الجمعية العامة وكانت تبحث منذ الدورة ٣٧ لعام ١٩٨٢ بندا بعنوان الآثار المترتبة على استمرار الصراع بين إيران والعراق وقد أدرج هذا البند بناء على طلب العراق وكانت الجمعية تصدر قرارها بالدعوة لوقف القتال بين الدولتين.

٢ - الغزو العراقى للكويت وما تلاه من التحالف الدولى لتحرير الكويت (أغسطس ١٩٩٠ - مارس ١٩٩١) وما يتصل بهذا الوضع من قرارات سواء فى مجلس الأمن الذى أصدر أكثر من أربعة عشر قرارا فى هذا الصدد أو فى الجمعية العامة التى بدورها أصدرت عدة قرارات تتناول جوانب مثل انتهاك حقوق الإنسان فى الكويت تحت الاحتلال ، انتهاك حقوق الإنسان فى العراق وقد تم تعيين مقررين خاصين لهاتين الحالتين.

وهذا النوع من القضايا يتسم بالعديد من السمات الخاصة ومن أبرزها:

الأولى: أنه لم ينته بعد فما زالت بعض جوانبه تثير الخلافات مثل ترسيم الحدود بين العراق والكويت رغم قبول العراق رسميا بالقرار ٨٣٣ فما تزال الكويت تثير مشكلة المصداقية ، تدمير الأسلحة العراقية ، الرقابة بعيدة المدى على التسلح العراقى - إعادة الممتلكات الكويتية التى استولى عليها العراق ، قضية الأسرى والمفقودين ويذهب بعض المحللين السياسيين إلى أن ما انتهت إليه

القرارات قد لا تحل المشكلة بل تضع بذور صراع جديد فى المستقبل خاصة أن الشعب العراقى ينظر لبعض تلك القرارات بأنها جائزة ويسترجع هؤلاء المحللون للذاكرة معاهدات فرساى التى فرضت شروطا غير مقبولة على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

الثانية: أن الأبعاد القانونية والسياسية متداخلة ومن التساؤلات المتصلة بذلك هل كان تصرف مجلس الأمن بقراراته الخاصة بتفويض دول الحلفاء للقيام بالحرب وخاصة القرار ٦٧٨ تصرفا سليما أم أن به عيوبًا قانونية لأن الأمم المتحدة مهمتها السلام وليس الحرب ، وفى حالة ردع العدوان لابد أن يكون تحت الإشراف المباشر لمجلس الأمن وفقا للمادة ٤٢ وما بعدها.

الثالثة: أن هذا النزاع طرح للمرة الأولى بشكل مكثف تطبيق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ليس فقط بإصدار قرارات ملزمة Mandatory بل وأيضا لها آلية للتنفيذ Enforcement .

الرابعة: أن آثاره لم تقتصر على أطرافه بل على دول عديدة وبعيدة جغرافيا عن منطقة النزاع نتيجة تطبيق الحظر الاقتصادى مما طرح للمرة الأولى موضوع المادة ٥٠ من ميثاق الأمم المتحدة التى تدعو للتشاور بين الدول التى تضار من تطبيق العقوبات.

الخامسة: الارتباط بين أثر حرب العراق – إيران وبين غزو العراق للكويت فيما يتعلق بأمن الخليج. فالقرار ٥٩٨ أشار فى فقرته الثامنة للترتيبات المتعلقة بأمن الخليج ، فى حين أن إعلان دمشق

عام ١٩٩١ كان من بين أهدافه تعزيز التعاون بين دوله ومعالجة مشكلة أمن الخليج وقد أثار ذلك إيران التى كثفت مساعيها فى الأمم المتحدة وفى دوائر عديدة وفى اتصالات ثنائية لمعارضة إعلان دمشق. وقد بلور بعض المسئولين فى الأمم المتحدة فى أوائل عام ١٩٩١ فكرة تعالج ما أسماه الجوانب المختلفة للأمن وتأخذ فى حسبانها اهتمامات ومصالح مختلف الأطراف وإيجاد دور للمنظمة الدولية ، وذهب هؤلاء إلى أن هناك ثلاثة مستويات للأمن:

١ – المستوى العسكرى وهذا يمكن أن تتولاه دول إعلان دمشق إذا قبلت إيران ذلك ولا دور للأمم المتحدة فيه.

٢ – المستوى الاقتصادى وهذا مفتوح لجميع الدول حسب اهتماماتها ومصالحها وقد تلعب دول الخليج المنتجة للنفط مع الدول المستهلكة له دورًا رئيسيا فيه.

٣ – المستوى السياسى والقانونى فى إطار الفقرة ٨ من قرار مجلس الأمن ٥٩٨ وهنا يمكن أن تلعب الأمم المتحدة دور المحفز Catalyst أو المنسق أو الضامن للترتيبات المتعلقة بذلك.

٤ – المشكلات بين ليبيا والدول الغربية وهنا نجد نوعين من المشكلات:

الأولى: قضية العدوان الأمريكى على ليبيا وقد ادرج هذا البند على جدول أعمال الجمعية العامة عام ١٩٨٦ إثر الغارة التى شنتها الطائرات الأمريكية على ليبيا ، وقد أصدرت الجمعية العامة فى

دورتها الـ ٤١ قرارًا بإدانة الهجوم العسكرى ضد ليبيا وطالبت الولايات المتحدة بالامتناع عن التهديد أو استخدام القوة وأكدت حق ليبيا في المطالبة بالتعويض عن خسائرها.

الثانية: قضية الإرهاب الليبى ضد الطيران المدنى والتى تتهم فيها ليبيا بالتورط فى تفجير طائرة UTA الفرنسية فى سبتمبر عام ١٩٨٩ فوق صحراء النيجر وطائرة بأن أمريكا على لوكربى فى اسكتلانده فى ديسمبر عام ١٩٨٨ وقد صدرت ثلاثة قرارات رئيسية من مجلس الأمن فى هذا الشأن ، وهى القرار ٧٣١ والذى دعا ليبيا للاستجابة لمطالب الدول الغربية الثلاثة والقرار ٧٤٨ والذى فرض مقاطعة الطيران الليبى وتخفيض العلاقات الدبلوماسية بين ليبيا ودول العالم والقرار رقم ٨٨٣ الذى بدأ تطبيقه فى أول ديسمبر ١٩٩٣ وفرض مزيدًا من العقوبات على ليبيا وبخاصة بالنسبة للأرصدة الليبية وقطع غيار صناعة البترول.

ويهمنا هنا إبداء الملاحظات التالية:

١ - أنه بينما حظى الموقف الليبى من القضية الأولى أى الهجوم العسكرى الأمريكى ضدها عام ١٩٨٦ بتأييد عالمى فإن موضوع الاتهام بالتورط بتفجير الطائرات المدنية كان له مردود سيئ على ليبيا.

٢ - أنه رغم أن موضوع الاتهام بتفجير الطائرات له أبعاده القانونية والإجراءات الخاصة بمحاكمة مختطفى الطائرات أو المتهمين بأعمال القرصنة الجوية وتنظم اتفاقية مونتريال لعام ١٩٧١

ذلك ، كما أن ليبيا لجأت لمحكمة العدل الدولية في محاولة للتركيز على الجانب القانوني واستخدام الأسلوب القضائي إلا أن مجلس الأمن ركز على الأبعاد السياسية والأمنية وأصدر قراراته دون انتظار لقرارات محكمة العدل الدولية بل أن بعض الفقهاء اعتبروا أن مجلس الأمن أصبح له دور تشريعي بمقتضى تلك القرارات التي لها صفة إلزامية لجميع أجهزة المنظمة الدولية بما في ذلك محكمة العدل الدولية التي عليها النظر في تطبيقها ، ذلك لأن تلك القرارات صادرة في إطار الفصل السابع من الميثاق.

٣ – أن مختلف دول العالم بما فيها الدول العربية وجدت نفسها مضطرة ، بغض النظر عن الآثار والأضرار التي تلحق بها وبغض النظر عن ارتباطاتها وانتماءاتها القومية ، إلى تنفيذ قرارات مجلس الأمن تحت شعار الشرعية الدولية لعدم الرغبة وربما لعدم القدرة على تحمل التبعات المحتملة لتحدى قرارات ملزمة لمجلس الأمن في إطار الفصل السابع ، خاصة أن مسألة الإرهاب الدولى عامة وضد الطيران المدني بوجه خاص من المسائل التي تتم إدانتها من قبل جميع الدول على اختلاف مشاربها.

السادسة: القضايا المتصلة بالنزاع العربي الإسرائيلي في الإطار السياسي العام: وهذا النوع من القضايا متشعب الأبعاد والجوانب واستغرق وقتا طويلا بل أنه برز على جدول أعمال المنظمة الدولية منذ نشأتها وبداية قضية فلسطين التي طرحت على الجمعية العامة ومجلس الأمن عامي ٤٧ – ١٩٤٨ وما تلا ذلك حتى هذه اللحظة.

ويمكن تقسيم هذه القضايا إلى عدة فئات فرعية كالآتي:

الأول: البند المعنون «الحالة فى الشرق الأوسط».

أدرج هذا البند بعد حرب عام ١٩٦٧ واعتماد مجلس الأمن قراره المشهور ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ثم تعيين جونار يارنج ممثلا خاصا للسكرتير العام للشرق الأوسط وفى ١٩٨٩ قام الأمين العام بتعيين إدوارد برونر من السويد (سفيرها فى واشنطن) ممثلا خاصا له بدلا من يارنج. وفى ١٩٩٣ عين الأمين العام بطرس غالى السفير شيميانا جاريكان المندوب الدائم السابق للهند لدى الأمم المتحدة أمينا عاما مساعدا وممثلا خاصا له لمشكلة الشرق الأوسط ومتابعة مساعى السلام والحالة فى الأراضى المحتلة.

ويقدم مشروع قرار شامل فى الجمعية العامة كل عام يتناول مختلف جوانب الأوضاع فى المنطقة وقد بلور المشروع عند تناوله تسوية النزاع في الشرق الأوسط عدة مبادئ أبرزها:

(أ) أن التسوية يجب أن تكون شاملة ولا تتجزأ.

(ب) أنه يجب أن تتم التسوية فى إطار وتحت إشراف الأمم المتحدة ووفقا لقراراتها.

(جـ) أنه يجب أن تكفل التسوية الانسحاب الإسرائيلى الشامل من الأراضى المحتلة بما فى ذلك القدس.

(د) تأكيد رفض أية حلول منفصلة أو ترتيبات أو اتفاقيات تنتهك الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني. وكان ذلك ردا على اتفاقيات كامب دافيد ، وفى مرحلة لاحقه تطور الحديث عن التسوية ليشير إلى قرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وبعد

ذلك أصبح يشير إلى خطة فاس العربية لعام ١٩٨٢/١٩٨١ ، وفى مرحلة ثالثة أشار القرار إلى خطة السلام الفلسطينية التى اعتمدت فى المجلس الوطنى الفلسطينى عام ١٩٨٨ وأخيرًا مرحلة مؤتمر مدريد.

وفى إطار هذا البند اعتادت سوريا أيضا أن تتقدم بقرار خاص بالجولان المحتلة وإن طلبت تأجيل التصويت عليه فى عام ١٩٩١ اتصالا بأعمال مؤتمر مدريد ثم عادت فى العام التالى ١٩٩٢ فطرحته مجددا مع إجراء بعض التعديل فى الصياغات ، كما دأبت المجموعة العربية على التقدم بقرار خاص بالقدس يؤكد على ثوابت الموقف العربى بالنسبة لها.

ويمن القول: إنه منذ أواخر الثمانينات تطورت عناصر قرارات الشرق الأوسط فى مراحل ثلاثة:

المرحلة الأولى: عودة مصر للصف العربى منذ عام ١٩٨٩ حيث ترتب على ذلك إدخال بعض التعديلات على الصياغات الانتقادية لكامب دافيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

المرحلة الثانية: بعد مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ حيث أدخلت تعديلات جوهرية.

المرحلة الثالثة: بعد اتفاق غزة أريحا ١٩٩٣ حيث ضغطت الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة وإسرائيل لتغيير العديد من القرارات بل السعى لإلغائها.

الثانى: البند المعنون «المسألة الفلسطينية»:

أدرج موضوع القضية الفلسطينية على جدول أعمال الدورتين الأولى والثانية للجمعية العامة للأمم المتحدة. ثم على جدول أعمال الدورة ٢٩ عام ١٩٧٤ وهو ما يعنى أن إعادة ادراجه ، جاء تاليًا لبند الشرق الأوسط الذى أدرج عام ١٩٦٧ ، كان بمثابة إحياء لموضوع سبق بحثه وإن كان فى إطار ظروف مختلفة. وتتم مناقشة قضية فلسطين فى الجمعية العامة فى إطار تقريرين أساسيين:

التقرير الأول: تقرير اللجنة المعنية بممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطينى وهذه اللجنة أنشئت عام ١٩٧٦ وتتولى الاضطلاع بعدة أنشطة مثل عقد مؤتمرات واجتماعات وإيفاد بعثات للعديد من الدول لشرح قضية فلسطين. ويصدر عنها نشرات فى المناسبات المختلفة ، وكذلك نتائج مداولات الندوات التى تعقد فى هذا الصدد.

ولعله من الأمور ذات المغزى أن احتفال اللجنة عام ١٩٩٣ بيوم التضامن مع الشعب الفلسطينى ، والذى ينظمه قسم الحقوق الفلسطينية بالأمم المتحدة يوم ٢٩ نوفمبر فى ذكرى صدور قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧ والخاص بتقسيم فلسطين ، قد أشار إلى أن له هدفًا مزدوجا يتمثل فى جذب الاهتمام العاجل لمعاناة الفلسطينيين ، وحشد الرأى العام العالمى لتأييد التسوية السلمية للمشكلة الفلسطينية وتمكين الشعب الفلسطينى من ممارسة حقوقه الثابتة وفى مقدمتها حق العودة وحق تقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة فى فلسطين.

التقرير الثانى: تقرير الأمين العام للأمم المتحدة والذى يقدمه تحت بند الشرق الأوسط ومنذ عام ١٩٨٣ خصص جزءًا من التقرير لموضوع المؤتمر الدولى للسلام فى الشرق الأوسط وهو نتيجة انعقاد المؤتمر الدولى للمسألة الفلسطينية الذى عقد فى جنيف عام ١٩٨٣ وأصدر عدة قرارات فى هذا الصدد.

هذا وتنقسم القرارات الخاصة بالمسألة الفلسطينية إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: قرارات خاصة بمبادئ التسوية للقضية الفلسطينية مثل حق تقرير المصير، حق العودة، تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية على قدم المساواة مع الأطراف الأخرى فى عملية التسوية. رفض اتفاقيات كامب دافيد والحلول الجزئية التى تتجاهل الحقوق الفلسطينية.

النوع الثانى: قرارات خاصة بإدانة إسرائيل وممارساتها سواء القمعية ضد الشعب الفلسطينى أو انتهاك الحرمات المقدسة فى القدس أو أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار أو إغلاق المدارس أو سياسات الأبعاد والطرد ونحو ذلك، وكذلك التأكيد على أن إسرائيل دولة عنصرية وغير محبة للسلام ولا تفى بالتزاماتها بموجب قرار الجمعية العامة ٣/٢٧٣ كذلك القرارات الخاصة بالإشادة بالانتفاضة وانتقاد تعامل إسرائيل معها وذلك اعتبارا من عام ١٩٨٨.

النوع الثالث: قرارات ذات طبيعة تنفيذية وهى تلك المتعلقة بنشاط وكالة الأونروا وتدعيمها وتمويلها، ونشاط إدارة الإعلام فى

الأمم المتحدة ، ونشاط وحدة الحقوق الفلسطينية بالأمانة العامة للأمم المتحدة وهى وحدة أبحاث ومتابعة لتنفيذ قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة. كذلك قرار الاعتراف بإعلان دولة فلسطين الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٨ واستعمال اسم «فلسطين» فى الأمم المتحدة اعتبارا من ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ بدلا من «منظمة التحرير الفلسطينية» دون المساس بمركز المراقب لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكذلك القرارات الخاصة بشجب نقل البعثات الدبلوماسية للقدس انتهاكا لقرار مجلس الأمن رقم ٤٦٥ لسنة ١٩٨٠.

النوع الرابع: القرارات الخاصة بآلية التسوية: وقد تمثلت فى القرارات الخاصة بالدعوة لعقد مؤتمر دولى وقد صدر أول قرار فى هذا الشأن فى دورة عام ١٩٨٣ ودعا لأن يعقد المؤتمر الدولى فى موعد لا يتعدى عام ١٩٨٤ وقد بلورت قرارات لاحقه كيفية عقد المؤتمر الدولى بأن تشكل لجنة تحضيرية فى إطار مجلس الأمن يشترك فيها الأعضاء الدائمون لاتخاذ الإجراءات الكفيلة لعقد المؤتمر (قرار رقم ٥٨/٣٨ ج) وكذلك مطالبة السكرتير العام للأمم المتحدة بالدعوة للمؤتمر المذكور ، ومنذ عام ١٩٨٢ ظهرت عناصر بخصوص التسوية مثل:

(أ) الدعوة لتشكيل لجنة استقصاء وتقييم الخسائر الناتجة عن الممارسات الإسرائيلية.

(ب) الدعوة لوضع الأراضى المحتلة لفترة انتقالية قصيرة تحت إشراف الأمم المتحدة حتى يتم خلالها ممارسة الشعب الفلسطينى لحقه فى تقرير المصير (القرار ٨٦/٣٧ هاء).

ويهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى عـدة ملاحظـات تتعلـق ببحـث القرارات الخاصة بفلسطين والشرق الأوسط فى المنظومة الدولية بوجه عام وفى الأمم المتحدة بوجه خاص.

الملاحظة الأولى: أنه يجرى بحث القضيـة الفلسـطينية فـى أكـثر من بند من بنود جدول أعمال الجمعية العامة وفى أكثر من لجنة من لجانها بل وفى مختلف التنظيمات المتصلة بالمنظومة الدوليـة ، وقـد انعكـس المـد والثقـل العربـى والفلسـطينى فـى المجـالين السياسـى والإعلامى فى المجتمع الدولى على وضـع قضيـة فلسطين فـأصبحت تبحث مثلا قضية المرأة الفلسطينية عند بحث قضايا المـرأة ، قضيـة الشباب الفلسطينى عنـد بحـث قضايـا الشـباب ، الاعتـداءات علـى المقدسـات فـى الأراضـى المحتلـة عنـد بحـث ممارسـات الاحتـلال الإسرائيلى أو فى اليونسكو عند بحـث الموضوعـات الخاصـة بالآثـار والتراث ومسألة الحالة المعيشية للشعب الفلسطينى تحـت الاحتـلال تبحث فى منظمة الأغذية والزراعة وفى الأمـم المتحـدة وفـى برنـامج الأمم المتحدة الإنمائى. كما يبحث اليونسيف وضع الطفل الفلسطينى وكذلك تبحث لجنة حقوق الإنسان عدة أمور متصلة بانتـهاك حقـوق الإنسان الفلسطينى والعربى فى الأراضى العربية المحتلة.

الملاحظة الثانية: أنـه مـع حـدوث زخـم أو تزاحـم فـى اللجـان والاجتماعات المتصلة بعملية السلام فى الشرق الأوسط وبخاصـة منـذ توقيـع اتفـاق المبـادئ الفلسـطينى الإسـرائيلى نشـطت الدبلوماسـية الإسرائيلية للحصول على المكاسب فى الساحة الدوليـة قبـل أن يتـم تنفيذ الاتفاق ويمكننا أن نشير لبعض تلك المكاسب:

١ – إقامة إسرائيل لعلاقات دبلوماسية عادية مع كل من الصين والهند وتطور علاقاتها مع العديد من الدول الآسيوية والأفريقية واللاتينية..

٢– السعى لتغيير أو تعديل أو إلغاء عدة قرارات تتصل بقضية الشرق الأوسط وقضية فلسطين أو عدم التصويت عليها على أساس أن المناخ الجديد لا يتمشى مع اعتماد القرارات التقليدية..

الملاحظة الثالثة: رد الفعل العربى للتحرك الإسرائيلى تمثل فى التجاوب من حيث المبدأ لإدخال تعديلات على القرارات بما يتمشى مع الظروف الجديدة دون التخلى عن العناصر المتصلة بمبدأ التسوية أو بالحقوق الفلسطينية على أساس أن هذه المبادئ تمثل المرجعية لمباحثات السلام من ناحية كما انها من ناحية أخرى تمثل الملاذ فى حالة إخفاق عملية السلام..

الملاحظة الرابعة: أن الولايات المتحدة وروسيا بصفتهما راعيا عملية السلام قدمتا عام ١٩٩٣ مشروع قرار تحت بند الشرق الأوسط حول تأييد الاتفاق الفلسطينى الإسرائيلى والترحيب بعملية السلام والسعى للحصول على تأييد كافة الدول وفى مقدمتها الدول العربية. وقد أثار ذلك رد فعل غير موات من قبل الدول العربية وبخاصة الوفد الفلسطينى خشية أن يكون الهدف من وراء ذلك هو السعى غير المباشر للدعوة لإلغاء القرارات الأخرى أو لعدم طرحها للتصويت اكتفاء باعتماد القرار المؤيد لعملية السلام..

الملاحظة الخامسة: أن الولايات المتحدة بتأثير من إسرائيل أبدت إحجاما عن التقدم بمشروع القرار الخاص بالأونروا والذى اعتادت التقدم به سنويا منذ عام ١٩٤٨ وكان يشير إلى القرار ١٩٤ الخاص بحق العودة للفلسطينيين ويعد هذا الأمر تغييرا جوهريا فى الموقف الأمريكى، ولاشك أن هناك ارتباطا بين القرار رقم ١٩٤ الخاص بحق العودة والقرار ٣٠٢ لعام ١٩٤٩ الخاص بإنشاء الأونروا ودورها لاضطلاع الأونروا بمهمة تسجيل اللاجئين الفلسطينيين والبالغ عددهم حاليا حوالى ٢,٨ مليون لاجئ وهذا يخلق لهم حقوقا سياسية وقانونية بموجب الاتفاقيات الدولية فى هذا الصدد ويؤكد على حقهم فى العودة أو التعويض، ومن هنا فإن عدم طرح أو إلغاء هذه القرارات يمثل خطورة بالنسبة لقطاع هام من الشعب الفلسطينى ويؤثر سلبيا على عملية التفاوض إذ سيعد بمثابة تنازل جديد لإسرائيل فى مرحلة لم تظهر فيها ثمار السلام فيما يتعلق بالجانب الفلسطينى. وهذا يذكرنا بالمكسب الذى حققته إسرائيل بعد انعقاد مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ بإلغاء قرار الجمعية العامة رقم ٣٣٧٩ الصادر فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ والخاص بمساواة الصهيونية بالعنصرية..

السابعة: المسائل المتصلة بالنزاع العربى الإسرائيلى فى قضايا محددة:

وهنا نجد تنوعا فى هذه القضايا ونعرض بإيجاز لأهمها:

١ - قضية المستوطنات فى الأراضى المحتلة:

وقد اعتبرت الأمم المتحدة أن إقامة المستوطنات عمل غير شرعى ولذا أدانت الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى سياسة المستوطنات الإسرائيلية وأعلنت بطلانها باعتبارها تتنافى مع اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بوضع المدنيين تحت الاحتلال..

أما مجلس الأمن فقد أصدر بدوره عدة قرارات منها القرار رقم ٤٦٥ الذى يطالب فيه بوقف المستوطنات فى الأراضى المحتلة بما فى ذلك القدس.

وفى الدورة الـ ٤٠ للجمعية العامة بحثت تقريرا عن أحوال معيشة الشعب الفلسطينى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة وأعربت عن رفضها للخطط والإجراءات الإسرائيلية الرامية لتغيير التكوين الديمغرافى للأراضى المحتلة مما يؤدى إلى تشريد الفلسطينيين وخروجهم من أراضيهم. وقررت عقد ندوات وحلقات دراسية حول المشاريع الإنمائية فى الأراضى المحتلة. وتقديم تقارير فى هذا الصدد عن طريق المجلس الاقتصادى والاجتماعى..

واعتمد القرار الخاص بأحوال معيشة الشعب الفلسطينى فى الدورة ٤٠ بأغلبية ١٥٨ ضد ٢ (الولايات المتحدة وإسرائيل) وتتالى صدور مثل تلك القرارات بعد ذلك..

٢ - قضية القدس:

حظيت قضية القدس باهتمام خاص من الأمم المتحدة ليس فقط فى إطار الجمعية العامة حيث صدرت العديد من القرارات التى

تدين اعتداءات إسرائيل على الأماكن المقدسة والأثرية وغيرها في القدس بل أيضا صدرت عدة قرارات من مجلس الأمن حيث كانت قضية القدس الشرقية بوجه خاص موضع اتفاق عام من الدول دائمة العضوية..

أول قرار تناول القدس كان قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ الصادر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ والخاص بالتقسيم ودعا إلى جعل القدس منطقة مستقلة منفصلة تحت إشراف دولى Corpus Seperatum وتلا ذلك قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ فى ديسمبر ١٩٤٨ ورقم ٣٠٣ فى ديسمبر ١٩٤٩ وهما يؤكدان على تدويل القدس ولكن إسرائيل استولت على القدس الغربية وأعلنتها عاصمة لها فى يناير ١٩٥٠، كما قامت الأردن بضم القدس الشرقية مع الضفة الغربية فى إطار المملكة الأردنية الهاشمية بناء على قرار مؤتمر أريحا عام ١٩٥٠..

وبعد حرب يونية ١٩٦٧ استولت إسرائيل على القدس الشرقية وأصدر مجلس الأمن قراره رقم ٢٥٢ فى ٢١ مايو ١٩٦٨ الذى نص على اعتبار جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية والأعمال التى قامت بها إسرائيل فى مصادرة الأراضى والأملاك التى من شأنها تغيير الوضع القانونى للقدس إجراءات باطلة وطالب إسرائيل بالتراجع عنها..

وفى عام ١٩٦٩ أصدر مجلس الأمن قرار رقم ٢٧١ لسنة ٦٩ بإدانة جريمة حريق المسجد الأقصى، وفى عام ١٩٨٠ أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٤٦٥ لسنة ١٩٨٠ برفض ضم إسرائيل للقدس كذلك

أصدر القرار رقم ٤٧٦ فى عام ١٩٨٠ بإدانة إسرائيل لتماديها فى تغيير الطابع العمرانى للقدس..

٣ - القرارات الخاصة بحق تقرير المصير ومنع التمييز العنصرى:

وهذه القرارات ارتبطت فيما بينها واتسمت بعدة سمات:

الأول: أن هذا الموضوع طرح لأول مرة عام ١٩٤٩ بناء على شكوى الهند بشأن قيام جنوب أفريقيا بإصدار تشريعات ضد سكان جنوب أفريقيا من ذوى الأصل الهندى وقد أدرج كبند مستقل منذ الدورة السابعة عام ١٩٥٢ ثم جرى بحثه فى مجلس الأمن عام ١٩٦٠..

الثانى: أنه مع تعاظم دور المجموعة الأفريقية فإنها أصبحت تعد القرارات الأساسية فى هذا الموضوع وتساندها الدول العربية وباقى دول عدم الانحياز..

الثالث: أن التركيز الأساسى لهذه القرارات كان موجها نحو قضايا الجنوب الأفريقى وعلى وجه الخصوص كان قضية ناميبيا (قبل الاستقلال) م جنوب أفريقيا للقضاء على النظام العنصرى فيها..

الرابع: أن الدول العربية بصفتها الطرف أو الشريك الأصغر كانت تحرص على:

(أ) الربط بين الأوضاع فى فلسطين والأوضاع فى جنوب أفريقيا..

(ب) إبراز التشابه بين النظامين العنصريين فى جنوب أفريقيا وإسرائيل..

(جـ) إبراز التعاون النووى بين جنوب أفريقيا وإسرائيل..

الخامس: فى مرحلة المد الثورى فى الستينات والسبعينات لم تكن هذه القرارات ولا المواقف العربية تجد صعوبة فى الاستجابة لها ولكن منذ بداية الثمانينات بدأ التأييد الأفريقى يقل وأصبحت عملية الربط بين جنوب أفريقيا وإسرائيل تجد صعوبة كبيرة ويتم تخفيف الصياغات ثم انتهى الأمر إلى حذفها فى بداية التسعينات نتيجة عدة عوامل منها:

(أ) تغير مواقف الدول الأفريقية من جنوب أفريقيا وظهور مجموعة من الدول الأفريقية على علاقات مع جنوب أفريقيا ولذا حرصت تلك المجموعة على معارضة أية صياغات متشددة..

(ب) إحساس الدول الأفريقية بخيبة أمل فى نتائج التعاون العربى الأفريقى فى الثمانينات وكانت تأمل فى مزيد من المساعدات العربية بعد أن قطعت علاقاتها بإسرائيل..

(جـ) تزايد الضغوط الغربية والنشاط الإسرائيلى فى أفريقيا فى الثمانينات..

(د) ظهور ضعف عربى وانقسامات عربية مما أثر على الموقف العربى بوجه عام..

٤ - القرار الخاص باعتبار الصهيونية صورة من صور العنصرية والمعروف بمساواة الصهيونية بالعنصرية:

أصدرت الجمعية العامة فى دورتها الثلاثين عام ١٩٧٥ القرار رقم ٣٣٧٩ تحت عنوان «إزالة جميع صور التفرقة العنصرية» ويتناول القرار الوضع فى جنوب أفريقيا وغيرها وجاء فى فقرته التنفيذية الوحيدة «تقرر أن الصهيونية صورة من صور التمييز العنصرى» وقد صوت لصالح القرار ٧٢ وعارضته ٣٥ دولة، وامتناع ٣٢ دولة..

ونظراً لأن هذا القرار كان يمثل طعنا فى جوهر الفلسفة الصهيونية التى تعتبرها إسرائيل حركة تحررية من أجل إقامة دولتها المستقلة وتساندها فى هذا المنطق العديد من الدول وباصة الغربية لذا فقد سعت الولايات المتحدة وإسرائيل وأنصارهما للضغط لإلغاء هذا القرار، رغم أنه كان يعتبر من الناحية الفعلية غير قائم منذ عام ١٩٨٠ حيث لم يستذكره أى قرار آخر من قرارات الأمم المتحدة، إلا أنه بقى قانونيا فى سجلات المنظمة الدولية حتى تم إلغاؤه عندما أصدرت الجمعية العامة قرارها رقم ٤٦/٦٨ بتاريخ ١٩٩١/١٢/١٦ والذى نصه يقرر إلغاء الحكم الوارد فى قرارها ٣٣٧٩ (د٣٠) المؤرخ ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ وقد صوت لصالح القرار ١١١ وضده ٢٥ وامتناع ١٣ وعدم مشاركة ١٧ دولة، واعتبرت عملية الإلغاء سابقة قانونية وسياسية خطيرة ولكن نظرا لتغير الظروف السياسية الدولية والعربية فإن القوى الداعية للإلغاء كسبت الجولة، ومن المفيد للتاريخ إلقاء نظرة تحليلية على نتيجة التصويت على المستوى العالمى وعلى المستوى الأفريقي..

(أ) على المستوى العالمى فإن الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة عند التصويت فى عام ١٩٩١ كانت ١٦٦ دولة وكانت النتيجة كما يلى:

المؤيد لإلغاء القرار ١١١ المعارضون ٢٥

الممتنعون ١٣ والمتغيبون وغير المشاركين ١٧

(ب) وعلى المستوى الأفريقى كانت الدول الأفريقية ٥١ دولة:

دولة أفريقية عربية		
المؤيدة ٢٦	—	
المعارضة ٦	٥	
الامتناع ٨	—	
الغياب ١١	٤	
الإجمالى ٥١	٩	

دولة أفريقية غير عربية
٢٦
١ (مالى)
٨
٧
٤٢

(جـ) صوتت الدول الرئيسية فى العالم لصالح إلغاء القرار فالهند ويوغوسلافيا من قادة عدم الانحياز، ودول أمريكا اللاتينية فى معظمها وكذلك الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية والغربية، ولم تشارك الصين فى التصويت أما القلة القليلة من الدول الإسلامية فهى التى صوتت ضد الإلغاء وهى إيران - باكستان - أندونيسيا وبنجلاديش وماليزيا وأفغانستان..

(د) مقارنة الموقف بين عـامى ١٩٧٥ وعـام ١٩٩١ تظـهر دلالـة ذات مغزى:

	القرار فى عام ١٩٧٥	الإلغاء فى عام ١٩٩١
المؤيدون	١١١	٧٢
المعارضون	٣٥	٢٥
الممتنعون	٣٢	١٣
غير المشـارك أو الغـائب	—	١٧

٥ – قضية أوراق تفويض الوفد الإسرائيلي:

تعتمد الجمعيــة العامـة عـادة بشكل روتينـى تقريـر لجنـة أوراق اعتماد وفود مختلف الدول ولكن فـى ١٥ أكتوبـر ١٩٨٥ أرسلت ٥٠ دولة خطابا لرئيس الجمعية العامة تعترض فيـه علـى أوراق تفويـض الوفد الإسرائيلى علـى أسـاس أن الأوراق صـادرة فـى مدينـة القـدس بصفتها عاصمة لإسرائيل وأن هذا مخالف لقـرارات الجمعيـة العامـة ومجلس الأمن ومنها قـرار المجلـس عـام ١٩٨٠ بخصـوص القـدس، وكذلك لأن عدم تنفيذ إسرائيل لقرارات الأمم المتحـدة يجعلـها دولـة غير محبة للسلام ولا تفى بالتزاماتها بمقتضى الميثاق، وطـالبت تلـك الدول برفض أوراق الاعتماد للوفـد الإسـرائيلى وكـان مـؤدى الموافقـة

على هذا التحرك تجميد أو وقف فعلى لعضوية إسرائيل فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. لذا فقد تحركت إسرائيل وأنصارها لمواجهة ذلك الموقف، وبعد اتصالات ومداولات من مختلف الأطراف تم التقدم بمشروع قرار إجرائى على مشروع القرار المقدم من المجموعة العربية ومؤيديها ويدعو المشروع الإجرائى إلى عدم اتخاذ قرار بشأن المشروع العربى وبالفعل صوتت الجمعية العامة آنذاك على المشروع الإجرائى بأغلبية ٨٠ ضد ٤١ وامتناع ٢٠ دولة، واستقر فى الممارسة فى الأمم المتحدة تقليد بأن تتقدم إحدى دول الشمال الأوربى كل عام بالتناوب بمشروع القرار الإجرائى لإنقاذ الموقف بالنسبة لمختلف الأطراف واعتبر الأمر كما لو كان حلا سحريا رغم أن القضية ظلت مطروحة ومثارة كل عام وتمثل عنصر إزعاج لمختلف الأطراف وقد بدأ التراجع الفعلى عن هذا الموقف منذ عامين بالاكتفاء بتسجيل الموقف العربى فى بيان يلقيه رئيس المجموعة العربية فى الأمم المتحدة دون طرح مشروع قرار على التصويت..

٦ - التعاون بين الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية:

أدرج هذا البند من الدورة ٣٦ عام ١٩٨١ حيث أصبح أمين عام الجامعة يدعى لحضور دورات الجمعية العامة كمراقب ودعوة الجامعة للمشاركة فى كافة اجتماعات الأمم المتحدة كمراقب وقد وقع اتفاق تعاون بين المنظمتين فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والإدارية ويستهدف ذلك:

(أ) تنفيذ القرارات السياسية الخاصة بالقضايا العربية..

(ب) عقد اجتماعات مرتين إلى ثلاث بين المسئولين عن المنظمتين لتبادل الرأى ومتابعة التنفيذ..

(جـ) تبادل المعلومات والخبرات والمشاركة فى الحلقات والندوات العلمية والدراسية..

كان هذا الموضوع يواجه عقبات من الولايات المتحدة وإسرائيل اللتين تصوتان ضده لأنه يدعو للتعاون بين الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقضية الفلسطينية والشرق الأوسط وهى قرارات لم تصوت لصالح بعضها الولايات المتحدة..

المبحث الثانى
دلالات التغير فى المواقف

لا شك أن التغيرات العالمية عكست ذاتها كما أوضحنا فى المبحث السابق على تناول القضايا العربية فى المنظمة الدولية وما يهمنا إبرازه فى هذا المبحث هو إلقاء بعض الضوء العام لاستخلاص بعض المعالم والدلالات..

الأول: طبيعة معالجة الأمم المتحدة للقضايا العربية:

ولفهم هذه الطبيعة يجب أن نشير إلى أن هناك خمسة محددات لمعالجة الأمم المتحدة للقضايا العربية تتمثل فى:

الأول: أنه لا يوجد ما يسمى بموقف موحد للأمم المتحدة تجاه القضايا العربية ذلك لأن مجلس الأمن بما فيه من حق النقض (الفيتو) الذى تتمتع به خمس دول، وبما فيه من تقسيم جغرافى غير عادل وغير متوازن للأعضاء غير الدائمين يجعل موقفه مختلفا جوهريا عن موقف الجمعية العامة التى تضم فى عضويتها حاليا ١٨٤ دولة منهم ما يقرب من الثلثين من دول العالم الثالث والتى هى أقرب لفهم وتأييد القضايا العربية..

الثانى: أن موقف الجمعية العامة للأمم المتحدة إزاء القضايا العربية اختلف فى الستينات والسبعينات عنه فى الثمانينات أو فى التسعينات. ومن ثم فليس هناك موقف موحد حتى للجمعية العامة إزاء القضايا العربية عبر مراحل التاريخ..

الثالث: أن موقف العرب أنفسهم اختلف إزاء القضايا العربية من مرحلة تاريخية لمرحلة تاريخية أخرى. فعرب الخمسينات رفضوا قرار تقسيم فلسطين وهو القرار ١٨١ لسنة ١٩٤٧ فى حين أن عرب الثمانينات قبلوا بالقرار المذكور، أما عرب التسعينات فقبلوا ما هو أقل من ذلك بكثير..

الرابع: أنه نظرا لتنوع القضايا العربية وتعددها من مشكلة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وقبلها المسألة المصرية واستقلال لبنان وسوريا فى منتصف الأربعينات، ونشأة قضية فلسطين منذ عام ١٩٤٧ وما تلا ذلك وترتب عليها من تفريعات عديدة ثم حرب ١٩٦٧، وحرب العراق للكويت وما ترتب عليه من قرارات، وهكذا نجد هذه القضايا العربية تشغل أكثر من نصف عمل الأمم المتحدة، لذلك يصعب حصرها فى بحث موجز ولذا قدمنا استعراضا عاما هو بمثابة رسم خريطة للموقف أكثر منه معالجة تفصيلية أو شاملة لمختلف القضايا وأبعادها وتطوراتها..

الخامس: أنه حتى بالنسبة للقضية الفلسطينية فإن معالجة الأمم المتحدة اتسمت بالتنوع والتعدد فى الموضوعات وداخل أجهزة المنظمة الدولية والوكالات المتخصصة..

الثانى: دلالات التغير:

لا شك أن اختلاف المناخ الدولى وبدء عملية السلام فى مدريد وتطوراتها من توقيع الإعلان الإسرائيلى الفلسطينى ومعاهدة السلام

الأردنية الإسرائيلية وتخفيف المقاطعة العربية توطئة لإلغائها كلية وتطور وتزايد الاتصالات العربية الإسرائيلية والنشاط المكثف للدبلوماسية الإسرائيلية عبر القارات المدعومة بالنفوذ والمساندة الأمريكية أحدث ذلك تغيرات واضحة فى معالجة الأمم المتحدة للقضايا العربية كان لها مدلولاتها الهامة والتى منها:

١ – اختفاء أية تعبيرات تشير لإسرائيل بأية نبرة أو دلالة سلبية كما كان فى الماضى مثل العنصرية أو حتى كلمة الصهيونية أو الكيان الإسرائيلى ونحو ذلك وأصبح اسم إسرائيل يرد عاديا وتلقائيا مثل أية دولة أخرى..

٢ – انتفاء أية إشارة تتضمن إدانة أو نقدا ليس فقط لإسرائيل كدولة وإنما أيضا لأى مظهر من مظاهر سياساتها أو مواقفها التى ترى فيها الدول العربية أمرا غير سليم..

٣ – بل أنه أصبح من العسير ذكر اسم إسرائيل فى أى معنى من المعانى السلبية أو الانتقادية حتى وإن كانت حالة النقد هذه يمكن أن توجه إلى أية دولة أخرى مثال ذلك دعوة إسرائيل للانضمام لمعاهدة منع الانتشار النووى أو مطالبة إسرائيل بالتخلى عن الخيار النووى ونحو ذلك ولقد بذلت الدبلوماسية المصرية خلال عام ١٩٩٤ جهدا جبارا لكى تحصل على تأييد ٥٥ دولة دولة لقرار صدر من الجمعية العامة حول التهديدات الخاصة بالأسلحة النووية فى الشرق الأوسط (وهو القرار الذى كان يحمل فى الماضى اسم التهديد من السلاح النووى الإسرائيلى) فى حين عارضته ٥ دول

وامتنعت ٨٢ دولة كان من بينها بعض الدول العربية رغم تغيير عنوان القرار وإدخال تعديلات جوهرية على الصياغة والمفاهيم..

٤ - أنه أيا كانت المواقف فى الأمم المتحدة فإنها بلاشك ليست إلا تعبيرا عن مصالح الدول وهذه المصالح رغم ثباتها فإن أولوياتها والتعبير عن هذه الأولويات ووسائل تحقيق المصالح مختلفة وفقا لأوضاع وموازين القوى العالمية والإقليمية..

٥ - أنه أيا كانت طبيعة التعبير عن المواقف والسياسات فى الأمم المتحدة بشأن القضايا العربية وما طرأ عليها من تغير فى المرحلة الراهنة، وبغض النظر عما يوجه للمنظمة الدولية من جوانب قصور فى تنفيذ بعض القرارات أو استخدام معايير مزدوجة فى النظرة والممارسة فإن المنظمة الدولية تبقى ملاذا آمنا بتسجيل المواقف السياسية لكل دولة، ولتهيئة الأذهان لإحداث تغيير ما، والاضطلاع بمهام ومسئوليات متنوعة وبخاصة من أجل بناء السلام فى الشرق الأوسط والذى تمثل المنطقة العربية قلبه ومحور الحركة فى داخله..

الفصل الثالث

تحديات المستقبل أمام جامعة الدول العربية

أحيانا ما يطرح المواطن العربى وهو فى حالة من اليأس والإحباط، على نفسه التساؤل هل حقيقة هناك رابط يجمع أبناء المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط، وإذا كان هناك مثل هذا الرابط فهل هو مبرر كاف للقول بوحدة المصير والمصلحة فى ظل التنافر والتشاحن والتباغض، الذى عاشته وما تزال تعيشه المنطقة، وهل هذا الرابط قدر على مواجهة التغيرات الإقليمية وتأثير التغيرات الدولية على المنطقة..

وفى تقديرى أن إمعان النظر فى حقائق الأمور الكامنة تحت السطح تظهر أن ما يجمع أبناء هذه المنطقة أكثر بكثير مما يفرقها. ولكن أسلوب إدارة مرحلة التطور العربى المعاصر سواء بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى أو بالنسبة لعملية السلام أو بالنسبة للعمل العربى المشترك كان أسلوبا خاطئا مما نتجت عنه العديد من المثالب من ناحية كما لعبت القوة الخارجية دورها فى تضخيم هذه الأخطاء والعقبات من ناحية ثانية، ولم يقم المثقفون العرب بالدور الكافى كقوة دافعة للتقدم بدلا من مجرد التغنى بالشعارات والسير فى ركاب هذا النظام أو ذاك من النظم العربية من ناحية ثالثة، كما لا ينبغى أن نتجاهل أثر التفاعلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية داخل المجتمعات العربية وما تمخض عنها من توترات

سواء داخل حدود كل قطر عربى أو عبر الحدود من ناحية رابعة، وللدلالة على أثر تلك التفاعلات. يكفى الإشارة لانتقال العمالة وآثارها سواء بالنسبة للدول المستقبلة أو المصدرة، وكذلك حركة اللجوء السياسى وما ترتب عليها من ردود أفعال، وأيضا تأثير طموحات وتطلعات الأقليات في بعض الدول العربية هذا فضلا عن المؤثرات النابعة من المتغيرات الإقليمية مثل تعاظم قوة إسرائيل وتصاعد قوة كل من تركيا وإيران والمؤثرات النابعة من المتغيرات الدولية مثل الحرب الباردة والاستقطاب الدولى سواء فى نشأته أو فى اختفائه وظهور التوجهات الجديدة فى المجتمع الدولى التى تركز على حقوق الإنسان، والديمقراطية، والتنمية البشرية بأبعادها الشاملة كركائز لبناء مجتمع القرن الحادى والعشرين. ولا مراء فى أن ذلك كله يفرض تحديات جسامًا على الوطن العربى بوجه عام، وعلى جامعة الدول العربية بوجه خاص، وهو ما يستدعى التغيير الجوهرى فى أسلوب العمل ومنهجه. ونتناول فى هذا الفصل تحليل ظروف نشأة الجامعة وتطورها والتحديات الراهنة أمامها ونقدم بعض الأفكار حول أسلوب تطويرها ليتسنى لها مواجهة ذلك وزيادة فعاليتها..

المبحث الأول
الجامعة العربية بين ظروف النشأة ودواعي التغيير

لعل إلقاء نظرة على الظروف والعوامل التى أدت إلى إنشاء جامعة الدول العربية فى ٢٢ مارس ١٩٤٥، وتحليل أثر الظروف المتغيرة على الجامعة، تعد المدخل الطبيعي للتعرف على أوضاع الجامعة العربية بصفتها الإطار العام والشامل للعمل العربى المشترك..

أولا: ظروف النشأة:

لقد جاء تأسيس جامعة الدول العربية فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ محصلة لتفاعل ستة عوامل هامة هى:

الأول: الآمال والطموحات القومية العربية التى ظهرت منذ بداية هذا القرن وتعمقت جذورها بين أبناء الشعب العربى فى مختلف الأرجاء مع مضى الوقت، وخاصة بعد قيام ثورة كمال أتاتورك وتخلى تركيا عن مفهوم الخلافة الإسلامية، وبذلك وضعت حدا للصراع بين تيارى العروبة والإسلام كأساس لتكوين الدولة القومية الحديثة وفكرها السياسى فى المنطقة العربية، التى رزحت تحت الحكم العثمانى زهاء أربعة قرون تحت عباءة الخلافة العثمانية لعله مما يذكر أن الخديوى أرسل كتابا سريا للباب العالى فى ٢٧ أبريل ١٨٨٢ يلح فيه على ضرورة تقوية العنصر التركى فى البلاد العربية

لمواجهة بوادر الثورة القادمة إذ أن الهدف الوحيد للقومية والجنسية إنما هو الوحدة العربية..

الثاني: التطورات السياسية الإقليمية بعد الحرب العالمية الأولى، وبخاصة تزايد الهجرة اليهودية لفلسطين بعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧، وكذلك السياستين البريطانية والفرنسية لاقتسام مناطق النفوذ والسيطرة على العالم العربى، سواء فى شكل انتداب أو حماية أو تواجد قواعد أجنبية، وما أدى إليه ذلك التصرف من إحساس السياسيين العرب بالخديعة البريطانية ، خاصة بعد قيام الثورة البلشفية فى روسيا وإعلانها عن الاتفاقات السرية للحلفاء ومنها اتفاق سايكس بيكو الموقع بين بريطانيا وفرنسا فى ٩ مايو ١٩١٦ والذى تضمن تقسيم بلاد المشرق العربى (عدا الجزيرة العربية) بينهما على خلاف ما وعدت به بريطانيا الشريف حسين فى المراسلات المعروفة باسم مراسلات حسين - مكماهون فى عام ١٩١٦..

الثالث: الأفكار والآراء والمبادئ التى طرحها ونادى بها المثقفون والسياسيون العرب لبعث الأمة العربية من رقدتها، وهؤلاء المفكرون كثرة ولا مجال للتحدث عن كل منهم فرادى، فهم ليسوا إلا روافد فى بحر هادر من مشاعر الإحساس القومى العربى..

الرابع: حركة إستقلال الدول العربية والرغبة فى المحافظة على مفاهيم السيادة والاستقلال الوطنى بعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص وهذه الحركة وجدت أنه فى تجمع الدول العربية واتحادها الملاذ والملجأ الذى يمكن الاحتماء يه والاستناد إليه..

الخامس: تطورات العالم نحو التوحد والتكتل كما ظهر في حركات تدعو للوحدة في أمريكا الجنوبية والوسطى وفي الإعداد لإنشاء الأمم المتحدة ونحو ذلك من التجمعات الدولية والتي كانت في مرحلة جنينية آنذاك..

السادس: التشجيع من قبل المسئولين البريطانيين وبخاصة تصريحات وزير الخارجية البريطاني في بداية الأربعينات. ومن أبرز هذه التصريحات تصريح أنطوني إيدن في ٢٩ مايو ١٩٤١، إثر فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، والذي جاء فيه (لقد خطا العالم العربي خطوات واسعة في طريق الرقي، وهو يطمح الآن إلى تحقيق نوع من الوحدة يجعل منه عالما متماسكا، ويرجو أن تساعده بريطانيا في بلوغ هذا الهدف، ويسرني أن أعلن باسم حكومة صاحبة الجلالة عن ترحيب بريطانيا بهذه الخطوة وعن استعدادها بمساعدة القائمين بها حالما تتوافر لديها الأدلة على تأييد الرأي العام العربي لها) . ثم أدلى إيدن وزير الخارجية البريطاني بتصريح آخر، في مجلس العموم البريطاني في ٢٤ فبراير ١٩٤٣، ردا على سؤال وجهه أحد الأعضاء حيث ذكر إيدن (أن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية بينهم)..

وإذا كانت هذه التصريحات كما يقول البعض أعطت ضوءا أخضر، لحركة أكثر نشاطا، لتكوين الجامعة العربية، فإنها ألقت ظلالا من الشك حول نشأة الجامعة والهدف منها. ولكن يمكننا

القول باطمئنان، بأن هذه التصريحات هى أشبه بما يسميه القانونيون أنها كاشفة للتحرك العربى ومقررة لحقيقة الروابط بين أبناء الوطن العربى، وليست منشئة لتلك الروابط، أو للدعوة للوحدة العربية، بل أنها استهدفت استمالة مشاعر العرب بتبنى الأفكار التى يتطلعون لتحقيقها..

ولقد عكس ميثاق جامعة الدول العربية كل هذه العوامل، بما فيها من جوانب قوة وضعف، جوانب جذب وطرد ثم جاءت الممارسة العربية، منذ نشأة الجامعة، لتعبر عن التصارع والتلاحم والتفاعل بين هذه العناصر الستة، ونظرًا بعنف الصراعات والتيارات الدولية والإقليمية بين وداخل كل دولة، لذا فإن جامعة الدول العربية بدت أحيانا متألقة فى العمل العربى، وأحيانا أخرى عاجزة أو شبه عاجزة، وفى كافة الأحوال فإنها لم تكن سوى انعكاس ومرآة لواقع سياسى عربى، هو بطبيعته ديناميكى فى تفاعله لأن الحياة السياسية ليست جامدة أو ثابتة، بل هى متغيرة وديناميكية وحيوية..

ثانيًا: دواعى التغيير:

يمر الكائن الحى بمراحل ومنعطفات فى تاريخه ولابد له أن يتوقف عند كل منعطف ليتأمل ويفكر ثم يقرر الخطوة التالية من خطواته، وجامعة الدول العربية لاشك أنها تعيش هذه الآونة مرحلة من أخطر مراحلها مما يستدعى المراجعة الشاملة ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل:

الأول: أنها نشأت فى غمار أحداث وصراعات الحرب العالمية الثانية حيث كان يتأجج الصراع ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى الجاسم على صدر الأمة العربية ويتفاعل مع النضال من أجل الوحدة أو الاتحاد حيث كانت الفكرة القومية تتطور وتتبلور ويتداخل الاثنان مع صراع الحلفاء والمحور من أجل إنهاء الحرب العالمية الثانية وكانت بوادر حسمها قد لاحت وفى نفس الوقت رسم معالم الطريق لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية وكانت مظاهر الانتصار قد أخذت فى التبلور..

الثاني: أن نشأة الجامعة العربية ومسيرتها التاريخية منذ ذلك الحين ارتبطت بمسيرة النضال من أجل فلسطين ولعل فى أفراد ميثاق الجامعة لملحق خاص به عن فلسطين خير دليل على ذلك، وأن إلقاء نظرة على قرارات الجامعة وتحليل تلك القرارات كميا ونوعيا يجعلنا نخلص إلى أن ما لايقل عن نصف قرارات مجالس الجامعة المختلفة كانت تتعلق بقضية فلسطين إما مباشرة أو بطريق غير مباشر بل أن جامعى تلك القرارات فى مجلدات خاصة أدركوا وعبروا بطريقة لا شعورية عن مدى هذا الارتباط بين الجامعة العربية وقضية فلسطين ولذلك فعندما قسموا تلك القرارات إلى أبواب جعلوا الباب الأول تحت عنوان «شئون فلسطينية» وتلا ذلك باب «شئون عربية» ثم باب «شئون دولية» ثم «شئون اقتصادية» ثم «شئون اجتماعية» و«ثقافية» ثم «شئون قانونية».. الخ ولكن جامعى تلك القرارات لم ينسوا أن يعودوا مرة ثانية لقضية فلسطين فخصصوا بابا

آخر مستقلا تحت عنوان «شئون المقاطعة». هذا ناهيك عن أن كافة الشئونات الأخرى تظهر فيها قضية فلسطين بصورة أو بأخرى..

الثالث: أن كثيرا من أهداف الجامعة العربية قد تحققت بصورة أو بأخرى كما أن أهدافا أخرى قد أمكن وضع لبناتها وليس فى مقدور الجامعة أن تفعل أكثر من ذلك. ومن الأهداف التى تحققت جلاء الاستعمار عن الأراضى العربية فقد انتهى الاستعماران البريطاني والفرنسي وأصبح عدد دول الجامعة العربية ٢٢ دولة بعد أن كانوا ٧ دول مؤسسين في عام ١٩٤٥. أما الأهداف التى تم وضع أسسها فهى تلك المتصلة بالتعاون الاقتصادى والثقافى، فالعديد من الاتفاقات قد تم توقيعها وخطط التوحيد الاقتصادى بأشكاله المتنوعة قد درست وتم تمحيصها بدقة سواء فيما يتعلق بانتقال الأيدى العاملة أو رءوس الأموال أو التكامل الأمنى والتنسيق السياسى ولكن ما بقى ليس القرارات أو الاتفاقات أو الخطط وإنما تنفيذ القرارات وبالأحرى الإدارة السياسية للعمل والالتزام والتمسك وتنفيذ ما تم التوصل إليه. وهذا الأمر بيد الدول ذات السيادة..

الرابع: أن هناك من الدراسات والمشروعات العربية ما هو قيد الأضابير ومحفوظ فى الأدراج وهو ما يستدعى توافر الإرادة السياسية لتنفيذه ومن ذلك تلك الدراسات العديدة المتعلقة بتعديل ميثاق الجامعة أو الخاصة بإنشاء محكمة عدل عربية وأيضا تلك المتعلقة بالأمن القومى العربى أو العمل الاقتصادى العربى الموحد الذى تقرر فى قمة عمان عام ١٩٨٠ وغيرها..

الخامس: أن العالم كله يتغير، والإقليم الجغرافى الذى تعمل فى إطاره جامعة الدول العربية يموج بمتغيرات وأمواج عاتية، ومن الطبيعى أن ينال هذا التغير بسهامه جامعة الدول العربية، ويدعوها بطرح سؤال سبق أن طرحته وزارات الخارجية فى دول العالم المختلفة مع ثورة المواصلات والاتصالات «بعد أن أصبحت دبلوماسية القمة وقرارات القمة هى التى تحرك الأحداث، ومن ثم فإن السؤال ما جدوى جامعة الدول العربية؟ يصبح مطروحا فى ذهن البعض صراحة أو ضمنا وهو تساؤل منطقى ومشروعى، ولعلنى، ومنعا لإساءة فهم مثل هذا التساؤل، أبادر وأقول إن دبلوماسية القمة لم تلغ وزارات الخارجية فى دول العالم لذا فإن المتغيرات على الساحة الدولية والإقليمية لن تلغى جامعة الدول العربية ولكن المطلوب هو إحداث تطوير على منهج العمل والوسائل وربما بعض الأهداف والغايات، وهذا ما يدعونا للقول بأن جامعة الدول العربية مدعوة اليوم أكثر من أى وقت مضى لإجراء بحث حقيقى وجاد عن ذاتها أو بالتعبير الإنجليزى إنها مدعوة لإجراء SOUL-SEARCHING حتى تستطيع ان تخطو الخطوة الصحيحة فى المرحلة القادمة..

السادس: طبيعة تأثير عملية السلام على منهج عمل الجامعة وأولوياتها. ولا ريب أن العملية السلمية وما تفرضه على الواقع العربى من تأثيرات بعيدة المدى لابد أن تواجهها الجامعة بمنطق حركى يقوم على المبادرة والمبادأة وطرح القضايا المبتكرة وليس بمنطق

الاحتماء بالثوابت التى اهتزت، أو الالتجاء للمبادئ التى تغيرت أولوياتها، أو الاستناد إلى الركائز التى اعتراها بعض الخلخلة، إذ أن عدم الحركة الحقيقة فى ظل الرياح العاتية المحيطة بالجامعة والمتغيرات القوية والجارفة من حولها، يخشى منها أن تعصف بالجامعة فى اللحظة التى تريد الأخيرة البقاء حفاظا على الثوابت، وفى الوقت الذى، فى تقديرى، تحتاج إليها الأمة العربية أشد مـ يكون الاحتياج..

ولا شك أن وجهة النظر الداعية للتغير أو التغيير تذهب فـي اتجاهات ثلاثة:

الاتجاه الأول:

يدعو للتطوير فى الأجهزة والأهداف بخلق أو ابتكار أهداف مستحدثة لتفعيل الجامعة وزيادة نشاطها..

الاتجاه الثانى:

يدعو للتغيير الكلى للجامعة ولإقامة جامعة بديلة محلها وربما كانت فكرة جامعة أو منظمة شرق أوسطية هى هذا البديل وربما كان موضع إنشاء جامعة جديدة على أسس أو عقد سياسى جديد هو هـذ البديل..

الاتجاه الثالث:

يرى أن العرب يمرون بأكبر محنة فى تاريخهم وأن مواجهة الرياح العاتية هى بالانحناءة الخفيفة والتمايل مع الريح وليس

بالثبات والجمود والصمود لأنه يكسر النبات ويحطمه، وليس باقتلاع الجذور لأنه يقضى على الأمل فالزرع أو النبت الذى ترعرع فى عدة سنوات لا يمكن إعادته للحياة بسهولة بعد اقتلاعه والجامعة بعد هذه السنين والتغيرات ليس من السهل قيام بديل لها حتى لو أراد العرب اليوم إنشاء جامعة جديدة ربما يصعب عليهم أو يستعصى عليهم ذلك، ومن ثم فإن غاية الأمل هو الحفاظ على الواقع الراهن بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات حتى تمر الأزمة الحالية..

المبحث الثانى
التحديات التى تواجه الجامعة العربية

تتسارع الخطى لرسم خرائط جديدة فى مناطق العالم المختلفة وتعد المنطقة العربية من أكثر تلك المناطق حساسية وذلك لطبيعتها الخاصة. ونتناول فى هذا المبحث طبيعة التغير فى العلاقات الدولية وانعكاسات ذلك على المنطقة العربية والتى هى مجال الحركة والعمل الرئيسى للجامعة العربية..

الأول: طبيعة التغيير فى العلاقات الدولية: لقد سارت العلاقات الدولية فى القرن التاسع عشر فى إطار النظرية الاستعمارية حيث سعت الدول الصناعية فى أوروبا للتوسع على حساب الشعوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وانتهت الحركة الاستعمارية للتصارع فيما بين تلك القوى الصاعدة مما أنهكها وأدى إلى قيام حركات الاستقلال والتحرر التى تزايدت بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية وأدت ظاهرة الاستقطاب الدولى والحرب الباردة لرد فعل بنشأة حركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة والسبعين. ثم جاء التطور التكنولوجى الكبير فى وسائل الاتصالات والمعارف والعلوم ليحدث ثورة هائلة أدت لانهيار الاتحاد السوفيتى (السابق) والكتلة الشيوعية وانتصار الرأسمالية والفكر الليبرالى وانعكست هذه التطورات على عدم الانحياز وغيره من تجمعات دول العالم الثالث فأصبحت بلا هوية بل انعكست تلك التطورات حتى على الدول الغربية المنتصرة التى بدأت فى البحث عن عدو جديد، وليس هذا

مجال بحثنا الآن، ولكن ما يـهمنا إبـرازه يتمثـل فـى النقـاط السـبع التالية:

١ - أن العالم تطور من مرحلة الاستعمار فالاستقلال والسيادة ثم مرحلة التساند والتشابك الدولى فى إطار ما أصبح يطلق عليـه القريـة العالمية..

FROM DEPENDENCY TO INDEPENDENCE TO INTERDEPENCY IN A GLOBAL VILLAGE.

٢ - أن الثورة التكنولوجية فـى شـتى المجـالات مـن الاتصـالات والمعلومـات والهندسـة الوراثيـة ومـا أحدثتـه مـن تغـيرات إيجابيـة وسلبية كانت هى القوة الدافعة لهذا التغيير فى العلاقـات السياسية والاقتصادية الدولية..

٣ - أن هناك قضايا اقتصادية واجتماعية وسياسية لم تعـد حكـرا على دولة ما، أيا كانت هـذه الدولـة، سـواء فـى معالجتـها وآثارهـا السيئة أو الحسنة، ممـا يسـتلزم تحـرك الـدول فـي صـورة جماعيـة لمواجهتها وهـذا الموقـف انعكـس بـدوره علـى مفـاهيم السـيادة التـى أصبحت تتآكل رويدا رويدا، ومفاهيم الوطنية والقومية التى أصبحت فى حالة سيولة ليس فقط من حيث انصهارها وتداخلها مع قوميـات أخرى بل وأيضا من حيث انفجاراتـها الداخليـة فـى شـكل نزعـات عرقيـة وجماعـات اثنيـه تحركـت للمطالبـة بالحفـاظ علـى تراثـها وتقاليدها وتصارعت مع بعضها البعض..

٤ – أن فـى مقدمـة القضايـا التـى أصبحـت ذات صبغـــة عامـة وتحظى باهتمام عـالمى وتتعـدى فـى آثارهـا والاهتمـام بـهـا الحـدود الوطنية قضايا مثل حقوق الإنسان – البيئة – الديون – المخـدرات – والإرهاب الدولى مثل هذه القضايا لم يعد الاحتجاج بنظريات السيادة أو الاختصاص الداخلـى للدولـة بشـأنها ممكنـا فـى مواجهـة العـالم الخارجى وبخاصة القوى المسيطرة علـى السـاحة الدوليـة فـى العقد الأخير من القرن العشـرين، ذلـك لأن العـالم أصبـح ينظـر إلى قضايـا حقوق الإنسان مثل التعذيب ومنع الحريات والديمقراطية واللاجئـين والمرأة وغيرها باعتبارهـا مـن موضوعـات القـانون الـدولى العـام التـى تستنفر الضمير العالمى. كذلـك الأمـر بالنسـبة لموضوعـات البيئـة مـن الأوزون – وظاهرة الدفيئة العالمية Global Warming وما لها من أثـر فـى الفيضانـات والتغير المنـاخى والإيكولوجـى باعتبـار أن تأثيرهـا يتخطى حدود أية دولة أو حتى منطقـة. يلـى ذلـك مخـاطر الديـون الخارجية لارتباطها بعناصر الاقتصـاد العـالمى ونفس الشـىء أصبح ينطبق على المخـدرات وتهريبـها عـبر الحـدود ولعلـه ممـا يذكـر أن تدخل الولايات المتحدة فى بنما عام ١٩٨٩ جاء تحـت شـعار تـورط الرئيس البنامى فى تجارة المخدرات..

٥ – أن قضايا كانت هامة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانيـة مثل قضية التنمية والتصنيـع ونـزع السـلاح أصبحـت تحتـل مكانـة متـأخرة فـى سـلم الأولويـات الدوليـة أو تم إعـادة صياغتـها فـأصبح التركيز فى نزع السلاح مثلا على ضبط حركة التسـلح للـدول الناميـة مثل إنشاء سجل فى الأمم المتحدة لتصدير الأسـلحة أو ضبـط حركـة

تصنيعها كما هو الشأن فى اتفاقية تحريم الأسلحة الكيماوية، واحتكار التسلح النووى والكيميائى بين الدول الكبرى وممارسة الضغوط على الدول الصغرى كما هو الشأن فى حالات كوريا الشمالية - ليبيا وغيرها..

٦ - أن القوى الفاعلة على الساحة الدولية لم تعد الدولة وما تمثله من سيادة فحسب بل ظهرت قوى جديدة تعاظمت سلطتها ومن تلك القوى الشركات والمؤسسات غير الوطنية

Transnational Or Multinational Corporationas

والتى تفوق ميزانية بعضها ميزانية عدة دول نامية، وبرزت أيضا المنظمات غير الحكومية مثل منظمة العفو الدولية والصليب الأحمر ومنظمات الإغاثة والمساعدات الإنسانية وأصبحت تلعب دورا رئيسيا ومتزايدا فى مناطق النزاعات الرئيسية فى العالم..

٧ - برزت أيضا على الساحة الدولية ظاهرة التكتلات الاقتصادية التى تعزز وضعها ودورها مثل الاتحاد الأوروبى، أو مجموعة الآسيان فى جنوب شرق آسيا والنافتا فى أمريكا الشمالية ومنطقة التفضيلات الجمركية فى أفريقيا P T A وزاد من إيقاع التطور الاقتصادى العالمى وتأثيراته الاتفاقات التى تم التوصل إليها فى جولة الجات الأخيرة وما قررته من تحرير التجارة فى السلع والخدمات والملكية الفكرية الأمر الذى من شأنه تعزيز قوة الدول القوية وإضعاف وإفقار الدول الفقيرة. مما يوحى بإمكانية العودة للاستعمار الاقتصادى لبعض دول آسيا وأفريقيا بصورة جديدة..

الثاني: انعكاس التغيرات الدولية على التحديات أمام الجامعة العربية:

برز أثر التغيرات الدولية واضحا أشد الوضوح على المنطقة العربية نظرا للسمات الخاصة التى تتميز بها هذه المنطقة وهى أنها تضم شعبا أو شعوبا بينها روابط ثقافية وتاريخية عميقة الجذور، فضلا عن أنها امتلكت ثروة نفطية هائلة، ناهيك عن موقعها كملتقى طرق الاتصال العالمي بالإضافة أنها ذات حضارة عريقة بجذور دينية موغلة فى القدم متصارعة حينا ومتهادنة حينا آخر، ولعل تاريخ التعامل العربى مع أوروبا منذ ظهور الإسلام فى القرن السادس وحتى الآن خير دليل على ذلك..

ولقد عاشت المنطقة العربية فى الخمسينات والستينات لحظة تطلع Aspiration لتحقيق مشروع قومى نتيجة لعوامل أربعة: تراجع الاستعمار التقليدى، ظهور حالة الاستقطاب الدولى والحرب الباردة، الروابط بين شعوب المنطقة وأخيرا ظهور زعامة سياسية طموحة وديناميكية فى مصر لقيت طروحاتها صدى عربيا بل وخارج المنطقة العربية، واستطاعت أن تحول مفهوم العروبة من مفهوم ثقافى إلى مفهوم ذى أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية. وترتب على ذلك أن عاشت المنطقة منذ الأربعينات وحتى الثمانينات تحت شعارات ثلاثة هى: الاستقلال بمفهومه السياسى والاقتصادى، الدفاع عن شعب فلسطين ومواجهة إسرائيل، والعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية. هذا مع عدم تجاهل أو نسيان أن هذه الشعارات اختلفت أولوية طرحها من حركة سياسية لأخرى ومن نظام سياسى لآخر عبر العالم العربى..

ولا شك أن ذلك كله انعكس على الجامعة العربية وهى المنظمة الإقليمية القومية التى كان عليها أن تتفاعل مع المتغيرات وتعبر عن تلك التطورات وتسعى لتحقيق تلك الطموحات. ويمكن القول إن هناك سبعة تحديات أصبح لزاما على الجامعة العربية منذ نشأتها وعبر سنى حياتها أن تواجهها أو تتعامل معها وأن مستقبل الجامعة العربية بل الأمة العربية أصبح رهنا بكيفية التعامل مع هذه التحديات..

ولابد من المسارعة بالقول بأننى انظر لمفهوم التحدى Challenge بأنه موقف ما يستدعى استجابة Response معينة فهو ليس بالضرورة موقفا عدائيا وإن كان يحمل فى طياته جوانب إيجابية وأخرى سلبية..

١ – **تحدى الاستعمار والاحتلال**: وكان ذلك أول التحديات التى واجهت الجامعة العربية منذ قيامها إذا كانت معظم البلاد العربية خاضعة للاحتلال المباشر كما هو شأن بلاد المغرب العربى ومنطقة الخليج أو الاستعمار غير المباشر من خلال المعاهدات والاتفاقيات وتواجد القوات الأجنبية كما هو الشأن فى مصر والعراق وغيرهما من دول المشرق العربى. ويمكن القول إن الجامعة العربية نجحت فى مواجهة هذا التحدى وساعدها على هذا النجاح ثلاثة عوامل أساسية أولها كفاح شعوب الدول العربية ضد الاستعمار الذى كان نجمه فى أفول، وثانيها حركة التحرر العالمية ومساندة الاتحاد السوفيتى وثالثها دور الأمم المتحدة والرأى العام العالمى. وأدى ذلك

إلى استقلال العديد من الأقطار العربية التى انضمت بدورها للجامعة العربية فازداد عدد الاعضاء من ٧ فى عام ١٩٤٥ إلى ٢٢ دولة فى عام ١٩٩٠..

ورغم تراجع العدد إلى ٢١ فى مايو ١٩٩٠ فإن العدد عاد مرة أخرى إلى ٢٢ بعد انضمام جمهورية القمر الاتحادية فى نوفمبر ١٩٩٣..

٢ – **تحدى النفط:** لقد سيطرت الشركات الأجنبية على صناعة النفط العربى سواء فى الإنتاج، التصدير والشحن أو الاستهلاك وقد اهتم العمل العربى المشترك بموضوع النفط منذ أن قام مصدق رئيس وزراء إيران الأسبق بتأميم البترول فى إيران فى بداية الخمسينات ثم تأميم مصر بقناة السويس ١٩٥٦ وقد أثار هذا الموقف التساؤل حول النفط ومصيره وظهرت عدة مجلات عربية تتحدث عن صناعة النفط وأهمية تأميم هذه الصناعة أو على الأقل تحسين شروط التعامل الدولى فيه وزاد الاهتمام فى الستينات عندما دخل النفط فى المعركة ضد إسرائيل بطريق غير مباشر إذ أن مؤتمر القمة فى الخرطوم فى ٢٩ يونيو – أول أغسطس ١٩٦٧ قررت فيه الدول النفطية الرئيسية وهى السعودية والكويت وليبيا تقديم مساعدات مالية للدول التى وقع عليها العدوان وهى مصر وسوريا والأردن. وفى عام ١٩٧٣ دخل النفط المعركة بطريقة أكثر وضوحا وجسما عندما قررت الدول العربية تخفيض إنتاجها من النفط ثم قررت وقف تصدير النفط للدول التى تأخذ موقفا عدائيا من القضايا العربية وكان لذلك أثره الفورى فى:

(أ) ارتفاع أسعار البترول وظهور منظمة الدول المصدرة للبترول كاتحاد قوى يساوم على أسعار البترول التى تضاعفت عدة مرات.

(ب) هرولة العديد من الدول وبخاصة الأوروبية لإظهار تعاطفها مع القضايا العربية حتى لا تخضع لحظر البترول.

(جـ) بروز الدول العربية كقوة يحسب لها حسابها فى إطار السياسة العالمية ودوائر المال والتجارة العالمية.

ولكن الدول المتقدمة لم تترك الأمر يستمر طويلاً فسرعان ما قامت بإجراءات لترشيد استخدام البترول والبحث عن بدائل له وكذلك السعى لاسترداد الأموال العربية البترولية بطرق غير مباشرة من خلال الاستثمارات وتصدير السلع للدول العربية بأسعار مرتفعة ودفعها لإنشاء صناعات وإقامة منشآت ومشروعات متنوعة بغض النظر عن الجدوى الاقتصادية.

وأدت الإجراءات المضادة التى اتخذتها الدول المتقدمة إلى عودة أسعار النفط للتدهور بل أصبحت بعض الدول البترولية فى التسعينات تعانى من عجز فى ميزانياتها ولجأ بعضها للاقتراض من الخارج.

وتشير الإحصاءات إلى أن ديون الكويت الخارجية بلغت ١١,٥ مليار دولار عام ١٩٩٣ وأن خسائر الدول العربية نتيجة احتلال الكويت وتحريره بلغت ٦٧٦ مليار دولار.

ولعله مما يلفت النظر أن نشير لبعض الأرقام ذات الصلة ، نقلا عن التقرير الاقتصادى العربى الموحد لعام ١٩٩٣ وهى أن دول

الخليج العربى توفر ٣٥٪ من تجارة النفط العالمية ، وتختزن فى باطنها أكثر من ٤٥٪ من الاحتياطيات العالمية وتزود دول المجموعة الأوروبية بـ ٢٠٪ من وارداتها النفطية ، وقد بلغ حجم التبادل التجارى بين المجموعتين عام ١٩٩٢ حوالى ٣٨ مليار وسجل الميزان التجارى بينهما فائضا لصالح المجموعة الأوربية بسبب انخفاض أسعار النفط الذى يمثل حوالى ٩٠٪ من صادرات دول الخليج.

ولقد شهدت السنوات الختامية للقرن العشرين مزيدًا من التدهور لأسعار البترول وضعف قدرة الدول البترولية على التحكم فيه بل وبروز العجز فى ميزانية عدد من الدول العربية البترولية واضطرارها للاقتراض من الخارج وأدى لزيادة تفاقم الوضع استمرار العمليات العسكرية الأمريكية فى الخليج بدعوى استمرار التهديد العراقى مما يزيد من استنزاف الثروات العربية .

ولقد أدت حقبة النفط إلى ظهور إيجابيات وسلبيات عربية على حد سواء فمن الإيجابيات حدوث تطور كبير فى البنية الأساسية للدول البترولية والسماح بحركة سيولة ولو محدودة فى انتقال العمالة ورءوس الأموال بين الدول البترولية والدول غير البترولية مما يمكن أن نسميه مساعدة غير مباشرة فى بعث مفهوم القومية والوحدة العربية. ومن السلبيات انكفاء بعض الدول البترولية على الذات وخشيتها من الدول العربية الفقيرة وأدى ذلك إلى نمو نزعات قطرية ضيقة تتسع أحيانا لتصبح إقليمية كما فى تشكيل مجلس التعاون الخليجى. كما أن الحقبة البترولية وإن أدت إلى مشاركة أكبر فى

ثروات البترول من قبل الدول البترولية ، بعد أن كان معظم تلك الثروات تحتكره الشركات الأجنبية وينتفع به الاقتصاد الأجنبى ، أنها أدت فى نفس الوقت لمزيد من ارتباط الدول البترولية اقتصاديا وسياسيا بالسوق العالمى ومصالحه أكثر من ارتباطها بالمصالح القومية العربية ، كما أدت إلى ظهور حساسيات لدى الفرد العربى من الدول الفقيرة الذى يعمل لدى الدول البترولية ليس فقط فى مواجهة مواطنى تلك الدول بل وأيضا بين أبناء الدول الفقيرة فى تنافسهم للحصول على الوظائف ونحو ذلك.

٣ – التحدى المرتبط بالقضية الفلسطينية: ارتبطت مسيرة الجامعة العربية منذ قيامها بقضية فلسطين ولعل فى إفراد ميثاق الجامعة العربية لملحق خاص عن فلسطين خير دليل على ذلك. وأن إلقاء نظرة على قرارات الجامعة وتحليلها كميا ونوعيا يجعلنا نخلص إلى أن مالا يقل عن نصف قرارات مجلس الجامعة المختلفة كانت تتعلق بقضية فلسطين إما مباشرة أو بطريق غير مباشر كما سبق الإشارة فى المبحث الأول ، أضف إلى ذلك أن اجتماع القمة العربى الأول فى يناير عام ١٩٦٤ كان الدافع له مشكلة تحويل مياه روافد نهر الأردن وهى مشكلة متفرعة عن ومتصلة بقضية فلسطين. وتعد قضية فلسطين أكثر القضايا التى حظيت بالاهتمام من قبل الجامعة العربية على مختلف المستويات.

ولقد حققت الجامعة العربية نجاحًا لا بأس به بالنسبة لمواجهة قضية فلسطين تمثل فى ثلاثة مظاهر:

(أ) إبقاء البعد السياسى لقضية فلسطين حيا فى الساحة الدولية وحشد الرأى العام العالمى وبخاصة فى دول العالم النامى لتأييد ذلك.

(ب) ممارسة الضغط المكثف على الدول الغربية والولايات المتحدة للحد من اندفاعها فى تأييد إسرائيل وذلك من خلال سياسة المقاطعة بدرجاتها المختلفة والتى عمدت الجامعة لإحكامها مع مضى الزمن.

(جـ) الحفاظ على التماسك العربى فى مواجهة إسرائيل ومقاطعتها فى المحافل الدولية.

ولكن الجامعة العربية مع ذلك لم تستطع أن تدفع القضية الفلسطينية قدما للأمام على أرض فلسطين سواء من خلال العمل السلمى أو من خلال العمل العسكرى الأمر الذى مكن إسرائيل من تحقيق انتصارات عسكرية ساحقة كما حدث فى عام ١٩٦٧ بوجه خاص.

ولعل الاتفاقات والتسوية التى تحققت لفلسطين من خلال اتفاق أوسلو فى أغسطس ١٩٩٣ والذى تم توقيعه بعد ذلك فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ ثم اتفاق القاهرة فى مايو ١٩٩٤ وما تلا ذلك من اتفاقات تمت كلها خارج الجامعة العربية بمفاوضات مباشرة أو بطريق غير مباشر، ولعبت فيها مصر من الجانب العربى الدور الرئيسى ، كما اضطلعت الولايات المتحدة بدور ما والدول الأسكندنافية بوجه خاص والأوربية بوجه عام بدور معين. إن المسالك غير التقليدية للتفاوض والاقتراب

السياسى كانت هى التى حققت النتائج التى تم التوصل إليها وكان دور الجامعة العربية غائبًا اللهم إلا إذا اعتبرنا قرار مجلس الجامعة رقم ٥٠٩٢ فى سبتمبر ١٩٩١ بتأييد عملية السلام أو البيانات اللاحقة بمثابة دور وهو افتراض سيكون مبالغًا فيه وتحميلاً للأمور أكثر مما تحتمل.

والواقع أن التحدى النابع من المساعى المرتبطة بالقضية الفلسطينية وابتعاد الجامعة العربية لأسباب مفهومة عن المشاركة فى أية مفاوضات والاكتفاء بالاستماع لبيانات المسئولين الفلسطينيين من حين لآخر فيه إضعاف لدور الجامعة التى كانت القضية الفلسطينية محور عملها طوال سنوات عديدة . ولا يمكن أن يوجه اللوم لأحد وإنما الظروف الدولية والإقليمية وطبيعة عملية التفاوض هو الذى أدى لذلك الموقف .

٤ - **تحدى التنمية الاقتصادية:** نظرا لكون البلاد العربية من الدول النامية ، وبعبارة أكثر دقة ، من الدول المتخلفة فكان من الضرورى أن تواجه حركة ونشاط الجامعة العربية هذا الموقف لتحقيق التنمية الاقتصادية ، ولذا دعا الميثاق فى المادة الثانية إلى وضع خطط لتطوير التعاون الاقتصادى والمالى بما فى ذلك التبادل التجارى والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة وبناء على ذلك تضمنت أول اتفاقية هامة بين الدول العربية هذا الوجه ، وهى معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى المعقودة فى ١٧ يونية عام ١٩٥٠ وكذلك اتفاقية الوحدة الاقتصادية المعقودة فى ٣ يونية ١٩٥٧

كما عقدت عشرات الاتفاقيات لتسهيل انتقال العمال ورءوس الأموال وتنظيم أمور الجمارك سواء كانت هذه الاتفاقيات فـى إطـار الجامعـة العربية وهى المنظمة الأم أو فى إطـار مجلس الوحـدة الاقتصاديـة أو فى إطار العلاقات الثنائية بين العديد من الدول العربية حيث نشأت العديد من الشركات العربية المشتركة. كما أصدر المجلس الاقتصادى والاجتماعى المئات من القرارات لدفع حركة التعامل الاقتصادى بـين الدول العربية.

ولا شك أن كثرة القـرارات والاتفاقيـات فـى المجـال الاقتصـادى تضع الأسس الراسخة لنجـاح أى تعـاون عربـى فـى هـذا المضمـار ، وتعكس الشعور والإحساس بأهمية عملية التكامل الاقتصادى العربـى وبخاصة فى ظل التكتلات الاقتصادية العالمية إلا أن الأرقام تشير إلى ضعف التعامل بين الدول العربية بعضها البعض ومن مظاهر ذلك :

(أ) أن حجم التجارة البينيـة العربيـة ، وفقـا للتقريـر العربـى الموحد لعام ١٩٩٤ ، هو ٩٪ للصادرات و ٨٪ للـواردات أى بمتوسـط ٨,٥٪ فى حين كان المتوسط عام ١٩٩٣ هو ٧,٦٪ من التجارة العربية مع الدول الأجنبية وأن ذلـك مرجعـه تنـافس السـلع العربيـة وليـس تكاملها ، وضخامة حجم صادرات البـترول فـى الصـادرات العربيـة واتجاه الدول العربية لاستيراد السـلع مـن الـدول المتقدمـة بـدلا مـن شـرائها مـن السـوق العربيـة ، وتـأثر العلاقـات التجاريـة العربيـة بالاعتبارات السياسية المتسمة بالتذبذب والتقلبات من حين لآخر.

(ب) أن حجـم الاسـتثمارات العربيـة مـن عـام ١٩٥٠ إلى عـام ١٩٩٢ بلغ ٦٧٠ مليار دولار فى العالم الخـارجى بينمـا بلغـت ١١,٩

مليار فى العالم العربى وأنه مقابل كل دولار يستثمره العرب العربى يستثمرون ٥٦ دولارا فى العالم الأجنبى.

(جـ) أن بعض دول العالم العربى تستقدم العمالة المهاجرة من جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا بأعداد متزايدة مما سيؤثر على التركيب السكانى والبنية الاجتماعية والثقافية فى تلك الدول ويشار بوجه خاص فى هذا الصدد إلى انتشار الأفلام الهندية واللغات الهندية فى مناطق معينة من العالم العربى.

(د) أن إنشاء الصناعات فى الوطن العربى لا تحكمه خطة واضحة ومحددة تؤدى للتكامل بل على العكس تزيد من التنافس مما يؤدى إلى تبديد الموارد فى مشروعات ضخمة لا تتوافر لها الأسواق التى تمكنها من الاستمرارية والتطور ويشار فى هذا الصدد إلى إنشاء صناعة بتروكيماوية ضخمة فى عدد من الدول العربية المتجاورة فى حين أنه كان ينبغى الاتفاق على تقسيم عمل صناعى بين الدول العربية لضمان تسويق المنتجات فى إطار عربى.

(هـ) أنه رغم ما بين الدول العربية من تقارب ثقافى فإن حركة انتقال العمال ورءوس الأموال والتجارة مازالت محدودة رغم القرارات العديدة من المنظمات الاقتصادية والسياسية العربية ورغم الاتفاقيات العديدة الموقعة بين هذه الدول.

وهذا يدعونا للقول بأنه ليس ثمة ضمان على نجاح الاتفاقات مع إسرائيل بأكثر مما تحقق للاتفاقات بين الدول العربية بعضها البعض لاعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية فى كل دولة وفى الإقليم

ككل ذلك لأن العلاقات بين الدول تقوم على التفاعل وتبادل المنافع لكافة الأطراف ومن الضرورى أن يسعى العرب لوضع خطة تكامل حقيقى تستفيد من الكفاءات والخبرات العربية الكثيرة ومن الموارد الضخمة المتاحة للعالم العربى.

٥ - **تحدى النظام الشرق أوسطى:** أدت التطورات المتلاحقة بعد حرب الخليج وبدء عملية السلام فى مدريد ثم أوسلو إلى ظهور أفكار عن نظام شرق أوسطى يرى البعض ، بصوت يزداد خفوتًا ألا خوف على النظام العربى منه ويرى آخرون بخلاف هذا الرأى ، أى أنه نذير خطر جسيم على النظام العربى ، فى حين يذهب البعض الثالث للقول إنه بداية النهاية للجامعة العربية وللهوية القومية العربية وتحويلها إلى تراث ثقافى وليس هوية قومية سياسية مستقلة. ولا شك أن تحدى النظام الشرق أوسطى يظهر متصلاً بعملية السلام الدائرة حاليا وبخاصة فى إطار المفاوضات متعددة الأطراف والتى تبحث لجانها قضايا مثل ضبط التسلح ، التعاون الاقتصادى ، اللاجئين ، البيئة ، الموارد المائية.

ويستند مفهوم ما يسمى بالنظام الشرق أوسطى إلى النظرية القائلة بأنه إذا أمكن خلق مصالح متبادلة بين الأطراف المتورطة فى صراع ما ، فإن هذا كفيل بالقضاء على الشكوك وخلق مناخ لبناء الثقة ومن ثم تحقيق السلام الدائم فيما بينها. وتجد هذا النظرية خير تطبيق لها فى العلاقات الفرنسية الألمانية منذ قيام السوق الأوربية فى ظل اتفاقية روما عام ١٩٥٧ وحتى اتفاقية ماستريخت الموقعة عام ١٩٩٢.

ويزداد الخوف من تحدى النظام الشرق أوسطى بوجه خاص بعد انعقاد مؤتمر الدار البيضاء (المغرب) للتعاون الإقليمى والتنمية الاقتصادية للشرق الأوسط فى ٣٠ أكتوبر ١ نوفمبر ١٩٩٤ ، وما تلاه من مؤتمرات عمان والقاهرة والدوحة سنويا على التوالى . وهو ما اعتبر بمثابة المسمار فى نعش العمل الاقتصادى العربى الموحد واللبنة الأولى للعمل من أجل إقامة نظام شرق أوسطى جديد يبشر البعض هنا إلى وثيقتين هامتين.

أولاهما دراسة جامعة هارفارد عن التنمية فى الشرق الأوسط.

وثانيهما كتاب شيمون بيريز عن الشرق الأوسط الجديد.

ويمكن القول إن هذا النظام الشرق أوسطى المفترض يرتكز على دعائم ثلاث :

الأول: السعى لإقامة نظام أمنى جديد لا يستند إلى مواثيق الدفاع العربى المشترك على أساس أنها كانت موجهة ضد إسرائيل التى لا تعد عدوا بعد توقيع معاهدات السلام. وأن هذا النظام الأمنى الجديد ينبغى أن يقوم على عناصر بناء الثقة على غرار نظام الأمن والتعاون فى أوربا ويمكن أن يشتمل على توقيع اتفاقات صداقة أو اتخاذ إجراءات بناء ثقة ومن ذلك الانضمام لاتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية واتفاقية تحريم الأسلحة الكيماثية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل وكذلك التوصل لترتيبات أمنية من شأنها الحد من الاتفاق على التسلح والإعلان عن المناورات العسكرية ونحو ذلك.

الثانى: إقامة منظمة شرق أوسطية وهذه الفكرة لم تطرح بعد بصفة رسمية وإنما يجرى الترديد لها فى أوساط ثقافية وأكاديمية وإعلامية وزاد الحديث عنها فى إطار مؤتمر القمة الاقتصادى فى الدار البيضاء. ولا شك أن التخوف هو أن يكون الهدف من مثل هذه المنظمة هو أن تكون بديلاً عن جامعة الدول العربية.

الثالث: طرح فكرة السوق الشرق أوسطية. ولعل هذه الفكرة هى أكثر عناصر النظام الشرق أوسطى رواجًا إذ حظيت باهتمام إعلامى وسياسى كبير وخاصة مع توقيع إعلان النوايا الفلسطينى الإسرائيلى وما تضمنه الملحق الرابع من فقرات خاصة بالتعاون الاقتصادى وتوقيع معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية وما احتوته من نصوص حول التعاون فى العديد من المجالات الاقتصادية.

ويمكن القول إن هناك عدة ملاحظات حول طرح هذه الفكرة ومنها:

(أ) أن مفهوم السوق الشرق أوسطية مازال غير مكتمل الوضوح حتى الآن سواء من حيث مضمونه أو من حيث أطرافه وتوقيتات تنفيذه.

(ب) أن تحقق سوق شرق أوسطية ، كما هو مأمول أو كما يتردد فى الأدبيات السياسية والاقتصادية ، بين بعض الدول العربية وإسرائيل مرتبط بتحقق السلام وإنهاء المقاطعة العربية لإسرائيل بصورة قانونية. وإذا كانت المقاطعة تتأكل يومًا بعد يوم مع تطور عملية السلام وإعطاء الدول الأولوية لمصالحها الاقتصادية كما تجلى

ذلك في موقف العديد من الدول وبخاصة دول مجلس التعاون الخليجى وفى تخلى كل من مصر والأردن عن المقاطعة وفقا لنصوص اتفاقيات السلام المعقودة مع إسرائيل.

(جـ) أن ما يدور الحديث عنه هو التعاون الاقتصادى الإقليمى فى مختلف المجالات الاقتصادية مثل السياحة ، المشروعات المشتركة ، التنمية الاقتصادية ، المصارف ، الربط الكهربائى الربط البرى ونحو ذلك ، وقد وضح هذا التوجه بشدة فى المشروعات العديدة التى سعت كل دولة لطرحها فى مؤتمر القمة الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال أفريقيا الذى انعقد فى الدار البيضاء ٣٠ أكتوبر أول نوفمبر ١٩٩٤وما تلاه من مؤتمرات .

(د) إن مؤتمر الدوحة للتعاون الاقتصادى شهد تراجعا كبيرًا حيث انخفض معدل المشاركة وتدنى مستوى تمثيل الدول ولولا ضغوط دولية وتطلعات إقليمية ما كان يمكن أن ينعقد هذا المؤتمر . وهكذا أسدل الستار ولو مؤقتا عن فكرة التعاون الشرق أوسطى وكانت المواقف المتعنتة للحكومة الإسرائيلية بقيادة نتنياهو هى المسئول الأول عن ذلك .

(هـ) أنه حتى مع تحقق السلام بين العرب وإسرائيل ليس بالضرورة أن يحدث ما يخشاه البعض من وقوع هيمنة إسرائيلية على المنطقة العربية لأن سكان إسرائيل ما بين ٤ – ٥ مليون ربعهم من العرب ومع تحقق السلام فسوف تتغير طبيعة الدولة الإسرائيلية إذ أن انفتاح إسرائيل على العالم العربى سيؤدى لحركة انتقال العمالة

العربية إلى داخل إسرائيل وبالعكس ، ومن ثم يمكن تصور ذوبان الشخصية والذاتية اليهودية وتداخل اقتصاديات المنطقتين هذا من جانب ، كما أن الاقتصاد الإسرائيلى متقدم فى صناعات محدودة وهى الصناعات العسكرية والصناعات ذات التكنولوجيا العالمية وصقل الماس وهذه تجد أسواقها فى الدول المتقدمة. أضف إلى ذلك أن التقييم الحقيقى للاقتصاد الإسرائيلى ينبغى أن يأخذ فى اعتباره عوامل أربعة :

أولها: حجم السكان كميا ونوعيا وهنا سيتفوق العرب إذ من الصعب تصور أن يتغلب ٥ مليون إسرائيلى حتى ولو كانوا جميعًا من ذوى الكفاءة العالمية - وهو افتراض غير صحيح - على حوالى ٢٣٦ مليون عربى.

وثانيها: الموارد الطبيعية وهى أكثر وفرة فى العالم العربى.

وثالثها: طبيعة النشاط الاقتصادى من صناعة وزراعة وتجارة وخدمات وهى أكبر مما لدى إسرائيل.

وأخيرًا: هناك الارتباط الوثيق بين الاقتصاد الإسرائيلى واقتصاديات الدول الغربية وبوجه خاص الولايات المتحدة.

(و) كما أنه لا يمكننا إغفال تأثير التنافس الاقتصادى من الدول المتقدمة على أسواق الدول العربية مما لا يتيح مجالاً كبيرًا لإسرائيل فى هذه السوق.

والخلاصة هنا إننى لا أجد للتخوف من السوق الشرق أوسطية مبررات موضوعية فيما يتعلق باحتمالات الهيمنة الإسرائيلية ،

خاصة إذا أحسن العرب إدارة ما لديهم من موارد اقتصادية بما يحقق التنمية الاقتصادية والتكامل الاقتصادى العربى ، ويمكن أن يتحقق تجمع عربى مؤثر داخل الإطار الشرق أوسطى إذا أمكن للأخير أن يتبلور فى شكل تنظيم بصورة أو بأخرى كما يوحى بذلك إعلان قمة الدار البيضاء.

٦ - **تحدى التنظيمات العربية الإقليمية «الجهوية»**: يتيح ميثاق الجامعة العربية فى المادة ٩ للدول الأعضاء الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق أن تعقد ما تشاء من الاتفاقات لتحقيق هذه الأغراض. وسبق الإشارة إلى هذه المادة فى صدر هذه الدراسة إلا أنه يهمنا هنا أن نعرض التطورات التى وقعت فى عقد الثمانينات بإنشاء مجلس التعاون الخليجى فى عام ١٩٨١ ومجلس التعاون العربى والاتحاد المغاربى فى عام ١٩٨٩. وبغض النظر عن مدى فاعلية كل من هذه المجالس أو احتمالات زيادة أو نقص هذه الفاعلية فى المستقبل ، فإن ما نسعى لتوضيحه فى هذا القسم من الدراسة هو تأثير هذه التجمعات على فاعلية وعمل جامعة الدول العربية وهى المنظمة العربية الأم. ونكتفى بإيراد بعض الملاحظات:

١ - من المفترض وفقا للمادة التاسعة من ميثاق الجامعة أن تعزيز الروابط بين مجموعة معينة من الدول العربية من شأنه أن يصب إيجابيا فى المنظمة الرئيسية أى الجامعة ، ولكن هذه الحالة الافتراضية تظل صحيحة إذا لم يحدث تكتل جهوى «إقليمى» بحيث يؤثر فى عملية صنع القرار فى المنظمة الرئيسية وهو ما حدث

فى حالة طلب إحدى دول مجلس التعاون الخليجى تأجيل انعقاد الدورة ٥١ من المجلس الاقتصادى والاجتماعى (فبراير ١٩٩٣) أيدتها فى ذلك باقى دول المجلس ، كذلك نفس الشيء عندما طلبت إحدى دول مجلس التعاون الخليجى تأجيل المؤتمر العربى الأول لحقوق الإنسان والذى كان من المفترض أن يعقد قبل نهاية عام ١٩٩٣ وفقا لقرار مجلس الجامعة العربية فى أبريل ١٩٩٣. وأدت هاتان الحالتان لتأجيل الاجتماعات وذلك لاعتبارات قدرتها الدولة التى طلبت التأجيل ولكنها فى تقديرى الشخصى تعتبر خطيرة من زاويتين :.

(أ) إنها جاءت مخالفة لقرار مجلس الجامعة كما فى حالة مؤتمر حقوق الإنسان العربى وللنظام الأساسى لمجلس الجامعة كما فى حالة تأجيل المجلس الاقتصادى والاجتماعى.

(ب) إنها حرمت العمل العربى من النتائج الإيجابية لمثل هذين الاجتماعين وخاصة مؤتمر حقوق الإنسان فى مرحلة تاريخية أصبح فيها شعار حقوق الإنسان هو الشعار المطروح عالميا.

أما بالنسبة لمجلس التعاون العربى فقد انتهى أمره بعد غزو العراق للكويت وانقسام الرأى بين أعضائه إزاء هذا الغزو ولا شك أن هذا يعد أمرًا إيجابيا لصالح العمل العربى المشترك إذ لو أيدت دول مجلس التعاون العربى غزو العراق للكويت أو حتى سعت لتبرير أو التماس العذر للتصرف العراقى لواجهت الجامعة العربية والمنطقة العربية بأسرها مخاطر جمة ليس فقط باختفاء دولة عضو من الوجود

بل باحتمالات زوال أكثر من دولة بنفس الأسلوب فضلاً عن سيطرة منطق الابتزاز السياسي والعسكرى وهو منطق ينبغى مقاومته فى المجال العربى بكل شدة.

٢ - إن كلا من مجلس التعاون الخليجى والاتحاد المغاربى بدأ يتفاوض مع الاتحاد الأوربى من أجل مصالح إقليمية ، سواء بالنسبة لضريبة الكربون أو لاتفاقات المشاركة مع الاتحاد الأوربى ، ولو حدث مثل هذا التفاوض من الجامعة العربية ككل فربما كان الموقف أكثر قوة. أضف لذلك أن دول هذين التجمعين أخذت تتحدث فى المحافل الدولية المختلفة ، ومنها الأمم المتحدة باسم هذين الاتحادين ثم يتحدث مندوب باسم المجموعة العربية وهذا فى ذاته يظهر الانقسام العربى. ولا أعتقد أنه يتمشى مع نص المادة التاسعة من الميثاق والتى تدعو لتوثيق الروابط بين بعض الدول العربية وكان من المفترض أن التعامل مع العالم الخارجى يتم تنسيقه من خلال الجامعة العربية.

٣ - الملاحظة الثالثة هى أن مجلس التعاون الخليجى والاتحاد المغاربى تجمعان شبه مغلقين بحكم التسمية التى تقصرهما على منطقة جغرافية معينة ، وهذا ليس عيبا فى ذاته ولكن خطورته ، كما سبق الإشارة ، إذا تصرف أى من هذين التجمعين كقوة ضاغطة فى داخل الجامعة لتغيير أسلوب صنع القرار فيها ، ومن هنا فقد يؤدى ذلك من الناحية النظرية إلى احتمال حدوث مواجهة أو استقطاب فى بعض الحالات مما يؤثر سلبيا على عمل الجامعة العربية.

٤ – ولعلـه ممـا أثـار الانتبـاه والتسـاؤل تحـرك مصـر فـى أكتوبـر/نوفمـبر ١٩٩٤ ومشـاركتها فـى الاجتمـاع الـوزارى للاتحـاد المغاربى فى الجزائـر كضيـف ، وتقدمـها بطلـب للانضمـام لعضويـة الاتحاد كمراقب أو كعضو عامل ، وما أحدث هذا التحرك مـن ردود فعـل بعضـها إيجـابى وبعضـها سلبى والبعـض الثـالث تمثـل فـى الإعراب عن الدهشة والتساؤل وردود الفعل هذه لم تكن قـاصرة علـى دولة أو قطاع أو منطقة جغرافية بل تداخلت فى مختلـف القطاعـات والدول والمناطق ، بل وفى مصـر ذاتـها تنوعـت ردود الفعـل هـذه ، وكان الموقف الرسمى هو أن مصر منطقة وصـل وتواصـل بـين مغـرب العالم العربى ومشرقه ، ومن ثم فإن توثيق علاقاتها بالمغـرب العربـى لن يكون بديلاً عن علاقاتها بالمشرق وليس إحساسا بالإحباط مـن أى موقـف وليـس بديـلاً لتنشـيط الجامعـة العربيـة وهـى المظلـة العامـة والشاملة.

ولا شك أن الاتحاد المغاربى فى حالة جمـود حاليـا نتيجـة لعـدة عوامل منها المقاطعـة المفروضـة علـى ليبيـا دوليـا ، ومنـها الظـروف الداخلية فى كل دولة من دول الاتحاد فضلاً عن الصراعـات الكامنـة تجاه قضايا معينة مثل قضية الصحراء الغربية .

٥ – يبقى تجمع آخر هو المسمى بدول إعلان دمشـق وهـو تجمـع نشـأ فـى ظـروف مؤقتـة ومـازال يعـانى مـن مـرض «لـين العظـام» لاختلاف الأطباء «الأعضاء» فى تشخيصه وكيفية معالجتـه. ويكفـى أن نشير إلى أنه نشـأ كنتيجـة لتداعيـات غـزو العـراق للكويـت فـى

أغسطس ١٩٩٠ إلا أنه عندما تكرر تهديد العراق للكويت في أكتوبر ١٩٩٤ انعقد اجتماع دول الإعلان بعد انتهاء الأزمة ونتيجة لمبادرة من مصر لإحساسها بالتساؤلات التي طرحها الشارع العربي. ومع هذا فإن هذا التجمع قد شهد نشاطًا لا بأس به خلال عامي ٩٥–٩٨ مما يعكس حركة ذات طابع ديناميكي تحتاج لبعد استراتيجي حقيقي وفعال. وهو الأمر الذي لم يتحقق بعد .

٧ – **التحدي القومي:** هذا النوع من التحدي له دلالة خاصة ، ذلك لأن الجامعة العربية منذ نشأتها كان مفترضًا فيها أن تطور من ذاتها وأن تصبح معبرة عن المشاعر والأحاسيس والآمال القومية للشعوب العربية ، وقد اختلف الرأي بشأنها بين اتجاهين:

أولهما: يرى قيام جامعة الدول العربية هو بمثابة ضربة وقائية Preemptive Strike لإجهاض التوجه القومي.

وثانيهما: يرى أن قيام جامعة الدول العربية هو بمثابة خطوة نحو الوحدة العربية. والواقع الفعلي يدل على أن قيام الجامعة كان مزيجًا من الاتجاهين إذ أن التوجه القومي لم يخمد مع قيام الجامعة العربية بل اشتد نشاطه في أكثر من اتجاه ولعل دور الجامعة في تطوير جوانب العمل العربي المشترك في مجالات عدة من جانب وفي تأكيد الذات والهوية القومية من جانب آخر خير دليل على ذلك. ولكن في نفس الوقت لم تتطور الجامعة العربية سواء في ميثاقها أو في تنظيماتها بالقدر الكافي الذي يجعل منها خطوة تقرب نحو الوحدة العربية رغم انقضاء نصف قرن على قيامها بل

الأكثر أنها تواجه ما يمكن أن يطلق عليه «أزمة البحث عن الذات» فى ظل التغيرات الخطيرة الراهنة ويمكن إرجاع أسباب هذه الأزمة إلى:

(أ) انتهاء الاستعمار بشكله التقليدى وحصول الدول العربية على استقلالها ، وبعبارة أخرى أن كثيرًا من أهداف الجامعة العربية قد تحققت بصورة أو بأخرى كما أن أهدافًا أخرى، قد أمكن وضع لبناتها وليس فى مقدور الجامعة أن تفعل أكثر من ذلك. ومن الأهداف التي تحققت جلاء الاستعمار عن الأراضي العربية فقد انتهى الاستعماران البريطاني والفرنسي ، وأصبح عدد دول الجامعة العربية ٢٢ دولة بعد أن كانوا ٧ دول مؤسسين فى عام ١٩٤٥.

أما الأهداف التى تم وضع أساسها فهى تلك المتصلة بالتعاون الاقتصادى والثقافى ، فالعديد من الاتفاقات قد تم التوصل إليها ، وخطط التوحيد الاقتصادى بأشكاله المتنوعة قد درست وتم تمحيصها بدقة ، سواء فيما يتعلق بانتقال الأيدى العاملة أو رءوس الأموال أو التكامل الأمني والتنسيق السياسى ، ولكن ما بقى ليس القرارات أو الاتفاقات والخطط ، وإنما تنفيذ القرارات وبالأحرى توافر الإرادة السياسية للعمل والالتزام والتمسك وتنفيذ ما تم التوصل إليه ، وهذا الأمر بيد الدول ذات السيادة.

(ب) تغير الظروف التاريخية والسياسية منذ نشأة الجامعة العربية فى فترة نهاية الحرب العالمية الثانية وبدء الحرب الباردة والاستقطاب الدولى ، وفى عالم اليوم ، ولفترة قد تطول أو تقصر فى

المستقبل ، فإن هناك قيادة أحادية للعالم مع مراكز متعددة ولكنها لم ترق إلى مستوى القوة العظمى الوحيدة حتى تستطيع أن تنازعها بعضًا من المكانة أو السلطة فى اتخاذ القرار.

(جـ) تغير الظروف الإقليمية المرتبطة بالصراع العربى الإسرائيلى واتجاه هذا الصراع نحو التسوية بصورة أو بأخرى وأن هذه التسوية قد تكون بداية مرحلة جديدة من التعايش فى المنطقة تستدعى وجود تنظيم إقليمى مختلف ، خاصة وأن الجامعة العربية أدت دورها فى مرحلة تاريخية مختلفة ولا تستطيع بوضعها الحالى أن تساير الأوضاع الجديدة ، ولذا يرى البعض أن الجامعة العربية عليها أن تفسح الطريق لتنظيم جديد ذلك لأنه فى ظل هذه الحالة الدولية الجديدة فإن كثيرًا من المنظمات الدولية ومنها الجامعة العربية تتساءل عن أسباب وجودها ودورها كما سبق وتساءلت وزارات الخارجية عند بدء ثورة الاتصالات والتكنولوجيا ويضيفون بأن مثل هذه الحالة واجهت حلف وارسو مثلا مما أدى لإلغائه كما تواجه حلف الأطلنطى الذى يصارع من أجل البقاء.

المبحث الثالث
الجامعة العربية : نظرة مستقبلية

إن النظر للمستقبل واستشرافه ورسم الخطط الواقعية والعملية لمواجهته أو التعامل معه أمر ضرورى لكل كيان سياسى سواء أكان دولة أو تنظيمًا دوليًا أو إقليميًا وتحرص الدول المتقدمة فى استشرافها للمستقبل على وضع سيناريوهات متعددة تبحث فى دوائر مختلفة :

الدائرة الأولى: هى دائرة القائمين على صنع القرار الذين يحللون الحقائق السياسية ويرسمون خططا واقعية للتعامل المستقبلى معها مثل هذا النوع من الخطط يجمع عادة بين العلنية والسرية لاعتبارات خاصة بالأمن القومى للدول أو الحساسيات فيما بينها.

الدائرة الثانية: دائرة المخططين للسياسات فى المجالات السياسية أو الاقتصادية وهؤلاء يرسمون الخطط المستقبلية فى ضوء ما يتوقعونه من متغيرات يسعون للتأثير عليها إيجابيا والتقليل من آثارها السلبية. وينطبق على هذه الدائرة نفس التحفظ الخاص بالسرية.

الدائرة الثالثة: وهى الدائرة الأكاديمية وتبحث عادة الوقائع والأحداث الماضية وتتقدم بمقترحات للخطط المستقبلية وأحيانًا تضع هذه الدوائر سيناريوهات مرتقبة بل وغير محتملة تدخل فى عداد

ما يسمى Science Or Political Fiction ويكون هدفها إما إطلاق بلونات اختبار لمعرفة ردود الفعل وأحيانا تهيئة الرأى العام لتقبل توجه ما يكون مختلفا جذريا عما هو سائد ، ومن قبيل ذلك دراسات جامعة هارفارد ومعهد بروكنز وغيرها حول مستقبل الشرق الأوسط ، وهى دراسات وضعت منذ عدة سنوات وكانت تعد آنذاك ضربًا من ضروب الخيال. وهذا النوع من الخطط المستقبلية يتم نشره فى قطاعات المثقفين ودوائر الرأى العام المهتمة بالموضوع وصانعى القرارات السياسية.

وانطلاقا من هذا فإن جامعة الدول العربية مطالبة بوضع تصوراتها حول المستقبل بمختلف احتمالاته الواقعية وغير الواقعية. ومن الاحتمالات الواقعية هو تطوير جوانب العمل فى الأمانة العامة للجامعة فى ضوء دروس وعبر السنوات الماضية والسعى لتطوير المفاهيم والأولويات الخاصة بالعمل العربى المشترك. ومن التوقعات غير الواقعية أو غير المحتملة ذوبان أو اندماج الجامعة العربية فى إطار شرق أوسطى أوسع بصورة أو بأخرى.

ونظرًا لأننا نتحدث عن المستقبل فإننا لا نملك كل معطياته ومن ثم فإن المطلوب هو عرض بعض الأفكار ذات التوجه المستقبلى فى ضوء الخبرة التاريخية وتشخيص الأوضاع الراهنة.

١ – تشخيص الأوضاع الراهنة:

مما لا ريب فيه أن هناك جوانب عديدة للأزمة التى تواجه الجامعة العربية ومنظمات العمل العربى ونشير هنا لبعض مظاهرها:

الأول: طبيعة الثقافة السياسية Political Culture في المنطقة العربية إذ أن الجامعة كنسق أو نظام System هى محصلة لتفاعلات، هذه التفاعلات تتم فى بيئة ثقافية واجتماعية واقتصادية معينة ، والثقافة السياسية العربية لها خصائص منها:

(أ) الازدواجية Duality فما يتفق عليه فى الاجتماعات ليس بالضرورة ما يعتمل فى ضمير المجتمعين ومن ثم ليس بالضرورة ما ينوون عمله. وهذا منطقى فى بعض الأحيان عندما تكون محصلة القرار هى نتيجة حلول وسط ولكن ما يضاف بالنسبة للثقافة السياسية العربية أنه حتى هذه الحلول الوسط التى يتم الاتفاق عليها لا يلتزم الأعضاء بها بصورة كاملة.

(ب) الطابع السرى Secrecy وهذا أمر غريب إذ أنه وفقا لميثاق الجامعة فإن قراراتها سرية وغير معلنة وهذا يتناقض مع طبيعة التنظيم الدولى من الناحية النظرية ، ومع ما يحدث من الناحية الفعلية ، فمن الملاحظ أن كافة القرارات يتم نشرها بصورة أو بأخرى من خلال تسريب أعضاء الوفود أو من خلال موظفى الأمانة العامة.

(جـ) الطابع الفريد لدور الأمانة العامة وعمل لجان ومجلس الجامعة ، إذ أنه بغض النظر عن الاجتماعات وما يحدث فيها تتولى الأمانة العامة عادة إعداد مشروعات القرارات التى يتم إدخال تعديلات عليها ثم تقوم بصياغتها فى صورتها النهائية دون أن

يراجعها أحد فى معظم الحالات وهذه صورة فريدة أعتقد أن الجامعة العربية تنفرد بها عن غيرها من المنظمات أو حتى الاجتماعات الدولية. ولعل مثل هذا النوع من الممارسة الغربية Peculiar تتمشى مع الخاصيتين السابقتين.

(د) الحرص على الإجماع والظهور بمظهر الاتفاق وهذا من شأنه السير عند الحد الأدنى وربما أقل من ذلك ويتجلى ذلك فى عدم انعقاد القمم العربية مقارنة بانتظام القمم الأفريقية بغض النظر عن العدد الذى يشارك من الرؤساء - عدم التحرك للمصالحة العربية رغم أن ١٣ دولة أرسلت رسائل كتابية للأمين العام ترحب بمبادرته فى هذا الصدد.

الثانى: طبيعة توازن القوى إن إلقاء نظرة على محاضر اجتماعات الجامعة وعلى الاتصالات التى سبقتها يجد المراقب أن القوة الأولى الدافعة على إنشاء الجامعة وتطويرها كانت مصر ، وبناء على ذلك كان قرار الدول العربية بأن يكون المقر الدائم فى القاهرة وأن يكون الأمين العام مصريًا وعندما تقرر نقلها مؤقتا إلى تونس تم تعيين تونسى أمينًا عاما ، فكأن الدول العربية تراضت وتوافقت ضمنيا على الربط بين المقر والأمين العام ، وهذا يضع مسئولية على دولة المقر فى القيام بدور إضافى يطالبها البعض به حينا ويثير حساسية البعض حينا آخر.

وتلعب مصر حاليا دورًا رائدًا فى عملية السلام للوصول بقضية الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية إلى التسوية الشاملة بما يحقق السلام القائم على توازن المصالح والالتزامات المتبادلة.

والتساؤل المطروح ما هو وضع الجامعة العربية فى هذا الصدد. ولا شك أن تشخيص موقف الجامعة من العملية السلمية يدل على أن هذا الموقف يمكن النظر إليه فى مراحل ثلاثة:

الأولى: منذ عام ١٩٤٧ وحتى ١٩٩١ حيث قامت الجامعة بدور المركز فى تجميع القوى العربية ضد إسرائيل.

الثانية: من ١٩٩١ - ١٩٩٣ حيث أصبحت الجامعة تضفى مباركتها على ما يجرى الإعداد له أو يتم الاتفاق عليه كما حدث فى مباركتها للعملية السلمية بموجب قرار مجلس الجامعة العربية رقم ٥٠٩٢ فى سبتمبر ١٩٩١ قبل مؤتمر مدريد ، وفى مباركتها لاتفاق إعلان النوايا الفلسطينى الإسرائيلى وهو ما تم فى بيان مجلس الجامعة فى سبتمبر ١٩٩٣ بعد الاستماع لخطاب الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات.

الثالثة : من ١٩٩٤ وفى المستقبل وهنا نجد ثلاث صور لدور الجامعة العربية:

(أ) القيام بدور تنسيق المواقف العربية إزاء القضايا المتعددة سواء فى إطار ما كان يسمى باجتماعات دول الطوق أو حتى بالنسبة للجان متعددة الأطراف التى تبحث قضايا المياه والبيئة وضبط التسلح والاجئين. والجامعة العربية ، مثل الأمم المتحدة ، لها خبرتها ولها مواقفها وقراراتها ودراساتها حول هذه الموضوعات بما يساعد المفاوض العربى بعبارة أخرى إن الجامعة العربية هنا يمكن أن تكون بمثابة بيت خبرة علمى وسياسى واقتصادى. ومثل هذا الموقف

يستلزم توافر إرادة الدول العربية المتفاوضة لكى تضطلع الجامعة بمثل هذا الدور. ولا شك أنه قد تم تجاوز هذا الدور إلى حد كبير بعد توقف اجتماعات ما كان يسمى بدول الطوق وعقد الاتفاقيات والمعاهدات بين كل من الفلسطينيين والأردن وبين إسرائيل.

(ب) المشاركة الفعلية كمراقب أو كعضو فى الاجتماعات الخاصة بعملية السلام على نحو ما يحدث بالنسبة للمجموعة الأوروبية أوالأمم المتحدة ومثل هذا الموقف يستلزم اتفاق مجموعات ثلاث هى: الدول العربية وبخاصة الدول المتفاوضة مع إسرائيل ثم موافقة راعيي عملية السلام أى الولايات المتحدة وروسيا الاتحادية وأخيرًا موافقة إسرائيل. وهذه الموافقات ليست بالأمر السهل ، لوجود تحفظات لدى كل طرف ومن ثم فلا يتوقع أن تضطلع الجامعة بدور مباشر فى العملية السلمية. وإن بدت بوادر المرونة فى توجيه الأردن الدعوة لأمين عام الجامعة لحضور معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية ولم يتمكن من الحضور لارتباطاته الخارجية ، وفى توجيه المغرب الدعوة لأمين عام الجامعة للمشاركة فى مؤتمر القمة الاقتصادية بالدار البيضاء فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وكذلك فى اجتماعات القمة الاقتصادية بعمان الأردن عام ١٩٩٥ وفى القاهرة فى ١٩٩٦. وقد شارك الأمين العام للجامعة العربية فى تلك الاجتماعات.

(جـ) القيام بدور المشاركة فى ضمان ما يتم التوصل إليه من اتفاقيات بين الأطراف العربية وإسرائيل بصفتها منظمة إقليمية عربية ، وهذا يستلزم توافر قوات حفظ سلام لدى الجامعة العربية

على غرار الأمم المتحدة. وهو أيضا يطرح قضية التمويل والمساهمة فى التنمية فى ظل السلام ونحو ذلك. وهذه مسائل يمكن حلها إذا توافرت الإرادة والقرار السياسى ، كما تعمل الجامعة فى هدوء من أجل ذلك من خلال مساعيها واتصالاتها مع البنك الدولى وغيره من المؤسسات الدولية لحثها على تقديم مساعدات للتنمية فى الأراضى الفلسطينية.

٢ - تصورات حول مستقبل الجامعة:

ينطلق هذا التصور من إيمان بأهمية دور الجامعة واستمراريتها. ويمكن النظر لمبررات هذا الدور المستقبلى فى إطارين هما:

الإطار الأول: إطار الذات والهوية: فالجامعة العربية نشأت - كما سبق وذكرنا - تعبيرًا عن مشاعر عربية عميقة الجذور تجعل أبناء هذه المنطقة يتميزون عن غيرهم من مناطق العالم ، سواء فى اللغة أو الثقافة والتراث والتاريخ ، ومن هنا فالجامعة العربية من هذا المنطلق ضرورية كوعاء يعبر عن هذه الحقيقة التى لا يمكن لأحد أن يتجاهلها. وهى فى هذا الإطار تعد أداة التنسيق العربى الأولى فى مجتمع دولى يقوم على التكتلات السياسية والاقتصادية ، ومن غير المنطقى أنه فى الوقت الذى تبحث فيه الجماعات الإثنية والأقليات العرقية فى مناطق العالم المختلفة عن جذورها التاريخية وحضارتها وتراثها وتسعى لتأكيد ذاتها ، فإن بعض العرب بكل ما بينهم من روابط وثيقة يتساءلون أو يشككون فى حقيقة عروبتهم وانتمائهم ، ويتخلون أو يفكرون فى التخلى عن منظمتهم القومية ، وهذا أمر يجب مواجهته ومن الضرورى التمسك بالجامعة العربية كإطار للعمل

العربى المشترك رغم ما بها من مثالب وأوجه القصور التى ينبغى التصدى لها ومعالجتها لزيادة فعاليتها. ولا يمكن الاحتجاج بأن الجامعة فقدت مبرر وجودها بالتوصل لاتفاقيات السلام وزوال صفة العدو لأن هذه نظرة سطحية للجامعة التى قامت أصلا قبل قيام إسرائيل واستهدفت تجميع وتنسيق القوى العربية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية العربية ، وإن مقارنة دور الجامعة العربية لا يجب أن تكون مع دور حلف الأطلنطى أو حلف وارسو وإنما مع وضع دول السوق الأوروبية المشتركة التى تطورت لتصبح الاتحاد الأوروبى أو مع وضع مجموعة دول الآسيان. ولا شك أن العدو الداخلى ، المتمثل فى التخلف الاقتصادى والاجتماعى وعدم استغلال الموارد الاستغلال الأمثل ، أخطر من أى عدو خارجى يقبع خلف الحدود.

الإطار الثانى: إطار النشاط والفعالية: وهنا أيضا نجد أن الجامعة العربية لها دور ضرورى فى تنظيم التعاملات بين دول المنطقة العربية وأن المنظمات العربية المتخصصة لعبت ومازالت تلعب دورًا رئيسيًّا فى وضع قواعد البنية الأساسية فى الاتصالات والصناعة والنقل والإدارة والكهرباء ونحو ذلك من المجالات. وهنا تواجه الجامعة العربية نوعين من الأزمات:

(أ) **أزمة تنظيم:** إذ أن كثيرًا من منظمات العمل العربى ترهلت فى جهازها الإدارى وأصبحت تعانى عجزا فى ميزانياتها وأحيانا بعضها يكرر ما يتم على المستوى القومى أو يكرر ما يتم فى

اجهزة عربية أخرى مما يعد ازدواجية فى العمل ، وهذا يستلزم بحث إعادة هيكلة وتنظيم أجهزة العمل العربى المشترك للتخلص مما لا ضرورة أو فائدة حقيقية من ورائه ، إننا ندعو إلى ذلك رغم أن الكاتب يدرك أنه سبق وتمت عملية إعادة هيكله منذ بضع سنين ولكنها فى تقديرى غير كافية وهناك العديد من الأجهزة الفرعية أو التى يتم إنشاؤها رغم قرارات إعادة الهيكلة بدعوى ظهور الحاجة إليها.

(ب) **أزمة تنفيذ:** إذ أن معظم القرارات التى تتخذها الجامعة العربية والمنظمات العربية المتخصصة لا توضع موضع التنفيذ ومن ثم تكرر الجامعة العربية ومنظمات العمل العربى قراراتها فى كل دورة من دورات الانعقاد ، وهذا يثير قضية مصداقية ، وجدوى اتخاذ مثل هذه القرارات أو حتى فائدة عقد العديد من الاجتماعات.

ولا شك أن معالجة هذين النوعين من الأزمات تستلزم وقفة جادة وحازمة من المسئولين العرب لبحث منظمات العمل العربى المشترك ودمج أو إلغاء ما يمثل ازدواجية أو فقد مبرر وجوده ، واتخاذ قرار سياسى ملزم بضرورة تنفيذ ما يتم الاتفاق عليه من قرارات يجب أن تكون واقعية وذات مردود على الدول العربية وليست قرارات بلا مضمون.

ولا شك أن للجامعة العربية دورًا فى تنظيم التعامل بين الدول العربية بعضها البعض من جانب ، وفى تأكيد ذاتيتها وتنسيق التعامل العربى مع العالم الخارجي من جانب آخر. وأنه من الممكن

أن يتعاظم دورها فى الفترة القادمة إذا توافرت الإرادة السياسية العربية وهو أمر ضرورى فى ظل عالم يموج بالصراعات الدولية من جانب ، وتحرص فيه الجماعات القومية على تأكيد ذاتيتها من جانب ثان ، وتبرز فيه التكتلات الدولية من جانب ثالث.

٣ - علامات استرشادية على طريق العمل العربى المستقبلى:

لوضع تصور نظرى لمستقبل العمل العربى المشترك لابد من استلهام عبر التاريخ ودروسه وفى نفس الوقت البحث بواقعية ، والتفكير بصدق ، والتعبير بعقلانية ، ولست أملك عصا سحرية ترسم طريق المستقبل ، وتقدم العلاج الناجع لعثرات العمل العربى المشترك ، ولكننى أسعى لطرح بعض الأفكار:

الأولى: أن النجاح يغرى بالنجاح وأن الفشل يدفع لمزيد من الفشل، وأن تجارب العمل العربى المشترك كللت بنجاحات جزئية وفشل أكبر سواء فى المجالات السياسية أو الاقتصادية ، ولعل أبرز أسباب الفشل كان فردية القرار العربى بمعنى أن الاتفاق على أساس فردى من الحكام والقادة ولم ينبع من الأجهزة البيروقراطية التى هى منوط بها رعاية مصالح كل قطر ، لذلك ما يكاد القادة يوقعون على اتفاق ويعودون لبلادهم حتى تعمل البيروقراطية على التحلل من التزاماته بدعاوى مختلفة ، ونظرًا لأن التوقيع على تلك المواثيق والاتفاقات لم يكن نتيجة إيمان حقيقى ، وإنما من قبيل الإنجازات الشكلية والمظهرية ، فلم يتخذ القادة موقفا من الأجهزة البيروقراطية

بل ربما أوعزوا إليها بالتمسك بمواقفها ، ومن هنا فإن الاقتراح الأول أن يستند العمل العربى المشترك إلى دراسة حقيقية متفق عليها وفى إطار الحد الأدنى ثم يعتمدها القادة ويلتزم بها الجميع بصدق وإخلاص حتى يمكن التقدم فى المسيرة ولو خطوة واحدة ولا ننسى أن مسيرة الألف ميل تبدأ بالخطوة الأولى.

الثانية: أنه إذا كانت إسرائيل لعبت ، لفترة ما ، دور القاسم المشترك للتضامن العربى ، فإن هذا التضامن له جذوره السابقة على قيام إسرائيل ، فسعى محمد على لتوحيد مصر والشام لم يكن ضد إسرائيل وإنما ضد الدولة العثمانية كذلك كانت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين ، والتضامن العربى مع العراق فى حربه ضد إيران لم تلعب إسرائيل دورا أساسيا فيه ، وإنما كان أمن الخليج من جانب ، والتعبير عن المفهوم المصرى للأمن العربى من جانب آخر ، هما العنصران الأساسيان من وراء ذلك. ولأن المنطقة العربية مستهدفة – بغض النظر عن صحة أو عدم صحة نظرية المؤامرة – وفى ظل عالم تسوده التكتلات الاقتصادية الدولية نجد أن هناك مصلحة عربية أكيدة فى تحقيق التضامن العربى وتنشيط العمل العربى المشترك ، فالأمن العربى مهدد من دول الجيران غير العربية بصور مختلفة ، والمصالح الاقتصادية العربية سواء البترولية حيث تدهور أسعارها أو فرض ضرائب مثل ضريبة الكربون ، أو الحاجز الاقتصادى لأوربا الموحدة كل ذلك ، وعوامل أخرى ، تدفعنا للقول إن المصالح العربية الاقتصادية مهددة ما لم يعد العرب التفكير فى

المفهوم القطرى الضيق للمصالح. إن الإحصاءات الاقتصادية تشـ..ر إلى حقائق مذهلة منها على سبيل المثال وكما سبق القول إن الاستثمارات العربية من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٩٢ بلغت ٦٧٠ مليار دولار فى العالم الخارجى بينما بلغت ١١,٩ مليارا فى العالم العربى وإنه مقابل كل دولار واحد يستثمره العرب فى العالم العربى يستثمرون ٥٦ دولارا فى العالم الخارجى ، وإن بعض دول العالم العربى تستقدم العمالة المهاجرة من جنوب آسيا بأعداد متزايدة مما سيؤثر على التركيب السكانى والبنية الاجتماعية والثقافية فى تلك الدول ويشار بوجه خاص إلى انتشار الأفلام الهندية واللغات الهندية فى مناطق معينة من العالم العربى.

الثالثة: أنه إذا اقتنعنا بالمقولتين السابقتين فلابد من استكمالهما بمقولة فلسفية ضرورية وهى أن الحياة تتسم بسمتين رئيسيتين:

أولاهما: أنها متغيرة ولا تثبت على حال ، كذلك السياسات متغيرة بخلاف المصالح التى هى دائمة وثابتة وإن كان التعبير عنها متغيرا أيضا وفقا للظروف والملابسات التى هى متغيرة بدورها وبعبارة أخرى أننا إذا كنا واجهنا نكسات فى العمل العربى المشترك فلا ينبغى أن نيأس أو أن يساورنا القنوط وإنما من الضرورى التطلع للمستقبل وليس النظر للماضى إلا لمجرد استلهام العبرة وليس بالقطع لتكرار التجربة فالحياة تسير فى معراج صاعد إلى الأمام لا يتوقف ولا يتراجع.

وثانيتهما: أن الحياة سمتها التحدى ولابد من مواجهة هذا التحدى والاستجابة له بروح خلاقة وبناءة. إننا إذا نظرنا للطبيعة حولنا حيث الجبال الشاهقة والأنهار المتدفقة والمحيطات المظلمة والصحارى المجدبة تعترينا الهواجس والمخاوف ، ولكن روح التحدى هى التى دفعت الإنسان للتغلب على تحديات الطبيعة وعنادها بل وتسخيرها لخدمته ، ولعل أخطر التحديات التى تواجه الأمة العربية اليوم هو تحدى التخلف الاقتصادى والتكنولوجى والثقافى والسياسى ، وهو تخلف يكاد يكون عاما فى المنطقة العربية بغض النظر عن وجود بقع متقدمة هنا أو هناك.

ولا شك أن التطور الفكرى السياسى العالمى وما يطرحه من مقولة صراع الحضارات يمثل بالنسبة لنا قضية بالغة الخطورة ، ومن الضرورى وضع استراتيجية سليمة وصحيحة للتعامل مع هذا الموقف حتى لا تكون المنطقة العربية ، والتى هى مهد الحضارات العريقة من فرعونية وبابلية وآشورية وإسلامية ، كما أنها مهد الديانات السماوية الثلاث التى انبثقت منها فكريا أو استفادت ، من تجربتها العلمية والثقافية ، الحضارة الأوربية الأمريكية ، أقول حتى لا تكون هذه المنطقة متخلفة فى صراع الحضارات أو لنقل فى حوار وتنافس الحضارات الغربية والصينية واليابانية فى القرن الحادى والعشرين فلابد من وضع استراتيجية صحيحة تقوم على العمل المستند إلى العلوم الحديثة والقيم الحديثة لتواجه الحضارات الأخرى والتى تتطور بسرعة مذهلة.

الرابعة: إن المثقفين العرب عليهم مسئولية كبرى فيما حدث فرغم تحدث البعض عن أهمية الفكر القومي ودوره إلا أن المفاهيم القطرية والممارسات القطرية أثرت كثيرًا على سلوكهم وتصرفاتهم ، يكفى للدلالة على ذلك أن تجتمع مع نخبة من مثقفى العراق أو مع سوريا فرغم الانتماء لحزب واحد تجد التعارض واضحًا ، ويكفى أن تجلس إلى المثقفين الناصرين أو القوميين وسرعان ما تلمس الانقسامات الشخصية كما لو كنا فى عصر المماليك وهكذا الحال فى العديد من الدول العربية ، وإننى أعتقد أنه ما لم يتفق المثقفون أيضا على الحد الأدنى للعمل العربى فإن بعض السياسيين سيجدون من يبرر لهم تصرفاتهم أو ترددهم أو طموحاتهم وسيستمر التراجع فى العمل العربى المشترك ، ومن ثم فإنه من الضرورى أن يتفق المثقفون فيما بينهم ثم ينطلقوا إلى الشارع العربى العريض ليبشروا بالمستقبل ولا ينغلقوا على أنفسهم فيكون العمل العربى رهين المحبسين تكاسل الجماهير وانغلاق المثقفين. وبعبارة أخرى فإن الحاجة ماسة إلى حوار النخب العربية وقادة الرأى ومراكز الأبحاث لتجديد الفكر القومى والعمل القومى العربى بمنهج جديد ومن منطلقات جديدة تقوم على تبادل المصالح والمنافع وليس على مجرد الشعارات.

الخامسة: أن تعيد جامعة الدول العربية التفكير بصدق فى منهج عملها وجهازها البيروقراطى وأسلوبها ، الذى يتسم بالحياء والخجل، وأن تقوم بدور أكثر جرأة يتضمن مبادرات عديدة لعل

بعضها يحظى بالقبول ، ويساعد فى إعادة اللحمة للعمل العربى المشترك ، قبل أن تداهمنا التطورات الدولية والإقليمية ، التى تدق بقوة على الأبواب ، والتى يمكن أن تكون الجامعة العربية ضمن ضحاياها ويتراجع وجودها ليصبح هيكلا بلا مضمون أو كالمسافر بالصحراء يتطلع إلى بقعة من الماء حتى إذا جاءها وجدها سرابًا.

السادسة: أنه شئنا أو أبينا فهناك دور الدولة القائدة وهو دور يتسم بتحمل المسئولية والتضحية ، إنه ليس دور الترف بل دور العبء ، ومن المهم تفاعل الدولة القائد مع باقى أطراف النظام العربى الذى تقوده ، وأن يترتب على عملية التفاعل هذه تحقيق مصالح كافة الأطراف فى مصارحة ومكاشفة بعيدا عن الشعارات التى تتسم بالمزايدة أو المجاملات غير الصادقة أو التى تتسم بالزيف ، لابد أن يكون هذا التفاعل على أساس من العقلانية والمصالح المتبادلة وانتشار أجهزة العمل العربى المشترك فى مختلف أرجاء العالم العربى وخلق كوادر عربية تؤمن بالعمل العربى المشترك.

ولا شك أن الدولة القائد تدرك تمام الإدراك بأن دورها على المستوى العالمى لا يستند إلا على الركيزة الثابتة والعميقة الجذور وهى الركيزة العربية ، وأن الدوائر الجديدة أو المتجددة للعمل والسياسة المصرية هى دوائر مضافة للقاعدة الأساسية وليست بديلاً لها ، أو تهميشًا لوضعها ، وقد عكست تصريحات وزير الخارجية عمرو موسى فى أكثر من مناسبة هذه المعانى ولعل تصريحه الذى

نشرته الصحف المصرية فى ١٩٩٤/١٠/٢٩ بمناسبة القمة الاقتصادية فى الدار البيضاء واضح فى دلالته إذ قال فيه ما يلى:

«إن الدول العربية ، فى أشد الحاجة ، فى الوقت الراهن ، إلى التعاون فيما بينها من خلال الجامعة العربية كى تقوم الجامعة بدورها فى دعم العمل العربى وتحقيق المصالح المشتركة».

وقد أكد عمرو موسى نفس المعنى مجددًا فى بيانه الذى ألقاه يوم ٣٠ أكتوبر أمام القمة الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى مؤتمر الدار البيضاء ، عندما أوضح الركائز لقاعدة وإطار التعاون الإقليمى من وجهة النظر المصرية ومنها ما يتعلق بموضوعنا هذا واقتبس ما يلى..

أولا: «التنسيق بين ما يتم فى محفل الدار البيضاء وبين ما يجرى فى أطر أخرى منعا للازدواجية وفوضى المشروعات وتصادمها مما يعود بالضرر على عملية التنمية الإقليمية كلها. بمعنى ألا يؤدى مشروع إقليمى جديد إلى الإضرار بمشروع آخر قائم فى المنطقة.

ثانيا: أننا لا نستبدل بالتعاون العربى آخر إقليمى ، لأن أيهما لا يمكن أن يكون بديلاً عن الآخر ، فنحن نهدف إلى تفعيل مسارات عديدة متوازية ودوائر متداخلة ، مسار عربى لتعزيز الروابط العربية ، مسار إقليمى يضم الدول المطلة على المتوسط ، ويتوسع ليشمل أوربا ، ومسارات أخرى تصل إلى شواطئ المحيطين الهادى والأطلسى».

ولا شك أنه كما أن للدولة القائد دورها فإنه من الضرورى فى نفس الوقت أن تدرك الدول العربية الأخرى أن مساندتها الأدبية والمادية للدولة القائد ليست تطوعًا أو تبرعًا أو منحة أو منة بل هى واجب ولصالح تلك الدول أولاً ولصالح العمل العربى المشترك ومستقبل المسيرة العربية ثانيا ولصالح الدولة القائد ثالثا.

الفصل الرابع

الموقف العربى من قضية حقوق الإنسان

إن الاتجاه العام لدى معظم المفكرين العرب والأجانب يشير إلى اتفاقهم على أن المنطقة العربية تعد من أكثر المناطق تخلفا ليس فقط بالنسبة لحقوق الإنسان بل، وأيضا بالنسبة للتطور الديمقراطى بوجه عام، هذا فضلا عن واقع التخلف الاجتماعى والاقتصادى السائد فى المنطقة إذا استثنينا قطاعات هامشية فى بعض الدول العربية..

والسؤال الذى يفرض نفسه على كل باحث هل هناك عوامل ثقافية أو تراثية أو عوامل ترتبط بالشخصية القومية تجعل مثل هذا التخلف قدرا محتوما على المنطقة العربية؟ أم أن ذلك مرجعه مرحلة معينة من مراحل التطور الاجتماعى؟ أم أن سبب ذلك أن قطاعات معينة فى المجتمع، وبخاصة قطاع النخبة والمثقفين، لم يقم فى المنطقة العربية بالدور الذى يقوم به نظراؤه فى مناطق أخرى من العالم. ويتساءل البعض على سبيل المثال ألا يوجد فى العالم العربى جورج واشنطن يقود حركة الاستقلال ولا يتحول إلى حاكم مستبد! ألا يوجد فى العالم العربى إبراهام لنكولن يحرر العبيد من أسر الفكر المتخلف ويقود حركة للتنوير! ألا يوجد ميجى عربى ينطلق ببلاده فى نهضة صناعية عملاقة! ألا يوجد جان مونيه أو روبرت شومان عربى يدعو للوحدة بلا تطلع للزعامة! وهكذا تتردد على الأذهان قائمة من الأسماء بما فى ذلك أسماء شخصيات مثل غاندى ونهرو

أو حتى ليوبولد سنجور ونيريرى اللذان تنازلا عن السلطة بوعيهما وإدراكهما لضرورة التغيير. ولعل التساؤل الآخر المطروح ألا توجد فى العالم العربى نخبة مستنيرة على غرار ما يحدث فى باكستان أو أندونيسيا أو ماليزيا تدرك أبعاد القضية الوطنية، تعمل من أجل تحقيق الانطلاق الصناعى والتقدم الاقتصادى، وتضع الأولويات الصحيحة، وترسم معالم للديمقراطية حتى وإن كانت غير كاملة. وبالطبع إن طرح أسماء معينة من مناطق عدة يمكن أن يقابلها طرح أسماء عربية مثل عبد الرحمن الكواكبى، محمد عبده أو رفاعة رافع الطهطاوى فى العصر الحديث أو صلاح الدين الأيوبى فى العصور الوسطى أو عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز فى صدر الإسلام. ولكن نقطة الاختلاف الجوهرية تتمثل فى أثر هؤلاء فى العملية التراكمية المتصلة بتطور المجتمع إذ من المعروف فى العلوم الاجتماعية أن ثمة تفاعلا يتم بين الشخصيات السياسية أو الزعامات أو القيادات الفكرية وبين أوضاع مجتمعاتها وبين العصر الذى عاشت أو تعيش فيه، ومحصلة عملية التفاعل هذه هل تقودنا إلى عملية تراكمية فى تطور المجتمع أو تؤدى بنا لحدوث طفرات للأمام ثم تراجع للخلف فى إطار مبدأ الكر والفر المعروف جيدا فى التراث العربى..

المبحث الأول
الشخصية العربية وحقوق الإنسان

لا شك أن مفهوم الشخصية القومية بوجه عام والشخصية العربية بوجه خاص من أكثر المفاهيم إثارة للجدل والاختلاف بين علماء الاجتماع ولكن رغم هذا فمن المسلم به أن ثمة عناصر مشتركة تؤثر فى الشخصية القومية العربية وتعبر عنها مما يجعل لهذه الشخصية ذاتا متميزة.

ولعل دراسة مفهوم الشخصية القومية يجب أن تأخذ فى حسبانها عددا من الحقائق التاريخية والثقافية فضلا عن طبيعة التطور الاجتماعى والسياسى والاقتصادى لكل مجتمع، ومن هنا يمكننا القول بوجود شخصية عربية متميزة استنادا لوجود عوامل مشتركة بين من ينتمون للعروبة وهذا لا ينفى وجود عناصر اختلاف بينهم وفقا لاختلاف طبيعة ومدى التطور الاجتماعى فى كل إقليم من المنطقة العربية.

وقد أسهب بعض الباحثين فى تحليل الشخصية العربية من خلال تحليل العناصر الثقافية والقيمة السائدة فى المجتمع العربى من حيث تأثير الإسلام، واللغة، والقيم مثل الكرم والشجاعة والشرف، والسلوكيات، والعوامل النفسية والعاطفية التى تؤثر فيها، والنظرة للمجموعات المختلفة والعلاقات داخل المجتمع مثل النظرة للجنس أو للأقليات ونحو ذلك.

وما يهمنا هنا هو إلى أى مدى أثرت، سلبا أو إيجابا، الشخصية العربية فى نظرة العرب لحقوق الإنسان. وأبادر إلى القول بأنه ليس من الممكن أن نخلص إلى نتيجة قاطعة بأن مجموعة سكانية معينة تميل إلى احترام حقوق الإنسان، فى حين مجموعة أخرى تأخذ موقفا عكسيا، فهذا النوع من المنطق لا يتسم بالعلمية ويعبر عن تميز بل وتعصب. ومن ثم فإن التحليل العلمى يقتضى أن ننظر للاهتمام بموضوع حقوق الإنسان فى ضوء ثلاثة أمور:

الأول: طبيعة التراث الثقافى بما فيه الدين فى المجتمع العربى.

الثانى: طبيعة التطور الاقتصادى والسياسى والاجتماعى.

الثالث: طبيعة مفهوم حقوق الإنسان ذاته.

ولا شك أن التراث الثقافى العربى ارتبط فى تطوره ونظرته بالتراث الإسلامى منذ تفاعلت الحضارتان العربية والإسلامية وانصهرتا فى بوتقة شبه واحدة عبر مئات القرون. ومن ثم ورغم تميز المنطقة العربية داخل الدائرة الإسلامية الأوسع إلا أن العامل المؤثر كان هو التراث الثقافى الإسلامى وهو تراث أقل ما يقال فيه ، إن مفهوم حقوق الإنسان بالمعنى المتعارف عليه اليوم ، لم يكن يوليه اهتماما كبيرًا من الناحية العملية ، على نحو ما أوضحنا تفصيلاً فى الجزء السابق من هذا المبحث. أما طبيعة التطور الاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى المنطقة العربية فقد تأثر بعوامل التخلف من ناحية والسيطرة الاستعمارية من ناحية أخرى وهذه العوامل بدورها لم تشجع على التفكير فيما يسمى بحقوق الإنسان كمفهوم

مستقل وواضح. هذا فضلا عن أن المفـهوم ذاتـه لم يتطـور فـى الفكـر السياسى إلا فى منتصف القرن العشرين وبصفة خاصة بعد قيام الأمم المتحدة. ولكن هذا لا ينفى وجود مظاهر للاهتمام بجوانب معينة مـن حقوق الإنسان فى التراث العربى والإسلامى علـى نحـو مـا أوضحنـا فى هذا المبحث . ولكن السمة الغالبة فى النظرة لحقوق الإنسان ربما كانت تغليب الحقوق الجماعية على مفهوم الحقوق الفرديـة باعتبـار أن ذاتية الفرد وتطوره تقتضى وجوده فـى مجتمـع وأن انتمـاء الفـرد المسلم هو للجماعة المسـلمة ومن ثـم تم إعـلاء حقـوق الجماعـة علـى حساب حقوق الفرد.

تأثير ظروف التطـور التـاريخى فـى المنطقـة العربيـة علـى حقـوق الإنسان:

يعد تفسير الظواهر الاجتماعية تفسـيرًا علميـا مـن أصعب الأمـور ذلك لأنه لا يمكن عزل عناصر هـذه الظواهـر ومكوناتـها عـن بعضـها البعـض نتيجـة للتأثـير المتبـادل والتفـاعل المسـتمر بـين عناصرهـا ، فالتعليم يؤثر على نمط القيم وهذه بدورها تؤثــر فـى تطـور التعليـم ، ومستوى التنمية يؤثر فى الأمرين ويتأثر بهما وهكـذا ، وفيمـا يتعلـق بأثر مرحلة التطور التاريخى على الواقع العربى يشير بعض الباحثين بوجه خاص إلى:

١ – تأثير واقع التجزئة العربية على حركة كل قطـر عربـى ممـا أدى إلى بروز عوامــل تبعيـة ثقافيـة واجتماعيـة للخـارج مـن ناحيـة وتركز مصادر الثروة والسلطة فى يد قلة من ناحية أخرى.

٢ – إن الوضع التاريخى والحضارى فى المنطقة العربية أثر على الأداء العام والنوعى فى كثير من مجالات الحياة وكان أكثرها حساسية وتأثرًا التعليم والعمل والإعلام.

٣ – اعتمدت البنية الاجتماعية العربية على الجغرافية الطبيعية أكثر من تفاعلها مع الجغرافية البشرية أى اعتمدت على ما توافر من موارد طبيعية أكثر من الاستفادة من العوامل البشرية فأصبح الفرد العربى مستهلكًا أكثر منه منتجًا وبعبارة أخرى أكثر قابلية للتبعية منه للاستقلالية.

ويربط بعض الدارسين بين مرحلة التطور وبين حقوق الإنسان ويجعلون قيام الدولة العصرية شرطا أساسيا لضمان حقوق الأفراد والجماعات ، ومن ثم فإنه ما لم تقم دولة عربية عصرية فإنه يصعب تحقيق وضمان حقوق الإنسان فى المجتمع العربى ويرون أن استمرار الانتماءات القبلية والعشائرية فى بعض الأقطار العربية من أسباب ومقومات التخلف السياسى والحيلولة دون تطور حقوق الإنسان.

ولا شك أن طبيعة مرحلة التطور التاريخى فى المنطقة العربية التى ارتبطت بالصراع ضد ظاهرتين خطيرتين هما الظاهرة الاستعمارية والوجود الإسرائيلى وما بينهما من ترابط أثرتا فى التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى المنطقة العربية. وفى التمتع بحقوق الإنسان من أكثر من زاوية :

١ – إن الدعوة لمناهضة الاستعمار ارتبطت بتقوية مفهوم الحقوق الجماعية على حساب الحقوق الفردية التى كان عليها أن تتراجع خطوات للوراء من حيث الأولوية والاهتمام بها.

٢ - إن الصراع العربى ضد إسرائيل والاستعمار الغربى لم يقتصر على النزال فى ميدان المعركة بل امتد إلى مجالات اجتماعية ونفسية ومنها سعى إسرائيل لتشويه الطابع القومى العربى ، وساعدتها القوى الغربية فى ذلك ، وانعكس الأمر بصورة سلبية أحيانا على المثقف العربى الذى اعتمد فى دراساته وبحوثه على الدول الغربية حيث عمدت الدوائر الثقافية والفكرية الغربية لتضخيم العناصر السلبية وإخفاء العناصر الإيجابية فى الشخصية العربية بل والاستفادة من بعض الدراسات التى قام بها باحثون عرب فى هذا الصدد.

٣ - ولكن من ناحية أخرى فإن احتكاك العرب بالدول الغربية وصراعهم مع إسرائيل أحدث هزة فى التاريخ العربى الذى سادته حالة من الركود والرضاء الذاتى لفترة طويلة خاصة فى العصور الوسطى ، وهذا فى ذاته يساعد فى إحداث التطور فى العالم العربى. ثم أثرت مرحلة التطور التاريخى بعد ثورة ١٩٥٢ والتوجه نحو الاشتراكية فى إذكاء مرحلة من الصراع الداخلى فى المنطقة العربية ، مما انعكس على مفاهيم حقوق الإنسان حيث تم التأكيد على الحقوق الجماعية والحقوق الاقتصادية للفرد على حساب الحقوق الفردية والسياسية.

ولا شك أن بعض المثقفين لعبوا دورًا سلبيا فى هذا المجال بتغذية الصراعات السياسية والطبقية ، وتأييدهم لهذا التوجه السياسى أو ذاك ، ومن ثم تغذيتهم للتيارات الداعية لأحادية التفكير وليس

للتعددية السياسية والفكرية ، والتى هى أساس مفهوم حقوق الإنسان واعتبر المثقفون الذين يتحدثون عن حقوق الإنسان الفرد أوعن مفاهيم إنسانية عامة لا تتصل مباشرة بما سمى بقضايا المجتمع آنذاك أقرب إلى المفكرين المثاليين أو المنعزلين عن مجتمعهم وما يمر به من مرحلة التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى.

وترتب على مرحلة التطور التاريخى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية أن تأخر الاهتمام بموضوع حقوق الإنسان وحتى عندما تعرض له الباحثون والسياسيون فقد أعطوه أولوية متأخرة فى حين أن قضايا التحرر من الاستعمار ومناهضة إسرائيل وتحقيق التنمية الاقتصادية وإعادة بناء الدولة الحديثة أخذت مكان الصدارة فى اهتمامات القيادات السياسية بل وأحيانا معظم القيادات الثقافية والفكرية فى العالم العربى ومن هنا برزت مقولة «إن من لا يملك قوت يومه لا يملك حريته». وبعبارة أخرى إن تحقيق التنمية لها أولوية على الاعتراف بالحقوق السياسية للإنسان ، ومن هنا جاء موقف دول العالم الثالث فى المحافل الدولية فى تأكيدهم على الحق فى التنمية ، فى حين عارضت الدول الغربية هذا المفهوم واعتبرته دخيلاً على مفاهيم حقوق الإنسان وأنه ليس حقا.

وهكذا برزت إلى حيز الفكر السياسى قضية أيهما أسبق التنمية أم الديمقراطية ، وقد أدى التطور السياسى بعد انتهاء القطبية الثنائية والتحول العالمى نحو الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان إلى ما يشبه

الحسم فى هذا الموقف . ففى خطاب أمين عام الأمم المتحدة فى المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان الذى انعقد فى فيينا فى يونية ١٩٩٣ أكد «أنه لن يمكن تحقيق تنمية دائمة بدون تعزيز ودعم الممارسة الديمقراطية وبالتالى بدون احترام وحماية حقوق الإنسان» «ويضيف د. بطرس غالى فى خطابه قائلاً «إن خلاصة الأمر هى أن الديمقراطية هى صمام الأمان لتحقيق السلام والاستقرار الوطنى والإقليمى بل والدولى ، وما حركة التاريخ إلا إثبات لذلك وشاهد عليه».

المبحث الثانى
مؤتمر فيينا والتصور العربى
حول حقوق الإنسان

فى إطار الإعداد للمؤتمر العالمي لحقوق الإنسان عقد الاجتماع الإقليمى للدول الأفريقية فى تونس فى ٢ - ٦ نوفمبر ١٩٩٢ وقد نشطت فيه الدول العربية للاتفاق على تصور وخطة عمل تم اعتمادها بعد ذلك من اللجنة العربية الدائمة لحقوق الإنسان فى اجتماعها الحادى عشر فى الفترة من ١٠ - ١٤ يناير ١٩٩٣ وإحالتها إلى مجلس الجامعة الذى قام بدراستها فى دورته التاسعة والتسعين فى ١٩ أبريل ١٩٩٣ وأصدر قراره رقم ٥٣٠٢ وأهم ما تضمنه :

(أ) الموافقة على تصور خطة عمل لموقف الدول العربية فى مؤتمر فيينا لحقوق الإنسان المقرر عقده فى يونيه ١٩٩٣.

(ب) شكر الدول الأفريقية على استجابتها للموقف العربى بخصوص حق تقرير المصير وإنهاء الاحتلال الأجنبى للأراضى العربية ومطالبة الدول الآسيوية أن تؤيد ذلك فى مؤتمرها الإقليمى الذى تقرر عقده فى بانجكوك الفترة من ٢٩ مارس - ٢ أبريل ١٩٩٣.

(جـ) مطالبة الدول العربية بأن تشارك على مستوى عال فى المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان وأن تعمل على تضمين الموقف العربى فى الوثيقة النهائية له.

(د) الدعوة لعقد المؤتمر الوزارى العربى لحقوق الإنسان قبل نهاية عام ١٩٩٣ على مستوى وزراء العدل العرب وأن يقوم المؤتمر بدراسة نتائج المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان وانعكاساته على العالم العربى.

(هـ) حث الدول العربية على الانضمام إلى الاتفاقيات والمواثيق الدولية المعنية بحقوق الإنسان وتشجيع المؤسسات الوطنية الحكومية وغير الحكومية العاملة فى مجال حقوق الإنسان.

ومن الضرورى أن نشير لبعض عناصر التصور العربى لحقوق الإنسان وهو التصور الذى اعتمده مجلس الجامعة بقراره الصادر فى ١٩ أبريل ١٩٩٣. ولعل أبرز ما يميز هذا التصور هو تركيزه على:

١ - ضرورة التطبيق العالمى لحق تقرير المصير للشعوب الواقعة تحت الاحتلال الأجنبى أو السيطرة الأجنبية.

٢ - التأكيد على ضرورة احترام السيادة الوطنية والسلامة الإقليمية وعدم اتخاذ حقوق الإنسان وسيلة للتدخل فى الشئون الداخلية للدول.

٣ - إبراز أهمية الحق فى التنمية والترابط بين التنمية والمديونية والديمقراطية والتمتع بحقوق الإنسان.

٤ - الدعوة لاحترام الهوية الثقافية والدينية والحضارية للشعوب والأمم عند صياغة وأعمال المواثيق الدولية لحقوق الإنسان.

٥ - المطالبة بالتطبيق الشامل والموضوعى لمعايير حقوق الإنسان مع تجنب الانتقائية والازدواجية عند النظر فى معالجة موضوعات حقوق الإنسان.

٦ - الدعوة لمناهضة التمييز العنصرى وإدانة التطهير العرقى ومناهضة العداء للأجانب والعمل لحماية حقوق العمال المهاجرين.

وبعبارة مختصرة عبر التصور العربى عن الحقوق الجماعية للإنسان وعن المعاناة التى تواجهها الدول العربية فى المحافل الدولية عند بحث قضايا حقوق الإنسان لديها وعن خشيتها من التدخل فى شئونها الداخلية تحت شعار حماية حقوق الإنسان.

وينبغى أن نذكر بعض الملاحظات على القرار الذى أصدره مجلس جامعة الدول العربية فى دورته التاسعة والتسعين:

الأولى: أن القرار تمت صياغته من قبل اللجنة العربية الدائمة لحقوق الإنسان واعتمد كما هو دون تدقيق. فرغم أن الدورة عقدت فى ١٩ أبريل أى بعد المؤتمر الآسيوى الإقليمى الذى انتهى فى ٢ أبريل ومع ذلك دعا قرار مجلس الجامعة العربية الدول الأعضاء للسعى لتضمين إعلان بانجكوك التصور العربى.

الثانية: أن القرار حث الدول العربية على الانضمام للاتفاقيات والمواثيق الدولية المعنية بحقوق الإنسان وتشجيع المؤسسات الوطنية الحكومية وغير الحكومية العاملة فى مجال حقوق الإنسان ، وذلك فى الوقت الذى يدرك فيه أن معظم الدول العربية غير منضمة ، بل وغير متحمسة حتى لإصدار ميثاق عربى لحقوق الإنسان بدعاوى مختلفة فضلا عن رفض تلك الدول العربية الاعتراف بالمنظمات العربية غير الحكومية العاملة فى مجال حقوق الإنسان. وباختصار يمكن القول إن مجلس الجامعة العربية فى دورته التاسعة والتسعين

وعلى مستوى الوزراء لم يدقق لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون فى مشروع القرار الذى اعتمده ، والسابق إعداده منذ عدة شهور بواسطة اللجنة الدائمة العربية لحقوق الإنسان وبعبارة أخرى أن القرار اعتمد دون أن يكون لدى من وافقوا عليه النية الحقيقية لتنفيذه ، وقصارى ما قاموا به أن أحالوا الأمر لوزراء العدل.

الثالثة: إنه بإحالة موضوع حقوق الإنسان العربى لوزراء العدل وهو ليس موضوعا قانونيا فحسب بل هو موضوع له أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأنه يمس أسس النظام السياسى فى كل دولة ، أقول بإحالته لوزراء العدل قصد مجلس الجامعة حصر مفهوم حقوق الإنسان فى إطاره القانونى المحدود وإحالته للفنيين لمناقشته مطولاً.

الرابعة: وهى أن القرار أشار إلى الدعوة لعقد المؤتمر العربى الأول لحقوق الإنسان قبل نهاية عام ١٩٩٣ فى حين أنه سبق انعقاد مؤتمر عربى أول لحقوق الإنسان فى بيروت فى الفترة من ٢ – ١٠ ديسمبر ١٩٦٨ بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمى الأول لحقوق الإنسان فى طهران عام ١٩٦٨ وبعبارة أخرى أوضح قرار مجلس الجامعة انعدام وجود الذاكرة التاريخية لدى أجهزة العمل العربى.

الإعداد للمؤتمر العربى لحقوق الإنسان عام ١٩٩٣:

اجتمع المكتب التنفيذى لوزراء العدل العرب فى ٢ أغسطس ١٩٩٣ للتشاور حول كيفية اتخاذ الإجراءات والخطوات لعقد المؤتمر

العربى الأول لحقوق الإنسان وفقا لما دعا إليه قرار مجلس الجامعة فى ١٩ أبريل ١٩٩٣ وكان رئيس المكتب التنفيذى هو المستشار فاروق سيف النصر وزير العدل المصرى وضم فى عضويته وزراء العدل من تونس – العراق – الإمارات وسوريا. وقد قرر المجلس دعوة الدول الأعضاء لتقديم الآراء والمقترحات التى يرون إدراجها فى جدول أعمال المؤتمر الوزارى العربى الأول لحقوق الإنسان المزمع عقده فى نوفمبر ١٩٩٣ ، وكذلك من سيدعى لحضور المؤتمر ، من غير الدول الأعضاء أى من المنظمات سواء حكومية أو غير حكومية ونحو ذلك ، كما طالب المكتب التنفيذى الدول العربية بتقديم دراساتها الخاصة بنتائج المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان الذى عقد فى فيينا فى يونية ١٩٩٣ وانعكاسات هذه النتائج على الوطن العربى ، وأن تتم موافاة الأمانة العامة للجامعة العربية بذلك قبل ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣ ليتسنى إرسالها لجميع الدول ودراستها.

وقد تلقت الأمانة العامة ردودًا من كل من العراق – تونس – سوريا – الإمارات كما عبرت مصر عن مواقفها فى الاجتماع نظرًا لرئاستها للمكتب التنفيذى. وتتلخص أبرز مواقف الدول الأعضاء فى:

١ – ذهب العراق إلى أن مؤتمر فيينا اتسمت أعماله ونتائجه بنزعة نحو التدخل فى الشئون الداخلية للدول باسم حقوق الإنسان بما يتعارض مع مبدأ السيادة الوطنية ، وأكد العراق أهمية التمسك

بالخصوصيات التاريخية والاجتماعية والثقافية والدينية للأمة العربية فى قضايا حقوق الإنسان بما فى ذلك قضايا حقوق المرأة. وأوضح العراق أن خلق آليات قسرية في ميدان حقوق الإنسان مثل إنشاء منصب مفوض سامى ، وإرسال مراقبين للدول ، يعود بالذاكرة لعهد الاستعمار ويؤدى إلى آثار سلبية على الأمن القومى العربى. واقترح العراق دعوة ممثلين عن المجلس الوطنى العراقى وجمعية حقوق الإنسان العراقية لحضور المؤتمر العربى لحقوق الإنسان (وهذه جمعيات حكومية). كما اقترح العراق تشكيل لجنة أو هيئة قومية لحقوق الإنسان تضم قضاة وشخصيات فكرية تقوم بتقديم النصيحة والمشورة إلى جامعة الدول العربية ، وتشكيل هيئة قطرية تضم قضاة وشخصيات فكرية تقدم آراء استشارية للحكومات العربية.

٢ – أما تونس فقد عبرت عن أن اجتماع مؤتمر فيينا إنما يعكس ميزان القوى الراهن فى العلاقات الدولية ، ولا يترجم الالتزام الحقيقى والكامل بالنسبة للتطلع الجماعى لحماية حقوق الإنسان فى المستقبل . وأن تأكيد المؤتمر على مبدأ العالمية يجب أن يبقى رهينة الأوضاع الوطنية والثقافية والتاريخية. وأن مبدأ الشمولية فى مجال حقوق الإنسان يتناقض مع التوجه الذى ساد فى المؤتمر بتبجيل الحقوق المدنية والسياسية على حساب الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وأن خطورة مؤتمر فيينا أنه اجتاز مرحلة وضع المعايير إلى مرحلة التنفيذ والمراقبة ، وهذا سيفتح الباب لشرعية التدخل فى الشئون الداخلية للدول ، مما ينذر بأن تتحول حقوق الإنسان من هدف مشترك للإنسانية ، إلى أداة لخدمة الأهداف السياسية للنظام العالمى الجديد.

٣ - وأكد الموقف السورى على أهمية التمسك بالمبادئ المتضمنة فى التاريخ العربى والإسلامى ، لأن التراث العربى والإسلامى زاخر بكل القيم الفاضلة والمبادئ السامية لتحقيق التضامن العربى المنشود. وأشارت سوريا إلى خطورة ازدواجية وتعددية المعايير والمكاييل من خلال آلية حماية حقوق الإنسان وأبدت سوريا عدة ملاحظات صياغية على المشروع العربى لحقوق الإنسان مقارنة بالإعلان الإسلامى.

٤ - أوضحت الإمارات العربية المتحدة أن أعمال وأساليب وممارسات الإرهاب بجميع أشكاله ومظاهره فضلاً عن ارتباطه فى بعض البلدان بالاتجار بالمخدرات إنما هى أنشطة تقوض حقوق الإنسان ، وينبغى على المجتمع الدولى أن يتخذ الإجراءات لتعزيز التعاون فى مجال مكافحة الإرهاب ومنعه كلية. كما أوردت عدة ملاحظات صياغية على مشروع الميثاق العربى مقارنة بإعلان حقوق الإنسان فى الإسلام ، ولعل أهم المقترحات فى هذا الصدد ، المطالبة بحذف النص على أن «الشعب مصدر السلطات» وكذلك جعل حرية العقيدة والفكر مكفولة ولا يجوز تقييدها ، إلا بما ينص عليه القانون (أى الأخذ بمبدأ التقييد القانونى بخلاف المتعارف عليه فى هذا وهو أن القانون ينظم الممارسة للحقوق ولا يقيدها) ، كما طلبت الإمارات بحذف الإشارة للحق فى الإضراب.

٥ - سار الموقف المصرى على نفس نمط المواقف العربية الأخرى من التحذير من خطورة المعايير المزدوجة والتعبير عن الخشية من

استخدام حقوق الإنسان كأداة للتدخل فى الشئون الداخلية والتأكيد على الخصوصية الثقافية والحضارية للدول العربية.

كما أبرزت مناقشات المكتب التنفيذى ، فى الاجتماعين التحضيريين اللذين عقدهما ، اتجاه الدول العربية نحو قصر المشاركة فى المؤتمر على ممثلى الدول ، واستبعاد المنظمات غير الحكومية مع اختلاف فى أن يكون الاستبعاد كليًا أو أنه يمكن السماح لبعض المنظمات غير الحكومية المرشحة من قبل حكوماتها أى شبه الحكومية ، كما برز الاتجاه بأن يعقد المؤتمر فى أواخر شهر ديسمبر ١٩٩٣ وأنه يمكن أن يصدر عنه إعلان حول حقوق الإنسان العربى وأن يكون هذا الإعلان بمثابة مرحلة نحو إصدار الميثاق العربى لحقوق الإنسان وأن هذا الإعلان ينبغى أن يكون مضمونه بنفس المضمون العام الوارد فى إعلان حقوق الإنسان فى الإسلام.

وفى ٢٣ نوفمبر ١٩٩٣ قامت المملكة العربية السعودية بإرسال مذكرة للأمانة العامة للجامعة العربية تقترح تأجيل عقد المؤتمر العربى الأول لحقوق الإنسان إلى موعد آخر أكثر ملاءمة لأن الموضوع مازال قيد البحث والتقييم وجرى التشاور فى إطار المكتب التنفيذى الذى وافق على ذلك ، وهكذا أسدل الستار على فكرة عقد المؤتمر العربى الأول لحقوق الإنسان إلى حين تغير الظروف فى مرحلة ما فى المستقبل.

المبحث الثالث
دلالات الموقف العربى
إزاء قضايا حقوق الإنسان

لا شك أن تطور الموقف العربى من قضايا حقوق الإنسان تحكمه ثلاثة اعتبارات:

١ - أهمية مسايرة المد العالمى فى الاهتمام بقضايا حقوق الإنسان، ومن هنا نلمس كثرة التصريحات العربية حول هذا الموضوع، وأن هذه الحقوق موضع رعاية واهتمام، وفى نفس الوقت توجيه النقد للموقف الغربى الذى يتسم بالازدواجية، واستخدام حقوق الإنسان كأداة سياسية.

٢ - الحساسية العربية المتصلة بمبدأ الخصوصية الثقافية والحضارية، والخشية الحقيقية سواء بين السياسيين أو معظم المثقفين من أن يؤدى مبدأ شمولية وعمومية مفهوم حقوق الإنسان إلى القضاء على هذه الخصوصية، وما يتصل بها من تراث عربى وإسلامى له قيمه ومثله التى تختلف عن تلك السائدة فى المجتمعات الغربية. والواقع أن الحساسية حول الخصوصية ليست قاصرة على الدول العربية أو الإسلامية بل هى ممتدة لمعظم دول العالم الثالث وخاصة الدول ذات الحضارات العريقة وأيضا الدول التى لديها تنوع فى الأعراق والأجناس والأديان مثل الهند والصين.

٣ - طبيعة مرحلة التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى التى لم ترق بعد إلى مستوى يسمح بوجود مؤسسات قوية ومستمرة تحكم عمل النظم السياسية ، وتتيح الفرصة لتعدد القوى والاتجاهات والآراء ، فضلاً عن الظواهر الطارئة التى تزعزع استقرار بعض النظم مثل ظاهرة الإرهاب والتطرف.

ونتيجة للاعتبارات الثلاثة السابقة وتفاعلها ، فإن التوجه العربى، فى الوقت الراهن ، إنه مع الإقرار بأهمية أخذ مبادئ حقوق الإنسان فى الاعتبار في النظم السياسية العربية ، فإن العمل يجب أن يكون هادئًا ومعتدلاً وليس فى شكل مؤتمرات ضخمة تمثل قوة ضغط حقيقية ، وتستغل إما من جانب الدول غير العربية أو قوى المعارضة داخل الدول العربية بما يؤثر على استقرار النظم العربية أو يدفعها لاتخاذ خطوات غير محسوبة أو أسرع مما تسمح به طبيعة مرحلة التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى.

ولا ريب أنه فى مواجهة هذا الموقف الرسمى المتحفظ تجاه موضوعات حقوق الإنسان فإن المواقف الشعبية أكثر تقدما إذ تنشط المنظمة العربية لحقوق الإنسان ، وكذلك المنظمات القطرية ، فضلا عن اتحادات المحامين العرب ، والصحفيين العرب ، ومراكز الأبحاث والدراسات ومن ذلك الندوة التى نظمها المركز العربى للدراسات الإعلامية بالقاهرة فى ٢٧ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٣ حول حرية الصحافة والإعلام وحقوق الإنسان فى الوطن العربى وشارك فيها ممثلون من عدة دول واتجاهات سياسية عربية مختلفة.

ولا شك أن الموقف الرسمى المتحفظ لمعظم الدول العربية ، وما هو ملموس أحيانا من تجاوز فى الممارسات الخاصة بحقوق الإنسان تدفع بعض التجمعات غير الحكومية لمواقف متطرفة فى الاتجاه العكسى وهو ما يتجلى أحيانا فى بعض تقارير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، والتى تكاد تتطابق مع تقارير منظمة العفو الدولية سواء فى الأسلوب أو المفاهيم أو الموضوعات ، وهذا فى ذاته لا يشجع الحكومات والنظم العربية ، إذ أنها تشعر بأن هذه المنظمات غير الحكومية لا تأخذ فى حسبانها طبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية ولا تراعى الخصوصيات الثقافية والحضارية. هذا مع عدم إغفالنا بأن مبدأ الخصوصية لا يجب أن يتخذ تكأة للمساس بالحقوق الجوهرية والحريات الأساسية ، إنما هو خصوصية محدودة فى قضايا معينة لاعتبارات اختلاف القيم والثقافات ، وهى خصوصية تتجه أساسا إلى الممارسة والتطبيق ، وليس إلى المبادئ التى معظمها يتسم بالعمومية والشمول. وأيضا يجب ألا نغفل أن مبادئ حقوق الإنسان ترفع فى بعض الدول الغربية وتستغل لمآرب سياسية، ويتبع بشأنها معايير مزدوجة ، فهذه حقائق لا ينبغى على من يتصدى بالتحليل العلمى الموضوعى للظاهرة أن يغفل عنها أو يتناساها – ولكن فى نفس الوقت نؤكد على أهمية الاعتراف بحقائق أساسية تتصل بحقوق الإنسان وفى مقدمتها الحرية الإعلامية بصورها المتنوعة ، وهذه الحرية أصبحت تقتحم

المجتمعات بل والمنازل دون استئذان نتيجة للتطور التكنولوجي في وسائل الإعلام والاتصالات ومن ثم فمن الضرورى أن يتطور فكر النظم العربية والمثقفين العرب للوصول إلى كلمة سواء تسمح بتحقيق تقدم ثابت ومستقر نحو الاعتراف بحقوق الإنسان واحترامها دون إحداث هزات عنيفة فى المجتمعات العربية.

بعد أن استعرضنا فى الصفحات السابقة كيفية تطور النظرة العربية لموضوع حقوق الإنسان فإنه من الضرورى أن نختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات ذات الطبيعة العامة والتى أشرنا إليها فى ثنايا هذا الفصل وهى:

الأولى: أن العالم العربى مازال يعيش فى مرحلة من التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى لم تستقر بصفة دائمة كما أن مؤسسات تلك النظم مازالت فى طور التبلور والتكوين وهى المؤسسات التى بدونها يصعب الحديث الجدى والجاد عن موضوعات حقوق الإنسان.

الثانية: أنه رغم الملاحظة السابقة فإن قضية حقوق الإنسان سواء من حيث احترام هذه الحقوق أو من حيث التمتع بها ليست بالصورة السيئة التى تقدمها بعض أجهزة الإعلام الغربية أو التى يمكن أن تكون عليه الحالة نتيجة عدم وجود المؤسسات المستقرة التى ترعى مثل هذه الحقوق كما يحدث فى الدول الغربية بوجود المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان باختصاصاتها الواسعة، أو بوجود

السلطة القضائية المستقرة والمستقلة والتى تعد ضمانة حقيقية للحفاظ على تلك الحقوق، أو بوعى الشعب ككل أو المواطن الفرد بحقوقه وإصراره فى الدفاع عنها، أقول رغم كل ما سبق فإن طبيعة الشخصية العربية والثقافة العربية تجعل حقوق الإنسان فى إجمالها موضع احترام وتقدير لحد كبير بما يتمشى مع طبيعة القيم السائدة ومرحلة التطور الاجتماعى..

الثالثة: أن موضوع حقوق الإنسان مازال يعانى من الناحية النظرية والعملية فى شتى بقاع العالم من ازدواجية المعايير من جانب وكيفية المواءمة بين الخصوصية والعمومية من جانب آخر وأن هذه الملاحظة لا تنطبق على الدول العربية أو على الدول النامية فحسب بل وعلى الدول المتقدمة أيضا ولعل فيما نقلته الأنباء الصحفية خلال مايو ١٩٩٤ عن خوف فرنسا على ثقافتها من سيطرة الثقافة الأمريكية وخوف فرنسا على لغتها وفرضها غرامة على من يستخدم مصطلحات غير فرنسية فى الاجتماعات التى تتم فى فرنسا خير دليل على حالة القلق والصراع المرتبط بالثقافات المختلفة وبعبارة أخرى عدم الوصول إلى حالة من التوازن بين العمومية فى النظرة لمبادئ حقوق الإنسان وبين الخصوصية المرتبطة بتنوع الثقافات والحضارات..

الرابعة: الحساسية المتصلة باستخدام قضية حقوق الإنسان كوسيلة للتدخل فى الشئون الداخلية لبعض الدول وبعبارة أخرى استخدام هذه القضية كأداة لخدمة أغراض السياسة الخارجية لدول

معنية تجاه بعض الدول الأخرى وفقًا لاعتبارات وظروف العلاقات الدولية.

الخامسة: أن اعتماد مجلس الجامعة في دورته ١٠٢ الميثاق العربي لحقوق الإنسان يعد خطوة أولى نأمل أن تتلوها خطوات في مسيرة الألف ميل من أجل ضمان احترام حقوق الإنسان في الوطن العربي. إذ أنه من المفترض وفقا للمادة ٤٢ من الميثاق أن يلي اعتماده من مجلس الجامعة وعرضه على الدول للتوقيع عليه من جانب كل دولة ثم تصديقها وعندما يكتمل النصاب وهو تصديق سبع دول عليه يبدأ دخول الميثاق حيز التنفيذ.

الفصل الخامس

البعد الاقتصادى فى
العمل العربى المشترك

إنه من بديهيات العلوم الاجتماعية ، أن ثمة روابط تاريخية وحضارية وثقافية تربط المنطقة التى نعيش فيها ، بحيث تجعل أبناءها بمثابة لبنات فى بناء مندمج ، منصهر ، متكامل ، أو بمثابة خيوط فى نسيج متداخل متشابك وسواء أكان التشبيه يتعلق بالبناء أو بالنسيج فإنه لا شك يعترى البنيان كما يطرأ على النسيج بعض المؤثرات والعوارض نتيجة تعرضه لتفاعلات الزمن بخطبه وخطوبه ، الأمر الذى يستدعى أن يتم من حين لآخر ترميم ما يتداعى أو يتآكل من البنيان ، الذى من المنطقى أن يصمد لعاديات الزمن ، وعاتيات الأحداث ، خاصة إذا كان هذا البنيان يقف على أرض صلبة وله جذور عميقة وأعمدة قوية ، كما هو شأن البنيان العربى الذى يستمد جذوره من انصهار حركة السكان فى المنطقة الممتدة من غرب آسيا إلى شمال أفريقيا ، والتى اصطلح على تسميتها بالعالم العربى أو أحيانا بالشرق الأوسط أو بالشرق الأدنى ، أخذًا فى الحسبان أن التسمية الأولى تعبر عن هوية ثقافية وحضارية وسياسية قديمة تمتد لمئات إن لم نقل لآلاف السنين ، وأما التسمية الثانية فهى تعبر عن حقيقة جغرافية ذات أبعاد استراتيجية وسياسية حديثة ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ومن ثم فإن العمل العربى المشترك ليس حدثا عارضا فهو من حيث المضمون قديم وإن كان ربما من حيث التسمية والمصطلح يعد شيئا جديدًا. كما أن حالة التردى فى الواقع العربى الراهن ليست جديدة فهى ظاهرة متكررة فى التاريخ العربى ، ناهيك عن أن صراع التيارات الفكرية بدوره ليس شيئًا مستحدثا بل يرجع إلى بدء نشأة التاريخ الإسلامى واختلاف منظور الدولة الأموية مثلا مقارنة بمنظور الدولة العباسية أو بمنظور الدولة الأندلسية أو الفاطمية وهكذا.

وانطلاقا من هذه المقدمة المنطقية ذات البعد التاريخى نلقى نظرة على أطر العمل العربى المشترك والتصورات المستقبلية بشأنه.

وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين هما :

١ - نظرة عامة على العمل العربى المشترك.

٢ - العمل العربى المشترك فى المجال الاقتصادى.

المبحث الأول
نظرة عامة على العمل العربى المشترك

إن الحديث عن العمل العربى المشترك هو حديث ذو شجون ذلك لأن هذا العمل يجب أن يتجسد فى حقائق ملموسة وهو بالفعل قائم فى عدد منها سواء فى شكل اتفاقيات تشمل مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والقانونية أو فى هياكل ومؤسسات عربية تنظم الجوانب السابقة وتتولى متابعة وتقييم ذلك وتقديم المقترحات والبدائل.

وإذا كان بعض المثقفين ورجال السياسة فى هذا الجزء أو ذاك من الوطن العربى الكبير يشعرون بحالة من الإحباط لما يلمسونه من تعثر العمل العربى المشترك ومن بوادر تراجع نتيجة الظروف السياسية التى تمر بها الأمة العربية فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها المعاصر ، فإن هذه الحالة لا يجب أن تنسينا الحقيقة الثابتة ، وهى أن المنطقة العربية بينها من الوشائج والروابط مالا يمكن زعزعته أو المساس بدعائمه الراسخة ، نتيجة الأحداث والظواهر العارضة.

وليس هذا تعبيرا عن أمل نتطلع إليه بل هو تعبير عن حقائق كانت ومازالت تشكل طبيعة العلاقات العربية التى تتسم أحيانا بعنف التفاعلات وأحيانا تتمهل فى حركتها ، ومن ثم يصاب، أحيانا ، المتتبع لها بدوار يفقد معه الوجهة الصحيحة لعمله وحركته إذا لم تكن لديه بوصلة جيدة تعطيه المؤشر الصحيح للاتجاه.

ولعل الإطار الأول والأهم هو إطار جامعة الدول العربية بصفتها المنظمة القومية الإقليمية الأم لكافة أجهزة العمل العربى المشترك. لقد نشأت هذه الجامعة فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ فى ظل ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة فى الإطارين الإقليمى والدولى عما هو عليه الوضع الآن. وقد أشرنا لهذا فى مباحث سابقة وما يهمنا فى هذا المبحث هو تقديم تحليل عام للعمل المشترك ومدى فعالية جامعة الدول العربية إزاءه وسيكون تركيزنا الرئيسى فى المبحث التالى على المجال الاقتصادى.

فمن الناحية السياسية كان معظم المنطقة العربية ما يزال يرزح تحت نير الاستعمار حتى إن الدول السبع التى أسست الجامعة العربية لم يكن استقلالها كاملاً إذ كان ببعضها قواعد عسكرية أو قوات أجنبية. كما أن الوضع الاقتصادى والاجتماعى كان يحكمه التخلف بصورة لا لبس فيها. فالشركات الأجنبية كانت تسيطر على إنتاج وتسويق البترول وغيره من المواد الأولية المنتجة فى المنطقة وحالة الأمية كانت شبه كاملة والوعى السياسى والقومى كان محدودًا. وعلى المستوى الدولى كانت ملامح الحرب الباردة وما تنم عنه من استقطاب دولى فى سبيله للتبلور. وكانت أجهزة الاتصال والمواصلات بين دول العالم محدودة ، وتستغرق زمنا لا بأس به مقارنة بما عليه الحال فى العقد الأخير من القرن العشرين الذى نعيشه الآن.

ولعل إلقاء نظرة ولو خاطفة على الواقع السياسى الإقليمى والدولى تظهر بجلاء وبلا تردد إلى أى مدى حدث التغير. فالدول العربية أصبحت ٢٢ دولة مستقلة كما أن سيطرة تلك الدول على مواردها الطبيعية ومقدراتها الاقتصادية أصبحت أكبر مما كانت فى الماضى ، كذلك الأمر بالنسبة لدرجة استفادتها من عائد تلك الموارد ، وهذا واضح فى تطور البنية الأساسية من طرق ومواصلات واتصالات ، ومن تطور البنيان الفوقى فى مجالات التعليم والثقافة والإعلام ، وفى درجة المشاركة فى العملية السياسية فى مختلف الدول العربية مع اختلاف فى مدى وطبيعة تلك المشاركة من دولة لأخرى ، إلا أن حقيقة التطور أو التغير لا يستطيع أحد أن يجادل فى حدوثها.

أما على الساحة الدولية فقد اختفت القطبية الثنائية وبرزت قوى جديدة على الساحة الدولية مثل الشركات متعددة الجنسيات والمنظمات غير الحكومية ، كما احتلت قضايا جديدة مكان الصدارة مثل قضايا حقوق الإنسان ، البيئة ، المخدرات. وتعرضت بعض النظريات القانونية بل والمفاهيم السياسية لعناصر التغير يكفى أن نشير إلى نظرية السيادة التى طرأ عليها بعض التآكل أو القيود بدرجات متفاوتة ، وكذلك حل مفهوم التساند الدولى محل مفهوم الاكتفاء الذاتى ، وأخذ مفهوم حرية التجارة يكتسب أرضا جديدة على حساب مفهوم الحماية والحواجز الجمركية ، وبعبارة أخرى أثرت عوامل التطور التكنولوجى الهائل فى بلورة الإحساس بأن العالم تحول إلى قرية عالمية ذات مصير مشترك واحد ، وأقول إنه

إحساس لم يتحول بعد إلى واقع حقيقـــي ، لأن عمليـة بنـاء المفـاهيم والقيم والهياكل الجديدة تستغرق وقتـا ، كمـا أن التطـور فـى الفكـر الاجتماعى بوجه عام اقل سرعة من التطور فى مجال العلـوم البحتـة والتكنولوجيا التى أصبحت تستدعى تبلـور قيـم ومفـاهيم وسـلوكيات جديدة فى المجال الثقافى لتتمشى مع الجانب المادى فى التطور.

ولعل أهم نتائج التغـيرات الدوليـة هـو اقتنـاع معظـم قـادة العـالم بالالتجاء إلى أسلوب التفاوض والحوار لحـل النزاعـات الدوليـة بـدلا من امتشاق الحسام بين القوى العظمى ، وإن كان لا ينفـى أن بعـض مناطق العالم ما زالت تموج بصراعات مسلحة نتيجة عـدم الاسـتقرار السياسى والاجتماعى والحالة فى البلقان خير دليل على ذلك.

والتساؤل ما هو تأثير ذلك على العمل العربى المشترك؟ لا شك أن ما حدث ويحدث فى العالم ، سـيؤثر سـلبًا أو إيجابًـا علـى المنطقـة العربية التى تحتل موقع القلب فى العـالم ، كمـا يـرى ذلـك بعـض المفكرين الاستراتيجيين. وأيا كانت النظرة الاستراتيجية لهذه المنطقة فإنها منطقة بالغة الأهمية الاستراتيجية والحساسـية السياسـية ، إذ يمكن أن نقول إنها صورة مصغرة للعالم بحضاراته المتنوعة ، وأديانه المختلفة ، وتداخـل عنـاصر البشـرية ، واحتوائـه علـى مـواد أوليـة استراتيجية ، لعل أهمها البترول ، وإطلالها على الخلجان والبحـار الهامة التى تربط مناطق العالم المختلفة ببعضها البعض. ولقـد بـرزت أولى آثار التغير العالمى على تحول فكر الكثيرين فى المنطقـة العربيـة لاعتبار السلام هو الخيار الاستراتيجى ، وأن تحقيقه عـبر التفـاوض والحوار وهذا ليس أمرًا سهلاً إذ لا تزال بعض الأفكار والطموحات أو

المطامع لم تختف بعد ، أو لم يستطع أصحابها إدراك عمق التغيرات، وهذا منطقى أحيانا إذ ليس من السهل حدوث التغير فى الأفكار والقيم بين عشية وضحاها ، ولقد دلت تجارب التاريخ السياسى على أن عملية الانتقال من مرحلة واضحة المعالم لمرحلة جديدة واضحة المعالم أيضا تمر بمرحلة رمادية تتفاعل وتتصارع فيها الأفكار والمصالح والأهداف والنظم ، مرحلة يمكن وصفها بالسيولة والتموج وعدم الاستقرار تسودها أحيانا حالة من الشك والخوف من الجديد ، كما قد تظهر فيها حالات من الرغبة فى المغامرة واستكشاف المجهول.

لا شك أن جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة واتحاداتها النوعية قد استطاعت على مدى خمسة عقود أن ترسى قاعدة مؤسسية للتعاون العربى يمكن إذا أحسن استغلالها ، وتوافرت الإرادة السياسية من قبل الدول ، أن تعد قاطرة لتحقيق تعاون عربى يرقى لمستوى الطموحات ، وفى نفس الوقت يتجاوب مع حقائق المتغيرات الإقليمية والدولية المتسارعة. وقد طرحت الأمانة العامة للجامعة العربية على الدورة الماضية (فبراير ١٩٩٤) للمجلس الاقتصادى والاجتماعى دراسة بعنوان «التطورات الدولية والإقليمية وأثرها على الاقتصاديات العربية» تناولت الجات وفكرة السوق الشرق أوسطية ، كما أنه من الضرورى مواصلة الجهد لإعادة هيكلة مؤسسات العمل العربى المشترك وفقا للمعايير السابق إقرارها من المجلس الاقتصادى والاجتماعى والالتزام بذلك بكل دقة.

وبالإضافة لذلك فإن جامعة الدول العربية ، بناء على اقتراح من مصر ، وموافقة مجلس الجامعة أعدت دراسة متعمقة عن الأمن القومى العربى ما تزال قيد البحث من الدول الأعضاء وينبغى التنادى السريع لمناقشتها وبلورتها فى صورتها النهائية والعمل بما تتضمنه من توصيات وآراء وأفكار تحقق المصلحة العربية المشتركة وتكفل تعزيز الأمن القومى العربى الذى يواجه أخطر التحديات فى المرحلة الراهنة.

والسؤال الآن ما هى القضايا المطروحة على صناع القرار فى هذه المنطقة؟ لعل فى مقدمة تلك القضايا طبيعة العلاقات المستقبلية بين دولها سواء فى المجال السياسى أو فى مجال التكامل أو التعامل الاقتصادى ، أو فى مجال قضايا الأمن القومى بأبعاده المختلفة ، أو فى مجال الاستفادة من العلوم والتكنولوجيا لإحداث نقلة نوعية فى مستوى حياة سكان المنطقة. وكذلك طبيعة علاقة المنطقة مع غيرها من مناطق العالم وتكتلاته الاقتصادية والسياسية فى عصر تحولت فيه القارات الممتدة عبر البحار والمحيطات إلى قرية عالمية ، أصبحت أجزاؤها تتأثر وتؤثر فى بعضها البعض ، ولعل ظاهرة الدفيئة العالمية وأثرها فى ارتفاع منسوب المياه وأثر ذلك على جغرافية بل وتاريخ مناطق معينة خير دلالة على مدى ضخامة وأثر المتغيرات العالمية. ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه بالتوازى مع المفاوضات الجادة على المسارات الثنائية المختلفة بدأت عملية هامة من المباحثات متعددة الأطراف حول التعاون الإقليمى بين أطراف النزاع

وبينها وبين دول العالم الأخرى حول قضايا التنمية الاقتصادية والبيئية ونزع السلاح والمياه واللاجئين ، وكلها مجالات هامة توليها الأطراف ، ودول العالم المعنية بالسلام والاستقرار فى المنطقة ، اهتماماتها الكبيرة ، أملاً فى التوصل للأمن والاستقرار بما يعود بالفائدة على كافة شعوب الشرق الأوسط والعالم.

والتساؤل هل هناك بوصلة ما يهتدى بها العاملون فى المجال السياسى بل والاقتصادى. أعتقد أن ذلك أمرًا ضروريًا غاية الضرورة وهامًا غاية الأهمية.

ما هو المطلوب إذن؟ أقول إن المطلوب هو أن تعمل مراكز الأبحاث والمفكرون على تحليل هذه الظواهر والتوجهات ووضع البدائل المختلفة ، والسيناريوهات المتنوعة أمام صانعى القرارات السياسية والاقتصادية فى ضوء المعطيات الثابتة والحقائق الجديدة والظروف المتغيرة.

ولا شك أن الأمر يستدعى نظرة ثاقبة علمية وواقعية تعتمد على الذاكرة والتحليل والرؤية. الذاكرة لدراسة الماضى بغية معرفة ثوابته وأبعاده ، والتحليل لوقائع الحاضر وعزل الحقائق عن التمنيات والتخيلات ، والرؤية لاستشراف المستقبل فى ضوء الحقائق الثابتة والمعطيات الجديدة.

المبحث الثانى

العمل العربى المشترك فى المجال الاقتصادى

بادئ ذى بدء لابد أن نشير إلى عدد من التحفظات بشأن هذا الموضوع. يرجع التحفظ الأول إلى المدى الزمنى منذ تبلور العمل العربى المشترك وحتى الآن زهاء خمسين عاما من الصعب أن تغطى دراسة موجزة مثل هذه المدة الطويلة ، التحفظ الثانى يرجع إلى التنوع فى مجالات العمل الاقتصادى العربى ، هذا التنوع الموضوعى يجعل من الصعب الإلمام بشتى جوانب العمل الاقتصادى فى صفحات قلائل ، وثالث هذه التحفظات هو صعوبة التقييم الموضوعى المتجرد ، فالعاملون فى كل منظمة عربية يرون أهميتها الكبيرة ، والذين هم خارجها يرى معظمهم ألا جدوى منها ، وهكذا نجد الحقيقة والتقييم الموضوعى يغطى فى غلالة وربما غلالات من المصالح الشخصية أو المعاناة الذاتية. ولكن مع كل هذه الصعوبات فمن الضرورى المحاولة.

لا شك أن هناك أكثر من مدخل لإلقاء نظرة على مدى فعالية الأداء الاقتصادى لجامعة الدول العربية ، فمنها استعراض ما جاء فى ميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى ، ومعرفة ما تم تنفيذه وما لم يتم. ومنها استعراض نشاط المنظمات العربية المتخصصة ، وتقييم مدى جدوى مثل هذا النشاط ، ومنها الاقتراب من خلال محاولة البحث عن إطار مستقبلى ، ثم تحليل

مدى إمكانية ذلك من عدمه وهذا المنهج الأخير هو ما سنتبعه. ولذلك فإن المدخل لهذا المنهج هو المحاولة التى قام بها مجلس الجامعة فى الدورة ٩٨ عندما طلب بقراره رقم ٥٢١٥ فى سبتمبر ١٩٩٢ من الأمانة العامة إعداد دراسة حول الأمن القومى العربى ، وقد أعدت تلك الدراسة بالفعل وقدمت لمجلس الجامعة فى الدورة ١٠٠ وقام ببحثها ، ثم قرر تأجيل اتخاذ قرار بشأنها إلى دورة قادمة. وما يهمنا هو الجزء الاقتصادى فى الأمن القومى العربى إذ أبرزت الدراسة أن التكامل الاقتصادى العربى ، هو أحد أهم الدعائم الرئيسية للأمن القومى العربى ، فى عالم يزداد فيه دور التجمعات والتكتلات الاقتصادية ، إلا أنه من المهم تحديد الوسيلة الفاعلة لتحقيق هذا الهدف وقد طور المجلس الاقتصادى والاجتماعى رؤيته بشأن أفضل الوسائل لتحقيق ذلك ، باتباع سياسة الإصلاح الاقتصادى التى تهدف إلى تحقيق استقرار اقتصادى وتنمية متواصلة تنعكس إيجابا على مستوى معيشة المواطن العربى ، وفى نفس الوقت تسعى إلى تطوير أساليب إدارة الاقتصادات العربية بما يسهل مسيرة التكامل الاقتصادى العربى ويحقق توازنًا أفضل للاقتصادات العربية فى علاقاتها الاقتصادية الخارجية ، وتحسين موقعها فى النظام الاقتصادى الدولى ، وتعزيز التعاون لتحقيق التكامل الاقتصادى العربى ، الهادف إلى النهوض باقتصاد كافة الدول العربية سواء فى المجالات الصناعية أو الزراعية أو التجارية ، وقد تبنى المجلس الاقتصادى والاجتماعى هذا المدخل منذ دورته التاسعة والأربعين وأكد على:

١ – برامج الإصلاح والاستقرار المالى والنقدى.

٢ – برامج التخلص من القيود الاقتصادية لتحرير الأسعار والسلع والاستثمار.

٣ – برامج تحسين الكفاءة الإدارية والدعوة لأن تتخلص الدولة من عبء تشغيل وتملك بعض الوحدات الإنتاجية وأن تترك ذلك للقطاع الخاص.

ثم تستعرض الدراسة أهم ملامح العمل الاقتصادى فى تشجيع الاستثمارات العربية وتحقيق الاستقرار المالى والنقدى وتحسين الكفاءة الإنتاجية وتحقيق الأمن الغذائى وتطوير شبكة النقل والمواصلات البرية والبحرية والاتصالات وضرورة وضع استراتيجية للموارد المائية.

ولا شك أن تحليل ما سبق يظهر حقيقة المأزق الذى يواجهه العمل الاقتصادى العربى فهو من ناحية مازال يتطلع للتكامل الاقتصادى ، ويستند فى ضرورة ذلك إلى التطورات العالمية ، وهو من ناحية أخرى مازال يركز على مشروعات البنية الأساسية ، التى لم تستكمل بعد ، على النطاق العربى ، وهو من ناحية ثالثة ركز على أن عمله يستند أساسا لفلسفة الحرية الاقتصادية والليبرالية.

ويمكن طرح التساؤل وهل يمثل ذلك مأزقا؟ أقول نعم لأن الدول العربية مازالت لم تستقر بعد على فلسفة محددة للتطور الاقتصادى ، ورغم موجة التخصصية فإن القطاع العام مازال قائمًا وقويا فى عدد

الدول العربية ، ثم إن التخلف التكنولوجي والإدارى هو السمة السائدة ، فضلاً عن ضيق الأفق الاقتصادى المتمثل في أبرز مظاهره في تعدد الصناعات وتشابهها في بعض الدول العربية دون التفكير بمنطق التكامل ، أو حتى مجرد الفكر الرأسمالى الرشيد بدراسة إمكانيات السوق والجدوى الاقتصادية بدلاً من تكرار إنشاء صناعات ضخمة في دول متجاورة ومن ثم فإن هذه الصناعات أقرب للمظهرية المتصلة بالاعتبارات السياسية منها للإنتاجية وفقًا للمعايير الاقتصادية هذا فضلاً عن تعدد الأجهزة العاملة في المجال الاقتصادى العربى وتضاربها من ناحية وضعفها من ناحية أخرى.

ولا ريب في أن الحوار الدائر منذ فترة حول ثلاث قضايا يعكس بوضوح هذه المشكلة ولذلك سنركز في تقييمنا لأداء جامعة الدول العربية في المجال الاقتصادى على هذه القضايا الثلاث وهى:

١ – الدمج أو الاستقلالية بين مجلس الوحدة الاقتصادية والمجلس الاقتصادى والاجتماعى.

٢ – هيكلة أو إعادة هيكلة منظمات العمل الاقتصادى العربى.

٣ – تمويل منظمات العمل الاقتصادى العربى المشترك.

ونعرض بإيجاز لكل من هذه القضايا مع التركيز على مدلولات ذلك لأن التطور التاريخى لها قد تناولته أبحاث عديدة.

القضية الأولى: مدلولات الدمج أو الاستقلالية بين مجلسي الوحدة الاقتصادية (الاقتصادى والاجتماعى) وارتباط ذلك بمشروعات التكامل الاقتصادى العربى أو الإقليمى.

لقد أثيرت هذه المشكلة منذ عدة سنوات عندما كان المجلس الاقتصادى والاجتماعى يبحث إعادة هيكلة منظمات العمل المشترك حيث تشكلت لجنة وزارية عام ١٩٨٦ وبعد دراسة مستفيضة خلال عامى ٨٧ – ١٩٨٨ انتهى الرأى آنذاك إلى ضرورة الإبقاء على المجلسين ، على أساس اختلاف العضوية فى كل منهما ، واختلاف طبيعة التوجهات والأولوية رغم وجود بعض التداخل. إلا أن المشكلة عادت للظهور فى عام ١٩٩٣ عندما أثارت ذلك دول مجلس التعاون الخليجى ثم تم بحث الأمر فى اجتماع وزراء المالية والاقتصاد لدول إعلان دمشق فى اجتماعهم يوم ١٨ مايو ١٩٩٣ وطالبوا بدراسة الموقف. وينبغى أن نشير إلى أن الإمارات العربية المتحدة هى الدولة الوحيدة من مجلس التعاون الخليجى العضو فى مجلس الوحدة الاقتصادية ، أما الكويت فقد قررت الانسحاب من المجلس عام ١٩٩٠ وأصبح قرارها نافذًا فى عام ١٩٩١. ولا شك أن إلقاء نظرة تاريخية على نشأة وتطور مجلس الوحدة الاقتصادية تقدم لنا الكثير من العناصر التى تساعد فى تحليل وفهم طبيعة العمل الاقتصادى العربى المشترك ويرجع ذلك إلى القرار الذى اعتمده المجلس الاقتصادى التابع للجامعة العربية فى ٣ يونية ١٩٥٧ والخاص باتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية وذلك بحضور ممثلى

١٢ دولة هي: الأردن – تونس – السودان – العـراق – السـعودية – سوريا – مصر – لبنان – ليبيا – اليمـن – المغـرب – الكويـت. وقـد وقع على الاتفاقية اعتبارا من عام ١٩٦٢ كـل مـن مصـر – سـوريا – الكويت – الأردن – المغرب – العراق – اليمن ، وصدقت هذه الدول على الاتفاقية بعد ذلك ماعدا المغرب ، ومن ثم دخلت الاتفاقية حيز النفاذ فى أبريل عام ١٩٦٤. وقـد أصبح عـدد الأعضـاء فـى مجلس الوحـدة الاقتصاديـة فيمـا بعـد ١٣ عضـوا بانضمـام الـدول التاليـــة: السـودان – اليمــن الجنوبــى – الإمــارات – الصومــال – ليبيــا – موريتانيا – فلسطين وتم انضمام هذه الدول خلال عـامى ٧٤ –١٩٧٥ عدا السودان الذى انضم عام ١٩٦٩ ، وبالوحدة بين شطرى اليمــن ، ثم انسحاب الكويت عام ١٩٩٠ أصبحت العضوية الحاليـة ١١ دولـة هـى: مصـر – سـوريا – الأردن – العـراق – اليمـــن – الســودان – الإمارات – الصومال – ليبيا – موريتانيا – فلسطين.

أنشأ المجلس الاقتصـادى والاجتمـاعى (الاسـم الجديـد للمجلـس الاقتصادى اعتبارا من عــام ١٩٥٩) فـى عـام ١٩٦٢ مجلـس الوحـدة الاقتصادية ليكون الهيئة التــى تشـرف علـى تنفيـذ اتفاقيـة الوحـدة الاقتصادية العربية ولم يبدأ المجلس المذكور فى العمل إلا عام ١٩٦٤ عندما دخلت الاتفاقية حيز النفاذ.

وقـد اتخـذ مجلـــس الوحـــدة الاقتصاديـــة قــراره رقــم ١٧ فـــى ١٩٦٤/٨/١٣ بإنشاء السوق العربية المشتركة ووافقت على القرار كـل من سوريا ومصر والعـراق والأردن والكويـت وقـد أصبحـت الاتفاقيــة

سارية المفعول اعتبارا من أول يناير ١٩٦٥ ووضعت الاتفاقية ومجلس الوحدة الاقتصادية برامج للتخفيضات الجمركية وانتقال رءوس الأموال والأفراد بحيث كان هدفها الوصول لإعفاء جمركى كامل في أول عام ١٩٧٠ بالنسبة للمنتجات الزراعية والثروات الطبيعية ، وفى أول عام ١٩٧٥ بالنسبة للمنتجات الصناعية. ثم جرى تعديل الاتفاقية عام ١٩٦٨ بتقليص مراحل السوق المشتركة ليتحقق الإعفاء الكامل اعتبارا من أول يناير ١٩٧١ بدلا من ١٩٧٥.

ولكن على مستوى التطبيق الفعلى لم يتم الإعفاء الكامل إذ أدرجت الدول عدة استثناءات من جداول الإعفاء ، كما وضعت قيودًا إدارية متعددة كان من شأنها التحلل غير المباشر من الالتزامات بموجب الاتفاقيات المعقودة بما أدى لإخفاق مجلس الوحدة الاقتصادية فى تحقيق هدفه بإقامة السوق العربية المشتركة فى بداية السبعينات.

وقد كان لحدوث طفرة فى عوائد البترول بعد حرب ١٩٧٣ أثره فى مدى وحجم الموارد المالية المتوافرة لدى الدول العربية وفى إحساس الدول العربية بثقلها الاقتصادى ووزنها السياسى فى حالة تكتلها. ولقد سعى مجلس الوحدة الاقتصادية والمجلس الاقتصادى والاجتماعى للجامعة العربية للاستفادة من هذه الحالة المتسمة بالتفاؤل والثقة بالنفس والتطلع للمستقبل نتيجة توافر الأموال الناتجة عن ارتفاع أسعار البترول ، وذلك من أجل تعزيز العمل الاقتصادى المشترك من خلال ابتكار إطارين جديدين:

الأول: إنشاء الاتحادات العربية النوعية مثل الاتحاد العربى للحديد والصلب ، الاتحاد العربى للسكك الحديدية.. الخ وقد نشأ أكثر من ٦٠٪ من تلك الاتحادات فى عقد السبعينات واتخذ كل منها مقرا له فى هذه العاصمة العربية أو تلك (معظمها خارج مصر). وهدف تلك الاتحادات التنسيق فى الإنتاج والتسويق ، القيام بدراسات فنية واقتصادية ، وتقديم الاستشارات الفنية.

الثاني: إقامة مشروعات مشتركة وذلك اعتبارًا من عام ١٩٧٨ مثل الشركة العربية للملاحة البحرية ، الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى ، المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا ، الشركة العربية للصناعات الدوائية - الشركة العربية للاستثمارات الصناعية. ويلاحظ أن بعض تلك المشروعات تم إنشاؤها فى إطار عمل المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، والبعض الآخر فى إطار نشاط مجلس الوحدة الاقتصادية.

فى ظل عدم تحقق الأهداف المتوخاة من المنهج السابق كونت الجامعة العربية عام ١٩٧٦ ما أسمته «لجنة خبراء استراتيجية العمل الاقتصادى العربى المشترك» من عشرين عضوًا لوضع استراتيجية مشتركة ومارست اللجنة عملها طوال ٧٧ - ١٩٧٨ ، وانبثق عنها لجنة من ثلاث شخصيات لإعداد ورقة عمل حول الاستراتيجية عرضت على مؤتمر اقتصادى قومى فى بغداد عام ١٩٧٨ ثم على لجنة خبراء حكوميين عقدت فى العراق فى يناير

عام ١٩٨٠ ثم عرضت على قمة عمان فى نوفمبر ١٩٨٠ وقد اعتمدت تلك القمة أربع وثائق فى مجال العمل الاقتصادى هى:

الأولى: وثيقة استراتيجية العمل الاقتصادى العربى المشترك والتى تناولت أهداف ذلك وركزت على التنمية الصناعية والزراعية وتدريب الموارد البشرية.

الثانية: ميثاق العمل الاقتصادى العربى القومى وهى وثيقة ذات صياغة عامة ونبرة سياسية حول أهمية العمل الاقتصادى القومى.

الثالثة: الاتفاقية الموحدة لاستثمار رءوس الأموال العربية فى الأقطار العربية.

الرابعة: عقد التنمية العربية المشتركة وهو وثيقة التزمت بموجبها خمسة أقطار عربية هى السعودية – العراق – الكويت – الإمارات – قطر بتخصيص مبلغ خمسة مليارات دولار للعقد بواقع نصف مليار سنويا توزع حسب نسب محددة لتمويل مشروعات التنمية وتكون القروض بفائدة ١٪ سنويا وفترة سماح مدتها عشر سنوات ثم يسترد القرض على أقساط سنوية متساوية على مدى عشرين عامًا. وتعد هذه الوثيقة هى الإنجاز العملى الحقيقى والملموس لقمة عمان عام ١٩٨٠. وقد أدى ذلك إلى أن وقعت الدول العربية عام ١٩٨١ اتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجارى لتحل محل الاتفاقية السابق توقيعها عام ١٩٥٣ وذلك نتيجة إخفاق اتفاقية السوق العربية

المشتركة. وأثر دخول الاتفاقية حيز النفاذ تشكلت «هيئة التجارة العربية» من تسعة أقطار هى: الأردن - البحرين - تونس - السعودية - العراق - فلسطين - الكويت - ليبيا - اليمن الشمالى لتقوم بمهمة التنسيق نيابة عن المجلس الاقتصادى والاجتماعى لحين انضمام باقي الدول أعضاء الجامعة وعندئذ يتولى المجلس مهمة التنسيق.

ومن المفيد فى هذا السياق الإشارة إلى المناقشات غير الرسمية التى دارت حول وجهتى النظر بشأن مجلس الوحدة الاقتصادية فالداعون لدمج المجلسين يرون أن مجلس الوحدة الاقتصادية ليس إلا شكلاً بلا مضمون ، وأن الدول عزفت عن تفعيله ، بل وعن سداد حصتها فى ميزانيته ، وهو أصبح عاجزًا عن دفع رواتب موظفيه ، ومن ثم فلن يحدث شيء ذو بال أو ضرر للعمل العربى إذا اختفى المجلس. فى حين أن الداعين للإبقاء على مجلس الوحدة الاقتصادية يرونه بمثابة القيم على اتفاقية الوحدة الاقتصادية الموقعة عام ١٩٥٧ واتفاقية السوق العربية المشتركة التى بدأ سريانها عام ١٩٦٥ وأن عيوب المجلس يجب إصلاحها من خلال تعزيز إيمان الدول الأعضاء به، والتزامهم بسداد حصصهم وأن المجلس قد أنشأ العديد من الشركات العربية وأعد الكثير من البحوث والدراسات التى لو طبقت لكانت العلاقات الاقتصادية العربية فى وضع أكثر توثقًا وتقدما على مسيرة التكامل..

وهكذا استمر ويستمر مجلس الوحدة الاقتصادية فى حالة من انعدام الوزن وعدم وضوح الرؤية السياسية حتى يستطيع أداء دوره الاقتصادى، وزاد من مخاطر المستقبل أمامه انعقاد مؤتمر القمة الاقتصادى للشرق الأوسط وشمال أفريقيا والذى انعقد فى الدار البيضاء من ٣٠ أكتوبر إلى ١ نوفمبر ١٩٩٤ وانعقاد المؤتمر الثانى فى عمان في عام ١٩٩٥. يمكن طرح التساؤل هل قمة عمان عام ١٩٩٥ ستلغى قمة عمان الاقتصادية العربية عام ١٩٨٠ أم أنها ستلحق بها فى الآمال والطموحات والمصير أيضا؟..

ليست الإجابة على مثل هذا التساؤل بالأمر السهل لصعوبة نقل التجارب الماضية وتعميم خبرتها على المستقبل من ناحية، ولصعوبة التنبؤ بالمستقبل فى ظل عالم سريع الإيقاع فى تغيره من ناحية أخرى، ومن ناحية ثالثة لاختلاف أطراف كل من التجمعين، ومن ناحية رابعة لاختلاف مصالح ودور القوى العالمية الرئيسية. ومع هذا فإن ثمة خطوطا استرشادية يمكن التفكير من خلالها دون الادعاء بأننا نملك الحكمة أو القول الفصل. ومن هذه الخطوط:

١ - أن مراحل النمو الاقتصادى والاجتماعى هى الركيز الأساسية فى أى تطور اقتصادى نحو التكامل أو حتى التعاون وإلقا نظرة على الدول العربية وإسرائيل وتركيا وإيران، نجد على الفو اختلاف أوضاع كل منها من حيث معدل النمو الاقتصادى، كفاء إدارة العملية الاقتصادية والإنتاجية، اتساع السوق، اختلاف مراحل التطور الاجتماعى، اختلاف الوضع بالنسبة للتنمية البشرية..

٢ – أنه فى حين كان التفاعل السياسى القائم على التقاء الإرادة السياسية بين الدول العربية يمثل قوة جارفة فى الدفع نحو التنسيق والتعاون الاقتصادى العربى سواء فى الوصول لمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الإقتصادى عام ١٩٥٠ أو اتفاقية الوحدة الاقتصادية عام ١٩٥٧ أو وثائق واستراتيجيات القمة العربية فى عمان ١٩٨٠. هذه الخطوات الثلاث جاءت فى لحظة تحدى سياسية هامة للعالم العربى، **الأولى** بعد قيام إسرائيل وما أطلق عليه بالنكبة عام ١٩٤٨، **والثانية** بعد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وما تحقق من نصر سياسى أحدث موجات ضخمة فى المنطقة العربية، **والثالثة** جاءت كرد فعل على تحدى مصر للتوجه العربى التقليدى وتوقيعها اتفاقيات كامب دايفيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية. أقول رغم تلك التحديات السياسية الضخمة وما أحدثته من رد فعل سياسى تبلور ذلك فى إرادة اقتصادية ووثائق للعمل الاقتصادى، ومع هذا فلم يكتب لتلك المشروعات كثيرا من الإنجاز وأصبحت كما يقول المثل أشبه «بالأثر بعد العين». والتساؤل هل هناك ما يجعل الدول العربية تغير من سلوكها تجاه مثل هذه المشروعات لمجرد دخول طرف جديد هو إسرائيل..

٣ – أن العنصر الجديد فى هذه المرحلة يتمثل فى دخول إسرائيل كطرف فى معادلة التعاملات الاقتصادية والسياسية فى المنطقة. فهل هذا الطرف يمكن أن يغير من السلوكيات والمفاهيم السائدة بين الدول العربية تجاه بعضها البعض. وتجاه مشروعات التكامل الاقتصادى؟

هذا سؤال مطروح وإن كان الأرجح أن الإجابة ستكون بالنفى غير القاطع، أى النفى الذى يصطبغ بصبغة رمادية، إذ أن الحركة الإسرائيلية تجاه الدول العربية لن تكون شاملة، وإنما ستركز على دول معينة، وفى مقدمتها دول الخليج سعيا للتجارة والأموال، ودول الشام أو الهلال الخصيب، إذا أعدنا للذاكرة المصطلحات القديمة، سعيا للاندماج أو السيطرة الاقتصادية، ودول مثل مصر وشمال أفريقيا سعيا للتبادل التجارى وربما تقاسم المنافع، وهنا نطرح سؤالاً هل هذه الدول العربية ساذجة حتى تقع فى شرك المطامع الإسرائيلية؟ ولن يتغير جوهر المشكلة إذا استبدلنا ببساطة كلمة الإسرائيلية بكلمة التركية أو الإيرانية أو أى اسم آخر! أى أن المسألة ليست من منظور الصراع العربى الإسرائيلى وإنما من منظور المصالح الاقتصادية لكل دولة ونظرتها لمطامع جيرانها، واعتمادها على موارد زائلة مثل البترول، أو قابلة للتغيير والهزات مثل رءوس الأموال في البورصات، أو طاقة عاملة وإمكانيات اقتصادية تنافسية مع دول أخرى فى المنطقة..

٤ - اتضح من مؤتمر القاهرة الاقتصادى عام ١٩٩٦ لدول الشرق الأوسط وما تلاه فى مؤتمر الدوحة عام ١٩٩٧ أن التعاون ليس سهلا لتداخل الاعتبارات السياسية مع الاعتبارات الاقتصادية وتأثير ذلك على القرارات المتخذة فى هذا الصدد..

لا شك أن إلقاء نظرة فاحصة على ما ورد فى الدراسة التى أعدتها الأمانة العامة للجامعة العربية عام ١٩٩٣ عن الأمن القومى

العربى وبخاصة فى بعده الاقتصادى ومقارنة ذلك بالدراسات القيمة التى أعدها لفيف من كبار الاقتصاديين العرب للإعداد لقمة عمان العربية الاقتصادية عام ١٩٨٠ سيجد طروحات متشابهة فى تشخيص المشاكل والعقبات، يكفى للدلالة على ذلك الإشارة لبعض العناوين السابقة مثل: تفاوت توزيع الدخل قطريا وقوميا، تفاقم لانكشاف الغذائى للوطن العربى - ارتفاع الاعتماد على لاقتصاديات المتقدمة، تزايد الترعة القطرية.. ونجد نفس المأزق بشير إليه مفكر سعودى ذو حس قومى عندما يحلل معضلة التكامل لاقتصادى العربى ويوضح المخاطر التى يتعرض لها رأس المال لعربى فى أسواق الدول الغربية مثل ما حدث فى بورصة نيويورك، ما حدث فى بنك الاعتماد والتجارة، أو ما حدث فى دول جنوب شرق آسيا وبعض دول أمريكا اللاتينية مثل البرازيل وهى مخاطر كبر بكثير من أية مخاطر يتعرض لها رأس المال العربى فى البلاد لعربية ونخلص من ذلك إلى أهمية التأكيد على التكامل الاقتصادى لعربى سواء فى مجال التجارة أو الاستثمارات أو الصناعة التكنولوجيا..

٥ - أما فيما يتعلق بدور القوى الرئيسية فى العالم فإن القوة دافعة للتكامل الإقليمى الشرق أوسطى هى الولايات المتحدة تستهدف من ذلك إدماج إسرائيل سياسيا في المنطقة وإحداث تغيير ى بنية النظام السياسى والاقتصادى العربى، الذى قام فى شطره أعظم على معادلة المواجهة العربية الإسرائيلية، وإذا كان التعامل

السياسى العربى الإسرائيلى قد تم أو فى طريقه للتطبيع الرسمى، وإذا كانت السياسة الخارجية الأمريكية موضع نقد داخلى فى الولايات المتحدة وموضع تنافس من أوربا الموحدة ومن روسيا التى تسعى لدور ولو محدود واستعادة بعض مصداقيتها ليس كقوة معادية للولايات المتحدة وإنما كقوة منافسة على غرار ما تقوم به أوربا الموحدة أو اليابان. إذا يظل التساؤل هل من مصلحة تلك القوى العالمية حقيقة حدوث تجمع اقتصادى عربى أو حتى شرق أوسطى يمثل قوة أم أن الأفضل الاستمرار فرادى مع إطار فضفاض للتعاون وربما للتنسيق بينها..

القضية الثانية: دلالة هيكلة أو إعادة هيكله منظمات العمل الاقتصادى العربى:

لقد طرحت قضية وضع منظمات العمل العربى على بساط البحث منذ بداية الخمسينات وذلك مرجعه ثلاثة اعتبارات:

الأول: عدم اشتمال ميثاق جامعة الدول العربية على فصل خاص، أو حتى بعض المواد التى تتناول المنظمات العربية المتخصصة وعلاقتها بالجامعة الأم، على غرار ميثاق الأمم المتحدة فى المواد من المادة السابعة والخمسين وحتى المادة الستين، وكذلك الفصل العاشر الخاص بالمجلس الاقتصادى والاجتماعى. والذى يضم المواد من الحادية والستين وحتى المادة الرابعة والسبعين. بعبارة أخرى إن ميثاق جامعة الدول العربية رغم إشارته للتعاون بين الدول العربية فى عدد من المجالات الفنية وبخاصة فى الشئون الاقتصادية

والثقافية والاجتماعية (المادة الثانية مـن الميثـاق) إلا أنـه لم يتعـرض لآليات مثـل هـذا التعـاون، سـوى علـى مستوى اللجـان التـى يتـم إنشاؤها لهذا الغرض (المـادة الرابعـة مـن ميثـاق الجامعـة)، أى أنـه يمكن القـول إن ميثـاق الجامعـة جـاء أكـثر تخلفًـا مـن ميثـاق الأمـم المتحدة، ولا يشفع له ذلك القول بأنـه تم توقيعـه قبـل ميثـاق الأمـم المتحدة لأن المسألة كـانت لا تتعـدى أسـابيع وكـان التفـاوض دائـرا والنصوص معروفة لمن اضطلعوا بمهمة صياغة ميثاق الجامعة..

الثانى: عندما اتضـح للـدول العربيـة القصـور سـارعت إلى انشـاء مجلس اقتصادى بموجب معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى (المادة الثامنة من المعاهدة) وتلا مرحلة التوقيع على المعاهدة حالة من المد القومى فى الخمسينات والستينات ثم حالة من المد المـالى نتيجـة ارتفاع أسعار البترول ومـن ثـم عوائـده فـانطلقت الـدول العربيـة فـى عملية إنشاء منظمات عربية متخصصة عديدة..

الثالث: فى النصـف الثـانى مـن عقـد السـبعينات بـدأت بـوادر التراجع فى العائد البترولى وفى المد القومى وأحسـت الـدول العربيـة بأن منظمات العمـل العربـى المشـترك قـد ترهلـت وتحولـت إلى أطـر وأجهزة بيروقراطية ومن ثم برزت الدعوة إعـادة الهيكلـة مـن ناحيـة ولخلق آليات للتنسيق بين الوكالات المتخصصـة والجامعـة الأم مـن ناحية ثانية..

ولقد كانت الكويت من الدول السباقة لطرح مسألة إعادة الهيكلـة وترشيد الوضـع فـى منظمـات العمـل العربـى المشـترك، كمـا لعبـت

الأمانة العامة للجامعة العربية دورا فى هذا المجال نتيجة لما لمسته من تعدد وازدواجية فى الاختصاصات وضعف فى الأداء لكثير من تلك المنظمات بل وظهور حالة من التنافس والحساسيات بين الجامعة ذاتها وبين المنظمات العربية المتخصصة. ولن نتعرض تفصيلا لكيفية تطور العلاقة وما أسفرت عنه من إنشاء لجنة عليا للتنسيق وكذلك إعادة الهيكلة وإنما يهمنا إبراز عدد من الملاحظات المتصلة بالدلالات الخاصة بعملية الهيكلة أو إعادة الهيكلة والوضع الراهن لأداء منظمات العمل العربى المشترك..

الملاحظة الأولى: أن أجهزة العمل العربى المشترك فى عام ١٩٨٠ أصبح يربو عددها على الأربعين منظمة أو مؤسسة أو هيئة وتزيد الاعتمادات السنوية لها عن ١٢٠ مليون دولار. فى حين أنه عندما تم إعادة الهيكلة تناقصت تلك الاعتمادات إلى النصف، فعلى سبيل المثال أصبحت الميزانيات المعتمدة بثمانية منظمات عربية متخصصة حوالى ٣٣ مليون دولار لعام ١٩٩٥ وهى اتحاد الإذاعات - منظمة العمل - منظمة التنمية الصناعية - منظمة التنمية الزراعية - منظمة التربية والعلوم والثقافة - مركز دراسات المناطق الجافة - هيئة الطاقة الذرية منظمة التنمية الإدارية، وهذه المنظمات هى التى تخضع لنظام الحساب الموحد، وإن كانت لا تلتزم به بدقة، ويتم التحايل على ذلك بأساليب عدة، وتحت دعاوى متعددة لا مجال للتفصيل فيها هنا..

الملاحظة الثانية: إذا كانت منظمات العمل العربى قد تم إعادة هيكلتها بإلغاء أو دمج بعض المنظمات فى بعضها وأصبحت الآن هناك ١٧ منظمة متخصصة فإن الوزراء أو المختصين العرب لم يلتزموا بدقة بهذا الموقف وتم تجاهله بدعوى بروز الحاجة لإنشاء منظمة جديدة كما هو شأن الهيئة العربية لتصنيف السفن عام ١٩٩٣ والهيئة العربية للطيران المدنى والتى تم إنشاؤها عام ١٩٩٣ واعتمدت الجامعة العربية ممثلة فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى ثم مجلس الجامعة ذلك فى سبتمبر ١٩٩٤. كما تم تجاهل إعادة الهيكلة بإنشاء أجهزة فرعية داخل الأجهزة الرئيسية مثل مكتب الدراسات القضائية والقانونية فى بيروت، الصندوق الاجتماعى ونحو ذلك. ويتم التجاهل أيضا من خلال إنشاء ما يسمى بالمجالس الوزارية المتخصصة وهى أحسن الحلول لترشيد العمل العربى المشترك بتكلفة أقل..

الملاحظة الثالثة: تتعلق بفاعلية أداء المنظمات العربية المتخصصة وهذه النقطة من أكثر الملاحظات حساسية إذ أن كل منظمة تعتقد بأهميتها وجدواها، والوزير العربى المختص الذى تعمل منظمة ما فى مجال اهتماماته يتأثر بمطالب تلك المنظمات وبإلحاح المسئولين فيها ومن ثم يستجيب لها سواء من حيث زيادة ميزانيتها أو تنويع هياكلها التنظيمية وأنشطتها وهى أنشطة فى معظمها ذات طبيعة ورقية أو بحثية وليست ذات طبيعة إنتاجية، أى أنها تقوم على عقد ندوات وإعداد بحوث وأوراق عمل وهذا معناه الحقيقى توزيع

الكثير من المزايا والفوائد على شخصيات وموظفين وباحثين دون التحرك إلى مجال التطبيق الفعلى وتكاد جميع المنظمات العربية المتخصصة تتشابه فى هذا الصدد، ولا مجال لذكر منظمة بعينها، وإن كانت بعض المنظمات تتفوق على البعض الآخر فى السوء والبيروقراطية وانعدام الفعالية..

وقد ترتب على هذا الموقف اختلاف الآراء والتوجهات بين الوزراء المختصين فى منظمات العمل العربى المشترك وبين المجلس الاقتصادى والاجتماعى الذى هو جهة التنسيق والإشراف على هذه المنظمات وأدى ذلك لنقاش طويل فى الدورة ٥٤ للمجلس الاقتصادى والاجتماعى عند بحث ميزانية تلك المنظمات وكذلك فى اللجنة الفنية للتنسيق المنبثقة عن المجلس المذكور..

الملاحظة الرابعة: أنه مما يلفت النظر ويوضح مدى المأزق الحقيقى أمام العمل العربى المشترك فى إطار المنظمات العربية المتخصصة أن اجتماعات الدورة الخامسة والعشرين للجنة التنسيق العليا للعمل العربى المشترك فى يناير ١٩٩٤ جعلت محور عملها «تنشيط مؤسسات العمل العربى المشترك وتنمية علاقاتها مع نظيراتها الإقليمية والدولية فى ضوء المتغيرات العالمية والإقليمية وإعادة الهيكلة فى الدول العربية» ولقد انتهت دراسة المحور إلى ورقة تحتاج إلى إعادة دراسة لإثرائها - على حد تعبير تقرير اللجنة. هذا فى تقديرى تعبير مهذب، فالورقة تجميع لأفكار ومبادئ عامة وهى تؤكد مجددا ما أشرت إليه فى ملاحظة سابقة

بأن معظم أنشطة تلك المنظمات هى أنشطة ذات طبيعة ورقية وبحثية وليست إنتاجية أو هى أشبه بالتمثيل المظهرى كما يوحى اسم المحور «بتنمية العلاقات مع نظيراتها الإقليمية والدولية» أى مجرد التواجد لمثلى كل منها فى اجتماعات أخرى..

القضية الثالثة: تمويل منظمات العمل العربى المشترك:

لقد ارتفعت بل تضاعفت عدة مرات ميزانيات منظمات العمل العربى المشترك، ففى حين كانت تلك الميزانيات ٣١,٥ مليون دولار عام ١٩٨٠ أصبحت ٦٣ مليون دولار عام ١٩٨٥ فى حين ذكر وزير مالية الكويت فى خطابه فى المجلس الاقتصادي والاجتماعى عام ١٩٨٦ أنها بلغت ١٢٠ مليون دولار. وأدى ذلك كله إلى بروز ظاهرة المتأخرات على الدول والتى بحثت فى الدورة ٥٣ للمجلس الاقتصادى والاجتماعى وبلغت تلك المتأخرات على الدول الأعضاء حوالى ٢١٢ مليون دولار..

ولا شك أن ظاهرة المتأخرات هذه ليست قاصرة على المنظمات العربية المتخصصة بل أنها تشمل الجامعة الأم ذاتها ونسوق بعض الأرقام للدلالة على ذلك الموقف. ففى حين تقررت اعتمادات ٣٧,١٥ مليون دولار لبناء مركز الجامعة فى تونس لم يتم سوى سداد حوالى ١٢ مليون دولار. وبعد العديد من المطالبات والمناشدات انتهى الموقف فى الدورة ١٠٢ لمجلس الجامعة عن الأرض وما عليها للحكومة التونسية وهى الأراضى التى كانت تونس قد قدمتها لإقامة المبنى عليها، كما تنازلت الدول التى سددت مبلغ الـ ١٢ مليون دولار عن

ذلك واعتبرتها تبرعا للحكومة التونسية. ونجد أيضا إن معظم الدول العربية لا تدفع حصتها فى موازنة الصندوق العربى للمعونة الفنية للدول الأفريقية ويكاد السداد يقتصر على مصر وسوريا أى ١٠٪ من الموازنة التى تبلغ ٥ مليون دولار.. أما موازنة الأمانة العامة للجامعة العربية فهى فى حدود ٢٨ مليون دولار سنويا ونسبة السداد فى حدود ٦٤٪ أى أن هناك عجزا سنويا فى حدود ٣٥٪ وبعملية تراكمية نجد أن هناك أكثر من مائة مليون دولار متأخرات للجامعة العربية لدى الدول الأعضاء، وهذه المتأخرات تواجه مأزقا دقيقا إذ أن جزءا منها معترض عليه من الدول، وعملية الاعتراض هذه لا مثيل لها فى المنظمات الدولية الأخرى. فالأصل أن الميزانية يتم اعتمادها بأغلبية الأصوات وأن القرارات الخاصة بالميزانية فى أية منظمة دولية أو إقليمية ملزمة. أما بالنسبة للجامعة العربية فإن الدول ترفض ذلك وتصر على الحصة التى تقبلها هى وليس الحصة التى قررتها لجنة خبراء واعتمدها مجلس الجامعة. وهذا الموقف يطرح التساؤل حول مصداقية اتخاذ القرارات ومدى التزام الدول الأعضاء بها حتى بالنسبة للقرارات غير ذات الطبيعة السياسية الخاصة التى تمس السيادة مثلا..

وقد أدى هذا الموقف من تسديد الدول العربية لحصتها فى منظمات العمل العربى المشترك وبخاصة جامعة الدول العربية إلى ظهور حالة من الإفلاس وتأخر سداد رواتب الموظفين . ولا شك أن هذا لا يعطى مؤشرا إيجابيا للعمل العربى وأن الدول العربية إذا

كانت جادة حقيقة فلابد من أن تفى بأبسط الالتزامات وهى سداد حصتها فى المنظمات العربية .

والتساؤل الآن ما هى الدلالات التى يمكن أن نستنتجها من هذه المواقف للدول العربية إزاء قضية تمويل منظمات العمل العربى المشترك؟ لاشك أن هذه الدلالات واضحة ويمكن أن نشير إليها فى الآتى:

الدلالة الأولى: تراجع مرحلة المد القومى الذى ساد بمفهوم الخمسينات وحتى السبعينات وظهور مفهوم قومى جديد يركز ليس على الآليات والشعارات وإنما على المصلحة المشتركة والعائد أو المردود الفعلى للمنظمات العاملة فى المجال العربى..

الدلالة الثانية: أن الفكر العربى مازال غير راغب فى المواجهة المباشرة لمعالجة الأزمة الخاصة بمنظمات العمل العربى المشترك ولذا يلجأ إلى أساليب غير مباشرة من هذه الأساليب عدم سدادها كاملة أو عدم المشاركة فى الاجتماعات لذلك نجد أن الاجتماعات الوزارية أعلى نسبة مشاركة ٧٠٪ فى مجلس الجامعة وأدنى نسبة مشاركة ١٠٪ بوزير أو اثنين فى مجلس الوحدة الاقتصادية ، ويصل العدد إلى ما بين ٤ – ٥ وزراء فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، فى حين تزيد هذه النسبة قليلاً فى المنظمات العربية المتخصصة ، وكذلك يظهر عدم الاهتمام بالنقاش والمداولات والقرارات ومن ثم نجد الاجتماعات المقرر لها أن تستمر لمدة يومين تنتهى مداولاتها فى يوم أو بعض يوم.

الدلالة الثالثة: استمرار حالة الشك والتشكك وعم المصداقية من الجماهير تجاه العمل العربى المشترك، من ناحية لأن الجوانب الفنية غير ذات بريق للرأى العام ولا يشعر بها إلا فى حالات الأزمة، ومن ناحية أخرى لأن بعض موظفى المنظمات العربية المتخصصة يمثلون أقلية متحكمة فى تلك المنظمات وغير وثيقى الصلة بالقواعد الجماهيرية العربية بل يمثلون ما يمكن أن نطلق عليهم مافيا منظمات العمل العربى فالشخص فى منظمة ما وزوجته وأولاده وأخوته فى نفس المنظمة أو فى منظمة أخرى . إن هذا يستدعى دراسة جادة لتطبيق قواعد النزاهة والحياد فى التعيين فى الوظائف فى كافة أجهزة العمل العربى المشترك إعمالا لنصوص اللوائح الداخلية لتلك المنظمات وبخاصة المادة ١٣ من النظام الأساسى لموظفى جامعة الدول العربية وقد أشارت تقارير الرقابة لهذه المشكلة..

إذ من الملاحظ أن الوساطات والمجاملات وأيضا الاعتبارات السياسية تلعب دورا بارزا فى الحصول على الوظائف والاستمرار فيها، ومن ثم يتراجع اعتبار الكفاءة واعتبار الولاء القومى أو الإيمان بالعمل الذى يقوم به الموظف فى ظل غياب القواعد التنظيمية الواجب الالتزام بها..

خـاتمة

وقبل أن نختتم هذه الدراسة فمن الطبيعى أن تطرح ثلاثة أسئلة:

الأول: هل العمل العربى المشترك له أية جدوى فى ظل المتغيرات الدولية والإقليمية؟ وهل يمكن تطويره؟وكيف؟..

لا شك أن الإجابة عن ذلك تتمثل فى بعض الملاحظات ذات الطبيعة العامة، لأن الدراسة التفصيلية موجودة فى العديد من الكتب والبحوث، وهى منشورة ولعل أحدث تلك الدراسات ما صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٩٣ بعنوان »آليات التكامل الاقتصادى العربى« وكذلك الدراسات الخاصة بجامعة الدول العربية التى أشرف عليها مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة عام ١٩٩٣ فضلا عن دراسات مركز الوحدة العربية ببيروت وغيرها..

والملاحظات العامة التى أود أن اختتم بها تتمثل فى خمس:

الأولى: أن العمل العربى المشترك ضرورة لا غنى عنه لأنه يعبر عن الطبيعة الإقليمية للمنطقة، ويعبر عن الأمانى والمصالح القومية لشعوبها وهو أكثر من ذلك حقق فى الماضى عددا من الإنجازات فى المجالات الفنية، والأهم أنه من المطلوب أن يستمر لتعزيز البنية الأساسية للمجتمعات العربية وبخاصة فى مجالات النقل والمواصلات والاتصالات والإسكان والمرافق ونحو ذلك، وهى مجالات ذات عائد

حقيقى، ولحسن الحظ أن لها مجالس وزارية متخصصة وليس منظمات وموظفين وهياكل بيروقراطية. ومن هنا فإن أسلوب المجالس الوزارية ربما كان هو الأسلوب الأحسن بالنسبة للتنسيق العربى المستقبلى..

الثانية: أن الحاجة أصبحت ماسة إلى إعادة نظر مجددا وبصورة أكثر جدية فى وضع منظمات العمل العربى المشترك فى ضوء المتغيرات الدولية والإقليمية والدولية، فالمنظمات ذات الطبيعة الخدمية أو الإدارية أو التنسيقية يجب أن تلغى وتحال مهام التنسيق إلى الجامعة العربية الأم، لأن هذا دورها الحقيقى، والذى يجب التركيز عليه فى المرحلة القادمة، أما الجوانب الخدمية والإدارية فإن الدول الأعضاء تقوم به من خلال أجهزتها الوطنية بصورة أكثر فعالية وأقل تكلفة من المنظمات العربية المتخصصة القائمة حاليا. والمنظمات ذات الطبيعة الإنتاجية فيجب أن يتم إعادة هيكلتها بحيث تركز على الإنتاج بمفهوم اقتصادى بأن تتحول إما لبيوت خبرة أو لمشروعات مشتركة فالعصر الحاضر ليس عصر إنشاء هياكل وظيفية وإنما إنشاء بنية إنتاجية..

الثالثة: أن العقل العربى توصل إلى ابتكار يربط المصلحة مع العائد والجدوى الاقتصادية، أسماه مبدأ التمويل الذاتى لمنظمات العمل العربى المشترك، وقد تم تطبيق هذا المبدأ على الأكاديمية العربية للنقل البحرى التى تغير اسمها بعد ذلك للأكاديمية العربية

للعلوم والتكنولوجيا، وعلى اتحـاد الإذاعـات العربيـة وعلـى الهيئـة العربية لتصنيف السفن وإلى حد ما وعلى استحياء دعـا بطريـق غـير مباشر لتطبيق ذلك على الهيئة العربية للطيران المدنى. وفى اعتقادى أن هذا هو الأسلوب الأفضل لمنظمات العمـل العربـى المشـترك تمشـيا مع مبدأ التخصيص والجدوى الاقتصادية ومن ثم فإن المنظمـات غـير ذات الجدوى القائمة علـى تجمـع موظفـين يحصلـون علـى مرتبـات يجب أن تختفي وتفسح المجـال للشـركات المشـتركة، أو المنظمـات التـى لهـا مـردود اقتصـادى حقيقـى، وأى عمـل حاليـا لـه مـردود اقتصادى، ما عـدا أجـهزة التنسـيق والعمـل السياسـى وهـذه يجـب تجميعها في جامعة الدول العربيـة الأم، ويكـون ذلـك بمثابـة بعـث للحياة فى الأصل، ومساعدة لهـا علـى مواجهـة التحديـات الكبـيرة التى تنتظرها فى المرحلـة القادمـة. إن تحويـل الكثـير من منظمـات العمل العربى المشترك إلى بيوت خبرة عربية يمكـن أن يكـون وسـيلة جديدة لتنشيطها وترشيد عملها وإبراز جديتـها وجدواهـا فـى نفـس الوقت..

الرابعة: أن أثر المتغيرات العالمية وفى مقدمتها اتفاقيات الجـات وما أسفرت عنه من قيام منظمة التجارة العالمية والتى تغطى مختلف المجالات والمتغيرات الإقليمية وفى مقدمتها القمة الاقتصادية للشـرق الأوسط وشمال أفريقيا والتطورات المتسارعة فى عملية السلام تفـرض على أجهزة العمل العربى المشترك أن يعيد النظر فى طبيعة أنشـطته لا بهدف إلغائها وإنما بغية تعزيزها، فحريـة التبـادل التجـارى فـى

السلع والخدمات يمكن البدء فى تطبيقها فى البلاد العربية، ومشروعات البنية الأساسية التى طرحت فى قمة الدار البيضاء يمكن أن تبدأ كخطوة أولى بين الدول العربية، وهكذا نجد أن العمل الاقتصادى العربى يجب أن يكون هو الركيزة الأساسية التى ينطلق منها تعامل الدول العربية مع دول الإقليم الذى نعيش فيه، ومع مختلف التكتلات الدولية، فى عالم تقترب المسافات بين أطرافه ويتحول ليصبح بحق قرية عالمية، إذ لا يمكن فى عصر الترشيد من خلال العلوم والتكنولوجيا المتطورة أن يظل العالم العربى مشتتًا أو متخلفا أو يتبع أساليب بدائية وسياسات تقليدية لا تمت للقرن الحادى والعشرين الذى نقترب سريعا من الولوج فيه..

الخامسة: أنه من الضرورى إيجاد وسيلة ما لتنشيط الإرادة السياسية العربية للعمل العربى المشترك، فإن هذه الإرادة هى الأساس لتعزيز هذا العمل لصالح العالم العربى ككل ولصالح كل قطر من أقطار الوطن العربى، ولاشك أن تحقيق المصالحة العربية من خلال العمل الهادف البناء الذى يقوم على احترام المبادئ والأسس التى استقرت فى الضمير العربى وفى مقدمتها عدم التدخل فى الشئون الداخلية واحترام سيادتها واستقلالها هو خير مدخل لتنشيط العمل السياسى والاقتصادى العربى المشترك..

وفى الختام فمن الضرورى أن نكرر القول بأن العالم بأسره يتحرك نحو القرن الحادى والعشرين بسرعة فائقة وإن هذا القرن سيكون مبنيا على عدة ركائز فى مقدمتها التطور الهائل فى العلوم

والتكنولوجيا وبخاصة فـى مجـال المعلومـات والاتصـالات، الاهتمـام بقضايـا الديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان، الاتجـاه نحـو التكتـلات الاقتصادية والتعاون فـى كـل إقليـم وعـبر الأقـاليم وهـذا كلـه يبشـر بالخير للبشرية ولكنه نذيـر غـير طيـب للعـالم العربـى الـذى مـازال يعيـش فـى أوهـام الجاهليـة وغيـاب الديمقراطيـة ومفـاهيم التجزئـة والمصالح الأنانية المؤقتة للكيانات الصغيرة جغرافيـا وبشـريا وفكريـا. هل آن الأوان لمواجهة الواقع بشجاعة. آمل ذلك.

المؤلف فى السطور

- بكالوريوس علوم سياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة (يونية ١٩٦٥) بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف الثانية.
- ماجستير علوم سياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة (نوفمبر ١٩٧٤) بتقدير جيد جدا.
- دكتوراه علوم سياسية كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة أبريل ١٩٨٠ بتقدير مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالنشر والتبادل.

المؤلفات العلمية:

أصدر عدة مؤلفات منها:

١ - السياسة والثقافة فى الصين مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام (١٩٧٤).

٢ - الاشتراكية الديمقراطية فى النرويج. الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٠).

٣ - عدم الانحياز فى عالم متغير. الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٧).

٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة. الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٧).

٥ - الصراع بين الصين واليابان. مكتبة مدبولى (١٩٨٨).

٦ – مصر وحقوق الإنسان. الهيئة العامة للكتاب (١٩٩٣).
٧ – حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق. مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام (١٩٩٣).
٨ – «السياسة المصرية وعدم الانحياز في مفترق الطرق» مركز البحوث والدراسات السياسية – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة (أغسطس ١٩٩٤).
٩ – «أثر حرب أكتوبر على الحياة العامة وتطور علاقات مصر الدولية» بالاشتراك مع المستشار د. مجدى المتولى، الهيئة العامة للكتاب (أكتوبر ١٩٩٤).
١٠ – «جامعة الدول العربية والميثاق العربي لحقوق الإنسان» مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة (أكتوبر ١٩٩٤).
١١ – جامعة الدول العربية والتحديات المستقبلية – كراسات استراتيجية. مركز الدراسات الاستراتيجية – الأهرام (١٩٩٤).
١٢ – قواعد البروتوكول وآدابه بين التقاليد الإسلامية والمجتمع الحديث. المكتبة الثقافية والهيئة العامة للكتاب (١٩٩٥).
١٣ – هوية مصر، بالاشتراك مع المستشار د. مجدى المتولى. الهيئة المصرية للكتاب (١٩٩٧).
١٤ – العرب وقضايا العصر، دار الشروق، القاهرة (١٩٩٧).

بالإضافة للعديد من المقالات والأبحاث التى نشرت فى مجلات مصرية وعربية ودولية.

١٥ – العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٨.

١٦ – مصر: العروبة والإسلام وحقوق الإنسان. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩.

أعمال أخرى:

شارك فى وفــود مصــر فــى عــدة مؤتمــرات لعــدم الانحيــاز وفــى المؤتمر الإسلامى، ووفــود مصر لدى الأمــم المتحــدة فى الفـترة مـن ٨٧ – ١٩٩٢، والاجتماعات المختلفة فى إطار جامعة الدول العربيـة من ديسمبر ١٩٩٢ وحتى مارس ١٩٩٥.

- Dynamics of the Egyptian National Identity, Sang - e - Meel Publications, Lahore, Pakistan, 1998.
- Pakistan Egypt Relations, Sang - e - Meel Publications, Lahore, Pakistan, 1998.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول:

طبيعة المتغيرات فى عالم اليوم ١٣

الفصل الثانى:

الأمم المتحدة والقضايا العربية ٢١

الفصل الثالث:

تحديات المستقبل أمام جامعة الدول العربية............... ٥٣

الفصل الرابع:

الموقف العربى من قضية حقوق الإنسان ١٠٧

الفصل الخامس:

البعد الاقتصادى فى العمل العربى المشترك ١٣٠

خاتمة ١٦٢

العدد القادم

قراءات فى كتابنا الوراثى

د . أحمد مستجير

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

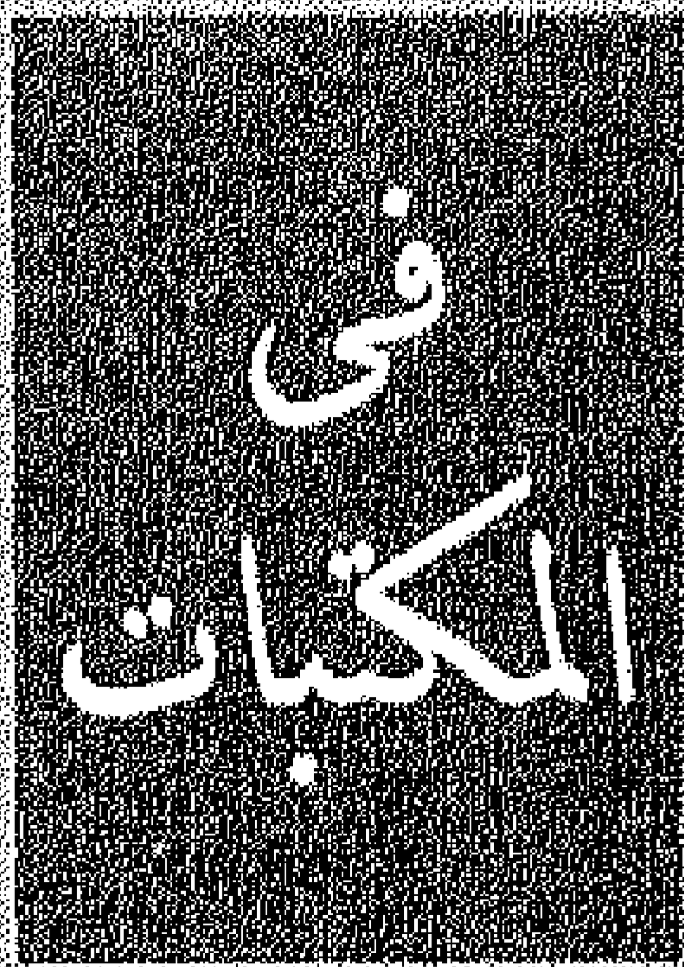
- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا

- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.



الدبلوماسية البرلمانية

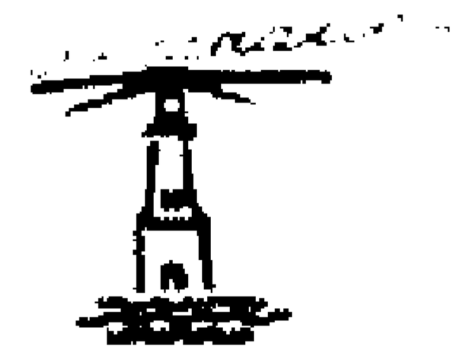
د . أحمد فتحى سرور

رقم الإيداع	١٩٩٩/٧٩٦٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5847-4

١/٩٨/٤٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الأمة العربية لها دورها التاريخى، ليس استناداً إلى مفاهيم غيبية أو مثالية، وإنما إنطلاقاً من إعتبارات موضوعية، وتاريخية، وثقافية، واقتصادية وسياسية، وأمنية.. ومع ذلك فإن هذه الأمة مازالت تعانى من الخلاف والإختلاف، ومن التجزئة والتشرذم، أى أن النظام العربى يواجه مأزقاً حقيقياً والخروج من هذا المأزق لا يتم إلا بالصراحة الواضحة التى يتضمنها هذا الكتاب.



دارالمعارف

٤٠٦٩٤٣/٠١



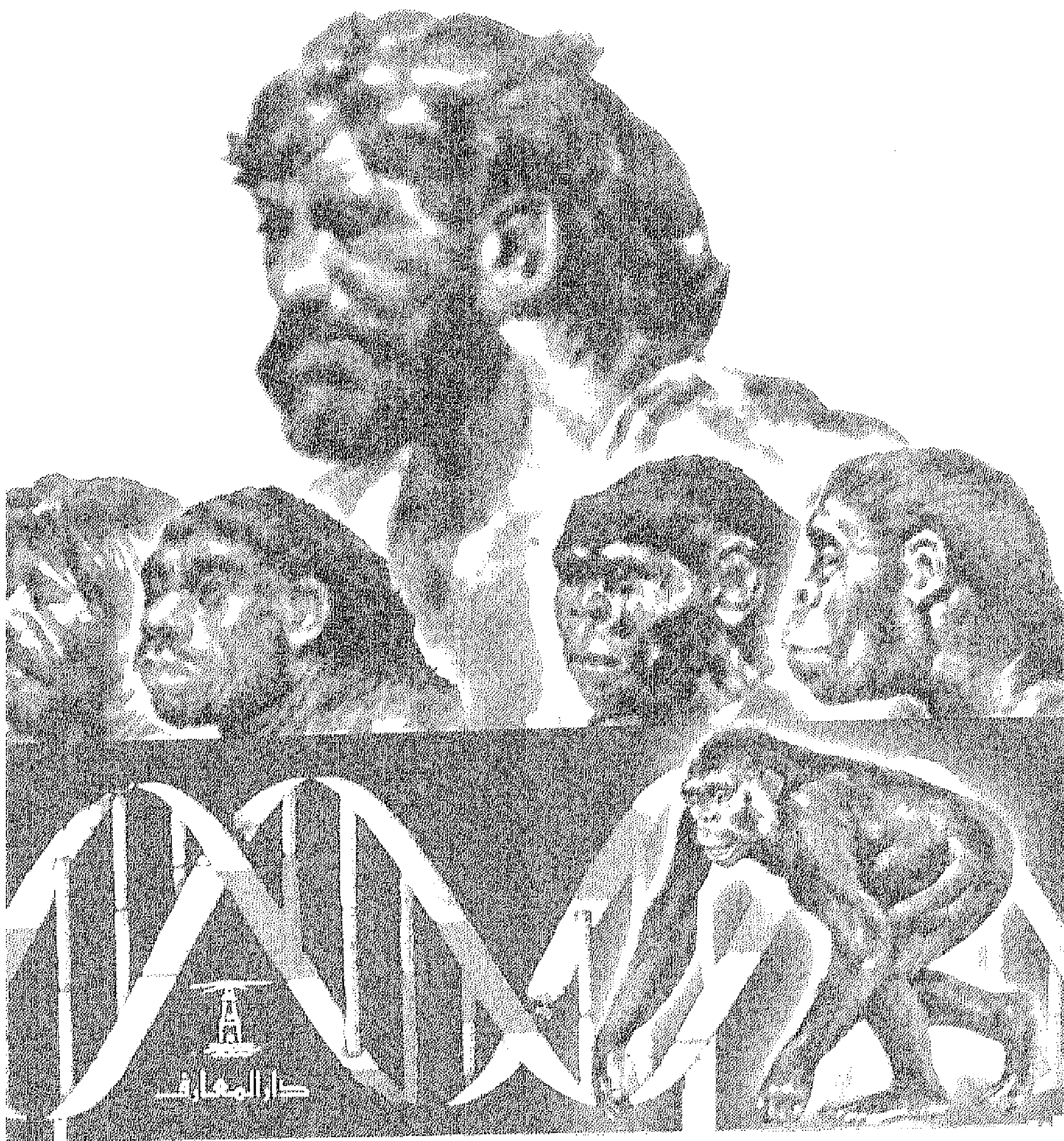
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور أحمد مستجير

في بحور العلم
الجزء الرابع

قراءة في كتابنا الوراثي



اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٤]

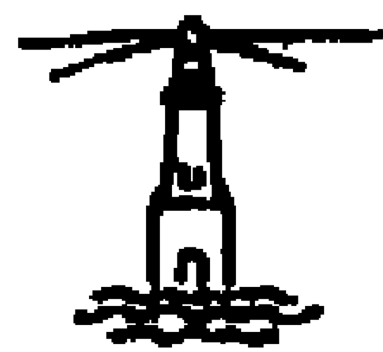
رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور أحمد مستجير

في بحور العلم «الجزء الرابع»

قراءة في كتابنا الوراثي



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

(١)
فى العلم والشعر

كان وداعًا قصيرًا. قبّلني والدى واحتضنتنى والدتى تبكى. حملت حقيبتى الصغيرة وخرجت. لم يكن قد مضى على تخرجى من كلية الزراعة سوى بضعة أشهر. لم أكن قد بلغت العشرين. كنا فى أوائل أكتوبر ١٩٥٤. كنت قد عينت بالإصلاح الزراعى فى عزبة الفؤادية، قرب قريتنا الصلاحات، دكرنس. وصلت بالأوتوبيس إلى ميت فارس عند بعض أقاربى. أبلغت التفتيش تليفونيًا بمكانى. أرسلوا عربة دوكار تقلنى إلى الفؤادية. وصلت العربة والشمس توشك على المغيب. ركبت. كان الجو يميل إلى البرودة. ترك الدوكار القرية ومضى يجرى بين الحقول. أحب الحقول. أحب الحقول. فجأة شعرت أنى وحيد. أواجه العالم الآن وحدى. تركت ورائى الأهل والأحباب وأصدقاء عمرى. خوف غريب تملكنى. خوف لم أعرفه قبلاً. أى بشر فى انتظارى. أى مستقبل ينتظرنى. ها أودع الآن عالمًا كان جميلاً شغلته فى الصبا. ها أقترب حثيثًا من عالم آخر جديد. طافت بعينى دمعة حبستها. أخذت أنظر إلى السماء والظلام يخفيها رويدًا رويدًا. سألت نفسى، لماذا أحبس الدمعة. سالت، وتركتُها تسيل. صامتًا كنت والسائق صامت. تعود تعود الذكريات. الحزينة منها تعود مع الليل والوحدة. ها أصبحتْ حياتى الماضية ذكرى. يا خسارة. وتذكرت.

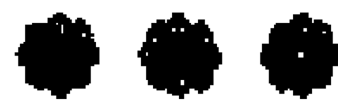
طفلاً كنت في العاشرة. كنت في السنة الرابعة الابتدائية بمدرسة المطرية دقهلية. كان مدرس اللغة الإنجليزية هو «شفيق أفندى». سأل المدرس صديقى يوسف شطا سؤالاً. لم يستطع الإجابة. زجره وقال: رُوحْ مُوتْ. مضت أيام ثلاثة ولم يظهر يوسف. في اليوم الرابع وصلنا خبر موته. بكيت وبكيت. هذا ظلم. هذا ظلم. شفيق أفندى قتله. في «الفسحة» كتبت خطابًا إلى رئيس الوزراء. كان أحمد ماهر باشا. لا أعرف ماذا كتبت! آه لو أعرف. مضيت خارج المدرسة مع زميل. كان اسمه ضرغام، وكان سمينًا. اشترينا مظروفًا وطابع بريد. عندما هممت بإلقاء الخطاب فى الصندوق، إذا بيد تمسك ذراعى. كان سعد أفندى عبد الملك، مدرس الحساب. ما هذا؟ سألنى. بكيت. أخذ الخطاب منى. اصطحبنى عائدًا إلى المدرسة. حاول في الطريق أن يخفف حزنى. مضى بى إلى مكتب الناظر: توفيق أفندى عفيفى. كنت على رأس طابور يضم كل تلاميذ الفصل. عددنا كان ثمانية عشر. بكيت أمامه. لم أستطع أن أعتذر عما فعلت. ما الخطأ فيما فعلت؟ فى اليوم التالى كنت ثانية على رأس الطابور خلف الجنازة حتى المقابر. كانت فى الطرف البعيد من البلدة. السماء تمطر بغزارة. أبعدنا سعد أفندى عن المقبرة. سمعته من بعيد يلقى خطابًا فوق القبر، بصوت متهدج باك: «ولدى يوسف، هل تبكى السماء حزنا عليك يا يوسف؟». عدنا إلى الفصل. كانت الحصة الأخيرة حصة الخط. كتب المدرس على السبورة:

الخط يبقى زمانًا بعد صاحبه وصاحب الخط تحت الأرض مدفون

أذكر هذا البيت. لا أنساه. عاد كل هذا حيًا، وأنا أجلس فى الدوكار صامتًا.

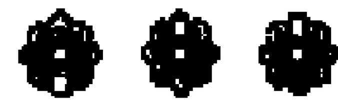
وصلت العِزْبة. مجرد شارع واحد على جانبيه اصطفت أكواخ. ثمة كوخ إلى اليمين تضيؤه «لمبة سَهَّارى»، تطلق فوقها خيطًا طويلاً من دخان أسود. كان دكان العزبة الوحيد. وكان به للعجب راديو. سمعت وأنا أمر أمامه عبد الوهاب يغنى. كانت أغنية «أحبك وأنت فاكرنى – وأحبك وأنت ناسينى». كم أحب عبد الوهاب، وكم أحب هذه الأغنية. ثمة مبنى بعد قليل من طابق واحد على الجانب الأيسر. أخبرنى السائق أنه «الإدارة». أمام مبنى الإدارة باب واسع لدوّار. فى نهاية الشارع إلى اليمين كانت الفيلا التى سأسكن بها. فيلا ضخمة هائلة كانت يومًا لأميرة، حولها حديقة واسعة واسعة. حملت حقيبتى ونزلت. استقبلنى خادم أسمر نحيل صارم الوجه. «حمدًا لله على السلامة». قالها فى صوت خفيض وهو ينظر إلى الأرض. دخلت الفيلا. قاعة واسعة بها منضدة كبيرة عليها «لمبة جاز» وعشاء. لم أكن جائعًا. طاف بى الخادم فى حجرات الفيلا جميعًا. الأثاث فاخر. أرشدنى إلى حجرة نومى، فى الركن الأيمن. لها نافذة وحيدة تطل على الحديقة. بها سرير ودولاب كبير وكرسى وكوميدينو عليه لمبة جاز نمرة ١٠. شكرت الخادم وتركنى ليمضى إلى منزله. وحيدًا جلست على السرير. قمت وفتحت النافذة. أشباح أشجار السرو تبدو حزينة. أصوات الضفادع والجنادب تملأ الحديقة المظلمة. لسعة من هواء بارد تصافح وجهى. أحب هذا البرد الصغير. أخذت أحدق فى الظلام ودمعى يجرى بلا سبب. عاد لى الإحساس الخائف بأننى أواجه الكون وحدى. وداعًا يا عالمى القديم الحبيب. كيف سأقضى أيامى هنا. معى كنت أصطحب بضعة كتب. ملاذى الوحيد.

فى الصباح تعرفْت على من سأعمل معهم. أحمد عبد الباقى الرئيس، والمهندس الدياسطى الشربينى زميل. أنجب الدياسطى بعد أسابيع من وصولى طفلاً أسماه الشربينى. خُصصت لى فرس بيضاء جميلة كان اسمها «الرَّهَوَانَة». قالوا إنها كانت تخص إبراهيم عبد الهادى باشا. أوكل إلىّ الإشراف على «عزبة الرُّبْعميَّة». بعد أيام كنت هناك. كان الأطفال يجمعون القطن. أحب أطفال الريف كثيرًا. كثيرًا. كنتُ منهم. وجدت طفلاً فيه وجه مصر، حبيبتى مصر. بهجة غامرة وحزن فى العينين بعيد. خفىّ وعميق. سألته عن اسمه. أحمد. ثم؟ محمود. ثم؟ إبراهيم. أحمد محمود إبراهيم. اسم أعز أصدقائى. ربتّ على رأسه باسمًا. أعطيته قرشين. قطعة فضية واحدة صغيرة.



كان أحمد محمود صديقًا للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور. تزاملا بمدرسة الزقازيق الثانوية. كنت قد قرأنا قصيدة «المُلْك لك» لصلاح. كانت أول قصيدة أقرؤها من الشعر الحر. أحببته على الفور. الشعر الحر، وصلاح. كنت أحفظ كثيرًا من الشعر. لا أعرف سببًا لذلك. كانت مجلة آخر ساعة تنشر فى كل أربعاء قصيدة جميلة يرسمها بيكار. كنت أحفظها أولاً فأولاً. مرة حاولت أن أحفظ مسرحية «مصرع كليوباتره» لشوقى! لكن قصيدة «الملك لك» هذه أثّرت فىّ كثيرًا. كتبت بعدها لأول مرة فى حياتى قصيدة. كانت من الشعر الحر. كان عنوانها «غدًا نلتقى». كتبتها تحت شجرة الجميز الضخمة عند قمة جزيرة الروضة. طلبت من أحمد أن يرافقنى لأقرأها أمام صلاح. كان صلاح أيامها مدرسًا.

مضينا إلى نادى المدرسين. كان يقع فى الطابق الأخير من مبنى مرتفع فى أحد شوارع وسط القاهرة ، قرب ميـدان الأوبـرا. وجدنـا صـلاح. جلسـت أمامه فى خجل أقرأ القصيدة. أرجو ألا تكون قـد أصابتـه بـالضجر. ظـل ساكتًا، حتى وصلت إلى قولى: «وهذى المياه.. فأصل المياه بكـاء المحبـين منذ القدم». نظر إلىّ وسأل: ما عملك؟. قلت: مـهندس زراعـى. كـان قـد مضى على تخرجى شهران. نظـر إلى أحمـد وقـال: كـاتب هـذه القصيـدة شاعر. كدت أطير. يا رباه أية سعادة ليلتئذ غمرتنى!

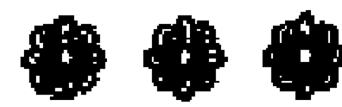


تمضى الأيام فى العزبة بطيئة. انهمكت أقرأ. استولى علىّ تمامًا كتاب عنوانه «حدود العلم». كتاب فى العلم والفلسفة. ترجمته بعد سنين أربعة ولم أنشره حتى الآن. سحرنى العلم. سحرتنى الفلسفة. وكان الشعر أيضًـا يسحرنى. كثيرًا كثيرًا. كنت أخـرج بعـد الغـذاء وأمضـى وحـدى بعيـدًا. أجلس على الأرض فى ظل شجرة عند ترعة قريبة. وأكتب الشعر. كنـت أصف ما حولى، وما يجـول بداخلـى. «عنـد أعـواد الـذرة. قـرب عيـدان الحطـب. تحـت ظـل يحتوينـى. بـين همـس الكَزْوَرينـا.. وضجيـج الذكريات». بدأت أفكر. ترى ماذا أريد؟ انتهت مرحلة من حياتى. حلوة كانت رغم كل شىء. علىَّ أن أرسم لنفسى خَطًا. شىء واحد كنت متأكدًا منه. لن أعمل إلاّ فيما أحب. لا ولن أصلح فى عمل لا أحبه. قُدرت علينا هذه الحياة. فلنحياها نعمل ما نحب. أحببت العلم والشعر حبًا حقيقيًـا. لا، بل عشقتهما عشقًا. ولا أزال. كلاهما يخـاطب أعمـاق الإنسـان الـذى كنته. وأكونه. أى السبيلين طريقى. كلاهما عزيز وقريـب. سـبيلان؟ لقـد

توحدا بداخلى. للقلب عالم وللعقل آخر. كـذا يقولـون. لكـن جوتـه كـان شاعرًا كبيرًا. وكان أيضًا عالمًا كبيرًا. تتصارع الأفكار فى عقلى وأنا أجلس صامتا أمام المياه. أمام الحياة!.

أعود إلى «حدود العلم». يذهلنى الكتاب أكثر وأكثر. أنغمس فيه أقرأ. بوانكاريه يقول إن الحل العلمى للمشكلة ليس لـه مـن الأهميـة مثـل مـا لجمال الطرق التى أدت إليه. للعلم جمال نصبو إليه. العاطفة التى توجـه العالم تشبه عاطفة الناسك أو العاشق. تقرأ قصيدة لشاعر فتتمنى لو كنـت كاتبها. لو لم يكتبها هو لما كتبها أحد. هى الأصالة فى الفـن. كـذا الأمـر بالنسبة للنظريات العلمية. العامل الشخصى فيـها أساسـي. لـو لم يوجـد آينشـتين لمـا ظـهرت النسـبية. لم تكـن النسـبية ذروة طبيعيـة للأفكـار التىسبقتها. كانت أصيلـة. لم تكـن مفـاهيم نيوتـن هـى الأخـرى ضـرورة نظرية. كانت أصيلة. العامل الشخصى الذى نلحظه فى الفـن نجـده فـى العلم، إنما بدرجة أقل. إنـا جميعًـا نسـتطيع أن نمـيز الجمـال والصـدق. والفن موجَّه بشكل أكثر قصدًا إلى الجمال. لكن، ليس مـن نظريـة علميـة نشـأت بعيـدًا عـن اعتبـارات الجمـال. سـوى أن العلـم بعكـس الفـن – يا للعجب – يتذوقه الجميع. العلم مفتوح لكل من يود. يسـتطيع الأعمـى أن يُلم بكل نظريات الضوء. لكن العمل الفنى لا يتذوقه إلا الخاصة. الشعر لا يتذوقه إلا من له الأذن الموسيقية والقلب الحساس. التبرير الأخير لكـل نشاط ذهنى هو أثره على زيادة إدراكنا ومعلوماتنا. الفنـان الكبـير يُعَرِّفنـا بعالم لم نكن ندركه، يزيد معرفتنا بالحياة. والعلم يقدم لنا طرقًا جديـدة فى التفكير ويجعلنا أكثر دراية بالعالم الـذى نحيـا بـه، يرفـع مـن آمـاد خيالاتنا. لنحلّق أبعد وأبعد. يفتح آفاقًا جديدة للفن. للروح والعقل.

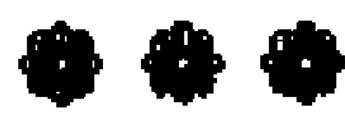
أترك الكتاب وأعود إلى واقعى. حائرًا لا أزال. سافرت فى إجازة إلى القاهرة فى أوائل نوفمبر ١٩٥٤. فى محطة الأوتوبيس بالمنصورة اشتريت مجلة «الرسالة الجديدة». بها كانت قصيدة للشاعر كامل أمين أيوب. عنوانها: قيود لا تُرى. «يا أخى هذى يدى لا قيد فيها. وحديد الغل لا يربط ساقى. أفأبدو لك حرًا؟ عجبًا، لكننى أحمل نفسى. وأجر الخطو فى غير انطلاق. وأجر الساق جرا. وكأنى لست حرا. وكأنى مستنيم لوثاق». حفظت القصيدة قبل أن أصل إلى القاهرة. وددت لو كنت كاتبها. فيها الكثير مما كان يعتمل فى نفسى آنئذ.



فى الصباح، بعد عودتى بأيام، وصل مفتش من القاهرة. قصير سمين. صارم الوجه. جلس للإفطار معى. المائدة كانت ساعتها عامرة، أرسلها أحمد عبد الباقى. كان أمامى - لازلت أذكر - طبق قشدة «فلاحى». أعشقها دائمًا. ولا أزال. سألنى المفتش: سمعت أنك منحت طفلاً قرشين، هل هذا صحيح؟ نعم. كيف؟ كان له اسم أعز أصدقائى، وكان وجهه بريئًا وجميلاً. انتبه إلىّ وقال: هذا لا يصح. لا يجوز أن تعامل الفلاحين هكذا. لابد أن يخشاك الناس هنا حتى تحفظ هيبتك. لا يجوز أن يحسُّوا أن لك قلبًا رحيمًا.. حتى لو كان كذلك! كيف يا سيدى؟ كذا، ولا أحب أن أسمع أنك كررتها ثانية. صعقت. قرب الغروب ركبت الرهوانة. انطلقت لأجلس أمام الترعة وحدى. لا أذكر ما دار بذهنى يومئذ. ضجيج ضجيج. صراعات. يا أيتها الشمس الغاربة. لماذا تكون الحياة هكذا! يستكثرون أن يحظى منا فلاح ببسمة. أو بكلمة حلوة. يكرهون أن يربت

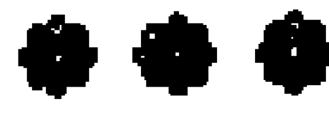
إنسان على كتف إنسان. يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. يريدون أن يقتلوا فينا الطيبة وحب الناس. من نحن سوى الآخرين. بدونهم لسنا بشرًا. لا يصح أن نكون. أمن أجل خمسة عشر جنيهًا - أحتاجها - يقتلون فيّ الإنسان؟ هذا ظلم. هذا ظلم. نسيت العلم والشعرا. وتذكرت أننى قبل كل شىء إنسان. يحب الإنسان. الإنسانية قبل العلم وقبل الشعر. لا ولم تدمع عينى.

فى نفس ذلك الوقت كانت «الإدارة» منهمكة تحصر أسماء الفلاحين لتوزيع أراضى الإقطاعيين عليهم. يا للمفارقة.



استيقظت مبكرًا ذلك الصباح. فتحت نافذة الحجرة. السماء ملبدة بالغيوم. ثمة برد خفيف أحبه. خرجت إلى الحديقة قبل السابعة. الندى يبلل العشب والنباتات. رائحة الياسمين تملأ الجو وتسحرنى. أحبها كثيرًا. جدًا. بجوار السور النباتى لاحظت زهرة فوق شجيرة «الفل المِجْوِز». نادرة فى مثل هذا الوقت من السنة. توجهت إليها ومددت يدى كى أقطفها. سمعت صوت رجلين خلف السور الكثيف يتجادلان. لم يسمعانى اقترب. فلاح كان يهدد أحد موظفى الإدارة بالويل والثبور. لقد دفع له ولم يُدرج اسمه فى قائمة من ستُوزع عليهم الأرض. دفع له الرشوة أفيونًا كما قال. انسحبت فى هدوء إلى الفيلا. رباه ما هذا العذاب. أنا لا أصلح للعمل هنا. العمل هنا لا يصلح لى.

بعد أيام حل عيد ميلادى العشرون. فى المساء كانت السماء تمطر بغزارة غريبة. وقفت أمام النافذة أنظر فى الفراغ المعتم الكبير. خلفى مصباح الجاز. شعلته ترتجف. كتبت قصيدة حزينة. «أعشرون عامًا مضت يا أخي؟. مضت، كيف ولّت وكيف انتهت؟. أنا من بعيد أنادى السنين. أناجى السنين وأرثى لها. لقد غمرتنى وعذبتُها». فى الصباح كنت قد حزمت أمرى. حملتُ حقيبتى الصغيرة وخرجت. كنت قد عشت فى هذه العزبة خمسة وخمسين يومًا. ودعت من عرفتهم. ركبت الدوكار. ومضى بى بطيئًا بطيئًا.



كان وداعًا قصيرًا. قبلنى والدى واحتضننى ووالدتى تبكى. أحبهما كثيرًا. كثيرًا. تجمع إخوتى حولى يودعوننى. حملت حقيبتى الكبيرة وخرجت. كنا فى أواخر سبتمبر ١٩٦٠. مسافرًا كنت هذه المرة بعيدًا، إلى إدنبره، اسكتلنده. كنت قد حصلت على درجة الماجستير بمنحة دراسية من المركز القومى للبحوث. عُينتُ بعد ذلك معيدًا. تعلمت من دراستى فى الماجستير أن الطريق لا يزال أمامى طويلاً. أن العلم صعب وطويل سلمه. ثم عرفت من قراءاتى رجلاً عظيمًا اسمه ألان روبرتسون. تراسلت معه. وافق على أن ألتحق بمعهد وراثة الحيوان جامعة إدنبره، حيث يعمل. أدرس أولاً دبلومة الوراثة ثم أسَجِّل معه لدرجة الدكتوراه. حصلت من جامعة القاهرة على إجازة دراسية بمرتب. اصطحبنى فى رحلتى زميلى حامد نافع لنتّجه سويًا إلى نفس المعهد. أبحرنا من الإسكندرية على ظهر الباخرة إسبيريا. إلى جنوه، ثم بالقطار عبر باريس إلى كاليه. ومنها

بالبحر إلى دوفر. ثم بالقطار إلى لندن. كان ثمن التذكرة من الإسكندرية حتى لندن ٥٣ جنيهًا وثلاثة وعشرين قرشا. اشتريتها من شركة «فاروس» بشارع سليمان. وعلى الباخرة تذكرت تلك الرحلة المبكرة على الدوكار إلى عزبة الفؤادية. من سنين ست. كانت هي الأخرى إلى المجهول، لكني كنت قد تغيرت. علمتني الحياة كثيرًا. أصبح لى الآن هدف واضح. حلم أسعى كى أحققه. فى الباخرة، وأنا أرقب مياه المتوسط الزرقاء العميقة، لم يكن ثمة حزن. حتى عندما أمطرت ذات ليلة ونحن فى البحر - وهذا وقت لاشك للتأملات الحزينة - خرجت إلى سطح السفينة سعيدًا. أرشف القطر وأحيا. وأغني. أنا الآن فى طريقى لأسبح فى بحور العلم. الزرقاء العميقة. الحنون. هناك فى إدنبره يُصنع العلم. سألتقى بصنّاع العلم. سيحبوننى لاشك. لأنى أحبهم. فى القطار، ونحن نعبر الأراضى الفرنسية عاملنا الفرنسيون معاملة فظّة قاسية. كانت معركة تحرير الجزائر على أشدها. يرحمك الله يا عبد الناصر. كم كنت أحبك. لكن الريف الفرنسى كما شاهدته من نافذة القطار كان رائعًا. مذهلاً. أخذ بلُبى. سحرنى حقًا. وعندما وطئت قدماى الشاطئ الإنجليزى فى دوفر أحببت الإنجليز. فارق واسع بين سلوك حمّال الأمتعة بمحطة دوفر وبين السلوك الهمجى لكمسارى القطار معنا فى فرنسا. تشعر مع الإنجليز بأنك إنسان. وبأنهم بشر.

وصلت إدنبره مع حامد صبيحة يوم أحد. تركنا الحقائب فى الأمانات وخرجنا من محطة ويفرلى إلى برنس ستريت. كل المتاجر مغلقة. لا أحد فى الطريق. لا أحد. أريد أن أرى المعهد. الآن. أزعجنا كثيرًا سير العربات إلى اليسار. أخيرًا وجدنا رجل بوليس. سألته عن الطريق إلى

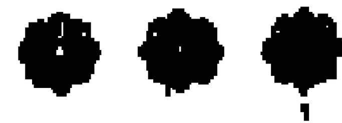
كينجز بلدنجز. أرشدنا فى أدب جم. وصف لنا بالضبط كيف الوصول. بعد نصف ساعة كنت أطوف حول المعهد، ومعى حامد. تذكرت مطلع قصيدة للدكتور إبراهيم ناجى عندما عاد مرة بعد طول غياب إلى دار أحبابه:

هذه الكعبة كنّا طائفيها والمُصلّين صباحًا ومساءَ.

هأنذا أطوف. وغدا سأتعبد فى هذا المحراب. محراب العلم.

قضينا الليلة فى فندق صغير. فى الصباح توجهنا إلى المعهد وقابلنا مدير الدراسات. تمكنّا في المساء من العثور على حجرتين فى شقة يستأجرها طالب نيجيرى إسمه ريتشارد أوغينى. فى اليوم التالى، الثلاثاء، بدأت دراسة الدبلومة. كنا أحد عشر طالبًا من جنسيات مختلفة. لائحة الجامعة تنص على أن العام الدراسى يبدأ يوم الثلاثاء الثاني من أكتوبر. كانت الدراسة صعبة حقًا. حتى طريقة التدريس كانت مختلفة. تستغرق المحاضرة خمسين دقيقة. نعود بعدها إلى المكتبة لنقرأها في بضعة مراجع - لا أقل من سبعين صفحة. ذهبت إلى رئيس المعهد يومًا - برفسور كونراد هيل وادنجتون - أشتكى. أنا لا أستطيع أن أفهم إنجليزية الدكتور سيلمان، مدرس السيتولوجيا. استدعاه وأنا موجود. نصحنى بأن أكتفى بكتاب عيّنه. يقع الكتاب فى أكثر من ٤٠٠ صفحة! الامتحان النهائي يحمل سؤالاً واحدًا من كل مادة. انتهينا من الامتحانات التحريرية. أربعة امتحانات في يومين متتاليين. فى اليوم الواحد ورقتان. وكان هناك امتحان شفوى أمام أستاذنا ومعه أستاذ الوراثة من جامعة أخرى. دخلت فوجدت أوراق أجاباتى التحريرية الأربعة

أمامهما. قال وادنجتون إنه لأول مرة يجد طالبًا لم يخطئ خطأً واحدًا في أوراقه جميعًا. لم يكن ثمة أسئلة. إنما كان يريد أن يعرف رأيي فيما يُدْرَس، وفيما أرى أنه ينبغي أن يُدَرَّس. خرجت منتشيا، ومضيت على الفور إلى المنزل. في الثانية جاءني زميل ليخبرني أن البروفسور يبحث عني ويريد مقابلتي. كنت في المعهد في لا زمن. وجدت الرجل مشغولاً في مقابلة. وقفت أمام لوحة الإعلانات قرب مكتبه أقرأ ما بها. ثمة يد بعد قليل تربت على كتفي. التفتّ لأجد البروفسور. صافحني. قال إنه قرر لأول مرة في تاريخ المعهد أن يمنحني شهادة الامتياز. يا رباه. أسعد أيام حياتي.



ثم بدأت العمل للدكتوراه مع ألان روبرتسون، في أكتوبر ١٩٦١. كنت أعمل على صفة عدد الشَّعْر على جانبي صدر حشرة ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا). كنت أحاول أن أعرف الجينات ذات الأثر الكبير على هذه الصفة، ومواقعها على الكروموزومات. هي صفة كَمِّية، مثل إنتاج اللبن في الماشية أو عدد البيض في الدجاج. كنا نذهب كل صباح في العاشرة إلى مكتب ألان، لنجلس جميعًا في فسحة القهوة نسمعه ونسمع الآخرين في مناقشات حول كل شيء. علم وأدب وسياسة. نصف ساعة. استفدت كثيرًا كثيرًا من هذه الجلسات اليومية. تعلمت كيف المناقشة العلمية. كيف احترام الغير والرأى الآخر. أذكر مرة أن عضوًا بالمعهد عرض في جلسة ذات صباح نظرية له جديدة. وجدتها أنا معقولة جدًا. كذا وجدها كل الحاضرين. إلاّ ألان! وقف على السبورة وأثبت أنها

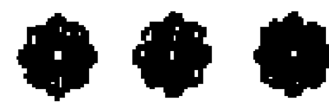
خاطئة تمامًا. وكانت للعجب بالفعل خاطئة. ناقش الموضوع بذكاء وفي هدوء. وأقنعنا جميعًا. وأقنع صاحبها، الذى ابتسم وخرج شاكرًا. كان آلان في الحق هو الأذكى. كان أذكى من قابلت في حياتي. وكان خجولاً جدًا. خجل حتى أن يقف معنا نحن طلبته لنأخذ صورة نذكره بها. وكان متواضعًا للغاية. إنسانًا. ثمة معادلة لم أستطع حلها. طلبت إليه أن يساعدني. بعد يومين تمكنت أنا من حلها. وجاء هو إلى بحل. جاءني في معملي يقول إنه قد تمكن من الحل، فقلت إنني قد تمكنت أيضًا. قفز وجلس على البنش. شرح طريقته في الحل. وشرحت له طريقتي. قال إنه لم يفهم حلي! قالها هكذا ببساطة بالغة. آلان روبرتسون بجلال قدره لم يفهم حلي! ويقولها بهذه البساطة! يا سلام! لكن، طالما أننا قد توصلنا إلى نفس النتيجة، فلأكتبها في رسالتي بطريقتي. هي رسالتك أنت، كما قال.

عندما انتهيت من كتابة رسالة الدكتوراه، مضيت بها إليه صباحًا. عندما عدت إلى معملي في الثالثة وجدتها على مكتبي! فتحتها. لم أجده قد صَوَّب إلا كلمات ثمانية. ثمان كلمات فقط. مازلت احتفظ بالمخطوطة. توجهت إليه على الفور. هل قرأت الرسالة؟ نعم. لكنك لم تغير فيها شيئًا. نعم. لا أطلب منك أن تكتب أدبًا إنجليزيًا. ما كتبته مفهوم وليس به أخطاء. هل توافق على آرائي بها؟ نعم، إلا ثلاثة آراء لم تعجبني، لكنها ليست خاطئة : إذا سألك فيها الممتحن فلتدافع عنها. ما هي ؟ لن أقولها لك، وأعد بألا أسألك عنها في المناقشة. حتى هذه اللحظة لا أعرف ما لم يعجبه في الرسالة. أخذت المخطوطة إلى سكرتيرة المعهد،

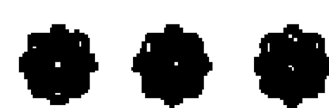
الآنسة مانينج. تفحصتْها. رأت بها جزءًا كبيرًا كله معادلات جبرية. قالت إنها لا تستطيع كتابة هذه المعادلات. عليَّ أن أبحث عن شخص آخر. خرجتُ من مكتبها مكتئبًا. على باب المكتب وقبل أن أقفل الباب خلفي وجدت ألان. مالك؟ حكيت له ما كان. قال زوجتي تكتبها على الآلة. كانت يومًا سكرتيرة هذا المعهد. سمعتُ مانينج ما قاله ألان. قفزت من كرسيها وأخذت مني المخطوطة. كتبتْها في خمسة أيام. أخذتُ نسخ الرسالة بعد تجليدها ومضيت إلى ألان في مكتبه. سألني: من تحب أن يمتحنك؟ قلت بروفسور ثوداى، أستاذ الوراثة بجامعة كمبريدج. هو يعمل بالضبط في نفس المجال. قال: وهو كذلك. في نفس اليوم أرسلت الرسالة إلى ثوداي. جلست إلى الزملاء. حكيت لهم. وإذا بواحد يقول: ألم تجد في إنجلترا كلها إلا هذا الرجل ليمتحنك؟ وماذا في ذلك؟ إنه ألد أعداء ألان روبرتسون. تقدما سويا لشغل كرسى الأستاذية بكمبريدج، الكرسى الذى كان يشغله يومًا السير رونالد فيشر، وحصل عليه بالطبع ثوداى، ابن مدرسة كمبريدج. وكان بينهما ما كان! أصبت بذعر. بعد أيام كان ثمة حفلة في المعهد لاستقبال طلبة الدبلومة الجدد. توجهت إلى بروفسور وادنجتون. حكيت له ما حدث، وما سمعته. أصغى في هدوء بالغ بوجهه الصارم. سألنى سؤالاً واحدًا: هل قرأ ألان رسالتك؟ نعم. قال «ولا يهمك». معنى هذا أننى كنت أستطيع أن أتقدم بالرسالة دون أن يقرأها المشرف؟ أليست رسالتك وأنت المسئول عنها؟ يا رباه!.

ناقشت الرسالة صبيحة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٦٣، كان ثوداى رجلاً لطيفًا مرحًا. استمرت المناقشة أربعين دقيقة. عرضتُ في المناقشة رأيًا،

انفجر ثوداى عند سماعه يضحك ويضحك. خطأ؟ كلا، إنه لا يستطيع أن يقول إنه خطأ، لكنه لا يوافق عليه. هذا شأنك، قلت. قام الممتحنان ليصافحانى ويهنئانى. فى الثالثة كنت بمكتبة المعهد. دخل علىَّ ألان بعد أن ودَّع ثوداى على محطة القطار. صافحنى وقال: أشكرك على أدائك الرائع فى المناقشة. يشكرنى؟! كدت أطير فرحًا. لا. طرت فرحًا.



كتبت فى إدنبره شعرًا كثيرًا. ضاع معظمه وا أسفاه! ليس لأهمية فنية فيه. لا سمح الله. إلا أن الشعر يعيد لكاتبه الماضى مجسدًا. عندما أقرأ قصيدة لى قديمة – وكل قصائدى بالطبع قديمة – يعود إلى ذاكرتى كل شىء عنها بأدق تفاصيله. كل الأحاسيس والانفعالات التى دفعتنى إلى كتابتها، حتى المكان الذى كتبتها فيه. أعيش تلك الحياة القديمة مرة أخرى. كان بعض شعرى هناك حزينًا. لكن الكثير منه لم يكن كذلك. كنت أخرج كثيرًا فى جوف الليل بعد المذاكرة مرتديًا معطفى الثقيل. اشتراه من غزة صديق وأهدانيه. لا يهم إن كانت تمطر. هى دائمًا تمطر. رذاذًا على الأقل. أمشى طويلاً طويلاً. و«أغنى تحت المطر» – إذا لم يكن هناك من يسمعنى. أذكر كثيرًا عبد الوهاب وشوقى وأغنية «فى الليل لما خلى». عرفنى عسكر الليل. يبتسمون لى ويقرءوننى التحية. ثم أعود لأكتب شعرًا إن كان لدى ما أقوله. كل ما كتبت كان رومانسيًا. الشعر عندى يعنى الرومانسية. لا غير. الرومانسية، بكل ما قد يكون فيها من حزن ويأس، تخاطب روح الإنسان. أثمن ما فى الحياة.



بعد عودتى من إدنبره، كنت أتلقى من آلان فى كل كريسماس بطاقة تهنئة بخطه الجميل. وفجأة انقطع عن ارسال البطاقات. علمت أنه توفى. فى أغسطس ١٩٩٠، وكنت عميدًا لكلية الزراعة بالجيزة، قمت مع زوجتى بزيارة سريعة إلى إدنبره. كانت هى الأخرى تحب إدنبره. تقابلنا هناك وكانت لنا قصة جميلة فى ربوعها. ياما تجولنا فى شوارعها. زرنا الأماكن التى عرفتنا. تغيرتْ كثيرًا. ياه! المتحف الذى أمامه تقابلنا لأول مرة. القلعة. نصب السير والترسكوت التذكارى. هوليرود. كينج آرثر سيت. ثم وقفتُ أمام المنزل: ٣٨ شارع مونتبيليار بارك. هناك كنت أسكن مع حامد نافع وجلال النجدى. ثم توجهنا إلى بريد ستريت، إلى منزل آلان. وجدنا زوجته تودع شخصًا على باب الحديقة. وقفتُ أمامها. نظرتْ إلىّ. لم تعرفنى. تغيرتُ كثيرًا. تغيّرتْ هى الأخرى. تمامًا ككل معالم إدنبره. ألا تذكرين؟ أوه.. أوه.. وعرفتْنى. دخلتُ وزوجتى المنزل. طلبتُ منها صورةً لآلان.

وضعت أمامى عددًا، انتقيت واحدة. فى المساء كنت فى منزل الدكتور هنريك كالتشر، مدير الدراسات، على عشاء صغير. ووجدتُ هناك زوجة آلان. حكت لى كيف مات زوجها العزيز: «فى مؤتمر بباريس، كانت محاضرة الافتتاح له. وقف يلقى محاضرته. وفجأة صمت. ثم سأل: ما هذا؟ من أنتم؟ أين أنا؟ أسرعت زوجته إليه واصطحبته إلى الخارج. كان الرجل مصابًا بمرض وراثى خطير، لا يظهر عادة إلا فى الشيخوخة» تمضى زوجته تحكى وتبكى: «تصوّر هذا الرجل الذكى العبقرى الذى تعرفه وقد أصبح طفلاً. لم يعد يعرفنى. لم يعد يعرف أبناءه». أصبح طفلاً

فجأة. شريرًا. كان قوى البنية. مكث سنينًا قبل أن يتوفى». ثم أردفت: «كان لدينا كلب عاش معنا طويلاً، ثم أصيب بالسرطان. طلبت لجمعية الرفق بالحيوان. أعطوه حقنة مات بعدها فى هدوء». يزداد نحيبها وتستطرد: «لا أعرف.. لا أعرف، أليست هذه.. أليست هذه..». ثم غلبها البكاء وصمتت. دمعت عينى. بكت زوجتى. ولم يفتنى ما كانت تقصده: الموت الرحيم.

كم أنت قاس أيها الموت!. كم أنت قاس أيها الموت! قالها فاروق شوشة.

ومن يومها بدأ اهتمامى الجاد بالأمراض الوراثية للإنسان.

(٢)
قراءة فى كتابنا الوراثى
(مشروع الجينوم البشرى)

كل فرد منا نحن البشر عالم بأسره لو ندرى ، عـالم يمـوج بتفاعلاتـه ليس كمثله آخر . جسمه هـذا الصغـير مؤلـف مـن نحـو ٦٠ ألـف بليـون خلية ، لو أنَّا اعتبرنا كلاً منها لبنة بناء لأمكن بها أن نبنى سـورًا كسـور الصين العظيم يلف الكرة الأرضية سبع عشرة مرة!

فى داخل نواة كل من هذه الخلايا كتاب كامل من مائتى ألف صفحة مطبوعة ببنط صغير ، مقسم إلى ثلاثة وعشرين جزءًا تروى القَـدَر الوراثـى لكل منا . وكتاب كل منا نسخة متفردة تختلف فى المتوسط بثلاثة ملايين طريقة عن نسخة أى فرد آخر ، إذا استثنينا توأمـه الطبيـق ، إن وجـد . هذا السِّفر مكتوب بلغة حروفها أربعة لا أكـثر (هـى : أ، ث، ج، س) ، وقاموس معظم ما يقرأ منه مؤلف من واحد وستين كلمة ، كُـلٌ مـن ثلاثـة أحرف متتابعة . من بين هذه الكلمات مترادفات لها نفس المعنى، وهناك من معانى الكلمات عشرون. يؤلف تتابع الكلمات أو الحروف جُمَلاً . ومن الجُمل نوعان : جُمل اسمية ، نعنى أن كلماتـها الثلاثيـة الأحـرف هـى شفرات لأسماء أحماض أمينية فى تتابع بعينه ، وجُمل فعلية تأمر بتنفيذ

جمل اسمية أو التحكم في تنفيذها . وقد لا يزيد طول الجملة الاسمية على ثمانين كلمة ثلاثية ، وقد تطول لتصل إلى مئات الآلاف . تبتدئ الجمل الاسمية جميعًا بكلمة واحدة (هى أ ث ج) قد يتم حذفها عند التفسير . وتنتهى بعلامة توقف تقول (كفى) ، هى فى هذه اللغة كلمة أيضًا كهذه من ثلاثة أحرف متتابعة أيضًا ، ومنها فى الجقيقة ثلاث صور . فى الكتاب لغو كثير ، بل إن معظمه لغو أو ثرثرة أو سَقَطٌ لا نفهمه ، أو لم نفهمه بعد .

كل جزء من الأجزاء الثلاثة والعشرين لسِفْرنا الوراثى مكتوب على شريطين مزدوجين من الدنا DNA (مادة الوراثة) ، يبلغ طول كل منهما نحو مترين . لو أنا وصلنا شرائط الدنا الموجودة بجسم أى منا لشكلتْ خيطًا يمتد إلى الشمس ويعود ٣٥٠ مرة – إن يكن سمكه مجرد ٢٠ أنجستروم (٢ من بليون من المتر) .

يبدأ الفرد منا حياته بخلية واحدة تسمى الزيجوت Zygote، تنتج عن إخصاب حيوان منوى يحمل شريط دنا مزدوجًا ، لبويضة تحمل شريطًا آخر . تتضاعف هذه الخلية وتتضاعف لتغدو هذا العدد المهول من الخلايا الذى يشكل أجسادنا . لابد أن ما يجعلنا بشرٌ – لا قِرَدة ولا ضفادع ولا أشجار – مُضَمَّن فى شرائط (الدنا) التى تحملها هذه (الجاميطات) Gametes (الحيوانات المنوية والبويضات) وتنقلها إلى الزيجوت ، لابدَ أن بها ما يُشَفرٌ لظهور آدمى كامل ، آدمى له عقل يفكر ، عقل محب للاستطلاع والتأمل ، عقل يريد أن يعرف ، عقل يحب العلم. وسيقوده حب الاستطلاع وحب البقاء، لا محالة ، إلى

محاولة فهم العالم المادي الذي يحيا به والعالم المادى الذى يتعامل معه ، ثم إلى محاولة سبر أغوار ذاته، أغوار مادتـه الوراثيـة ، أغـوار جينومـه . فالجينوم البشري Human Genome ، جهازنا الوراثي ، هو الأهم عندنا من بين كل الأجهزة الوراثية للكائنات جميعًا . ومشروع الجينوم البشـرى (HGP) إنما يمثل هـذه المحاولـة الهائلـة لقـراءة كـل حـرف فـى سِفرِنا الوراثي ، ومحاولة فهم تتابعات أحرفه وكلماته وجمله .

المندلية واليوجينيا

وقع الراهب النمساوى جريجور مندل G. Mendel علـى فكـرة الجـين Gene (وأسمـاه العـامل) بعـد تجـارب طويلـة قـام بنشـرها عـام ١٨٦٦، ليطويها النسيان أربعة وثلاثين عامًا ، حتى أعيد اكتشافها عـام ١٩٠٠ . عمل هذا الرجل على سبع صفات فـى نبـات بسـلة الزهـور (منـهـا لـون الحبة : أخضر أم أصفر ، ارتفاع النبات : طويل أم قصير) وتوصل إلى أن وراثة كل صفة في النبات تتوقف على عاملين ، أو أليلين Alleles واحد يأتي من الأب ويأتي الآخر من الأم ، وأن عوامل الصفات المختلفة تتـوزع مستقلة لا تمتزج . لاحظ أن بعض (الأليلات) سـائد Dominant ، تكفـى منها نسخة واحدة فى النبات – تأتى عن الأب أو عن الأم – لكى تعـبر الصفة عن نفسها في مظهر الفرد ، وأن البعض الآخر من الأليـلات مُتَنَحٍ Recessive يلزم أن يحمل النبات منها نسختين حتـى تعبر الصفـة عـن نفسها . فالفرد إما أن يكون أصيلاً Homozygote لصفة متنحية أو لصفة سائدة (أى يحمل (أليلين) متنحيين أو (أليلين) سـائدين) وإمـا أن يكـون

خليطًا Heterozygote يحمل (أليلا) سائدًا و(أليلاً) متنحيًا ، ويكون مظهره بالطبع هو الصفة السائدة . ومثل هذا الفرد الخليط يسمى (حاملاً) Carrier للصفة المتنحية ، فهو يحمل (أليلاً) متنحيًا لم يُعبِّر عنه لكنه يستطيع أن يورثه لنصف نسله (ويرث النصف الآخر الأليل السائد) .

عندما أعيد اكتشاف المندلية اندفع العلماء في حمية وحماس يحاولون بها تفسير السلوك الوراثي للصفات في الكائنات المختلفة من نبات وحيوان . لكن وراثة الإنسان لم تحظ بقدر مواز من البحوث الجادة ، فالإنسان ليس بالكائن النموذجي لإجراء التجارب الوراثية . كان علم الوراثة المندلى هو علم التهجين والعَدِّ ، وليس التهجينُ الموَجَّهُ بالأمر المقبول في الإنسان . من منا سيتزوج من أجل تجربة؟ من منا سيتزوج من شخص بعينه لا لسبب إلا لأن هذا الأخير يحمل صفة ما نود دراستها في النسل؟ ثم إن عدد النسل من كل زواج محدود ، وفترة الجيل طويلة حقًا . ففي الوقت الذى تمكن فيه العلماء ، في فورةٍ بداية الثورة الوراثية في مطلع هذا القرن ، من دراسة المئات من الصفات الوراثية في ذبابة الفاكهة وخنازير غينيا والفئران والأرانب والخيل وغيرها من الحيوانات وفي الكثير من النباتات ، لم يتمكن العاملون في وراثة الإنسان – بتعقب سجلات الأنساب – إلا من القليل من الصفات الوراثية. ربما كان لنا هنا أن نذكر البعض منها : كان أول من أشار إلى السلوك المندلى للصفات في البشر هو أرشيبولد جارود A. Garrod عندما أوضح عام ١٩٠٢ أن مرض البول الألكبتوني Alkeptonuria صفة وراثية مندلية . وفي عام ١٩٠٥ ظهر أن صفة قصر الأصابع صفة مندلية . وفي عام ١٩٠٧ بيّن هيرست أن

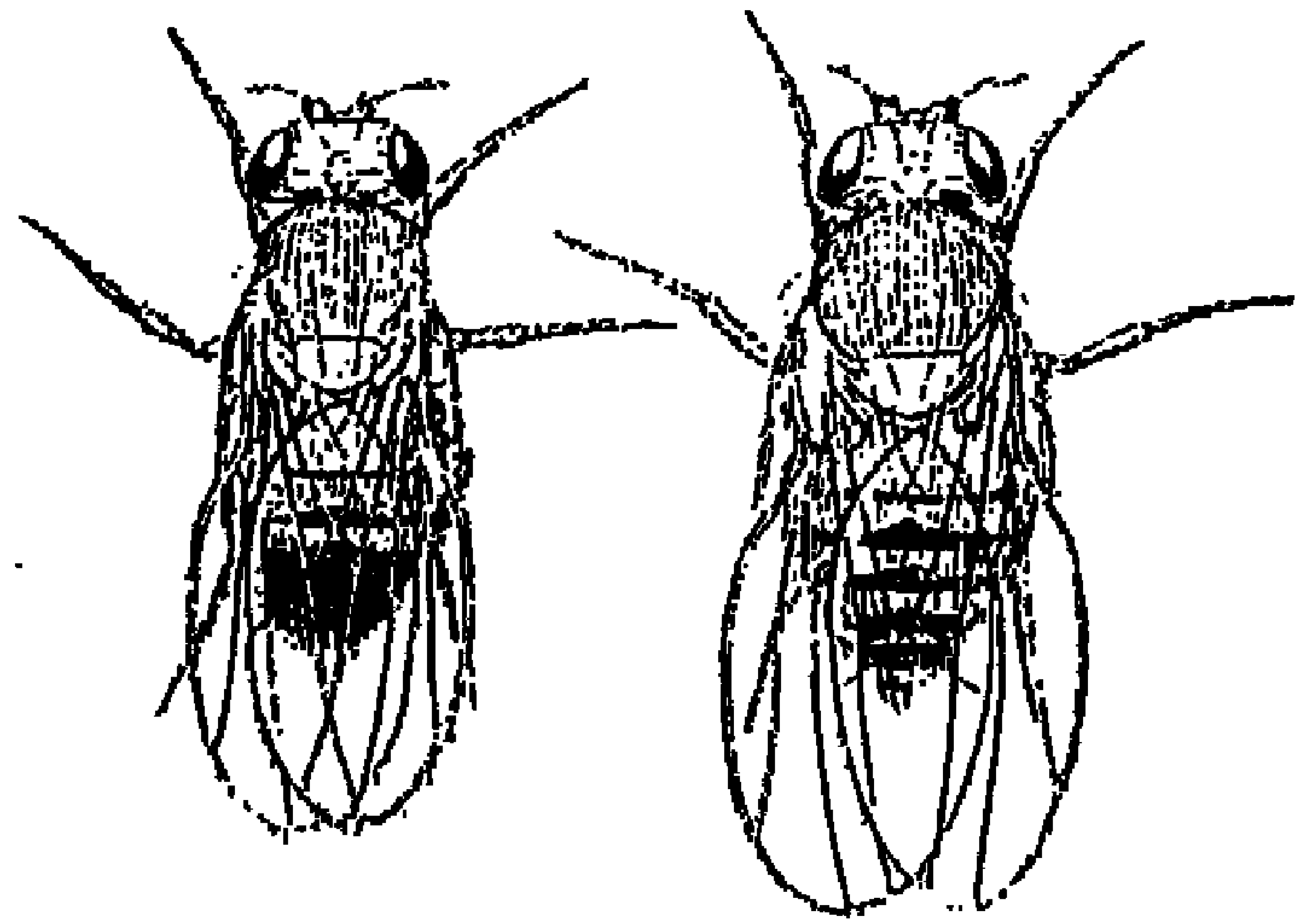
المندلية تفسر لون العين في الإنسان، وفى عام ١٩١١ أثبت لاندشتاينر Landsteiner أن مجاميع الدم A B O لهـا السلوك المندلى ، وفى عام ١٩٣٠ ثبت أن الإحساس بالطعم المر لمادة الفينايل ثيوكاربامايد PTC صفة مندلية . قوانين مندل إذن تنطبق على الإنسان ، مثلما تنطبق على بقية الكائنات الحية التى درست . من الممكن إذن أن نحسّن الإنسان وراثيًا ، كما حسّنا الأبقار والخنازير والنباتات .

ذاعت إذن وانتشرت بشكل مذهل فكرة فرانسيس جالتون F. Galton عن (اليوجينيا Eugenics) لإنتاج الإنسان المتفوق السوبرمان ، الذى يخلو من الصفات (غير المرغوبة) ، ومضى اليوجينيون يتمسحون بالمندلية ويُخضعون لها قسرًا صفات كالإصابة بالسل والصرع والسكر ، وكالإجرام والفقر والتخلف العقلى . وُجِّه علم وراثة الإنسان بذلك هذا التوجيه المنحرف ليخدم اليوجينيا ، وانتهت الحركة اليوجينية بانتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط النازى سنة ١٩٤٥ ، بعد أن تسببت فى قتل وتعقيم عشرات الآلاف من البشر فى ألمانيا والولايات المتحدة ، لتصبح اليوجينيا بعد الحرب كلمة كريهة قذرة .

عاشقة العسل

فى عام ١٩٠٩ وقع توماس هَنْط مورجان T.H. Morgan على ذبابة الفاكهة (دروسوفيلا ميلانوجَسْتر Drosophila melanogaster (والاسم العلمى هذا يعنى : عاشقة العسل ذات البطن السوداء) لتكون كائنه النموذجى فى دراساته الوراثية. تحمل نواة الخلية الجسدية لهذه الحشرة

المادة الوراثية مقسمة إلى أربعة أزواج لا أكثر من الكروموزمات Chromosomes (واحد من كل زوج يأتى من الأب فى الحيوان المنوى، والآخر من الأم فى البويضة) . من بين هذه الأزواج الأربعة هناك زوج من كروموزومات الجنس (XX فى الأنثى ، XY فى الذكر) وثلاثة أزواج من الأوتوزومات Autosomes (هكذا تسمى الكروموزومات غير كروموزومى الجنس).



أنثى وذكر ذبابة الفاكهة
(الدروسوفيلا)

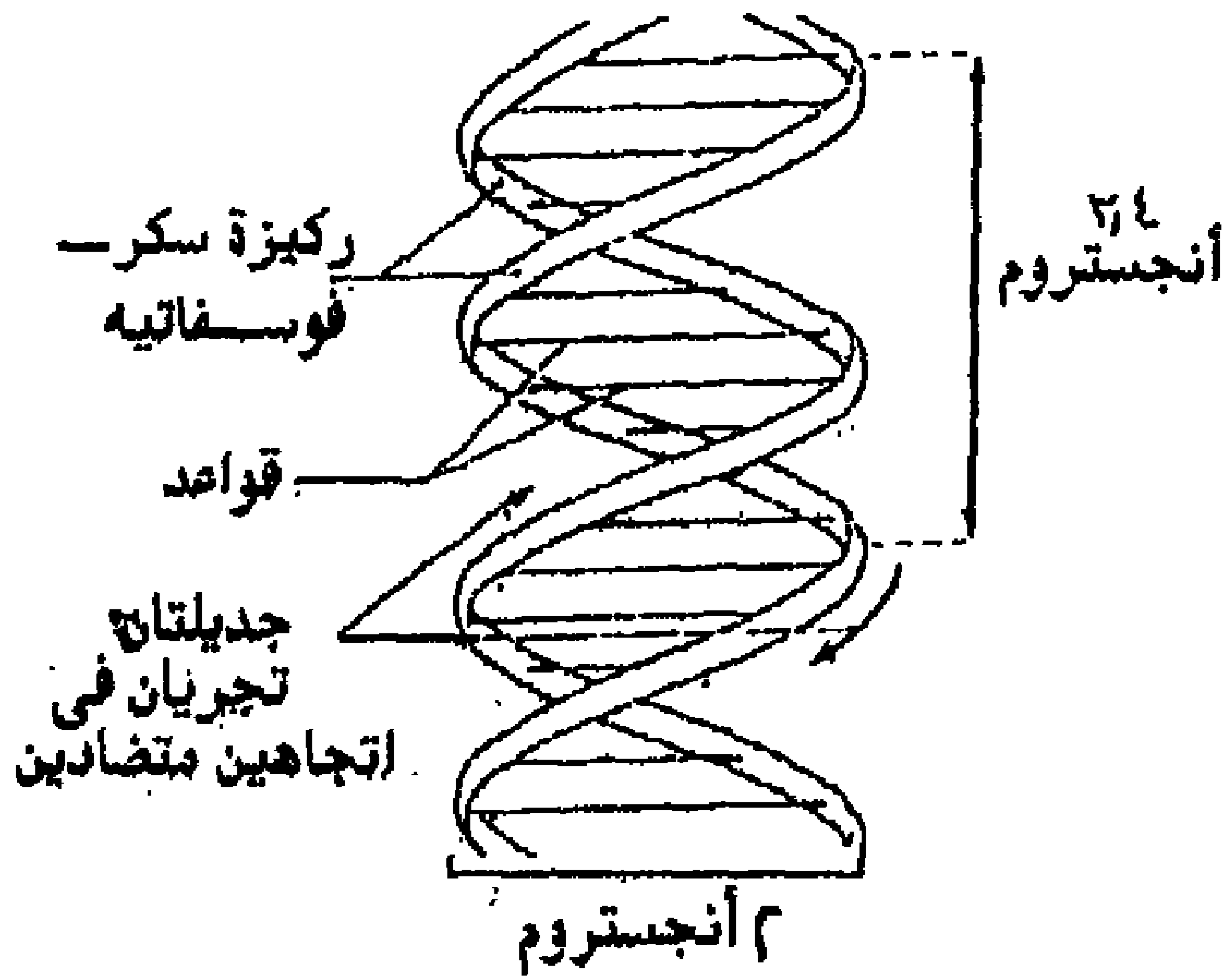
قام مورجان مع تلاميذه طوال العقد الثانى من هذا القرن بدراسات وراثية موسعة على هذه الحشرة وأثبت أن الكروموزومات هى الحاملة للجينات ، وأن الجينات تصطف على الكروموزومات فى ترتيب خطى كحبات العقد ، وأن ثمة ظاهرة تسمى (العبور) Crossing Over تحدث أثناء إنتاج الجاميطات (أى البويضات والحيوانات المنوية) يتبادل فيها فردى كل كروموزومين قرينين قِطَعًا متساوية من المادة الوراثية ، وأنه من الممكن أن تقاس المسافة بين أى جينين على نفس الكروموزوم بتقدير نسبة

العبور بينهما – فكلما ازدادت المسافة ازداد احتمال حدوث العبور – بحيث يمكن أن نرسم (خريطة عبور) أى (خريطة ارتباط Linkage Map لكل كروموزوم توضح ترتيب الجينات عليها ، ويكون فيها البعد بين أى جينين هو نسبة العبور بينهما . ولقد نشر ألفريد ستيرتيفانت A.H. Sturtevant وزملاؤه من جماعة مورجان أول (خريطة عبور) عام ١٩١٣ ، وكانت تحمل مواقع ستة جينات على كروموزوم الجنس (X) في (الدروسوفيلا) .

اللولب المزدوج

في ربيع عام ١٩٥٣ نشر جيمس واطسون وفرانسيس كريك J. Watson & F. Crick أخطر بحث وراثي على الإطلاق ، وصفا فيه التركيب الجزيئي ثلاثي الأبعاد للدنا DNA (الحامض النووى الديوكسي ريبوزى Deoxyribonucleic Acid) – مادة الوراثة – وفتحا به عالما جديدًا واسعًا من البحوث والتقنيات ، وتحول به مجرى العلوم الوراثية تمامًا . جزىء (الدنا) لولب مزدوج Double Helix كالسلم الحلزوني له ركيزتان من السكر والفوسفات تجريان في تواز مضاد ، وتتصلان على مسافات دورية بسلالم ، كل يتألف من زوج من القواعد Bases الكيماوية (واحدة على كل جديلة تواجه الأخرى وتتصل بها لتشكل السلمة) : إما أدنين – ثايمين (أ – ث) Adenine – Thymine (A-T) أو سيتوزين – جوانين (س – ج) Cytosine – Guanine (C – G) فالأدنين على جديلة لابد أن يقابله ثايمين على الجديلة المواجهة ، ونفس الأمر بالنسبة للسيتوزين والجوانين ، بحيث إذا انفصلت جديلتا اللولب المزدوج هذا

أثناء الانقسام مثلاً ، فإن كلاً منهما يمكنها أن تبنى جديلة رفيقة مكملة تكون طبق الأصل من الجديلة الرفيقة التى انفصلت ؛ لينتج لولبان مزدوجان متطابقان ومطابقان للولب المزدوج الأصل ، كل منهما مكون من جديلة قديمة وأخرى جديدة .



تحمل الدورة الواحدة من هذا السلم الجلزونى عشر سلالم ، يفصل بين كل سلمتين متتابعتين مسافة تبلغ ٣,٤ أنجستروم (والأنجستروم = ١ من عشرة بلايين من المتر) ، ويبلغ عرض السلم اللولب ٢٠ أنجستروم .

فى ظرف عقد من الزمان أدرك العلماء أن هذه القواعد الأربعة ، أى الحروف الأربعة (أ ، ث ، ج ، س) تشكل أبجدية الشفرة الوراثية ، وأن ترتيب القواعد على (الدنا) (بالكروموزومات) أى تتابعها Sequence على شريط (الدنا) هو الذى يحدد المحتوى المعلوماتى له ، وأن الجينات Genes هى مقاطع من (الدنا) يتراوح طولها ما بين بضع مئات من أزواج

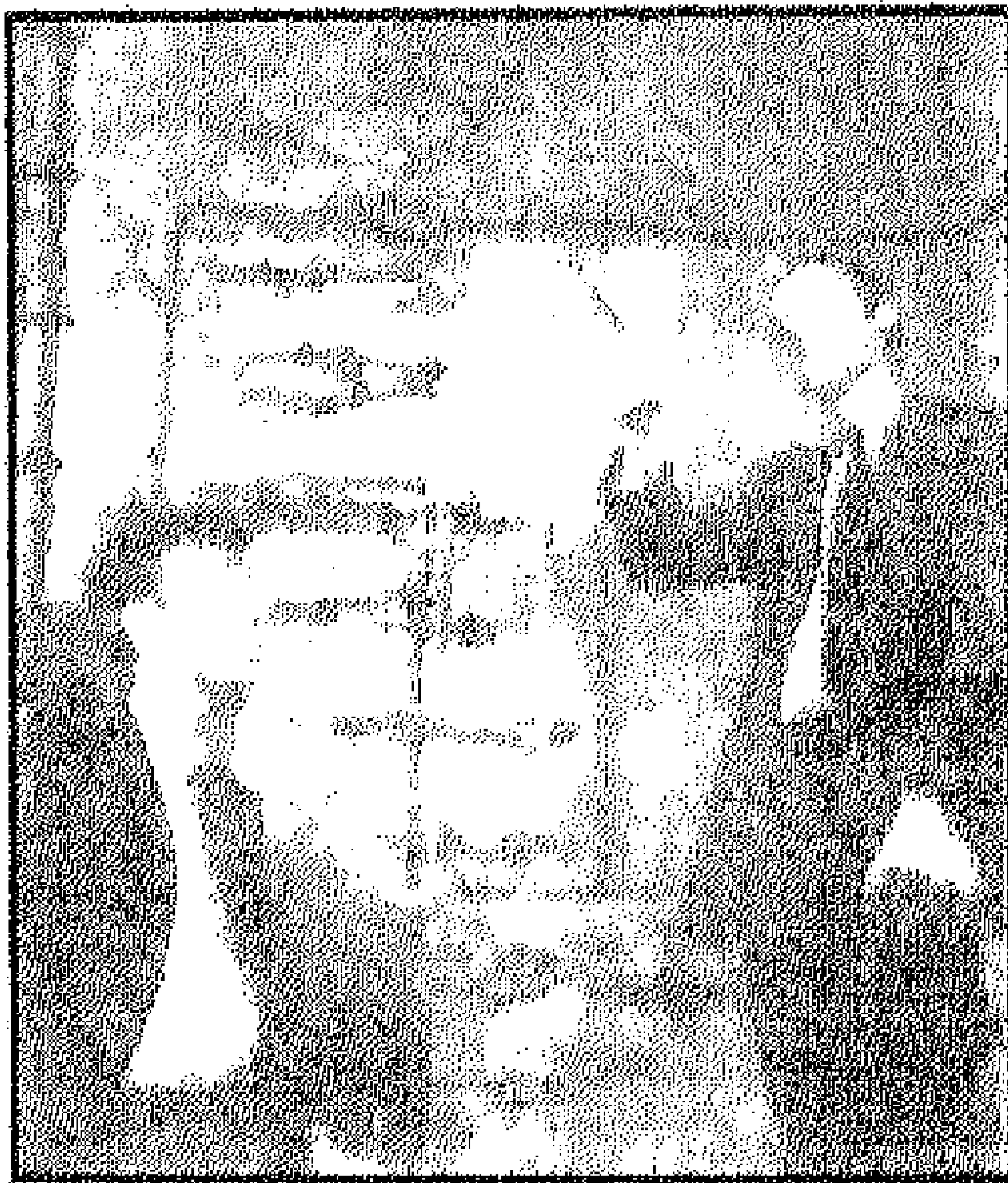
القواعد (جين الذكورة في الإنسان طولـه ٢٤٠ حرفًا) وبـين مليونـي زوج (جـين بروتـين الدينورفـين Dynorphin فـي الإنسـان طولـه ٢ مليـون حرف) . والجين هو ما يشفر للصفة (وإن كان بعـض الجينـات يشفر إلى ما قد يصل إلى عشرين صفة في الأنسجة المختلفة من الجسم) ، وهو مقسم إلى كودونات Codons ، والكودون عبارة عن ثلاثة أحـرف متتابعـة تُقرأ من بداية الجين ، ولأن الأبجدية الوراثية مؤلفة من أربعة أحرف فسيكون لدينا ٦٤ كودونًا محتملاً (مثـلاً : أأأ أو أ س ج أو ث س ج) . يشفر ٦١ من هذه الكودونات لأحماض أمينيـة Amino Acids ، وهـذه الأحمـاض هي أحجار بناء البروتينات Proteins – ومنها عشرون حمضًا . ولـذا فإن الحمض الأميني الواحد قد يشـفر لـه أكـثر مـن كـودون . ينتـهي الجـين بكودون يقول (كفى) ومنه ثلاث صـور : ث أ أ ، ث أ ج، ث ج أ . ثمة آلية بالخلية تقوم إذن بترجمـة الكودونـات علـى الجـين إلى سلسـلة مـن الأحماض الأمينية ، سلسلة تنطوى لتشكل البروتين الذى يشفر له الجين (ذلك بأن يُنْسَخَ الجين علـى (رنـا) RNA داخـل النـواة Nucleus ، ثم يُشَذَّب ، ليخرج إلى السيتوبلازم Cytoplasm خارج النواة حيـث يـترجم إلى السلسلة النظيرة من الأحمـاض الأمينيـة ، قـد تُحَـوَّر هـى الأخـرى – و(الرنا) حمض نووى آخر لا يختلف كثيرًا عن (الدنا)) . كما اتضح أيضًـا أن معظم جينات الكائنات العليا من النوع المفروق Split Genes ، والجين المفروق جين تتخلل المناطق المشفرة فيه (والتى تسمى الإكسونات Exons) مناطقُ لا تشفر لشيء معروف تسمى الإنترونات Introns . وقد تصل نسبة الإنترونات فى بعض الكائنات العليا كالإنسان إلى ٩٠٪ أو ٩٥٪ من طـول الجينوم Genome كله .



جريجور مندل



نانسي ويكسلر تحتضن طفلا مريضا بمرض هنتنحتون كان يعيش قرب بحيرة ماراكايبو فى فنزويلا (ماتت والدة نانسي بهذا المرض)



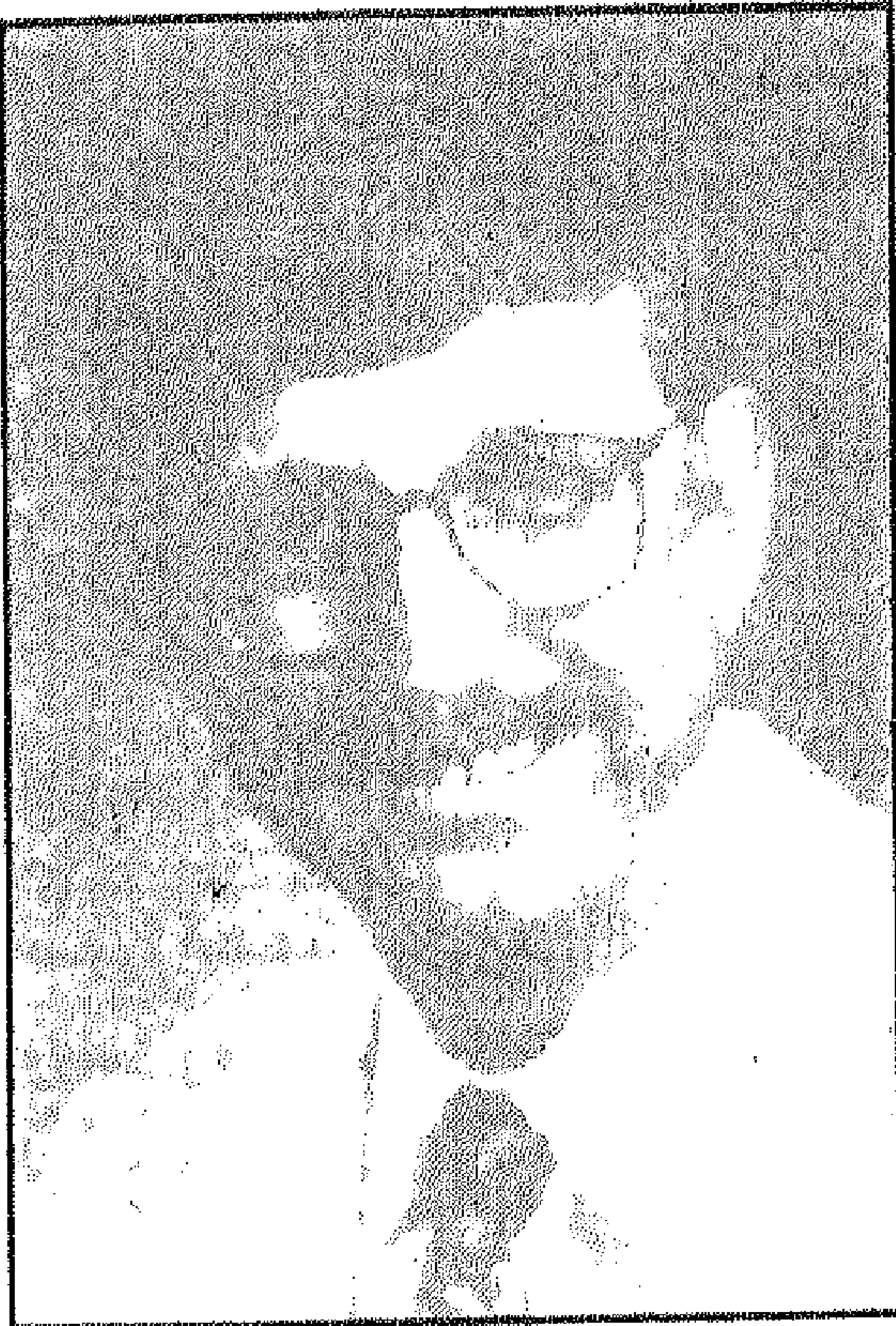
الصورة الشهيرة لكريك (إلى اليمين) وواطسن وهما يشرحان تركيب اللولب المزدوج عندما اكتشفاه



روبرت سينسهايمر



⬆ فيكتور ماكوزيك



فرانسيس كولينز

كروموزومات الإنسان

إذا كان (للدروسوفيلا) أربعة أزواج من الكروموزومات ، وكانت للبسلة سبعة أزواج ، فما هو عدد أزواج الكروموزومات فى الإنسان ؟ من عجب أننا لم نعرف العدد الحقيقى إلا مؤخرًا جداً ففى عام ١٩١٢ أعلن السيتولوجى البلجيكى هانس فون فينيفارتر H. von Winiwarter أن عدد الكروموزومات فى الرجل ٤٧ وفى المرأة ٤٨ (أى ٢٤ زوجًا)، وقال إن السبب فى هذا الاختلاف يرجع إلى أن المرأة تحمل كروموزومى جنس Sex Chromosomes بينما يحمل الرجل كروموزومًا واحدًا . وفى سنة ١٩٢١ رأى تيوفيلوس بينتر T. Painter أن أفضل عدد لكروموزومات الرجل هو ٤٨ (٢٤ زوجًا) ونشر عن ذلك تقريرًا عام ١٩٢٤ . وظل الجميع يعتقدون أن هذا هو العدد الصحيح لفترة تربو على الثلاثين عامًا ، ولم يُعرف العدد الحقيقى إلا سنة ١٩٥٦ عندما نشر جو – هين تيو Joe – Hin Tjio الإندونيسى وألبيرت ليفان A. Levan السويدى نتائجهما التى أكدت أن العدد الصحيح من الكروموزومات الذى يحمله الجينوم البشرى هو ٤٦ أى ٢٣ زوجًا .

بعد أن تعزز هذا التأكيد بأبحاث عديدة ، عُقد فى أبريل فى دنفر – كلورادو مؤتمر للوراثة تم فيه الاتفاق على ترقيم الأوتوزومات (أى الكروموزومات غير كروموزومى الجنس X و Y) حسب تدرج أحجامها بحيث يعطى الرقم ١ للكروموزوم الأكبر .



صورة كروموزومات الانسان كما تبدو تحت المجهر

رسم الخرائط (الخَرْطَنَة)

من الممكن إذا أن يرسم للجينوم البشرى (أو غيره) ثلاثة أنواع من الخرائط. أولاها الخريطة السيتولوجية Cytological التى توضح التفاصيل المظهرية للكروموزومات كما نراها تحت الميكروسكوب. ولقد أمكن فى أوائل السبعينات التوصل إلى صبغات يمكن باستخدامها التمييز بين الكروموزومات البشرية تحت المجهر، إذ يُظهر كل كروموزوم عند الصبغ نمطًا خاصًا من الشرائط Bands السميكة والنحيلة يمكن التعرف عليه بسهولة دون لبس أو خطأ. أما الخريطة الثانية فهى خريطة العبور.

وفيها تكون المسافات بين الجينات هى نسب العبور بينها ، وتقاس بالسنتيمورجان Centimorgan الذى يساوى ١٪ عبور (فإذا كان البعد بين جينين على كروموزوم بالخريطة هو ٣٠ سنتيمورجان فإن هذا يعنى احتمالاً قدره ٣٠٪ أن ينفصلا بالعبور أثناء الانقسام الاختزالى عند إنتاج الجاميطات) . يظهر الجينوم فى هذه الخريطة فى صورة خطوط ، كل يمثل كروموزمًا – وعلى كل خط تتوالى النقاط التى تمثل الجينات ، تفصلها مسافات تُعَبِّر عن نسب العبور . تتطلب هذه الخريطة وجود واسمات Markers معروفة نبدأ بها على كروموزوم يمكن أن ننسب إليها غيرها من الجينات – وهذا أمر صعب فى الجينوم البشرى .

أما الخريطة الثالثة فهى الخريطة الفيزيقية الجزيئية التى توضح تتابع القواعد Sequence (أو الحروف أ ، ث ، ج ، س) على طول كل كروموزوم . لن تكون المسافات بين الجينات على أى كروموزوم فى الخريطة الفيزيقية مناظرة للمسافات على خريطة العبور ، لكن تتابع الجينات سيكون واحدًا .

لكن ، كيف يمكن أن نرسم (خريطة عبور) لكروموزومات الإنسان ؟ لن نستطيع بالطبع أن نجرى التهجينات الوراثية التى نحتاجها كما نفعل فى (الدروسوفيلا) أو نبات البسلة .

إن كل ما يمكن عمله هو اللجوء إلى سجلات الأقارب والأسلاف الممتدة للعائلات . فإذا لاحظنا أن صفتين مرتبطتان ، أى تورثان دائمًا متصاحبتين دون أن تتوزعا توزيعًا حرًا ، فكيف لنا أن نعرف الكروموزوم الذى يحمل جينيهما من بين ثلاثة وعشرين كروموزومًا ؟ سيكون الأمر

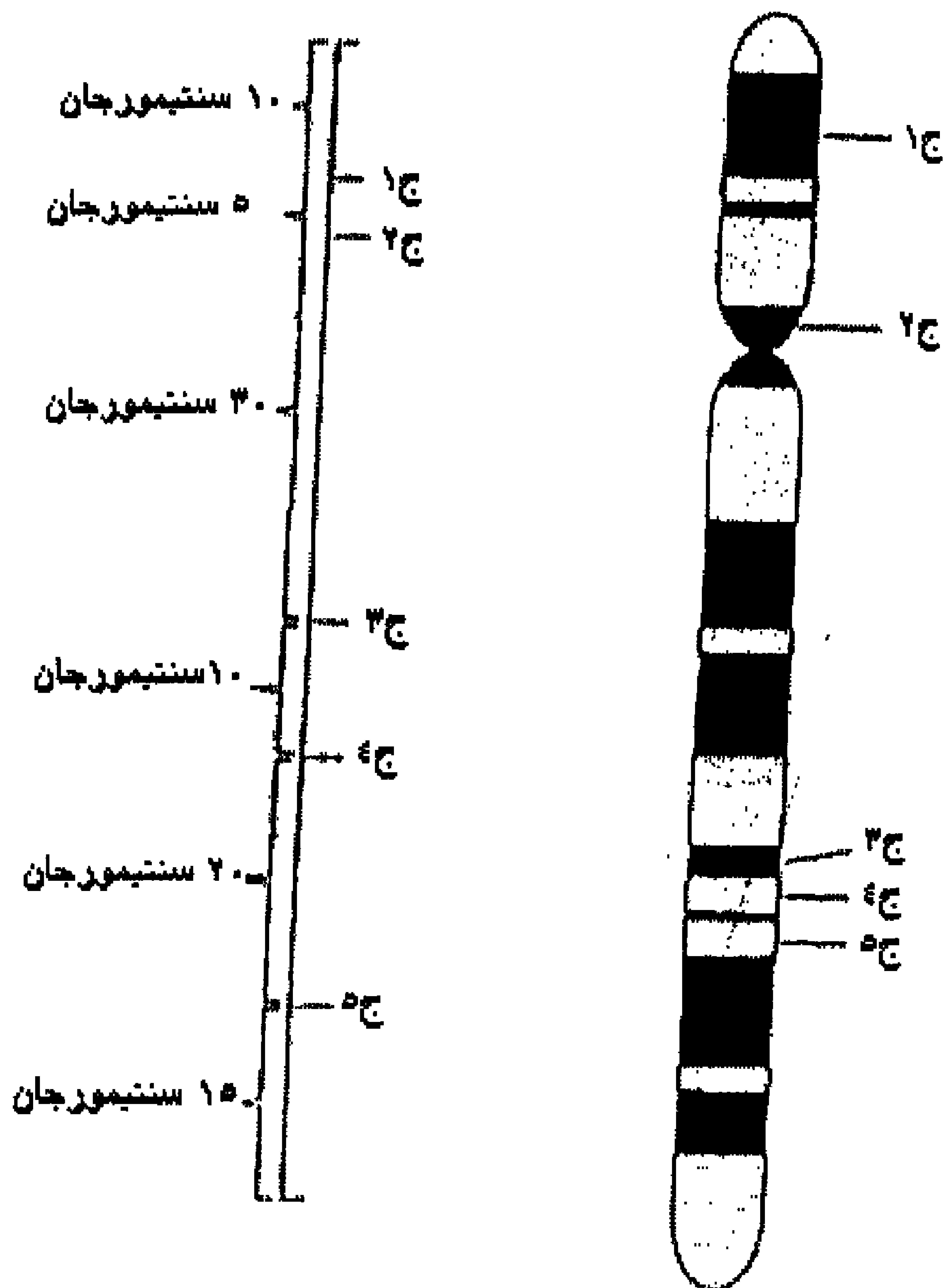
سهلا نسبيا للجينات المرتبطة بالجنس أى الموجودة على كروموزوم الجنس X ذلك أن الذكر الذى يحمل كروموزوم X واحدا (بالإضافة إلى كروموزوم Y فارغ وراثيا تقريبا) لا يورث كروموزومه X هذا أبدا إلى أبنائه من الذكور ، نعنى أن كروموزوم X بأى ذكر لابد أن يأتى عن أمه . والحق أن أول مجموعة ارتباط تنسب إلى كروموزوم بعينه فى الإنسان كانت عبارة عن جينين مرتبطين بالجنس هما عمى الألوان والهيموفيليا ، تم ذلك عام ١٩٣٦ على يدى هالدين وجوليا بيل J.B.S. Haldane & J. Bell. وحتى عام ١٩٦٧ لم يكن معروفا إلا تسع مجاميع ارتباطية بشرية ، سبع منها كانت مجرد جينين لا أكثر .

عن الفئران والرجال

ثم ظهرت تقنية التهجين الخلوى الخضرى Vegetative Hybridization . نستطيع بهذه التقنية أن نهجن أو ندمج خلايا بشرية بخلايا فأر ، لتنتج خلايا تحمل جينومى الإنسان والفأر سويا ، يمكنها أن تنقسم وتتكاثر فى المستنبت فى المعمل . يحدث مع توالى انقسام هذه الخلايا الهجينة أن تفقد بالتدريج بعض الكروموزومات البشرية - لا الفأرية - ويمكن بذلك أن ننمى خلايا هجينة تحمل كروموزومات الفأر بالإضافة إلى كروموزوم بشرى بعينه - أو حتى جزء معين من كروموزوم محدد - فى مقدورنا بالطبع أن نعرفه بنمط الشرائط الموجودة عليه. من الممكن أن نفحص النواتج البيولوجية لهذا الكروموزوم - أو المقطع منه - لنعرف إن كان يحمل جينا ما . فإذا وجدنا مثلا أن هذه الخلايا تنتج إنزيم الثايمدين كاينيز Thymidene Kinase البشرى ، قلنا إن

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
X
Y

صورة تخطيطية لكروموزمات الإنسان توضح أنماط التشريط المختلفة عليها، كما توضح الأطوال النسبية لها.



تُقَاس المسافة بين الجينات على الخريطة الفيزيقية (إلى اليمين) بعدد أزواج القواعد التى تفصل بينها، بينما تُقَاس على خريطة الإرتباط (إلى اليسار) بنسب العبور. توجد الجينات على الخريطتين بنفس الترتيب، لكن المسافات بينها تختلف.

الجين الخاص بهذه الصفة يقع على الكروموزوم البشرى هذا – أو الجزء منه – الباقى بالخلايا . والواقع أن الجين المسئول عن هذا الإنزيم كان هو أول جين بشرى يُنْسَبُ إلى كروموزوم أوتوزومى بعينه . كان ذلك عام ١٩٦٨ عندما أعلن هوارد جرين ومارى وايس H. Green & M. Weiss عن تحديدهما لمكان هذا الجين على الكروموزوم ١٧ . أمكن إذن باستخدام التشريط على الكروموزومات والتهجين الخلوى الخضرى أن تُنسب جينات بشرية إلى كروموزومات بعينها ، بل وإلى مناطق بذاتها من الكروموزومات ، بل وحتى إلى شرائط محددة منها .

حجم الجينوم البشرى

إذا كان الجين على خريطة العبور هو مجرد نقطة على خط يمثل كروموزومًا ، فإنه ليس كذلك على الخريطة الفيزيقية الجزيئية ، فهو فيها مسافة من تتابع خطى من القواعد أو الحروف يمكن قراءته ، ويقاس بعدد أزواج القواعد بالقطعة التى تحمله من اللولب المزدوج . ورسم هذه الخريطة الفيزيقية ، أى تحديد هذا التتابع على طول (دنا) الإنسان – الذى يحمل المحتوى المعلوماتى الذى يجعلنا بشرًا – هو المهمة الأولى لمشروع الجينوم البشرى .

يبلغ طول الجينوم البشرى بأكمله (الذى تحمله ثلاثة وعشرون كروموزومًا) نحو ٣٠٠٠ – ٣٥٠٠ مليون زوجًا من القواعد Base Pairs (زق bp) مقسمة إلى قطع ، إلى كروموزومات ، يحتوى أصغرها (الكروموزوم Y) على نحو ٥٠ مليون زق، بينما يحتوى أكبرها (الكروموزوم رقم ١) على نحو ٢٥٠ مليون زق .

وسَلْسَلة القواعد فى (الدنا) مهمة جد عسيرة، بل لقد كانت تبدو مستحيلة . فلقد تطلب الأمر فى عام ١٩٧١ سنتين لتحديد تتابع طوله ٢٠ زقًا لا أكثر ، فكيف لنا أن نسلسل ثلاثة آلاف مليون زق ؟ لكنا سنجد العلماء على عام ١٩٧٦ وقد توصلوا إلى طرق أسرع بكثير ، يمكن بها أن يسلسل الشخص فى العام نحو خمسة آلاف زق . ثم تطورت تقنية السَّلسلة Sequencing فى خلال خمسة عشر عامًا لتصل إلى طرق مُؤْتَمَتَة يمكن بها للفرد أن يسلسل ما بين عشرة آلاف ومائة ألف زق فى العام .

واسمات جديدة

ولقد ظهرت تقنيات جديدة مهدت السبيل إلى السَّلسلة . اكتشف عام ١٩٧٠ إنزيمات بكتيرية تسمى إنزيمات التحديد Restriction Enzymes تفرزها البكتريا لتمزيق (دنا) ما قد يصيبها من فيروسات Viruses ، وتقوم ببتر (الدنا) – أىّ (دنا) – فى مواقع بذاتها . لكل إنزيم من هذه – وقد عرف منها الآن نحو ٤٠٠ – تتابع بعينه من القواعد يتعرف عليه ، ويقطع عنده كلما صادفه ، إنزيم إيكور – ١ EcoR-1 مثلاً يتعرف على التتابع ج أ أ ث ث س حيثما كان ، ويبتر (الدنا) بعد الحرف ج . قادت هذه الإنزيمات سنة ١٩٧٣ إلى الهندسة الوراثية Genetic Engineering، وهذه تقنية يُقطع بها مقطع من (دنا) كائن بهذا المقص الْمُنَمْنَم – إنزيم التحديد – ليولج فى (دنا) كائن آخر بعد قَصّه بنفس الإنزيم ، ثم استعمال إنزيم وَصْل (ليجيز Ligase) لإجراء عملية اللحام .

مواقع البتر التى تتعرف عليها إنزيمات التحديد Recognition Sites يمكن أن تعتبر واسمات على أى كروموزوم ، تُعرف بما ينتج عن بترها من شظايا مختلفة الطول (تسمى (الرفليبات) RFLPs) . يمكن إذن أن تحل (الرفليبات) محل الواسمات ، نقصد محل جينات الصفات المظهرية التى بنى عليها مورجان مثلاً خرائط العبور فى (الدروسوفيلا) ، فهى مثلها مؤلفة من تتابع معين من القواعد . أمكن تحديد مواقع نحو ثلاثة آلاف (رفليب) مبعثرة على كروموزومات الجينوم البشرى ، رُسمت خرائط توضح مواقعها .

فجأة أصبحت لدينا مجموعة ضخمة من الواسمات تشكل شبكة موزعة على الكروموزومات البشرية جميعًا ، يمكن إليها أن ننسب الجينات وأن نُخَرْطنها . فجأة أصبحت لدينا عدَّة يمكن بها أن نقطع جينًا مسئولاً عن مرض ما فى البشر ، أو أى مقطع من (الدنا) ، إذا وُجِد على كل من جانبى منطقة تَعَرُّف لإنزيم تحديدٍ من هذه – أن نعزله هكذا ، وأن نكلْونِه clone ، أى نضاعفه – بإيلاجه فى بكتيرة مثلاً ليتضاعف مع تضاعفها ، بل إننا نستطيع أيضًا بهذه الإنزيمات أن نشظِّى الجينوم البشرى بأكمله إلى مئات الآلاف من الشظايا ، يمكن أن تُفصل تبعًا للحجم باستخدام تقنية التفريد الكهربائى Electrophoresis ، وأن نولج كل شظية فى بكتيرة أو خلية خميرة Yeast يخزن بها ، لننشىء مكتبة كاملة للجينوم يمكن أن نسلسلها قطعة قطعة .

ثمة تقنية أخرى لخرطنة الجينات ليس لها نظير سابق ابتُكرت فى أوائل الثمانينات ، تستغل مبدأ تكامل القواعد (أ تقترن فقط مع ث ،

وس فقط مع ج) وتسمى تقنية تهجين المادة الوراثية فى موقعها In situ hybridization . فإذا أخذنا مثلاً قطعة من (دنا) بشرى تحمل جينًا أو جزءًا من جين ، وأنتجنا منها ، بالكلونة مثلاً ، قدرًا معقولاً يكفى ، ثم قمنا بوسْمها بواسم مشع أو بمادة كيماوية تُسبب تغيرًا فى اللون ، نتج لدينا ما يسمى مسبرًا Probe . وإذا أخذنا دهكة من جينوم فرد ما عولجت بحيث تُفصل جدائل (الدنا) وتصبح مفردة ، ثم أضفنا إليها المسبر المشع بعد أن يُعالَج هو الآخر لتصبح جدائله مفردة ، التصق، أو تهَجَّن، هذا المسبر بالقواعد المُكملة له عند مكان الجين بالتحديد، لنتمكن بذلك من تحديد الكروموزوم الذى يحمل الجين ، بل والمنطقة منه التى تحمله ، وذلك بأخذ صورة إشعاعية للكروموزومات يظهر عليها مكان التهجين الدناوى كبقعة سوداء إذا كنا قد استخدمنا واسمًا مشعًا ، أو بملاحظة مواقع تغير اللون إذا كانت مادة الوَسْم تحدث تفاعلاً يعطى لونا .

وبدأ تعقب جينات الأمراض

بعد أن توفرت كل هذه الأدوات أمام الوراثيين ، بدأوا يتعقبون.. جينات أمراض الإنسان ، بالطبع . ولقد كان الفتح الكبير الأول هو تحديد مكان الجين الطافر المسبب لمرض هنتنجتون Huntington Disease (والاسم مأخوذ عن مكتشفه الطبيب الأمريكى **جورج صمنر هنتنجتون**). هذا مرض وراثى نادر (يصيب فى الغرب شخصًا بين كل مائة ألف)، أوتوزومى ، سائد كامل النفاذية لابد أن يظهر أثره القاتل على الفرد حتى إذا حمل فى جينومه نسخة واحدة منه فقط. تبدأ

أعراض المرض فى الظهور في سن يتراوح ما بين ٣٥ و ٤٥ عامًا ، وتستمر فترة تصل إلى ١٥ أو ٢٥ عامًا ، ليقتل المريض فى نهايتها . تبدأ أعراضه بالاكتئاب وبعض المتاعب النفسية ، وتنتهى بأن يفقد المريض السيطرة على عضلاته ويصاب بتدهور عقلى فظيع واضطرابات عاطفية حادة واكتئاب انتحارى وهذيان .

فى عام ١٩٧٩ عُهِد إلى **نانسى ويكسلر** N. Wexler تنفيذ برنامج بحثى عن هذا المرض ، وكان لديها اهتمام خاص به لأن والدتها ماتت به . كانت فكرة خَرْطَنَة الجينات بالرفليبات الواسمة جديدةً ، وكانت تأمل فى أن تجد رفليبًا يقع على مقربة من جين (هنتنجتون) على كروموزومات مَنْ يحملون المرض . فإذا توصلتْ فى نهاية الأمر إلى الجين فقد يمكن تحديد أسباب المرض وتطوير أدوية لعلاجه . اتجهت مع فريقها عام ١٩٨١ إلى ثلاث قرى على شواطىء بحيرة ماراكايبو Maracaibo بفنزويلا حيث عُرِف بانتشار المرض . أمكن تعقب المرض منذ العقد الأول من القرن الماضى إلى امرأة واحدة (اسمها **ماريا كونسِبْسيون** M. Concepcion) بلغ تعداد نسلها ١١ ألف شخص كان منهم تسعة آلاف يحيون آنئذ . عينة هائلة قلما تتوفر لوراثى . بدأ الفريق يرسل عينات من دم هؤلاء إلى معمل **جيمس جوزيلا** J. Gusella فى بوسطون ، وكان قد طوّر رفليبات واسمات مشعة . فإذا ارتبط جين (هنتنجتون) فى (دنا) المرضى برفليب مشع معين بأكثر مما تقول به الصدفة ، فإن هذا يعنى أن الجين قريب من هذا الرفليب . ولقد كُشف عن هذا الرفليب القريب فى لا زمن! كان الجين يقع فى مكان ما على الطرف الأعلى للذراع القصيرة للكروموزوم ٤ . أعلن عن هذا الفتح فى

نوفمبر ١٩٨٣ – عُرفت المنطقة التى تحمل الجين وأصبح من الممكن باستخدام المسبر الملائم كشف وجوده فى (دنا) أى شخص. (ولم يكشف عن تركيب الطفرة المسببة للمرض إلا فى عام ١٩٩٣ أى بعد عشر سنوات، وكان عبارة عن امتداد مميّز لثلاثية من القواعد –هى: س أ ج– تتضاعف داخل الجين مع تقدم عمر المريض فتفسد عمل البروتين الناتج عنه) .

وبدأ التفكير فى مشروع الجينوم

إذا كان فريق «ويكسلر وجوزيلا» قد تمكن من العثور على مكان جين «هنتنجتون»، وكانت هناك فرق عديدة أخرى تَجِدُّ فى البحث عن جينات أمراض أخرى (مثل مرض التليف الكيسى Cystic Fibrosis ومرض حثل دوتشين العضلى Duchenne Muscular Dystrophy)، أفليس من المعقول أن يقام مشروع ضخم نتعرف به على تفصيلات الجينوم البشرى، ونحدد به، أول ما نحدد، مواقع الأمراض الوراثية التى قد يصل عندها إلى نحو خمسة آلاف مرض (الخطير منها نحو ٣٠٠) والتى تسبب ما يزيد على ٣٠٪ من الوفيات فى الأطفال بالدول الصناعية؟

أثار **روبرت سينسهايمر** R.L. Sinsheimer الفكرة إذن عام ١٩٨٤، ليقوم فى مايو ١٩٨٥ بدعوة عدد من كبار رجال البيولوجيا الجزيئية إلى ورشة عمل فى (سانتا كروز) للتشاور فى أمر إمكانية إقامة مشروع الجينوم البشرى . وفى أوائل مارس ١٩٨٦ أقيمت ورشة عمل أخرى مشابهة فى (لوس ألاموس) أكد فيها المشاركون على أن التقنيات المتاحة تشير إلى أن فرص نجاح مثل هذا المشروع ممتازة .

بعد أيام من اجتماع (لوس ألاموس) ، وفى ٧ مارس ١٩٨٦ ذكرت مجلة (ساينس) فى افتتاحيتها أن على الولايات المتحدة أن تأخذ المهمة على عاتقها، مهمة الوصول إلى تتابع الجينوم البشرى بأكمله، وذلك بإقامة مشروع فى مثل شجاعة برنامج (أبوللو)! لتثير جدلاً حادًا فى مجتمع البيولوجيين . البعض يرى أنه مهمة تاريخية وأنه ليس ثمة من سبب وجيه يدعو إلى التأخير ، فالتكنولوجيا جاهزة وواعدة . والبعض يرى أنه مجرد مغامرة حمقاء من علم ردىء يستحوذ بها البعض من الوراثيين على التمويل الحكومى يحولونه بعيدًا عن كل المجالات الأخرى للبيولوجيا - فلقد قدرت ميزانية المشروع بثلاثة آلاف مليون دولار . إن الجزء المشفِّر من (دنا) الإنسان لا يزيد على ٥٪ من الجينوم كله ، فلماذا ننفق أموال دافعى الضرائب فى سَلسَلة ما لا طائل وراءه !

فى ديسمبر ١٩٨٧ أمكن لكبار رجال البيولوجيا الجزيئية أن يقنعوا الكونجرس بتخصيص ميزانية لإجراء البحوث على الجينوم البشرى. وفى فبراير ١٩٨٨ اقترحت لجنة من المركز القومى للبحوث أن يمول المشروع لمدة خمسة عشر عامًا بميزانية سنوية قدرها ٢٠٠ مليون دولار.

فى سبتمبر ١٩٨٨، وفى اجتماع عقد فى مونتروه بسويسرا، شكل رسميًا المجلس التأسيسى لمنظمة الجينوم البشرى : هوجو HUGO (منظمة أمم متحدة للجينوم البشرى)، وذلك من ٤٢ من أشهر البيولوجين الجزيئيين من سبع عشرة دولة كان من بينهم خمسة من حاملى جائزة نوبل - يرأسهم فيكتور ماكوزيك V. Mckusick وذلك لتنسيق بحوث الجينوم دوليًا وتعزيز تبادل ونشر المعلومات والمواد والتكنولوجيات،

وتشجيع الجدل العام وتوفير المعلومات عن تضمينات المشروع العلمية والأخلاقية والاجتماعية والقانونية والتجارية . ولقد تبنى مجلس وزراء الاتحاد الأوروبى المشروع فى ديسمبر ١٩٨٩ وقرر له تمويلاً قدره ١٥ مليون إيكو لثلاث سنوات ، يوجه ٧٪ منها إلى الدراسات الأخلاقية والاجتماعية والقانونية ، ولإثارة المناقشات العامة للجمهور فى القضايا التى يثيرها المشروع .

اشترك فى العمل منذ البدايات الأولى للمشروع بجانب الولايات المتحدة وكندا ثمان عشرة دولة أوروبية (منها إنجلترا وفرنسا وسويسرا) ، ثم انضمت اليابان ودول أخرى فيما بعد .

ثم بدأ مشروع الجينوم البشرى

بدأ مشروع الجينوم البشرى رسميًا يوم ١ أكتوبر سنة ١٩٩٠ ، والمفروض أن ينتهى يوم ٣٠ سبتمبر سنة ٢٠٠٥ . الجينوم الذى سيُخَرْطَن سيكون جينومًا يمثل البشر جميعًا ، لن يكون جينوم شخص بعينه وإنما جينومًا لشخص تركيبى من أفراد من الشعوب المختلفة ، مركبًا من تتابعات من مصادر مختلفة معظمها خطوط خلايا موجودة منذ فترة بالمعامل على طول العالم وعرضه ، ليكون شاملاً يمثل البشر عمومًا . تشترك هذه الشعوب فى نحو ٩٩,٥٪ من الجينات – هذا القدر من الجينوم واحد فى كل الشعوب ، فالاختلاف بين الشعوب ينحصر فى نصف فى المائة فقط من الجينات. يتطلب تحليل الجينوم البشرى ويُسَهِّل العمل فيه معرفتنا بجينومات كائنات أخرى. ولقد حُددت أهداف سبعة للمشروع .

أولها بالطبع خَرْطَنة وسَلْسَلة الجينوم البشرى مع التأكيد على تحديد هوية الجينات. **وثانيها** خرطنة وسلسلة جينومات خمسة كائنات أخرى: بكتريا (إيشيريشيا كولاى) (تم الانتهاء من خرطنة جينومها فى ١٦ يناير ١٩٩٧ وكان مؤلفًا من ٣٦٣٨٨٥٨ زق تشكل ٤٢٨٦ جينًا)، والخميرة (تم الانتهاء من خرطنة جينومها عام ١٩٦٦ وكان مؤلفًا من نحو ١٢ مليون زق)، و(نيماتودا سينورابدتيس Caenorhabditis elegans (وهذه دودة تعيش فى التربة يبلغ طولها نحو ملليمتر واحد وطول جينومها نحو ١٠٠ مليون زق)، و(الدروسوفيلا) (نحو ١٨٠ مليون زق) والفأر (نحو ٣٠٠٠ مليون زق). أما **الهدف الثالث** فهو دراسة التضمينات الأخلاقية والقانونية والاجتماعية لنتائج المشروع ومحاولة توقع المشاكل قبل ظهورها ووضع سبل معالجتها، بما فى ذلك المناهج الدراسية والأفلام التليفزيونية الثقافية وورش العمل والحلقات الدراسية الموجهة. ولقد خصص المشروع الآن نسبة تتراوح ما بين ٣٪ إلى ٥٪ من ميزانيته لهذه الدراسة، وهذا أول مشروع بحثى كبير يخصص بعضًا من تمويله لفحص آثاره على المجتمع. **والهدف الرابع** يختص بمعالجة المعلومات وتحليلها وذلك بتطوير نظم لقواعد المعلومات من أجل تجميع البيانات وتحليلها بحيث تسمح للباحثين فى العالم بأسره من التمكن من نتائج المشروع. أما **الهدف الخامس** فهو تطوير التكنولوجيا بدعم البحوث فى تطوير الطرق المستخدمة فى دراسة الجينوم، لاسيما سلسلة (الدنا)، والوصول إلى تقنيةِ سَلْسلةٍ مؤتمتةٍ يمكنُها أن تُسَلْسِل فى دقة ألف قاعدة

فى اليوم. **والهدف السادس** هو دعم نقل تكنولوجيا المشروع إلى الصناعة وغيرها من المجالات التى قد تستفيد منها. **والهدف السابع والأخير** هو تدريب وتشجيع الطلبة والعلماء على التمكن من المهارات المطلوبة اللازمة لبحوث الجينوم ، والمشروع يعتمد كثيرًا على المدربين فى أكثر من مجال .

ماذا سنجنى من المشروع ؟

سيوفر المشروع عند نهايته مرجعًا هائلاً من المعلومات للعلماء فى شتى مجالات علوم الحياة. ستكون نتائجه متاحة للجميع . سيتيح للجميع مقاطع من (الدنا) فى أطباق – ستكون هذه المقاطع المحددة الهوية المعروفة التتابع متاحة لكل معمل يحتاجها للبحث . سيقوم المشروع، بعد أن ينتهى من سلسلة الثلاثة آلاف مليون قاعدة بالجينوم البشرى، بتحديد هوية كل الجينات البشرية، ليقارن بين تتابعات الجينوم البشرى وتتابعات جينوم الفأر الذى يحمل قدرًا كبيرًا حقًا من الجينات البشرية، لنعرف من ذلك الجينات التى تجعل الحيوان ثدييًا (والحق أنه قد لوحظ تناظر يكاد يكون كاملاً بين جينات الإنسان والفأر، ولم تلحظ إلا حالات قليلة لم يعثر فيها بالفأر على نظير لجين آدمى معين). ولقد نقارن (دنا) الإنسان (بدنا) الشمبانزى مثلاً الذى يحمل نحو ٩٩٪ من تتابعات دنانا، لنصل إلى الجينات التى نشترك فيها مع الرئيسات، وأيضًا ما يميزنا عنها. سيحدد المشروع بالطبع مواقع آلاف الجينات المرضية فى الإنسان، وسيحدد تفاصيل تركيب كل جين منها ، الأمر الذى سيمكننا من

تشخيصيات دقيقة لها، والذى سـينتهى فى آخر المطاف بالوصول إلى علاجات لها باستغلال التركيب الجزيئى لجيناتها. ستتوفر لدينا مئات بل وآلاف من البروتينات العلاجية الجديدة. ولقد يصمم اختبار واحد مركب يجرى على الأجنة فى الرحم أو المواليد حال ولادتهم أو على الآباء من حاملى الجينات المرضية، اختبار واحد يكشف عن مائة مثلاً من أكثر الأمراض الوراثية شيوعًا ، بالإضافة إلى الأمراض الوراثية العشرة التى يتم فحصها الآن نظاميًا فى أمريكا . بل ولقد نصل إلى تفصيل الأدوية لتناسب الفرد الواحد دون آثار جانبية . فالاستجابة للدواء كثيرًا ما تختلف بين الأفراد لاختلاف تراكيبهم الوراثية. ثمة نسبة تصل إلى ٥٪ من العشيرة الأوروبية يحملون جينات حساسية لأدوية علاج ضغط الدم المرتفع ، فلا يمكنهم الاستفادة الحقيقية من هذه الأدوية. ومن الممكن بالتصنيف الوراثى لمثل هذه الفروق بين الأفراد أن تصمم أدوية تلائمهم خاصة. سيرفع المشروع إذن من نوعية الحياة البشرية بالحد من انتشار الأمراض الوراثية التى تكلف المجتمعات الكثير ، وبابتكار أدوية جديدة ، وبتقليل النفقات على الصحة.

ستجعلنا الخريطة الكاملة للجينوم البشرى قادرين على معالجة أسئلة وقضايا علمية لم تكن قبلاً قابلة للفحص: كيف ننمو من خلية زيجوت لنصبح بشرًا ؟ ما الذى يفتح الجين ليعمل وما الذى يقفله؟ ما الذى يجعل الخلية تعرف أنها ستصبح خلية مخ مثلاً أو خلية كبد؟ ما الذاكرة؟ لماذا نهرم ونشيخ؟ كيف تؤثر البيئة من حولنا فى دنانا – غذاؤنا الذى نأكله، الهواء الذى نتنفسه، العمل الذى نمارسه ، كيف تغير من دنانا ؟

ما الذى أنجز من السِّلْسَلة

كان عدد الجينات البشرية التى وضعت على الخريطة حتى عام ١٩٨٠ هو ٤٥٠ جينًا، وارتفع العدد على منتصف الثمانينات باستخدام الرفليبات إلى ١٥٠٠ جين، وفى سنة ١٩٩١ بلغ عدد ما فُهرِس على الكمبيوتر نحو ٥٦٠٠ جين عُرف أنها تورث فى نمط مندلى. وفى عام ١٩٩٢ نشرت خريطة تحمل ٨١٤ واسمًا تغطى نحو ٩٠٪ من الجينوم البشرى . وفى أكتوبر ١٩٩٦ نُشرت خريطة توضح المواقع الكروموزومية التقريبية لما يزيد على ١٦٠٠٠ جين . وفى ١٩ مارس ١٩٩٨ كان مجموع ما تم سلسلته نحو ٣,٩٢٪ من الجينوم، أى ١١٧,٧١ مليون قاعدة ، سُلسل النصف منها عام ١٩٩٧ وحده .

نعم .. ولكن ..

عندما ينتهى مشورع الجينوم البشرى سيكون وقد وفر للباحثين الطبيين والبيولوجيين مجموعة ثمينة جدًا من الأدوات لتفهم أفضل لبيولوجيا الإنسان ، سيكون فى مقدور الفرد أن يفحص جيناته ، وأن يعرف ما تخبئه من أسرار عن الأمراض الوراثية التى تحملها – وكل منا يحمل فى المتوسط أربعة منها – فهل هذا شىء مفيد ؟ هو لا شك مفيد إذا كنا قد توصلنا إلى علاجات لمثل هذه الأمراض ، وليس قبل كذلك . والتوصل إلى علاج المرض الوراثى يتطلب كما يقال نحو ٢٠ – ٣٠ عامًا بعد كشف التركيب الجزيئى للجين المعيب . الكثيرون ممن يشكّون فى احتمال إصابتهم بمرض (هنتنجتون) السائد – بسبب وفاة أحد الوالدين

مثلاً به - يحجمون عن إجراء الاختبار الوراثى ، بل إن البعض ممن يكتشفون إصابتهم به يحاولون الانتحار . فماذا يفيد الفرد إذا عرف أنه حامل للجين ، سوى أن يجلس منتظرًا قدره ، كمذنب حكم عليه بالإعدام ينتظر تنفيذ الحكم ؟

ثم إن الاختبار الوراثى ليس اختبارًا قاطعًا فى بعض الأمراض الوراثية الخطيرة ، مثل مرض التليف الكيسى . هذا هو أكثر الأمراض الوراثية القاتلة انتشارًا فى الغرب، إنه يصيب واحدًا من بين كل ٢٥٠٠ طفل يولد . وهو يقتل فى سن مبكرة ، ويندر أن يعيش حامله إلى سن الثلاثين . والمرض ينجم عن جين متنح، أى يَلْزم أن يحمل الفرد منه نسختين (واحدة من الأم والأخرى من الأب) ، لتظهر أعراضه ، أما من يحمل نسخة واحدة فلا يصيبه المرض، ويلزم بالطبع أن يكون والدا المريض حاملين للجين . ينشأ المرض عن عطب فى جين يبلغ طوله نحو ربع مليون قاعدة ، يقع على الكروموزوم السابع. وقد اكتشف موقعه عام ١٩٨٥ باستخدام الرفليبات، وعرف تركيبه الجزيئى عام ١٩٨٩. يشفر هذا الجين لبروتين من سلسلة من أحماض أمينية طولها ١٤٨٠ حمضًا ، أى أن الجزء المشفر من الجين هو ٤٤٤٠ قاعدة فقط - والباقى من سَقَط (الدنا). أما العطب الذى يُفسد الجين فى نحو ٧٠٪ من المرضى فيأتى عن اقتضاب، هو حذف الكودون رقم ٥٠٨ الذى يشفر للحمض الأمينى (فينايل ألانين). حمض واحد من بين ١٤٨٠ حمضًا فى السلسلة هو الفارق بين المرض والصحة. لكن هناك نحو ٢٠٠ عطب آخر غير هذا تحدث فى مناطق مختلفة من الجين وتسبب المرض أيضًا . وعلى هذا فإن

الاختبار الوراثى الذى لا يجد الاقتضاب ٥٠٨ لا يقطع بأن الفرد لا يحمل جين المرض ، إذ قد تكون هناك طفرة أخرى فى مكان آخر من الجين، لكن وجود الاقتضاب يؤكد أن الفرد مصاب بـه. هـذا إذن اختبار وراثى غاية ما يمكن أن يقوله لك هو أنك مصاب ، لكنه لا يستطيع أن يقطع بأنك غير مصاب!

ومرض أنيميا الخلايا المنجلية Sickle Cell Anaemia مرض وراثى يسببه هو الآخر جين متنح ، أى يلزم أن يحمل جينوم الفرد منه نسختين حتى يظهر المرض . وهو مرض منتشر بين السكان السود بالولايات المتحدة ، إذ يولد بعشيرتهم طفل مصاب به من بين كل ٢٥٠ وليدًا . والأفراد حاملو الجين يعانون من آلام فظيعة عند انخفاض نسبة الأكسجين فى الهواء ، الأمر الذى دفع السلطات الأمريكية يومًا إلى فرض اختبار وراثى حتى تمنع حاملى الجين من الالتحاق بأكاديمية سلاح الطيران، ليقتصر عملهم فى بعض شركات الطيران الأمريكية على الوظائف الأرضية! صحيح أن هذا القرار قد ألغى بحكم المحكمة لما فيه من (تحيز)، فمن شأنه أن يثير عنصرية (وراثية)، لكن الأمر يبين بجلاء أن الاختبارات الوراثية للأمراض مشحونة اجتماعيًا ، وأنها قد تستخدم لتهميش بعض الفئات .

فما هو حق الآباء - أو الحكومة - فى إجراء الاختبارات الوراثية على القُصَّر ؟ أو الأجنة ؟ ما هو حق التوأم الطبيق فى إجراء اختبار وراثى لمرض خطير يشك فى أنه يحمله ، دون موافقة توأمه الطبيق ؟ أمن حق أفراد العائلة أن يعرفوا عن الأمراض الوراثية لأقاربهم ؟ أمن حق الطبيب

أن ينقل المعلومات الوراثية عن فرد إلى أفـراد عائلتـه إذا كـان هـذا يعنـى احتمال إصابتهم بنفس المرض الوراثى ؟

إن تشخيص الأمراض الوراثية في الأجنة قبل الولادة سيؤدى حتمًا إلى زيادة عمليات الإجهاض . فإذا اكتشفت الأم أن الجنين برحمها سيصاب بمرض قاتل فستفكر لا شك فى إجهاضه ، لتريح نفسها وعائلتها والوليـد نفسه من عذابات حياة قصيرة تنتـهى بميتـة قاسية . وبعـض الأمـراض الوراثية المتنحية القاتلة مرتبط بالجنس، أى أنها تقتـل الذكـور ولا تقتـل الإناث لأنهن يحملن دائمًا نسخة علي الأقل من الجين الطبيعي السـائد . من هذه الأمراض مثلاً مرض الحثل العضلى الذى يقتل الطفـل فـى العقـد الثانى من العمر. حدد مكان الجين على الذارع القصيرة للكروموزوم X . يمكن إذن أن تفحص الأمهات لحملهن نسخة من هـذا الجـين المعيـب ، ووجود مثل هذه النسخة يعنى أن هناك احتمالاً أن يكون نصـف نسـلهن من الذكور مصابًا بـالمرض. مـن الممكـن إذا أن نفحـص أجنـة مثـل هـؤلاء السيدات ، ليُستبعد ، أىْ ليجهض الذكـور منـها . الأمـر فـى مثـل هـذه الحالة لا يحتاج إلى فحـص (دنـا) الجنـين، إنمـا إلى فحـص سـيتولوجى لمعرفة إن كان يحمل الكروموزوم Y أم لا . هنا (نقتل) النصف الطبيعـى من الذكور ، لا نجهضه . والحق أن كشف جنس الجنين مبكرًا قد يـؤدى فى حد ذاته إلى الكثير من عمليات الإجهاض ، لاسيما إجـهاض الأجنـة الإناث – إذ يتحول جنس الجنين هنا إلى مرض ! – حتى لتمنعـه بعـض الحكومات ، مثل حكومة الهند ، بعد أن أدى إلى ما يشبه وأد البنـات . كانت عيادات الفحص والإجهاض فى الهنـد ترفـع شـعارًا يقـول (ادفـع

٦٠٠ روبية الآن ، ووفر خمسين ألفًا فيما بعد) - وفّر المهر الذى ستدفعه لابنتك .

فإذا وافقنا على أن من حق الأم أن تجهض إذا وجدت أن الجنين الذى تحمله سيصاب بمرض وراثى قاتل ، مثل مرض (تاى ساكس Tay Sachs - أو مرض الحثل العضلى أو مرض (ليش نيهان) - Lesch Nyhan ، التى تقتل الطفل مبكرًا ، فهل سنسمح بإجهاض جنين يحمل مرض (هنتنجتون) أو مرض (ألزهايمر Alzheimer الذى يقتل بعد عمر الثلاثين أو الأربعين ؟ ثم أليس من المعقول أن تتسلل إلى قائمة الأمراض التى سيُسمح فيها بالإجهاض ، أمراض هامشية كعمى الألوان أو قصر النظر؟ إن البعض يرى إن إباحة الإجهاض لأى سبب هو أمر غير إنسانى، إنه فى الحق قتل، إنه اليوجينيا تعود من الباب الخلفى . سيضعنا مشروع الجينوم البشرى لا محالة أمام مشكلة اجتماعية حقيقية ، يلزم أن يناقشها المجتمع ، مثقفوه وعلماؤه وأطباؤه وفلاسفته ، وعلماء الاجتماع والأخلاق ورجال الدين، بل وحتى بسطاء الناس - فالأمر يهم الجميع .

بل إن الأمر قد يتطرق حتى إلى الطريقة التى سيعالج بها الطبيب عملية نقل نتيجة اختبار (الدنا) إلى (مرضاه) . لابد أن يكون حديث الطبيب هنا حريصًا . لا يجب أن يقول مثلاً لرجل (أو امرأة) أثبت الفحص الدناوى أنه يحمل جينا سائدًا لمرض: إن نصف أبنائك سيصاب بالمرض، أو أن يقول لزوجين وجد أن كليهما يحمل جينا مرضيًا متنحيًا: إن ربع أبنائكما سيصاب بالمرض . إن عليه أن يقول إن هناك احتمالاً لكل وليد، قدره النصف أو الربع، فى أن يصاب بالمرض، إن الصدفة

لا ذاكرة لها ، ومن سيُولَد لن تتأثر وراثته بمن وُلِد ، هو حالة وحدها لن تتأثر بمن سبقه من أخوة أو بمن يلحقه .

اختبارات فحص (الدنا) تكشف عما يحمل جينومنا داخل أجسادنا من أسرار ، لاسيما ما يخفيه من أمراض . بل الواقع أن المحرك الأول لقبول مشروع الجينوم البشرى كان هو ما سيكشفه عن الأمراض الوراثية ، حتى ليقول **فرانسيس كولينز** F. Collins مدير المركز القومى الأمريكى لبحوث الجينوم إن (السبب فى أن يمول الناس هذا المشروع هو أنهم قد دفعوا إلى الاعتقاد – من قِبَل أناس مثلى ومثل غيرى – بأن هذا المشروع سيفيد صحة الإنسان) .

ولقد تطورت تقنيات فحص «الدنا» كثيرًا ، حتى غدا من الممكن أن يُضَاعَف أى قدر من «الدنا» مهما بلغت ضآلته (باستخدام ما يسمى التفاعل المتسلسل للبوليميريز PCR) أكثر من مليون مرة فى ليلة لا أكثر: بصقة ، مسحة من جدار الفم ، نقطة دم أو شعرة واحدة تكفى. أصبح فى مقدور (السلطات) إذن أن تعرف عنك الكثير دون حتى أن تدرى، أن تتجسس عليك، على كيانك الداخلى فتعرف أسرارك الوراثية، أخطر ما تمتلك، الأمر الذى قد يعرض الخصوصية الفردية إلى مخاطر لم تتعرض لها أبدًا قبلاً . لو استخدمتها شركات التأمين على الحياة لتسببت فى (تفرقة وراثية) بين زبائنها . فما الذى يجبرها على التأمين على حياة شخص وَجَدَت أنه يحمل فى جهازه الوراثى جين مرض هنتنجتون أو مرض فرط الكولسترول العائلى ؟ هل لها إذن أن تقسِّم زبائنها إلى فئات ، حسب خطورة ما يحملونه من أمراض وراثية ثم تحدد القسط

السنوى بناء على ذلك ؟ هل لها الحق أصلاً فى أن تفحص جينوم المتقدم للتأمين على حياته ؟

وصاحب العمل، ما الذى يدفعه إلى تعيين أفراد يقول جهازهم الوراثى أنهم يحملـون جينـات معطوبة ؟ مـا الـذى يجـبره علـى توظيـف أفـراد سيكلفونه الكثير فى الرعاية الصحيـة والتـأمين ؟ هـل سـتتم إذن (تفرقـة وراثية) بين المتقدمين لشغل الوظائف ؟ أمن الممكن إذا أن يتسبب جين - من بين مائة ألف جين يحملها فرد - فى ألاّ يجد فرد مصـدر رزقـه دون ما ذنب جناه ؟ هل لصـاحب العمـل الحـق فـى أن يفحـص جينـوم مـن يتقدم لشغل وظيفة لديـه ؟ هـل علـى المتقـدم أن يقـدم مـع أوراق تعيينـه شهادة بخلوه من مرض كذا وكذا الوراثى ؟ أم ماذا ؟

ستُستخدم البصمة الوراثية - وتُستخدم - فى تعقب المجرمـين ، وفى التعرف على الجثث المشوهة للقتلى فى الحروب ، ولكن هل ثمـة حقـوق للحكومة فى أن تعرف أسرارك الوراثية ؟ إذا كان لهـا الحـق فـى معرفـة بصمة إبهامك فهل لها الحق فى معرفة بصمتك الوراثية ؟ هل لهـا الحـق فى البعض من سرك الوراثى ؟ لتستخدمه - ربما - إذا شاءت ضدك ؟

كل هذه قضايا اجتماعية وقانونية يلـزم أن يواجهـها المجتمـع ، وأن يجد لها الحلول التى تناسبه وترضيه وتضمن للفرد حقه فى حفـظ أسرار جينومه ، فى حفظ خصوصيته ، فى حفظ تفاصيل تركيب جهازه الوراثى مِلْكًا له بعيدًا عن الاعتداء .

إذا ما رأينا أن نفحص حق شركات التأمين أو أصحـاب الأعمـال فـى التمييز بين الأفراد بناء على ما يحملونه من أمـراض وراثيـة ، فلابـد لنـا

أيضًا أن نتدبر إمكان استغلال الفحص الجينومى فى التمييز بين الطبقات ، بالبحث عن فروق وراثية قد توجد ، ثم تضخيمها . فنحن كما يقولون لسنا نبلاء لأننا نحمل جينات نبيلة ، ولسنا أثرياء لأننا نحمل جينات للثراء ، فليس هناك جينات نبيلة وأخرى وضيعة ، وليس هناك جينات للثراء وأخرى للفقر - أو كما قالها يومًا ج . ب . س . هالدين : (إن نظرة واحدة إلى الصحف ستقنع كل شخص بأن الأغنياء يضمون عددًا تتوفر بهم المعايير القانونية للبلاهة) .

ولما كنا سنحول الطاقم الوراثى لأناس من شعوب مختلفة ، فقد يرى البعض أن يبحث فيما إذا كان ثمة اختلافات دناوية تميز الأجناس، ليشعل بذلك تفرقة عنصرية لم تشهدها البشرية قبلاً، ندعى فيها أن الفروق فروق وراثية جوهرية، وأن آثارها هى الوضع الاجتماعى والاقتصادى لهذا الشعب أو ذاك، وأن العلم الحديث بتقنياته المذهلة قد أثبت ذلك، فقدّم الدليل الذى لم يتمكن منه أصحاب اليوجينيا الحمقاء فى أوائل هذا القرن بما كان يتوفر لديهم من أدوات بدائية .

ثم هناك أسئلة أخرى تتبادر إلى الذهن يلزم أن تحظى بجدل عام. هل نحن جيناتنا ؟ هل نحن عبيد جينومنا ؟ هل قدر كل منا مدون فى كتابه الوراثى ولا مناص، لابد أن (تراه العين) ؟ هل المرض الوراثى يقع - كما كان يقال فى منتصف هذا القرن - خارج نطاق العلاج وخارج نطاق الوقاية ؟ أم أن العلاج بالجينات (الذى نجح فى بعض الأمراض عام ١٩٩٠) سيفيد ؟ أهى حتمية وراثية ؟ أم أننا لسنا عبيد وراثتنا ، لسنا مجرد (نتائج) لما تحكم به جيناتنا ؟ أمن الممكن للبيئة أن تحور من فعل

الجينات ؟ وإلى أى مدى ؟ كم من كياننا تُمليه جيناتنا وكم منه تمليه البيئة وعزمنا نحن وإرادتنا ؟ ما هو الدور الذى تلعبه الوراثة فى تحديد كيف يكون أيٌّ منا ؟ هل نحن منساقون دون أن ندرى إلى ثورة يوجينية جديدة ضارية ، يتحكم فيها ويوجهها علماء البيولوجيا الجزيئية ؟ أيصح أن نترك لهم الأمر؟ لقد بدأنا بالفعل نسمع من يتحدث عن (تلوث المستودع الجينى) وعن (أفضل استراتيجية وراثية) ، وعن (المجتمعات النظيفة وراثيًا) وعن (أنه من الواجب أن نتمكن بالقانون من التحكم فى الجينات التى تسبب الأمراض الخطيرة ، مثلما نتحكم بالقانون فى البكتريا والفيروسات المرضة) . أهى بالفعل مؤشرات ليوجينيا جديدة ؟

إن ما حدث لدينا فى مصر من جدل واسع إثر اكتشاف إمكان استنساخ البشر بعد أن استُنسخت (دوللى) – وعلى الرغم من أن الكثير مما قيل كان يفتقر إلى الفهم الصحيح لمعنى الاستنساخ – لَيُشير إلى جدوى أن تطرح القضايا التى يثيرها مشروع الجينوم البشرى على الجماهير لتشترك فى مناقشتها قبل تبنّى الحلول التى تحقق خير المجتمع. هذا حقها .

فتح تقنى جديد هائل

ذكرنا أن عملية السَّلْسلة قد تطورت على بداية التسعينات إلى طرق مُؤَتْمَتة يمكن بها للفرد أن يسلسل ما قد يصل إلى مائة ألف قاعدة فى العام، كما ذكرنا أن من أهداف مشروع الجينوم أن يصل إلى تقنية مُؤَتْمَتة يمكنها أن تسلسل فى دقة مائة ألف قاعدة فى اليوم . وقد جاء فى عدد

مجلة (بروفيل) Profil النمساوية الصادر فى ٨ يونيو ١٩٩٨ مقال عنوانه (حمى الجينوم) Das Genom Feber يقول إن شركة بيركين - إيلمر Perkin – Elmer قد تمكنت من إنتاج آلة (معجزة) حقًا يمكنها أن تسلسل فى اليوم الواحد ٤٣٥ ألف قاعدة ! بمعنى أنه يمكن بمائتين وثلاثين آلة كهذه - كما تقول المجلة - أن نسلسل فى يوم واحد مائة مليون قاعدة - أن نسلسل كل ما قام به مشروع الجينوم حتى مارس ١٩٩٨ فى يوم واحد وأربع ساعات ! هذا أبعد بكثير مما كان يحلم به أكثر مصممى مشروع الجينوم البشرى تفاؤلاً . وعلى هذا يتوقع المقال أنْ سيتم خلال عام ١٩٩٩ سلسلة ما يصل إلى ٩٩٪ من الجينوم البشرى (وتبقى المهمة الشاقة : مهمة تحديد حدود الجينات) لينتهى ربما قبل موعده بكثير ! هذا كشف خطير ، جد خطير ، سيدفع بعلوم الوراثة فى الكائنات جميعًا ، وسريعًا ، إلى آفاق أبعد من الخيال !

(٣)
نــار هرقليطس

كان نقاشًا طويلاً ذلك الذى دار ذات ليلة، فــى شــهر مــارس ١٩٩٥، بينى وبين البرفسور ياكوبسين، أستاذ البيولوجيا الجزيئية بجامعة هانوفر - وكان فى زيارة سريعة لبلادنا. كان موضوع الحوار هو أهميــة الهندسة الوراثية فى بلاد كبلادنا، وكيف نوجه البحوث فى هذا المجال لمصلحــة الوطن. يبدو أن آرائــى جعلتــه فــى النهايــة يسـألنى: هــل قــرأت كتــاب إيرفين شارجاف؟ - كلا - ما عنوانه؟ قــال لا أتذكــر، فقــد مضــى علــى نشره زمن طويل، لكنى سأرسل إليك العنوان حال عودتــى. وبعــد بضعــة أيــام مــن مغادرتــه القــاهرة وصلنــى فــاكس يحمــل اســم الكتـــاب: «نـــار هرقليطس: فصول من سيرة حيــاةٍ فــى حضــرة الطبيعــة» وتــاريخ نشــره: ١٩٧٨. أرسلت فى طلب الكتاب لكنه كان قد نفد من زمان.

لاسم شارجاف رنينه الخاص لدى كل دارس لعلــم الوراثــة الحديــث، فهو صاحب «قاعدة شارجاف» التــى كــانت الدليــل الرئيســى لاكتشــاف واطسون وكريك تركيب الدنا - مادة الوراثة[1]. لكنى لازلــت أحتفــظ لهــذا

(١) انظر قصة هذا الكشف فى مقال لهذا الكاتب ظهر بمجلة «الهلال» فى يناير ١٩٩٦.

الرجل بملخص لحديث صحفي طويل ظهر عام ١٩٨٧، هاجم فيه الهندسة الوراثية هجومًا حادا (على عكس رأيي تماما)، وهاجم فيه مشروع الطاقم الوراثي البشري وقال إنه سيبيّن في النهاية أن كل الناس مرضى (وراثيا)، وقال إنه ليس من نمط يُقاس عليه. كل فرد منا يختلف عن كل فرد آخر. رأى أن المشروع - ولم يكن قد بدأ رسميا - مشروع غبي، هو ليس إلا وسيلة يستولى بها البيولوجيون على قدر وفير من المال العام. هم من خلال البيولوجيا الجزيئية يريدون أن يصبحوا مثل علماء الذرة. سيبدأون في تحريك عجلة آلة شيطانية لا يمكن إيقافها - إلا من خلال الفقر أو الكارثة. ولقد تكيفت السرعة مع منجزات العلم الحديث؛ ليتضاءل الزمن ما بين الكشف العلمي وتطبيقه. مضت مائتا عام ما بين اكتشاف الكهرباء وإنشاء محطات الكهرباء في نهاية القرن الماضي، لكن الأمر لم يستغرق سوى سبع سنوات بعد اكتشاف هان وستراسمان حتى ألقيت قنبلة هيروشيما. أما التسارع في الهندسة الوراثية فقد كان أكبر، فبعد مرور ثلاث سنوات أو أربع من بدء بحوث تكنولوجيا الجينات بدأ الرأسماليون في تأسيس شركات الهندسة الوراثية. لقد فقد العلم عذريته يوم ألقيت قنبلة هيروشيما - كما قال أوبنهايمر - ولم يعد لنا أن نتخيله تلك العذراء الطاهرة الحنون. لكن شارجاف يرى أن العلم قد فقد عذريته قبل ذلك: مع بدء مشروع مانهاتن - أول معسكر اعتقال علمي جُمع فيه أكثر العلماء عبقرية، من كيماويين وفيزيائيين، تحت حراسة عسكرية مشددة وقيل لهم: هيا العبوا واقتلوا. كانوا يعرفون جميعا أنهم سيقومون بأكبر اكتشاف

شيطاني: تفجير الذرة، وأن هذا الاكتشاف سيُستخدم فى أكبر مذبحة فى تاريخ البشرية. طاقة نواة الذرة لا تشبه طاقة نواة الخلية - هذا صحيح، فلا أحد يفنى من الطاقة الأخيرة، لكن تفجير نواة الخلية يعنى انفجار ضمير الإنسان، وإعلائه من شأن وحشية التفكير والغرور - فالأخلاقيات، كما نعلم كانت دائما كالمطاط، خير ما يمكن أن يلائم نفسه مع الظروف.

لاقت معظم أفكار شارجاف فى نفسى قبولا عظيما، وجدت فيها الكثير مما أومن به. فى عام ١٩٨٥ كتبت مقدمة قصيرة لكتاب عن الهندسة الوراثية كنت قد ترجمتُه، قلت فيها:

«تعلمنا أن الذرة لا تنقسم، ولدهشة العالم انشطرت الذرة.. ذات يوم حزين، سيظل فى ذاكرة البشرية تأملاً حزينا بعد هذا الدمار الهائل الحزين الذى حلّ بهيروشيما. وتعلمنا أن الجين - وحدة الوراثة - لا ينقسم.. وها هو ذا ينقسم ويُبْنَى.. لقد غدت إمكانات التطعيم الجينى بين الكائنات جميعا أخطر من أن تمضي هكذا دون تفحص.. هل سنترك العلماء وحدهم ليصنعوا «القنبلة الجينية»، ربما لتكتوى البشرية بنتائجها غير المحسوبة؟».

فى مكتبة شكسبير

فى صيف ١٩٩٥ كنت فى فيينا، وفى أحد أيام شهر أغسطس قمت بزيارة لمكتبة «شكسبير» بوسط المدينة، أبحث عن كتب جديدة (بالإنجليزية). انتقيت بضعة كتب، ووقفت فى الطابور كى أدفع.

وجدت بجانبي كومًا من الكتب القديمة، فتملكتني على الفور غريزة «الأزبكية». تركت الطابور إذن وأخذت أقلب في هذا الكوم، وإذا بي أجد نسخة من «نار هرقليطس». ياالله! سألني صاحب المكتبة وأنا أدفع: «كيف انتقيت هذا الكتاب؟». قلت إنه كتاب مهم بالنسبة لي. قال إنه سيخفض سعره من أجلي (من ٣٥٠ شلنا إلى ٢٥٠). طيب. بعد أن دفعت، أمسك الرجل بيدى وترك الخزينة وقادني إلى رواق قصير داخل المكتبة. كان الحائط مزينًا بالعديد من الصور المؤطّرة. أشار الرجل إلى واحدة وقال «هذا شارجاف، ابن فيينا. هل شاهدته منذ أيام على شاشة التليفزيون؟» – كلا – لقد احتفلت النمسا كلها ببلوغه سن التسعين. ياه! كم يقدر هؤلاء الناس علماءهم!.

وعكفت على الكتاب.

مع الكتاب

قرأت الكتاب فوجدته قريبا إلى عقلي وقلبي. يقول شارجاف إنك لا تأخذ من الآخرين إلا ما هو موجود بداخلك. حقا. كان الكثير مما يحويه هذا الكتاب الحميم في جوفي حبيسًا، وأفرج عنه هذا المؤلف الجميل. أسلوب أديب لاشك، وخيال شاعر رومانسي حزين، وحكمة فيلسوف مجرب، وعقل حاد لمثقف جاد واسع الاطلاع، وأخلاقيات عاشق للطبيعة. ثم أنه يمزج هذا كله بسخرية محببة: عندما تحيله الجامعة إلى التقاعد، فهي إنما ترسله «لإعادة التدوير» (for recycling). !

يحكى الكتاب سيرته الذاتية. والسيرة الذاتية العلمية فى رأيه تنتمى إلى ضرب من الأدب بشع. فإذا كانت الصعاب التى تواجه كل من يحاول تسجيل حياته كبيرة – ولم يتغلب عليها بنجاح، فى الحق، إلا قلة – فإنها مركبة بالنسبة للعلماء، الذين كثيرا ما لا يعرفون كيف الكتابة! معظم السير الذاتية العلمية تعطى الانطباع بأنها كُتبت كى توضع على الفور فوق الرف مع الكتب الراكدة لتباع بسعر مخفض، فالعلماء يكتبون تاريخ حياتهم بعد أن يكونوا قد انسحبوا من الحياة النشطة – يكتبون بعد أن انقضت أيام التوق واللهفة والحماس، ولم يبق لهم إلا أيام الكآبة. أنت تتوقع داخل الصفحات الذابلة لهذه الكتب أن يطل عليك قلب إنسان، أن تسمع فى طياته نبض قلب بشرى، لكن ما يعرضه معظم هؤلاء العلماء ينصرف فى أفضل الأحوال إلى وصف شعورهم فى ستوكهولم وهم ينسحبون من حيث يقف الملك، أو احساساتهم فى الاحتفال بحصولهم على الدكتوراه الفخرية العشرين! كتبهم المملة عادة ما تكون تقارير عن مهنتهم، لا عن حياتهم. تنجح أخلاقيات مهنتهم وقواعدها فى إخفاء عواطف القلب والعقل – القلة فقط هم من يستطيعون أن يعبروا عن نبوغهم، أو على الأقل، عن موهبتهم. «وأنا لست منهم» كما يقول شارجاف. إن معظم ما يُعتبر اليوم فنا أو أدبًا أو علمًا ليس سوى إهاب ذى مظهر غض متورد، وقد شُد فوق هيكل عظمى متداعٍ!.

ولكنه فى الحق «منهم». مضى يحكى عن تاريخ حياته فى هذا الكتاب بطريقة لم أر لها مثيلا. هو يتحرك فى الزمان رائحا غاديا، يثرى كلامه بالكثير مما يقتطفه من قراءاته الواسعة فى اللغة والأدب والتاريخ، ثم إنك تحس بنبض قلبه فى كل صفحة.

كان عمره عندما ظهر الكتاب ثلاثة وسبعين عامـا. لابـد أن قـد نسـى الكثير، لكنه يقول إنه إذا لم يكن في مقدورنا أن ننسـى فلـن يكـون فـى استطاعتنا أن نتذكر! مرت به ليال في لون الورد، ومـرت ليـال سودتها السحب. «تأوه إنسان يموت، يد تمسح شعرى، صوت عائد مـن محرقـة النسيان. الرماد يتكلم، لكن في همهمـة محطمـة. انعكاسـات قصيرة مـن البهجة، كما من مرآة متكسرة، تعيد سواد ماض حاضر أبـدا. أحكـى مـا سمعته، من يتكلم إذن؟ إذا كانت هى الذاكرة، فبالله لماذا تهمس حينـا، وتصيح حينا، وتهدر أحيانا، وتظل غالبا في صمت متجهم؟.

إذا نظرنا إلى حياتنا من بَعْد، فهل هي مُتَّصَـل؟ نولـد جميعـا بطريقـة واحدة، لكنا نموت بطرق شتى. يقولون إنا نولـد كـلاً ونمـوت كـلا. لكـن ماذا عن الفترة ما بين الولادة والموت؟ (التي يرى أنها قد طـالت معـه؟). يقول بريخت «من هذه المدن سيبقى ما مر خلالها: الريح!».

أيام الصبـــا

ولد شارجاف فى ١١ أغسطس ١٩٠٥ فى قرية ڤيرنوفيتس بالنمسـا، وكان حالما منذ الطفولة. يتذكر أمه لايزال وهـى تقـف أمامـه فـى ردائـها الريفى الجميل الطويل وعلى رأسها قبعة عريضة، شابة جميلـة حزينـة، تعود إليه دائما صورتها باهتة مرتجفة تمشى على شاطئ ضبـابى، تطفـو فوق ستار من الدموع.

قرأ في سن العاشرة عـددًا مـن مجلـة «المشـعل» كتبـه بالكـامل كـارل كراوس. كان لهذا الرجل تأثير هائل عليه فى سـنى حياتـه الأولى، لكـن

تعاليمه الأخلاقية ورؤيته للجنس البشرى، وشعره، لم تغادر قلبه طيلة حياته. جعلته يكره التفاهة، علمته كيف يرعى الكلمات وكأنها أطفال صغار، أن يزن دائما عواقب ما يقول. كانت اللغة عند كراوس هى مرآة لروح الإنسان، وإساءة استخدامها هى المقدمة للأعمال الشريرة. كان كراوس بعيد النظر، رأى الزمن الهمجى الدموى الآتى فى جوف الصحافة اليومية، ورأت فيه الصحافة أعدى أعدائها، فكافأته بمؤامرة من الصمت والتجاهل استمرت طيلة حياته. كان كراوس عند شارجاف هو معلمه الأوحد، فبقى مثله طول عمره بعيدًا عن آلة الإعلام وعن رجال الصحافة. حالة نادرة – كما يقول – لأرنب ينوم الثعبان مغنطيسيا!.

شهد سقوط آل هابسبورج. كانت الملكية عندما فتح عينيه على الدنيا فى وضع مقلقل. تذكر خطابا من خطابات هاينريخ فون كلايست (تاريخه ١٦ نوفمبر ١٨٠٠)، إذ كان يمر من تحت بوابة على شكل قوس، فكتب «تفكرت، لماذا لا ينهار هذا القوس وليس ثمة ما يدعمه على الاطلاق؟ وأجبت: إن البوابة قائمة لأن كل أحجارها تريد أن تسقط فى نفس الوقت!».

ثمة علاقة سحرية ربطته باللغة منذ الصبا. يقول أنْ لا أحد يكتب الآن، من يكتبون لا يشبهون إلا كلاب بافلوف، سوى أن لعابهم يسيل دون أن يسمعوا الجرس. اللغة هى الموهبة الغامضة التى تميز الإنسان عن الحيوان، وهى التى تميز شخصا عن آخر، هى أصدق مرآة تعكس التقدم والتدهور. لو أنه مُنح حياة ثانية لاختار دراسة اللغة. وانشغل فعلاً بدراسة اللغات، فعلّم نفسه نحو خمس عشرة لغة.

كان يعشق الطبيعة وهو صبي. كانت هـــي دم الكـون وعظامــه، فجـره وغسقه، ازدهاره واندحاره، سماءه وقبره. كانت عنده، مثلما كـانت عنـد الشاعر الإنجليزي جيرارد مانلي هوبكنز: نار هرقليطس، الجوهـر الأول. كان يجلس طفلا في الغابة الشاســعة سعيدًا، يتلـذذ بضخامتـها دون أن يتساءل عن أسماء الأشجار. كان يرى الغابة، لا الأشجار. كان في الحـق يصلح أن يكون رسامًا أو شاعرًا.

في الأمسيات وفي الليالي، كثيرًا ما كـان يمشـي مـع صديقـه ألبـيرت فوكس في شوارع فيينا الجميلة، يتحدثان طويلاً عـن الكتابـة: مـا الـذي يجعل النص أصيلاً؟ ما الذي يجعل القصيـدة رائعـة؟ فـرق كبـير بين أن تعرض وبين أن تعبِّر. العبقري وحده هو من يستطيع أن يعـبِّر، لكـن كـل موهـوب يمكـنه أن يعـرض. هـذا مـا توصـلا إليـه، وهـذا مـا بقـي معـه طول عمره. أنت تستطيع أن تترجم ما يُعرض، لكنــك أبـدًا لـن تستطيع أن تترجـم «التعبــير». يســهل أن تترجـم تومــاس مـان، ويصــعب أن تترجم رامبو.

كان حلما، ولا فائدة ترجى من الحلم إذا لم تكن تعـرف أنـك تحلـم. كان موهوبا في أشياء كثيرة، ومن ثم كان عطلا من المواهب! كـان – كمـا يقول – كسولاً خجـولا، ينصـب شباكه حيث لا تمشـي فريسـة، يطفـو متراخيا إلى حيـث يـأخذه التيـار، فـإذا توقـف التيار توقـف هـو الآخـر وارتبك. كان يحلم ببرج عاجي قصـي – بـه مكيـف هـواء، ومـزود بالمـاء الساخن والبارد. «كل ما يريـده الفـرد منـا فـي صبـاه هـو أن يقهـر ذلـك الوحش الأسود الرهيب الذي يُسمى المستقبل».

هل يتغير الفرد منا فى حياته؟ كلا - فكما بدأت ستبقى، كما يقول هولدرلين فى قصيدته «الراين».

أيام الشــباب

حصل شارجاف على الدكتوراه فى الكيمياء الحيوية من جامعة فيينا عام ١٩٢٨. كانت المهمة الأولى للجامعات الأوروبية - فى ذلك الحين على الأقل - هى إصدار الشهادات. فإذا نظر إلى الوراء، تأكد أنه لم يتعلم كثيرا من أساتذته. الطريق إلى قمة الجبل فى العلم تمهده خطابات التوصية وهمسات الأصدقاء عند اللقاء والأحاديث التليفونية أثناء الليل. لم يستطع أن يستفيد من هذا كله. تقدم ليعمل كمساعد باحث فى جامعة ييل الأمريكية، فقُبل طلبه، وكان عليه أن يبدأ العمل فى أكتوبر ١٩٢٨. يتزايد خوفه كلما اقترب موعد سفره. كان يخشى الحياة فى دولة يقل عُمرها عن عُمر معظم دورات المياه فى فيينا! وصل إلى نيويورك بجواز سفر يحمل لقب دكتور قبل اسمه، وتأشيرة دخول لطالب. قبض عليه على الفور، وحوكم بعد يوم أو يومين وحُكم بترحيله: إذا كان دكتورًا فهو لا يمكن أن يكون طالبا، وإذا كان طالبا فكيف يمكن أن يكون دكتورا؟ أرسل برقية إلى الجامعة فخرج بعد يومين وسافر إلى نيوهافن ليقابله على المحطة أستاذ الكيمياء. فى حجرته وجد لوحة كتب عليها «فليعشش عصفور السعادة الأزرق فى بيتك». حركت اللوحة مشاعره. كانت الطيور فى بلده النمسا قد غدت رمادية.

فكر كثيرا فى معنى أن يقال إن شخصا ما «بلا جذور». لم يستطع عندما قرأ هذا التعبير لأول مرة وهو صغير أن يفهمه. فالإنسان ليس نباتا.

لكنه عرف الآن أن الإنسان بالفعل نبات. إننا نذبل إذا حرمنا من التربة التى نمد فيها جذورنا. المتدين جذوره فى دينه. التقاليد يمكن أن تكون جذورا. القومية كذلك. والوطنية أيضا. ولقد تحول العلم عند الكثيرين ليصبح البديل الذى يبقيهم أحياء. كان عمره عندما وصل أمريكا ٢٣ عاما. أحس بأنه لقيط ألقى أمام بوابة. لقد ترك كل شىء خلفه.

هو لم يأت كمهاجر. لكن نيويورك صدمته. كانت أصواتها المشئومة وضجتها قاسية عليه للغاية. لم يتحمل النبض العصبى لمدينة أبدا لم تنم، لأنها أبدا لم تكن يقظانه. ظل يمشى الساعات الطويلة فى شوارع حزينة يبحث عن وجه إنسان. وما رآه أصابه بالذعر. يبدو أن العالم الجديد قد اصطنع لنفسه ملامح جديدة: فارغة أحيانا، حزينة أغلب الوقت، فاترة الهمة أو مشوهة تحمل بسمة شاحبة. الناس فى كل مكان يبدون تعساء، كأنما يحاولون أن يقولوا شيئا استعصت عليهم كلماته. يهرعون يختبئون فى يأس من مصير لا يعرفون إلا أن اسمه الفقر. فإذا سمع شيئا يبدو كالضحك، استدار فلم يجد حوله إلا أوجها سوداء. إنه الآن فى بلد يحمل فيه الفقراء فقرهم على صفحات وجوههم. يا ترى هل كان مثل دانتى الذى وصف الجحيم بشكل يفوق كثيرا وصفه للجنة - لأنه عاش فى الجحيم فنسى الجنة؟

مكث بقسم الكيمياء فى جامعة ييل سنتين أجرى فيهما أبحاثا على التركيب الكيماوى لبكتريا السل وغيرها من الميكروبات ونشر سبعة أبحاث. فى هذه الفترة عاد إلى فيينا ليرجع بخطيبته فيرا ويتزوجا فى نيويورك. حاول بعد نهاية السنتين أن يجد مكانا آخر فى زيوريخ أو فى

موسكو – فقد كان يتوق إلى العودة إلى أوروبا – لكنه فشل، فعاد إلى فيينا. «حالة نادرة يعود فيها الفأر إلى السفينة الغارقة». ثم وجد مكانا في جامعة برلين ليقضي فيها أسعد أيام حياته من أكتوبر ١٩٣٠ حتى أبريل ١٩٣٣. كانت ألمانيا آنئذ في محنة اقتصادية رهيبة، وكان ثمة غشاء من الزيف يغلف كل شيء، وثمة تعاسة غريبة في أعين الناس. بدا العالم في ذلك الوقت أعقد من أن يتحمله بشر. لم يعد أمام الناس إلا التفكير في الهروب، الهروب الأعمى إلى الجنون أو العنف أو التخريب.

في جامعة برلين قابل الكثيرين من العباقرة: فريتس هابر، أوتو فاربورج، ماكس بلانك، وأدرك أن العباقرة يتعلمون بما يشبه التناضح (الأسموزية). ثم وصلته دعوة من معهد باستير في باريس فسافر وزوجته إليها في أبريل ١٩٣٣، حيث استمتع بذلك المرح «البحر أوسطي»، وبالمشي مع زوجته في شوارع باريس العتيقة الجميلة.

وفي نهاية عام ١٩٣٤ أبحر وزوجته – يا للعجب – إلى أمريكا ثانية، إلى كلية الطب بجامعة كولومبيا، حيث بقي إلى أن أحيل إلى التقاعد.

في جامعة كولومبيا

بدأ في هذه الجامعة العمل على تجلط الدم فنشر ما بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٤٨ عددًا كبيرا من البحوث في هذا الموضوع. «تجلط الدم آلية وقائية غاية في الخطورة، لكن ثمة تناقضا غريبا هنا: لابد أن يبقى الدم في الجسم سائلاً، فإذا نزف فلابد أن يتجلط، وإلا كان هناك مرض ما». حاول طول عمره أن يؤكد هذه الصفة الجدلية لعمليات الحياة. ذاع صيت هذه الأبحاث ثم نُسيت. تمضي الحقائق والمفاهيم العلمية إلى عالم النسيان

قبل أن تُدرك قيمتها الحقيقية. تتكاثر الحقائق الجديدة والمفاهيم الجديدة ثم تُستبدل بعد سنة أو سنتين لتحل محلها أخرى أكثر طزاجة. تسارعت خطى العلم كثيرًا خلال فترة حياته، حتى ليصبح الجديد تاريخيا ولما يجف مداد طباعته، وليصبح حتى على شباب العلماء أن يكافحوا من أجل البقاء.

كان كل بحث يُنْشر يحمل في ذيله قائمة من مراجع تعود ٤٠ أو ٥٠ سنة إلى الوراء، كان الكاتب يحس عندئذ أنه ينتمي إلى تقاليد عريقة تنمو في هدوء بمعدل يمكن للعقل البشرى أن يستوعبه، وتتلاشى بمعدل يمكن له أن يقبله. كان للعلم بُعْد بشرى. أما اليوم فتولد معظم البحوث ميتة، مجرد أخبار لا تكاد تعيش يوم ظهورها. لم تعد التقاليد العلمية تعود أكثر من ثلاث سنوات أو أربع. المسرح هُوَ هو، لكن المناظر تتغير بسرعة، كحلم رجل محموم، ما أن توضع ستارة خلفية في مكانها حتى تُستبدل بها أخرى مختلفة تماما.

لا يريد شارجاف في كتابه أن يحكي للعامة بالتفصيل عما أجراه من بحوث، فالأغلب أن يقولوا ما قاله شاه إيران وهو يرفض دعوة الإمبراطور فرانتس يوسف كي يشهد معه سباق خيل: «أن يكون هناك حصان أسرع من الآخر، هذا أمر أعرفه من زمان. ثم إنني لا أهتم بمعرفة أيهما الأسرع!». والمهمة الحقيقية للعلم هى أن يعرف «أيهما الأسرع».

وبدأ يعمل على الدنا

فى عام ١٩٢٨ نشر فريدريك جريفيث الإنجليزى بحثا خطيرًا بيَّن فيه أنه إذا حُقنت فى فئران بكتريا حية غير ضارية ومعها مستحضر

مقتول من بكتريا ضارية، ظهرت الآثار المميتة على الفئران. سميت هذه الظاهرة باسم «التحول البكتيرى». ثم أوضحت التجارب فيما بعد أن البكتريا الضارية تحوى مادة يمكنها أن تحول البكتريا غير الضارية إلى ضارية، تحولاً مستديمًا يورث.

وفى عام ١٩٤٤ ظهر بحث لأوزوالد إيفرى وآخرين عن الطبيعة الكيماوية للمادة التى تحفز هذا التحول البكتيرى. تمكنوا من عزل هذه المادة – وكانت هى الدنا. كان ايفرى فى ذلك الوقت قد بلغ السابعة والستين من العمر – حالة نادرة جدًا لعجوز يقع على كشف علمى ضخم. رأى شارجاف بثاقب نظره أن بهذه المادة تكمن قواعد النحو والصرف لعلم البيولوجيا.

هناك شىء يجمع الكائنات الحية جميعا عند الفحص البيوكيماوى – ذاك أنها تتألف أساسًا من أربع مجاميع من مركبات رئيسية: البروتينات والكربوهيدرات والدهون والأحماض النووية. درست المجاميع الثلاث الأولى بنجاح فترة طويلة، أما الأحماض النووية (ومنها الدنا) فلم تحظ بما تستحقه من بحث.

بدأ شارجاف عام ١٩٤٥ بفكر جديا فى الأحماض النووية، لكنه لم يجد فيمن حوله من يتحمس للعمل فى هذا الموضوع. يصعب على الناس أن يخرجوا عن المفاهيم الذائعة المقبولة، الآمنة.

نشر عام ١٩٥٠ بحثا أوضح فيه أن الدنا من الحيوان والميكروبات يحتوى على نسب من مكونات (أو قواعد) نيتروجينية أربعة: الأدنين

(أ) ، الجوانين (ج) ، السيتوزين (س) ، الثايمين (ث). يختلف الدنا على ما يبدو باختلاف النوع، لا النسيج. هناك إذن عدد هائل من الأحماض النووية (الدنا) مختلفة البنية، عدد لا شك أكبر من أن تكشفه كل طرق التحليل المتاحة. وجد أيضا أن نسبة (أ + ج) إلى (ث + س)، وأيضا نسبة أ إلى ث، وكذا نسبة ج إلى س، كلها لا تختلف كثيرا عن الواحد الصحيح. لم يلحظ عمره مثل هذا التساوى فى الطبيعة! أصابه من الارتباك أكثر مما أصابه من السعادة. وفى عام ١٩٥١ ألقى محاضرة أكد فيها صراحة اختلاف الدنا بين الأنواع، فهذه تختلف فى مدى سيادة زوج القواعد أ – ث على زوج القواعد س – ج. لم يكن لبحثه المنشور على ما يبدو وقع كبير، بل إنه يرى أن أكثر من استفاد منه (يقصد واطسون وكريك) لم يشيرا إليه – وهو يعتقد أن هذا قد يكون متعمدا.

فى مايو ١٩٥٢ كان عليه أن يلقى محاضرة فى جلاسجو باسكتلنده، فعرج على كيمبريدج، وهناك طُلب منه أن يقابل اثنين فى معمل كافنديش يحاولان مع الأحماض النووية. قابلهما (واطسون وكريك) وكان انطباعه عنهما غاية فى السوء. كانا يريدان – ولم يعوقهما جهلهما بالكيمياء – أن يوائما الدنا فى صورة لولب. دفعهما إلى ذلك على ما يبدو نموذج لولب ألفا للبروتين الذى ابتكره لينوس بولنج. رأى فيهما طموحًا جارفا وعدوانية، يصطحبهما جهل مطلق بعلم الكيمياء.

يقول إنه أخبرهما بما يعرف. لو كانا قد سمعا بما أعلنه قبلا عن قواعد الاقتران (أ دائما تقترن مع ث، وس دائما مع ج) فإنهما قد أخفيا ذلك عنه. ولما كانا لا يعرفان الكثير عن أى شىء، فإن ذلك لم يُثِر

عجبه. ذكر لهما محاولاته الأولى لتفسير العلاقات التكاملية. وهو يعتقد تماما أن نموذج اللولب المزدوج للدنا (الذى حصل به واطسون وكريك على جائزة نوبل) قد جاء نتيجة لحديثه معهما.

عندما نشر واطسون وكريك سنة ١٩٥٣ بحثهما القصير عن اللولب المزدوج، لم يعترفا بمساعدته لهما، وإنما أشارا إلى بحث له قصير ظهر عام ١٩٥٢. لم يذكرا ما نشره عام ١٩٥٠ و ١٩٥١. وبعد أن ذاع أمر نموذج اللولب المزدوج، سئل شارجاف: لماذا لم يكتشفه هو؟ لماذا تضيع منه نوبل هكذا؟ فقال إنه كان مغفلا حقا! لو عملت معه واحدة مثل روزاليند فرانكلين، فلربما تمكن منه فى ظرف عام أو اثنين، ولما ضَخَّم هو من شأن هذا اللولب ليصبح ذلك الرمز الذى حل لدى الكثيرين محل الصليب!

من يكون هيروستراتوس؟

عندما احترف معبد آرتمسيون فى إيفيسوس – أحد عجائب الدنيا القديمة – عام ٣٥٦ قبل الميلاد، اعتُقل شخص اعترف بأنه أحرقه كى يخلد اسمه! أصدر القضاة حكما بأن يظل اسمه مجهولاً. وبعد فترة قصيرة من صدور الحكم ادعى أحد المؤرخين أن اسم الرجل كان هيروستراتوس. ولا أحد يعرف إن كان هذا هو الاسم الحقيقى للرجل.

وعندما ذكر شارجاف اسم هيروستراتوس فى مقال أرسله للنشر، اتصل به المحرر قائلا إن أحدًا فى مكتب التحرير لم يسمع بهذا الاسم. لقضاة إيفيسوس أن يرتاحوا! يقول شارجاف «إذا كان هيروستراتوس قد اكتسب

الخلود لأنه أحرق معبد آرتمسيون، فالواجب ألاّ يُنسى ذلك الرجل الذى أعطاه أعواد الثقاب! ولقد كنت ذلك الرجل».

هو يخشى أن يساء فهمه إذا قال إن كل الاكتشافات، أو الفتوحات العلمية كما يسميها البعض، تحمل عنصرا هيروستراتوسيا! لم يكن أحد ليلحظ هذا عندما كان العلم صغيرًا وضعيفًا. من اكتشف النار؟ من صاغ مفهوم الزمان؟ أو القوة؟ تبقى أسماؤهم مخبوءة فى الضباب القديم. وتظل عنده الأسماء الثلاثة الكبيرة فى علم البيولوجيا خلال المائة عام الأخيرة: داروين، مندل، أيفرى.

العلم فى زماننا

أصبح الدنا هو رمز عصرنا، سلم حلزونى نرجو أن يهدينا إلى السماء. تم ترويجه بشكل مذهل. استخدم كشعار. رسم على أربطة العنق. زُينت به أوراق الخطابات. وُضع كتمثال خارج المبانى. لم يعد معظم الطلبة يدرسون الطبيعة، إنما هم يختبرون نماذج! تحولت دراسة الحياة، تلك الرقيقة الحنون، واستبدلت بها بحوث محمومة صاخبة، وامتلأت المعامل والمؤتمرات بنوع جديد من العلماء. سئل شارجاف: ألم تساهم ولو بقدر ضئيل فى هذا؟ فأجاب «والله ما قصدت هذا أبدًا».

تضخم العلم – ذاكرة البشر المتراكمة – حتى لم يعد أحد قادرًا على أن يعرف ما يكفى عن موضوعه، وظهرت فئة من العلماء لا يفعلون أكثر من الجلوس فى اللجان. وليس ثمة إبداع عقلى يتم بلا جهد، قصيدة كان أو عملا موسيقيا أو صورة زيتية، لكن هناك الآن من «الفتوح العلمية» ما لم يبذل فيه مجهود على الإطلاق. وظهر من يظن أن البيولوجيا

الجزيئية تمثل كل علوم الحياة. وهذا غير صحيح إلا بالمعنى السطحي القائل إن كل ما نراه في هذا العالم مؤلف من جزيئات. لكن، هل هذا كل شيء؟ هل نستطيع أن نصف الموسيقى بقولنا إن كل الآلات الموسيقية مصنوعة من الخشب والنحاس.. إلخ، وننسى الأصوات؟ إن في الموسيقى شيئا أكبر، شيئا في عقل مؤلفها يدفعه، هناك موسيقى دون كل هذا الخشب والنحاس. وكذا الأمر في العلم. العالم الحق يحثه ويدفعه إحساس غامض كذلك الذى يدفع اليرقة إلى أن تصبح فراشة «قوة ترى في عماء، تسمع في صمم، تتذكر بلا وعى». يقول شارجاف إنك لن تكون عالما إذا لم تَخْبر تلك الرجفة الباردة تسرى في نخاعك، إذا لم تواجه ذلك الوجه الهائل غير المرئى فحركتك أنفاسه وبكيت. قلة ممن يدخلون حقل العلم يصبحون علماء، ويتحول الباقى إلى «أخصائيين» ذوى رؤية ضيقة.

عندما سئل عن مستقبل العلم قال إن العلماء يواجهون مأزقا: هناك في ناحية جمالُ العلم ونظامه وانفتاحه وفتنته التى تأسر العقل الذكى الباحث. وهناك من ناحية أخرى تلك الأغراض اللاإنسانية التى استُخدم فيها، ثم وحشية التفكير والخيال التي نجمت عنه، وعجرفة ممارسيه. ليس بين الأنشطة الذهنية البشرية مثيل له في هذا. الفن والشعر والموسيقى لا تمنح قوة ولا سلطة، لا يمكن استغلالها ولا يمكن إساءة استخدامها. لو كان لموسيقى الموشحات الدينية أن تقتل، لدعَّم البنتاجون البحوث في الموسيقى من زمان طويل. إذا كنت واقعيا فستعطى الاهتمام لوجهى المأزق، وإن كنت يوتوبيا اتجهت فقط إلى الناحية المشرقة وتجاهلت أى ظلال سوداء قد يلقيها الحاضر. وهو يميل إلى الخيار

الواقعى، ويرى أننا سنشظّى رؤيانا للطبيعة أكثر وأكثر، ستتكاثر التخصصات، وتتباعد فروع العلم عن بعضها أكثر وأكثر، وتتزايد تكاليف حفظ المؤسسة العلمية وتوسيعها، وتزداد الهوة ما بين ادعاءات العلم ومنجزاته.

فإذا كان هدف العلم أن يعلمنا حقائق الطبيعة، أن يكشف لنا الغطاء عن واقع العالم، فإن نتيجته لابد أن تكون حكمة أكبر، وحبا أعمق للطبيعة، وعشقا مضاعفا لقوة الإله، ومساهمة فعالة فى القضاء على شقاء البشر. لكن العلم فى رأيه قد تحول من مهمة صُممت لتفهم الطبيعة، إلى محاولة تفسير الطبيعة، ثم التحسين عليها، ومن ثم مضى العلم يؤكد على الناحية الميكانيكية. والتأكيد على الآليات قد أنتج واحدة من لعنات هذا العصر: الخبراء! أصبح الطبيب ميكانيكىَّ أجساد، أصبح البيولوجى ميكانيكىَّ خلية، وإذا لم يكن الفيلسوف قد تحول بعد إلى ميكانيكىَّ مخ، فليس ذلك إلا دليل تخلفه!

عندما تقاعد

فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥ كان عليه أن يتقاعد. كان معمله مجهزًا جيدًا. ولديه مكتبة علمية ضخمة، وقدر كبير من الأوراق البحثية والمراسلات جمعها فى أربعين عاما. وكان ثمة خزانة تحوى مستحضرات تحتاج إلى عناية خاصة، فتركها ليوم تال.

خرج، وعندما عاد لم يستطع الدخول. كان بعضهم قد غيَّر الأقفال جميعا!

(٤)
الإجهاض وعلم الوراثة الحديث

فى جريدة الأهرام الصادرة يوم ٢٣ يناير ١٩٩٧ ظهر تحقيق صحفى قصير مزود بأربع صور، عنوانه «مأساة طفل يأكل بعضه! الأب يطلب رأى المفتى فى قتل ابنه ليريحه من العذاب».

يصف الكاتب - أيمن مهدى - فى هذا التحقيق حالة طفل عمره ٨ سنوات أجمع الأطباء على أنه مصاب «بتخلف عقلى وراثى من ناحية الأم». يقول التحقيق إن لهذا الطفل شقيقا مات بنفس المرض منذ خمس سنوات. الطفل لا يتكلم ولا يمشى، ولابد من تكتيفه لأنه يأتى بحركات متشنجة يصعب السيطرة عليها. وهو لا يستطيع القعود أو الوقوف إلا على أطراف أصابعه. كما أنه لا يستطيع النوم إلا إذا ربط بالسرير. والأكثر إثارة للألم أنه يعض على شفتيه حتى تآكلتا (كما تبين الصور)، ويعض يديه حتى تدمى. يقول الأب «هل أقتل الطفل؟ فى قريتى كثيرون طلبوا منى هذا، فهل من فتوى تحل قتل ابنى حتى يستريح؟ تعبت وتعبت، تعذبت وتعذب، ولم يعد أمامى إلا هذا الحل».

بعد قراءتى هذا التحقيق بشهور كنت بالخارج، وعلى شاشة التلفزيون الألمانى شاهدت بالصدفة برنامجاً عرضت فيه حالة لها بالضبط نفس أعراض الطفل المصرى التى ذكرت بجريدة الأهرام.

الطفل مصاب بمرض وراثي مرتبط بالجنس لا يصيب إلا الذكور، اكتشفه عام ١٩٦٢ عالم الوراثة الفذ ويليام نيهان أستاذ طب الأطفال بجامعة كاليفورنيا، ومعه تلميذه ميكائيل ليش، وأطلق عليه اسم «متلازمة ليش نيهان».

مرض ليش نيهان والنقرس

يولد مثل هذا الطفل طبيعيا، لكن حالته تتدهور قبل عيد ميلاده الأول: فإذا بلغ عمره ثمانية أشهر توقف نموه العقلي عادة، واضمحلت ذراعاه ورجلاه لتصبح مترهلة رخوة. في الليل يصرخ في ألم رهيب من نوبات التهاب المفاصل حتى يخشى المسكين - وأهله معه - حلول الظلام. وعندما يبدأ في التسنين تجده وقد تملكه دافع طاغ لا يقاوم لأن يعض نفسه بضراوة - يمضغ شفته، يقرض أصابعه، يهاجم من يحاول أن يمنعه. لا بد أن يبقى الصبي مقيداً طول عمره وإلا شوه نفسه، فإذا تحرر فقد يأكل أصابعه ويقطعها إلى مزق. أتركه طليقاً لفترة قصيرة وستجد الدم يملأ المكان. لا بد أن تربط يداه ورجلاه طول الوقت، فهو لا يهدأ إلا إذا حميناه من نفسه.

بعد فترة يصيبه الشلل فلا يستطيع الوقوف أو الجلوس دون مساعدة. أما بوله فيصبح مشبعاً ببلورات حادة دقيقة يمكنها أن تجرح، فيغدو البول مدمماً - اكتشف العلماء أنها بلورات حمض اليوريك، وأن تركيزها مرتفع جداً. وهذه البلورات دلالة مؤكدة على مرض النقرس. نقرس، في طفل؟ أمر غير معقول. هذا مرض يرتبط بأسلوب التغذية يصيب الكبار

والعظماء من أمثال الإسكندر الأكبر، وبيجامين فرانكلين، واسحق نيوتن، وتشارلز داروين، ومارتن لوثر، وجون ملتون!

يعالج مرض النقرس بعقار أللوبيورينـول allopurinol الـذى يخفض كمية حمض اليوريك فى البول والدم. فإذا استخدم أطفال ليش نيهان هذا العقار، فإنه يخفض بالفعل تركيز هذا الحمـض ويسمح للصغار بالحياة ربما حتى ثلاثينات العمر بدلاً من الموت بعد بضع سنين تعيسه – لكـن، من المستحيل أن يصلح العقـار الأعـراض العصبيـة للمـرض حتـى لـو بـدأ العلاج بعد الولادة بوقت قصير. غير أن زيادة حمض اليوريـك فـى هـؤلاء الأطفال – فى ذاته – لا تفسر المرض.

يصـاب أطفـال ليـش نيـهان بـالنقرس لأنـهم ولـدوا وليس بجـهازهم الوراثى الجين السليم الذى يشفر لإنزيم اسمه هجبرت، يتسـبب غيابـه فى تراكم حمض اليوريك فـى الجسم. هـم يفـرزون مـن حمـض اليوريـك كميات تفوق عشـرة أضعاف ما يفـرزه مرضى النقرس – كما قال نيـهان وليش سنة ١٩٦٤.

إنزيم هجبرت

نعرف أن الجهاز الوراثى البشرى (الجينـوم) يحمـل نحـو مائـة ألـف جين ينتظمها ٤٦ كروموزوما تحمل الدنا (مادة الوراثة) فى نواة كل خلية من خلايا الجسم التى يبلغ عددها ٦٠ – ١٠٠ ألف بليون خلية. لا تعمل كل هذه الجينات فى كـل الخلايـا. لكـن يبـدو أن الجـين المشـفر لإنزيـم هجبرت جين فى غاية الأهمية، فهو يعمل فى كل خلايا الجسم، بل إن خلايا المخ تنتج منه ٥٠ ضعف ما تفرزه أية خلية أخـرى. فـإذا انخفـض

إنتاج هذا الإنزيم تزايدت الدهون بالجسم، وأصيب الفرد بالتهاب المفاصل ومتاعب الكلية. أما إذا غاب الإنزيم فإن آلية الجسم تتجه لتنتج من حمض اليوريك عشرين ضعف القدر الطبيعي - ويغيب الإنزيم إذا حدثت طفرة فى الجين المشفر له تفسد تركيبه.

تمكن علماء الوراثة الجزيئية من تحديد موقع الجين المسئول عن إنزيم هجبرت على كروموزوم الجنس - وهذا هو الجين الذى يحمل أطفال ليش نيهان طفرة معيبة منه. ولأنه مرتبط بالجنس فإن الأم تنقله إلى الذكور من أبنائها - ولا ينقله الأب أبداً. إذا عرف موقع الجين وتركيبه أمكن أن تصنع مجسات من الدنا نستطيع بها أن نكشف عن وجوده بالجهاز الوراثى للأجنة من أى عمر.

المجسات الوراثية

والواقع أنه قد أمكن حتى الآن إنتاج مجسات دناوية لكشف ما يزيد على المائة من أمراض الإنسان الوراثية الخطيرة، بعد أن عرفت مواقع جيناتها على الكروموزومات، وعرفت تتابعاتها - من بينها مرض التليف الكيسى، ومتلازمة ليش نيهان، ومرض تاى‌ساكس، ومتلازمة كروموزوم س الهش. أصبح من الممكن للمرأة التى تشك فى احتمال أن يكون الجنين الذى تحمله مصابا بهذا المرض الوراثى أو ذاك، أن تختبر دنا الجنين بالمجس الملائم فتعرف. والمجس الدناوى لا يتطلب إلا قدراً ضئيلاً للغاية من دنا الجنين. وهناك الآن تقنية تؤخذ فيها خميلة واحدة من الخمائل المشيمية - بروز واحد من البروازات الإصبعية الشكل الناتئة من الأنسجة الجنينية التى تتخلل رحم الأم وتكوّن المشيمة - وذلك بعملية يمكن أن

تتم فى عشر دقائق لا أكثر دون تخدير، والجنين عمره لا يتجاوز الأسبوع. توفر مثل هذه الخميلة من دنا الجنين ما يكفى لاستخدام المجسات الوراثية لكشف ما قد يوجد به من جينات معيبة. ومعنى هذا أنه قد أصبح في مقدور المرأة أن تعرف فى المراحل الأولى من الحمل إن كان الجنين مصابا بالمرض الوراثي الذى تخشاه - لتواجه مشكلة خطيرة يتعين عليها أن تحسمها إذا كانت نتيجة الاختبار إيجابية : هل تجهض؟ إن الحد الأمن لإجراء الإجهاض هو ٢٠ أسبوعاً من الحمل، وها قد وفرت البيولوجيا الجزيئية والتكنولوجيا وسيلة تمكن المرأة الحامل من اتخاذ القرار في وقت أبكر من هذا بكثير.

حتى لا نقتل بيتهوفن

روى أن طبيبا سأل زميلا له

- أب مصاب بالزهرى، وأم مصابة بالسل، أنجبا أربعة أطفال: الأول أعمى، ومات الثاني، وكان الثالث أصماً أبكم، أما الرابع فقد أصيب بالسل. والأم الآن حامل، فبماذا تنصحها؟

- لن أتردد فى أن أنصحها بالإجهاض!

- لتكون بذلك قد قتلت بيتهوفن!

حمدا لله أن أم بيتهوفن لم تلجأ إلى مثل هذا الطبيب تستشيره، إذن لفقدت البشرية هذا العبقرى. لكن لمثيلتها اليوم أن تلجأ إلى المجسات الدناوية للتأكد من أن الجنين لا يحمل المرض الوراثى الذى تخشاه، لتنقذ بذلك أمثال بيتهوفن!

واتخاذ قرار بالإجهاض أمر خطير ومرعب بالنسبة لكل حامل، وبالنسبة لزوجها أيضاً - حتى إذا سمح به المجتمع. لكن أمن حق المجتمع مثلا أن ينكر على امرأة تحمل جنيناً مصاباً بمرض ليش نيهان أن تجهض الجنين، ليتركها وحدها، هى وعائلتها، تتلقى عذاباً لا قبل لأم به إذ ترى ابنها «يأكل بعضه»؟ ومن ناحية أخرى، أمن حق المجتمع أن يسمح بولادة طفل كهذا لن يجد فى حياته القصيرة سوى العذاب والآلام؟ هل من حق الأم أن تلد للمجتمع ولعائلتها طفلا عرفت مقدماً أن أباه قد يطلب فتوى تحل قتله ليتخلص من العذاب؟

يثير العلم دائما قضايا اجتماعية جديدة لم يسبق للانسان أن واجهها. ولعل مشكلة الاجهاض هى أخطر المشاكل التى ولدها التقدم الهائل فى علم الوراثه الجزيئية، وهى مشكلة غاية فى التعقيد يلزم أن يتصدى لها المجتمع. رجال الدين، والمؤسسه الطبية، وعلماء النفس والاجتماع والفلاسفة. لقد مكننا العلم من «التنبؤ» الصحيح، من أن نعرف مبكراً مايخبئه الجهاز الوراثى للجنين من أمراض وراثية، فوضعنا بذلك أمام معضلة جسيمة علينا أن نحسمها.

ماذا يقول معارضو الاجهاض ؟

إذا ماكان الجنين يحمل جينات - مثل جين ليش نيهان - تسبب العذاب والآلام لحاملها ولأسرته، فهل الاجهاض هنا يعنى الرحمة بالوليد وبأهله؟ الكثيرون يرون أن عملية الاجهاض، مهما كانت الدوافع

وراءها، هى عملية قتــل، ازهـاق روح، تحطيـم متعمـد لحيـاة شـخص لم يولد، عمليه مهينة تحط من قيمة الحيـاة البشـريه أثمـن مـافى الوجـود. المجسات الوراثية التى طلع علينا بها علم الوراثة الحديث ليست عندهم سوى سلاح جديد من أسلحة الشر التى يفاجئنا بها العلـم كعادتـه. إنـها تحيل الإنسان إلى سلعة، بضاعة، يلزم أن تفحص قبل أن تنتج وتعرض، ليستبعد منها ماهو غير مطابق «للمواصفات». من سيضع هذه المواصفات؟ ألا تقـود هـذه المجسـات حقـا إلى «يوجينيـا» جديـدة تسـلحت بـالعلم الحديـث، تعيـد الحيـاة مـرة أخـرى إلى تلـك الفكـرة الجهنميـة لإنتـاج السوبرمان التى استولت على أذهان المفكرين والنازى فى العقود الأولى من هذا القرن؟ (انظر مقالا عن اليوجينيا لهذا الكاتب فى عدد نوفمـبر ١٩٩٤ من مجلة «الهلال»). أهى اليوجينيا إذن تدخل علينا من البـاب الخلفـى وقد ارتدت ثياب العلـم، متخفيـة تحـت اسـم " اليوجينيـا اليوتوبيـة " لتذيع الدمـار مدعيـة أنـها تسـعى إلى تقليـل آلام الإنسـان ـ القتـل باسـم الرحمة؟ هل سنعود إلى ماقاله يوماً هافلوك إليس: يلقى الرجـل العطـوف قرشـاً للمتسـول، أمـا الأكـثر عطفـاً فيبنـى لـه ملجـأ حتـى لايحتـاج إلى التسول، لكن ربما كان أكثرنـا عطفـاً هـو مـن يدبـر الأمـر بحيـث لايولـد المتسول؟ نستبدل بالمتسول المريض بمرض وراثى؟

أية أمراض وراثيـة؟

إذا ما وافقنا على أن من حق المجتمع أن يسـمح للأمـهات بإجـهاض الأجنة التى تحمل أمراضا وراثية، فـأى الأمـراض الوراثيـة نعنـى؟ عمـى

الألوان؟ قصر النظر؟ الشَّوَل؟ السكر الوراثي؟ هل نمضى لنجهض الأجنة الحاملة لمرض هنتنجتون الوراثى الذى لايقتل إلا فى نحو سن الأربعين (ومجسه الوراثى جاهز بالفعل منذ الثمانينات)؟ أو الحاملة لمرض ألزهايمر الذى يصيب الإنسان عادة بعد سن الستين؟ لو أنَّا استخدمنا المجس الوراثى الخاص بمرض FALS لأجهضنا الجنين الذى أصبح ستيفن هوكنج أستاذ الفيزياء الفلكية بجامعة كمبريدج - أشهر من سبر أصل الكون فى عصرنا. وماذا لو طلب أحدهم إجهاض الجنين لأن أعينه ليست زرقاء مثلا؟ فمن الممكن بالطبع أن تصنع مجسات وراثية تكشف لون العين فى الجنين. نحن نعرف على أية حال أن هناك فى البشر أكثر من أربعة آلاف مرض وراثى، وأن كل فرد منا يحمل فى المتوسط أربعة أمراض منها. لابد للمجتمع إذن أن يحدد الأمراض الوراثية التى يقبل فيها الإجهاض. لابد أن تكون هى الأمراض التى تقتل فى الطفولة، التى يعجز حاملها عن أن يرعى أموره وأن يتحمل مسئوليات حياته. أم ترى الواجب أن يترك القرار للأم الحامل - كما يرى الكثيرون - بعد أن يشرح لها بالتفصيل كل ماهو معروف عن المرض؟ لكن... أليس للجنين هو الآخر حقوق؟

يرى بعض رجال الدين أن الكشف الوراثى للأمراض بالأجنة قبل الولادة ، هذا التقدم العلمى الهائل، قد أصاب العلماء بالعجرفة والتكبر : أما تراهم الآن يحاولون أن يعترضوا على تصميمات الرب؛ فيدعون أنهم يصلحونها؟ يرى رجال الدين هؤلاء أنه من الضرورى أن تمنع من

الإجهاض حتى من يحملن أجنة ليش نيهان، ففي بطونهن أجنة، أشخاص لهم حقوق، يحملون أرواحا ليس من له الحق الشرعي في أن يزهقها - لا الأم ولا حتى المجتمع .

لكن هناك من يرى أن في هذا ظلم - أن تتحمل الأم وحدها وزر وجود جين ليش نيهان مثلا في جينومها، وهو إثم بالقطع لم ترتكبه هي. ثم كيف يقال إن العلماء يصلحون تصميمات الرب؟ إن هذا بالقطع أمر لم يخطر ببالهم. هل لمن يقول هذا إذا رأى شخصا يرتدي نظارة طبية، أو يحقن نفسه بالإنسولين؟

بديل يهودي للإجهاض

هناك مرض وراثي خطير اسمه تاي ساكس ، يولد الطفل المبتلي به طبيعيا، ثم يبدأ جهازه العصبي في التدهور خلال السنة الأولى من العمر، فيصاب بتخلف ذهني وعمى وشلل ، ليموت في عمر ٣ - ٤ سنوات. والجين المعيب الخاص بهذا المرض جين متنح غير مرتبط بالجنس ـ نعني أن هذا المرض لايظهر إلا إذا حصل الطفل على نسختين منه، واحدة من الأب والأخرى من الأم. أما الفرد الذي يحمل نسخة منه واحدة فقط بجانب نسخة طبيعية (سائدة) فلا يبين عليه المرض لأن النسخة الطبيعية تحجب عمل النسخة المعيبة . ومثل هذا الفرد الأخير يسمى «حاملا» للمرض ، فهو يحمل الجين المتنحي المعطوب، ولا تظهر عليه الأعراض. وزواج اثنين من «حاملي» جين المرض يعطي نسلا ربعه في المتوسط مرضى يحملون نسختين من الجين المتنحي المعطوب. فإذا أمكن

أن نمنع حاملى الجين المعطوب من الزواج فيما بينهم فلن يظهر بالنسل مرضى تاى ساكس .

أمكن بالطبع عمل المجس الوراثى لجين تاى ساكس بعد أن حدد موقعه وتتابعه الدناوى ليستخدم فى فحص الأجنة والأفراد. وقد اتضح أن واحدا من كل ٢٥ فردا من اليهود الاشكينازى يحمل نسخة واحدة من هذا الجين المعطوب، ومعنى هذا أن طفلاً واحدا من أطفال تاى ساكس سيولد من بين كل ٢٥٠٠ وليد اشكينازى - فى حين أن هذه النسبة فى عشيرة الغرب لاتتجاوز واحدا بين كل ٣٦٠ ألف وليد.

يعارض اليهود الهاسيديك الإجهاض، وقوانينهم الدينية تحرم حتى استخدام وسائل منع الحمل. لكن معظم الزيجات بينهم تنظم عن طريق وسيط. فى برنامج مسح واسع بأمريكا الشمالية - تلقى دعما من الجاليات اليهودية بالولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وجنوب افريقيا ومن إسرائيل - تم على أوائل الثمانينات فحص ٣١٠ ألف يهودى فحصاً وراثياً باستخدام المجس الوراثى لتحديد حاملى جين تاى ساكس. بقيت البيانات سرية وأعطى كل شخص رقما. ثم كان أن وقف صانعو الزيجات ضد تزويج حامل للجين بحاملة للجين. نجح البرنامج نجاحا كبيرا، وتخلصت العشيرة تقريبا من ولادات تاى ساكس، إذ يكاد لايولد بينهم الآن طفل مصاب بالمرض.

لا إجهاض هنا. فقط نمنع الجنين المصاب من أن يكون - نمنع الزيجات التى قد تنجب مرضى. لكن أين سنجد العشيرة/البشرية

الأخرى التى تقبل أن تتم فيها الزيجات هكذا عن طريق وسيط ؟ وماذا سنفعل فى الجينات السائدة - لا المتنحية - مثل جين مرض هنتنجتون؟

هل الجنين شخص ؟

هنالك فريق كبير من المفكرين لا يعارض الإجهاض فى الحالات الصارخة من الأمراض الوراثية الخطيرة. كمثل مرض ليش نيهان ومرض تاى ساكس - وهم يبدأون بمحاولة تعريف «الشخص». هل يمكننا أن نعتبر الجنين شخصاً ؟ خصوصا فى المراحل الأولى من الحمل (التى يُسمح فيها بالإجهاض)؟ المعروف أن الجنين حتى عمر ٢٦ أسبوعا لاتكون له الاتصالات العصبية التى تمكنه من أن يشعر بالسرور أو بالألم. وما ليس له شعور ولا إدراك لا يعتبر شخصاً له حقوق يمكن أن تنتهك بالإجهاض، فليس ثمة من يحمل هذه الحقوق. لكن إنكار حقوق الجنين من ناحية أخرى يجعل الإجهاض أمراً هينا من الناحية الأخلاقية ـ وهو بالتأكيد ليس كذلك، على الأقل بالنسبة لكل امرأة حامل.

قيمة الحياة البشرية

يقول الفيلسوف رونالد دفوركين إن تركيز الجدل حول شَخْصَنَة الجنين يغفل القضية الأساسية. إن الاختلاف حول شرعية الإجهاض إنما يعود فى الأصل إلى اختلاف الأفكار حول قيمة الحياة البشرية. فمن يحرمون الإجهاض كلية، أو من يرون أن يحد منه كثيرا، هؤلاء يعتبرون أن حياة الإنسان قيمة مقدسة لابد أن تصان. أما الليبراليون فيرون أن

قيمة الحياة إنما تنشأ عما تم من استثمار بشرى فيها. وعدم إجهاض بعض الأجنة - تلك التى تحمل أمراضاً تميت أو تقعد - إنما يعنى التقليل من قيمة الحياة: حياة الآباء وحياة أطفال العائلة التى سيولد بها الصغير المريض. ستقل قيمة حياة الآباء وأبنائهم الموجودين، تلك التى استوعبت بالفعل استثماراً بشرياً كبيراً، وستكون الخسارة إذن أكبر بكثير مما نخسره بإجهاض حياة لم تصبح بعد حياة حقة.

قيمة الحياة عند الليبراليين يبتدئ تشكيلها منذ نشأة الفرد: تغذيته قبل الولادة وبعدها، الرعاية والحنان والحب التى يمنحها له الآخرون، السبل الذى سلكها الفرد لصياغة حياته، والاحتمالات التى فتحتها له جهوده . انظر إلى احساسنا بتراجيديا الموت. عندما تنتهى الحياة فى الطفولة أو فى الصبا الباكر، نأسى على ما ضاع سدى من الحب والرعاية والجهد، لكن احساسنا بموت «إنسان» لا يكون كبيراً. وإذا مات الشخص فى عمر متأخر أصابنا الحزن، لكنه حزن يدرك أن ما بذل من جهد قد أتى أكله - فلقد تحقق بالفعل ماكان محتملاً. أما الأكثر مأساوية فهو الموت فى سن النضج أو الشباب الباكر، عندما يكون ما بذل فى تطوير حياة الفرد وتشكيله قد أفصح عن نفسه فى احتمالات واضحة غدت على شفا التحقق ، ولمّا تتحقق. نقول إن إنساناً مات والعالم كله متفتح أمامه .

فإذا أوضحت اختبارات ما قبل الولادة أن الجنين يحمل مرضاً وراثياً خطيراً ثم قمنا بإجهاضه ، فسنجد أن ما بذل من استثمار إنسانى فيه قليل، وسيكون الحزن هنا قصيراً. إن إنهاء حياة جنين مثل هذا قبل أن

يصبح شخصاً هو في رأيهم أكثر احتراماً لقيمة الحياة - لقد منعنا التدهور الذى لا يمكن تجنبه لقيمة الحياة من أن يحدث، دون أن نعتدى على حقوق أحد.

غير أن البعض منا لايحب الحديث عن «استثمار» العواطف والحب فى حياة شخص، ثم عن «عائد هذا الاستثمار» فى صورة تحقيق ما هو كامن فى الشخص وممكن. فهذا الحديث يعنى ضمنا أن الحمل والولادة ليسا سوى خط إنتاج لسلعة اسمها الحياة، تخضع لاختبارات الجودة، فترفض إن كانت معيبة لم تستوف الشروط. ثم إنه قد يؤدى أيضا إلى ألا نمنح «المعيب» من الأفراد ما يستحقونه من الاحترام، بل وربما نحرمهم أيضا مما يحتاجونه منا من مساعدات فى حياتهم .

العجوز والمؤتمر

فى جلسة بأحد المؤتمرات الدولية خصصت للفحوص الوراثية قبل الولادة، وقف رجل عجوز من بين الحاضرين يطلب الكلمة. قال وهو يبكى: فى عرضكم أبيحوا هذه الاختبارات وأبيحوا إجهاض الإيجابى منها. لى ابن أنجب لى حفيداً مصاباً بمرض وراثى رهيب. لقد تعذبت وتعذب ابنى وزوجته عذاباً لا يحتمله بشر ، حتى مات الطفل، وخلف حزناً اختلط باللأسف بالراحة. ماذا لو كان قد مات جنيناً وكفانا هذا العذاب الذى أبداً لا يمكنكم أن تقدروه ؟

(٥)
عودة إلى دوللي

كـان خـبر ولادة الحمل «دوللـي» الـذى نشـر فـي ٢٧ فـبراير ١٩٩٧ بمجلة «نيتشر» خبراً مذهلاً كتبتُ بعده بوقت قصير مقالاً سـريعًا ضمنتـه كل ما كان يدور في رأسي آنئذ [أنظر كتاب «دفاع عـن العلـم»، سلسلة اقرأ رقم ٦٢٥]. ثم توالت الأحداث وتباينت ردود الفعل من رؤساء الـدول ومن العلماء ومن عامة الناس. تشكك البعض فى التجربة، حتي ثبت فى يوليو ١٩٩٨ أن دوللى بالفعل نسيخة، تماماً مثلما قـال ويلمـوت. بـدأت مراكـز بحثيـة كثـيرة فـى كـل الـدول المتقدمـة تجـرى الاستنسـاخ علـى الثدييات: قردة وأغنام وأبقار وفئران. ظـهرت كتـب عديـدة، ربما كـان أهمها كتاب «الطريق إلى دوللي» لمؤلفته جينا كولاتا (وقد ترجمتُه). ولقـد فصل هذا الكتـاب كـل تـاريخ الإستنسـاخ مـن بداياتـه الأولى حتـى ولادة دوللى. اتضحت لى بانوراما رائعة تستحق أن يفرد لها هذا المقـال الخـص الحكاية برمتها.

صدمة اسمها دوللي

الإنسان طول عمره يخشى إبداعاته، فكل إبداع حقيقى يقلل مـن حجم الصدفة فـى حيـاة البشـر، يغـير العـالم بعـده، يحطـم تقـاليد موروثة، ونحن معظمنا عبيد مورثاتنا.

دوللى أصابتنا جميعا بصدمة، ودفعتنا إلى التفكير فى قضايا فلسفية ودينية وأخلاقية كنا لا ندركها أو كنا أكسل من أن نفكر فيها. ولقد حدث مثل هذا أيضاً لما ولدت الطفلة لويز براون فى إنجلترا عام ١٩٧٨، عندما أخصبت لأول مرة بويضة خارج رحم امرأة، فى المعمل. ورويداً رويداً نسى الناس حكايتها، تعودوا عليها ولم تعد تثير الذعر الذى أثارته عندما وقعت الواقعة. أصبح الإخصاب خارج الرحم روتينا. يخشى الناس الآن أن تُنسى دوللى هى الأخرى بعد حين، ويصبح الاستنساخ أمرًا روتينيًا نتعامل معه دون انتباه خاص.

فدوللى مؤكداً أخطر من لويز براون. قضاياها أخطرو أعمق حضارتنا المعاصرة تسعى إلى تشكيل مجتمعات، وفى هذا انعكاس وتأكيد لإحساس دفين فى الفرد بأن يكون واحداً ضمن جماعة تشبهه ويشبهها، لكنه يجفل إذ يتخيل مجتمعا أفراده كلهم نسخ متطابقة، بل إن البعض منا يكره أن يرى أفراد مجتمعه كلهم أو معظمهم يعتنقون رأيا واحدًا، أىّ رأى. إننا نخشى الإجماع، ونحن فى نفس الوقت نخشى التشرذم.

انتبهنا إلى حقيقة ينساها الناس كثيرًا، وهى أن العلم ليس سوى نشاط اجتماعى يجب أن يلتزم بتقاليد المجتمع وحاجاته، لا يجب أن ننظر إليه على أنه نشاط يحركه حب الاستطلاع وبهجة الكشف ذلك الذى يتمكن عادة من كبار رجال العلم. يجب أن يخضع العلم لسيطرة المجتمع. لا يصح أن يُترك للعلماء وحدهم يوجهونه إلى

حيث يحلو لهم. هنالك حدود يجب أن تُرسم، يرسمها المجتمع. لكن ، أية حدود؟ سؤال تصعب إجابته، والجدل مع العلماء أمر صعب. فلديهم عادة حججهم القوية.

ماذا قد يقول العلماء؟

سيقول هؤلاء العلماء، بعد أن يؤكدوا استحالة الاستنساخ من خلية ميتة (لتنسى إمكانية استنساخ هتلر أو موسوليني إذا كان هذا قد استولى على خيالك)، سيقولون إن الاستنساخ قد يفيد البعض، قد يقلل من آلام بعض البشر ويخفف من أوجاعهم، وقد يفيدك أنت شخصيا.

من الممكن أن نتمكن من استنساخ بعض الأعضاء، مثل نخاع العظام، الذى ينتج كرات الدم وصفائح الدم، فهذا عضو سائل، يمكن أن تؤخذ منه خلية لتدمج فى بويضة أفرغت من نواتها، ثم توجه البويضة بعد تناميها، بإضافة كيماويات خاصة لكى تصبح نخاعا، هو بالضبط نخاع من أخذت منه الخلية.

لقد أمكن إجراء هذا فى الفئران وعُرفت الكيماويات التى توجه نمو خلايا الجنين لتصبح عضوا بذاته. وسيمكن بالطبع أن يطبق هذا على الإنسان. أية فائدة عظمى للبشر إذا تمكنا من ذلك؟ نحن هنا لا نستنسخ جنينا كاملا، إنما نستنسخ عضوا منه سائلا.

أينتج الاستنساخ مسوخا؟ ليس بأكثر مما ينتج من التكاثر لطبيعى. إن نسبة تبلغ ٤٠٪ أو ٥٠٪ من بويضات النساء تحت عمر

الأربعين تحمل كروموزوماً زائداً أو أكثر، أو ينقصها كروموزوم أو أكثر، وتصل النسبة إلى ٦٠٪ من بويضات من هن أكبر عمرا. تموت كل الأجنة التى تحمل خلاياها عدداً غير طبيعى من الكروموزومات، باستثناء حالات قليلة، منها الطفل المغولى الذى يحمل نسخة زائدة من الكروموزوم ٢١، ويولد متخلفاً. ومثل هذا التشوه الكروموزومى لن يحدث بالطبع عند الاستنساخ.

ثم هناك فى التكاثر الطبيعى مشكلة الأمراض الوراثية المتنحية المميتة، التي تظهر في النسل إذا كان كل من الأبوين يحمل جينا واحداً متنحيا (فلا يصيبه المرض). إنك تتجنب مثل هذه الأمراض الوراثية في النسائخ الناتجة عن أفراد هم بالطبع كبار أحياء.

أليس المعقول أن يحمل النسيخ دنا DNA قديما إصابته الشيخوخة؟ نحن نعلم أن التيلومير على كل من طرفى كل كروموزوم يضيع منه مع كل أنقسام بعض من قواعده، فإذا ما بلى التيلومير ماتت الخلية. ونحن باستنساخ البالغين إنما نستنسخ أنوية قديمة هرمة فقدت كروموزوماتها معظم قواعد التيلوميرات. أبذلك يكون النسيخ أقصر عمراً؟

كلا. إن أكثر من ٩٠٪ من انقسامات الخلايا يتم فى الأجنة وهي في رحم الأم، الدنا يولد عجوزاً إذن! والبويضات على أية حال تمتلئ بإنزيم التيلوميريز الذى يطيل التيلوميرات ويضبط أطوالها. ثم هناك تجربة أجريت على الفئران أنتجت فيها لمدة أربعة أجيال سلالة طويلة التيلومير وأخرى قصيرته، ولم يكن هناك فارق بينهما

فى طول العمر. ولماذا ننسى، إذا كان الأمر كذلك، أن البويضات والحيوانات المنوية التى ستكون الجيل التالى تأتى هى الأخرى من خلايا «كبيرة السن» أيضا؟

هناك نساء تنتج مبايضهن بويضات سليمة يمكن أن تخصبها الحيوانات المنوية، لكن شيئا ما خطأ فى سيتوبلازم البويضة يؤدى دائما إلى اجهاض الجنين. ماذا لو أخذت نواة بويضة مخصبة من مثل هؤلاء النساء، ثم أولجت فى بويضة طبيعية من امرأة أخرى، أزيلت نواتها، لتُعاد إلى رحم الأم صاحبة النواة؟ أم ترى ننقل سيتوبلازم بويضة سليمة لامرأة أخرى إلى بويضة المرأة التى تجهض؟ أليس هذا حلا لمشكلة تدمر حياة بعض الناس؟ ولنذكر أن هذه الحالة الأخيرة ليست استنساخا بالمعنى الحرفى، فنحن هنا لا ننقل نواة.

وامرأة لا ينتج مبيضها بويضات. ماذا لو استُنسخت خلية من خلايا جسدها، فنقلت نواتها إلى بويضة مفرغة النواة مأخوذة من واهبة، ثم زرعت البويضة فى رحم المرأة، لتحمل نسيخة (ستكون بالطبع أنثى!)، لتجهض النسيخة بعد أن يتكون مبيضها، وتُجمع منه بويضات هى فى الحق بويضات المرأة نفسها، فتخصب بمنى زوجها، ويعاد إلى رحمها الجنين، جنينها؟

ما هو الاستنساخ؟

الاستنساخ بمعناه الدقيق هو إنتاج نسخ وراثية مضبوطة من جزىء أو خلية أو نبات أو حيوان أو إنسان. وهو أمر معروف وشائع فى عالم

النبات. فزراعة العُقَل المأخوذة من سوق النباتات أو فروعها أو أوراقها أو جذورها استنساخ، وإكثار النباتات بزراعة الخلايا استنساخ، والاكثار بالترقيد استنساخ، والجذور الهوائية فى بعض الأشجار إذا ضربت فى الأرض ونمت تستنسخ الشجرة، وإكثار النخيل بالنسائل استنساخ. لكن طريقة تنامى الحيوانات عادة ما تجعل استنساخ الفرد منها مستحيلا، باستثناء قلة من اللافقاريّات - مثل بعض أنواع الديدان - يمكنها أن تُجَذِّر أفرادًا كاملة من جزء من فرد. أما الفقاريات فهناك من أنواعها ما يجدد أنسجته أو أعضاءه أو أطرافه إذا بترت، لكنها فقدت القدرة على أن تُستنسخ خضريا، إذا استثنينا ما يحدث أحيانا من استنساخ فى بعض الأنواع، إذ تنفصل الخلايا المبكرة للأجنة لتنتج توائم متطابقة.

تاريخ الاستنساخ

ظهرت بدايات التفكير الذى قاد إلى استنساخ الحيوان على نهايات القرن التاسع عشر بنظرية قدمها سنة ١٨٨٥ أوغسط فايزمان أستاذ علم التشريح المقارن بجامعة فرايبورج، يحاول بها أن يفسر السبب فى أن تتمايز خلايا الجسم فى العملية - فخلية الكبد غير خلية المخ غير خلية البنكرياس - على الرغم من أنها جميعا قد نشأت من خلية واحدة لابد وأن كانت تحمل المعلومات الكاملة. قال إنه إذا ما انقسمت خلية البويضة المخصبة إلى اثنتين، انقسمت المادة الوراثية بها إلى جزءين، لتحمل الخلية اليمنى المعلومات اللازمة لتكوين الجانب الأيمن من الجنين وتحمل اليسرى معلومات تكوين الجانب الأيسر. فإذا ما انقسمت هاتان إلى أربعة حمل كل منها المعلومات اللازمة لتكوين ربع الجنين،

ومكذا سنجد أن كل خلية فى النهايـة سـتحمل فقـط مـن المـادة الوراثيـة ما يلزمها كى تؤدى وظيفتها.

ومعنـى هـذا أننـا لـو أخذنـا بويضـة لضفدعـة ثـم تركناهـا تنقسـم إلى خليتين، وقتلنا بإبرة ساخنة واحدة منهما، فإن الخلية الباقية لن تحمـل إلا نصف المعلومات الوراثية ولن تتمكن من التنامى إلى جنين كامل. ولقـد قام فيلهلهم روكس على الفور بإجراء هذه التجربة علـى الضفـادع، فقتـل إحدى الخليتين بإبرة ساخنة، وكانت النتيجة أجنة مشوهة. أو كما قال نصف أجنة!!

لكن هانس درايش قام بتكرير التجربة على بيض قنفذ البحر، ففصـل أول خليتين باستخدام الرج بعد أن وضع الأجنة فى كأس به ماء. غير أن خلايا الأجنة المزقة، تنامت إلى أجنة كاملة. أجرى نفس التجربـة بعـد أن ترك الجنين ينمو إلى أربع خلايا، فأنتجت كل خلية جنينا كاملا.

وفى عام ١٩٠٢ أجرى هانس شبيمان بحوثـا علـى السـمندل، وفصـل أول خليتين للجنين بشعرة أخذها من رأس ابنه الوليد. وتنامت كـل مـن الخليتين إلى جنين كامل. المعلومات الوراثية إذن لا تنقسم إلى جزءين بين أول خليتين، إنما يحمل كل منهما الطاقم الوراثى بأكمله.

وفى عام ١٩٣٨ اقترح شـبيمان فـى كتـاب لـه، للمـرة الأولى، عمليـة الاستنساخ، وأسماها «التجربة الساحرة». رأى أن يتجه إلى الخلايـا بعـد أن تتمايز فى الجنين، الخلايا التى يفترض فايزمان أنـها لا تحمـل غـير المادة الوراثية اللازمـة لأداء وظيفـة محـددة. مـاذا لـو أخذنـا نـواة خليـة متمايزة متخصصة من جنين متقدم فى العمر وأولجناها فـى بويضـة أزلنـا

نواتها؟ هل ستعطي جنينا طبيعيا كاملا؟ لكنه لم يعرف كيف يمكن إجراء هذه التجربة.

وعلى نهاية عام ١٩٥٦ كان روبرت بريجز وتوم كينج وقد نجحا في إجراء هذه التجربة الساحرة على أجنة ضفادع في طور البلاستولا (٨٠٠٠ – ١٦٠٠٠ خلية). تُمص النواة من بويضة ثم تولج بها نواة خالية من خلايا البلاستولا. نقلا ١٩٧ نواة بلاستولا إلى بويضات فرغت من أنويتها، بدأ منها في التنامي ١٠٤، ونجح ٣٥ جنينا تحول منها ٢٧ إلى أبي ذنيبات. نجحت التجربة. لكن بخلايا أجنة.

وفي السنين التالية أعيد تأكيد هذا النجاح على أنواع أخرى من الضفادع، ليجد العلماء أنه كلما تقدم العمر بخلايا الجنين التي تُنقل أنويتها كلما انخفضت نسبة النجاح. تناقصت قابلية الخلية للاستنساخ مع زيادة تخصصها.

وفي عام ١٩٦٢ تمكن جون جردون من نقل أنوية من خلايا أمعاء ضفادع ناضجة إلى بويضات مفرغة من مادتها الوراثية، ثم إن النسائخ قد نمت حتى النضج الجنسي. لكن نسبة النجاح كانت ضئيلة فلم تتعد ٢٪. ثم اتضح فيما بعد أن ٢ – ٥٪ من خلايا الأمعاء خلايا جنينية غير متمايزة، وأن ما نجح من نسائخ جردون كانت على الأغلب من مثل هذه الخلايا. والحق أن أحدًا لم يكن قد تمكن من استنساخ ضفدع بالغ من خلية متمايزة مأخوذة من ضفدع بالغ، إنما نجح من نجح في الاستنساخ من خلايا جنينية.

لكن التفكير أخذ يتجه إلى امكانية استنساخ البشر. لم يكن ثمة من قد نجح فى إخصاب بويضة امرأة فى المعمل، دعك من إبقاء بويضةٍ مخصبةٍ فى المعمل حيةً حتى تزرع فى رحم امرأة. غير أن جيمس واطسون فى نفس ذلك العام (١٩٦٢) أعلن أنه يعتقد أن العلماء سيتمكنون قريبا من استنساخ الإنسان، وأن الواجب أن نستعد حتى لا تضيع منا حرية الاختيار. لكن حديثه لم يجد من يأخذه مأخذ الجد. ولقد تمكن باتريك ستيبتو وروبرت إدواردز فى نفس هذا الوقت من إخصاب بويضات النساء فى المعمل، ثم تنميتها إلى أجنة مبكرة يمكن زرعها فى الرحم: وهذه تقنية ضرورية يلزم اتقانها قبل استنساخ البشر. وفى عام ١٩٦٣ أكد العالم البريطانى الفذ ج.ب.س. هالدين أن استنساخ البشر قد غدا وشيكا، ورأى جوشوا ليدربيرج عام ١٩٦٦ أن مثل هذا الاستنساخ يلوح بالفعل على الأفق. وكتب ويلارد جايلين عام ١٩٧٢ مقالاً عنوانه «أسطورة فرانكنشتاين تصبح واقعا. لدينا المعلومات المروعة التى نصنع بها نسخا مضبوطة من البشر». أراد أن يجعل من استنساخ البشر قضية أخلاقية تلزم مناقشتها علنا، لكن أحدًا لم يلتفت.

الإعلان عن ولادة أول نسيخ بشرى

وفى يوم ٣ مارس ١٩٧٨ ظهر بجريدة النيويورك بوست مانشيت ضخم يعلن عن ولادة أول نسيخ بشرى! عرض المقال ملخصا لكتاب على وشك الصدور ألفه دافيد رورفيك تحت عنوان «على صورته: استنساخ رجل». عمل هذا المؤلف كاتبا علميا بمجلة تايم بضع سنين

ثم تحول ليصبح كاتبا حرا. يحكى الكتـاب عـن قصـة مليونـير هـرم (أسماه ماكس) لجـأ إلى رورفيـك ليبحـث لـه عـن عـالِم يستنسـخه، وعرض تجهيز معمل كامل فى بلد استوائى ومبلغا مجزيا للعالم الذى يقبل القيام بالمهمـة. وجـد رورفيـك عالما (أسمـاه داروين) قَبِـل أن يجرى عملية الاستنساخ، وعثر على فتاة (أسماها العصفورة، سبارو) قبلت أن تسهم ببويضاتـها. تم استنسـاخ الرجـل وولـد الطفـل فـى ديسمبر ١٩٧٦. بـدت القصـة كمـا لـو كـانت حقيقيـة. صدقتـها الجماهير، وانداحت موجة هائلة من الذعر. بيـع مـن الكتـاب علـى الفور ٩٥ ألف نسخة. وبعد مقابلة صحفية مع رورفيك أكـد فيـها أن القصة حقيقية اختفى رورفيك، ورفـض الافصاح عـن اسـم المليونـير أوعن مكان وجود الطفل. ثم كشف العلماء بجلاء أن القصة لا يمكـن أن تكون حقيقية. وانتهت القصة بعد سنتين، لكـن بعـد أن كشـفت مدى خوف الناس من استنساخ البشر، وعميق ارتيابهم فى العلماء.

وبعد سنين معدودة من انتهاء قصة رورفيك، وفـى ينـاير ١٩٨١ ظـهر بحث مذهل للعالم الألمانى الكبير، الساحر الفاتن، كارل إلمنزيـه الأستاذ بجامعة جنيف، أعلن فيه أنه قد تمكن بالفعل من استنساخ ثلاثة فئران. عزل أنوية خلايا جنينية ونقلها إلى بويضات مخصبة أُفرغت من أنويتها. كان هذا أول بحث ينشر عن النجاح فى استنسـاخ حيـوان ثديـى. والفـأر يحمل تقريبا كل جينات الإنسان، إنمـا بـترتيب مختلـف. بـدا أننـا قـد اقتربنا حقا من استنساخ الإنسان. لكن البعض من العاملين بمعمل إلمنزيـه بجامعة جنيف كشفوا عن تدليسـه فـى ينـاير ١٩٨٣، وتم التحقيـق معـه

بمعرفة لجنة علمية دولية رأت فى نهاية الأمر أنه «كان متراخيا أكثر من اللازم في تسجيل تجاربه، ووقع فى عدد كبير غير معقول من الأخطاء». ران صمت ثقيل غلف قضية استنساخ الثدييات.

ثم قام دافور سولتر وجيمس ماكجارث بمحاولات جديدة نقلا فيها بويضة فأرة مخصبة إلى بويضة فرغت من مادتها الوراثية. نجحت التجربة ونما الجنين داخل رحم أم بديلة حتى ولد حيا. لكنهما عندما قاما بنقل نواة خلية جنين متقدم في العمر إلى البويضة المفرغة، لم يصيبا نجاحًا. نشرا بحثهما الذى انتهى بالجملة: «إن استنساخ الثدييات بنقل النواة أمر مستحيل بيولوجيًا».

انتهى الأمر. أغلق الطريق. لم يعد ثمة من سيحاول استنساخ ثديى. البروتينات التى تغلف الدنا بالنواة تحجب ما يصل إلى ٩٠٪ من الجينات ولا تترك إلا النسبة منها التى تحتاجها الخلية للقيام بالمهمات التى أوكلت إليها فى موقعها بالجسم. فكيف للعلماء أن يخلصوا الدنا مما ارتبط به من بروتينات ليعيدوه إلى وضعه كما كان بخلية الجنين الأولى؟ الكيماويات التى قد تستخدم لإزالة البروتين تتلف الدنا نفسه. تحول الكثيرون بعيدا عن مجال استنساخ الفئران والثدييات. إن رجلاً فى شهرة سولتر قد كتب يقول إن استنساخ الثدييات مستحيل بيولوجيا.

ثم نجح استنساخ خلايا الأجنة المبكرة

لكن الاستنساخ أمر مهم فى حيوانات المزرعة، الأغنام والأبقار، مهم من الناحية الاقتصادية، وكان من الضرورى أن يواليه العلماء على الرغم من تجارب سولتر. ولقد نجحوا قبل أن ينقضى عام على نشر بحث

سولتر. تمكن ستين فيلادسين العالم الدانيمركى (فى كمبريدج) من نقل أنويه من خلايا جنين أغنام مبكر إلى بويضات مفرغة النواة، ونجح فى استنساخ أول حملين ونشر ذلك فى أوائل عام ١٩٨٦. غير أن استنساخ الأبقار كان أعقد كثيرا من استنساخ الفئران أو الأغنام، إذ تصعب تنمية أجنة الأبقار في المعمل قبل نقلها إلى رحم بقرة. ابتدأ التجريب أولاً بتنمية أجنة الأبقار فى قناة المبيض بالنعاج، ثم تطور الأمر إلى استئصال قناة المبيض من النعاج لتُستبقى حية فى المعمل (لمدة تبلغ شهرًا) وتزرع بها - لتنمو أسبوعًا - الأجنة المبكرة للأبقار. وعلى أواخر ١٩٨٦ كان براثر وآيستن وقد تمكنا من نقل نواة من جنين بقرة مبكر إلى بويضة بقرة مفرغة من نواتها، ثم قاما بزراعتها فى قناة مبيض نعجة بالمعمل لفترة أسبوع نقل بعدها الجنين إلى رحم بقرة حيث نما حتى ولد حيا.

على بداية التسعينات كان الاستنساخ يُجرى بالفعل على حيوانات المزرعة، إنما بشطر الأجنة المبكرة إلى خلايا يكوّن كل منها جنينا - تماما كما يحدث طبيعيا فى إنتاج التوائم المتطابقة. لقد أمكن فى استراليا إنتاج ٤٧٠ حيوانا طبيقا من جنين واحد عمره ٤ — ٥ أيام. لكن استنساخ الحيوانات الناضجة هو الأهم فى زراعة الحيوان، فمثل هذه الحيوانات تكون قد أثبتت كفاءتها فى الصفة المرغوبة - إنتاج اللبن مثلا، لكن خلاياها ستكون بالطبع قد تمايزت. يصبح أمر استنساخ الحيوانات الناضجة ملحًا إذا ما تعلق الأمر بحيوانات هندست وراثيا بإضافة جينات بشرية خاصة إلى طاقمها الوراثى إذ تهندس مثل هذه الحيوانات لإنتاج عقاقير بشرية ثمينة فى ألبانها بإيلاج جينات بشرية فى طاقمها الوراثى.

وإنتاج حيوان واحد كهذه أمر شاق ومكلف. فلإنتاج عجلة واحدة عبر جينية بحقن الدنا سنواجه بالمعدلات التالية:

* تحقن بالدنا ٢٨٠٠ بويضة مخصبة.

* ينتج ٢٥٠٠ زيجوت كامل.

* يبقى منها ٢٥٠ جنينا بعد النقل إلى أرحام الأمهات البديلة.

* يكمل مدة الحمل ٥٠ جنينا، وتولد حية.

* من بين هذه سيكون هناك فرد واحد عبر جينى.

فإذا ما كان لدينا وسيلة لفرز الأجنة بعد حقن الدنا واكتشاف ما استوعب منها الجينات البشرية، فإنا سنجد أننا :

* نحقن بالدنا ٢٨٠٠ بويضة مخصبة.

* نكتشف ٤٠ جنينا عبر جينى تنقل إلى أرحام أمهات بديلة.

* يكمل مدة الحمل منها ٨ أجنة.

* من بين هذه سيكون هناك فرد واحد عبر جينى.

كانت شركة ب ب ل تقوم بهذه الزراعة الصيدلية. واستنساخ العجلة الواحدة عبر الجنينة التى ستنتج عن ٢٨٠٠ بويضة مخصبة أمر لا شك هام اقتصاديا بالنسبة لها. عهدت إلى إين ويلموت بالقيام بهذه المهمة فى معهد روزلين قرب إدنبره باسكتلنده.

الوصول إلى دوللى

على عام ١٩٩١ كان ويلموت وقد أنتج نعاجًا تفرز العقار ألفا أنتى تريبسين فى لبنها (وهذا عقار يستخدم فى علاج مرض التليف الكيسى فى البشر)، وأصبح العمل فى إنتاج النسائخ أمرًا حيويا، فبه نستطيع تكرير مصانع الأدوية هذه التى تمشى على أربع. عرف ويلموت أن نجاح الاستنساخ يرتبط بدورة انقسام الخلية. تدخل الخلية بعد انقسامها فى طور يسمى الفرجة الأولى تزداد فيه الخلية حجما ويتم التأكد من أن الدنا كامل. تدخل الخلية بعد ذلك فى دور التمثيل حيث تَنسخ الخلية دناها استعدادًا للانقسام لتصل إلى طور الفرجة الثانية فتراجع الخلية دناها ثانية لإصلاح ما قد يكون قد حدث من أخطاء أثناء نسخ الدنا، لتصل بذلك إلى مرحلة الانقسام الميوزى فتنقسم إلى اثنتين، وتدخل بعد ذلك فى حالة من الحيوية الموقوفة، أو فرجة الصفر. قام ويلموت بتجويع الخلايا حتى تدخل دور الصفر. فى هذا الدور تزيل الخلية المتمايزة البروتينات التى تحجب معظم دناها، ليصبح كدنا الخلايا الجنينية الأولى، غير متمايز.

استخدام ويلموت ٢٧٧ خلية من ضرع نعجة دورسيت فنلندى كان محفوظا بثلاجة معمله، نقل أنويتها إلى بويضات مفرغة من مادتها الوراثية، ثم قام بتجويع البويضات لتدخل فى طور الصفر، وتمكن من الحصول على ٢٩ جنينا، نماها فى قناة المبيض ثم نقلها إلى أرحام بديلة لأغنام بلاكفيس اسكتلندية. لم يولد منها حيا إلا دوللى. نجح استنساخ ثديى ناضج!

التطبيق العملى للاستنساخ فى مصر

يحتاج التحسين الوراثى لإنتاج اللبن فى الأبقار والجاموس إلى مشاريع لاختبار الطلائق بنسلها، فالأهم فى حيوانات اللبن هو اختبار الذكر، الذى يمكن عند انتخابه أن يعطى بالتلقيح الصناعى مئات البنات تحمل نصف تفوقه الوراثى. أما الأنثى، فكم ستلد من البنات؟ والاختبار بالنسل يعنى أن نلقح بالسائل المنوى لكل من الطلائق التى ستجرى المفاضلة بينها عددا من الإناث يتراوح ما بين ٥٠ ومائة أو أكثر، لنصل إلى عدد من البنات لا يقل عادة عن ١٥، تربى حتى تنضج جنسيا وتلقح وتلد، ثم ننتظر حتى تكمل موسم حليب، لنتمكن عندئذ من إجراء المقارنة بين الطلائق فننتخب منها الأفضل. مثل هذه المشاريع تحتاج إلى إمكانيات هائلة وزمن طويل وتعاون واسع من الفلاحين لاستخدام حيواناتهم فى الاختبار، وجيش من الزراعيين يتعقبون الحيوانات ويسجلون إنتاجها، وآخر من البيطريين لإجراء التلقيح الصناعى، ثم إدارة مركزية لتجميع السائل المنوى وتجميده، وتجميع النتائج وتحليلها. وهذا أمر لم نتمكن فى الحقيقة من إجرائه حتى الآن، فالصعوبة بادية.

لكنا بالاستنساخ نستطيع أن ننتخب إناث الجاموس ذات الإنتاج المرتفع، فننتخب منها أفضل ٥ أو ١٠٪ لا أكثر، لننتج من كل منها أى عدد نوده من النسائخ التى تحمل نفس المادة الوراثية المتازة التى أثبتت نفسها فعلاً فى الإنتاج - كل المادة الوراثية فى الحقيقة، بجانب أن كل النسائخ - لا نصفها - سيكون إناثا.

يمكننا أن ننزل اليوم فى أى مزرعة من مزارع الجاموس التابعة لوزارة الزراعة فننتقي منها أفضل ١٠ جاموسات مثلا لنكون منها وحدها قطيعا هائل العدد متميز الإنتاج في ظرف سنين قليلة.

يظهر أحيانا فى القطعان إناث تعطى نسبة من الدهن فى اللبن غير معقولة، يصعب اقتناصها إذ تذوب فى العشيرة بعد ذلك ولا يمكن الانتفاع بها كما يجب. كانت لدينا بكلية الزراعة بالجيزة جاموسة أعطت ١٣٪ دهنا في لبنها. يمكننا بالاستنساخ أن نكرر مثل هذه الإناث ونحفظ تركيبها الوراثي مئات المرات إن أردنا.

أجريتُ بحثا نظريا اتضح منه أن الاستنساخ يعطى من التحسين الوراثى في إنتاج اللبن من الجاموس ثلاثة عشر ضعف ما ينتج عن الطريقة المستخدمة لدينا الآن، أقصد الانتخاب الفردى. وعندما قارنت كمية التحسين الوراثى من مشروع للاختبار بالنسل يُختبر فيه الذكر بخمس عشرة بنتا، بكل ما فيه من تعقيدات وصعوبات عملية ومادية، بالناتج عن الاستنساخ، وجدت أن الاستنساخ يزيد ثلاثة أضعاف ونصف. إنها طريقة هبطت علينا من السماء لتحسين حيوان اللبن الأول فى مصر.

بالاستنساخ أيضا نستطيع أن ننشئ سلالة من الأبقار البلدية الممتازة، التى سيكون مآلها إلى الزوال دون ذلك، فهى لا يمكن تنافس أنواع الأبقار الأجنبية التى انتخبت طويلاً لإنتاج اللبن. وبالاستنساخ نستطيع أيضا وبسرعة أن ننتخب سلالة من ذكور الجاموس والأبقار لإنتاج اللحم. وسنلاحظ هنا أن فى مقدورنا أن نختبر الحيوان نفسه لنسبة التصافى والتشافى، ثم ننتخبه، وهذا بالطبع أمر مستحيل الآن، فإذا ذبحت

الحيوان لمعرفة نسبة تصافيه لم يعد هناك مجال لانتخابه، الأمر الذى يلجئ المربى إلى استخدام القياسات على بعض الأقارب، وفى هذا ما فيه من انخفاض لدرجة دقة الانتخاب.

بل ويمكننا الاستنساخ أيضا من الانتخاب بين هجن الأبقار البلدية ببعض الأنواع الأجنبية. فى تجربة قمت بها مع فريق بحثى من كلية الزراعة لتهجين الأبقار البلدية بثلاثة عشر نوعًا أجنبيا، اتضح أن ذكور الهجن البلدى بالشاروليه هى الأفضل كثيرا فى إنتاج اللحم، ولا كذلك الإناث الناتجة من نفس هذا التهجين. يمكننا هنا أن ننتخب أفضل الذكور الهجينة ثم نستنسخها (وسيكون الناتج كله ذكورا بالطبع).

(٦)
البيوتكنولوجيا فى الزراعة

البيوتكنولوجيا الحديثة هى استخدام الحيوانات والنباتات والفُطريات والبكتريا والفيروسات - كاملةً أو أجزاء منها - لإنتاج مواد نافعة يحتاجها الإنسان ، كالطعام والدواء والكساء والكيماويات ، أو فى تحسين كائنات حية موجودة . هى تكنولوجيا عمليات صناعية ترتكز على النظم البيولوجية تستهدف تطوير عمليات تجارية ومنتجات ، عن طريق دفع الخلايا الحية إلى القيام بمهام خاصة محددة يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها . وهى تضم قائمة يتزايد طولها من التكنولوجيات من بينها : زراعة الخلايا والأنسجة ، دمج الخلايا ، الدنا المُطعم ونقل الجينات ، والأجسام المضادة النقية ، البصمة الوراثية ، منابلة الأجنة ونقلها ، هندسة البروتين ، وتكنولوجيا تعطيل الجينات. ترتكز البيوتكنولوجيا على علوم البيولوجيا والميكروبيولوجيا والكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية ، وعلم الوراثة والهندسة الكيماوية ، وعلوم الكمبيوتر .

بدأ الإنسان (الثورة الخضراء) الأولى منذ نحو إثنى عشر ألف عام فى منطقة الهلال الخصيب ، عندما استقر وابتكر الزراعة . ثم عكف منذ

ذلك التاريخ على محاولة تحسين محاصيله وحيواناته . يمكننا أن ندرج كل ما قام به الإنسان فى هذا الخصوص تحت عنوان (التحسين الوراثى) . ولقد تضاعفت خطى هذا التحسين فى بداية قرننا هذا مع إعادة اكتشاف قوانين مندل، ليغدو التحسين الوراثى مهنة أثمرت فى الستينات «ثورة خضراء» جديدة انتجت سلالات من القمح والذرة والأرز غزيرة المحصول بشكل مذهل (٤ - ١٠ أضعاف محصول السلالات المحلية) - سلالات ساهمت حقا فى توفير الغذاء لمواجهة الانفجار السكانى فى دول مثل الهند وبنجلاديش وباكستان .

تمكن مربو النبات إذن بطرق الانتخاب الوراثى من رفع إنتاجية المحاصيل الزراعية . استنبطوا معظم ما نراه من سلالات وأصناف محاصيل الحقل والخضراوات والفاكهة والزينة ، بل وحتى السلالات الاقتصادية من البكتريا والخمائر والفُطر. ولقد كان تقدمهم محكومًا بالمستودع الجينى للنوع الذى يعملون عليه وما يحويه من جينات - يفتشون فيه بطرُقهم عن تباين وراثى، عن جينات جديدة نافعة وطفرات مفيدة ، يقتنصونها ويكثرون منها ويثبتونها فى سلالاتهم. ولقد يلجأون إلى الأقارب البرية بحثًا عن صفات وراثية لا تتوفر فيما بين أيديهم من نباتات، فإذا وجدوها قاموا بتهجين سلالاتهم بها ، ثم طفقوا ينتخبون ثانية، فى عملية مرهقة تستهلك المال والزمن . هم لم يستطيعوا أن ينتجوا سلالة من الذرة يتوفر فى دقيقها حمض اللايسين الأمينى - الهام جدا فى تغذية الإنسان - فليس فى المستودع الجينى لهذا النبات من التباين فى هذه الصفة ما يمكنهم اللجوء إليه.

هم لم يستطيعوا أن ينتجوا أزهارًا زرقاء فى نباتات الورد أو القرنفل أو الأقحوان أو الجيربيرا ، فالجهاز الوراثى لهذه الأنواع النباتية ببساطة لا يحمل من الأصل جينا للّون الأزرق .

وبعد ما شهده هذا القرن من تحولات رفعت الإنتاج الزراعى النباتى بشكل ملحوظ - ميكنة الزراعة ، البذور الهجينة ، المخصبات الجديدة ، مبيدات الآفات - جاءت البيوتكنولوجيا الحديثة تحمل معها آمالا كبارا : ابتُكِرَت تقنيات الدنا المُطَعَّم ونقل الجينات وزراعة الأنسجة ودمج الخلايا ، وفَتَحت مجالاً جديدًا تماما : فتحت أمام المربى المستودع الجينى لكل الأنواع - ميكروبية أو نباتية أو حيوانية - يأخذ منه ما يشاء وينقله إلى أى نوع نباتى يشاء . لم يعد من الضرورى أن نجد الجين المطلوب فى الجهاز الوراثي للنوع الذى نحسنه ، يكفى أن نعرف بوجوده فى أى نوع آخر ، فننقله . نستطيع أن نعزل الجين المسئول عن اللون الأزرق الذى تحمله نباتات البيتونيا ذات الزهرة الزرقاء (وقد تم هذا) ثم ننقله بطرق الهندسة الوراثية إلى سلالة الورد لدينا ، لينتج لدينا : نفس سلالة الورد بكل خصائصها ، سوى أن أغصانها ستحمل ورودا زرقاء .

يعتمد النجاح فى تطعيم خلايا النبات بالجينات الغريبة (أى ما يسمى الهندسة الوراثية) على النجاح فى استزراع الخلايا المطعمة جينيا ، بزراعة الأنسجة ، وإمكان تنميتها إلى نباتات كاملة تحمل الجين (أو الجينات) الغريبة - فزراعة الأنسجة هى التقنية الجديدة المكملة للهندسة الوراثية فى النبات .

فقد اتضح أنه من الممكن استنبات الأنسجة النباتية والخلايا في بيئة مغذية ، يختلف تركيبها باختلاف نوع النبات وباختلاف الجزء المستنبت (جزء من ورقة أو من ساق أو من جذر ، أو قمة نامية .. الخ) ، لكن هذه البيئات جميعا لابد أن توفر ما تحتاجه الأنسجة والخلايا من مواد غذائية وتنشيطية . فلما كانت الأنسجة النباتية المنفصلة لا تستطيع عادة توفير الكربوهيدرات لنفسها ، فمن اللازم أن يُوَفَّر لها مصدر يمدها به، عادة ما يكون سكر السكروز . ولقد تضاف أيضًا فيتامينات ومواد أخرى كلبن جوز الهند أو مستخلص الخميرة لتشجيع النمو والتضاعف . ثم إن هناك ستة عناصر غير عضوية يلزم أيضًا توفيرها هي: النتروجين، والفوسفور، والبوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم والكبريت، بالإضافة إلى منظمات النمو من الهرمونات النباتية : الأوكسين والسيتوكينين: فالأوكسين ينشط تكوين الأحماض النووية والكالّس ونمو الخلايا وتكوين الجذور ، أما السيتوكينين فينشط انقسام الخلايا وتكوين النموات الخضرية ويثبط تكوين الجذور .

عندما توضع القِطَع من أجزاء النبات المطلوب استزراعها في البيئة المغذية تنشط الخلايا بالأجزاء المجروحة الملامسة للبيئة ، فتتكون كتلة من الخلايا البرانشيمية تسمى كالّس في ظرف ٣ – ٤ أسابيع . تُتْرك هذه لتكبر حتى يصل قطرها إلى ٢ – ٣ سم ، فتُفصل وتُجزأ إلى قطع صغيرة تزرع في بيئة مغذية أخرى ذات تركيب هرموني ينشط تكوين الجذور والبراعم الخضرية والأفرع والأوراق ، لتُنقل النبيتات إلى الصوبة أو الحقل حيث تنمو إلى نباتات كاملة – وقد يصل ما ننتجه من كتلة كالّس واحدة إلى خمسمائة نبات .

قد يواجه المربى عقبات كثيرة يلزم حلها بالنسبة للكثير من محاصيل الحقل التى لا تستجيب خلاياها بسهولة للتكاثر فى مزارع الأنسجة. كما أن الكثير من الصفات الاقتصادية الهامة لمحاصيل الحقل صفات كمية ترتكز وراثتها على عدد كبير مجهول مَن الجينات، لا على جين واحد كمثل ما قد يتمكن المهندس الوراثى من التعامل معه.

وسنعرض فيما يلى بعضًا مما أمكن للبيوتكنولجيا أن تنجزه أو مما تعد بإنجازه :

التوماتين

هناك نبات ينمو بغرب أفريقيا اسمه كاتيمفى katemfe أو (فاكهة السودان الأعجوبة) (واسمه العلمى : توماتوكوكّصْ دانيلياى Thaumatococcus daniellii) ، يعطى ثمارًا حمراء صغيرة غاية فى الحلاوة بسبب احتوائها على مادة تسمى التوماتين . تقول موسوعة جينيس للأرقام القياسية إن هذه المادة هى أحلى مادة يعرفها الإنسان، إذ تبلغ حلاوتها ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ ضعف حلاوة السكروز (سكر القصب) فى محلول تركيزه ٨ - ١٠٪ .

والتوماتين بروتين نباتى يعطى من السُّعرات مثل غيره من البروتينات (٤ كيلوكالورى / جرام) ، غير أن استخدامه فى تركيزات تبلغ أجزاء فى المليون يعني أنه فارغ حراريًا . والإنسان والحيوان يستطيعان هضمه كاملاً . وإذا جُفِّد (جُفِّف بالتجميد) freeze dried ظل مسحوقه ثابتا تحت درجات الحرارة العادية ، كما يظل ثابتا أيضًا فى عمليات

التصنيع حتى درجة حرارة ١٢٠ مئوية . ولقد قامت إحدى الشركات بتحضيره تجاريا تحت اسم تالين Talin ، وهو يستخدم كمحلى sweetener طبيعى لمرضى السكر ، وقد أجيز استخدامه فى أسبانيا واستراليا وإسرائيل وأمريكا وجنوب أفريقيا والدانيمرك ودول السوق الأوربية وسويسرا ونيوزيلنده واليابان .

للتوماتين خصائص فريدة بجانب كونه مُحليًا ، فهو فى تركيزاته الضعيفة جدًا يحجب الطعم المر الكريه لأيونات المعادن ، كالصوديوم والحديد والبوتاسيوم ، وبذا يستخدم فى إخفاء المذاق المتأخر after taste للسكارين ولبعض العقاقير التى تحمل معادن مضافة . كما أنه يكبت الطعم المر لمنتجات ثمار الموالح وعصائرها . ثم إنه يرفع استجابة مستقبلات الذوق فى الفم للمُنَكِّهات من قبيل النعناع والزنجبيل والقرفة والبنّ ، فيعزز نكهتها كما يقلل أثرها الحرِّيف أو اللاذع أو المر . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يعزز حلاوة غيره من المُحليات : فمن الممكن أن نخفض ٣٠٪ من نسبة الأسبارتيم aspartame فى مشروباته ، بإضافة عشرة أجزاء فى المليون من التوماتين ، دون أن نخفض من مستوى الحلاوة الأصلية .

من الممكن بالطبع أن يستخدم التوماتين منفردا فى إعداد الحلوى ، لولا أنه يذيع طعما كالعرقسوس licorice إذا زاد تركيزه ، ومن ثم يقتصر استعماله على الحلوى التى لا تتطلب أكثر من ١٠٪ من السكروز .

ولقد أمكن عزل الجين المشفّر للتوماتين من نبات الكاتيمفى ، وأمكن بالهندسة الوراثية إيلاجه فى ميكروبات تقوم بإنتاجه بكميات تسويقية .

يحاول بعض العلماء الآن إيلاج الجين في خلايا الكاكاو ، لتنتج الشجرةُ الكاكاو حلوًا بالفعل دون زيادة في سعراته . من الممكن بهذا الجين أن ننقذ نباتاً كالشمام الذى كاد أن يختفى من أسواقنا فى مواجهة الكانتالوب ، فإيلاج هذا الجين فيه سيرفع من حلاوة ثماره دون زيادة في السكر ، الأمر الذى قد يعيد هذه الثمرة إلى مكانها السابق على موائدنا . ومن الممكن أيضا أن يولج جين التوماتين هذا فى نبات غزير المحصول كالطماطم ، ليستخلص التوماتين من الثمار بكميات تسويقية .

البيوتكنولوجيا ومقاومة الآفات النباتية

ليس للنباتات جهاز مناعي - كالحيوانات - تدافع به عن نفسها ، لكنها قد طوّرت حيلا وطرقا لتسعفها فى مقاومة الحشرات والأمراض الفيروسية أو البكتيرية أو الفُطرية . ربما أمكننا أن نقول إن الجينات المشفرة لبروتينات عائلة التوماتين (وعائلات أربع أخرى غيرها معروفة) تشكل ما يمكن اعتباره آلية للدفاع . وهناك نباتات تنتج بروتينات لقتل الحشرات أيضًا . من بين هذه البروتينات المضادة للحشرات هناك مثبط التربسين trypsin inhibitor هذا البروتين يثبط نشاط إنزيم التربسين الذى تفرزه بعض الحشرات لهضم خلايا النبات حتى تصبح في صورة يمكنها أكلها ، مخلفة ثقوبا في أوراق النبات أو سوقه . فإذا ما ثُبّط فعل هذا الإنزيم ماتت الحشرة جوعًا .

نجح العلماء فى كلْوَنة جين مثبط التربسين من نبات اللوبيا ، وإيلاجه فى الجهاز الوراثى لنبات الطباق . (نباتات الطباق - والعائلة الباذنجانية

عموما – هى أفضل النباتات طواعية لتقنية نقل الجينات) . ولقد ثبت أن نبات الطباق عَبْر الجينى transgenic هذا يميت بالفعل من الجوع ديدان البراعم وديدان الحَشْد . ومثبط التربسين هذا لا يؤثر فى الإنسان ، إذ يتحلل فى قناته الهضمية . ولقد عُرف أيضا أن هناك حشرات ، تصيب بعض محاصيل الحقل الرئيسية ، حساسةً لفعل هذا المثبط ، منها دودة كيزان الذرة ودودة نمل الأرز وسوسة لوز القطن ، ونقل الجين إلى نباتات الذرة والأرز قد يكون له أثر فعال فى تقليل ما تسببه هذه الحشرات من خسائر فى المحصول .

تقنية الهندسة الوراثية هنا – نقل الجينات – تقوم بعمل لا يمكن للمربى التقليدى القيام به – إنها تُدْخِل صفة جديدة تماما إلى نبات لم يعرف بها أبدًا . تماما مثلما هو الوضع فى إنتاج الوردة الزرقاء .

ولقد يأتى الجين المُفَضَّل من بكتريا ، لا من نبات . ثمة بكتيرة من بكتريا التربة اسمها باسيلّس تورنجينسز (بى تى) Bacillus thuringiensis (Bt) . تحمل هذه البكتيرة جينا يشفر لبروتين سام ليرقات حشرات حرشفيات الأجنحة (ومنها دودة ورق القطن) . وكان قد كُشِف عن سمية هذا الجزىء البروتينى ، واستُخدم كمبيد حشرى بيولوجى منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما . وهذه المادة لا تؤذى الإنسان ولا الثدييات ، وتعمل بأن ترتبط بالمستقبلات على أسطح خلايا القناة الهضمية الوسطية للدودة ، وتوقف عملها ، فتموت الحشرة . تمكنت إحدى الشركات الأمريكية (مونسانتو Monsanto) من عزل هذا الجين من البكتيرة وكلْوَنَتِه ، بعد أن ضوعفت سميته ثلاثمائة مرة ، ثم أولج فى

نبات القطن الأمريكى ، كما أولج فى الطباق والطماطم وغيرهما ، ونتجت نباتات تقاوم الحشرات مقاومة ذاتية - دون مبيدات . وتجرى الآن محاولات لتحوير هذا السم البروتينى بحيث يصلح لمقاومة مجال أوسع من الحشرات .

تقوم الأجهزة العلمية المعنية فى مصر بمحاولات لإيلاج جين البى تى هذا فى نبات القطن المصرى (وهو من نوع species غير نوع القطن الأمريكى) وفى البرسيم . ولا شك أن هذا المشروع يعتبر مشروعًا قوميًا ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، يمكن به على الأقل تخفيض الكم الهائل من المبيدات ، المكلفة والملوثة للبيئة ، التى تُنْشر سنويًا فى الريف وتعرّض المزارعين لمخاطر لا يستهان بها .

ستُسهم البيوتكنولوجيا فعلاً فى تنظيف البيئة ، ولقد فتحت مجالاً جديدًا تمامًا فى مقاومة الآفات النباتية لم يكن له قط وجود قبلها ، مجالاً لا يزال يتسع فى الحقيقة . ثمة مَنْ قد عَزَل وكَلْون جينات حشرية تنتج بالحشرات أجسامًا مضادة تقاوم بها بعض ما يصيبها من بكتريا ، ثم أولج الجينات فى الجهاز الوراثى لنباتات البطاطس ، بعد أن عُرف أنه من الممكن علاج بعض أمراضها البكتيرية بنفس هذه الأجسام المضادة .

وتقنية زراعة الأنسجة فى حد ذاتها قد توفر لمربى النبات وسيلة جيدة وسريعة حقًا لإنتاج سلالات نباتية تقاوم بعض الأمراض ، إذا وجدت بعشيرة هذا النبات جيناتٌ تشفِّر لبروتينات مقاومتها (إنما بتكرار منخفض) فلقد يلاحظ المربى فى حقل أصيب بمرض ما أن بعضا قليلا

من النباتات قد قاومه . يستطيع المربى أن يستخدم خلايا هذه النباتـات ، فيستزرعها فى مستنبت يحمل المادة السامة التى يفرزها الكائن المُمـرض ، لينتخب منها ما يستطيع أن يتحمل السم ، فيستزرعه ثانية ربما بعـد أن يرفع تركيز السم فى المستنبت .وهكـذا جيـلاً خلويًـا وراء جيـل سـيتمكن المربى من إنتاج سلالة من الخلايا مقاومة ، ينميها إلى نباتات كاملـة مـن سلالة مقاومةٍ للمرض . سنلحظ هنا سرعة إجراء عملية الانتخاب ، مقارَنةً بما كان للمربى أن يفعله إذا كـان عليه أن يُعـدى النباتـات فـى الحقـل بالكائن المُمْرِض (بما فى ذلك من خطورة) لينتخب منها ما يقاوم، لبضعة أجيال . إن كل ما يلزمه للإنتخاب فى مزارع الأنسجة هو أن يعرف السم أو أن يستخلصه. ولقد نجحت هذه الطريقة بالفعل فى انتخاب سلالة من البطاطس مقاومة للفحة البطاطس وفى انتخاب سلالات مقاومة للأمـراض فى الكثير من النباتـات كالطمـاطم والجـزر والبطاطـا وغيرهـا . بـل ولقـد نجحت فى تطوير سلالة من الذرة مقاومة لبعض أنواع مبيدات الحشائش غير الضـارة بالبيئـة أو بالإنسـان أو الحيـوان ، والتـى (كثـيرًا مـا تُبيـد) المحصول نفسه – وانتخاب مثل هذه السلالة من الذرة سينجيها من فعل مبيد الأعشاب عند استخدامه .

كثيرًا ما تظهر عن زراعة نسيج نباتي واحــد فـى مسـتنبت ، نباتـاتٌ تتباين كثيرا (وهذه ظاهرة تسمى التباين الخضرى الكلونى)) علـى الرغـم من أنها ، فرضًا ، متطابقة وراثيا . يبدو أن هـذا الفـرض ليـس صحيحًـا تمامًا ، فمن الممكن للمربى أن ينتخب بينها وينتج سلالات مختلفة ثابتة وراثيًا . ولقد أمكن بالفعل استغلال هذه النباتات الخضريـة الكُلُونيـة فـى

استنباط سلالة من قصب السكر مقاومة لمرض العين الذى يسببه أحد الفطريات ، إذ أضيف السم الذى يفرزه هذا الفطر إلى مكونات البيئة المغذية بالمستنبت ، لترفع نسبته فى كل جيل نسيجى ، حتى أمكن إنتاج السلالة فى ظرف عام لا أكثر ، وهى المهمة التى لم يكن لمربى النبات التقليدى أن ينجزها فى أقل من عشرة أعوام .

تكنولوجيا زراعة الأنسجة كوسيلة لرفع الإنتاج

وقد تستخدم تقنية زراعة الأنسجة ذاتها فى التكثير الخضرى لنباتات أشجار ممتازة دون اللجوء إلى البذور التى قد تخذل المربى كثيرًا. فأنت إذا عثرت على نخلة واحدة أثمرت بلحًا أكثر حلاوة، أمكنك بتقنية زراعة الأنسجة أن تَنْسخ منها ملايين الأشجار إن أردت ، وأمكنك أن تعرِّض الأنسجة فى المستنبتات لضغوط (مَرَضية أو ملحية أو حرارية) لتنتخب الأفضل من الخلايا - بينما لا يمكنك بطرق الفلاحة التقليدية (الفسائل)، أو بطرق التربية المعروفة ، أن تنتج من مثل هذا النبات الطيب إلا عددا محدودا من النسل . ولقد نجحت هذه الطريقة نجاحا باهرا فى نخيل الزيت oil palm الذى كان حتى عهد قريب يكاثر بالبذرة ، فلقد طورت إحدى الشركات العالمية بإنجلترا تكنيك زراعة أنسجة هذا النخيل ، لترسل أولى شتلاتها للزراعة فى ماليزيا عام ١٩٧٦ ، فتثمر عام ١٩٧٨ ، بزيادة فى غلة الزيت تبلغ ٣٠٪ . كما نجحت الآن تقنية زراعة أنسجة لنخيل البلح ، وقد يعنى هذا توقعا بزيادة

جـودة الثمـار والمحصـول ، وزيـادة فـى أعـداد مـا يـزرع مـن الأصنـاف الممتـازة بطيئـة التكـاثر ، وإغـراءً بزيـادة المسـاحات الصحراويـة التـى تزرع نخيلاً .

وقد تستخدم تقنية زراعة خلايا النبات وأنسجته أيضا في توفير بعض المنتجات الزراعية - دون نبات . من الممكن أن تستزرع فى المستنبت مثلا أنسجة نبات الفانيليا ، وأنسجة أشـجار الصمـغ ، لتنتـج منـها الفانيليـا والصمغ فى المعمل دون مَزارع ، ونوفر الأرض لزراعـة محـاصيل أخـرى . (لكن مثل هذا الأمر قد يشكل بالفعل خطرًا بالنسبة لمدغشقر التـى تعتمـد على تصدير الفانيليا فى توفير جانب كبير من دخلها من النقد الأجنبى ، وبالنسبة للسودان المُصَدِّر للصمغ العربى) . ولقد تمكنت إحـدى الشـركات بالفعل عام ١٩٩١ من إنتاج الفانيليا من مزارع الأنسجة - والفانيليا التـى تنتجها بالطبع ليسـت اصطناعيـة ، إنمـا هـى مطابقـة تمامًـا لمـا تنتجـه بذور أوركيدة الفانيليا . وهناك الآن من العلمـاء مـن يحـاول إنتـاج أليـاف القطن من مـزارع الأنسـجة . بـل وهنـاك مَـنْ قـد تمكّـن فعـلاً مـن تنميـة الحويصلات التى تحمل العصـير فـى ثمـار البرتقـال والليمـون والجريـب فـروت - لينتـج عصـائر المـوالح مـن مـزارع الأنسـجة - دون ثمـار ، دون أشجار . كما نجح آخرون فى تنمية الجزء المـأكول مـن ثمـار الكريـز . إن تقنية زراعة الأنسجة قد تخدم كثيرًا فى توفير الأرض لزراعات أخـرى ، وفى توفير منتجات تقنية زراعية لبعض النباتات ، حتى فى بلاد ومناطق لا تصلح زراعتها فيها أصلاً لاختلاف المناخ مثلا أو التربة .

البيوتكنولوجيا وتسميد النبات

النتروجين (الأزوت) واحد من أهم العناصر التى يحتاجها النبات لبناء أنسجته – فكل حامض أمينى فى بروتين يحتوى ، بجانب الكربون والأيدروجين والأكسجين ، على ذرة نتروجين على الأقل . يشكل النتروجين نحو أربعة أخماس الهواء الذى نتنفسه ، لكن النباتات لا تستطيع أن تستفيد منه إلا إذا كان فى صورة أزوت (مُثَبَّت) fixed ، إما متحدًا مع الأكسجين فى صورة نترات أو مع الأيدروجين فى صورة أمونيا . يوفر المزارع لنباتاته الأزوت فى شكل أسمدة اصطناعية غالية الثمن . ولقد تَضَاعف المستَهْلَكُ من مثل هذه الأسمدة بصورة هائلة مع تطوير السلالات غزيرة الإنتاج من محاصيل الحقل ، فمثل هذه السلالات تحتاج من الأزوت ما يزيد كثيرا عما توفره التربة طبيعيا .

ليس هناك من الكائنات الحية ما يمكنه تثبيت النتروجين سوى بعض أنواع البكتريا والطحالب الخضراء المزرقّة blue green algae – لكن بعض النباتات قد تمكنت من خدعة . ثمة عائلة من النباتات يمكنها أن توفر لنفسها الأزوت : عائلة البقوليات التى تضم الفول والفول السودانى والعدس والبسلة والفاصوليا واللوبيا والحمص والترمس والبرسيم . تؤوى جذور هذه النباتات أنواعا مختلفة من بكتريا الريزوبيوم Rhizopium المثبِّتة للنتروجين ، التى تعيش فى صورة تكافل مع هذه النباتات : النبات يوفر المأوى والطاقة ، والبكتريا توفر له الأزوت . عندما تدخل البكتريا الشعيرات الجذرية ، وتتحرك نحو لحاء الجذر ، تَنْشط بها جينات معينة تؤدى إلى ظهور نتوءات تسمى العقد الجذرية ، سرعان

ما تمتلىء بملايين البكتريا التى تقوم بتثبيت النتروجين ، وتعمل كمصنع لتوفير الأزوت للنبات العائل . ولما كانت البكتريا تختلف فى قدرتها على تثبيت النتروجين ، فقد تمكن المربون من استنباط سلالات منها أكثر كفاءة . لكن الحقيقة هى أن جذور أهم محاصيل الحقل من النجيليات (القمح والذرة والأرز) لا تؤوى مثل هذه البكتريا . ولقد اتضح أن أنواع نباتات البقول المختلفة تفرز موادا معينة تجذب بها إليها أنواع الريزوبيوم الخاصة بها . من الممكن إذن التفكير فى تطعيم المادة الوراثية للنباتات النجيلية بالجينات المشفرة لمواد الجذب هذه .

تثبّت البكتريا الأزوت عن طريق إنزيم النتروجينيز nitrogenase وجهاز وراثى يسمى (جهاز تثبيت النتروجين - نيف) Nif مؤلف من نحو اثنى عشر جينا . أمكن بالفعل نقل هذا الجهاز على بلازميدة إلى بكتريا إ. كولاى فأصبحت هذه البكتريا تثبت النتروجين . ومن الطبيعى أن تجرى المحاولات لنقل هذا الجهاز إلى النباتات غير البقولية لتثبت هى ذاتها النتروجين ، أو أن يُنْقَل جهاز نيف هذا إلى بعض البكتريا الحرة فى التربة لتثرى التربة بالنتروجين المثبت .

من المثير هنا أن نذكر أن بعض العلماء قد اكتشفوا، منذ عام ١٩٣٨ ، أن دخول الريزوبيوم إلى الشعيرات الجذرية لنبات الفول (وغيره من البقوليات كما اتضح فيما بعد) يدفع بعض الجينات الصامتة فى الجهاز الوراثى للنبات إلى العمل والتعبير عن نفسها ، فتنتج داخل العقد الجذرية صبغةً حمراء ثبت أنها هيموجلوبين دم . تتكون هذه الصبغة من أربع سلاسل من الأحماض الأمينية (أ، ب،جـ ، د) - السلسلتان أ، جـ

تشبهان سلاسل الجلوبين في الحيوانات العليا ، أما السلسلة أ بالذات فتشبه كثيرا سلسلة جاما في هيموجلوبين الأجنة البشرية .

والواقع أن بالتربة - كما ذكرنا - بكتريا حرة يمكن أن تُستخدم كمصدر أزوت للنبات . من هذه النوعُ كلبسييلا Klebsiella . ولقد أمكن استنباط سلالة من هذه البكتريا تحمل طفرة في جين بها تجعلها تنطلق تنتج أيونات الأمونيا في البيئة حولها دون توقف ، بغض النظر عما وصل إليه تركيز هذه الأيونات - فالجين الطافر يغلق آلية التغذية المرتدة .

وهناك مشاريع هدفها تحسين علاقة تكافل ثلاثي معروفة من زمان طويل لدى مزارعي الأرز في فيتنام والصين ، وذلك لتوفير الأزوت لنبات الأرز ، إذ ينمو في حقول الأرز سرخس مائي اسمه أزولاً Azolla يعيش في أوراقه طحلب أخضر مزرقّ اسمه أنابينا أزولّي Anabaena azollae . ومع تحلل سرخس أزولاً يصبح الأزوت الذي ثبته به الطحلب متاحًا لنبات الأرز . يعمل المهندسون الوراثيون على دفع هذا النظام التكافلي إلى إنتاج مستويات من الأزوت المثبت أعلى ليخدم في تسمين الأرز وزيادة إنتاجه .

نباتات مطعمة بجينات بشرية

الضرب (١) من مرض السكر diabetes في الإنسان ينشأ عندما يهاجم الجهاز المناعيُّ خطأ بعض بروتينات الجسم ، وبالذات بروتينًا يسمى جاد GAD ، على الخلايا المفرزة للإنسولين بالبنكرياس - الهرمون الضروري لحفظ المستوى الصحيح من السكر في الدم . إذا ما تحطمت هذه

الخلايا ، أصبح على المريض أن يلجأ يوميًا إلى حُقَن الإنسـولين . ركـزت دراسات كثيرة على تعاطى المريض بالفم لكميات وفيرة مـن بروتـين جـاد هذا حتى يُمنع الجهاز المنـاعى مـن تدمـير خلايـا البنكريـاس ، وكـانت المشكلة هى صعوبة تصنيع هذا البروتين بكميات تسويقية .

نجح بعض الباحثين الكنديين مؤخرًا (يوليو ١٩٩٧) فى إيلاج الجـين المشفر لبروتين جاد فى دنا نباتات البطـاطس ، وأنتجـوا بطـاطس تحمـل مستويات عاليـة مـن هـذا الـبروتين . ثمـة سـلالة مـن فـئران أنتُخبـت للحساسية العالية لمرض السكر ، وتعتبر نموذجًا ممتـازًا لحـاملى الضـرب (١) من مرض السكر – فلها نفس تركيب البنكرياس ولها نفس الاستجابة المناعية . غذيت عينة من فئران هذه السلالة بالبطاطس المهندسة وراثيًـا ، وكانت النتائج مشجعة جدًا ، ويجرى الآن تجريبها على البشـر . يعتقـد الباحثون أن أكل النباتات المهندسة وراثيا هندسةً ملائمة قد تنجح حتـى فى منع طرد الجسم للأعضاء المزروعة فيه .

وقد أمكن بالفعل إنتاج الكثير مـن النباتـات المطعمـة بجينـات بشـرية تشـفر لبروتينـات بشـرية : بطـاطس تنتـج ألبيومـين الـدم ، لِفْت ينتـج الإنكفالين ، الذى يفرزه المخ لمنع الألم ، نبات تبغ ينتج إنترلوكي – ٢ ، وخضراوات وفواكه (كالموز والطماطم والبطاطس) تحمل فاكسينات بشـرية للسـعال الديكـى والالتـهاب الكبـدى الوبـائى ب ، وأمـراض الإسـهال والتيتـانوس والدفتريـا ، بـل وتحمـل أجسـامًا مضـادة لبكتريـا تسوس الأسنان .

(٧)
اللاضيُون:
أعـداء التكنولوجـيا

كان الجريح يتألم، عذبوه كثيرا حتى أوشك على الموت، لكنه لم يعترف، لم يعرفوا منه شيئا عن الجيش السـرى الـذى ينتمـى إليـه. وفجأة فتح الرجل عينيه ونظر إلى من يعذبه وهمس قائلا:

- هل أنت ممن يكتمون السر؟

جاءه الرد سريعا فى لهفة:

- نعم.. نعم..

أغمض الجريح عينيه ثانية ثم قال:

- وأنا مثلك!

ثم فاضت روحه.

حدثت هذه الواقعة فـى إنجلـترا فـى أوائـل العقـد الثـانى مـن القـرن الماضى. كان الرجل ينتمى إلى الحركة التى قام بها من يسمى «الجـنرال» نيـد لاض Ned Ludd . كـانت ثورتـه فـى الحـق هـى أول ثـورة ضـد التكنولوجيا الجديدة. انتهت حركة اللاضيين سريعا، وبعد أربعـين عامًـا رفض من بقى منهم حيا أن يقصوا قصتهم، رأوا جميعـا أن يحملـوا السر

معهم إلى القبر. قسم مقدس هذا الذى أقسموه ألاّ يبوحوا بالسر؟ أى سر كان هذا؟ لازلنا إلى الآن لا نعرف حتى ما إذا كان هناك حقا شخص اسمه لاض، أم أنه كان مجرد إشارة إلى قصة فولكلورية ذائعة آنئذ. لكنا نعرف ما قامت به ثورة اللاضيين وما قام به جيشهم السرى. لقد أثاروا اضطرابات وصفها بعض المؤرخين بأنها أوشكت أن تصل إلى «حرب أهلية»، ورأى البعض الآخر أن ثمة رابطة سرية كانت تربطهم بمن يتعاطفون مع الثورة الفرنسية.

كيف بدأت حركة التمرد

فى نوتنجهام وما حولها بدأت حركة اللاضيين. الريف هناك هادئ يحيا بتقاليده العريقة، عمال النسيج المهرة يتمتعون بمكانة سامية، يغزلون وينسجون بأيديهم، فى منازلهم، المخرّمات والجوارب والأصواف التى تملأ الأسواق الإنجليزية وتصدر إلى الخارج. منتجاتهم ذات سمعة طيبة وجودة عالية. يدربون الصبْية فى المنازل ويلقنونهم تقاليد المهنة لتحتفظ منتجاتهم بسمعتها الممتازة. دخلهم من المهنة يكفيهم. كانوا يستأجرون الأنوال، بينما يوفر لهم بعض رجال الأعمال المادة الخام ويقومون بتسويق منتجاتهم. وكان ثمة ما يحميهم: قرار ملكى قديم يحدد إنتاج أنواع معينة من المنسوجات داخل نطاق عشرة فراسخ من نوتنجهام. سعداء كانوا بنظام حياتهم هذا المتواضع.

وعلى بداية القرن التاسع عشر اضطربت الأوضاع فى إنجلترا: نابليون يحكم أوروبا، الجيش البريطانى منهمك فى حرب عقيمة بشمال أمريكا، المدن والقرى تتحول جذريا تحت زخم الثورة الصناعية العالمية التى

بدأت نحو عام ١٧٨٠ ، والتى تعيد تشكيل الطبيعة الأساسية للعلاقات التقليدية والاجتماعية.

ظهرت ماكينات بدائية لصناعة الجوارب ولإزالة وبر الأنسجة الصوفية، يمكن بها لعامل واحد غير ماهر، ومعه صبى، أن ينجز فى يوم واحد ما يتطلب أسبوعًا من العامل الماهر. هددت هذه الآلات مصدر رزق هؤلاء العمال، هددت كيانهم الاجتماعى، هددت أسلوب حياتهم. هددهم شبح المصنع (بيت الرعب) والاستغلال البشع للنساء والأطفال. لم تعد للمهارة قيمة. انتهت الحرية الفردية للنساج يعمل فى منزله على إيقاع دولاب الغزل والفول، وأصبح عليه كى يجد لقمة العيش أن يعمل فى مصنع، على إيقاع دقات الساعة وضجيج الآلة وصفارة المصنع وأوامر صاحبه – مصنع شُيِّد بالفعل ليشبه السجن. لقد تحرك ميزان القوى بعيدا عن النساج نحو صاحب المصنع.

فى نفس ذلك الوقت اتخذت حكومة المحافظين سياسة عدم التدخل فى الشئون الاقتصادية، إلا لحماية الأمن وحقوق الملكية. أصبح على النساجين أن يخضعوا لجوّ المصنع الكئيب، وارتفعت أسعار الغذاء وكل متطلبات الحياة. الماكينة تنتج بالجملة منسوجات رديئة النوعية. الماكينة هى مصدر قوة صاحب المصنع، هى نهاية المجتمع وعاداته الموروثة. يمكن للنساجين أن يضغطوا على أصحاب المصانع بالتهديد بتحطيم الآلات حتى يستجيبوا لمطالبهم برفع الأجور وتحسين أوضاع العمل.

وفى عام ١٨١١ بدأت حركة نيد لاض تتخذ شكلا واضحًا، أصبح لها جيش سرى أشبه بجيوش حرب العصابات. انتشر اللاضيون فى

مقاطعات يوركشاير ولانكشاير وشيشاير وديربشاير ونوتنجهام. كانوا يهاجمون الآلات لتحطيمها، لا لعداء خاص للآلات في حد ذاتها، وإنما لأنها هدف تسهل مهاجمته. بدأوا يحطمون الماكينات لإثارة انتباه أصحاب المصانع، بينما بدأت المصانع تشترى ماكينات أكبر وأفضل.

ثم بدأ اللاضيُّون العمل

كانت وسيلة أتباع لاض في الهجوم على المصانع واحدة: يمضون إلى المصنع ليلاً ملثمين مسلحين بالفئوس والعصى والحجارة، ويقولون إنهم قد جاءوا بناء على أوامر الجنرال لاض، ثم يقومون بتحطيم الماكينات التي قطعت أرزاقهم وكأنهم يؤدون طقوسًا وشعائر. ولقد يتم ذلك في وجود صاحب المصنع. كانوا يتجنبون العنف تماما، ولا يمسون شيئا آخر غير الماكينات. كانوا يعرفون المسالك الخلفية بين القرى، فإذا ما هددهم جيش الحكومة اختفوا بسرعة في نفس التلال والغابات التي احتضنت يوما أسطورة روبين هود. وكان السكان المحليون يتعاطفون معهم.

بدأت أولى عملياتهم ليل الاثنين ٤ نوفمبر ١٨١١. تجمعت فرقة صغيرة ملثمة مسلحة بالفئوس والحجارة ومضت إلى مصنع هولنجزويرث في قرية بولويل على مقربة من نوتنجهام. تركوا واحدا منهم بالخارج للحراسة، واندفعوا داخل المصنع وحطموا ست ماكينات. وبعد أسبوع وفي ليل الأحد قامت فرقة أخرى بنفس الهجوم على نفس المصنع، لكن صاحبه كان مستعدا – كان قد أرسل بعض آلاته وخزَّنها في نوتنجهام، ودبر الأمر بحيث يبقى بالمصنع ليلا سبعة أو ثمانية عمال مسلحين

بالبنادق يحرسون سبع الماكينات الباقية. وصل اللاضيون وطلبوا من الرجل أن يترك لهم الماكينات، فرفض، وبدأ إطلاق النار. سقط شاب من المهاجمين جريحا، لكنه صاح بزملائه قبل أن يموت «تقدموا أيها الشجعان. إنني أموت وقلبي مستريح!». حملوا جثته إلى حافة غابة قريبة، ثم عادوا في غضب طاغ، ليجدوا صاحب المصنع وقد هرب ومعه عائلته وحراسه، فحطموا الآلات وأشعلوا النار في المنزل. في نفس هذه الليلة قامت جماعة أخرى بتحطيم عشر ماكينات في كيمبرلي.

وفي يوم الثلاثاء تمكن اللاضيون من عربة في صاطون تحمل ثمانية أنوال، وحطموها، كما هاجم ألف منهم بلدة صاطون ومعهم فئوسهم، وقيل إن ثلاثمائة منهم كانوا يحملون البنادق والمسدسات، وحطموا نحو ٧٠ ماكينة كانت تخصّ رجلا يدعى بيتس قيل إنه مات على الفور عندما علم بذلك. وعلى نهاية نوفمبر بلغ عدد ما حطم من الماكينات مائة، ليصل في ديسمبر إلى مائتين وخمسين.

ثم انتهت اللاّضية

استمرت الحركة تدمر الماكينات. أحست السلطات بالخطر الجسيم، ورأت في اللاضية مقدمة لثورة محتملة، فملأت منطقة «مثلث اللاضيين» بالجواسيس والمخبرين، ورصدت مكافأة قدرها ٢٠٠٠ جنيه (مبلغ هائل في ذلك الحين) لمن يقدم معلومات تفضي إلى الإدانة. كان القانون يعاقب من يحطم الماكينات بالنفي أربعة عشر عاما، فأصدر البرلمان في ١٥ مارس ١٨١٢ قانونًا رفع العقوبة إلى الإعدام. أرسلت قوات الجيش إلى

المنطقة، حتى ليصل العدد فى مايو ١٨١٢ إلى ١٤٤٠٠ جندى. انتهت مرحلة اللاعنف لدى اللاضيين عند مصنع بيرتون فى ٢٠ أبريل ١٨١٢، عندما هاجمه عدد يفوق الألف من اتباع لاض المسلحين بالفئوس والعصى، إذ قاومهم حراس المصنع، فأحرقوا بيت صاحبه، لتقابلهم قوة عسكرية وتقتل عددا منهم. بدأ جيش لاض يزود نفسه بالأسلحة النارية.

ظهر منشور فى سوق شيسترفيلد عام ١٨١٢ يهدد بنسف البرلمان، ويلعن «الأوغاد الذين يحكمون إنجلترا» ويعد بقطع رءوسهم عند وصول الجنرال لاض وجيشه. ووُزع فى ليدز فى نفس العام منشور لاضىّ يطلب من أهل الريف أن يتقدموا بأسلحتهم ليتخلصوا من عبودية عجوز أحمق، وابن له أكثر حماقة، ووزراء أوغاد من أتباعه، واستحث الريفيين أن يتبعوا المثال النبيل الذى قدمه مواطنو باريس. ثم طُلب منهم الاتصال بالجنرال لاض، قائد جيش الإصلاح.

وأخيرا تمكن جوزيف رادكليف حاكم هادرسفيلد بمعاونة جواسيسه من معلومات أدت إلى القبض على قادة اللاضيين. قُدموا لمحاكمة خاصة عقدت فى قلعة يورك فى يناير ١٨١٣، فأدين أربعة وعشرون أعدم منهم سبعة، ونُفى الباقون سبع سنوات. وانتهت الحركة اللاضية.

الشاعران واللاضية

كانت موافقة مجلس للوردات على قانون إعدام محطمى الماكينات موافقة بالإجماع - إلا صوتا: صوت الشاعر اللورد بيرون. كتب قبل صدور القانون بثلاثة أيام قصيدة جاء فيها:

إن البعض منا - مؤكدا - قد أفزعه،
إذا ما استغاثت المجاعة وتأوه الفقر،
أن يصبح ثمن الحياة أقل من ثمن جورب
وأن يقود تحطيم آلة إلى تحطيم عظام إنسان!

أما صديقه الشاعر بيرسي شيلى فقد أنشأ صندوقا لجمع الأموال لرعاية يتامى اللاضيين. ولقد كانت اللاضية هى المحرك الأول لزوجته مارى شيلى عندما كتبت رواية «فرانكنشتاين» - الرواية التى لا تزال حتى الآن أبلغ وأجمل رسالة ضد الآلة.

اللاضيُّون الجُدُد

لم يحقق اللاضيون الكثير، لكنهم أصبحوا المرادف لمعارضة التكنولوجيا. يوصف باللاضىّ Luddite الآن كل من يخشى التكنولوجيا الحديثة أو يكرهها ويعمل ضدها - وفى هذا ظلم بيّن لقدامى اللاضيين. لقد كانوا بؤساء حقا، وجدوا أسلوب حياتهم ينهار فجأة، وجدوا أرزاقهم وبلا مقدمات توكل إلى من لا يرحم من أصحاب المصانع. هم كما ذكرنا لم يكرهوا الآلة لذاتها، لم يكرهوا الجديد من التكنولوجيا، إنما رأوا فيها الشيطان الذى قلب حياتهم رأسًا على عقب. قاوموها لأنها تحطم صناعة لهم عاشوا عليها طويلاً وقد حان أوان زوالها. كانوا يدافعون عن أنفسهم - بالمعنى الحرفى - وعن عائلاتهم وعن تقاليدهم ضد عدو هبط عليهم على حين غرة، ولم يكونوا مستعدين للقائه ولم يُمنحوا الفرصة للتكيف معه.

أما اللاضيون الجدد فهم جماعة مختلفة الأصول تجمعهم حمية العمل ضد التكنولوجيا الحديثة، جماعة تخوض معركة جديدة في حرب قديمة. هم لا يحاربون من أجل حياتهم مثل من سبقوهم، إنما من أجل فكرة ترى أن التكنولوجيا عمرها ما كانت محايدة، وأن فيها نهاية العالم: الكمبيوتر، الإنسترنت، الهندسة الوراثية، البيوتكنولوجيا - كل هذه مبتكرات تؤذن بنهاية العالم! هم يكرهون التكنولوجيا لذاتها، وليس من شبه بينهم وبين القدامى سوى أنهم جميعا يسعون إلى تحطيم التكنولوجيا.

يمضى كارهو الماكينات مرة أخرى فى أوائل التسعينات من قرننا هذا إلى «مثلث اللاضيين» نفسه، فى حملة هائلة، ليوقفوا استخراج الخث من منطقة خارج ليدز، ولا يتوقفون إلا بعد أن يدمروا من الآلات ما قيمته مائة ألف جنيه! يظهر رمز من رموزهم على شاشة التلفزيون وفى يده مطرقة يحطم بها جهاز كمبيوتر أمام المشاهدين - ثم يكتب فيما بعد على الكمبيوتر ما يشاء من مقالات وكتب تهاجم التكنولوجيا. يحرقون حقول ذرة وصويا مهندسة وراثيا بدعوى المحافظة على الطبيعة نقية مثلما تسلمناها، عذراء طاهرة لم تمسسها تكنولوجيا - وينسون أن كل المحاصيل الزراعية قد حُورت وراثيا من أسلاف برية قديمة، إنما بطرق أخرى، بل وأن ابتكار الزراعة ذاتها كان أكبر «اعتداء» على الطبيعة العذراء. يعطلون تفريغ شحنات الصويا المهندسة وراثيا فى الموانئ وشعوبهم فى حاجة إليها. لو أن الكمبيوتر أو الإنترنت أو الهندسة الوراثية قد فعلت بنا

مثلما فعلت الثورة الصناعية باللاضيين الأوائل، لو أنها ظهرت فجأة من حيث لا نحتسب، إذن لفهمنا لهم سببا ووجدنا لهم عذرا. لكـن التكنولوجيا إذا أردنا الحق قد يسرت الكثير من أمور حياتنا.

التكنولوجيا دينًا

هناك من الناحية الأخرى – وفى أمريكا خصوصا – من يثـق فـى التكنولوجيا ثقة عمياء، حتى لتصبح لديهم أشـبه مـا تكـون بـالدين. وإذا ما أصبحت التكنولوجيا دينا، وفي وجه ثقافـة أجـهزة الإعـلام الصاخبة الضارية المبهرة، فإن الأمر يصبح خطرا. فأغلب الأمريكيين – وحضارتهم حضارة داروينية للغاية – يعتقدون أن في وسع الماكينة أن تفعل كل شيء: يمكنها أن تزيـل الأورام السـرطانية، أن تكسـب الحرب، أن تصل إلى القمر وتبلغ المريخ. هم يقولـون إن التكنولوجيـا قد دمرت بالفعل الملايين من الوظائف، لكنها فـى الوقـت نفسـه قـد وفرت ملايـين أكـثر غيرهـا، وأضـافت الكثـير إلى الحضـارة والمعرفـة والحركة ووقت المتعة، كما وفرت للإنسان المعاصر حياة أطـول.

الركود أم التغير؟

التكنولوجيا الجديدة دائما ما تكون مزلزلة، كـذا علمنـا التـاريخ، تحطم الماضى، وتكـدر الحـاضر حتـى تُستوعب، وتجعـل المستقبل لفترةٍ غامضا ملتبسًا، ومن ثم فهى لابـد أن تصطحـب فئـة تقاومـها. وعودة اللاضية أمر متوقع، فلقد تُستغل التكنولوجيا الحديثة فى قهر الإنسان إذا لم تعالج بحرص وإذا تمكن منها «من لا يرحم». قد توفر

غذاء أكثر، ودواء أفضل، واتصالات أوثق وأوسع. لكن علينا دائما أن نسأل مع من يسأل عندما يظهر فتح تكنولوجي جديد: في أى غرض سيُستعمل؟ ما هي المشكلة الملحة التي تطلبت هذا الحل؟ أهو حل طيب لهدف غير طيب؟ من سيكسب منه ومن سيخسر؟ هل سيركز السلطة في أيدى قلة؟ هل سيعلى من شأن الإنسان الفرد؟

ثم علينا أن نسأل أنفسنا أيضا: أركود نود أم تغير؟ هل يصبح عالمنا أبسط وأسهل وأجمل وأكثر أمنا إذا ما ظل ثابتا في مكانه لا يتحرك؟ أيمكننا حقا أن نتوقف عن الحركة؟ يقول بريور والتر: «إننا لا تستطيع أن نبقى ثابتين في مواقعنا. لسنا صخورًا. الحداثة هي التقدم، الهجرة، الحركة. الحداثة صفة من صفات الحي. هي ما تقوم به الكائنات الحية. إننا نتوق ونرغب. حتى لو كانت رغبتنا هي السكون. فهي رغبة. حتى إذا مضينا بأسرع مما يجب. لا يمكننا الانتظار. فماذا ننتظر؟».

(٨)
أغذية فرانكنشتاين ؟

يثير التقدم العلمى طول عمره مشاكل جديدة بديلاً عن المشاكل القديمة التى يقوم بحلها، وتقوم ضده عادة، وضد ما يتولد عنه من تكنولوجيات جديدة جبهاتٌ تعارضه وتحاول تشويه صورتة، وتطلب العودة إلى القديم المريح الذى تعودنا عليه، والذى كان هو الآخر يوما ما جديدًا وكريها! تقوم جماعات المعارضة هذه بتضخيم مثالب الجديد، فتبرز عيوبه وتهول منها وتضيف إليها وتلح عليها فى شتى وسائل الإعلام، وتتجاهل فى الوقت نفسه فوائده وكل ما قد يقدمه من خير للمجتمع، حتى يخافه الناس ويتوجسون منه الشر فيعرضون عنه. والغريب أن العلماء أنفسهم هم أول من يكتشف المثالب إنْ وجدت، وهم أول من يتحدث عنها، وهم أول من يبادرون بالعمل على علاجها وتلافيها - كذا الطريق السوى للعلم.

ولقد أثارت التكنولوجيا الحديثة للهندسة الوراثية، وتثير، ضجة فى أيامنا هذه ملأت الأسماع. توسل «اللاضيون» الجدد بكل ما يحرك عواطف الناس ويخيفهم ويمس معتقداتهم، حتى أطلقوا على الأطعمة المحورة وراثيا اسم أغذية فرانكنشتاين! ستسبب هذه الأغذية السرطانات وتنشرها - خذوا بالكم - ستسبب الحساسية للكثيرين منكم وستقلل مقاومة الجسم وتضعف مناعته. يقولون هذا ولا نسمع الآن منهم أنهم

يعارضون استخدام الإنسولين البشرى الذى تنتجه بكتريا محورة بإضافة جين بشرى إلى مادتها الوراثية ينتج الأنسولين، ينسون هذا الأمر تماما، رغم أنه بالطبع من «أدوية فرانكنشتاين»! وينسون أمر حيوانات المزرعة المحورة وراثيا بجينات بشرية لتُنتج فى ألبانها عقاقير للبشر. يقولون هذا وينسون أخوتنا من البشر يقتلهم الجوع إذ يتزايد تعداد سكان الأرض وتتصحر الأراضي ويقل الماء العذب! ما هى القصة؟

بداية القصة

يزداد تعدادنا نحن البشر، سيصل عددنا قريبا جدا إلى ستة بلايين نسمة. مساحة الأرض الزراعية كما هى، إن لم تكن تتآكل بالتصحر. كيف يمكن أن نوفر الطعام لكل هذا الأفواه. ضاقت، واستحكمت حلقاتها. عندئذ يلهم اللهُ العلماء من عباده بأفكار جديدة تفتح سبيلا لاستغلال ما وفره سبحانه لهم من موارد.

بدأت القصة فى عام ١٩٥٣ عندما نشر واطسون وكريك بحثا من صفحة واحدة وصفا فيه التركيب الجزيئى لمادة الوراثة (الدنا). حوّل هذا البحث علم الوراثة تماما، وقلبه رأسًا على عقب، ونقله إلى طريق غريب واسع لم يطأه من قبل بشر. اتضح أن المادة الوراثية لكل الكائنات الحية، من البكتريا حتى الإنسان، مؤلفة من نفس المكونات. وكان من الطبيعى والأمر كذلك أن يتساءل العلماء: إذا كان الله قد خلق الجهاز الوراثى لكل الأحياء من نفس المادة، أفلا يمكن أن ننقل جزءًا من المادة الوراثية من كائن إلى كائن آخر؟ هل من الممكن أن نجرى جراحة وراثية نطعم بها

المادة الوراثية لكائن ببعض من جينات كائن آخر؟ نعنى، هل من الممكن أن نجرى «الهندسة الوراثية»؟

وعلى عام ١٩٧٣ ، بعد عشرين عامًا من نشر بحث واطسون وكريك، نجح العلماء فعلاً فى إجراء الهندسة الوراثية. نجحوا فى إتمام تطعيمات جينية بين أنواع مختلفة من البكتريا، وبين البكتريا والفيروسات، وبين البكتريا وضفدع زينوبس. وبدأت ثورة الهندسة الوراثية.

سنين عشرة تمر. وفى عام ١٩٨٣ نجح إيلاج أول جين غريب فى نبات. كان النبات هو نبات الطباق. ثم أخذ عدد النباتات المهندسة وراثيا يتزايد حتى ليصل فى عام ١٩٩٥ إلى أكثر من ستين نوعًا، كان أهمها: شلجم الزيت والذرة وبنجر السكر والبطاطس والطماطم وفول الصويا والقطن. انتشرت التقنية إذن وبدأ استخدامها فى الكثير من بلاد العالم ليصل عدد الدول التى تجرى التجارب الحقلية على المحاصيل عبر الجينية (أى المهندسة وراثيا) إلى أكثر من ثلاثين دولة أهمها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وكندا وهولندا وألمانيا واستراليا. وتنوعت الصفات التى يعمل العلماء على نقل جيناتها من شتى المصادر الحية إلى نباتات المحاصيل: تنوعت من مقاومة لمبيدات الأعشاب، إلى زيادة فترة تخزين الثمار، إلى تحسين الصفات التصنيعية للثمار وزيادة قيمتها الغذائية، إلى مقاومة الفيروسات والحشرات والفطريات والبكتريا. ولقد حظيت صفة مقاومة مبيدات الأعشاب بالذات بأكبر قدر من الاهتمام لأن الحشائش تسبب خسائر تتراوح قيمتها ما بين ١٠ و ٢٠٪ من قيمة المحصول.

وعلى عام ١٩٩٥ كانت الوكالة الأمريكية لحماية البيئة وقد وافقت لأول مرة على نشر أول محصول تجارى مهندس وراثيا: بطاطس تقاوم خنفساء كلورادو. ثم بدأت المساحات التى تزرع بالمحاصيل عبر الجينية تتزايد. فى عام ١٩٩٦ زرعت الولايات المتحدة نحو ثلاثة ملايين فدان بمحاصيل مهندسة وراثيا، وارتفعت المساحة عام ١٩٩٧ لتصل إلى ما يقرب من عشرة ملايين فدان، منها أكثر من نصف مليون فدان من ذرة عبر جينية. فى ذلك العام كان ٢٥٪ من محصول القطن و ١٥٪ من محصول فول الصويا و ٨٪ من محصول الذرة بالولايات المتحدة ناتجا عن بذور محورة وراثيا. ولقد قدر أن يصل ثمن ما يباع من البذور المهندسة وراثيا على عام ٢٠٠٠ إلى ما لايقل عن ستة آلاف مليون دولار.

أصبحت النباتات المحورة وراثيا معنا. ستتزايد نسبة ما يصل إلى موائدنا منها. هل سنتعود عليها بالتدريج حتى ننساها؟ ثم إنها تختلط الآن بمنتجات نباتية أخرى غير محورة، وذلك أثناء النقل والتسويق والتصنيع. فول الصويا مثلا يدخل نحو ٦٠٪ من الأغذية المصنعة. هل تدخل المنتجات المحورة إلى غذائنا دون أن ندرى فى صحبة منتجات نباتية أخرى «بريئة»؟

لم يظهر حتى الآن نبات واحد مهندس وراثيا يؤذى الإنسان بالشكل الذى يروج له اللاضيون الجدد. ما هى المثالب التى وجدها هؤلاء إذن ليضخموها ويخيفوا الناس منها؟

الجينات الواسمات

زراعة الأنسجة تقنية بسيطة أتقنها العلماء الآن، تُنَمَّى فيها خلايا النبات فى مستنبت غذائى. يمكن للمهندس الوراثى أن يولج ما يود من

جينات غريبة في هذه الخلايا وهي في المستنبت، لتُنَمَّى بعد ذلك إلى نباتات كاملة تحمل الجين أو الجينات الغريبة التي يرغب المهندس الوراثي أن يحور بها نباتاته. لكن نسبة الخلايا التي تستوعب الجينات الغريبة نسبة منخفضة للغاية، كما أن النسبة منها التي تعمل بها هذه الجينات وتفصح عن نفسها نسبة هي الأخرى محدودة جدا.

كيف يستطيع المربي إذن أن يتعرف على هذا العدد القليل جدا من الخلايا التي اقتنصت الجين الغريب المرغوب؟ كان من الضروري أن يضيف المربي بجانب هذا الجين المرغوب جينا آخر واسمًا، يمكن به أن يميز الخلايا التي استوعبت الجين الذي يهمه أصلاً. استُعملت إذن جينات واسمة تضفي على الخلية مقاومة بعض المضادات الحيوية كالكانا مايسين والتترامايسين والبنسلين. فبعد أن تُعَرَّض الخلايا للجين المطلوب نقله مرتبطًا بجين مقاومة المضاد، تُنقل إلى بيئة غذائية تحتوي على هذا المضاد نفسه، فتموت كل الخلايا التي لم تستوعب الجين ويبقى منها فقط ما استوعبه. هنا يقوم المربي بتنمية هذه الخلايا الباقية إلى نباتات كاملة مهندسة وراثيا تحمل الجينين كليهما، ويكاثر منها.

يعمل الجهاز الهضمي للإنسان والحيوان كحاجز طبيعي للدنا، فحموضة أمعاء الإنسان والحيوان تحلل معظم الدنا. لكن تبقى منه نسبة غاية في الضآلة بالأمعاء والدم، ولقد تنتقل إذن إلى بكتريا الأمعاء، فيعيش من هذه البكتريا ما يقاوم المضاد الحيوي، ليسود في الأمعاء. من شأن هذا أن يقلل من فعالية المضادات الحيوية عند علاج الإنسان أو الحيوان بها. تقل هذه الخطورة كثيرًا مع المادة النباتية المطبوخة، لكن الحيوانات كما نعلم تأكل الفول مثلا دون طهي. لكن، لنا هنا أن نتذكر

أن حيوانات المزرعة ومنذ نحو خمسين عامًا تتعاطى فى علائقها مضادات حيوية مثل البنسلين والتتراسيكلين، وأن استخدام مثل هذه المضادات فى غذاء الحيوان قد تزايد كثيرًا منذ منتصف الثمانينات، نعنى أن حيوانات المزرعة قد طورت بالفعل بكتريا مقاومة للعديد من المضادات الحيوية. ولنا بالطبع أن نتوقع مثل هذا فى المستشفيات، فالقرائن تشير بوضوح إلى أن الكثير من أنواع البكتريا قد طور مثل هذه المقاومة.

غير أن حل هذه المشكلة من جذورها يمكن أن يتم ببساطة بأن يستخدم العلماء واسمات أخرى غير هذه، مثلاً واسمات لمقاومة مبيد أو آخر من مبيدات الأعشاب تكشف لنا عن الخلايا المهندسة وراثيا، بديلا عن واسمات مقاومة المضادات الحيوية، أو واسمات تنتج ما يسبب لونا فى وجود مواد كيماوية معينة تضاف إلى المستنبت الذى تنقل إليه الخلايا بعد تعريضها للجينات الغريبة.

الحساسية

فول الصويا ينقصه واحد من الأحماض الأمينية العشرة الضرورية لغذاء الإنسان، هو المثيونين. (وعلى الذكر، ينقص الفول البلدى حمضان ضروريان هما المثيونين والسستين). وإضافة الجين المسئول عن هذا الحمض بالهندسة الوراثية إلى الفول سيرفع بالتأكيد من قيمته الغذائية. قام الباحثون بالفعل بنقل هذا الجين من المادة الوراثية لجوز البرازيل إلى المادة الوراثية لفول الصويا، فأصبح الفول غنيا بالمثيونين. لكن، انتقل مع الجين من الجوز جين آخر ينتج مواد تثير نفس الحساسية التى يسببها الجوز للبعض، معنى أن هذا

الفول المحور وراثيا قد تسبب فى استجابات أليرجية عند من لديهم أصلا حساسية لجوز البرازيل.

هناك نسبة من الناس تتراوح ما بين ١ و ٢٪ لديهم حساسية طبيعية لهذا النوع أو آخر من الغذاء، لأطعمة كاللبن والبيض والسمك والجوز وفول الصويا والأرز والمشمش والفراولة. تنتج هذه الحساسية عن وجود بروتينات خاصة بهذه الأطعمة تقدح زناد استجابات أليرجية تظهر فى صورة ربو أو إكزيما أو حمى القش. ولقد تؤدى أيضا حبوب اللقاح التى يجمعها النحل من النباتات عبر الجينية إلى مشاكل حساسية، ذلك أن بروتينات حبوب اللقاح عبر الجينية قد تبقى فى العسل لبضعة أسابيع، ومنها ما قد يسبب الحساسية لدى البعض. وبالنظر إلى ما نتوقعه من تزايد أعداد النباتات المحورة وراثيا فى الريف، فقد أصبح من الضرورى أن يؤخذ هذا الأمر بما يستحقه من جدية. ولقد بدأ العلماء فى اتخاذ الخطوة الحاسمة لمواجهة هذه المشكلة، وذلك بتحديد تركيب الجينات التى تشفر للبروتينات المسببة للحساسية، حتى يمكن تجنبها عند نقل الجينات من النباتات المعروف أنها تسبب الحساسية للبعض، بل إنهم يحاولون الآن حذف هذه الجينات بالهندسة الوراثية من ذات النباتات التى تثير الحساسية، فلقد أزيل من الأرز تجريبيا جين لبروتين يسبب الحساسية.

الأثر على البيئة

ربما كانت أهم الصفات التي يعمل عليها الوراثيون الآن وينقلونها إلى النباتات الاقتصادية عند التحوير الوراثى هى صفة مقاومة مبيدات

الأعشاب، حتى يمكن للمزارع أن يرش حقول المحاصيل المهندسة لهذه الصفة، فتموت الحشائش ولا يتأثر المحصول. وهناك تخوف من أن تتهاجن النباتات المحورة وراثيا مع أقاربها من الحشائش البرية فتنتقل إليها صفة مقاومة المبيد. الدخن والشوفان مثلا يتهاجنان مع الشوفان البرى. ولقد تبقى بالحقل بعد حصاد المحصول بقايا من المبيد تؤثر فيما يزرع بعده من محاصيل، ولقد يتبقى أيضا بعد الحصاد نباتات محورة وراثيا لتظهر كحشائش مقاومة فيما يعقبها من محاصيل، كما يحدث مع الشلجم المهندس وراثيا إذا تبقّى فى حقول القمح بعده، ليقاوم كل المبيدات العشبية التى تستخدم على القمح. ثم إن الأرجح أن يتسبب إنتاج المحاصيل المحورة لمقاومة مبيدات الأعشاب فى زيادة قدر ما سينثر من هذه المبيدات فى البيئة، الأمر الذى قد يؤدى إلى أن تطور الحشائش مقاومة ضدها، أو إلى انقراض بعض الأنواع النباتية البرية، وإلى زيادة أعداد من يتسممون بالمبيدات فى الريف.

تتحلل معظم مبيدات الأعشاب فى التربة، وجينات مقاومتها ترفع بالفعل من غلة المحاصيل المُهَنْدَسَة بها، ولا تختلف المحاصيل المهندسة من الناحية الغذائية عن غير المهندسة. أما تطوير الحشائش لصفة مقاومة المبيدات فهو لا يختلف عما نتوقعه من استخدام المبيدات الحشرية، أو عند تطعيم النباتات وراثيا بجينات لقتل الحشرات، إذ تقوم الحشرات بتطوير مقاومتها للمبيدات، حتى أن تصل إلى وضع تسمم فيه المبيدات البيئة ولا تسمم الحشرات. ولقد بدأت مثل هذه البوادر تظهر حتى مع القطن الذى هُندس لمقاومة الحشرات بإضافة جينات مأخوذة

من بكتيرة تحيا بالتربة. ثم إن الكثير من جينات مقاومة مبيدات الأعشاب توجد طبيعيا فى البيئة، فى بعض البكتريا وفى بعض نباتات المحاصيل مثل البرسيم الحجازى.

الجينات الحساسة دينيا

لو أنّا هندسنا نباتات تحمل جينات من الأبقار، فهل يقبل الهندوس أن يأكلوها؟ لو أولجت فى النباتات جينات مأخوذة من الخنزير، فهل يوافق المسلمون واليهود على أكلها؟ يقول بعض علماء المسلمين إن الجينات تحمل معها هويتها، فالجين من الخنزير يظل جين خنزير أينما حل، بينما يرى بعض اليهود أن الجينات تأخذ طبيعة الكائن الذى تنقل إليه، فالجين من الخنزير يصبح جينا نباتيا إذا أولج فى المادة الوراثية للنبات. هذا أمر يجب أن يترك لرجال الدين ليقرروا فيه ما يرونه، وفى الوقت نفسه ليس ثمة سبب حقيقى لاستخدام جينات هذين الحيوانين فى هندسة النباتات وراثيا. ثم هناك مشكلة أخرى مع النباتيين الذين لا يتعاطون الأغذية الحيوانية. هل النبات المطعم بجين حيوانى يعتبر من الأغذية الحيوانية؟ مشكلة عليهم بالطبع أن يحلوها.

إمكانات توفرها الهندسة الوراثية

لكن الإمكانات المذهلة التى تقدمها الهندسة الوراثية للنباتات تفوق كثيرا كل ما يوجه إليها من مثالب. فعلى سبيل المثال، تقدر نسبة ما يفسد من الفواكه والخضروات بنحو ٥٠٪ من المحصول، ولقد أنتجت إحدى الشركات الأمريكية طماطم اسمها فليفر سيفر، لا تختلف عن

الطماطم المألوفة من الناحية الغذائية، لكنها يمكن أن تبقى معروضة على الرف بضعة أسابيع دون أن تفسد، وكل ما يعيب هذه الطماطم هو أنها تحمل جينات تشفر لمقاومة المضادين الحيويين: الكانامسين والنيومايسين. وتبذل الآن جهود واسعة لنقل الجين المسئول عن هذه الصفة إلى الكثير من الفواكه والخضروات.

ولقد أمكن بالهندسة الوراثية تغيير تركيب درنات البطاطس بجين منقول من بكتريا كولاى يرفع كمية النشا بنسبة تصل إلى ٢٠٪. كما هُندست محاصيل مرتفعة الحلاوة باستخدام جين التوماتين وجين مونيللين، ولهاتين المادتين حلاوة تبلغ بضعة آلاف حلاوة السكر. ويجرى العمل على إضافة حمضى اللايسين والتربتوفين الأمينيين إلى حبوب الذرة، وحمض السستين والمثيونين في بعض البقوليات. ولقد أمكن تطوير أرز عبر جيني، في بذوره إنزيم لعلاج مرض التليف الكيسي، وموز عبر جيني تحتوى ثماره على فاكسين الالتهاب الكبدى ب: وكما يقولون، تكفى زراعة ٢٤ فدانا من هذا الموز لتطعيم كل اطفال المكسيك. ويجرى الآن العمل في مشروع الجين الأزرق (بلو جين) من أجل أسواق البلوجينز، بل لقد تمكنت شركة مونسانتو بالفعل من تصنيع قماش أزرق من هذا القطن لا يحتاج إلى صبغة، ولونه ثابت.

وبعد

النباتات المهندسة وراثيا ستثرى مائدتنا، سترفع المحصول وتقلل الفاقد، سترفع القيمة الغذائية للنباتات، ستقاوم الحرارة والملوحة فى التربة وفى ماء الرى، ستسهم فى توفير الدواء. هى ضرورة فى زمان

تزايدت فيه الأفواه تطلب الطعام. كيف تكون – كما يقول اللاضيون الجدد – أغذية فرانكنشتاين؟

لكن هناك وجهة أخرى. فالمنتِج الحقيقى لكل هذه النباتات المحورة وراثيا شركاتٌ عملاقة متعددة الجنسية. والهدف الأول لمثل هذه الشركات هو الربح. تأخذ هذه الشركات الأصول النباتية من دول العالم الثالث، الموطن الأصلى لنحو ٩٥٪ من نباتات المحاصيل، فلقد قام فلاحو هذه البلاد عبر آلاف السنين باختيار هذه النباتات وتحسينها مع الزمن حتى أصبحت «اقتصادية». تسطو الشركات على هذه النباتات وتأخذها جاهزة بما تحمله من عشرات الآلاف من الجينات، وتضيف إليها جينًا أو بضعة جينات، ثم تحصل على براءة فيصبح ملكية خاصة لها، ثم تفرض شروطها على كل من يود زراعته حتى من أصحابه الأصليين الذين بالطبع لم يسجلوا براءةً لنباتاتهم البلدية! سأنهى هذا الفصل بذكر الشروط التى تفرضها إحدى الشركات على من يود زراعة فول الصويا الذى أنتجته وسجلت براءته، وذلك كما جاءت بكتاب «طعامنا المهندس وراثيا» لمؤلفه ستيفن نوتنجهام:

- يدفع المزارع رسم تكنولوجيا قدره ٥٠ دولارًا عن كل شيكاره بذور تزن ٥٠ رطلا.
- للشركة الحق فى تفقُّد الزراعة لمدة ٣ سنوات.
- على المزارع أن يستخدم مبيد الشركة للأعشاب، ولا غيره.
- على المزارع أن يتنازل عن حق الاحتفاظ بالبذور الناتجة لديه، أو إعادة زراعتها أو بيعها لغير الشركة.

● إذا أخل المزارع بالإتفاق فعليــه «أن يدفـع للشـركة تعويضـا يعـادل مائة ضعف الرسوم السارية آنئذ لجين مبيد الأعشاب مضروبـا فـى عدد وحدات البذور، بالإضافة إلى اتعاب المحاماة».

يخاطر المزارع بذلك بفقد مزرعته!

.. إلا إذا كانت أغذية فرانكنشتاين تعنى أغذية شركة فرانكنشتاين!!

(٩)
رحلة إلى الماضى

عندما نشر تشارلس داروين كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩ لم يكن قد جَمّع أفكاره حول تطور الإنسان. لم يكتب عن أصل الإنسان في هذا الكتاب إلا جملة واحدة فقط جاءت في صفحة ٦٦٨ (والكتاب من ٦٧٠ صفحة) قال فيها إن نظرية التطور «ستلقى ضوءًا كثيرا على أصل الإنسان وتاريخه».. ولقد أضاف كلمة «كثيرا» في الطبعة الثانية. لكنه عالج الأمر بصراحة في كتابه «أصل الإنسان» الذى نشره عام ١٨٧١. كتب في صفحة ٢٢٥ من هذا الكتاب الأخير يقول: «يبدو أن العالم.. كان يستعد من زمان طويل لقدوم الإنسان. إن هذا بمعنى ما أمر صحيح تماما، لأن الإنسان يدين بظهوره إلى خط طويل من الأسلاف. لو أن حلقة واحدة من السلسلة لم تتحقق، لما أصبح الإنسان مثلما هو الآن». لم تكن قد كشفت أحفورة واحدة من أسلاف البشر تعضد نظريته، وأبدًا لم يذكر شيئا عن «الحلقة المفقودة».

الحلقة المفقودة

كانت فكرة الحلقة المفقودة موجودة – إن يكن في غير وضوح – حتى قبل «أصل الأنواع»، وكانت تعنى كائنا انتقاليا: نصف قرد ونصف بشر.

كتب ريتشارد أوين عام ١٨٥٥ – قبل ظهور كتاب داروين – عن الفروق بين القردة العليا والإنسان، وأشار إلى «الحلقة الأخيرة في سلسلة التغيرات بينهما» – الحلقة التي لم يتمكن من العثور عليها. وكان هذا تنويعا على فكرة السلسلة العظيمة للكائنات، التي سادت في القرون الوسطى والتي تعود بجذورها إلى أرسطو: في هذه السلسلة ترتبط أدنى الحيوانات بأعلاها، وأعلاها هو الإنسان الذي يرتبط بالملائكة، فرؤساء الملائكة، فالرب. لم تكن هذه السلسلة تعني التطور، إنما كانت تمثل وضعًا استاتيكيا مستقرًا، ولا تمثل تغيرًا أو تحولاً.

هُذّب هذا المفهوم فأصبح يعني هومو إركتس بالذات، وذلك بسبب رجلين من كبار العلماء هما إيرنست هيكيل البيولوجي الألماني المبرز، ويوجين دوبوا الطبيب الهولندي.

إيرنست هيكيل

ففي عام ١٨٦٨ اقترح هيكيل – على أساس نظري بحت دون شواهد – وجود نوع منقرض من البشر يمثل الحلقة المفقودة – نصف قرد ونصف بشر – وأطلق عليه اسم بيثيكانثروبص ألالوس، وتعني الإنسان القردي الأعجم، فقد كان يتوقع أنه يفتقر إلى أهم ما يميز البشر – صفة القدرة على الكلام. لكن هيكيل اعتقد أيضا – على خطأ – أن قردة آسيا (الأورانج يوتان، والجيبون بالذات) هي الأقرب إلى الإنسان من قردة أفريقيا. توقع أن يكون هذا الكائن بدائيا، جسمه مكسو بالشعر، له جمجمة طويلة وأسنان بارزة، ويمشي مشية نصف قائمة. كان هيكيل

موهوبا فى الحديث وفى الكتابة، وكان له ولع بتوليد نظريات فخمة، حققت له نجاحا جماهيريا ساحقا - وبذا ذاعت فكرته على أوسع نطاق، دون أن تكون لها أية شواهد.

دوبوا وإنسان جاوه

أعجب دوبوا كثيرا بأعمال هيكيل، وقرر أن يكرس حياته للبحث عن هذه الحلقة المفقودة، فشد رحاله إلى جاوه، عثر فى أغطسس ١٨٩١ على ضرس، ظن فى البداية أنه يخص قردًا منقرضًا، لكنه عثر بعد شهرين على جمجمة هومينيدية لم يسبق لأحد أن عثر على مثيل لها. كان حجم المخ الذى ملأها يومًا أكبر من مخ القردة العليا، وأصغر من مخ الإنسان - فاعتقد أنه قد وقع على الحلقة المفقودة. وفى أغطسس ١٨٩٢ عثر على عظمة فخذ أيسر، كانت تشبة كثيرا نظيراتها البشرية حجما وشكلا، اللهم من تضخم عظمى فى طرفها الأعلى ناجم عن إصابة ما التأمت. لكن العظمة كانت تبين بشكل مذهل أنها لكائن يمشى عل قدمين. لم يعد لديه شك فى أن الضرس والجمجمة وعظمة الفخذ جميعا تخص كائنا واحدًا. ولما لم يكن فى مقدوره أن يعرف إن كانت الجمجمة تحمل منطقة بروكا - ليعرف إن كان هذا الكائن أعجما أم لا - فقد رأى أن أفضل اسم يطلقه عليه هو بيثيكانثروبص إركتص، أى الإنسان القردى منتصب القامة. ولقد ظل هذا الاسم ملازمًا لهذا الكائن حتى اقتُرح تغييره فى منتصف أربعينات هذا القرن إلى اسم هومو إركتص، ليصبح هو الاسم الرسمى فقط فى عام ١٩٦٠.

رقم دوبوا السحرى

قام دوبوا بدراسة لم يسبق لأحد قبله أن حاولها: درس العلاقة بين حجم المخ وحجم الجسم فى الأنواع المختلفة. قال إن هذه النسبة تحدد وضع النوع على سلم التطور، كان الأنثروبولوجيون يقدرون حجم المخ لكل ما يقع تحت أيديهم من جماجم، لكن أحدًا منهم لم يحاول أن يستخدم ذلك فى رسم تاريخ التطور.وكان دوبوا يبحث عن رقم سحرى يمكن به أن يتنبأ بموقع الأنواع المنقرضة أو المجهولة فى سجل تتابع التطور. استقر على النسبة بين حجم المخ وحجم الجسم، واعتبرها تساوى واحدًا (١) فى الإنسان. كل نوع عدا الإنسان سيتخذ معاملاً أقل من هذا الواحد، فهى جميعا تقع أسفل الإنسان على سلم التطور. وجد أن هذا المعامل يساوى ١/ ٤ فى القردة العليا التى تسبق الإنسان مباشرة على هذا السلم، تأتى بعدها عائلة الكلاب وعائلة القطط وأقاربها والعائلة البقرية وعائلة الغزلان، وكان معاملها ١/ ٨، وكان المعامل بالنسبة للأرانب هو ١/ ١٦، وبالنسبة للفئران ١/ ٣٢، أما الخفافيش والخلد والثدييات البالغة الصغر فكان معاملها ١/ ٦٤. متوالية كما نرى منتظمة، كل معامل فيها يساوى نصف المعامل الذى يسبقه على سلم التطور: إلا فجوة واحدة صريحة تقع ما بين الإنسان والقردة العليا، فجوة يلزم أن يشغلها نوع معامله ١/ ٢ – الحلقة المفقودة – الرقم الذى يحققه الإنسان القردى منتصب القامة الذى عثر عليه!

ثم بدأ دوبوا يسمع عن تشكك العلماء فى فكرته فى أوائل ١٨٩٣. رأى بعض العلماء أنهم لا يثقون فى أن ما جمعه من عظام قد كانت لكائن واحد. وقال رودولف فيرشوف إن أحفورة دوبوا الرائعة ليست سوى قمة

جمجمة جيبون عملاق منقرض، وأكد أنها لا تشكل الحلقة المفقودة. حاول دوبوا أن يقنع العلماء بفكرته، فمضى يلقى المحاضرات في لايدن، وفي بروكسل وباريس ولندن وإدنبره ودبلن وبرلين. لكن محاولاته ضاعت سدى. وعلى نهاية القرن التاسع عشر كان قد نُشِر حول كشف دوبوا ما يقرب من ثمانين كتابًا ومقالاً، كلها تقريبا تعارض فكرته.

بلاك وإنسان بكين

كان العالم العلمي معظمه قد فقد الاهتمام بالحلقة المفقودة، عندما أثارت الفكرة اهتمام دافيد بلاك، الطبيب الكندى الذى كان يدرس تطور الإنسان في مانشستر مع إليوت سميث الاسترالى. كان الاثنان منهمكين في تحليل وتفسير عظام أحفورة جديدة رائعة وجدها هاو يدعى تشارلس دوسون عام ١٩١١، في بيلتداون صاصكس، وتتألف من سِنَّة وفك وجمجمة، أضيفت إليها سنّة أخرى عام ١٩١٣. لم تكن هذه الاحافير سوى خدعة مدبرة دوخت مجتمع علماء الأنثروبولوجيا أربعين عامًا حتى كُشِف سرها عام ١٩٥١. كانت هذه العظام جمجمة بشرية حديثة عمرها بضعة آلاف من السنين، معها فك لأورانج يوتان حُوِّر وصُبِغ بمهارة، يحمل أسنانه الكبيرة بعد أن بُرِدت لتشبه أسنان الإنسان، ثم زُرِعت بين أحافير قديمة لحيوانات مختلفة!

عندما بدأ بلاك في العمل مع إليوت سميث عام ١٩١٤، لم يكن هناك بالطبع من يتصور أن الأمر مجرد خدعة. كانت أحافير بيلتداون تقول إن مخ هذا «الكائن» كبير يقترب من حجم المخ البشرى. فإذا كان مخ إنسان جاوه الذى عثر عليه دوبوا صغيرا هكذا، فهو إذن ليس

السلف المباشر للإنسان. هو لا يصلح أن يكون الحلقة المفقودة. قرر بلاك عندئذ أن يبحث بنفسه عن الحلقة المفقودة، فمضى في عام ١٩١٩ إلى الصين - كان من المعتقد حتى ذلك الوقت أن آسيا هي مسقط رأس البشرية.

في شوكوتيان قرب بايجينج عثر بلاك، مع زميل سويدى، على سِنَّتين حالتهما سيئة، فاعتبرهما دليلا صريحا على أن وسط آسيا هو موطن أصل العائلة البشرية. ثم أنه عثر على ضرس آخر عام ١٩٢٧، فأسرع يعلن عن جنس جديد ونوع جديد: صينانثروبص بكيننسز - إنسان الصين البكينى - ولم يكن يعرف بالطبع أن هذا الإنسان هو أيضا الإنسان القردى منتصب القامة الذى عثر عليه دوبوا. وفى سنة ١٩٢٩ عثر على أحفورة أخرى أثبتت رأيه: قمة جمجمة هومينيدية، بلا وجه، أكثر كمالاً من تلك التى وجدها دوبوا. الآن تأكد أنه قد عثر على الحلقة المفقودة! نشر هذا، وصدقه المجتمع العلمى. ظل بلاك فى معمله بالصين سنين طويلة يعمل طول الليل فلا يعود إلى منزله إلا فى الساعات الأولى من الصباح ثم لا يستيقظ إلا عند الظهر. وفى يوم ١٥ مارس ١٩٣٤ وجده زملاؤه ميتا على مكتبه ولم يكن قد بلغ الخمسين.

ثم فقد فايدينرايخ الحلقة المفقودة

وكان خليفة بلاك فى الصين هو فرانتس فايدينرايخ، عالم التشريح اليهودى الألمانى، خبير الأحافير الهومينيدية. غادر هذا الرجل ألمانيا

عام ١٩٣٤ وعمره ٦١ عامًا، تاركًا كرسيّه فى جامعة فرانكفورت هربا من النازى. حصل على الجنسية الأمريكية ووظيفة للتدريس فى جامعة شيكاغو، فأتيحت له الفرصة للذهاب إلى بكين ليحل محل بلاك - وهناك قام بأهم حفريات عصره. وقع فى أكتوبر ١٩٣٦ على فك شبه بشرى، ثم على قمة جمجمة جديدة هى أفضل ما عُثر عليه فى شوكوتيان - وإن كانت بلا وجه. ثم كان أن غزا اليابانيون الصين واقتربوا من شوكوتيان، وبدأوا يتدخلون فى عمل بلاك ويهتمون بالأحافير، لاسيما أحافير إنسان بكين، وكان بلاك قد نشر الوصف «الرسمى» لهذا الكائن. بدأ الأمريكيون ينزحون من الصين وقرر فايدينرايخ أن يعود هو الآخر فى خريف ١٩٤١ حاملاً معه أكبر قدر من المعلومات - فقد توقع أن يسطو اليابانيون على المتحف الذى يضم القدر الهائل من الأحافير الذى جمعه. قام إذن بتصوير ورسم وقياس كل ما جمعه من أحافير، كما جهز منها قوالب من الجص، وكتب عنها مذكرات ضافية.

طُلِب منه أن يصطحب الأحافير معه إلى أمريكا، ولكنه رفض، فقد توقع أن تُفتش أمتعته، ووجود الأحافير معه سيعرضه لتهمة التهريب والسجن - كان العقد مع السلطات الصينية ينص على أن تترك كل الأحافير فى الصين. طلب هو من السفير الأمريكى أن ينقل الأحافير إلى أمريكا. غلف كل حفرية بالورق، وبطّنها بالقطن والشاش، وأحكم لفّها، وأودعها صناديق صغيرة، وضعت بعناية داخل أقفاص خشبية كبيرة.

حَملت الصناديق بين ما حملت عينات تمثل على الأقل خمسة عشر فردًا من هومو إركتص، كلها موثقة بدقة بالغة. نُقلت الصناديق إلى السفارة الأمريكية فى نوفمبر ١٩٤١. شَحنت السفارة الصناديق فى قطار ليحملها إلى الميناء حيث ترسو السفينة «الرئيس هاريسون». غادر القطار بايجينج فى الخامسة صباح يوم ٥ ديسمبر ١٨٤١ ووصل الشاطئ يوم ٧ ديسمبر. كان المفروض أن تقلع السفينة إلى أمريكا فى اليوم التالى. هجم اليابانيون على بيرل هاربور يوم ٧ ديسمبر. دخلت الولايات المتحدة الحرب. هاجم اليابانيون القطار وقبضوا على البحارة المرافقين للصناديق. ضاعت الصناديق بما تحمل من أحافير – ولا أحد حتى الآن يعرف مصيرها، وإن كان الواضح أن اليابانيين لم يتمكنوا منها. ففى عام ١٩٤٥ بعد إنتهاء الحرب بحث الجيش الأمريكى عنها فى طوكيو، لكنهم لم يعثروا لها على أثر. فُقِدت «الحلقة المفقودة» مرة أخرى!

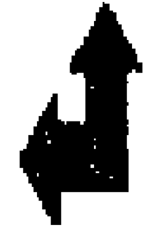
توفى فايدينرايخ عام ١٩٤٨ بعد أن أوضح أن إنسان جاوه لم يكن سوى صورة محلية من إنسان بكين: الأمر الذى يعنى أن تطوير الخصائص المحلية للسلالات قد بدأ منذ القدم. ولقد توقع – لولا ضياع أحافيره – أن يجد فى الأحافير الجديدة ما يؤكد الفروق التشريحية بين السلالات. ثم أنه رأى أن أهم الفروق التطورية التى حولت هومو إركتص إلى الإنسان المعاصر كان هو كبر حجم المخ.

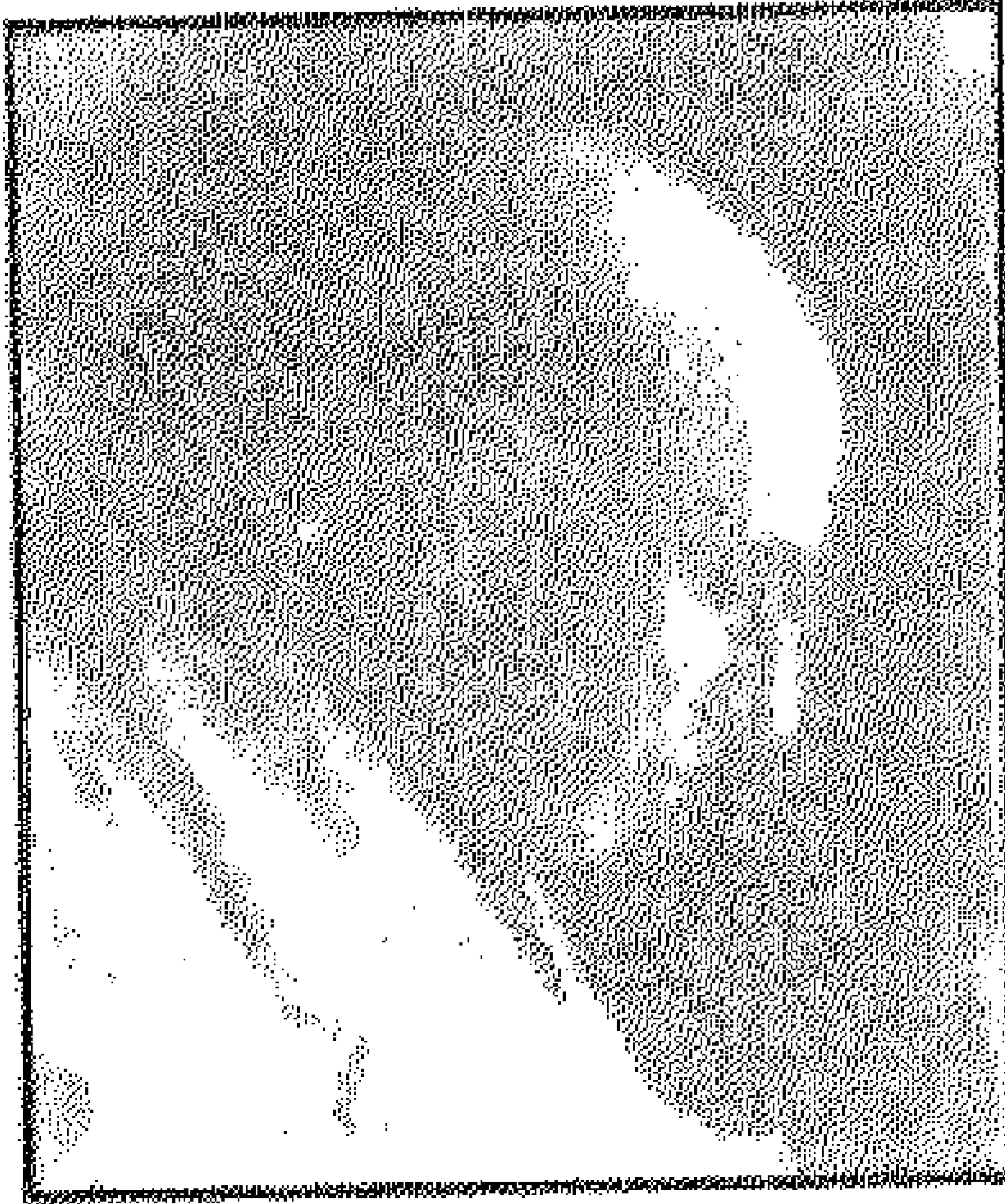
كان فايدينرايخ يعتقد أن عمر إركتص يبلغ نحو نصف مليون عام. وفى أوائل ستينات هذا القرن بدأ استخدام النظائر المشبعة فى تقدير العمر، وقد قالت إن إركتص كان يحيا منذ نحو مليونى عام (فى

أفريقيا)، وأنه قد اختفى من بعض المناطق منذ نحو نصف مليون عام، لكنه استمر يحيا في مناطق أخرى حتى ربع مليون عام مضت.

وجه دوبوا وبلاك النظر إلى أن آسيا هي مسقط رأس البشر، وأصبح هذا أمرًا «يعرفه الجميع» - حتى جاء اثنان آخران من الكبار ليحولا النظر إلى أفريقيا: رايموند دارت ولويس ليكي.

فرانتس فايدينرايخ





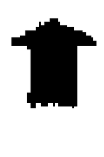




رايموند دارت







جمجمة طفل توانج

روبرت بروم



آلان ووكر





لويس ليكى



رايموند دارت وطفل توانج

لم يبدأ دارت رحلته إلى أفريقيا بهدف البحث عن الحلقة المفقودة. كان طبيبا استراليًا عمل محاضرًا في التشريح بكلية الجامعة في لندن، ثم أرسله أستاذه ليشغل كرسي التشريح بجامعة في جوهانسبيرج بجنوب أفريقيا. وهناك بدأ يجمع الأحافير حتى تمكن من أحفورة لطفل - أطلق عليه اسم طفل توانج - تطلبت منه بضعة أشهر قبل أن يتمكن من تنظيفها، فيجد أمامه واحدة من أجمل جماجم الأحافير الهومينيدية: وجه طفل كاملاً به الفك السفلى ومعه قالب متحفر لمخ يشبه فى تشريحه المخ البشرى. كان الوجه مسطحا والأسنان صغيرة (وهاتان من الصفات التى تميز البشر عن القردة العليا)، لكن الجمجمة كانت تشبة كثيرا جماجم القردة العليا. كان عمر الطفل عند وفاته ٣,٥ - ٥ سنوات. رأى دارت أن هذا الطفل لا ينتسب إلى هومو إركتص، إنما إلى كائن أقدم أطلق عليه اسم الانسان القردى الجنوبى الأفريقى (استرالوبيثيكص أفريكانص). أعلن دارت عن طفل توانج هذا عام ١٩٢٥، لكن الكثيرين من العلماء رفضوا الموافقة على أنه يمثل حلقة مفقودة بين القردة العليا والإنسان. كانت خدعة بيلتداون قد أقنعت الكثيرين بأن المخ الكبير قد تطور مبكرا، عندما كانت الاسنان كبيرة وبدائية والوجه طويلا ناتئا - وطفل توانج له مخ صغير فى حجم مخ القردة العليا وأسنان تشبه نظيراتها فى الانسان المعاصر إلى حد كبير. لا يمكن أن تكون جمجمة بيلتداون وجمجمة طفل توانج سويا من أسلاف البشر المباشرين: إما أن تكون الأسنان هى التى بدأت أولا فى التطور، أو أن يكون المخ هو الذى بدأ.

اتُّهم دارت بأنه رجل واسع الخيال يحتقر المقبول من الأفكار. لكن: كان هناك طبيب اسكتلدنى اسمه روبرت بروم يعمل فى حقل الأحافير. اندفع هذا الرجل ذات يوم إلى معمل دارت، ودون أن يقدم نفسه عَبَر الغرفة ليركع أمام طفل توانج، ويستغرق فى تأملٍ جذلٍ يناجى الطفل ممثل أسلاف البشر!

بروم ومسز بليس

فى عام ١٩٣٤، اعتزل بروم مهنة الطب وعمره ٦٨ عامًا، وعمل بمتحف ترانسفال فى بريتوريا. بعد بعض سنين عثر على زميل له يدعى جون روبنصون فى كهف شتيركفونتاين على جماجم لكائنات بالغة من نوع طفل توانج - كانت أشهرها جمجمة امرأة أسماها مسز بليس. (مازلت أحتفظ بقالب لها من الجص اشتريته من متحف ترانسفال فى يناير ١٩٨٨). كانت هذه الجماجم بالطبع تتبع النوع أفريكانص. كما عثرا أيضا على جمجمة متوَّجه وأسنان ضخمة وفكين كبيرين لكائن قوى البنية أطلق عليه اسم الإنسان القردى الجنوبى الغليظ (أ. روبَصْطَس)، ثم على جمجمة لنوع ثالث لا تشبه سابقتيها: كانت الأسنان فيها أصغر كثيرا من أسنان روبصطس، وكان الفك أقرب إلى فك الإنسان والوجه أكثر تسطيحا، ومعها قطعة من عظمة ذراع شديدة الشبه بنظيرتها البشرية. أطلقا على هذا النوع الأخير اسم «شبيه الإنسان من رأس الرجاء الصالح»، وكان هو بالطبع إركتص، لكنهما لم يدركا ذلك.

في الخمسينات من قرننا هذا اعتُرف أخيرا بأن الإنسان القردى الجنوبى ينتمى إلى النوع إركتص. سعد دارت إذ عرف أنه كان أول من أثبت أن مسقط رأس الحلقة المفقودة هى أفريقيا لا آسيا. كانت جمجمة طفل توانج تسبق جمجمة إنسان بكين التى وجدها بلاك بمئات الآلاف من السنين.

ثم إشارات تشريحية صريحة ظهرت عن تحليل الأحافير التى كشفها بروم وروبنصون: كانت هذه الكائنات تمشى على قدمين. لم تكن صفة القدمانية عند العلماء دليلا مقنعا على البشرانية مقارنة بحجم المخ، لاسيما بعد أن سُمّى الإنسان المعاصر باسم هومو سابينس، أى الإنسان الحكيم.

لويس ليكى والزنج

درس لويس ليكى الأنثروبولوجيا فى جامعة كمبريدج، كما درس لفترة على آرثر كيث - عالم التشريح الكبير فى لندن الذى كان يشك كثيرا فى أهمية طفل توانج، وعنه اعتنق فكرة «المخ أولاً» فى تطور الإنسان. اتجه لويس إلى تنزانيا (تنجانيقا فى ذلك الوقت) يبحث عن الحلقة المفقودة، وهناك أرشده ألمانى يدعى هانس ريك إلى خانق هائل، هو خانق أولدوفاى. عمل لويس مع زوجته مارى فى أولدوفاى من عام ١٩٣١ حتى عام ١٩٥٩، وكانت مارى هى التى عثرت على الأحفورة التى غيرت حياتهما - عثرت على «الصبى الحبيب» أو «الزنج» (الزنج هو الاسم القديم لشرق أفريقيا). تميز صبى الزنج هذا بفكين هائلين

وأسنان ضخمة وكان يشبه كثيرا عينات روبصطس، والأغلب أنه كان من نوع ثان ينتمى إلى الإنسان القردى الجنوبي.

أكد صبى الزنج نفس الرسالة التى نقلها طفل توانج بـأن أفريقيـا هـى مسقط رأس البشرية، وأنها موطن الحلقة المفقودة. كان له مخ كبير - لكن لم تكن هذه هى الصفة الوحيدة التى تطورت، فقـد تغـيرت أيضـا آليـات التحرك(الحوض والرجلان والقدمان) وتغير الوجه والأسنان. لم تكن صفـة «التفكير» وحدها هـى مـا يـهم فـى العصـور الأولى لأسـلافنا، إنمـا أيضـا الحركة والأكل. كان طفل توانج وصبى الزنج أكثر بدائية وشـبـها بـالقردة العليا من هومو إركتص. لم يعد إركتص إذن هو الحلقـة المفقـودة مـا بـين الإنسان والقردة العليا، إنما هو الحلقة ما بين الإنسـان والإنسـان القـردى الجنوبى. وفى عام ١٩٦١ أعلن أن صبى الزنج كان يحيا منذ ١,٨ مليـون سنة. وفى نفس هذا العام عثر لويس علـى قمـة جمجمـة كـانت هـى فـى الحق أول هومو إركتص يعثر عليه فى أفريقيـا، لكنـه للأسـف لم يعـرف هذا، وضاعت منه الحلقة المفقودة.

الإنسان الصَّنَّاع

وفيما بين عامى ١٩٦١ و ١٩٦٣ وقع ليكى وزوجته علـى عظـام فـك، و يد، وبعض من عظام جمجمة. لم يعرف ليكى ماذا يفعل بـهـا، فأرسـل الجمجمة إلى فيليب توبياس (خليفــة دارت) وأرسـل العظـام الأخـرى إلى جون نابير بمستشفى رويـال فـرى. نشـر ثلاثتـهم بحثـا عـام ١٩٦٤ عـن نتيجة فحص العظام قالوا فيه إنها تخص فردًا يافعـا واحـدًا يمثـل نوعًـا جديدا كـان يصنـع أدواتـه بيديـه. كـان مخـه أكـبرقليلا مـن مـخ صبـى

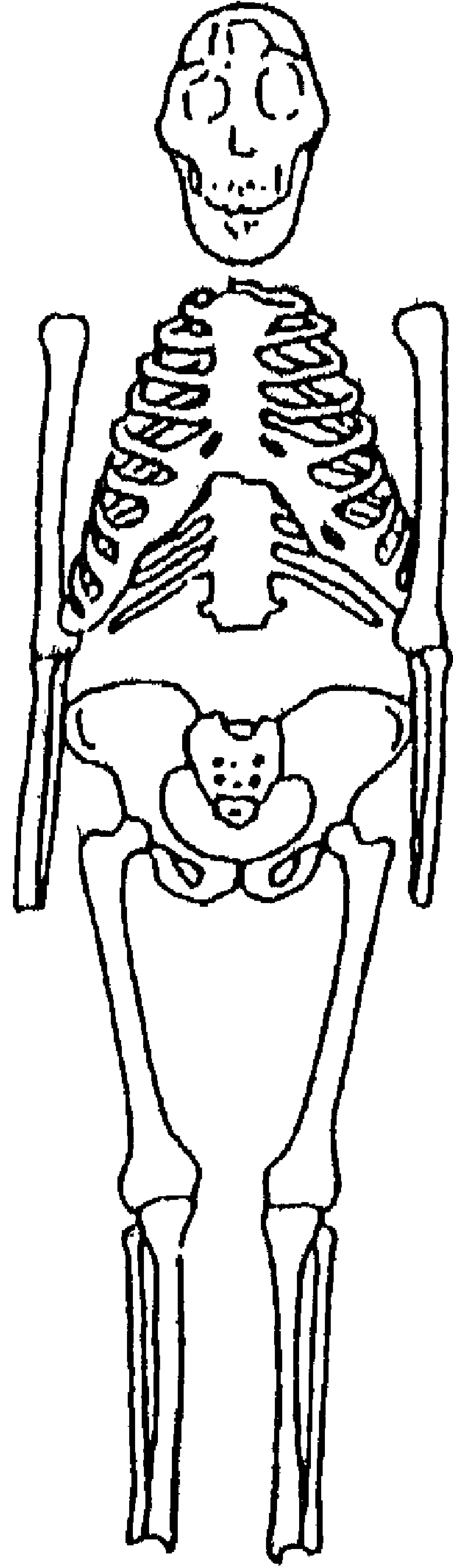
الزنج وأسنانه أقرب إلى أسنان البشر. أطلقوا عليه اسم الإنسان الصّناع، هومو هابيليس، وأصبحت السلسلة : القردة العليا - الإنسان القردى الجنوبى - إركتص - الإنسان. أصبح بين الإنسان وبين القردة العليا حلقتان!

لوسى

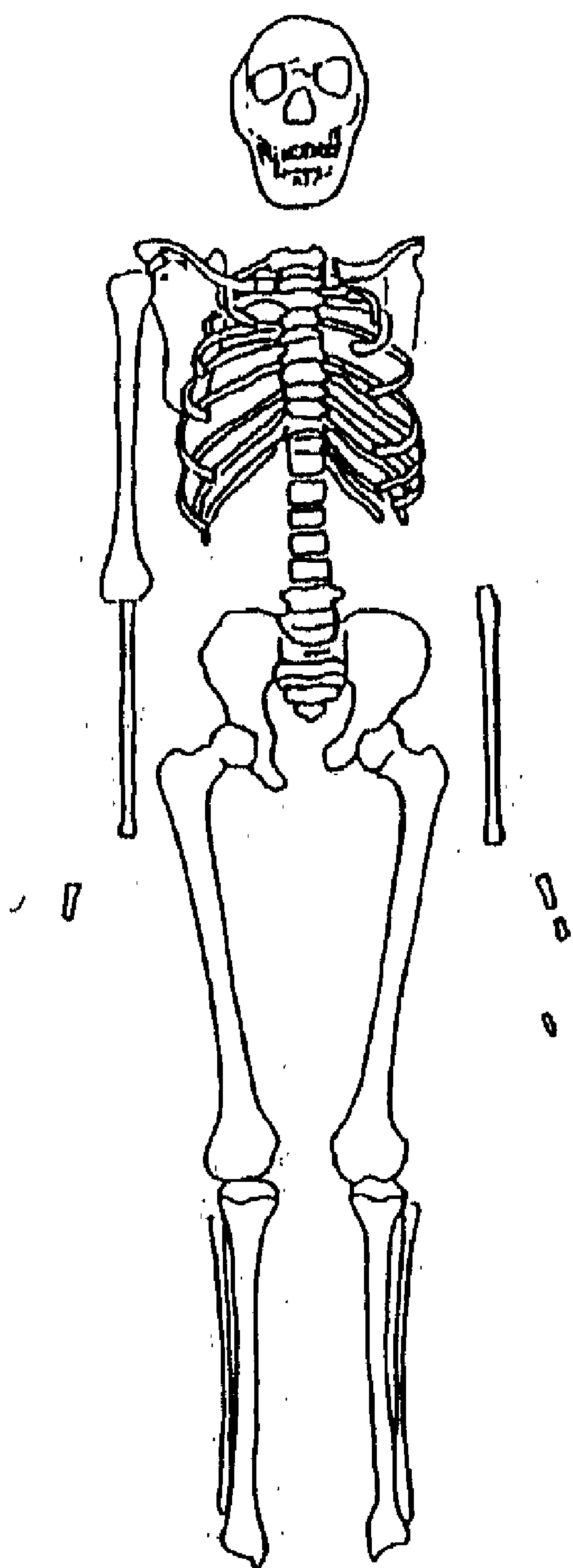
وفى منطقة عفار بأثوبيا عثر دون جوهانسون وموريس تايب عام ١٩٧٤ على الهيكل العظمى، غير الكامل، الشهير باسم لوسى - ولم يكن قد اكتُشف قبل هذا ما يمكن أن يسمى هيكلا عظيما. أطلق عليه العالمان عام ١٩٧٨ اسم قرد عفار الجنوبى. كانت لوسى تحيا منذ ٢,٨ - ٣,٦ مليون عام، وكان جسمها مبنيا للسير على قدمين. كانت أصابعها أطول من أصابعنا وأقصر من أصابع الغوريلا، وكانت عظمتا الفخذين تميلان إلى الداخل عند الركبة، ولا هكذا القردة العليا، وكان لها كرش كبير كالقردة العليا. أعتقد الجميع أن لوسى هى أقدم أشباه البشر، وظل هذا الاعتقاد قائما حتى عام ١٩٩٤ عندما عثر تيم هوايت وزملاؤه على شظايا من عظام نوع أقدم فى أثيوبيا قدر عمرها بنحو ٤.٤ مليون سنة.

ووكر يعثر على الحلقة المفقودة

عندما وصلت العظام التى أرسلها ليكى إلى نابير بمستشفى رويال فرى، كان آلان ووكر هناك يدرس. كان من عادة نابير أن يشرك طلبة الدراسات العليا معه عند فحص ما يصله من عظام جديدة. فُتن ووكر بعمل أستاذه، سحرته الطريقة التى يعتصر بها أقصى قدر من المعلومات من العظام - واستحوذت عليه فكرة الحلقة المفقودة، فاتجه إلى كينيا.



لوسى



صبي ناري أوكوتومي

في ٢٢ أغسطس ١٩٨٤ عثرت بعثة ووكر في منطقة نـاري أوكوتومـي غرب بحيرة توركانا (رودلف سابقا) بشمال كينيا علـى قطعـة فـي حجـم علبة الكبريت من الغلاف العظمي لمخ كائن، هو هومو إركتص. على الفور بدأت الجماعة في البحـث المحمـوم بالمنطقـة، ليعـثروا بحلـول يـوم ٢١ سبتمبر على مجموعة كبيرة من عظام صبي طويل نحيل تحفرت منذ ١,٥ مليون عام. وعلى خريف ١٩٨٨ كـان ووكـر وقـد شـكل الهيكـل العظمـي الكامل – إلا قليلا. وجدوا حتى الضلوع – والمعروف أنها أول ما تطحنـه اللاحمات وتمضغه من شظايا، وأنها لا تتحمل العمليات الطبيعيـة للبلـي قبل أن تتحفر.

كان صبي ناري أوكوتومي مراهقا، له جبهة نامية تقـول إن العمـر لـو امتد لأصبحت جبهـة ضخمة كتلك التي تمـيز إركتـص. كـان الواضـح أن عمر الغلام عند الوفاة يبلغ ١٢ – ١٣ عاما، كان على وشك أن يفقد ناب الفك العلوي، الناب اللبني، وبجانبه كان النـاب المستديم كـاملا تقريبـا على وشك الظهور، لكن الصبي مات قبل هذا. مات الصبي منكفئـا علـى وجهه في بركـة، داسـته أفـراس النـهر، وناشـته الأسمـاك، ليدفـن فـي الوحل. لم يعرف سبب الموت، لكن يبدو أن خراجا تكون في لثتـه كـان كافيا لقتله – ظلت الأسنان حتى القرن السادس عشر مـن بـين الأسـباب المعروفة للوفاة.

عرف أنه هومو إركتص، الحلقة المفقودة، الكائن الشبيه بالإنسان مـن الرقبة حتى أخمص القدمين. جسمه ممتلئ قوى العضـلات، ولا يختلـف عنك وعني إلا في رأسه العجيـب الـذي يحمـل مخـا أصغـر مـن مخنـا، وحاجب عينه البارز. كان فـي طـول إنسـان معـاصر عمـره خمسـة عشـر

عامًا (١٦٠سم) وكان له مخ طفل بشرى عمره عام واحد (حجمه ٨٨٠سم[٣]) -كان لذراعيه وساقيه نفس النسب البشرية، لم تكن ذراعاه فى مثل طول ذراعي لوسي. لم يكن يحمل تفاصيل جسم القردة التي تمكنها من تسلق الأشجار، كان الجسم مهيئا للمشي على قدمين. لم يكن أحد قد عرف صورة الهيكل العظمى لإركتص، للحلقة المفقودة، حتى جاءنا هذا الصبى – لم نكن قبله نعرف إلا الجماجم وشظايا العظام.

حكمة العظام

أتخيل آلان ووكر جالسًا أمام هذا الصبى، أمام ماضيه ماضينا، يحاول أن يستنطقه، كمثل شاعر رومانسي يسترجع أيامه الخوالى فيحياها ثانية قبل أن يكتب قصيدته. ترى ماذا قال الصبى لووكر؟ ماذا أفصحت عنه العظام؟ إنها قصة، لا، بل قصيدة طويلة جميلة، أودعها ووكر فى كتابه الرائع «حكمة العظام» (١٩٩٦).!

(١٠)
عن كتاب (أصل الأنواع)

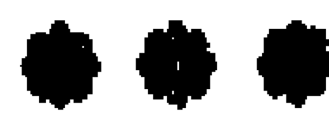
في شروزبيرى ، شروبشاير بإنجلترا ، ولد تشارلز روبرت داروين فـى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ ، نفس العـام الـذى أنجـب مـن العبـاقرة جريجـور مندل ، إبراهام لنكولن ، وليام ايوارت جلادسـتون ، ألفريـد تينيسـون ، إدجار ألان بو ، فليكس مندلسون . كان والده طبيبا مشهورا ، وكان جده هو إراسمـوس دارويـن ، الطبيـب الـذى ذاع صيتـه لإنجازاتـه فـى العلـم والأدب والفلسفة . التحق داروين بالمدرسة فـى شـروزبيرى وعمـره تسـع سنوات ، وظل بها حتـى عمـر السادسـة عشـرة ليتحـول عـام ١٨٢٥ إلى إدنبره ليـدرس الطـب ، لكنـه عـزف عـن هـذه الدراسـة فـالتحق يـدرس اللاهوت بجامعة كمـبريدج عـام ١٨٢٧ ، حيـث مكـث ثـلاث سـنوات . وهناك انهمك يجمع النباتات والحشرات والعينـات الجيولوجيـة . ولعـل أهم ما خرج به من هذه السنوات الثلاث صداقته باثنين يكبرانه من رجال العلم هما هينسلو وآدم سـيدجيك . فـى عـام ١٨٣١ بعـد تخرجـه رشـحه هينسلو للعمل كخبير أحياء في الرحلة التى ستقوم بها باخرة (البيجل) . عارض والده لكن خاله جوشيا ويدجوود تدخل لاقناعـه . ثـم إن روبـرت فيتزروى قائد الباخرة لم يكن يحب منظره ، لاسيما (شكل أنفه) ، لكنـه قبله بعد تدخل هينسلو ، ليقول عنه فيما بعد (فى ١٥ أغسـطس ١٨٣٢) إنه شاب ممتاز ، وهو أفضل من يصلح لهذه المهمة . بدأت رحلة البيجل

من ميناء ديفون يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٣١ ، واستمرت خمس سنوات زارت فيها الكثير من جزر المحيط الأطلنطي والمحيط الهادى وساحلي جنوب أمريكا ، ونيوزيلنده ، واستراليا ، وجمع داروين خلالها كما هائلا من المعلومات . على ظهر البيجل قرأ داروين كتاب (مبادئ الجيولوجيا) لتشارلس ليل ، فوجه انتباهه إلى طبيعة التغير الجيولوجي التدريجي على المدى الطويل ، وتمكنت من ذهنه فكرة عمر الأرض الذى يمتد إلى ملايين السنين .

بعد عودته بوقت قصير ، وفي يوليو ١٨٣٧ بدأ يكتب أول مذكراته (عن تحول الأنواع). وفي أواخر عام ١٨٣٨ قرأ ما كتبه مالتوس بعنوان (مقال عن العشائر) ، ولما كان (مستعدا تماما لتقدير الصراع من أجل البقاء .. فقد استرعى انتباهي فورا أنه تحت هذه الظروف ستنحو النباتات الأفضل إلى البقاء ، بينما تهلك النباتات غير الملائمة ، وتكون النتيجة نشأة أنواع جديدة . هأنذا قد وقعت على نظرية يمكنني أن أعمل بها) . فى السنين التالية أخذ يكتب مذكراته ، ويحضر الاجتماعات العلمية ، ويوسع من دائرة أصدقائه العلميين ، ليصبح سكرتيرا للجمعية الجغرافية ، ويقع فى غرام ابنة خاله إيما ويدجوود ويتزوجها . وفى عام١٨٤٢ ، وبعد متاعب صحية نتجت جزئيا عن إصابته بمرض (شاجاس) ، وهو مرض طفيلى التقطه أثناء رحل البيجل ، انتقل من لندن إلى داون ، بمقاطعة كنت ، حيث استقر للأربعين عاما التالية

لم تكن صحة داروين دائما على ما يرام ، لكنه وطد حياته بحيث يصل إلى أقصى كفاءة ممكنة ، ساعده على ذلك حب زوجته وعطفها وتفانيها فى خدمته ، بجانب حب عائلته وأصدقائه ، فتمكن من إنتاج

علمى هائل كما وفكرا ، إنتاج لم يتمكن من مثيله أحد قبله أو بعده ، بلغ ما يزيد على ثمانية آلاف صفحة مطبوعة . فقد كتب يومياته عن رحلة البيجل فى كتاب من أجمل كتبه (١٨٣٩) ، وحرر النتائج الحيوانية لهذه الرحلة (خمس مجلدات : ١٨٤٠ - ١٨٤٣) ، كما حرر نتائجها الجيولوجية (ثلاثة مجلدات : ١٨٤٢ - ١٨٤٦) . وظل ثمان سنوات يكتب عن حيوان البارنقيل (حيوان بحرى قشرى يتعلق بالصخور) فأنتج أربعة مجلدات (ظهرت فى الفترة ما بين ١٨٥١ - ١٨٥٤) . ثم كرس نفسه بدءا من عام ١٨٥٤ للدارسات التطورية فأنتج عشرة كتب أهمها (أصل الأنواع) (١٨٥٩) و(أصل الإنسان) (١٨٧١) . توفى داروين فى ١٩أبريل ١٨٨٢ ، ودفن فى ٢٤ أبريل فى كنيسة ويستمنستر بجوار قبر السير إسحق نيوتن . وبعد وفاته نشر ابنه كتابا عنه عنوانه (حياة داروين وخطاباته) (١٨٨٧) ألقى فيه الضوء على تطور الأفكار فى ذهنه .



ظهر كتاب (أصل الأنواع) لداروين فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٥٩ . واسم الكتاب بالكامل هو (نشأة الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعى ، أو حفظ السلالات المحبوّة فى الصراع من أجل البقاء) . وهذا الكتاب لا يزال حتى الآن هو الأسهل قراءة بين كل الأعمال العلمية الضخمة التى ظهرت فى التاريخ . فهو بسيط ممتع مفيد لكل من القارئ العام والعالم المتخصص : والكتاب فى طبعته الإنجليزية(*)يقع فى ٧٠٣ صفحة ، وقد

(*) طبعة جون موراى الصادرة عام ١٩٠٠

ترجمه إلى العربية الأديب الكبير الأستاذ إسماعيل مظهر عـام ١٩٦٢ فـى مجلد بلغ عدد صفحاته ٧٨٤(*) منها مائة صفحة مقدمة للمترجم) .

ونظرية التطور هى بلا شك أهم تعميم حدث فى حقل البيولوجيا . لقد كانت ثمرة تجميع لكم هائل من الحقائق المتفرقة ، انتظم على يد داروين فى كل معقول وفكرة عبقرية . بدأ الجو العالمى السائد أيامه كما لو كان فى انتظار الملهم . ثمة ثمرة أوشكت على النضج تختفى بين الأغصان المتشابكة فى قلب شجرةٍ وَرقَة تطلب العبقرى الذى يتمكن من تحديد كنهها وموقعها ليقطفها . بيانات ومعلومات وآراء كثيرة متباينة قدمها العلماء قبل داروين ، لكن أحدا قبله لم يتمكن من معرفة ما يربط بينها جميعا ويوحدها فيقدم فى تفسير التطور نظريةً كنظريته ، بسيطة مقنعة .

شرع داروين يكتب (أصل الأنواع) كمقدمة لعمله الكامل الذى ظل يجمع مادته العلمية بهدوء منذ عام ١٨٣٩ . ابتدأ فى الكتابة عام ١٨٥٦ ، وانتهى من عشرة فصول ، عندما وصله فى ربيع ١٨٥٨ خطاب من ألفريد راصل والاس وبه مقال عنوانه (عن اتجاه الأصناف إلى التحول بغير حدود عن شكلها الأصلى) . وتحت إلحاح صديقيه تشارلس ليل و ج . د . هوكر عاد إلى مسودة كان قد وضع أفكارها عام ١٨٤٢ ودونها عام ٨٤٤ ، فنقحها وقدمها مع مقال والاس إلى الجمعية اللينيوسية ، ليُقرأ المقالان فى اجتماع الجمعية الذى عقد أول يوليو ١٨٥٨ (وظهر فى مجلة الجمعية فى أغسطس من نفس العام). لم يصب البحثان إلا أقل اهتمام حتى ليقول رئيس الجمعية فى تقريره عن عام١٨٥٨ : (إن العام قد مر..

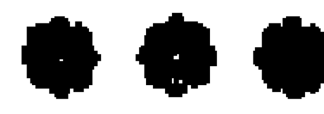
(*) طبعة مكتبة النهضة (بيروت – بغداد) – ١٩٧٣ .

دون أن تميزه أية اكتشافات لافتة للنظر تثوّر المؤسسة العلمية) . بل لقد علق بروفسور هرتون على بحث داروين قائلا (إن كل ما فيه من الجديد زائف وكل ما فيه من الصحيح قديم) .

اندفع داروين بعد ذلك يكمل كتابة (أصل الأنواع) لينتهى منه فى نحو ثلاثة عشر شهرا ويدفع به إلى المطبعة . كان على ما يبدو متخوفا مما سيذيعه الكتاب من ضجة ، إذ اعترف مرة (فى أوائل ١٨٤٤) فى خطاب لصديقه هوكر بأن التأكيد بأن الأنواع لم تخلق منفصلة إنما يشبه (الاعتراف بجريمته قتل) . كما أنه كان متشككا فى قبول كتابه لدى المجتمع العلمى ، فقد كتب للناشر جون موراى فى ٢٧ أغسطس ١٨٥٩ عن (عمله الصغير) (يقصد كتاب أصل الأنواع) يقول (إننى أقبل عرضك ، ولكنى أجد نفسى مضطرا ، من أجلك ومن أجلى ، أن أخبرك بأوضح عبارة : إذا وجدت بعد قراءة المسودة أنك لن تستطيع تسويق الكتاب ، فأنت - بصراحة ووضوح - فى حِلٍ من التزامك بطباعته) .

اندلع الجدل إذن بعد نشر الكتاب فى ١٨٥٩ - الكتاب الذى قال داروين عنه إنه (بلا شك أهم أعمال حياتى) - ليزداد عنفا بعد المواجهة التى حدثت بين ت . هـ . هكسلى وصمويل ويلبرفورس أسقف أكسفورد أثناء انعقاد الجمعية البريطانية فى أكسفورد فى ٣٠ يونيو ١٨٦٠ . وبالرغم من أنّ داروين قد اكتفى فى هذا الكتاب بجملة واحدة بسيطة عن الإنسان جاءت فى صفحة ٦٦٨ من الكتاب الأصلى (الكتاب ٦٧٠ صفحة) : (وسيُلقَى ضوء كثير على أصل الإنسان وتاريخه) (أضاف كلمة (كثير) بعد الطبعة الأولى) ربما لأنه كان يشعر بما ستقابله نظريته من

عداء – إلا أن معظم ما ثار ضدهـا لم يوجـه إلى النظريـة ككـل ، إنمـا إلى علاقة الإنسان بالقردة – وهو الموضوع الذى توسـع فيـه كثـيرا فـى كتابـه (أصل الإنسان) الذى صدر عام ١٨٧١ . والحق أن داروين قد فشـل تمامـا في إدراك الفروق الأساسـية بـين عمليـة التطـور فـى الإنسـان وفـى بقيـة الحيوانـات فالإنسـان يتمـيز بقدرتـه علـى نقـل ثمـار تجربتـه مـن جيـل لجيل ، لكن داروين لم يهتم إلا بالتغير البيولوجى وأهمل تماما أهمية هذا التغير الحضارى .



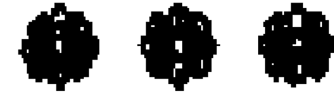
يقول داروين فى كتابه إن الأنواع الحية قد نشـأت عـن أنـواع سـابقة جرى عليها التحوير . لكن هذه الفكرة ليست بالجديدة . فالكثيرون قبلـه قد اقترحوا أن الأنواع عرضة للتغـير : مارشـانت (١٧١٩) ، ومونتسـكييه (١٧٢١) ، بـافون (١٧٤٩) ، ديــدرو (١٧٦٤) ، إراسمـوس داروين (١٧٩٤) . سان هيلير (١٧٩٥) ، جوته (١٧٩٥) لامارك (١٨٠١) . بل إن بعض معاصرى داروين كانوا يقـتربون رويـدا رويـدا مـن النظريـة ، فلقـد كتـب إدوارد بلايـث (١٨١٠ – ١٨٧٣) فـى بحـث لـه ظـهر عـام ١٨٣٧ يقول : (إنه لمن الحقائق أن صغار القبرة التى تفقـس فـى منطقـة يغطيـها الحصى الأحمر يكون لون ريشها شاحبا ضاربا إلى الحمرة، مقارنـةً بتلـك التى تربى فوق تربة سمراء. ألا يمكن إذا أن تكون نسبة عالية مما نعتبره أنواعًا، قد نشأت عن سلف مشترك؟) ثم إن روبرت تشامبرز قـد نبـه إلى فكرة التطور فى كتابه (بدايات الخلق) الذى نشـر عـام ١٨٤٤ مؤكـدا (أن الأنواع ليست منتجات ثابتة لا تقبل التغير... وأن كل الكائنات الحيـة ،

من أبسطها وأقدمها إلى أعلاها وأحدثها، كلها تخضع لتدبير الإله). لكن العالم ظل متشككا، بل ومعاديًا. فعندما أُدركت الطبيعة الحقيقية للحفريات مثلا فى القرن الثامن عشر، بدأ تفسيرها على أساس تقويم الأسقف أشَر. كان هذا الأسقف قد أجرى حسابات تفصيلية استنبط منها أن بدأ الخلق قد تم فى التاسعة من صباح يوم ٢٦ أكتوبر عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد! . وبسبب مثل هذا المناخ ظلت النظرة السائدة ترتكز على نظرية الكوارث التى تقول إن الأرض قد مرت بعدد من الكوارث والفيضانات المتعاقبة (كان آخرها فيضان نوح)، وأن كلا من هذه الكوارث كان يقضى على كل الكائنات الحية، ليتم خلق جديد بعده، يفنى أفراده بدورهم فى الدورة التالية، وهكذا. قد تبدو هذه الأفكار لنا الآن ساذجة، لكنها ظلت مسيطرة على العالم العلمى لفترة تزيد على القرن. لذا فقد كانت أهمية كتاب (أصل الأنواع) لا تكمن أساسا فى أنه كان أول اقتراح باحتمال حدوث التطور، وإنما فى أنه أقنع معظم العلماء بحدوث التطور. لقد تسبب الكتاب فعلا فى بدء قبول العالم العلمى والعام لهذه النظرية. وكان السبب فى النجاح الفورى للكتاب مناقشاته الرائعة لتوزيع الحيوانات والنباتات، وتفسيره المقنع لأهمية الأعضاء الأثرية، أما غير ذلك من الشواهد عن الحفريات والتشابه التشريحى وما إلى ذلك، فقد كان معروفًا لحد كبير لدى معاصرى داروين، إن يكن مجهدًا فى التفسير فى غياب آلية مقبولة للتطور. لقد كانت حفريات الأنواع المنقرضة تفسَّر -كما ذكرنا- كبقايا مخلوقات قديمة أهلكها الله كما كاد يهلك عالمنا بطوفان نوح، أو كنماذج خلقها الله ووضعها داخل الصخور، كى تربك غير المؤمنين من العلماء.

يقول داروين إنـه قـد وضـع نصب عينـه عنـد وضـع كتابـه (هدفـين واضحـين، الأول أن أبـين أن الأنــواع لم تخلـق منفصلـة، والثـانى أن الانتخاب الطبيعى هو العامل الرئيسى فى التغير). والواقع أن داروين قـد كرس أكثر من نصف كتاب (أصل الأنواع) لشرح براهين حدوث التطـور، ثم أنه قد تعرض فى الفصلين السادس والسابع لمعالجـة المشـاكل التـى تواجهـها النظريـة، كمـا نـاقش فـى الفصـل العاشـر قصـور السـجل الجيولوجى. ولقد كان داروين يعرف أن حفظ التبـاين هـو نقطـة الضعـف فى نظريته. (ولم تحل هذه المشكلة إلى أن أعيـد اكتشـاف أبحـاث منـدل عام ١٩٠٠، تلك الأبحاث التى نشرت فى حياة داروين فى مجلة صغيرة لم تصله على ما يبدو، ولم ينتبه إليها أحد).

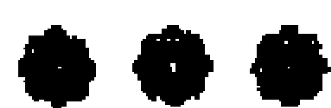
فى مناقشاته المستفيضة بالكتاب لشرح براهين حدوث التطور، أرسـى داروين للعالم العلمى مبدأ الاستدلال بالنسبة للعلوم التى تحـاول أن تعيـد تصوير التاريخ. من بين المشـاكل التـى تواجـه العلـوم التاريخيـة هـذه أن (العلم) لا بد أن يحدد العمليات التى تقود إلى النتـائج الملحوظـة. ونتـائج التاريخ ترقد من حولنا، لكن ليس فى إمكاننا أن نلحظ مباشرة العمليـات التى أنتجتها. فكيف نكون علميين بالنسبة للمـاضى؟ الإجابـة هـى أننـا لابد أن نطور معايير نستدل بها على العملية التى لا يمكننـا ملاحظتـها، وذلك من النتائج التى حفظها الزمن. هذه هى المشكلة فى نظرية التطـور: كيـف يمكننـا مـن التشـريح والفسـيولوجيا والسـلوك والتبـاين والتوزيـع الجغرافى للكائنات الحالية، ومن البقايا الأحفورية بالسجل الجيولوجـى أن نستدل على الطريق الذى سلكه التاريخ؟ لقد عالج داروين فـى كتابـه

مثل هذه النتائج التاريخية بإقتدار معجز مقنع، ووضع قواعد الاستدلال فى العلوم التاريخية.



ترتكز نظرية التطور التى قدمها داروين فى كتاب أصل الأنواع – ليثبت بها هدفيه اللذين وضعهما نصب عينه – على ملاحظات أساسية ثلاث: أولها وجود التباين داخل أنواع الكائنات الحية، البرى منها والمستأنس، وأن هذا التباين كثيرًا ما يورث – بالرغم من أن داروين لم يكن يعرف آلية التوريث، أو كما يقول (إن القوانين التى تحكم الوراثة مجهولة فى معظمها)، لكنه يؤكد: (أن أى تباين ليس وراثيا لا يهمنا.... إن توراث الصفة هو الأصل.. وعدم توارثها هو الشاذ). ليس ثمة فردان من نفس النوع يتطابقان تماما، بل قد تكون الفروق بين الأفراد كبيرة جدًا. وثانيتهما هى ذلك المعدل الرهيب لتكاثر الحيوانات. يقول داروين (فحتى الإنسان، ذلك الكائن البطئ التكاثر، قد ضاعف عدده فى خمسة وعشرين عاما. فإذا ما استمر يتزايد بهذا المعدل فلن يكون على الأرض ثمة موضع لقدم يقف فيه نسله بعد أقل من ألف عام). قال إن أنثى الفيل تلد نحو ستة صغار خلال فترة حياتها البالغة مائة عام، فإذا ما عاش كل النسل، فإن نتاج زوج واحد من الفيلة سيبلغ بعد ٧٥٠ عاما نحو تسعة عشر مليون فرد. يضع الفرد من المحار من البيض ما قد يصل عدده إلى مائة مليون بيضة فى الموسم، فإذا لقح كل هذه البيض وفقس وعاش كل النسل وتكاثر بنفس المعدل فإن أحفاد أحفاد أحفاد هذا الفرد سيصل عددها إلى ٦٦ على يمينها ٣٣ صفرا، ستكون كمية الأصداف التى تنتج عنها جبلا يبلغ حجمه ثمانية أضعاف حجم الكرة الأرضية.

وأما الملاحظة الثالثة، والتى تأتى كنتيجة للتباين داخل الأنواع اذا تفاعل مع هذه الوفرة فى التكاثر، فهى أن الكائنات الأكثر تكيفا مع بيئتها لابد – على العموم – أن تكون هى التى ستبقى وتتزايد على حساب الكائنات الأقل تكيفا. هذا هو لب نظرية التطور والانتخاب الطبيعى: ما دامت الحيوانات والنباتات تتباين، وما دام بعض هذه التباينات على الأقل وراثيا، وما دامت كل الحيوانات والنباتات تعطى من النسل أكثر مما يمكن أن يبقى، ومن ثم فلابد من وجود صراع دائم على البقاء (بين أفراد النوع الواحد، وبين أفراد الأنواع المختلفة، أو مع الظروف الفيزيقية للحياة)، فإن ذلك يستتبعه وجود عامل (أسماه «الانتخاب الطبيعى») يحفظ فى المتوسط قدرًا أكبر من الاختلافات الأفضل تكيفا مع ظروف البيئة، لينتقل بعضٌ من هذا التحسين إلى الأجيال القادمة. وعلينا هنا ألا ننظر للانتخاب الطبيعى على أنه علاقة (طبيعة ضارية لا ترحم، مخضبة الناب والمخلب)، وإنما هو نتيجة منطقية للتكاثر التفاضلى الذى يؤدى إلى تغير فى المستودع الوراثى للعشيرة: (قد نقول عن كلبين فى وقت المجاعة إنهما بالفعل سيتصارعان من أجل الحصول على الغذاء والبقاء، لكن نباتا على حافة صحراء سيصارع أيضا ضد الجفاف من أجل البقاء). (إن الصراع من أجل البقاء إنما هو نتيجة حتمية لمعدل التزايد العددى المرتفع لكل الكائنات الحية).



كان لامارك يقول إن التحويرات التى تمكن الكائن الحى من البقاء فى بيئة متغيرة إنما تنتج عن المجهود الذى تبذله هذه الكائنات الحية طورت الزرافة رقبة طويلة لأنها ظلت تحاول الوصول إلى الأوراق الأعلى

فالأعلى بالأشجار. أما نظرية داروين فتقول إن التباين فى طول الرقبة، وفى الآلاف غيرها من الصفات، إنما ينشأ عشوائيا (عن أسباب مجهولة) ولا علاقة له بحاجة الكائنات. من بين تباينات الصدفة هذه يُثبت البعض أنه مفيد للكائن فى التنافس من أجل البقاء، وستعطى الأفراد التى تحمل هذه التباينات المفيدة إذن نسلاً أكثر، فى المتوسط، مما ينتجه غيرها ممن لا يحمل تلك التباينات. وبمضىّ الأجيال سيتغير متوسط الصفة في العشائر بالبيئة التي تحيا بها. ولعل لنا أن نقول هنا إن تأكيد داروين على أهمية الصدفة كان خطوة هامة في سبيل التخلص من قبضة الحتمية النيوتونية التى كانت تسود المجتمع العلمى فى زمانه.

ثمة تجربة كلاسيكية شهيرة عن «الانتخاب الطبيعى وهو يعمل» نشرها هـ. ب. د. كيتلويل (عام ١٩٦١) تبين التغير التطورى التكيفي.

كان قلف الأشجار النامية فى أوروبا قبل الثورة الصناعية باهتا تغطيه الأشنة وتصبغه بلون أخضر رمادى. وكان ثمة فراشة تنتشر هناك تسمى الفراشة المفلفلة (بيستون) لونها رمادى مفلفل. فإذا ما حطت على جذوع الأشجار وأرخت جناحيها يغطيان جسمها صعُب على الطيور المفترسة أن تميزها. ومع بداية الثورة الصناعية عَمَّ التلوث المناطق القريبة من المصانع وأهلك الكثير من أنواع الأشنة، ليحل محلها على جذوع الأشجار غشاء رقيق من السناج (الهباب) وأصبحت الحشرة بلونها الفاتح ظاهرة فريسة للطيور. فى هذه البيئة الجديدة لم يعد للّون الرمادى المفلفل الفاتح للحشرة أية ميزة تكيفية، بل أصبح اللون الأسود هو أفضل ما يتوافق مع الخلفية الداكنة لجذوع الأشجار. وفى نحو عام ١٨٥٠ ظهرت بضع

فراشات سوداء اللون في منطقة مانشيستر. ثم تزايد تكرار هذه الفراشات القاتمة اللون في العشائر. وبمرور السنين أصبح اللون القاتم بهذه المنطقة هو السائد وغدا اللون المفلفل للفراشة نادرًا. لقد «تجاوبت» الحشرة مع البيئة الجديدة، فاللون الداكن أصبح هو الأفضل الآن للتخفي عن عيون الطيور المفترسة.

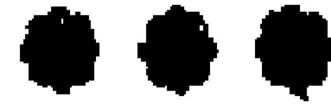
اتضح أن اللون القاتم ناتج عن طفرة وراثية سائدة تنتقل من الآباء إلى الأبناء. وظهور هذه الطفرة في مانشيستر في ذلك الوقت لم يكن من قبيل السحر. فهذه الطفرة السائدة كانت تحدث قبل الثورة الصناعية لكنها لم تكن تفيد في بقاء الحشرة التي تحملها إذ كانت تتعرض بسهولة للافتراس فتختفي - على عكس الفراشات الفاتحة اللون. وعندما تغيرت البيئة وأصبح اللون القاتم ميزة تكيفية، بقيت الطفرة وازداد تكرارها حتى لتعم العشيرة على حساب اللون الفاتح. وللتأكد من أن الأنتخاب الطبيعي هو السبب بالفعل، أعد كيتلويل مجموعتين من الفراشات في كل منهما عدد من الفراشات القاتمة وعدد من المفلفلة، أطلقت إحداها في منطقة صناعية والأخرى في بيئة ريفية، ثم رُصد عدد ما افترسته الطيور في كلتا المنطقتين. ظهر أن نسبة ما افترس من الفراشات القاتمة كانت أعلى في الريف بينما كانت نسبة ما افترس من المفلفلة هي الأعلى في المنطقة الصناعية.

الانتخاب الطبيعي يقول إذن إن الأصلح سيبقى دائما. لكن، ما هي الكائنات الأصلح؟ إنها بالتعريف الكائنات التي ستبقى. من يبقى هو الأصلح، والأصلح هو من يبقى! إن الجملة لا تعني إلا «بقاء الأفراد التي

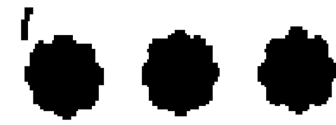
تبقى». مجرد حشو! جدل دائرى، تُعَرّف الصلاحية فيه بأنها النجاح التناسلي التفاضلي – أى أن تنتج الأفراد الأصلح عددًا من النسل الحي أكبر نسبيا من البقية المنافسة من أفراد العشيرة. هذا التعريف إذن يحدد الصلاحية بالبقاء، والبقاء فقط. فهل كان هذا ما يقصده داروين؟ سنجده يخصص الأربعين صفحة الأولى من الفصل الأول من «أصل الأنواع» لمناقشة الانتخاب الاصطناعى الذى يقوم به مربّو الحيوان للصفات المرغوبة. ثمة معيار هنا مستقل يعمل. إن مربي الحيوان يعرف ما يريد، إن الأصلح هنا لا يعرّف بمقياس البقاء، فالمربى يسمح للفرد بالبقاء إذا ما كان يحمل الصفة المرغوبة. هل يمكن أن يقارن هذا بالانتخاب الطبيعى؟ فى الانتخاب الاصطناعي يُعْرّف الكائن الأفضل مسبقا، لا ننتظر نتيجة تناسله. لكن الطبيعة ليست كمربي الحيوان تقرر الصفة المنتخب لها. إنها عمياء. الانتخاب الطبيعي إذن يصف لنا كيف يصبح نمط معين من الحيوانات مثلا أكثر عددا، لكنه لا يفسر كيف يمكن لنمط معين من الحيوان أن يتغير بالتدريج لآخر. هناك مقياس للصلاحية مستقل عن البقاء يستعملة التطوريون كثيرا ويمكن وضعه تحت الاختبار التجريبي. إن رغبة المربى فى الانتخاب الاصطناعى الذى يقوم به إنما تمثل في الواقع «تغيرا فى البيئة» بالنسبة للعشيرة، تغيرا يسمح بالتحديد المسبق للصفات المرغوبة.

أليس هذا هو ما يحدث مثلا فى الطبيعة، لقد تحول الجو إلى البرودة الشديدة قبل أن يطور الدب فراءه السميك! لقد تحول لون جذوع الأشجار بمنطقة مانشيستر إلى القاتم قبل أن تغير الفراشة لونها إلى اللون الغامق!

إن البيئة إذا ما تغيرت فكأنها تحدد مسبقا خصائص أفضل من الناحية المورفولوجية والفسيولوجية والسلوكية، يلزم أن يتصف بها الكائن كي «يُنتخب طبيعيا». إن تفوق الفرد في البيئة الجديدة إنما «يعبّر عنه» في صورة البقاء التفاضلي، لكنه لا «يعرِّف» به.



كانت «الوراثة المزجية» سائدة أيام داروين. بمقتضى هذه الفكرة يمتزج في النسل الأساسُ المادى لوراثة الأب و وراثة الأم، تماما كما تمتزج نقطتان من الحبر تختلفان في اللون لينتج لون وسط. كيف للتباينات الصغيرة التي تظهر أن تُحفظ وتبقى بعد التهجين؟ إن أي صفة جديدة تظهر ستخفف بالفعل عند التهجين مع النمط الأصلي، لتختفي بعد فترة فلا تبقي فروق بين الأفراد يعمل عليها الانتخاب الطبيعي. كانت هذه مشكلة حقيقية أمام داروين لم يتمكن أبدا من حلها، جعلته يعطي وزنا للاماركية أكبر مما يجب. ولقد حلت هذه المشكلة تماما بإعادة اكتشاف أبحاث مندل عام ١٩٠٠. ثم اكتشف هوجوده فريز الطفرات (تلك التغيرات الذاتية العشوائية التى تحدث بالمادة الوراثية). وتفرعت البحوث وتوسعت حول هذين الكشفين وغيرهما، واكتملت الداروينية وأصبحت بالفعل كيانا علميا متينا يصعب اختراقه.



يقول «ألفريد نورث هوايتهيد» إن داروين رجل عظيم حقا، لكنه أبلد الرجال العظماء! غريب هذا الرأي، لكن داروين يقول عن نفسه:

«لم أكن أتميز بسرعة الفهم أو الذكاء الذى يتصف به بعض الموهوبين من أمثال هكسلى.. إن ذاكرتى واسعة ولكنها مشوشة.. غير أننى أعتقد بتميزى عن الشخص العادى فى أننى ألاحظ أشياء يسهل أن يمر غيرى عليها دون أن يدركها، ثم أننى ألاحظها بدقة.. إن مثابرتى على ملاحظة الحقائق وجمعها كانت رائعة، لكن الأهم هو أن عشقى للعلوم الطبيعية كان حقيقيا. كان راسخا». هذه كلمات الرجل عاشق العلم الذى بدأت البيولوجيا الحديثة بكتابة «أصل الأنواع»، الذى كانت نظريته عن التطور هى أول نظرية علمية للحياة ناجحة، الذى ربط الكائنات الحية جميعا برباط وثيق، الذى غير العالم فلم يعد أبدا كما كان قبله، الذى أثار الفلاسفة والكنيسة، والذى أثار حتى الشعراء، إذ خافوا أن يفقدوا بنظريته المادية ثراء الطبيعة وروح الإنسان ووضعه المتميز فى الكون فيكتب واحد منهم (توماس هاردى) عن الطبيعة من بعده:

إذا ما بزغت الشمس فمضيتُ، أرقب الغديرَ
والحقل والقطعان والشجرة المهجورة
بدت لى جميعا وكأنها تُحَدِّق فىّ
كمثل أطفال بمدرسة، عوقبوا، فجلسوا صامتين!

(١١)
أبحر الخليل: نظام رياضى مغلق

(١) مشكلة تقطيع الشعر

دعنا نحاول أن نقطع الشطر الأول من بيت الشابى :

سمِعْتُها فانصـرفْتُ مكتئبـًا أشـدو بحـزنى كطائر الجبـل

ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ا ه

ستكون أولى التفعيلات هى (ا ا ه ا ا ه) - إذا رمزنا للمتحرك بالرمز (ا) وللساكن بالرمز (ه) - وستكون الوسطى (ا ه ا ا ه ا)، أما الأخيرة فهى (ا ه ا ا ا ه).

أولى التفعيلات إذن ستكون إما مفاعلين المزاحَفَة فى صورة مفاعلن، أو مستفعلن المزاحفة فى صورة متْفعلن. والتفعيلة الوسطى إما أن تكون فاعلاتن مزاحفة فى صورة فاعلاتُ، أو مفعولاتُ فى صورة مفعلاتُ. أما التفعيلة الأخيرة فهى مستفعلن المزاحفة فى صورة مستَعِلُن.

للشطر إذن أربعة أشكال ممكنة، كلها تصلح، هى (دون زحافات):

مفاعيلن فاعلاتن مستفعلن.

مستفعلن فاعلاتن مستفعلن.

مفاعيلن مفعولات مستفعلن

مستفعلن مفعولات مستفعلن

لكن الخليليين يقولون إن التفعيل الصحيح لهذا البيت هو الأخير، وليس أيا من التشكيلات الثلاثة قبله. لماذا؟

ويقول إيليًا أبو ماضي :

وفي يدى «الشمال» أشكالُ المنى   وَصُوَرُ اليقين والضلال

ا ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ه ا ه ا ا ه

التفعيلة الأولى - ومثلها الوسطي - من الشطر الأول هي (ا ا ه ا ا ه)، وبذا فقد تكون مفاعيلن في صورة مفاعلن، أو مستفعلن في صورة متفْعلن، والتفعيلة الأخيرة هي مستفعلن. هنا أيضًا أربعة أشكال تفعيلية محتملة للشطر هي (دون زحافات) :

مفاعيلن مفاعيلن مستفعلن

مستفعلن مفاعيلن مستفعلن

مفاعيلن مستفعلن مستفعلن

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

والتفعيل الأخير هو ما يقول به العروضيون. لماذا؟

هل يلزم - كما يقول البعض - أن تكون عارفًا بتقطيع الشطر حتى يمكنك تقطيعه؟ لماذا لا يصلح أى من التشكيلات الأخرى؟ صحيح أن الشاعر قد يضع التفعيلات في صور أخرى في أشطر أخرى من القصيدة،

فيقوم مثلاً بإسقاط أحد الاحتمالين فـى التفعيلـة الأولى أو الوسـطى، لكـن الواقع الشعرى يقول إنه عندما يقوم بذلك، فإنه لابد مؤكد للتقطيع الذى يراه الخليليون - بمعنى أنه لا يمكن أن يأتى مثلا بالتفعيلة الأولى فى أى من المثالين السابقين في صورة مفاعيلن أو مفاعيل. ثمة قواعـد إذن تحكـم ذلك، قواعد تقول مثلاً إن الأذن العربية لا تقبل بحـرًا تركيبـه «مفـاعيلن فاعلاتن مستفعلن»، قواعد تحدد - إذا ما وجد العديد من الاحتمالات فى مثل هذه الأبحر التامة - بحرًا واحدًا مسموحًا - ولا غيره.

(٢) لماذا يلزم تبرير أبحر الخليل؟

فى مقال له تعليقًا على الطريقة الرياضيـة التـى وَصَفْتُ بـهـا عـروض الشعر العربى، كتـب الدكتـور سيد البحـراوى بمجلـة «إبـداع» (أكتوبـر ١٩٨٧) يقول إننى أضع :

(قواعد فى امتزاج التفاعيل لا يكمن منطقها من داخلـها، وإنمـا تبـدو وكأنها جاءت لتـبرير نظـام الخليـل ليـس إلا، مثـال ذلـك قولـه ص ٢٧ «ولا تمتزج التفعيلة فى بحر بغير التفعيلة التى تسبقها مباشـرة، أو التـى تتلوها مباشرة»..).

ثم يستطرد الدكتور البحراوى قائلاً إن هذه الصياغة الرياضية :

(رغم انجازها الكبير فى تدقيـق العـروض وتسـهيله تبقـى مـن وجهـة نظرى واقعة فى إطار شرح العروض وليس أكثر من ذلك).

لقد حاول الكثيرون على مدى القرون الخروج على «أبحـر الخليـل»، ومثل هذا الخروج يستلزم بالطبع معرفة القواعد التى تربـط مـا بـين هـذه الأبحـر حتـى يمكـن تخطيـها إذا رؤى ذلـك. لكـن هـذه القواعـد بقيـت

مجهولة. وإن كان ثمة مثال بسيط يوضح الجهل بهذه القواعد.. فهو ما يُذكر في بعض كتب العروض من أن عكس البحر الذى تركيبه (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) هو بحر يسمى المستطيل تركيبه (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن)، وليس كما يجب (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن). إن هذه الطريقة التى عُكِس بها البحر إنما توضح حقيقة عدم التوصل إلى لب العمل الخليلى، لأن الجوهر يقع فى حقيقة الأمر فى العلاقة التى تسمح بها الأذن العربية بين مواقع السواكن المحذوفة و «المسافات» بينها - وهى علاقة بطبيعتها رياضية. الأمر إذن يحتاج - على عكس ما يشير إليه الدكتور البحراوى - إلى «تبرير» لنظام الخليل، إلى التوصل إلى القواعد التى تربط بين أبحره، تلك التى تجعل منه نظامًا «مكتملاً فى ذاته». إننا نبحث مثلاً عن قاعدة ما تحدد لنا واحدًا مقبولاً من بين الخيارات الأربعة فى كل من المثالين اللذين بدأنا بهما هذا المقال. فإذا ما توصلنا إلى هذه القاعدة - التى تجعل النظام، إذن، نظامًا - فلن يكمن منطقها من خارج النظام، وإنما من داخله، فبدونها لا يكون هذا النظام الذى نعرفه. وإذا عُرفت القاعدة أمكن - لمن يريد - أن يتحلل منها، عارفًا طريقه.

(٣) التفاعيل

ربما كان علم العروض من بين علوم اللغة العربية هو الأكثر صلاحية للمعالجة الرياضية، فدوائر الخليل على أى حال لابد أن ترتكز على انتظام رياضى. ثمة ظاهرة تثير الانتباه: هى أن كل البحور التى أضيفت بعد الخليل - باستثناء المتدارك والخبب - لم تجد من الشعراء مَنْ على

قلمه تجرى دون تعمد. ربما سهّلت صياغة العروض فى صورة رياضية، إذن، استنباط الأسس التي تربط ما بين أبحر الخليل.

أسّس الخليل أبحره على ست وحدات صوتية، أو مقاطع عروضية هى: السبب الخفيف (ا ه) والسبب الثقيل (ا ا) والوتد المجموع (ا ا ه) والوتد المفروق (ا ه ا) والفاصلة الصغرى (ا ا ا ه) والفاصلة الكبرى (ا ا ا ا ه)، ثم أنه قد ابتكر فكرته الرائعة، التفعيلة، وهى الوحدة القاعدية فى البناء الشعرى التى تبنى من بعض الوحدات الصوتية. أما البناء الرياضي الذى اقترحه فلا يحتاج فى الواقع إلا إلى السبب الخفيف (ا ه) الذى قد يفقد ساكنه (ا)، أو يُحرك فيه هذا الساكن (ا ا)، أى - إذا أردنا - إلى السبب الخفيف (الذى قد يفقد ساكنه) وإلى السبب الثقيل (ا ا) الناتج عن تحريك ساكن السبب الخفيف - هذا بالطبع بجانب فكرة التفعيلة، وإن كنا قد نستعمل مصطلح الوتد (المجموع) لنشير إلى مجموع سببين خفيفين متواليين حذف ساكن أولهما، ومصطلح الفاصلة (الصغرى) لتعنى ثلاثة أسباب خفيفة متوالية سقط ساكنا الأولين منها، أو إلى سببين خفيفين متتاليين حُرك ساكن الأول منهما.

والتفعيلة هى وحدة الميزان العروضى، ويلزم عند الخليل أن تحمل وتدا (مجموعا أو مفروقا)، ومنها اثنتان خماسيتان، أى يتكون كل منهما من خمسة أحرف (وتد مجموع وسبب خفيف يسبقه أو يتلوه) هما فعولن (ا ا ه ا ه) وفاعلن (ا ه ا ا ه)، وثمان سباعية (وتد مجموع أو مفروق وسببان خفيفان قد يسبقانه وقد يتبعانه وقد يقع بينهما، أو فاصلة صغرى ووتد مجموع يسبقها أو يتلوها) وهى: مفاعيلن (ا ا ه ا ه ا ه)،

مفـــاعلتن (ا ا ه ا ا ا ه)، متفـــاعلن (ا ا ا ه ا ا ه)، مفعـــولات (ا ه ا ه . ا ه ا)، فاعلاتن (ا ه ا ا ه ا ه)، فـاع. لاتـن (ا ه ا. ا ه ا ه)، مستفعلن (ا ه ا ه ا ا ه)، مس. تفـع. لـن (ا ه. ا ه ا. ا ه). والزحـاف لا يقع إلا فى الأسباب ويكون فى هذا النظام بحذف الساكن مـن السـبب الخفيف، أو تسكين المتحرك أو حذفه فى السبب الثقيل.

أما النظام الرياضى فيلزم أن تحمل التفعيلة فيه «سببًا ممـيزًا»، وهـذا سبب محذوف السكان وجوبًا (تُرقِّم التفعيلة بموقعه) يمنع حـذف سـاكن السبب التالى له مباشرة (السبب المقيَّد) حتـى لـو كـان هـذا فـى التفعيلـة التالية فى الشطر. ومعنى هذا أن الوتد المجموع لا يعتبر هنا وحدة قائمـة بذاتها، وإنما هو مقطعان: مقطع قصير (متحـرك) يليـه بـالضرورة مقطـع طويل (سبب خفيف تـام) قـد يقـع فـى التفعيلـة التالية. وموقـع المقطـع القصير هـو المحـدد لرقـم التفعيلـة. والتفـاعيل الأساسية هـى التفـاعيل الرباعيـة، ونعنـى أن أصلـها أربعـة أسباب خفيفـة حـذف السـاكن مـن أحدهـا، ومنـها إذن أربـع هـى بالـترتيب: مفـاعيلن ا ا ه ا ه ا ه، وهـى التفعيلة الرباعية رقم ١، أى التى يحذف منها بـالضرورة سـاكن السبب رقم ١ ويستبقى فيها ساكن السبب رقم ٢، فاعلاتن ا ه ا ا ه ا ه (التفعيلة الرباعيـة رقـم ٢)، مسـتفعلن ا ه ا ه ا ا ه (التفعيلـة الرباعيـة رقـم ٣) ثـم مفعـولاتُ ا ه ا ه ا ه ا (التفعيلة الرباعيــة رقــم ٤)، ثـم هنـاك ثـلاث تفعيلات ثلاثية هى: فعولن ا ا ه ا ه (الأولى)، فاعلن (الثانيـة) ا ه ا ا ه، ثم مفعـولُ ا ه ا ه ا (الثالثـة). والتفعيلـة مفعـولاتُ تفعيلـة متعديـة تمنـع

حذف الساكن من أول أسباب التفعيلة التالية لها في الشطر (ومثلها أيضًا تكون التفعيلة مفعولُ). فكأننا هنا لا نعترف بالتفعيلات: فاع لاتن، مس تفع لن، مفعنو. لاتُ - أما التفعيلتان مفاعلتن ومتفاعلن فنعتبرهما كما سنرى تحويرين للتفعيلتين مفاعيلن ومستفعلن. لهذا النظام إذن سبع تفاعيل: أربع رباعية وثلاث ثلاثية. والزحاف في هذا النظام يعني حذف ساكن أي من الأسباب الحرة (أي الأسباب غير السبب المميّز والسبب المقيّد)، أو تحريكه تحت شرط خاص. ولقد ذكر الدكتور البحراوي بهوامش مقاله الذي أشرنا إليه سابقًا أن مفعولاتُ:

(هي في الحقيقة (هي بالذات دون فاع لاتن ومستفع لن) لا يمكن إلا أن تكون ذات وتد مفروق).

وهذا صحيح فقط إذا قلنا بضرورة أن تحمل التفعيلة وتدًا، أما في الشكل الرياضي فإن مفعولاتُ لا تعني إلا كيانًا من أربعة أسباب خفيفة متوالية يحذف منها بالضرورة ساكن السبب الرابع (المميز)، بمعنى أنه يجوز لنا كزحاف حذف ساكن السبب الثالث، وهو ما لا تسمح به قواعد الخليل (إذ تفقد التفعيلة بذلك وتدها، المفروق)، كما لا يجوز لنا حذف ساكن أول سبب في التفعيلة التالية لها في الشطر، وهو ما تسمح به قواعد الخليل. ويبدو لي الآن أن عدم وضوح هذه النقطة بالذات هو ما جعل الدكتور أحمد كشك في تعليقه على النظام الرياضي (بكتابه: «محاولات للتجديد في إيقاع الشعر») يرى أن الأمثلة التي

أوردتُها فى كتابى «فى بحور الشعر» للبحر الصافى الناتج عن تكرر التفعيلة مفعولاتُ (وأيضًا الآخر الناتج عن تكرر مفعولُ) لا تحقق التفعيل المقترح لها!

(٤) السبب الثقيل

هنا نقطة تستحق أن تثار: إذا كان السبب الخفيف متحركًا يتلوه ساكن، فلماذا أطلق الخليل على الوحدة المكونة من متحركين متتاليين (ا ا) اسم السبب الثقيل، ولم يطلق عليها مثلاً اسم «الوتد الثقيل»؟ ألا يعنى هذا أنه ربما كان يرى بالفعل أن السبب الثقيل ناتج عن تحريك ساكن سبب خفيف؟ أم أن علينا أن نفهم أن الأصل عنده هو «الثقيل» الذى قد يُخفف بتسكين المتحرك؟ إن الطريقة الرقمية تحتاج هنا إلى أن تعكس المنظور الخليلى لتكون مفاعلتن تحويرًا لمفاعيلن ناتجًا عن تحريك ساكن السبب الثالث، وتكون متفاعلن تحويرًا لمستفعلن ناتجًا عن تحريك ساكن السبب الأول – بذلك نحفظ موقع السبب المميز فى التفعيلة، فهو الذى عليه يُبنى الاتساق الرياضى والنغمى للبحر.

إن البساطة تعنى الكثير فى النظريات العلمية. دعنا نتأمل الأشكال الأربعة التالية التى يمكن لأيها أن يكون محل الآخر فى البحر «الكامل»: متفاعلن (ا ا ا ه ا ا ه)، مستفعلن (ا ه ا ه ا ا ه)، متفعلن (ا ا ه ا ا ه)، مستعلن (ا ه ا ا ا ه). وسنفترض كما يقول العروض التقليدى أن التفعيلة الأصلية هى متفاعلن (ا ا ا ه ا ا ه)، ولنحاول أن نستخرج منها التفعيلات الثلاث الأخرى.

- تسكن التاء من متفاعلن فتحول إلى مستفعلن، فيما يسمى الإضمار.

- تسكن التاء ثم تحذف، فتصبح متفعلن، فيما يسمى الوقص.
- تسكن التاء ثم تحذف فاء مستفعلن الناتجة، فتصبح مستعلن، فيما يسمى الجزل أو الخزل.

في كل هذه التحويرات الثلاثة يلزم أولا أن نسكن التاء من متفاعلن، أى أن نحولها إلى مستفعلن، ماذا إذن لو اعتبرنا أن مستفعلن هي التفعيلة الأصلية للبحر؟

- نحرك ساكن سببها الأول فتئول إلى متفاعلن، أو
- نحذف ساكن سببها الأول لتصبح متفعلن، أو
- نحذف ساكن سببها الثانى فتحول إلى مستعلن

نصل إذن إلى أى من الصور الثلاث بزحاف واحد. إن القول بجواز تحريك الساكن – كزحاف – له ما يبرره فعلاً على الأقل من وجهة نظر البساطة. ثمة سؤال لا أعرف لماذا لم يوجهه العروضيون: لو كانت التفعيلة متفاعلن (ومثلها مفاعلتن) تفعيلة أصيلة لدى الخليل، فلماذا لم تظهر في أى من أبحره المختلطة مثلها مثل بقية تفاعليه؟

(٥) البحور الصافية

يتألف شطر البحر الخليلى أساسًا من اثنى عشر سببًا، مجموع ثلاث تفاعيل رباعية أو أربع ثلاثية. والبحور الصافية هى الناتجة عن تكرر تفعيلة واحدة، فمنها إذن سبعة: أربعة من أبحر التفعيلات الرباعية يتألف الشطر فيها من ثلاث تفعيلات هى: الهزج (تكرر مفاعيلن) والرمل (تكرر فاعلاتن) والرجز (تكرر مستفعلن) وأخيرًا بحر لم يذكره الخليل هو

الدوبيت (تكرر مفعولاتُ)، ونحن نعتبر الوافر من الهزج والكامل من الرجز - ثم ثلاثة من أبحر التفعيلات الثلاثية شطرها التام يتألف من أربع تفعيلات، هى المتقارب (تكرر فعولن) والمتدارك (تكرر فاعلن)، ثم بحر لم يذكره الخليل ولم يذكر حتى تفعيلته أسميتُه بحر شوقى (تكرر مفعولُ).

ويعرِّف الدليل الرقمى للشطر بأنه توالى أرقام الأسباب محذوفة الساكن فيه والتى يتبعها مباشرة سبب تام. فإذا رسمنا بيت طاهر أبو فاشا التالى فى صورة متحرك وساكن:

فلا تعتب على الدنيا ودعها   لمن يبكى عليها وهى تعدو

ا ا ه ا ه ا ه ا ا ه ا ه ا ه ا ا ه

فسنجد أن الأسباب التى أرقامها ١، ٥، ٩ فى الشطر الأول (والثانى) محذوفة الساكن، كما أن السبب الذى يلى أيا منها تام، وبذا فالدليل الرقمى للشطر يكون ١ - ٥ - ٩.

ومن هذا الدليل الرقمى للشطر يمكننا أن نستنبط «دليل التفاعيل»، أى توالى أرقام التفاعيل التى تعطى مواقع أسبابها المميزة - فى سياق الشطر - هذا الدليل الرقمى. ويكون ذلك بأن يُترك الرقم الأول - فى مثل بيت أبو فاشا - كما هو، وأن يطرح ٤ من الرقم الثانى (٤ = عدد أسباب التفعيلة السابقة له)، وأن يطرح ٨ من الرقم الأخير من الدليل الرقمى. وبذا يكون دليل تفاعيل بيت أبو فاشا هو ١١١ أى مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن. ويمكننا إذن أن نقول إن شطر بحر الرجز التام المؤلف من

مستفعلن مكررة ثلاث مرات سيكون دليله الرقمي هو ٣ - ٧ - ١١ ودليل تفاعيله ٣٣٣، ومن هذا البحر قول إيليا أبو ماضي :

يصرخ والريحُ تردد الصدى

ا ه ا ا ا ه ا ه ا ا ا ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه

ودليله الرقمي هو ٣ - ٧ - ٩- ١١، وسنلاحظ أننا لم نـدرج الرقم ٢ ولا الرقم ٦ في الدليل، بالرغم من أن ساكنيْ هذيـن السببين محذوفـان، وذلك لأن السبب التالي مباشرة لأي منهما محذوف الساكن، كما سنلاحظ أن الرقم ٩ زائد عن الدليل الرقمي الأصلي للبحر (وهذا «زحـاف رقمـي» سنرى كيف يمكن التعرف عليه).

ربما كان لنا هنا أن نضيف كلمة عن بحر شوقي (تكرر مفعولُ)، وعـن حقيقة وجوده الفعلي. فقد أطلقتُ عليه هـذا الاسم لأن أول مثـال للبحـر وجدتُه - وكنت أبحث عنه - لأكمل به دائرة، كان لشـوقي، وقـد أورده الدكتور إبراهيم أنيس في كتابــه «موسيقى الشعر» مثـالاً لبحـر لا عـهد للعروضيين به، ثم وجدته بعد ذلك منتشرًا بكثرة في الموشحات، ورأيـت أن أترك له اسمه، ولكني وجدت مؤخرًا بعـد قراءتـي لكتـاب «موسيقى الشعر بين الإتباع والابتداع» للدكتور شعبان صلاح أن الدكتور عبده بدوي قد اكتشفه بعد أن كتبتُ فيه نازك الملائكة، وإن كان تفعيلــه (لمجزوئـه) هو مسـتفعلن فـاعلن فـاعلن. وقـد رأى الدكتـور شـعبان أنـه مـن «مخلـع البسيط»، ثم أورد نصًا نشره الشاعر التونسي نور الدين صمود (في مجلـة «الحياة الثقافية» التونسية عام ١٩٧٩) عن هذا البحـر. والشـيء الغريـب

في مقال صمود أنه كاد أن يصل إلى حقيقة أنه بحر يكمل مع المتقارب والمتدارك دائرة (المتفق)، فهو يقول:

(وأما بحر المتقارب فليس بينه وبين هذا البحر سوى حركة في أول كل بيت.. وعلى هذا الأساس يصبح كل بيت من المتقارب على هذا الوزن الجديد إذا حذفنا من أوله متحركاً).

(٦) تحريك الساكن

يمكن في أى من هذه البحور الصافية (وفى غيرها) أن نحذف ساكن أى سبب عدا ساكن السبب المقيَّد، فيما يسمى الزحاف. ومثل هذا الحذف لا يتسبب بالدليل الرقمي للأبحر ذات التفاعيل الثلاثية في ظهور رقم غير أرقام الأسباب المميزة (فيما عدا بحر شوقي فقد يظهر به الرقم ١)، كما لا ينتج عنه فى أدلة أبحر التفاعيل الرباعية رقم يضاف إلى الدليل إذا ما التصق الزحاف بسبب محذوف الساكن (كما رأينا)، لكنه قد يضيف أرقامًا جديدة (زحافات رقمية) يمكن كما سنرى تنقيتها.
ولا يمكن أن يظهر بالتفعيلة أكثر من زحاف رقمى واحد، بحكم حجمها. لكن هناك زحافًا غير حذف الساكن لا يحدث إلا في الأبحر الصافية، هو تحريك الساكن، إذ يجوز فى هذه البحور إذا ما توالى سببان خفيفان يمكن – كزحاف – حذف ساكنيهما، أن يحرك ساكن الأول منهما ليحفظ السبب الثاني تامًا بعد ذلك. يمكن أن يحدث هذا في التفعيلة الرباعية الأولى مفاعيلن، فنحرك ساكن الثالث لتحول إلى مفاعلتن (والبحر الذى يحدث فيه هذا الزحاف يسمى عند الخليل الوافر، ويعتبر إذن شكلاً من الهزج) – كما يمكن أن يحدث أيضًا نفس الوضع في بحر الرمل،

وتفعيلته فاعلاتن، فيما بين أول تفعيلاته والوسطى، وفيما بين الوسطى والأخيرة، ففى نهاية كل تفعيلة سبب يجوز حذف ساكنه يليه مباشرة آخرُ فى أولِ التفعيلة التالية، وبذا يجوز تحريك السبب الأخير فى أولى تفعيلات الشَطر ومثيله فى الوسطى، لتحول التفعيلة إلى فاعلاتك (١١٥١١٥١) (يسمى البحر عندئذ بحر المتوفر، وهو إذن شكل من الرمل). وتفعيلة بحر الرجز تبدأ بسببين حرين وبذا يمكن تحريك ساكن الأول منهما لتئول التفعيلة إلى متفاعلن لينتج بحر الكامل، وهو إذن شكل من الرجز). أما تفعيلة الدوبيت مفعولاتُ ففيها سببان يجوز حذف ساكنيهما فى كل تفعيلات الشطر هما الثانى والثالث، ويمكن إذن تحريك ساكن الثانى لتحول التفعيلة إلى مفعلتان، بتحريك النون، ولا يجوز حذف ساكن السبب الأول من هذه التفعيلة أو تحريكه إلا فى أول تفعيلات الشطر (وإن كنت لم أجد مثالاً على ذلك). ويمكن بنفس الشكل تحريك ساكن أول أسباب التفعيلة مفعولُ إن وقعت فى أول الشطر (فى بحر شوقى الصافى):

قد باح دمعى بما أكتمه وحن قلبى لمن يظلمه

رَشَـا تَمَـرَّن فى لا فَمُـه كـم بالمنى أبدا ألثمه

ففى أول الشطر الأول من البيت الثانى تحولت مفعول (١٥١٥١) إلى مُتَفَال (١٥١١١).

إن تحريك الساكن يغير من عدد المتحركات الذى عليه يبنى النظام الرقمى، لكن ثمة ظاهرة توضح لنا الطريقَ لكشف السواكن التى حركت، حتى تُحسَبُ سواكنا عند وضع الدليل الرقمى. ففيما عدا الدوبيت سنجد

أن الفاصلة الناتجة عن تحريك الساكن (ا ا ا ه) لابد أن تكون محصورة بين وتدين، فى صورة: ا ا ه ا ا ا ا ه ا ا ه، إلا إذا وقعت فى أول الشطر فيكفى فقط أن يتلوها الوتد، كما يكفى أن يسبقها الوتد إذا وقعت فى نهاية الشطر أو إذا حذف بعدها السبب المميز من تفعيلة العروض أو الضرب. هذه الظاهرة إذن تختص بالأبحر الصافية فقط، ولو حدث هذا التحريك فى الأبحر المختلطة لتحول النظام الرياضى - والنغمى - إلى فوضى! فالشاعر يرى بأذنه، فيلحظ الفاصلة بين الوتدين مثلاً، ويربطها فورًا ببحر صاف من أبحر التفعيلات الرباعية، حتى ليمنع تحويرات جائزة فى أبحرٍ مختلطة إذا ما نتج عنها هذا التشكيل. فإذا ما قال على محمود طه (من الخفيف) مثلاً :

مَـرَّ نور الضحى على آدميٍّ مطرقٍ فى اختلاجة المصعوق

فى يديه حطامةُ الأملِ الذّا هِبِ فى ميعة الصبا المرموق

ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ا ا ه ا ه

فسنجد عند قراءة الشطر الأول من البيت الثانى أننا نشبع الهاء من «يديه» لتقرأ «يديهى» وإلا تحول الشطر فورًا إلى الشكل ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ا ا ه ا ه (فاعلاتك فاعلاتك فاعلُ) وأصبح من بحر الرمل (المتوفر).

(٧) الأبحر الممزوجة

نأتى الآن إلى الأبحر الممزوجة (غير الصافية). هذه الأبحر كلها ذات تفعيلات رباعية، وتأتى عن استبدال تفعيلة واحدة من التفاعيل الثلاث المكونة لأشطر الأبحر الصافية المعنية. ويتم الاستبدال فى أولى تفعيلات

الشطر، أو الوسطى منها، باستخدام التفعيلة الأعلى (رقميا) مباشرة، أما الاستبدال فى التفعيلة الأخيرة من الشطر (التام) فيحصل باستخدام التفعيلة الأدنى مباشرة. وهذه القاعدة هى التى تمكننا دائمًا من التعرف على الزحافات الرقمية. دعنا نجرى أولا عملية الاستبدال فى الأبحر الصافية الأربعة:

● من بحر الهزج (١١١) يمكن أن نستخرج بحرين باستبدال أولى التفعيلات أو الوسطى – ويكون ذلك باستخدام التفعيلة الأعلى مباشرة، فاعلاتن (التفعيلة رقم ٢). هذان البحران هما المطرد (١١٢) فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلين (ولا يوجد إلا مجزءًا) والمضارع (١٢١) مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن (ولا يوجد أيضًا إلا مجزوءًا)، ولا يمكن استبدال التفعيلة الأخيرة من الهزج لأن ذلك يتطلب تفعيلةً أدنى من ١ (ولا يوجد ثمة تفعيلة).

● من بحر الرمل (٢٢٢) يمكن استنباط ثلاثة أبحر هى: البسيط (٢٢٣) مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن، وتأتى تفعيلته الأخيرة فى الشطر التام عادة ناقصة سببها الأخير، كما قد يضاف إلى نهايتها سبب أو سببان، ومجزوء هذا البحر يسمى المجتث. ثم البحر الخفيف (٢٣٢) فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، وأخيرًا البحر المديد (١٢٢) فاعلاتن فاعلاتن مفاعيلن.

● من بحر الرجز (٣٣٣) يمكن توليد ثلاثة أبحر: المقتضب (٣٣٤) مفعولات مستفعلن مستفعلن، ولا يوجد إلا مجزوءًا، ثم المنسرح (٣٤٣) مستفعلن مفعولات مستفعلن، والسريع (٢٣٣) مستفعلن مستفعلن فاعلاتن.

● أما من بحر الدوبيت فلا يمكن أن نستنبط غير بحر واحد هو البحر الطويل (٣٤٤) مفعولات مفعولات مستفعلن، ويضاف لنهايته دائمًا سببان

خفيفان – فالاستبدال فى التفعيلة الأولى أو الوسطى يتطلب تفعيلة أعلى من ٤ غير موجودة.

شطر البحر الممزوج التام إذن يتألف من تفعيلة البحر الأصلى الصافى مكررة مرتين وأخرى مختلفة هى الأعلى مباشرة إن كانت فى الموقع الأول أو الثانى وهى الأدنى مباشرة إن كانت فى الموقع الثالث. ولعله قد أصبح واضحًا أن ثمة اختلافات فى التقطيع بين النظام الرقمى والنظام التقليدى (الذى قد يمزج مثلاً تفاعيل رباعية بأخرى ثلاثية) لكن الشيء المؤكد أن الدليل الرقمى للأشطر ثابت فى كلا النظامين.

(٨) الزحافات الثقيلة

من بين ما أظهرته الأدلة الرقمية حقيقة تختص بالزحافات الثقيلة تقول إن الزحاف الرقمى الناتج عن حذف ساكن السبب التالى مباشرة للسبب المقيد زحاف ثقيل. فإذا قال صالح الشرنوبى من البحر الخفيف:

أطعَمَتْهُ تفاحةً حَرَمَتهُ   من ظلال الفرادس الخالدات

ا ه ا ا ه ا ا ه ا ه ا ا ه ا ا ا ه ا ه   ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ه ا ه ا ا ه ا ا ه ا ه

(٢ – ٤ – ٧ – ١٠)   (٢ – ٥ – ٧ – ١٠)

أحسسنا بالثقل فى الشطر الأول إلا إذا أشبعنا الهاء من «أطعمته»، لتقرأ «أطعمتهو» ويصبح الدليل ٢ – ٧ – ١٠، وهذا ما لا نحس به فى الشطر الثانى. لقد أحسسنا بالثقل فى الشطر الأول بسبب حذف ساكن السبب الرابع (الرقم ٤) الذى يزيد بمقدار ٢ عن السبب المميز الذى قبله (٢). والفارق بين الرقم ٥ والرقم ٧ فى الشطر الثانى أيضًا اثنان، ولكن

الزحاف (٥) هنا غير ثقيل، لأن ثقل الزحاف يحدده موقعه (بعد السبب المميز لا (قبله)، وهو يزيد هنا بمقدار ٣ عن رقم السبب المميز السابق له.

وإذا ما قال محمود حسن إسماعيل من البحر السريع :

عَرِّج عليه ساعةً واتخذ   في ظله مأواك يا عابرُ

أو قال

في زهوة المرج شذى نائمٌ   أخشى عليه يقظة المنجلِ

(والدليل الرقمي للشطر الأول من البيت الأول، والثاني من البيت الثاني هو ٣ - ٥ - ٧ - ١٠) فسنحس أيضًا بالثقل في هذين الشطرين بسبب وجود الزحاف (رقم ٥) الذي يزيد ٢ عن السبب المميز الذي قبله، وسنجد أننا نشبع دائمًا الهاء من «عليه» في الشطرين (لتُقرأ: عليهي) لنتجنب هذا الزحاف، الذي يحيل التفعيلة الوسطى من مستفعلن إلى متفعلن. وهذا التحوير يحصل كثيرًا في هذه التفعيلة، إنما إذا وقعت في أول الشطر، إذ لا يكون عندئذ ثقيلاً، فلو أن الشاعر مثلاً قال (بزهوة المرج..) لما أحسسنا بثقل. وربما فسرت هذه الحقيقة السبب في ثقل مفاعلن تحويرًا لمفاعيلن في أي موقع لها بالشطر، فالزحاف الرقمي الذي يحصل هنا لابد يزيد بمقدار ٢ عن السبب المميز للتفعيلة. وهي تفسر أيضًا لماذا لا يصح ظهور رقم في الدليل الرقمي بعد رقم السبب المميز للتفعيلة الأخيرة بأشطر الأبحر الخليلية.

(٩) تنقية الزحافات

كيف تحدد هذه القواعد أرقام الزحافات وأرقام الأسباب المميزة؟ كيف يمكن بها التوصل إلى البحر؟ سنعالج الآن هنا الأبحر التامة فقط. لنرجع إلى المثالين اللذين ابتدأنا بهما هذا المقال. كمنا نقطّع السطر

سمَعتُها فانصرفْتُ مكتئبًا

ا ا ه ا ه ا ا ه ا ا ه ا ا ا ه

ونريد الآن أن نستدل من دليله الرقمي (وهو: ١ - ٣ - ٦ - ٨ - ١١) على دليل تفاعيل البحر، أى أن نحدد أرقام الأسباب المميزة الثلاثة ورقمي الزحافين. دعنا نرسم أولاً دليلاً يحيل هذه الأرقام إلى تفاعيل محتملة (والقاعدة بالطبع هى أن نترك ما فى الدليل من الأرقام ١، ٢، ٣، ٤ كما هو، وأن نطرح ٤ مما به من الأرقام ٥، ٦، ٧، ٨، وأن نطرح ٨ مما يحمله من الأرقام ٩، ١٠، ١١، ١٢ - والقيمة ٤ أو ٨ التى تُطْرَح تمثل عدد أسباب ما سبق الرقم من تفعيلات). سينتج لدينا إذن دليل التفعيلات المحتملة وسيكون (٣٤٢٣١)، والرقم الأخير فى التفاعيل المتحملة هذا (٣) يمثل رقم السبب المميز للتفعيلة الأخيرة (تفعيلة العروض)، ولأن هذه التفعيلة فى أبحر الخليل التامة لا يصح أن تكون أعلى رقيمًا من أى تفعيلة قبلها، فلابد أن يكون الرقمان ١، ٢ زحافين، وبذا يصبح دليل تفاعيل هذا البحر هو (٣٤٣) مستفعلن مفعولات مستفعلن (المنسرح)، ويكون دليله الرقمي ٣ - ٨ - ١١، والرقمان ١، ٦ فى الدليل الرقمي للشطر زحافين. القواعد إذن تحدد لنا بحرًا واحدًا - ولا غيره -

من الاحتمالات الأربعة التى ذكرناها فى أول المقال (وكانت : ٣٢١، ٣٢٣، ٣٤١، ٣٤٣).

فإذا عدنا للمثال الثانى وكنا فيه نقطّع الشطر

وفى يدى «الشمال» أشكالُ المنى

ا ا ٥ ا ا ٥ ا ا ٥ ا ا ٥ ا ٥ ا ٥ ا ا ٥

(ودليله الرلقمى ١ - ٣ - ٥ - ٧ - ١١) فمن الممكن كما وضحنا أن نحيل هذه الأرقام إلى تفاعيل محتملة، وستكون ٣٣١٣١، والتفعيلة الأخيرة فى الشطر هى ٣ (مستفعلن)، وطبيعى إذن أن يكون الرقمان ١ قبلها زحافين، أى أن البحر بالضرورة هو الرجز ٣٣٣ مستفعلن مستفعلن مستفعلن (ودليله الرقمى ٣ - ٧ - ١١) ويكون الرقمان ١، ٥ فى الدليل الرقمى لزحافين. أما بقية الاحتمالات التى ذكرناها فتخرج بالتأكيد عن قواعد المزج.

(١٠) النظام المغلق

يقول الدكتور أحمد كشك فى كتابه الذى أشرت إليه: «إن التغيير الداخلى سمة من سمات الوزن ووجوده ليس أمرًا عشوائيًا لا ضابط له».
ولعله قد أصبح واضحاً أن الطريقة الرقمية قد مكنتنا من التوصل إلى قواعد فى بنية الأبحر - لم يعرفها العروض التقليدى - تضمن عدم عشوائية الزحافات فتميزها من الأسباب المميزة. هذه القواعد لا تعطى من أبحر التفاعيل الرباعية الصافية والممزوجة غير ما رصده الخليل، بالاضافة إلى بحر المطرد الذى اعتبره الخليل مهملاً، ربما بسبب وجوده دائمًا مجزوءًا

في صورة أخذت على أنها من صور الخفيف، وإلى بحر الدوبيت الذى لم يكن للخليل أن يرصده بسبب اعتباره الوتد المجموع مقطعًا واحدًا.

ولا يخرج عن هذا النظام الرياضي المغلق من بين الأبحر التي أثبتها الخليل غير البحر المتقارب، ولقد أفرد له الخليل دائرة لم يُعَرِّف بها غيره، ليَعْتبر ما سماه الأخفش «المتدارك» بحرًا مهملاً. وهذا شيء محير - حيرنى كثيرًا حتى لقد حاولت مرة أن أبحث إن كان الخليل بالتأكيد قد أثبت البحر المتقارب هذا، أم أن أحدًا قد أضافه بعده. فماذا في المتقارب - ذى التفعيلة الثلاثية الأسباب - يشبه نظام الأبحر ذات التفاعيل الرباعية، ولا يوجد فى المتدارك؟ لماذا أحجم الخليل عن إدراج المتدارك أيضًا بين أبحره واعتبره مهملاً؟ ثمة تبرير محتمل يكمن في حقيقة أن النظام الرياضى لأبحر الخليل - وهى أساسًا أبحر تفاعيل رباعية - يقول إن الأذن العربية لا تقبل فارقًا رقميًا بين السبب المميز لأول تفعيلات الشطر والسبب المميز للتفعيلة الوسطى يزيد عن ٥، ولا فارقًا رقميًا بين السببين المميزين للوسطى والأخيرة يزيد عن ٤. وهذه حقيقة تتبع عن قواعد المزج التى ذكرت. ثم بحر واحد آخر يمكن للخليل أن يجده متسقًا مع هذه الحقيقة. وإن خالف قاعدة المزج، إذا ما كان يبحث في الشطر عن ثلاثة أسباب مميزة فقط، وثمة بحر آخر لم يكن له أن يكتشفه. أما البحر الأول فهو المتقارب (ودليله الرقمى ١ - ٤ - ٧ - ١٠)، فإذا اعتُبر من أبحر التفاعيل الرباعية فسيكون دليل تفاعيله ٢٣١ أو ٢٣٤، والدليل الأخير لا يعارض هذه الحقيقة، فالفارق فيه بين أى سببين مميزين متواليين يساوى ٣، وهو ما يدخل في نطاق المسموح بالرغم من خلط ثلاث تفاعيل (ويُقرأ الشطر عندئذ مَعُولاتُ

مستفعلن فـاعلاتن، ونغمتـه تطـابق تمامًـا فعولـن فعولـن فعولـن فعولـن).
أما البحر المتدارك (٢ – ٥ – ٨ – ١١) فسيكون دليـل تفاعيلـه الرباعيـة ٣١٢ (٢ – ٥ – ١١) أو ٣٤٢ (٢ – ٨ – ١١) وبكليهما فارق بين رقمين متواليين يزيد عـن ٥، وبـذا فـلا يصلحـان. كـان للخليـل إذن أن يـدرج المتقارب بين أبحره، وأن يهمل المتدارك، ولم يكن لـه أن يكتشـف بحـر شوقي (٣ – ٦ – ٩ – ١٢) (لأنه كان يعتبر الوتـد مقطعًـا واحـدًا)، وهـذا البحر يمكن أن يؤخذ كبحر تفاعيل رباعيـة دليـل تفاعيلـه ١٢٣ (ودليلـه الرقمـي ٣ – ٦ – ٩) فـهذا لا يعـارض الفـروق المسموحة بـين الأسـباب المميزة. البحر المتدارك الذى أضافـه الأخفـش إذن كـان فـى الحقيقـة أول خروج فعلى علـى الخليـل، فـهو لا يتبـع أيـا مـن القواعـد التـى كـانت توجهـه، وربمـا كـانت هـذه القـاعدة هـي السـبب فـي عـدم وجـود بحور مختلطة ذات تفـاعيل ثلاثيـة، فـالمقبول منـها هـو مـا يتفـق دليلـه الرقمـي مـع دليـل بحـر ممـزوج ذى تفـاعيل رباعيـة اعـتراه زحـاف، وبذا يصبح بلا أهمية لأنه بذلك إنمـا يضيـف عـبء سـبب مميز مضـاف يلـتزم بـه الشـاعر دون مـبرر. وعلـى سبيل المثـال فـإن بحـرًا تفعيلـه فاعلن فاعلن فعولن (٢ – ٥ – ٧ – ١٠) سيكن هو نفـس البحـر الخفيـف (٢ – ٧ – ١٠) إذا حـذف منـه كزحـاف سـاكن أول أسـباب التفعيلـة الوسطى (أى إذا أضيف إليه الزحاف الرقمى ٥).

(١١) الوتد المفروق

ولقد يثير البعض ضد الصياغة الرياضية أمرًا ما يسمى «الوتـد المفـروق» لأن المنظور الرياضى – على حد تعبير الدكتـور كشـك – «قـد أغفـل حـق

الوتد المفروق وما له من دور إيقاعى». لكن أحدًا لم يلاحـظ - أو لم يذكـر - ان هذا «الوتد المفروق» يحفظ بالضرورة ساكن السبب التالى لـه مباشـرة (إذا أهملنا تلك الأمثلة القليلة المصنوعة والخاطئة التى قـد توردهـا بعـض كتب العروض القديمة، والتـى ناقشـتها فـى كتـابى «مدخـل ريـاضى إلى عروض الشعر العربى»). القضية الحقيقية إذن أننـا أمـام سـبب محـذوف الساكن وجوبًا (مميِّن) يقول العروضيون إنـه يمنـع حـذف سـاكن السـبب السابق له مباشرة (ليتكـون «الوتـد المفـروق»)، ثـم يـهملون أو لا يلتفتـون إطلاقًا إلى حقيقة أنه يحفظ أيضًا سكان السبب التالى له مباشرة (وله هـو الآخر بالطبع دور إيقاعى)، بينما تؤكد الصياغة الرياضية أساسًا على هذه الحقيقة الأخيرة، فالأصل هو ضرورة ثبات ساكن السـبب التـالى للممـيز، أما استبقاء ساكن السبب السابق له فـهو أمـر فرعـى غـير ملـزم فـى كـل البحور. (ولقد رأينا أن بحر الدوبيب الصـافى لا يلـتزم بـه، ولنذكـر أنـه ليس ثمة بحر صاف لدى الخليل لتفعيلة ذات «وتد مفـروق»). والمعالجـة الرياضية تقدم قواعد عامة تسرى على جميع الأبحر، وتستطيع بوسيلتها التى ترتكز على ثبات ساكن «السبب المقيَّد» أن تحدد موقع السبب المميز (ما يهمها). فإذا ما كان هذا السبب المميز فى بعض المواقع ببعض الأبحر يمنع أيضًا حصول زحاف هو حذف ساكن السبب السـابق لـه مباشـرة - لقيمة إيقاعية خاصة - فهذا أمر يختص بالزحافـات المقبولـة والمكروهـة، والممنوعة. ويمكن بطبيعة الحال حصر هذه الحالات والتقنين لهـا، ولكـن ليس هناك من سبب يدعو للتشكك فى فعالية الصياغـة الرياضيـة، التـى تحـدد حتـى موقـع هـذا «الوتـد المفـروق». ثمـة ظواهـر كثـيرة مشـابهة

نقابلـها فـى العـروض التقليـدى، فالتفعيلـة مسـتفعلن علـى سـبيل المثـال تأتى فى عـروض أو ضـرب المقتضـب (المجـزوء) فـى صـورة واحـدة هـى مستعلن (ا ه ا ا ا ه)، فلماذا لم تمنح اسمًا خاصًا وتعتبر تفعيلـة أخرى غير مستفعلن فى هـذا الموقـع؟ إن حـذف سـاكن السـبب السـابق مباشـرة للسبب المميز لم يمنـع العروضيـين مـن أن يتركوهـا كصـورة مزاحفـة مـن مستفعلن بالرغم من «ضرورة» هذا «الطى» فيها.

(١٢) بحر الخبب : بحر السبب

تفعيلة الخليل يلزم أن تحمل وتدًا، إلا أن العروضيين يتخلون عن هذه الخصيصة الأساسية عندما تعييهم الحيلة. ثمة بحر – هو بحر الخبـب – قد يكون البيت فيه مجرد مجموعة متوالية من الأسباب الخفيفة:

إن الدنيـا قـد غرّتـنـــا واسـتهوتـنـا واسـتلهتـنـا

ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه ا ه

يقولون إنه تحوير من البحر المتدارك الذى تفعيلته فـاعلن (ا ه ا ا ه)، والتى لا يسمح فيها بغير زحاف واحد يحذف فيـه سـاكن السـبب الأول لتحول إلى فعلن (ا ا ا ه). «والظاهر أن الشاعر العربى كـان يضيـق بـهذا التقطيـع فـى وزن الخبـب فيعمـد إلى التخفيـف منـه باسـكان العـين فـى (فعلن) بين الحين والحين وبذلك يتحول السبب الثقيل إلى سبب خفيـف ويزول العناء» – هكذا تقول الشـاعرة الكبـيرة نـازك الملائكـة فـى كتابـها «قضايا الشعر الحر». ومعنى ما تقوله الشاعرة أنها جعلت السـبب المميز للتفعيلة ثاني متحركي سبب ثقيل حتـى تتمكـن مـن تحويلـه إلى سـاكن.

ولو أن فكرة كون السبب الثقيل صورة مزاحفة لسبب أصلى خفيف، قد طافت بذهن الشاعرة، لما اقترحت هذا الرأى الذى يهدر قاعدة الخليل الرئيسية بضرورة وجود وتد بكل تفعيلة. ثم أنها قد وجدت بعد ذلك أنها تكتب في هذا البحر، ولا تسكن المتحرك الأول من الوتد المجموع الأصلى للتفعيلة، وإنما تحذف ساكن هذا الوتد، لتحول فاعلن (ا ه ا ا ه) إلى فاعل (ا ه ا ا)، تشكّل مع أول أسباب التفعيلة التى تليها فاصلة صغرى. «وليس فى الشعراء، فيما أعلم، من يرتكب هذا سواى» – هكذا تقول. لكن هذا، فيما أعلم، ليس صحيحًا، فلقد «ارتكب» الشعراء هذا قبلها، بل إنى أذكر أننا كنا ننشد ونحن تلاميذ صغار (فى أوائل الأربعينات) :

ديكى ديكى، أنت صديقى   أنت أنيس البيت رفيقى

وهنا يتكرر هذا «الخطأ» العروضى ثلاث مرات. ويزداد الأمر تعقيدًا عند مواجهة الفاصلة الخماسية (ا ا ا ا ه) التى تكثر الآن فى الشعر الحر، والتى يمكن أن تبرّر إذا جاءت فعلن (بتحريك العين) مباشرة بعد فاعل (بتحريك اللام)، فى مثل هذا السطر الشعرى (وبدايته: فاعلُ فاعلُ فعلن..).

أشعر أنك تتوارين سئمتِ اللعبة

ا ه ا ا ا ه ا ا ا ا ه ا ه ا ا ا ه ا ه ا ه ا ه

ولكنا لن نجد لها تبريرًا فى قول الشاعر :

أحسستُ برجفة كتفيكِ

ا ه ا ه ا ا ا ه ا ا ا ا ا ه ا ه

ولقد رَصَدْتُ عددا من الفاصلات السباعية (ا ا ا ا ا ا ه) فى شعر بعض الشعراء المعاصرين (ومنهم صلاح عبد الصبور) يعجز العروض التقليدى بالطبع عن تفسيرها.

مرة أخرى، إن البساطة تعنى الكثير فى النظريات العلمية ، فالفرض الأبسط الذى يفسر الواقع هو الأفضل. ماذا لو اعتبرنا هذا البحر (الخبب) بحرًا غير خليلى، لا تفاعيل له ولا أسباب مميزة، وإنما هو توال لعدد من الأسباب الخفيفة، وحدته القاعدية هى «السبب»، الذى يجوز فيه تحريك الساكن ولا يجوز حذفه ، بحرًا يتكون فقط من الأسباب الخفيفة التامة والأسباب الثقيلة؟ إن هذا الفرض البسيط يتوافق مع الواقع ويفسر ما يوجد فى هذا البحر من تعقيدات ظاهرية ، ويميزه تمامًا عن البحر المتدارك التفعيلى الذى لا يشترك معه إلا فى جواز ظهور الفاصلة الصغرى، ويبرر ظهور ثلاث حركات متوالية قبل السكون، وخمس وسبع (وأية فاصلة ذات عدد فردى من المتحركات) فى أى موقع بالسطر الشعرى، كما يبرر عدم ظهور أى تتابع من عدد زوجى من المتحركات قبل السكون على الإطلاق، ولا حتى متحركين اثنين متتالين كما «فاعلن»، التفعيلة التى يقال إنها أصل البحر. فى حديث تليفونى مع الأخ الدكتور عبد العزيز نبوى، ذكر لى أن لديه مثالاً به فاصلة من اثنى عشر متحركاً قبل التوقف، ولما سألته إن كان يحس أنه مكسور أجاب بالنفى، وهنا قلت إن هذا مستحيل، إما أن يكون العدد أحد عشر

متحركًا أو ثلاثة عشر، ولكن ليس اثنى عشر. ووجدناه ثلاثة عشر. أما المثال فهو

حَكَمَ فَعَدل فَأمن فَنَامَا

ه | ه | | | | | | | | | | | | |

ارسم ثمانية أسباب خفيفة، اترك الأخيرين منها كما هما، وحرك سواكن الباقى لتحصل على هذه الفاصلة. فإذا ما حورنا هذا المثال وجعلنا له أربعة عشر متحركًا متواليًا قبل السكون :

حَكَمَ فَعَدل فَأمن ليناما

ه | ه | | | | | | | | | | | | | |

فمن منا لا يحس بأنه مكسور ؟

الفهرس

في العلم والشعر ٥

قراءة في كتابنا الوراثي

(مشروع الجينوم البشري) ٢٢

نار هرقليطس ٦٠

الإجهاض وعلم الوراثة الحديث ٧٨

عودة إلى دوللّي ٩١

البيوتكنولوجيا في الزراعة ١٠٨

اللاضيون: أعداء التكنولوجيا ١٢٤

أغذية فرانكنشتاين ١٣٤

رحلة إلى الماضي ١٤٦

عن كتاب (أصل الأنواع) ١٦٥

أبحر الخليل: نظام رياضي مغلق ١٨٠

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/٩٧٤٧	
الترقيم الدولى	977-02-5862-8	ISBN

١/٩٩/٥٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يضم هذا الكتاب بعضا من أهم المقالات التى كتبها الدكتور/أحمد مستجير فى مجالات العلوم الحديثة- حيث يسبح بنا بأسلوبه الهادئ السهل فى رحلة ممتعة إلى المياة الدافئة بين شطئان بحور العلم فيجعل المستحيل ممكنا..والصعب يسيرا.

هذا الكتاب يعرض الكثير عن مشروع الجينوم البشرى وأصل الإنسان وحياة العلماء والهندسة الوراثية و البيوتكنولوجيا .. وغيرها من علوم القرن الحادى والعشرين ،كما ينقل لنا لأول مرة لمحة قصيرة عن حياة المؤلف ، ثم ينهى الكتاب بعد ذلك بفصل غاية فى الطرافة عن علم العروض.



دار المعارف

٤٠٧٠٢٧/٠١

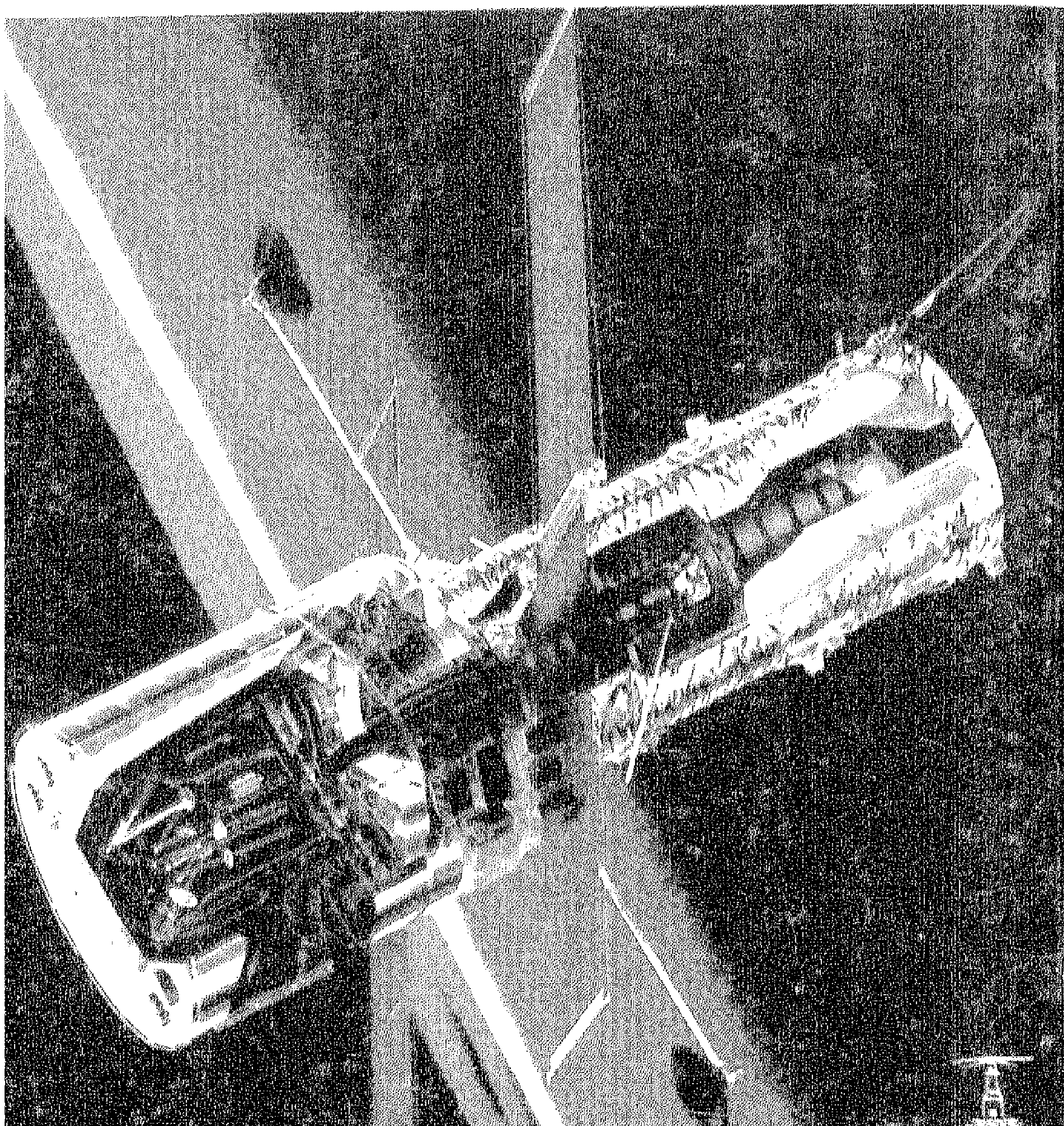


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور مصطفى إبراهيم فهمى

قضايا علمية



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٥]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعــــارف - ١١١٩ كورنيـــش النيـــل - القـــاهرة ج . م . ع .

دكتور مصطفى إبراهيم فهمى

قضايا علمية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

إهـــداء

إلى نخبة الأصدقاء من مريدى الثقافة العلمية

الذين أثروا المكتبة العربية بجهدهم المتواصل الرائد فى هذا المجال ، وزادوا حياتنا فرحة وبهجة بمناقشاتهم وخلافاتهم ومحبتهم وتآزرهم ، ولولاهم لما واصلنا السير على الدرب

إلى أعز الرفاق

سمير حنا صادق ، وشوقى جلال ، وأحمد مستجير ، ونبيل على ، وسامى خشبة ، وأحمد شوقى ، وفيصل يونس ، ويمنى الخولى .

كلمة المؤلف :

مرة أخرى نلتقى مع قراء سلسلة (اقرأ) الأعزاء فى رحلة نجـوب بـها آفاق علمية جديدة بعد آخر رحلـة معا منـذ حـوالى العـامين. والواقـع أن حصيلة العلم تتزايد الآن بمعدل هائل لم يسبق له مثيل ، بما يجعل المـرء يلهث وهو يجاول متابعة الجديد .

فى هذا الكتاب مقالات وأحاديث ومحـاضرات تتنـاول بعـض مـا هـو جديد فى علم الكونيات والفضاء خاصة بعـد دراسة نتـائج أرصـاد هـابل التليسكوب الفضـائى ، كمـا تتنـاول بعـض مشـاكل الوراثيـات الجديـدة والاستنساخ . وهناك أيضا بعض مقالات عن الثقافـة العلميـة والاختـلاف فى الرأى والمنهج العلمى ، وعن بعض الأوضاع الخاصة بالعلم والفكر فـى مصر وعن مواجهة العولـة والمشـاركة علميـا . ونرجـو أن يكـون فـى هـذه الجولة السريعة فى آفاق العلـم مـا يلقـى ضـوءا علـى بعـض شـئون العلـم الحديث فى العالم وفى مصر .

د . مصطفى إبراهيم فهمى

رؤية هابل : علم الفلك بالتليسكوب الفضائى (هابل)

عندما قرأت هذا الكتاب سحرنى بمعلوماته المهمة الشيقة التى عرضها عرضا سلسا يطوف بنا فضاء الكون بما فيه من كواكب ونجوم ومجرات ، كائنات حية تولد وتعيش وتموت ، ثم تتجدد كالعنقاء بأن تُبعث مكوناتها فى أجساد ما يتولد جديدا من هذه الكائنات ، إنها حديقة حيوان شاسعة ، فيها ما ألفناه كنجمنا الشمس وكواكبه ، وفيها ما هو متوحش كالثقوب السوداء ذات الجاذبية الهائلة التى تلتهم كل ما يقترب منها ، ويكمن أكثرها توحشا فى قلب الكوازارات ، تلك المجرات النائية فى أطراف الكون ، أبعد الأجرام وأكثرها فورانا بالطاقة . ومع الانتهاء من قراءة الكتاب تملكنى إحساس بالبهجة والانتشاء ، وكأنى قد احتويت الكون كله مثلما يحتوينى ، أو كما يقول بعض الصوفية الكل فى واحد والواحد فى كل ، ووددت لو أنقل لكل الناس هذه النشوة فبادرت بترجمة الكتاب ، أنهيت الترجمة فى شهور معدودة ، ولكن نشر الكتاب تطلب سنوات كان لابد منها حتى يمكن إقناع أحد الناشرين بإصداره رغم تكلفته الباهظة بسبب صوره الكثيرة الملونة . وكان أن اقتنع بالكتاب الأخ محمد السويدى أمين المجمع الثقافى فى أبى ظبى وتولى المجمع طبعه وإصداره على نحو رائع .

مؤلفا الكتاب كارولين بيترسون وجون سى براندت كلاهما من علماء الفلك وكتاب الثقافة العلمية وقد ساهما فى إنشاء (هابل) تليسكوب الفضاء الذى يسمى اختصارا (هتف) HTS ، وهما يعملان حاليا فى جامعة كولورادو .

في أواخر أبريل ١٩٩٠ انطلق المكوك ديسكفرى حاملا (هتف) أو (هابل) تليسكوب الفضاء ، وقد سمي المرصد على اسم إدوين هابل عالم الفلك الأمريكي الكبير الذى أثبت بأرصاده فى أوائل عشرينيات هذا القرن أن الكون يتمدد ، بمعنى أن نجومه ومجراته يتباعد أحدها عن الآخر . ومرصد هتف هذا لم يتم إطلاقه إلا بعد جهود عظيمة ومثابرة من ليمان سبيتزر عالم الفلك الأمريكي الذى يُعد الأب الروحى لفكرة مرصد الفضاء والعمل على تنفيذها . فقد كوّن مع زملائه رواق ضغط أو لوبى وتمكن بعد سنين كثيرة من إقناع الكونجرس الأمريكي باعتماد ٤٥٠ مليون دولار لإنشاء هتف . وكان من المقرر أن يُطلق المرصد فى ١٩٨٣ ، ولكن إنشاءه لقى عقبات كثيرة بيروقراطية وفنية أدت إلى تأخير إطلاقه مع تضخم نفقاته . وحتى عام ١٩٨٦ وصلت نفقات صنع هتف إلى ١,٦ مليار دولار ولم يكن جاهزا للإطلاق .

والفكرة من إطلاق هتف فى الفضاء على مسافة ٦٠٠ كم من الأرض هى أن يتمكن هذا التليسكوب المدارى وهو فى مداره البعيد حول الأرض ، من أن يستخدم فى أرصاده ، إلى جانب أشعة الضوء المرئى ، أنواع أخرى من الأشعة يصعب على المراصد الأرضية استخدامها . فغلاف الأرض الجوى يعوق مثلا استخدام الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء فى الأرصاد . وهتف وهو فى الفضاء يتغلب على هذه الإعاقة ، كما أنه يتجنب مصادر التلوث الأرضية ومعوقات الرصد كالحرارة والراديو والرياح والسحب . وبهذا فإن مرصد هتف يتمكن من الحصول على صور رصد أكثر نقاء ودقة وتحددا . وهو يمكننا من رؤية أجرام ضوءها أشحب بخمسين مثل من أبهت ما تراه المراصد الأرضية ، وساعات الرصد بهتف

تبلغ ٤٥٠٠ ساعة لكل سنة وذلك مقابل ٢٠٠٠ ساعة لكل سنة للمراصد الأرضية بسبب العقبات السابق ذكرها .

فى اليوم الثانى لإطلاق هتف تحرر مندفعا فى مداره الفضائى وهو ينشر ألواحه الشمسية ليوفر الطاقة لتشغيل أجهزته . وبعد شهر من إطلاق هتف انفتحت عدسته لتتلقى ما يسمى أول ضوء للمرصد . وهذه مناسبة يحتفل رجال الأرصاد الفلكية بها كما يُحتفل بتدشين السفينة ، أو لعله كما يقول أديبنا الغيطانى أشبه باحتفال ريفنا ببكارة العروس . وصورة أول ضوء تعتبر اختبارا لقدرات التليسكوب وأجهزته ، قد يعقبه بعض إصلاحات بسيطة لتحسين الصورة المرصودة لأفضل ما يتاح. ووسط مظاهر الابتهاج والاحتفال الحاشد تم فى أول ضوء لهتف رصد مجموعة عنقودية من النجوم تبعد عنا ١٣٠٠ سنة ضوئية ، والسنة الضوئية الواحدة تعنى مسافة تبعد عنا بحوالى ٩٥٠٠ مليار كيلومتر ، وهتف فيما يعرض يمكننا من النظر وراء فى الزمان بما يصل إلى ١٥٠٠ سنة ضوئية .

سرعان ما تبين العلماء أن الصور الأولى التى التقطها هتف صور مهزوزة ، وكان هتف ينظر للكون بأعين مصابة بقصر الإبصار بدون أن يرتدى نظارته الطبية . وفى أول الأمر كان الظن أن اختلال الصورة قد نتج عن عيب بسيط يسهل إصلاحه . على أنه تبين بعد تجارب عديدة ومناقشات عنيفة أن هناك عيبا خطيرا فى صقل المرآة الرئيسية التى تعد القلب لأى مرصد . واتضح أن سبب هذا العيب خطأ إنسانى سخيف فى استخدام جهاز تصحيح الصقل بانحراف قدره ١,٣ ملليمتر لا غير . وأدى هذا الخطأ إلى أن المرآة بدلا من أن تجمع الضوء فى نقطة صغيرة مركزة

بقدر ٨٥٪ أصبحت تجمعه فى نقطة واسعة منتشرة بقدرة تجميع من حوالى ٦٠٪ .

ساد الارتباك في دوائر ناسا ، خاصة بعد إذاعة النبأ في مؤتمر صحفى في يونيو ١٩٩٠ بما أدى إلى سخرية وسائل الإعلام سخرية مريرة من العلماء الذين بددوا الأموال العامة في مشروع خائب . وبعد نقاش طويل اتفق العلماء على إرسال بعثة من رواد الفضاء في مهمة صيانة وإصلاح لهتف ، مع استمرار عمله فى الرصد حتى إرسال البعثة ، والعمل على تحسين الصور ما أمكن باستخدام الكمبيوتر . تدرب رواد الفضاء على مهام بعثتهم تدريبا عنيفا مستمرا في محاكاة للحركة في الفضاء بأن يعملوا تحت الماء على نماذج لهتف ، وبأن يعملوا على أجهزة محاكاة بالكمبيوتر . استمر التدريب لما يزيد عن عامين ، وانطلقت بعثة الصيانة فى ديسمبر ١٩٩٣ ، ومعها جهاز لتصحيح بصريات المرآة المختلة ، وكذلك كاميرا من جيل جديد تحل مكان الكاميرا الرئيسية في هتف .

وعُرضت مهمة الصيانة على الملأ فى التليفزيون ، وأنجز رواد الفضاء إحدى عشرة مهمة للصيانة والإحلال بسهولة وسلاسة نتيجة تدريبهم الطويل .

وهكذا بعد مرور ٣ سنوات من إطلاق هتف أصبح يعمل كما خُطط له بل وأفضل ، فقد أصبحت لمرآته الرئيسية القدرة على تجميع ٨٧٪ من الضوء وليس ٨٥٪ فقط .

وصلت تكلفة هتف في إنشائه وإصلاحه وتشغيله فى أول ثلاث سنوات مبلغ ٢,٦ مليار دولار ، وذلك بخلاف رحلة الإطلاق . ويكلف تشغيل هتف في الرصد ثمانية دولارات فى الثانية الواحدة . وقد خطط

له أن يتم خلال عمره المقدر بخمسة عشر عاما ثلاث مهمات للصيانة والإحلال وهو فى الفضاء . هل يستحق هتف كل هذه النفقات ؟ على الرغم من بعض الاعتراضات إلا أن هتف ولا ريب يعد الآن مشروعا ناجحا أدى حتى الآن انجازات في علم الفلك لم تكن لتتيسر بدونه . وحتى أثناء أول ثلاث سنوات من أرصاد المرآة المختلة ، كان هتف يؤدى مهمته إلى حد ما ، وإن لم يكن ذلك على النحو الأمثل .

النتائج التفصيلية لأرصاد هتف لا يمكن أن تذكر كلها فى حيز هذا العرض ، ويكفينا أن نذكر بعض أمثلة لها . رصد هتف كواكب المنظومة الشمسية ، بيتنا وفناؤه الخلفي ، وهذه المنظومة مألوفة بالطبع للراصدين من الأرض منذ قرون ، ولكن هتف ألقى عليها نظرة أكثر قربا وبلقطات تستمر لزمن أطول كثيرا من لقطات المراصد الأرضية ، بما يبين بيانات وتفاصيل أدق تثبت أو تفند البيانات والنظريات السابقة . فرصد هتف مثلا المريخ أقرب الكواكب الصخرية إلينا والذى يعتبر البعض أنه مستعمرة المستقبل للبشر ، وبين هاتف التفاصيل فى مسافات صغيرة لا تزيد عن الخمسين كيلومتر . وبينت تحايل أرصاد هتف أن المياه كانت موجودة فى المريخ بأعماق من ٣ – ٢٧ متر . متى وجدت هذه المياه ، وكيف وجدت وأين اختفت ، وهل صاحبها كائنات حية بدائية كالبكتريا ؟

ما زال هذا كله مجالا لمزيد من الأبحاث . ورصد هتف أيضا سطح المريخ بوديانه وجباله وثلوج قطبيه ، كما درس فصوله ومناخه وعواصفه العنيفة التى تبدو كبقع متحركة . رصد هتف أيضا المشترى ، الكوكب المارد الغازى الذى يعد مع أقماره ، كأنه مشروع لم يكتمل لمنظومة شبه

شمسية . وكشف هتف عن تغيرات مستمرة فى بقعة حمراء على الكوكب بما يدل على وجود العواصف أيضا فى هذا الكوكب . وعندما رصد هتف زحل البارد الغازى الآخر كان رصده أوضح بألف مثل عن المراصد الأرضية . وتبين أن حلقات الغازات المحيطة بزحل فيها ثلاثة تقسيمات وليس اثنين فقط . وكشف هتف عن بقع عاصفة عند خط استواء زحل وتبين أن مصدرها ليس رياحا أفقية وإنما هو تفجر من أسفل لأعلى . وكان زحل يتجشأ غازات أمونيا أو نشادر . وبحث هتف خسوف النجوم وراء حلقات زحل بحيث تبين وجود معالم مذهلة فى هذه الحلقات بما فيها من ثغرات وأقمار مصغرة ، وبما مكّن من تمييز ٣٩ معلم جديد فى هذه الحلقات . ومن أروع ما رصده هتف فى المجموعة الشمسية مشهد اصطدام أحد المذنبات (شوميكر - ليفى ٩) بكوكب المشترى . والمذنبات أجرام تكونت أثناء نشأة المجموعة الشمسية من حوالى ٤,٥ مليار سنة ، وتحوى نفس الأخلطة الكيماوية التى ظهرت أثناء بدء تشكيل الكواكب . وهكذا فإن رصد المذنبات يساعد على فهم نشأة المنظومة الشمسية وتطورها ، كما أنه قد يعطى معلومات عن كيفية بدء الحياة من المواد الكيميائية الأولية . أما مشهد اصطدام مذنب بأحد الكواكب فهو مما لا يكاد يراه عالم الفلك إلا مرة واحدة فى عمره . والمذنب الذى اصطدم بالمشترى كان مفتتا فى عشرين قطعة تبدو كحبات عقد من اللآلىء ، عندما اصطدمت بالمشترى راحت كل قطعة منها فى كيانه باعثة وابلا هائلا من التراب ، مع تولد طاقة وانفجارات مروعة أرسلت مادة المشترى فى الفضاء مخلفة الندوب على سطحه .

وإحدى نتائج رصد هذا الاصطدام أن زاد اهتمام علماء الفلك بنظرية احتمال اصطدام جرم سماوى بالأرض يسبب دمارها . ووضعت خطة

لرصد المذنبات والكويكبات التى يتقاطع مدارها مع مدار الأرض بحيث يحتمل اصطدامها بها .

رصد هتف أيضا شتى النجوم فى أطوارها المختلفة ابتداء من ميلادها، ثم حياتها مستقرة فى توازن بين قوتين ، قوة التمدد بفعل الطاقة المنطلقة من فرنها النووى باندماج الهيدروجين فى هليوم ، وقوة الانكماش بفعل الشد الجذبوى لمادتها . وأخيرا رصد هتف النجوم فى احتضارها بأشكال مختلفة كالسوبرنوفا المتفجرة والأقزام البيضاء والنجوم النيوترونية والثقوب السوداء ، ويختلف مصير كل نجم محتضر حسب كتلته . والنجوم تبدأ فى الاحتضار عندما ينفد الوقود العادى للفرن النووى ، أى الهيدروجين، وقد يؤدى هذا أولا إلى تضخم النجم لعملاق أحمر بسبب تكون عناصر ثقيلة فى فرنه واحتراقها ، ثم ينفد هذا الوقود الثقيل أيضا وينفجر غلاف النجم فى سوبرنوفا تبعث طاقة هائلة يصدر عنها ضياء باهر يفوق ضياء مجرات ، ويتقلص قلب النجم أو فرنه السابق إلى أنواع مختلفة من الأجرام حسب كتلته . فإذا كانت الكتلة مماثلة لكتلة الشمس تقلص النجم إلى قزم أبيض فى حجم الأرض تقريبا . ولكن كتلته تبلغ ٣٠٠٠٠٠ مثل لكتلة الأرض ، حتى أن ملعقة صغيرة من مادة القزم الأبيض تزن عشرة أطنان . وإذا كانت كتلة النجم أكبر من الشمس بما لا يزيد عن ثلاثة أمثال ، فإنه ينقلص إلى نجم نيوترونى حيث يصحب انكماشه الشديد إندماج الالكترونات السالبة مع البروتونات الموجبة فى جسيمات نيوترون متعادلة .

والنجوم النيوترونية تسمى أيضا بالنابضات حيث ينتج عنها نبضات إشعاع مثل ومضات الضوء من فنار . إما إذا كانت كتلة النجم أكبر من ذلك فإنه يتقلص إلى ثقب أسود ، أى إلى حجم صغير جدا من مادة مكثفة

لها جاذبية بالغة الشدة بحيث تجذب إليها كل شيء ولا يخرج منها شيء ولا حتى الضوء فتصبح هذه الكتلة المتقلصة في حيز صغير جدا ثقبا أسود لا يمكن رؤيته ، وإنما ندرك وجوده فقط بتأثير جاذبيته وما يصحب ذلك من تفجر للطاقة على حدود الثقب الخارجية التى تسمى بأفق الحدث ، أى آخر ما يقع من حدث خارج الثقب . وفيما يعرض فإن هناك نوعين آخرين من الثقوب السوداء غير هذه الثقوب النجمية . فهناك ثقوب سوداء هائلة فى مركز المجرات ، هي غالبا نتيجة تجمع لثقوب سوداء نجمية أو نتيجة اصطدام المجرات واندماج قلوبها من الثقوب السوداء . وهناك قرائن قوية على وجود الثقوب السوداء النجمية والمجرية . أما النوع الثالث من الثقوب السوداء فهو ثقوب سوداء بدائية صغيرة ، يفترض أنها تتكون أثناء اللحظات الأولى من عمر الكون حسب نظرية نشأة الكون بالانفجار الكبير . وحتى الآن لا توجد أدلة عملية قوية على وجود هذه الثقوب البدائية . وهكذا كان من مهام هتف أيضا التحقق من وجود الثقوب السوداء بأنواعها المختلفة على أساس أدلة عملية حاسمة .

هذا عن احتضار النجوم، أما ميلادها فإن النجوم تتولد من تجاذب سحب غاز وغبار، وقد رصد هتف تولد النجوم بكثرة فى الأذرع اللولبية لمجرتنا ذرب التبانة. كما أن هناك سدم مثل سديم الأوريون (الجوزاء) فيها سحابة غاز وغبار، تعد دار حضانة لتوالد النجوم. وتوالد النجوم يصحبه توالد كواكب بدائية، ويتطور الاثنان معا حتى ينضجا. ومن الأحداث التى تساعد على توالد النجوم اصطدام المجرات وتفجرات السوبرنوفا. وقد رصد هتف كل هذه الأشكال والأحداث المثيرة فى حديقة حيوان النجوم. كما رصد وجود النجوم فى ثنائيات يدور فيها أحدها

حول الآخر، وقد يسكب بعضها من مادتـه للآخـر فـى مشـهد خـلاب ، يصحبه تفجر أشعة إكس . وأفاد هتف في تمييز الحدود الفاصلة بين كل من النجمين الثنائيين، الأمر الذى يصعب تمييزه من المراصد الأرضية.

ورصد هتف الوسط ما بين النجوم ومدى وفرة العنـاصر المختلفـة فيـه. والعناصر الثقيلة هنا تكون نتيجـة فقدان مادة النجوم الأوليـة أو تفجرهـا، ثم تستخدم هذه العناصر الثقيلة فى تكوين النجـوم الثانويـة مثـل شمسـنا وكواكبها، ثم تدخل هذه العناصر فى تكوين الكائنات الحية فـى كوكـب الأرض، وبالتالى فإن العناصر الموجودة في أجسادنا أصلـها غبـار مـا بـين النجوم! كذلك رصد هتف ما يسمى بالنجوم المتمـيزة كيميائيـا، أى التـى يوجد فيها بعض العناصر بوفرة غير معتادة تفوق ما فى النجـوم العاديـة. وكشف هتف لأول مرة أن أحـد هـذه النجـوم يحـوى عنـاصر ثقيلـة غـير متوقعة كالزئبق والبلاتين، وتطلب هذا الكشـف تعاونـا وثيقـا بـين علمـاء الفيزياء الفلكية التي تتناول أكبر أجـرام الكـون، وعلمـاء الفيزيـاء الذريـة التى تتناول أصغر الجسيمات فى الكون، وحدث تقـدم غـير مسـبوق فـى هذا المجال. ومعرفة العناصر المكونـة للنجـوم أحـد المفـاتيح المهمـة لفـهم تركيبها وتطورها وعمرها.

ومن الأرصاد التى تثير الاهتمام والافتتان معا رصـد هتـف للمجـرات، مدن الكون التى تتكون من تجمع النجوم فى أعداد هائلة قد تبلـغ مئـات البلايين. والمجرات مثل كل أجرام الفضاء لها فلك تدور فيـه، وتسـتغرق دورة كل مجرة مئات ملايين السنين فى حركة مهيبة متئـدة لا يمكـن أن نراها بالأعين، وإنما ندركها بتحليل طيف الضوء الآتى من المجرة.

وتختلف المجرات في شكلها ونشاطها. فهناك مجرات لولبية مثل مجرتنا لها أذرع يظهر فيها نشاط ولادة النجوم. وهناك مجرات أخرى أهليلجية ليست نشطة ونجومها كبيرة السن. ومن المناظر المهيبة التي رصدها هتف مشهد اصطدام إحدى المجرات بالأخرى، مع ما يصحب ذلك من تولد طاقة شديدة وإشعاع ورياح، ثم هناك أرصاد الكوازارات أبعد المجرات عنا، وما يصحبها من ثقوب سوداء في قلبها تعمل كمحركات ضخمة ومصادر للطاقة عند أفق الحدث تؤدى إلى انبعاث إشعاع ونفثات هائلة من غاز ورياح. وبينت أرصاد هتف بوضوح الكثير من هذه الملامح التى تطرح دليلا قويا على شيوع وجود ثقوب سوداء في قلب المجرات وخاصة الكوازارات. ورصد الكوازارات ودراسة انحناء مسار ضوئها بجاذبية الأجرام الأخرى يفيد في تحديد مسافة بعد المجرات وفى تحديد كثافة مادة الكون. وتحديد هذه الكثافة أمر مهم في تحديد مصير الكون، وهل سيتمدد إلى خواء أو ينكمش إلى نقطة كما كان في بدايته قبل الانفجار الكبير، أم سيبقى كما هو على حاله؟ كما أن تحديد كثافة الكون أمر مهم للتعرف على طبيعة ومقدار ما يسمى بالمادة المظلمة، أى مادة الكون التى لا نراها بخلاف ما نرصده من الأجرام، ونحن ندرك وجود هذه المادة من تأثير جاذبيتها على حركة الأجرام المرئية. وقد ثبت أن هذه المادة تكون ٩٠ – ٩٩٪ من مادة الكون.

وهناك عدة نظريات عن طبيعة هذه المادة، إحداها أنها ربما تتكون أساسا من الثقوب السوداء البدائية الصغيرة.

النتائج المهمة التى توصلنا إليها عموما من أبحاث هتف المتنوعة تتلخص تقريبا في التالي. مكن هتف من تدقيق مسافات بعد الأجرام في

الكون خاصة فى أجزائه القصية. وأدى تحديد المسافات بدقة إلى تحديد أدق لمعدل تمدد الكون أو تباعد مجراته ونجومه أحدها عن الآخر. ويقاس معدل تمدد الكون حسب ما يعرف بثابت هابل. وقد بينت أرصاد هتف أن ثابت هابل أكبر مما كان متفقا عليه من قبل. وإذا كان الكون هكذا يتمدد بسرعة أكبر فإن ذلك يعنى أن عمره أقل مما قدر سابقا. وبعد أن كان عمر الكون يقدر بأنه بين ١٣ – ١٥ مليار سنة، أصبح بعد أرصاد هابل يقدر بحوالى ١٠ مليار سنة. ولكن هذا يتناقض مع تقدير عمر بعض النجوم حسب الأرصاد الحالية، إذ يقدر عمرها بأكثر من ١٠ مليار سنة، وكأنها ولدت قبل مولد الكون! وهذا التناقض يعنى وجود خطأ لابد من كشف سببه.

تطرح النظريات أن مصير الكون يتوقف على كثافة مادته، فإذا كانت هذه الكثافة كبيرة تتغلب قوة الجاذبية على قوة التمدد ليتقلص الكون على نفسه. وإذا كانت الكثافة قليلة تمدد الكون إلى خواء. وقد بينت دراسة بيانات هتف فى أواخر سنة ١٩٩٨ أن الكون يتمدد تمددا هينا بكثافة لا تزيد إلا قليلا عن الكثافة الحرجة اللازمة لوقف تمدد الكون. وهذا يتيح للكون أن يستمر موجودا لزمن لا نهائى تقريبا.

تواصلت بعثات رواد الفضاء إلى هتف لصيانة أجهزته أو إحلالها بأجهزة جديدة لإنجاز أداء أفضل. فأجريت فى عام ٩٣ ، ١٩٩٧ تجديدات فى كاميرا هتف الأساسية وجهازى رسم الطيف وذلك لتحسين ارصاده بالأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء بالإضافة إلى الضوء المرئى. وقد خطط لبعثة فى نوفمبر سنة ١٩٩٩ لتضع كاميرا جديدة تسمى الكاميرا المتقدمة، توضع مكان كاميرا هتف الثانية المسماة كاميرا الجرم

الباهت. وسوف تستخدم الكاميرا المتقدمة أحدث أوجه التقدم فى التصوير والإلكترونيات والتكنولوجيا الرقمية، وسوف تواصل هذه الكاميرا خدمة هتف لزمن يتجاوز ما يفترض من نهاية استخدامه فى عام ٢٠٠٥، وهناك خطة أيضا لبعثة إلى هتف فى سنة ٢٠٠٢ لتضع فيه جهاز جديد لم تتحدد تفاصيله بعد، حيث يتوقف الأمر على ما سيجد قبلها من اكتشافات تتطلب احتياجات جديدة.

وأخيرا فإن الكون الذى تراه أعين هتف فيه أوجه اختلاف رئيسية مع النظريات التى أنشأناها لتفسير الكون، بل إن كون هتف فيه أحيانا ما هو أعجب من كل ما جرؤنا على تخيله فى أى وقت. وككل تقدم علمى أثارت أرصاد هتف مشاكل جديدة أو عمقت مشاكل قديمة فى علم الكونيات، بما يتطلب حلا جديدا. فمازال هناك مثلا مشكلة تناقض عمر الكون مع عمر النجوم، ومشكلة طريقة تكوين المجرات، وهل تتكون النجوم أولا لتتجمع فى مجرات أم تتكون مجرات بدائية أولا تتوالد فيها النجوم. ثم هناك مشكلة المادة المظلمة وطبيعتها ومقدارها.. وقد حددت لكاميرا ١٩٩٩ المتقدمة برامج علمية جديدة من نوع المفاتيح العلمية التى قد تحل بعض المشاكل السابقة، ومن هذه المهام مثلا قياس جو الكواكب ورصد تطور المجرات، وتوزيع المادة المظلمة.

يحكى لنا كتاب رؤية هابل انجازات هتف من وجهة نظر المؤلفين، وهما طبعا من أنصار هتف وشاركا فى إنشائه وأبحاثه وكتابة برامج فيديو عنه. على أن تليسكوب هتف كان دائما مثار جدل بين العلماء ما بين مؤيد ومعارض سواء بالنسبة لإنشائه. أو بالنسبة لأرصاده. فهناك عدد له قدره من العلماء يعارضون عموما مشروعات العلم الكبير كهتف ومشروع

الطاقم الوراثي البشرى (الجينوم)، باعتبار أنها مشاريع ذات تكلفة باهظة تصل إلى مليارات الدولارات، ويرى بعض المعترضين أنها مشاريع تنفذ لصالح أفراد وشركات معينة أكثر مما هي لصالح العلم، وأنها تنفذ بدون أن يقدر في نفس الوقت حساب الفرص البديلة اقتصاديا، فهذه المبالغ الهائلة ربما كان يمكن أن تنفق على بدائل من مشروعات علمية متعددة ربما كانت محصلتها أفضل من مشروع واحد كبير. وكان على رأس المعترضين على إنشاء هابل جبهة من علماء الفضاء المهتمين بأبحاث الكواكب وإرسال سفن فضاء صغيرة في مهام محددة تعتبر رخيصة بالنسبة لهتف. أما بالنسبة لأرصاد هتف بعد إطلاقه، فإن من بين علماء المراصد الأرضية من يقللون من أهميتها، ويرون أن هتف لم ينجز نتائج تساوى ما أنفق عليه. وبعضهم مثل البريطاني مايكل هوكنز يرون أن التناقض بين عمر الكون حسب هتف وبين عمر النجوم ربما يكون بسبب خطأ في منهج علماء هتف. كما يرون أن وسائل الإعلام كلها تهلل وتبالغ دائما كلما نطق أحد علماء هتف بأى كلمة، ولا تلقى اهتماما لأبحاث علماء الرصد من الأرض. ويضرب هوكنز مثلا لذلك بأنه حضر مؤتمرا في أمريكا سنة ١٩٩٤ أعلنت فيه أبحاث رصد أرضية أظهرت لأول مرة بعض نتائج جديدة عن بعض النجوم في هالات المجرات. ثم فوجئ بعد ستة شهور بعلماء هتف يعلنون النتائج نفسها على أنهم اكتشفوها لأول مرة، ووسائل الإعلام تهلل لذلك! ومع إقرار هوكنز بأن هتف له أهميته في أرصاد معينة، إلا أن الكثير من الصور الجميلة التي التقطها وهلل لها الإعلام، هي مجرد صور جميلة ليس لها أهمية علمية وبالإضافة فإنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تقدم كبير في تكنولوجيا المراصد الأرضية بحيث تغلبت على الكثير من مشاكل الرصد بسبب

الغلاف الجـوى، وهنـاك أيضـا اعـتراض اقتصـادى سياسـى يـهم البـلاد النامية، فهناك من يرون أنه كان من الأولى أن يتوجه بعض مـن مليـارات العلم الكبير إلى مشاريع علميـة تسـهم فـى حـل مشـاكل البـلاد الناميـة، خاصة وأن جزءا له قدره من هذه الأموال مصدره تلك الدول النامية التـى تعتصرها اقتصاديا الدول المتقدمة.

سواء كانت هذه الاعتراضات صحيحة بالكامل أو جزئيـا، فـإن هتـف سـيظل يواصـل دورانـه وأرصـاده حتـى ٢٠٠٥، ويتواصـل الجـدل حـول ما يخبرنا به عن الكون . ونحن على الرغم من كل ما رصدنـاه مـن هتـف ومن المراصد الأرضية إلا أننا مازلنا نقف عند أول المياه على شـاطئ بحـر علم الكونيات، ولم نخض فيه إلا بما يبلـل أصـابع القدمـين، كمـا يقـول كارل ساجان عالم الفلك الراحل الكبير.

مرحبا بسفن المريخ: بعد انقطاع ٢١ عاما

فى يوم الجمعة الرابع من يوليو ٩٧ تم إسقاط سفينة فضاء غير مأهولة على سطح المريخ أو الكوكب الأحمر أقرب جيران الأرض من الكواكب، والذى يبلغ حجمه نصف حجم الأرض تقريبا. وسفينة «الباحث عن الدرب» قد قطعت هكذا رحلة من حوالى ٥٠٠ مليون كيلومتر فى مدى سبعة شهور. وعندما أصبحت السفينة على بعد ٨ كيلومتر من سطح المريخ انفتح باراشوت ليقلل من سرعتها، ومع زيادة اقترابها من السطح انطلقت صواريخ كابحة تقلل من سرعة الهبوط، وانتفخت أربعة أكياس من الهواء تحيط بالسفينة لتجعل هبوطها على السطح آمنا. وحطت المركبة على السطح محاطة بشرنقة الأكياس المنتفخة ثم ارتدت عاليا كالكرة لارتفاع يصل إلى ٢٠٠ متر وتكرر ذلك عدة مرات حتى استوت السفينة جالسة فوق قاعدتها فى مجرى قناة جافة عملاقة تسمى وادى أريس. وتفتحت أكياس الهواء كبتلات الزهرة فى المنظر الرائع الذى عرضته شاشات التلفزيون. وكان المفروض أن يتدلى بعدها مدرج هبوط فى شكل سلمين منحدرين لتهبط عليه من السفينة عربة صغيرة كاللعبة، وطولها ٦٠ سنتيمترا ووزنها ١٠ كيلوجرام ولها ست عجلات. إلا أن أحد أكياس الهواء عاق من نزول هذا المدرج، واستغرق إصلاح الأمر يوما كاملا انحدرت بعده العربة الجوالة من السفينة لتستكشف وادى أريس وهى تسير متأنية بسرعة متر واحد فى كل ثانية، وتسجل العربة البيانات عن تكوين وحجم صخور المريخ وحجارته وغباره وما تحويه تربته من معادن. والعربة مزودة بكاميرا معقدة ذات عدستين تسجل صورا مقربة لمناظر

المريخ. ويعتقد العالم بيتر سميث بجامعة أريزونا أن هـذه الكاميرا عندما توجه للأفق ستصور لنا غروبا أزرق اللون ، ونحن على الأرض نرى غروبا أحمر اللون لأن طبقات الغاز تشتت الضـوء الأزرق فيبقـى مـا نـراه أحمـر اللون. أما على المريخ فإن غباره الأحمـر سيتشتت الضوء الأحمـر فـنرى قرص الغروب أزرق اللون. أما سفينة الباحث عن الدرب فقد ظلت قابعـة فى مكانها وهى ترسل الصور والبيانات عـن الجـو والطقس. كمـا تحمـل السفينة مقياس طيف يحلل الـتركيب المعدنـى للصخـور بخـلاف أجـهزة رصد الحـرارة والرطوبـة. وهـذا كلـه مجـرد خطـوات أولى تمـهد لتحقيـق الغرض النهائى من رحلات سفن الفضاء للمريخ، وهو إنـزال أفـراد البشـر على سطح المريخ. وكانت وكالة ناسا قد أعلنـت فيمـا سبق أنـها تخطـط لإنزال الإنسان على سطح المريخ فى سـنة ٢٠٢٠ علـى أنـه يـتردد القـول الآن بأن موعد الإنزال سيكون فى وقت ما من النصف الأول للقرن التالى، وأن التحديد الدقيق لموعد الإنزال سـيعتمد علـى نتـائج سلسـلة مـن تسـع رحلات أخرى لسفن الفضاء من مجسات المريخ التى إما تهبط على سـطح الكوكب أو تلف فى مدار من حوله لسنين معدودة.

وثمة سؤال يتردد دائما بين العلماء والجمهور عما إذا كان ثمـة إمكـان لوجود حياة على كوكب المريخ. إلا أن المشرفين على مهمة «الباحث عن الدرب» ينبهون إلى أن مهمة هذه السفينة لن تؤدى إلى ما يجعـل العلمـاء يحسمون الإجابة عن هذا السؤال. فالأجهزة التى فى هذه المهمـة يمكنـها وحسب القيام بمهام من نوع تحليل الصخور وعينات التربة ورصد الجو، والإجابة عن أسئلة مثل: هل هناك نيازك تأتى فعلا من المريخ؟ أو ما هى العمليات التى تحول الصخور إلى تربة؟ وغـير ذلـك مـن الإجابـات التـى تزيد من فهمنا للمريخ وتعرفنا عليه.

وتبث نتائج الرحلة أولا بأول على شبكة ويب، وقد توقع رجال ناسا تزاحم الطلب على مواضع الشبكة بمعدل ٢٥ مليون موقع فى اليوم، بينما تستطيع الشبكة فحسب التعامل مع طلب مليون موقع فى اليوم. وبالتالى فقد تم الاتفاق مع ٢٤ منظمة فى ثمانية أقطار مختلفة لتزود بمرايا تعكس المواضع بما يسهل التعامل مع ما هو متوقع من كثافة فى حركة مرور الطلبات.

ولكن لماذا يهتم العلماء والجمهور كل هذا الاهتمام بالمريخ؟ هل الأمر مجرد نزوة أكاديمية أو فضول للمعرفة؟ الواقع أن هناك ما هو أعمق من ذلك من الناحية العملية التطبيقية. فالمريخ بصفته أقرب الكواكب للأرض يعد أحد الأماكن المحتملة لهجرة البشر من الأرض. فترتيب الكواكب حسب قربها من الشمس يبدأ بالكواكب الصخرية عطارد فالزهرة فالأرض فالمريخ ثم يلى ذلك الكواكب الغازية التى لا تصلح للبشر كالمشترى وزحل وأورانوس ونبتون وأخيرا بلوتو. واحتمال هجرة البشر من الأرض لأحد الكواكب يأخذه علماء الغرب مأخذا جديا ولم يعد بعد مجرد حلم من أحلام روايات الخيال العلمى. ويدرس العلماء جديا ظروف المريخ والقمر القريبين من الأرض وإمكان استخدامتها كمستعمرات للبشر يمكن أن يتأقلموا على العيش فيها. ومبررات هذه الهجرة عديدة، منها اكتظاظ الأرض بسكانها، ومحاولة استغلال ما فى الكواكب من معادن لا توجد على الأرض، كذلك استغلالها لتنتقل إليها الصناعات التى تلوث الأرض. كما أن الأرض قد تتعرض لخطر الاصطدام بنيزك أو كويكب قد يدمرها، وهذا الاحتمال وإن كان جد ضئيل حاليا إلا أنه موجود، وينبغى التحسب له وإيجاد أماكن إيواء احتياطية للبشر.

وإذا كان الإنسان سيعيش على المريخ أو يحاول استغلاله فإن ينبغى أن يدرس مدى احتمال وجود حياة على المريخ وأثر ذلك على من سيعيشون فيه. والحديث علميا عن وجود حياة على المريخ يرجع إلى عشرات السنين. ولعل أول المقاولات العلمية عن ذلك ما كتبه العلماء فى القرن الماضى عندما رصدوا المريخ وقد غطاه ما بدا كشبكة قنوات ضخمة منتظمة، حتى لقد كتب العالم برسيفال لويل فى أوائل القرن العشرين مقالا يؤكد فيه أن هذه الشبكة المنظمة التى تغطى مساحة تصل إلى ٢١٢ مليون ميل مربع لابد وأنها من صنع مجتمع راق من كائنات حية ذكية، على أن هذا أمر لم يثبت حتى الآن. وإذا كانت روايات الخيال العلمى تصر على وجود حياة ذكية على المريخ قد يتصل أصحابها بسكان الأرض، بل ويحاربونهم أحيانا، إلا أن العلماء يعتقدون أنه لو كان هناك حقا حياة على المريخ فسوف تكون فحسب فى شكل حياة بدائية كالبكتريا أو غيرها من الكائنات الدقيقة. وقد تردد فى العام الماضى أن هناك نيزك يعتقد أنه سقط على الأرض من المريخ ويوجد به من الدلائل ما يطرح وجود مواد عضوية وكائنات كالبكتريا-أصلها من المريخ، على أن كثرة من العلماء قد اعترضت على ذلك مدللة على أن دلائل الحياة التى فى النيزك أصلها من الأرض وليس المريخ.

وسفينة «الباحث عن الدرب» أول سفينة تصل إلى المريخ بعد انقطاع الرحلات لواحد وعشرين عاما. وأول رحلات سفن المجسات إلى المريخ كانت سلسلة رحلات سفن مارينر التى أطلقتها ناسا فى الفترة من أوائل الستينيات إلى منتصف السبعينيات. وقد مرت مجسات مارينر هذه بجو المريخ مرورا عابرا وأمدتنا بمناظر عن قرب للمريخ وكذلك أيضا للزهرة وعطارد. ثم أطلقت وكالة ناسا بعد ذلك فى أواخر السبعينيات سلسلة

رحلات فايكنج، ومنها ما اتخذ مداره حول المريخ، كما هبطت إحدى سفن فايكنج على سطح الكواكب سنة ١٩٧٦. وأرسلت سفن فايكنج إلى الأرض تيارا مفصلا من بيانات دقيقة عن المريخ استمر حتى ١٩٨٢، مبينا ظروف الكوكب الجوية وظروف سطحه. كما كان من الأغراض الأساسية لسلسلة فايكنج أخذ عينات من تربة المريخ أجريت عليها تجارب في محاولة لاستنبات كائنات حية دقيقة مثل البكتريا، على أنه اتضح من هذه التجارب أنه لا توجد حياة على المريخ كما نعرفها على الأرض.

وما لبث إرسال سفن الفضاء إلى المريخ أن توقف لفترة طويلة دامت حوالى سبعة عشر عاما، وذلك لأسباب فنية ومادية. ومن أهم هذه الأسباب ردود الفعل التى نتجت عن انفجار مكوك الفضاء تشالنجر وموت كل ملاحيه. كذلك فإن وكالة ناسا قد توصلت فى أوائل الثمانينيات إلى أنه قد انتهى عهد المهام الضخمة لرحلات الفضاء التى تمولها ميزانيات بألوف الملايين من الدولارات مثل تلك التى مولت سلسلة الفايكنج. وبدلا من ذلك فإن من الأفضل إرسال سفن مجسات تكون أهداف مهامها العلمية محدودة محددة بحيث لا تزيد التكلفة عن مئات الملايين وليس آلاف الملايين من الدولارات.

وأخذ العلماء يخططون لإرسال سفن للمريخ تهدف لا فحسب للبحث عن حياة عليه، وإنما أيضا لرصد ومسح الكوكب بأكمله للوصول إلى الإجابة عن كثير من الأسئلة عما يوجد من غموض بشأن المريخ. من ذلك مثلا أنه إذا كان المريخ بلا حياة فما الذى يمنع نشأة الحياة عليه مع وجود آثار مياه فيه؟ وتلك القنوات والجزر التى تبدو على سطح المريخ وكأنها قد صنعتها المياه، أين هذه المياه؟ هل أصبح الماء محبوسا فى ثلج

قطبى المريخ؟ هل اختفت المياه فى أعماق الكوكب أو لعلها قريبة من السطح؟ ومن ألغاز المريخ أيضا تكوين طبقة الجو المحيطة به، ورقتها وسمكها الرهيف. ثم هناك مناخ الكوكب البارد وما يطرأ عليه من الفصول وتغيراتها، وما يحل به من عواصف يعتقد أنها تحدث دوريا. ما سبب تلك العواصف الدورية التى قد تنتشر باتساع الكوكب كله وتظل تحجب سطحه لأيام بل وأسابيع؟ وهذه المعلومات تعيننا على تفهم طريقة نشأة المريخ الأمر الذى يساعدنا على تفهم طريقة نشأة الأرض أيضا حيث أنهما معا من كواكب المنظومة الشمسية. والوصول إلى الإجابة عن هذه الأسئلة يتطلب الاستمرار فى أبحاثنا على المريخ طيلة سنوات متصلة.

وهكذا عاود العلماء محاولاتهم لإرسال سفن المجسات إلى المريخ، فأرسلت سفينتان باسم فوبوس لاستكشاف الكوكب كذلك أرسلت سفينة باسم راصد المريخ لتدور من حوله لمده سنة مريخية أى ٦٨٧ يوما من أيام الأرض. على أن هذه السفن الثلاث ضاعت كلها فى الفضاء بدون أن تؤدى مهمتها، وفقد العلماء أى اتصال بها مع تكلفتها الباهظة. وكان آخرها سفينة راصد المريخ الى أطلقت فى أواخر ١٩٩٢ بتكلفة بلغت حوالى ٩٠٠ مليون دولار، وكان حجمها يبلغ حجم سيارتين ووزنها يصل إلى طنين، وتعمل فيها أجهزة ذات تكنولوجيا فائقة لرسم الخرائط الجيولوجية والكيمائية والمغناطيسية ورصد مناخ الكوكب وسطحه وبراكينه وزلازله ورياحه وضاع هذا كله فى الفضاء فى عام ١٩٩٣.

واضطر العلماء إلى وقفة أخرى يعيدون فيها حساباتهم. وأثناء هذه الوقفة استمرت الأبحاث على المريخ من خلال المراصد الأرضية وكذلك من خلال هابل تليسكوب الفضاء أو «هتف» اختصارا. ولعل من أهم ارصاد

«هتف» للمريخ ما استخدمه العلماء في تحليل نسبة غازى الهيدروجين والديتريوم فى جوه، وذلك لمحاولة تقدير كمية المياه التى ربما وجدت على المريخ، وحسب بعضهم أن طبقة المياه فى المريخ ربما كان عمقها يتراوح بين ٣ إلى ٢٧ مترا.

وأخيرا تمكن العلماء من وضع خطة محكمة لإرسال سلسلة من سفن الفضاء إلى المريخ، وأول سفينة فى هذه السلسلة هى «الباحث عن الدرب» التى أرسلت في ديسمبر ٩٦ وهبطت بالفعل على المريخ فى يوليو ٩٧، وكان هذا أول نجاح بعد طول إحباط وإخفاق. وكما سبق القول فإنه سترسل حسب الخطة تسع سفن أخرى ستبلغ إحداها المريخ فى سبتمبر ١٩٩٧ وتتخذ مدارا من حوله لترسم له خريطة كاملة. وفى الخطة أيضا أن تهبط سفينة أخرى على الكوكب الأحمر فى أوائل القرن القادم لتحفر فيه وتأخذ عينات من تحت السطح تعود بها إلى الأرض، وقد تردد أن آلة الحفر ستكون من صنع مصر. وتظل عجلة البحث العلمى تدور بلا توقف رغم ما قد يحدث من بعض الخسائر والفشل، حتى ينزل الإنسان بنفسه على سطح المريخ.

نسيج الكون والجاذبية الكمية

علماء الفيزياء مغرمون بالتشبيه بالتمثيل لتقريب المفاهيم للأذهان . من ذلك مثلا تشبيه التيار الكهربائى بتيار المياه . ومع ما حدث من تقدم كبير مؤخرا فى نظريات الفيزياء زادت تشبيهات العلماء هذه التى تفيد في تقريب النظريات إلى فهم الدارسين ، كما تفيد العلماء أنفسهم فى تصميم التجارب الفكرية النظرية وتطبيق المعادلات عليها .

وبعد ظهور نظرية النسبية العامة لإينشتين ترتب عليها أن أصبح ينظر إلى الجاذبية على أنها ليست مجرد قوة مثل سائر القوى ، وإنما هى بمثابة نوع جديد من هندسة الكون . وبدلا من الهندسة الإقليدية التقليدية وجد أينشتين أن الجاذبية تتطلب توصيفا بهندسة غير تقليدية ، ووجد ضالته فى هندسة المكان المقوس أو المنحنى التى أنشأها رياضى ألمانى معاصر له هو ريمان . وكمثل فإنه حسب الهندسة الإقليدية يكون مجموع زوايا أى مثلث هو ١٨٠° أما فى هندسة المكان المنحنى فإنها ليست كذلك . وكان إينشتين قد طرح فى نسبيته الخاصة أنه بالإضافة إلى الأبعاد المكانية الثلاثية فإن الكون له بعد رابع زمانى ، وبالتالى فإن الفضاء ينبغى أن يسمى المكان – الزمان أو الزمكان ، وهذا الزمكان يكون منحنيا على نفسه وتنطبق عليه هندسة ريمان لما هو منحنى أو مقوس . وكون الزمكان هذا يمكن تشبيهه بنوع من بساط مطاطى مرن مشدود مثله مثل الترامبولين الذى يوضع أحيانا أسفل لاعبى السيرك لحمايتهم

لو سقطوا من ألعابهم على العقلة (الترابين) في قمة السيرك . ولو وضعنا على البساط المطاطي كتلة ثقيلة كقذيفة مدفع مستديرة فسينتج عن ذلك انبعاج كبير لأسفل فيما يشبه البئر في البساط . أما لو وضعنا عليه برتقالة فلن تصنع إلا انبعاجا خفيفا ، كما أنها ستنزع إلى أن تتدحرج تجاه الحفرة الأكبر لقذيفة المدفع . وأجرام الكون الكبيرة من مجرات ونجوم تؤثر في الفضاء على الأجرام الأصغر مثل تأثير الكرات ذات الكتل المختلفة في الترامبولين . فالأجرام الأكبر فيَ هذا الفضاء المقوِس ذى الانبعاجات تكون مثل قذيفة المدفع الأثقل فوق الترامبولين ، وتحَدث انبعاجات تشبه الآبار تنزع طبيعيا إلى أن تجذب الأجرام ذات الكتلة الأصغر ، بل وقد تأسرها تماما إذا كانت أجراما صغيرة وقريبة بالقدر الكافي ، بمثل ما تأسر الشمس الأرض في فلك من حولها وكما تأسر الأرض قمرها . وبذا تختفي الفكرة القديمة بأن الزمان والمكان مجرد مسرح تجرى عليه الأحداث ويمشي عليه الممثلون دون أن يؤثروا فيه . وبدلا من ذلك فإن الزمكان نفسه جزء من أحداث المسرحية يؤثر فيها ويتأثر بها ديناميكيا .

وتشبيه الزمكان بالبساط المطاطي ذى الانبعاجات من أوائل التشبيهات لتي طرحت في فيزياء القرن العشرين في محاولة لتمثيل ما قد يكونه نسيج الكون . والنسبية العامة هكذا تصف لنا زمكاننا هو متصل سلس ينحني انحناء لطيفا في منظر طبيعي يبدو فيه تدفق مستمر لأشكال ناعمة مترابطة توصفها لغة هندسية لا تقليدية مفرداتها تتكون مما هو منحنى أو مقوس .

هذا عن تمثيل نسيج الكون ببساط مطاطى يصلح لتفسير الجاذبية وسلوك الأجرام الماكروسكوبية أى ذات المقياس الكبير كالمجرات والنجوم والكواكب . فماذا عن عالم الجسيمات الدقيقة الذرية والأصغر من الذرية إن المنظر الطبيعى يتغير هنا تماما ولا تعود قوانين إينشتين تصلح للتطبيق . فالنظرية الأساسية التى تفسر سلوك الذرات والجسيمات تحت الذرية ليست نسبية إينشتين العامة وإنما هى ميكانيكا الكم . وحسب هذه النظرية ستكون الجسيمات تحت الذرية وكأنها تئز فيما حولها كالنحل الثائر. وحركتها أو طاقتها يتم بثها فى حزم أو كميات مختلفة تتسم بالتقلب وعدم التحدد . وحسب مبدأ عدم اليقين فى ميكانيكا الكم يكون سلوك هذه الجسيمات على وجه التحقيق والدقة أمرا غير مؤكد . ونحن لا نستطيع أن نقيس على وجه الدقة إلا واحدا فحسب من بعض أزواج من القياسات ، كما مثلا بالنسبة لموضع الجسيم وسرعته. فإذا قسنا الموضع بدقة لا يمكن قياس السرعة بدقة ، والعكس صحيح . وبدلا من كلمة (لابد) و (لا يمكن) اللتين تستخدمان فى الفيزياء الكلاسيكية مثل النسبية العامة فإنه يحل محلهما مصطلحا (يحدث عادة) أو (يحدث نادرا) . وبالتالى فإن متابعة سلوك الجسيمات الدقيقة تتطلب تناول علاقات إحصائية واحتمالات للأحداث ، ولغة ذلك هى رموز من الجبر وأرقام من الكم . وقد شبه الفيزيائى الأمريكى هويلر هذا العالم من الجسيمات التى تئز متقلبة وتبث طاقتها فى كمات بأنه عالم كالزبد ، إنه رغوة الزمكان . وهكذا يصبح لدينا عالمان مختلفان لكل منهما مفتاحه الخاص أو أداته الخاصة لفتح مغاليق أسراره . فالنسبية العامة كنظرية للجاذبية هى مفتاح كون الأجرام الكبرى فقط. وميكانيكا الكم هى فحسب مفتاح تفسير عالم الجسيمات تحت الذرية . ولا يمكن استخدام

أحد المفتاحين مكان الآخر ، فالأداة التى تصلح لأحد المجالين لا تصلح للآخر .

ومع ذلك فإن علماء الفيزياء الحديثة ظلوا يحلمون دائما بنظرية توحد قوانين الطبيعة فى قانون واحد يفسر كل شىء ويضم معا كون الأجرام الكبيرة السلس مع كون الجسيمات الدقيقة الفائر . وتحقيق ذلك لا يكون إلا بظهور نظرية شاملة من الجاذبية الكمية أو الكم جاذبية تضم الكونين معا فى إطار واحد . والجاذبية الكمية نظرية ليست ضرورية فى ظروف الأحداث الطبيعة العادية ، فهذه يكفى لتفسيرها بنجاح القوانين الحالية للفيزياء . ولكن الجاذبية الكمية ستكون ضرورية فى ظروف أخرى جد مرهفة ، كما مثلا فى حالة الثقوب السوداء . ومعروف أن هذه الثقوب تحدث عندما يستنفد أحد النجوم وقود فرنه النووى الذى يجعله يتمدد ضد قوى التجاذب الداخلية بين مادته ، وبالتالى فإن التفاعلات النووية فى هذا الفرن تحفظ للنجم حجمه وتوهجه . ولكن مع انتهاء الوقود النووى تتغلب قوى التجاذب الداخلية وتكون إحدى نهايات النجم حسب كتلته أن تنضغط مادته فى حيز جد صغير بكثافة شديدة وجاذبية هائلة بحيث لا يهرب من النجم المتقلص أى شىء ولا حتى الضوء ، فلا يراه أحد ويصبح ثقبا أسود . وعندما يصبح النجم المتقلص ثقبا أسود هكذا ، فإن قوانين الجاذبية وحدها لا تستطيع تفسير ما يحدث فيه ، وتسمى هذه الحالة بالمفردة حيث تنهار عندها حسابات النظرية النسبية لتؤدى إلى حشد من لا نهائيات لا تقبل التطبيع .

وفى محاولة للوصول إلى الجاذبية الكمية أقدم بعض العلماء على تجربة النظر إلى الجاذبية على أنها مثلها مثل القوى الأخرى التى فى حظيرة الكم حيث تتحول فكرة القوة إلى تبادل لجسيمات هذه القوة سواء

كانت قوة الكهرومغناطيسية أو القوة النووية الضعيفة أو القوية . وفى الكهرومغناطيسية مثلا يقوم الفوتون بدور جسيم تبادل القوة . وقد افترض بالنسبة للجاذبية أنه يوجد أيضا جسيم تنتقل الجاذبية به بين الكتل وأطلق عليه اسم الجرافيتون ، وهو جسيم لم يرسخ وجوده عمليا حتى الآن . على أن الفيزيائيين حين حاولوا فى تجاربهم الفكرية أو النظرية تناول الجاذبية والجرافيتون بالتكنيكات الرياضية المستخدمة مع قوى الكم الأخرى لم يكن لنتائج حساباتهم أى معنى على الإطلاق .

وكمثل فإنه حسب هذه الحسابات قد تصل نسبة احتمال وقوع حدث معين إلى ما يزيد عن المائة فى المائة ! وبالتالى فقد علق الفيزيائيون المتمسكون بالنسبية الكلاسيكية مثل بنروز الإنجليزى بقولهم أن محاولة إدخال الجاذبية قسرا فى ثياب الكم والجرافيتون هى أمر يشبه أن تسلق النظرية فى إناء يغلى حتى تصبح نظرية لبث الجسيمات . على أن الجاذبية ببساطة لا يمكن تناولها تناولا مماثلا للقوى الأخرى ، وإنما هى لها نظريتها التى تستخدم الرياضيات الملائمة لها لحل مشاكلها . وكل نظرية جديدة تستخدم عند نشأتها رياضيات حديثة تكون بمثابة مفتاحها . وكمثل ، فإن قوانين نيوتن عن الجاذبية التى كانت أعجوبة حديثة بالنسبة لعصره ، اعتمدت على نوع جديد تماما من الرياضيات هو حساب التفاضل والتكامل الذى أمكن بواسطته توصيف القوى والأجرام التى فى حالة تغير دائم . وإينشتين بدوره لم يستطع أن يربط بين الجاذبية والزمكان المنحنى إلا باستخدام هندسة الأسطح المنحنية لريمان . وعموما فإن النظريات والمعادلات الجديدة تحتاج دائما لأدوات رياضية جديدة تفسر مغاليقها . والجاذبية الكمية ستحتاج هى أيضا لأداتها

الرياضية الجديدة . ورغم أن النسبيين قد أقاموا معادلات معقولة ورائعة عن كيفية سلوك الجاذبية فى الظروف الكمية ، إلا أنهم ليس لديهم الأداة الرياضية الجديدة لتوليد الحلول لهذه المعادلات .

وكان ثمة عالم أمريكى من أصل هندى اسمه أشتيكار ، أدرك كيف أن الجاذبية الكمية فى حاجة لهذه الأداة المفتاح لحل معادلاتها . وقد ظل أشتيكار يجرى محاولاته لسنين طويلة حتى توصل فى النهاية إلى دالتين أو علاقتين رياضيتين جديدتين استلهمهما من أبحاث سابقة عن طرق التعامل مع المنحنيات الهندسية ، وهاتان الأداتان الجديدتان هما : (الرابطة) Connection و(المجال الإطارى) Frame Field . واستخدام أشتيكار هاتين الدالتين فى إعادة كتابة معادلات نظرية إينشتين للنسبية العامة ، فكانتا بمثابة لغة هندسية جديدة لها . وإذ تم تجديد معادلات إينشتين هكذا أصبحت تشبه شبها قويا المعادلات التى يسهل بالفعل تناولها فى ميكانيكا الكم ، وبالتالى فقد أصبح توحيد الجاذبية مع ميكانيكا الكم أمرا أكبر احتمالا عن ذى قبل . ونشر أشتيكار نتائجه فى ١٩٨٦ ، ورغم أهميتها فإنها لم تلق فى أول الأمر ما يليق بها من الاهتمام . ففى ذلك الوقت كانت (الموضة) الرائجة هى نظريات الأوتار الفائقة التى كان يعتقد أنها النظريات الواعدة التى يمكن أن يكون من بينها نظرية كل شيء التى تفسر كل الكون بكل ما فيه من طاقة ومادة .

على أن الأوتار الفائقة وصلت إلى طريق مسدود مع كثرة ما ظهر من مشاكل بلا حل ، ولأنها لم تعط تنبؤا عمليا واحدا . وبدا مؤخرا أن تناول أشتيكار للأمور هو الأكثر معقولية وجاذبية ، خاصة وأنه ليس من نوع نظرية كل شيء التى توصف كل القوى بقانون واحد ،وإنما هو فحسب

وسيلة لفحص الطريقة التى يمكن أن تعمل بها الجاذبية مفعولها عند المستويات الأصغر والأصغر ، حتى تدخل منطقة الجسيمات الدقيقة التى تحكمها ميكانيكا الكم . ومع تزايد الاهتمام بالأمر أخذ أشتيكار يلقى المحاضرات عن تناوله الجديد للجاذبية الكمية ، الأمر الذى شد اهتمام الكثيرين من العلماء الشبان . وانضم له فى أبحاثه فيزيائيان أصغر سنا منه ، هما سمولين الأمريكى وروفيللى الإيطالى . وبمرور الوقت كان واضحا من سير البحث أن مجهود الفيزيائيين الثلاثة معا سيؤدى إلى إدراك ما لا يمكن لأى واحد منهم أن يدركه على حدة . وأخذ الثلاثة معا يعيدون استكشاف حسابات معادلات أشتيكار فى محاولة لمعرفة ما يمكن أن تضيفه عن الزمكان . ولاحظ سمولين أن ما يعثر عليه من حلول لهذه المعادلات يشابه مشابهة وثيقة حلول المعادلات الرياضية الكلاسيكية التى تتناول الأنشوطات Knots . وظل سمولين لعام كامل يحاول تبين كنه هذه العلاقة بلا فائدة . وحين عرض الأمر على روفيللى أمكنه أن يصل إلى الإجابة بعد يوم واحد . فقد طرح روفيللى تكنيكا جديدا يستخدم فيه الحلقات Loops كأساس لنظرية الكم ، والحلقة عموما على صلة وثيقة بالأنشوطة .

تم ضم معادلات أشتيكار مع تكنيك الحلقة الجديد ، فنتج عن ذلك مجموعة معادلات جديدة تظهر من خلال طرح واضح بأن الزمكان يتكون من حلقات بسيطة مفتوحة ومترابطة معا . وقد ظل الفيزيائيون زمنا طويلا يعتقدون أن الزمكان متصل سلس . ولو أرجحت ذراعك مثلا فى الهواء فإن حركته تستمر تنساب فى حرية من إحدى نقط المكان إلى نقطة أخرى . على أن نتائج بحث أشتيكار وفريقه جعلتهم يعتقدون أن الزمكان على المستوى الأصغر الدقيق مبنى فى الواقع من حلقات تعد وحداته

المنفصلة المتميزة . وإذا كان هويلر قد حدس مخمنا أن الزمكان ربما يتكون من رغوة زبد أو فقاعات ، فإن أشتيكار وسمولين ، وروفيللى قد اكتشفوا رياضيات هذا الزبد . وهم إذ طبقوا الصياغة الحلقية لنظرية الكم على المشكلة ، كانوا بذلك أول من استنتج مباشرة من معادلات النسبية العامة وحدات منفردة للزمكان فيها تماثل مع كل ما تدور حوله ميكانيكا الكم . وكل حلقة من حلقات هذه الوحدات لهم حجم صغير جدا بحيث أن قطر الحلقة هو ١٠^{-٣٣} سنتيمتر ،أى جزء من مليون بليون بليون بليون من السنتيمتر . ولو تخيلنا أن إحدى الذرات قد تضخمت لتصبح فى حجم مجرتنا التى يبلغ عرضها حوالى ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية ، فإن الحلقة الواحدة سيكون حجمها بما لا يزيد عن حجم خلية من خلايا الأنسجة البشرية .

وبالتالى فرغم أن الكون يتكون من هذه الحلقات إلا أنه بسبب صغر حجمها الشديد يبدو وكأنه جد ناعم . وأفضل تمثيل لحلقة الكم هو أنها تشبه من أوجه كثيرة خطوط القوة المغناطيسية التى تحيط بقضيب المغناطيس ، وتبدو جد واضحة عند نثر برادة الحديد حول القضيب . ويمكن تصور كل حلقة على أنها المعادل الجذبوى لخط من خطوط القوى المغناطيسية .

على أن من الصعب التحدث عن أى خصائص لحلقة واحدة من حلقات الزمكان ، تماما مثلما لا يمكننا التحدث عن حرارة أو كثافة ذرة واحدة . فالحرارة أو الكثافة لا يكون لأى منهما معنى إلا عندما نتناول تريليونات وتريليونات من الذرات . وإذا كان إينشتين قد وصف الزمكان بأنه بساط ناعم ، فإن مفهوم حلقات الكم يفترض أن الزمكان هو أكثر

شبها بشبكة ذات عيون دقيقة بالغ الدقة . وهكذا وصف أشتيكار وروفيللى وسمولين الزمكان فى ورقة بحث عنوانها : (نسيج هندسة كلاسيكية بخيوط من الكم) فى ١٩٩٢ . وكانوا يرون فى أول الأمر أن هذه الشبكة البساط يمكن إنشاؤها باستخدام خيوط طويلة طولا لا نهائيا يتم نسجها معا بحيث تكون حلقة الكم هى أصغر خلية فى النسيج . على أنهم ما لبثوا أن استنتجوا بعدها أن بنية البساط تشبه شبها أكثر الدرع المرن ذات الزرد المصنوعة من سلاسل من الحلقات، والتى كان المحاربون يرتدونها فى العصور الوسطى .

وحتى يتم تمثيل هذه الفكرة عمليا بنى روفيللى نموذجا ثلاثى الأبعاد، من شبكة هائلة من حلقات معدنية هى أصلا مئات من حلقات المفاتيح ، بحيث تطلب الأمر كما يقول روفيللى ، استخدام كل حلقات المفاتيح الموجودة فى مدينة فيرونا . وحسب هذه النظرية فإن الجرافيتون له دوره فى هذه الشبكة من الحلقات ، ووجود مجموعة كبيرة من الجرافيتونات سيؤدى إلى تشويه النسيج مثلما تشوه الكتل الزمكان فى بساط إينشتين .

بعد ظهور ورقة البحث هذه تتالت عشرات من الأوراق الأخرى التى تحلل هذه التجربة الفكرية وتنقحها وتتوسع فيها . على أن هذا لا يعنى أن كل الفيزيائيين قد رحبوا بهذه النظرية الجديدة . فقد ظهرت تحفظات كثيرة عليها . ويقول الفيزيائى الأمريكى جاكوبسون الذى عمل زمنا مع سمولين فى حل معادلات أشتيكار ، أن هذه المعادلات قد تكون مجرد حيلة رياضية نظرية ، ولكنها فيزيائيا لا مغزى لها . والأمر كله فيه الكثير من التفكير بالحدس والتمنى ، ولا يوجد أى ترسيخ عملى للنظرية ، ولا أى تنبؤ يؤيد إثباتها .

وإذا يقر الفيزيائيون بأن رياضيات حلقة الزمكان رياضيات معقولة وجميلة حقا ، إلا أنهم يرون أنها لم تؤد إلى أى فيزياء مكتملة النمو . ولن نعرف ما إذا كانت هناك فائدة ترجى من متابعة هذه النظرية إلا إذا ارتبطت بشيء يمكن ملاحظته . في العالم الواقعي . ويعترف أشتيكار بوجاهة هذه الانتقادات، فالنظرية ما زال أمامها شوط كبير ليتم لها الاستقرار ، وهو وفريقه يخوضون في منطقة مجاهل ، وتحقيق مثل هذه النظرية الجديدة الثورية يتطلب ولا شك بعض زمن .

وإذا كان الوصول إلى حل مشكلة الجاذبية الكمية هو حلم أى فيزيائى، إلا أننا حتى الآن لا يمكننا اختبار أى من نظريات الجاذبية الكمية اختبارا مباشرا ، لأن هذا يتطلب أن نصل فى معاملنا أو معجلاتنا النووية إلى عادة ظروف درجات الحرارة والضغط التى كانت موجودة فى مفردة الانفجار الكبير . وهذا أمر غير متاح تكنولوجيا فى المستقبل القريب . وأفضل ما يمكن أن نأمله هو إجراء اختبارات غير مباشرة قد تكشف لنا الطريقة التى قد يظهر بها النسيج الحلقى نفسه فى فيزياء حياتنا اليومية . وهذه مهمة عسيرة ، ولكنها أمر يحتمل تحقيقه على مر السنوات القادمة .

وعموما فإن ثمة دلائل تشير إلى أنه عندما يصبح لدينا نظرية جاذبية كمية قابلة للتطبيق ، فإنها يمكن أن تؤدى إلى نتائج مهمة شيقة . من ذلك مثلا ما حدث عندما أذهل الفيزيائى البريطانى هوكنج علماء الفيزياء الفلكية حيث أثبت نظريا أن الثقوب السوداء ليست جد سوداء ، وإنما هى قد تبث الاشعاع وئيدا لتتبخر تدريجيا حتى تختفى بالفعل . وما كان أى واحد يتوقع أن تسلك الثقوب السوداء قط على هذا النحو الجنونى .

ولكن هوكنج استنتج ذلك عندما طبق قواعد الكم على أقوى مجالات الجاذبية في الطبيعة ، أي على مفردة الثقب الأسود . وتبخر الثقب الأسود فيه إيماءة لنوع المفاجآت التي ستقفز في وجهنا عندما يتم التوصل إلى نظرية راسخة كاملة للجاذبية الكمية . فقد يؤدي ذلك إلى أن يغير من نظرتنا إلى الكون تغييرا عنيفا ، وكما يقول سمولين فلعل النظرية السائدة الآن عن نشأة الكون بالانفجار الكبير ستبدو وقتها مثلما يبدو لنا حاليا نموذج بطليموس عن النظام الشمسي الذي تقع الأرض في المركز منه .

هكذا ما زالت الأبحاث مستمرة عن الجاذبية الكمية في اتجاهات ونظريات مختلفة من بينها نظرية أشتيكار وفريقه حيث الزمكان من نسيج من الحلقات ، وما زالت كل هذه النظريات في انتظار ما يثبتها إما بتجربة عملية أو بتنبؤ يتحقق .

الوراثيات الحديثة : أحلام ومشاكل

قال روبرت كيرل العالم الحائز على جائزة نوبل للكيمياء في ١٩٩٦ أن القرن العشرين كان قرن الفيزياء والكيمياء، أما القرن القادم فمن الواضح أنه قرن البيولوجيا. والواقع أن قرن البيولوجيا هي والوراثيات الحديثة، قد بدأ مبكرا قبل بدء القرن الحادى والعشرين. ولعل أعلى صوت أعلن لنا بدء هذا القرن هو مأمأة النعجة «دوللى» المستنسلة أو المستنسخة. ولكن استنسال دوللى ليس بأهم جوانب الفتوحات البيولوجية والوراثية المتوقعة، فهو لايمثل إلا شريحة صغيرة منها، فهناك ثورة في معامل البيولوجيا ستؤدى لقرن يبهر الأنفاس. وهناك أبحاث أخرى أكثر أهمية عن دوللى تدور مكثفة لتحقيق أحلام علماء البيولوجيا والوراثة. وعندما نقول أنها أحلام فلا يعنى ذلك أنها أوهام أو روايات خيال علمى، وإنما هى آمال تنعقد على النظريات والانجازات العلمية الحالية، وتوضع لها المشروعات والخطط لإجراء الدراسات والأبحاث التى تحققها واقعيا. وحاليا فإن هناك ثلاث جبهات أساسية تتقدم فيها أبحاث البيولوجيا والوراثيات وهى الطب والزراعة وعلاج البيئة.

إطالة عمر الإنسان حلم من أحلام البيولوجيا قديما وحديثا، وإذا كان الخلود ميتافيزيقيا لابد وأن يمر أولا من بوابة الموت، إلا أن أبحاث البيولوجيا تقتصر على محاولة إطالة الحياة على الأرض وليس فى السماء.

وقد أمكن خلال القرن العشرين زيادة متوسط عمر الإنسان من حوالى الإربعين إلى السبعين عاما. وكان هذا فى معظمه بالقضاء على الكثير من الأوبئة المعدية سواء بالعلاج أو الوقاية. وكذلك بالتحسن الكبير فى ظروف البيئة الصحية كالإسكان والتغذية والمياه النقية . ومع ذلك مازالت الأبحاث مستمرة لمزيد من إطالة العمر، ذلك لأن هناك من الدراسات المقارنة ما يبين أن جسد الإنسان يفترض أن يعيش تقريبا ١٧٠ عاما وليس سبعين فقط.

كان السائد حتي وقت قريب إمكان الوصول إلى ذلك بمحاولة استخدام بعض المواد الهرمونية مثل هرمون النمو وبعض هرمونات الذكورة والأنوثة، ومادة الميلاتونين شبه الهرمونية. على أنه قد ثبت عمليا عدم فائدة أى من هذه المواد فى إطالة العمر، بل إنها كثيرا ما يكون لها اضرار جانبية عند تعاطيها طويلا.

أما أحدث النظريات في اطالة العمر فتركز على جزء من المادة الوراثية يسمى التيلوميرات Telomeres وهذه قلنسوات تغطى أطراف الكروموسومات ومصنوعة من الحامض النووى دنا أو DNA . ويطرح بعض العلماء أن هذه التيلوميرات تنظم عملية الشيخوخة في الخلايا. فقد لوحظ أنه كلما طال العمر بالخلية، زاد قصر التيلومير. وهناك طول معين حرج إذا قل طول التيلومير عنه لاتستطيع الخلية بعدها أن تنقسم طبيعيا، وعندها تندفع عمليات الشيخوخة للعمل . وإذا أمكننا إيقاف عملية تقصير التيلوميرات، أو عثرنا على طريقة لزيادة طولها، فربما سنتمكن من إيقاف المسارات البيولوجية التى تؤدى إلى شيخوخة الخلية، ويؤدى ذلك إلى إطالة العمر. وتجرى الآن أبحاث فى هذا الاتجاه.

ومن الأبحاث الأخرى لإطالة عمر الإنسان ما يجرى من خلال الدراسات المقارنة على كائنات أخرى غير الإنسان، على أمل إمكان تطبيق النتائج بعد ذلك على البشر.

ومن هذه التجارب ما أجراه مايكل روز من تجارب التربية الانتخابية أو الإنسال الانتخابى لذباب الفاكهة Drosophilia وتعيش هذه الذبابة عادة لأسابيع معدودة، وبعد تجارب أجراها روز لسنين طويلة أمكنه أن يضاعف عدة مرات من عمر هذه الذبابة، بما يساوى مضاعفة عمر الإنسان إلى مائتى عام. وأبحاث روز هذه أدت إلى ثورة فى نظريات الشيخوخة، وهو يحاول الآن توسيع تجاربه لتشمل الفئران، التى تعد من حيث التركيب الوراثى أقرب للإنسان من ذبابة الفاكهة.

هناك أيضا تجارب اجريت على ديدان خيطيه (C. Elegans) وهى ديدان طفيلية دقيقة الحجم، أحدثت فيها طفرات وراثية جعلتها تعيش عمرا أطول سبع مرات من عمرها الطبيعى.

ويأمل العلماء من هذه الدراسات الوصول إلى المواد التى تنتجها هذه الكائنات التى أطيل عمرها من ذباب أو ديدان، وأن يعرفوا ما يكون فيها من جينات مسئولة عن إنتاج مواد إطالة العمر، من إنزيمات أو هرمونات أو غير ذلك من المواد الفعالة بيولوجيا، ثم تطبق هذه النتائج على الإنسان.

على أن الوصول إلى إطالة عمر الإنسان له مشاكله التى ينبغى توقيها وأهمها أن إطالة العمر لا تكفى وحدها، بل يجب أن تواكبها الصحة والعافية، ولا معنى لأن نزيد سنوات عمرنا ونحن نقضيها مصابين بالوهن والإرهاق والسمنة والنسيان وفتور طاقات الجسم، أو كما قال شكسبير

«الحياة بلا أسنان، وبلا أعين، وبلا تذوق، وبلا-أى شىء» . فالهدف إذن أن يكون طول العمر مصحوبا بالصحة وممارسة الحياة والقدرة على العمل.

ولكن طول العمر مع الصحة له عواقبه الاقتصادية والاجتماعية التى قد تعد أحيانا غير مرغوب فيها، خاصة وأن عالمنا الآن كثيرا ما تسوده فترات طويلة من الكساد وأزمات البطالة. فهل يستطيع عالم كهذا أن يستوعب إطالة العمر مع الصحة؟

وإطالة عمر الإنسان معناها إحصائيا زيادة تعرضه للحوادث، وبحيث أنه مهما طال عمر الإنسان فإنه لن يعيش قط للأبد، وكما يحسب بعض العلماء الأمر إحصائيا، فإنه إن لم تدركنا الشيخوخة فسوف تدركنا إحدى الحوادث، كحوادث المرور مثلا، وهناك إحصاءات طريفة عن مدى زيادة تعرض الإنسان لحوادث المرور عند عبور الطريق كلما طال عمره.

ومع كل هذه المشاكل لم يتوقف العلماء عن أبحاث إطالة العمر، فالمشاكل لعلها ستحل بطريقة أو أخرى؛ والبحث العلمى يستمر دائما.

من الأحلام البيولوجية التى بدأ تحقيقها بالفعل، مشروع معرفة تركيب الأطقم الوراثية Genome لكل الكائنات الحية بما فيها الإنسان، أى معرفة تتابع الجينات وقواعدها وموقعها على الكروموزمات ورسم خريطة لذلك.

حتى وقت قريب كانت الأبحاث من هذا النوع جد بطيئة ومكلفة. وكان الباحثون ينفقون زمنا طويلا مرهقا للكشف عن موقع جين واحد لاغير، لمعرفة وظيفته مثلا أو دوره فى بعض الأمراض الوراثية. وكمثل

فإن الكشف عن جين مرض التليف الحوصلى الوراثى استغرق جهد عشر سنوات وكلف ١٥٠ مليون دولار. تطورت حاليا تكنولوجيا الأبحاث الوراثية خاصة مع استخدام وسائل كالكمبيوتر وتفاعل البوليميريز المتسلسل PCR وغير ذلك، وأدى هذا إلى خفض ما يبذل من جهد ووقت ومال بحيث أن تكلفة الكشف عن الجين الواحد أصبحت فقط مئات الدولارات (٣٠٠ دولار) وليس ملايينها. وقد تم بالفعل مؤخرا نشر تتابعات الأطقم الوراثية لكائنات حية غير الفيروسات، كالخميرة وعشب خردلى وطفيل الملاريا. ويأمل العلماء أنهم سيتملكون بين أيديهم فى العقد الأول من القرن القادم الطبعات الكاملة للشريط الوراثى لكل الكائنات، ابتداء من الفيروسات والبكتريا ووصولا إلى الفئران والإنسان بحيث يكون كل ذلك مرتبا ومصنفا بالكمبيوتر.

الوصول إلى أسرار الأطقم الوراثية هو فحسب خطوة أولى رئيسية، تشبه ما حدث فى الكيمياء من انشاء الجدول الدورى للعناصر وسوف يتبعها خطوات أخرى كثيرة تؤدى إلى تقدم هائل فى الهندسة الوراثية وتطبيقاتها ، من ذلك مثلا الدراسات التى تجرى حاليا لزرع نباتات محورة وراثيا بحيث تنتج لنا محاصيل فائقة أو أدوية أو مواد بلاستيكية.. ومزارع البلاستيك هذه ستعوضنا عن النقص المتوقع فى البترول،وتجرى أبحاث زراعة البلاستيك فى معهد كارنيجى باستخدام تحوير وراثى لعشب أرابيدو بسيس، على أمل الوصول إلى تحقيق هذه الزراعة فى عام ٢٠٠٣.

معرفة التركيب الوراثى للبكتريا تزيد من فهمنا للمسارات البيولوجية فيها، بما يمكن من التوصل لانتصارات جديدة.فى معركة المضادات

الحيوية ضد الجراثيم المرضية، خاصة بعد أن ضعف تأثير الكثير من هذه المضادات، نتيجة لقدرة الجراثيم على تغيير تركيبها الوراثى بما يقاومها.

البكتريا تستخدم أيضا فى تنظيف البيئة من التلوث، فهناك بكتريا لا تتأثر بالاشعاع ويمكن استخدامها فى التهام المواد المشعة كاليورانيوم. وهناك بكتريا تصنع وقود الميثان من الفضلات وبكتريا تلتهم ما يتسرب من بترول للبحار.

معرفة التركيب الوراثى للكائنات الدنيا كالخميرة وذباب الفاكهة تساعدنا فى دراسة التركيب الوراثى للإنسان نفسه، حيث أن هناك أوجه تناظر بين كل الكائنات الحية. فالوراثة لها نفس اللغة فى كل هذه الكائنات، لغة الحامض النووى وقواعده. وهكذا تستخدم الخميرة مثلا فى دراسات جين راس Ras الذى يسبب السرطان عند طفره. وهناك تجارب أولج فيها العلماء تسعة من جينات الأمراض الوراثية داخل ذباب الفاكهة، وكان من بينها جين للسرطان وجين للسمنة وتبين أن سبعة من هذه الجينات أدت إلى تغيرات مرئية فى مظهر الذباب. وهذه التجارب تساعد الباحثين على إعادة بناء المسارات البيولوجية التى تؤدى للمرض، وبالتالى الوصول إلى علاجها، هذا وتستخدم دودة سى اليجانز الخيطية فى أبحاث مرض الزهايمر لوجود جين فيها يناظر الجين المسبب للمرض فى الإنسان.

أما مشروع الطاقم الوراثى البشرى الذى يكلف من ٣ - ٤ بلايين دولار على عشر سنوات، فيعتقد أنه سيزيد من فهمنا للسلوك البشرى وللعوامل الوراثية فى الصحة والمرض. وهو بذلك كما سبق القول، خطوة

أولى أساسية ولكنها لا تكفى وحدها للوصول مباشرة إلى علاج للأمراض الوراثية، وإنما سيتطلب ذلك مزيدا من أبحاث شاقة طويلة، ولدينا مثل الأنيميا المنجلية، وهى أنيميا وراثية بسبب خطأ وراثى فى تركيب الهيموجلوبين مادة الدم الحمراء التى تحمل الاوكسجين، والمرضى بالمنجلية يحدث لهم عند نقص الاوكسجين لأى سبب بيئى أن تتخذ خلاياهم الحمراء شكلا منجليا وتصبح هشة سهلة الكسر. وقد أمكن التعرف على الجين المسبب للانيميا المنجلية من عشرين سنة، ولكن لم يكتشف بعد علاج حاسم لها. وهكذا سيحتاج الأمر بعد تحديد الطاقم الوراثى البشرى لإجراء ابحاث فى وظيفيات هذا الطاقم، أى طريقة عمل الجينات المعينة ومتى وكيف تختل . وتجرى حاليا صفقات ببلايين الدولارات لشراء هذه الابحاث بأمل استخدامها للوصول إلى أدوية مطلوبة لعلاج أمراض معينة كالسكرى والزهايمر والسرطان والشيزوفرينيا.

ينبغى أن نشير هنا إلى بعض المشاكل والمحاذير العملية والنظرية المصاحبة لمشروع الطاقم الوراثى . هناك اعتراضات اقتصادية على سعر التكلفة الباهظة ومدى فاعليته ومدى فائدته ويرى بعض العلماء أنه كان ينبغى أولا دراسة الفرص البديلة، بمعنى أنه ربما كان من الأفيد توجيه هذه المبالغ الضخمة لتنفيذ عدة مشروعات بدلا من مشروع ضخم واحد مازال هناك من يشكك فيه.

ثم هناك مشاكل تسجيل براءة الاختراع وحقوق الملكية لاكتشافات المشروع وهل يكون ذلك من حق المعاهد شبه الحكومية التى تشرف على الابحاث أو من حق الشركات التي تمولها. ودار نقاش عنيف بين العلماء من أنصار الجانبيين، خاصة وأن بعض هؤلاء العلماء بادروا بشراء كميات

كبيرة من أسهم الشركات المولة، على أن الرأى استقر فى الولايات المتحدة على أن تكون البراءة وحقوق الملكية للمعاهد المشرفة. ولكن هل يصح أساسا أن تكون هناك براءة اختراع لمواد موجودة أصلا فى الطبيعة ولم ينشئها البشر، بل ولأشياء موجودة فى المادة الحية داخل الإنسان؟ كان الاتجاه الأخلاقى والقانونى حتى وقت قريب يمنع وجود أى حقوق من هذا النوع بالنسبة للمواد الحية، وخاصة فى أوروبا. ولكن الولايات المتحدة قادت الاتجاه إلى وجود حقوق براءة وملكية لأى شىء حيا كان أو ميتا، وبدأ ذلك بتقاوى النباتات المحسنة وراثيا بما يتيح للشركات المنتجة السيطرة على اقتصاديات الزراعة. ثم تلى ذلك أن طبقت هذه الحقوق على الحيوان لأول مرة بالنسبة للفأر السرطانى، أى الفأر المعدل وراثيا لتسهل إصابته بالسرطان وليستخدم فى تجارب السرطان البشرى وعلاجه. وكانت المجموعة الأوروبية تقاوم فى أول الأمر هذا الاتجاه، وتعترض عليه أخلاقيا وقانونيا، ولكن أوروبا وجدت أن هذا الإلتزام الأخلاقى سيضيع عليها فوائد اقتصادية ضخمة، فاتجهت بدورها إلى تقنين براءة الاختراع للمكونات الحية. وتحضرنا هنا قصة حقوق ملكية البنسللين . رفض فليمنج مكتشف البنسلين أن ينال أى حقوق ملكية عن اكتشاف أول مضاد حيوى . على أن شركات الولايات المتحدة أخذت هذا الاكتشاف وأضفت عليه بعض تعديلات جديدة وسجلت براءة وحقوق الدواء المجدد، واضطرت الشركات الانجليزية إلى دفع الأموال عن ذلك.

من المحاذير الأخرى بالنسبة لمشروع الطاقم الوراثى البشرى أن هناك نظريات متطرفة عن الحتمية البيولوجية تروج للرأى بان المشروع سيفيد فى تفسير كل أوجه السلوك البشرى، فهناك حسب هذه النظرية جينات

لكل سلوك وكل عاطفة، فثمة جين للعدوانية وآخر للسلبية وَجين للشجاعة وجين للجبن وجين للشذوذ الجنسى وجين للإيثار، بحيث يختزل الانسان فى هذه النظرية إلى أنه مجرد وعاء لجينات تحتم سلوكه كله، أو كما يقول دوكنز فى كتابه المشهور «الجين الانسانى» فإن وظيفة الانسان فى الحياة انه مجرد أداة لنقل الجينات من جيل لآخر، والجينات هى الهدف والإنسان مجرد أداة، ويرى الكثيرون أن هذا فيه اختزالية وحتمية بيولوجية غير مقبولة. كما أن الساسة الرجعيين وأنصار التفرقة العنصرية يستغلون هذه النظريات الحتمية فى تبرير العيوب والمظالم فى المجتمع ، وجينات الفقراء هى التى تحتم فقرهم وجينات الزنوج تحتم تخلفهم، وهذه كلها نظريات ثبت علميا خطؤها تماما. فالأمر ليس بوراثة حتمية ولا بيئية حتمية وإنما تفاعل بين الاثنين، يؤثر في الإنسان ويتأثر به معا.

ومن أحلام البيولوجيا الحديثة إنشاء «كمبيوتر» يعمل بمرقفات أو رقائق من حامض دنا. وسيختلف ذلك عن كمبيوتر مرقفات السليكون العادى حيث أن جزىء دنا له القدرة على حفظ معلومات تزيد بلايين المرات على ما في مرقفات السليكون، وبذا فإن كمبيوتر دنا ستكون له بالنسبة لبعض الحسابات التى تجرى معا قدرات أقوى كثيرا، وإن كان يعد أقل سرعة حتى الآن . ومن الطريف أن أحد الاستخدامات المتوقعة لكمبيوتر دنا أنه سوف يسهل كثيرا من تحليل المعطيات من أبحاث الطاقم الوراثى والأمراض الوراثية، أى أن دنا سيعمل على تحليل دنا.

نحن إذن قد بدأنا بالفعل ثورة بيولوجية وتقدما هائلا فى أبحاث الوراثة. وهذا التقدم يحمل معه مشاكله التى نوهنا بالبعض منها فيما

سبق.. وبعض هذه المشاكل المحيرة أخلاقيا واجتماعيا لم يسبق للانسان أن واجه مثلها، ولابد من ابتكار حلول جديدة لهذه المشاكل.

من هذه المشاكل مثلا ما يتعلق بتطبيقات الهندسة الوراثية على الإنسان ومن أهم هذه التطبيقات محاولة علاج الأمراض الوراثية علاجا جينيا. وهذا العلاج يكون بايلاج جين سليم بدلا من الجين المختل أو الغائب الذى يسبب المرض. والعلاج الجيني يوجه عادة إلى الخلايا الجسدية التى أصابها المرض. مثال ذلك المحاولة الواعدة لعلاج مرض التليف الحوصلى بإيلاج الجينات داخل أنسجة الرئة المريضة باستخدام فيروس حميد كناقل للجين. كذلك علاج حالات نقص المناعة الخلقى (وهو غير الإيدز المكتسب) بأخذ خلايا ليمفاوية من دم المريض وإيلاج جين سوى فيها، ثم حقن الخلايا ثانية فى دم المريض. والعلاج الجينى هنا يؤثر فى جينات الأنسجة المصابة وحدها، أى فى خلايا جسدية فقط، ولايمس الخلايا التناسلية، أى البويضة والحيوان المنوى. وبالتالى فإن التغيير فى الجينات لا يمرر إلى الأجيال التالية. وهكذا فإن المشاكل الأخلاقية التى قد يثيرها العلاج الجينى الجسدى مشاكل محدودة نسبيا، ولا تختلف فى جوهرها عن مشاكل العلاج بزرع الأعضاء جراحيا. وهذه مشاكل قد حسمت وتم إرساء القواعد الأخلاقية والقانونية الحاكمة لها فى معظم البلاد حتى فى البلاد ذات النزعة المحافظة كالسعودية. أما فى مصر فهى تنفرد بموقف عجيب من هذه العمليات، أدى إلى تأخر علمي شديد فيها، بالمقارنة بالبلاد الأخرى.

وبعيدا عن زرع الأعضاء، فإن العلاج الجينى الجسدى، وإن كان مأمونا على المدى القصير، إلا أن بعض العلماء يرون استخدامه بحذر،

لأننا حتى الآن لانعرف عواقبه على المدى البعيد. فقد تكون هناك مخاطر له لا يمكن التنبوء بها بعد. وربما أدى إيلاج جين جديد مثلا إلى تعطيل عمل لجين آخر سوى، أو إلى طفرة غير مأمونة فى بعض الخلايا . وحتى الآن فإن الرأى الغالب هو أن يقتصر استخدام العلاج الجينى الجسدى على حالات الأمراض الوراثية الخطيرة التى تستعصى على العلاج بالوسائل التقليدية الأخرى.

هناك نوع آخر من العلاج بالجينات يقصد إلى إحداث تغيير فى جينات البويضة أو الحيوان المنوى أى العلاج من خلال تغيير فى الخلايا التناسلية. وهناك إجماع على عدم استخدام هذا النوع فى الإنسان، لأن ما سيحدث من تعديل فى الخلايا التناسلية سيؤدى إلى تغيرات وراثية تنتقل للأجيال التالية، ولا يمكن لأى عاقل أن يتحمل مسئولية تغيير كهذا.

ولو تخيلنا ما قد يحدث لو أطلقنا الحرية لتطبيق تكنولوجيا الهندسة الوراثية على الخلايا التناسلية للإنسان، فسيكون من أبرز المشاكل لهذا النوع من العلاج أن الناس سيحاولون إنتاج أطفالهم حسب الطلب، فهذا يفضل مولودا أشقر، وآخر يفضل الأسمر. وأهم من ذلك أن معظم البشر مازالوا يفضلون المولود الذكر وعندما تصبح الغالبية العظمى من الذكور، فإن هذا أمر له نتائج وخيمة اجتماعيا، فى حين أن الأوضاع الطبيعية الحالية تكفل تقريبا تساوى عدد المواليد من الجنسين. وحتى الآن، يزعم أن هذا هو الوضع الأفضل للمجتمع، أم أن السيدات لهن رأى آخر؟ ونحن نسأل السيدات هنا لأنه حدث بعد إعلان استنساخ «دوللى» أن سمعت سيدات كثيرات يبدين الشماتة لأن دور الرجل فى الإنجاب قد أصبح هامشيا!

وتطبيق تكنولوجيا الهندسة الوراثية على الخلايا التناسلية، قد يؤدى أيضا إلى أن تحاول بعض الحكومات التحكم فى التركيب الوراثى للمواليد، فتوجهه نحو التخلص مما يعتقد أنها جينات ضارة والإكثار من الجينات المرغوبة أو التى لها ميزة ما، وإلى جانب أن هذا فيه إضرار بالتباين والتنوع الوراثي الذى يُطلب لفائدة الأفراد والمجتمع، فإن فيه ما يذكر بالصيحات الكريهة التى أطلقت بزعم تحسين النسل البشرى فى الثلاثينيات فى الولايات المتحدة وألمانيا النازية، وأدت أحيانا إلى إصدار قوانين بتعقيم أو إخصاء طوائف معينة من البشر حسب عرقهم أو حسب أحوالهم الصحية. ثم من هو الذى يحق له أن يحدد الخواص الوراثية المرغوبة وغير المرغوبة؟ هذا أمر لا يمكن أن يتفق البشر عليه، ولا يمكن تنفيذه إلا فى نظام مغرق فى الدكتاتورية، وبالتالى فإن من المحظور تماما اجراء تجارب معملية طويلة المدى على الخلايا التناسلية للإنسان. ومن التجارب المعملية الطريفة ما يجرى من تلقيح فى أنابيب الاختبار بين الإنسان وأنواع أخرى من الحيوان. من ذلك تجربة أجريت لتلقيح بويضة شمبانزى بحيوان منوى بشرى، ونجحت عملية الإخصاب، ونما الجنين لفترة قصيرة مات بعدها.

على أن كل بلاد العالم تحظر الوصول بمثل هذه التجارب إلى نهايتها، ولا تترك الحرية لاكتمال كائن لا يعلم أحدٌ ماذا سيكون.

من الأبحاث الوراثية التى تقدمت أخيرا وما زالت تتقدم، اختبارات الفرز الوراثى، وهذه اختبارات تجرى لتحديد الأفراد المستهدفين للمرض بحكم تركيبهم الوراثى، ولهذه الاختبارات فوائد عديدة كتجنب انجاب أطفال مصابين بحالات وراثية خطيرة، وتحذير البالغين من الأمراض التى قد يتعرضون لها فى ظروف بيئية معينة، بحكم تركيبهم الوراثى.

على أن هناك محاولات من شركات التأمين لاستغلال اختبارات الفرز الوراثى لصالحها وليس لصالح أفراد الجمهور. فالشركات تود لو أتيح لها إجراء هذه الاختبارات على طالبى التأمين لتحدد مبالغ أقساط التأمين حسب نسبة تعرض طالب التأمين للأمراض الوراثية، أو تعرضه لأمراض فيها بعض عامل وراثى كأمراض القلب والسرطان . على أنه إذا كان اختبار الفرز يبين أن أحد الأفراد مستهدف وراثيا لمرض القلب مثلا، فإن هذا لا يعنى أنه سيصاب به حتما. كما أن هناك عوامل أخرى بيئية، لها دورها فى أمراض القلب كالتدخين والتغذية. وبالتالى فإن من الغبن أن يطالب فرد بدفع أقساط تأمين أكبر لمجرد أن هناك اختبارا يطرح أن هناك احتمالا ما بإصابته بالمرض.

هناك أيضا بعض الجهات من أصحاب الوظائف، التى تود أن تكون لها الحرية فى إجراء اختبارات فرز وراثى للمرشحين للعمل، لاستبعاد طالبى الوظائف الذين يجعلهم تركيبهم الوراثى مستهدفين لمخاطر معينة فى مكان العمل، كوجود مصادر تلوث سام فى المصنع مثلا، أو أن يكون اجراء الاختبارات بهدف الكشف عن الاستهداف لأمراض ليس لها علاقة مباشرة بالعمل كالاستهداف لأمراض السكر، أو ضغط الدم. واختبارات الفرز هكذا ستؤدى إلى أن يهمل أصحاب العمل توفير الظروف الصحية المثلى فى مكان العمل، مكتفين بأن يختاروا للوظيفة لديهم أقل الناس استهدافا لمخاطر العمل، كما أن استغلال الاختبارات الفرزية هكذا قد يؤدى أحيانا إلى نوع من الاضطهاد العرقى، فهناك أعراق معينة يزيد الاستهداف فيها لحالات وراثية معينة، مثل زيادة استهداف السود وبعض سكان المتوسط للأنيميا المنجلية. ولو ترك لأصحاب العمل حرية

اجراء اختبارات الفرز الوراثى سيؤدى ذلك فى النهاية إلى وجود طبقة دونية من العمال أو الموظفين، يرفض أصحاب العمل توظيف أفرادها، أو يقللون من أجورهم أو يرفضون ترقيتهم للوظائف الأعلى.

هذا بالإضافة إلى أن اختبارات الفرز نفسها لها عيوبها حتى الآن. ومنها أن الأفراد الحاملين لمرض وراثى، أى الذين يرثون جينا واحدا لأحد الأمراض قد لايصابون قط بهذا المرض فى حياتهم. كذلك فإن معظم الاختبارات الفرزية ليست بالحاسمة تماما فى نتائجها، وفيها نسبة من نتائج سلبية زائفة أو إيجابية زائفة.

وبالتالى، فإن الموقف الذى يتخذ حاليا من اختبارات الفرز الوراثى هو:

ألا تستخدم هذه الاختبارات فى أماكن العمل.

وأن يكون تقدم الفرد للاختبار اختياريا أو تطوعيا وليس إجباريا.

وألا تستخدم نتائج الاختبار لإقصاء أى فرد عن عمله، وإنما تعطى له فقط المعلومات عن احتمال وجود مخاطر معينة بالنسبة له، وبعدها يكون لكل فرد أن يتخذ قراره بنفسه.

هذه بعض من أحلام الوراثيات الحديثة ومشاكلها، وواضح أن التطبيقات التكنولوجية للوراثيات فيها أمور كثيرة تمس الناس كأفراد وكمجتمع. وفى أحوال كهذه لابد من العمل على نشر الوعى بهذه الأمور، ولابد من تشكيل لجان فيها أعضاء من العلماء المتخصصين فى

شتى النواحى العلمية والاجتماعية والأخلاقية بل وان يشارك فى هذه اللجان أيضا أفراد من غير المتخصصين من الجمهور الذين لديهم القدر الكافى من الوعى والثقافة العلمية، ليشاركوا فى وضع الأسس الجديدة الملائمة لتنظيم هذه التطبيقات الجديدة للأبحاث العلمية، ولكن ليس لتنظيم البحث العلمى نفسه، فتنظيم البحث العلمى من شأن العلماء وحدهم، والتطبيقات الاجتماعية وحدها هى التى تتطلب اتفاقا عاما على تنظيمها.

أضواء علمية على الاستنساخ

منذ نشرت مجلة نيتشر في أواخر فبراير ١٩٩٧ خبر استنساخ النعجة دوللي بتكنيك علمي جديد ، يبدأ من خلية من ضرع نعجة أخرى بالغة ، ثارت من يومها ضجة لا تهدأ ، عمت كل وسائل الإعلام . وكثرت التصريحات والفتاوى العلمية وغير العلمية ، وأثيرت كل المخاوف القديمة لسوء استغلال نظريات تحسين النسل في البشر ، وانطلقت الأصوات تنذر بخطر استنساخ عبيد كادحة بلا حقوق كما في رواية (عالم جديد شجاع) لألدوس هكسلي ، أو استنساخ الطغاة كما في فيلم أولاد من البرازيل ، أو أن يصنع البشر حسب الطلب وكأنهم سلعة كالسيارة مثلا . وأصبحت كلمة الاستنساخ الآن على كل لسان .

وأستميحكم أولا في إبداء اعتراض لغوى على استخدام كلمة استنساخ لترجمة المصطلح الإنجليزى Cloning ، فهذه ترجمة غير دقيقة نوعا ، كما أن فيها لبسًا بالنسبة لعلم الحياة . وكلمة Cloning الإنجليزية هي أصلا كلمة مستحدثة ولو بحثنا عنها في القواميس الإنجليزية القديمة لن نجد لها وجودًا . فهي كلمة قد أدخلت في النصف الثاني من هذا القرن كمصطلح في البيولوجيا . وترجمتها للعربية بالاستنساخ ستؤدى إلى لبس، لأن مصطلح الاستنساخ مستخدم من قبل في الوراثيات لترجمة كلمة إنجليزية أخرى هي Transcription ، ومعناها أن الحامض النووى المسمى رنا الرسول ينسخ تتابع القواعد من

الحامض النووى دنا الموجود فى أحد الجينات ليوصلها إلى سيتوبلازم الخلية . وهذا جزء من عملية إعطاء الأوامر من النواة إلى السيتوبلازم حتى يصنع بروتينا معينا . ولا شك أن استخدام كلمة واحدة يكون لها معنيين فى المجال العلمى نفسه – أى فى مجال الوراثيات – أمر يؤدى إلى الخلط والالتباس ، ولذا فإن من الأفضل ترجمة Cloning بكلمة عربية أخرى . وبعض العلماء مثل د . أحمد مستجير يترجمون المصلطح بتعريب بسيط ويسمونه (الكلونة) . على أنى شخصيا أفضل كلمة عربية مناسبة ، مطروحة فى المعجم الطبى الموحد وهى الاستنسال لترجمة Cloning ، كما يترجم هذا المعجم كلمة Clone إلى النسيلة بدلا النسخة . ومع كل هذا أرانى مضطرًا فى حديثى هذا إلى استخدام كلمة استنساخ ، لشيوعها بين الجمهور ، مع تحفظى عليها علميا .

والاستنساخ بتبسيط أرجو ألا يكون مخلاً هو تكاثر ينتج عنه كائن حى يتطابق وراثيًا مع الكائن الأصل . أى أن الكائن الجديد يكون نسخة طبق الأصل للكائن المنسوخ عنه وله نفس تركيبه الوراثى وصفاته الوراثية .

وهذا يحدث فى الطبيعة فى الكائنات الحية الدقيقة كالبكتريا مثلاً أو الأميبا . فيحدث التكاثر لا جنسيا فى هذه الكائنات وحيدة الخلية ، بأن تنقسم الخلية الأم إلى خليتين جديدتين كل منهما كائن مستقل ، خلية بكتريا مستقلة أو خلية أميبا مستقلة ، وتكون الخليتان الجديدتان نسخة مطابقة وراثياً للخلية الأم .

هذا إذن ما يحدث عادة عند الطرف الأبسط من الكائنات الحية .

أما عند الطرف الآخر الأكثر تعقدا ، أى عند الثدييات التى منها الإنسان ، فنجد أن التكاثر يحدث بطريقة مختلفة ، فهو يحدث جنسيا بأن يلتقي الحيوان المنوى للذكر مع بويضة من الأنثى ، ويندمج معها ليكونا خلية واحدة هي البويضة المخصبة . وهذه تنقسم لتتضاعف إلى خليتين ثم أربع ثم ثمان ، وهكذا دواليك . والخلايا هنا التى تتكاثر لا تنفصل عن بعضها وتظل متماسكة معا وهى تنقسم لتكون الجنين . والمادة الوراثية الموجودة فى نواة البويضة المخصبة ، وفى نوى الخلايا الناتجة عن انقسامها، يكون نصفها أصله من نواة الأم ، والنصف الثانى أصله من نواة الأب . وبالتالى، فإن الجنين أو المولود الجديد تكون فيه مكونات وراثية من الأم ومكونات وراثية أخرى من الأب ، ولا يتطابق ترتيب الجنين أو الوليد وراثيا مع أى من الأم أو الأب ، فهو ليس نسخة من أى منهما .

ومع ذلك فإن هناك نوعا من الاستنساخ يحدث طبيعيا فى الإنسان فى حالات نادرة ، هى ما يعرف بالتوائم المتطابقة ، تمييزا لها عن التوائم العادية الأكثر شيوعا .

والتوائم المتطابقة تحدث نادرا كنتيجة لأن بويضة واحدة مخصبة ، بعد أن تنقسم إلى خليتين يحدث لسبب ما ألا تظل الخليتان متماسكتين ، فتنفصل كل خلية منهما عن الأخرى ، لتكون كل منهما جنينا مستقلا عن الآخر ، ولكن الجنينين يتطابقان معا فى المكونات والصفات الوراثية . والتوأمان المتطابقان هكذا ينتجان عن تلقيح بويضة واحدة بحيوان منوى واحد ، وهذا ما يسمى بالتلقيح الأحادى . وكل توأم متطابق يكون نسخة طبق الأصل من الآخر وراثيا ، وإن كان كل منهما

لا يتطابق مع الأب أو الأم . أما التوائم الأخرى العادية والأكثر شيوعا فهى نتيجة لأن يحدث مصادفة تلقيح بويضتين معا فى نفس الوقت ، كل واحدة يلقحها حيوان منوى مستقل عن الآخر ، وهذا ما يسمى بالتلقيح الثنائى . والتركيب الوراثى للتوائم العادية غير متطابق ، والشبه الوراثى بينهما لا يزيد عما يوجد بين أى أخوين عاديين .

هذا عن الاستنساخ في الطبيعة ، فماذا عن الاستنساخ الذى يحدثه الإنسان ؟ عملية الاستنساخ مطروحة فى الفكر الإنسانى منذ آلاف السنين . فأساطير الحضارات الزراعية كلها سواء فى الهند أو العراق أو مصر ، فيها دائما قصة الإلهة الأنثى الخصبة التى تستطيع أن تنجب طفلا دون حاجة إلى حيوان منوى من رجل ، أى أن الأنثى تحمل جنينا باستخدام موادها هى بدون حاجة إلى المادة الوراثية للرجل ، وهذا قد يعد نوعا من الاستنساخ ليس غريبا عن وجدان الشعوب . وبداية من القرن الماضى بدأت نظهر روايات من الخيال العلمى عن استنساخ البشر والروبوتات . على أن التجارب العلمية لا الروائية ، لاستنساخ الكائنات الحية بدأت منذ حوالى نصف القرن . وأول تجارب نجحت على الكائنات الحية ، كانت على النبات . تؤخذ خلية من أى جزء من النبات من الساق أو الجذر أو الأوراق أو حتى لحاء جزرة ، وتوضعُ فى المعمل فى بيئة مغذية لها ، فتتكاثر بالملايين . وبعد مرحلة معينة يمكن معالجة الخلايا بمواد معينة فتتحول إلى نبات كامل له جذر وساق وأوراق، ويمكن نقله وزرعه فى التربة . واستنساخ النبات له تطبيقات عملية مفيدة فى زيادة وتحسين المحاصيل وإدخال صفات وراثية جديدة على النبات .

أما فى الحيوان فقد بدأت تجارب استنساخ الضفادع من حوالى أربعين سنة باستخدام خلايا تؤخذ من أبو زنيمة أو فرخ الضفدع ، وهو طور مبكر من أطوار تنامي الضفدعة .

وكانت هذه التجارب بمثابة المقدمات التى ما لبثت أن أدت إلى نجاح تجارب استنساخ الفئران ، ثم استنساخ الحيوانات الثديية الأكبر مثل حيوانات المزرعة كالبقر والغنم . ولكن الاستنساخ الحيوانى هنا يتم باستخدام خلايا الجنين المبكر وليس خلايا حيوان بالغ ، كما حدث مع النعجة دوللى . وطريقة الاستنساخ من الجنين المبكر ، تتم بعد إخصاب البويضة بالحيوان المنوى ، ثم انقسامها لتتضاعف إلى خليتين فأربع فثمان ، ثم ستّ عشرة . فى هذه الفترة المبكرة من انقسام خلايا الجنين ، وعددها مثلا ثمان خلايا فقط ، يمكن فى المعمل فصل هذه الخلايا إحداها عن الأخرى ، باستخدام إبرة زجاجية دقيقة تحت الميكروسكوب . وتدمج نواة الخلية المفصولة فى بويضة مخصبة لحيوان آخر قد نزعت عنها نواتها . وتنقسم هذه البويضة بعد ذلك لتكون جنينًا جديدا ، ويصبح لدينا فى النهاية بهذه الطريقة ثمانية أجنة جديدة بدلاً من جنين واحد ، ويتم غرس كل منها فى رحم أم بديلة . وتكون النتيجة النهائية هي ثمانية أبقار أو خراف كلها تتماثل فى التركيب الوراثى وكل منها نسخة متطابقة وراثيًا مع الآخر ، ولكنها ليست نسخة متطابقة مع الأم أو الأب . وكأننا نكون فى المعمل توائم متطابقة مثل التى تحدث طبيعيا فى الإنسان وإن كانت نادرة .

وهذا النوع من استنساخ الحيوان الذى يبدأ بخلايا جنينية مبكرة ، أصبح الآن روتينيًا ويستخدم منذ ما يقرب من عشرين سنة للإكثار من

حيوانات المزرعة التى لها صفات مرغوبة كمصدر للّبن مثلا ، أو اللحم ، أو لدواء تفرزه البقرة مثلا فى لبنها بعد معالجتها بالهندسة الوراثية .

أما النعجة دوللى حديث عام ١٩٩٧ ، فقد تم استنساخها بطريقة مختلفة تماما . والابتكار فى استنساخ دوللى لم يبدأ بخلايا جنين مبكر كما كان يحدث مع الحيوان سابقا . وإنما تم استنساخ دوللى بدءا من خلية أخذت من نعجة بالغة عمرها ست سنوات ، وهذا جديدٌ تماما علميا . وما فعله د . ويلموت وزملاؤه فى معهد روزلين بإدنبرة فى حالة دوللى ، هى أنهم أخذوا خليةً من نسيج ضرع نعجة ، تسمى النعجة الواهبة ، وحولوا فى المعمل هذه الخلية البالغة التى تنتمى لنسيج معين متمايز ، أى نسيج الضرع ، حولوها إلى خلية أخذت تنقسمُ وكأنها خلية جنينية مبكرة وغير متمايزة .

وأحسب أن لابد هنا من وقفة قصيرة لتفسير المقصود بالتمايز وعدم التمايز . لو عدنا ثانية إلى الجنين المبكر ، فإنه يبدأ بالبويضة المخصبة التى تأخذ من الانقسام إلى خليتين اثنتين ، ثم أربع ثم ثمان وهكذا . فى هذا الطور المبكر تكون خلايا الجنين كلها غير متمايزة أو غير متخصصة فى شكل أنسجة معينة . ولو حدث لسبب طارئ بتدخل معملى أن فصلت إحدى الخلايا عن الخلايا الأخرى فى هذا الطور المبكر ، فإن الخلية المنفصلة تكون لها القدرة كما سبق القول ، على تكوين جنين جديد منفصل أو وليد جديد مستقل ، هو توأم متطابق أو نسخة متطابقة وراثيًا مع الجنين أو الأجنة الأخرى التى انفصل عنها ، والتى نتجت عن نفس البويضة المخصبة الأصلية .

ولكن بعد انتهاء الأطوار المبكرة من انقسام الجنين نجد أن خلايا الجنين تأخذ في التمايز أو التخصص . بمعنى أنه تصدر للخلايا أوامر على نحو غامض لا يعرف العلم تفاصيله بعد ، وتوجه هذه الأوامر للخلايا بحيث تتوقف عن أن تكون كلها متماثلة إحداها مع الأخرى ، وإنما تتخصص كل مجموعة في صنع نسيج معين ، فبعضها يصنع الكبد والآخر يصنع القلب والآخر العظام ، وهكذا دواليك . ومع ذلك فإن كل هذه الخلايا ما زالت تحمل في نواتها نفس البرنامج الوراثي العام ، ولكنها تتلقى الأوامر بألا تنفذ من هذا البرنامج إلا جزءا مميزا مخصصا ، حسب النسيج الذى ستكوّنه . والأمر يشبه نوعا فرقة موسيقية ، والفرقة في حالة الجنين المبكر لها القدرة على عزف كل الألحان التى في البرنامج الوراثى . ومع بدء التمايز تصدر الأوامر لكل مجموعة معينة من الخلايا أو من الفرقة الموسيقية بعزف جزء معين من البرنامج ، فمجموعة خلايا تعزف لحن القلب ، وأخرى تعزف لحن الجلد .. وهكذا دواليك . وتظل الخلايا متمايزة هكذا وتنتج فقط لحنا أو نسيجا واحدًا بعينه طيلة حياة الكائن البالغ .

وقبل دوللى كان الاعتقاد السائد هو أن استنساخ الثدييات في المعمل لا يمكن أن يحدث ابتداء من خلية متمايزة أخذت من حيوان بالغ ، وإنما هو يحدث فقط بدءا من خلايا جنين مبكر . ولكن علماء معهد رزولين في أدنبره أثبتوا في تجربة دوللى إمكان الاستنساخ بدءًا من خلايا متمايزة بالغة . فقد أخذوا خلايا ضرع نعجة بالغة ، عمرها ست سنين ، وعالجوها في المعمل بحيث أرجعت إلى الحالة الجنينية المبكرة ، وأمكن استخدامها لاستنساخ كائن جديد هو النعجة دوللى التى

ولدت وهى صورة طبق الأصل من النعجة الواهبة ، أى النعجة التى وهبت النسخة الأصلية أو الخلية الأصلية من الضرع . ودوللى ، أو النسخة الجديدة تكون هكذا توأما مطابقا للنعجة الواهبة أكثر من أن تكون ابنة لها فهما نسختان متطابقتان وراثيا وإن كان بينهما فارق فى السن .

والطريقة التى استخدمها العلماء لتحويل الخلية المتمايزة إلى خلية لها صفات خلايا الجنين المبكر اللامتمايزة ، هى طريقة مبتكرة حقا . فمن المعروف أن خلايا الجسم البالغ تحدث لها دائما عملية تقادم وإحلال ، تموت بعض الخلايا ، فتتولد خلايا جديدة بدلا منها ، وذلك عن طريق ما يسمى بدورة الانقسام الميتوتى أو الانقسام الفتيلى . وهذه الدورة تحدث فى ثلاثة مراحل . فى المرحلة الأولى تكون الخلايا شبه ساكنة أو هامدة ، ثم تنشط فى المرحلة الثانية عملية لمضاعفة كمية المادة الوراثية التى فى الخلية ، أى الحامض النووى دنا فى الكروموزومات . وفى المرحلة الأخيرة عندما تنقسم الخلية إلى خليتين جديدتين يكون فى كل واحدة من الخليتين الابنتين نفس مقدار دنا الذى بدأت به الخلية الأم ، ونفس التركيب الوراثى لها . وعندما فكر العلماء فى استخدام الخلايا البالغة للاستنساخ ، فضلوا أولا أن يستخدموا فى تجاربهم خلايا بالغة فى المرحلة الثانية أو الثالثة من الانقسام الميتوتى ، باعتبار أنهما مرحلتان نشيطتان ، حيث الخلية مستعدة للانقسام . وبالتالى فهى مرحلة أقرب إلى أن تؤدى إلى عودة الخلية إلى حالة الجنين المنقسم مبكرا . ولكن هذه التجارب فشلت كلها لسبب أو آخر وكثيرا ما كان ينجم عنها كروموزومات أو مادة وراثية مشوهة .

وهنا فكر علماء روزلين فى محاولة أمر مختلف . وبـدلا مـن اسـتخدام الخلية الواهبة التى تكون فى المرحلة النشطة الثانيـة أو الثالثـة مـن دورة الانقسام الميتوتى فإنهم استخدموا الخلية وهى فى المرحلة الأولى مـن هـذه الدورة ، وهى مرحلة الهمود التى تبدأ بعد انتهاء إنقسام الخلية مباشرة ، حيث تتوقف الخلية عـن أى نشـاط . وتوصـل العلمـاء إلى إحـداث حالـة الهمود فى الخلية والابقاء عليها بأن حرموا الخلية فى المعمـل مـن المـواد الغذائية اللازمة لها ، بحيث قللوا من هذه المواد لتصبـح فحسـب خمسـة فى المائة مما تحتاجه الخلية . وبعد خمسة أيام من هذا الحرمان الغذائى أصبحت الخلايا هـامدة ومـهيأة لأن تعـزف لحـن البرنـامج الوراثـى كلـه وليس لحنا جزئيا متخصصا . أى أن الخلية عـادت إلى الحالـة الجنينيـة المبكرة غير المتمايزة .

ثم وضعت الخلية بعد علاجها هكذا فى بويضة نعجـة أخـرى أزيلـت منـها نواتـها ، وأدمـج العلمـاء الخليـة فـى البويضـة ، بفعـل صدمـة كهربائية ، فأصبح لديهم خلية مدموجة . وتعطى البويضة إشـارات لهـذه الخلية المدمجة فيها لتبدأ فى الانقسام لصنع الجنين . وتم غرس الجنـين فى رحم أم بديلة ، واستمر فى النمو حتى ولدت الشاة الجديدة دوللـى . وتركيب دوللى الوراثى وصفاتها الوراثيـة همـا نفس الـتركيب والصفـات التـى للشـاة الواهبـة لخلية الضـرع ، وبالتـالى فـهما نسـختان أو توأمـان متطابقان ، فيما عدا فارق السن .

وعموما فإن تجارب الاستنسـاخ مضـى عليـها مـا يقـرب مـن خمسـين عاما . وبعضها كان يتم إجراؤه على حيوانات ثديية كبيرة كالبقر ، ولكن هذه التجارب على الثدييات كانت تبدأ بخلايا جنينيـة مبكـرة . وهنـاك

أيضا تجارب استنساخ أجريت فعلا على أجنة بشرية مبكرة مأخوذة من عمليات إجهاض لأسباب طبية ، ولكن هذه التجارب كانت توقف دائما عند مراحل مبكرة من نمو الجنين دون استكمال لنموه ، وذلك مراعاة للوائح الأخلاقيات في علم الوراثة . والجديد في دوللى أنها أول حيوان ثدييى يتم استنساخه من خلية حيوان بالغ وليس من خلية جنين مبكر . والهدف من تجربة دوللى هو محاولة الإكثار من خراف معينة سبق علاجها بالهندسة الوراثية بحيث تنتج لبنا يحوى مواد مغذية لازمة للأطفال البشر المبتسرين ، الذين يولدون قبل الأوان . وهذه التجربة وإن كانت جديدة ومبتكرة إلا أنها كانت متوقعة حيث كان لها مقدمات فى الأدبيات العلمية منذ عدة سنوات .

والاستنساخ سواء بدأ من خلايا جنين مبكر أو من خلايا حيوان بالغ ليس فيه أى شبهة لمحاولة خلق ، فهو مجرد تكنيك علمي يستغل ما هو موجود بالفعل من أشياء حية ، ولا يخلقها من عدم . فهناك خلية من جنين مبكر أو من حيوان بالغ يلزم دمجها فى بويضة ، والبويضة يلزم غرسها فى رحم أم بديلة ، وهذه كلها خلايا وكائنات مخلوقة من قبل .

كان الاستنساخ إذن يحدث من عشرات السنين ، وسواء بدأ الاستنساخ من خلايا جنينية أو خلايا بالغة فليس فيه أى شبهة لمحاولة خلق ، فما السبب فى كل هذه الضجة التى ثارت فى كل وسائل الإعلام ؟ هل هناك حقا ما يبررها ؟.

الواقع أن الكثيرين يعتقدون أن هذه ضجة مبالغ فيها ، وأن من الأفضل أن توضع الأمور فى حجمها الحقيقى . والمسائل العلمية لا تناقش

بمثل هذه الانفعالات فى جو عاطفى محموم ، وإنما تناقشه الحجة العلمية بحجة علمية مثلها . والأفضل أن يتم فصل ما هو خيالى وروائى عما هو حقائق علمية ، وأن يتم تدبر الأمور علميا بهدوء ، وأن تناقش المخاطر المحتملة والمزايا المحتملة قبل إصدار القرارات والقوانين ، وأن يبدأ النقاش أولا بالمقدمات الصحيحة علميا وليس بالمقدمات الخطأ .

ومن أمثلة المقدمات الخطأ أن معظم من يعارضون الاستنساخ يدينونه من منطلق أنه يعد تدخلا في النظام الطبيعى فى حين أن كل الحضارات الإنسانية إنما هى نتيجة لتدخل الإنسان فى النظام الطبيعى ليعيد تشكيله وتغييره بما يفيد المجمتع البشرى أكبر فائدة . فاستئناس الحيوانات وحبسها وتربيتها واستغلالها لصالح الإنسان أمر كله تدخل فى النظام الطبيعى . والزراعة واكتشاف النيران فيها تدخل فى الطبيعة ، والطيران فى الفضاء والمشى فيه والعيش فى سفينة فضاء فى بيئة بلا جاذبية خروج على النظام الطبيعى . وكل الكشوف العلمية وتكنولوجيات الحضارات البشرية فيها تدخل فى النظام الطبيعى أدى أحيانا إلى إبادة أنواع بأسرها من الكائنات الحية ، نباتا أو حيوانا لفائدة الإنسان ، وأحدث فى نظام الطبيعة تغييرا أكبر كثيرا مما يحتمل أن يفعله استنساخ دوللى .

إن المقدمة الخطأ التى من هذا النوع ، حتى لو أدت مصادفة إلى الوصول إلى نتيجة أو قرار صحيح ، إلا أنها تظل خطأ وتظل خطرا . فأى حركة ارتدادية متزمتة فى المجتمع تستطيع أن تطالب بإلغاء الأبحاث العلمية والعلم كله بحجة أن ذلك تدخل فى النظام الطبيعى .

فالعلم كل العلم ، تدخل فى النظـام الطبيعـى وخاصـة أبحـاث الهندسـة الوراثية والتكنولوجيا الحيويـة . فـهل يعقـل أن يوقـف كـل ذلـك بـهذه الحجة المغلوطة ، حجة التدخل فى النظام الطبيعى ؟

وقضية الاستنساخ قد ناقشتها مصادر علمية كثيرة ، مناقشـة أساسـها الحجج العلمية وليس الانفعال أو الخيال والفن . وكـان مـن هـذه المصـادر ما يعارض الاستنساخ ، ومنها ما يؤيد استخدامه مقيـدا بالحـالات التـى يفيد فيها ، ونتيجة مثل هـذه المناقشـات هـى إمكـان التوصـل إلى وضـع ضوابط وقواعد لما يباح مـن التطبيقـات المفيـدة ولمـا يمنـع مـن التطبيقـات الضارة .

ومن بين مؤيدى الاستنساخ من يرون أن القضيـة أساسـا قضيـة علميـة عملية قبل أن تكون ميتافيزيقية . وكمثل لذلك ، فـإن هنـاك تصريحـات عديدة تتفق فى مضمونها وأدلى بها د . هارولد فـار مـوس مديـر المعـاهد القومية للصحة فى الولايات المتحدة وكذلك السـناتور تـوم هـاركين عضـو مجلـس الشـيوخ الأمريكـى، ورجـل الديـن الكـاثوليكى الكاردينـال جـون أوكنور ،وهم يتفقون معا على أنه يحسن بالقائمين على الأمور أن يتبينـوا الفارق بين التعجل فى حظر البحث العلمى كنتيجة لمشورة متسـرعة غـير ناضجة ، وبين التروى فى نظر القضية ، بحيث يكون الحظر محدودا لمـا هو مضر ، أو يكون القـرار الصـادر فيـه تنظيـم لتطبيقـات البحـث . وهـم يضيفون أنه مهما كان من وجود مخاطر فى الاستنسـاخ فـإن الالتجـاء إلى الحذر بعين مفتوحة قد يكون وسيلة دفـاع ضـد هـذه المخـاطر أفضـل مـن الجهل المتعمد الأعمى .

ويقول مؤيدو الاستنساخ أنه بالإضافة إلى التطبيقات المفيدة فى النبات والحيوان ، فإن ثمة تطبيقات تزيل المعاناة عن الإنسان . من ذلك مثلا حالة الزوجين العقيمين الميئوس طبيا من أن يتمكنا من الإنجاب . هذه الأسرة يمكنها الحصول على طفل باستنساخ خلية من الأب ، تعالج وتوضع فى رحم الأم . والأزواج عادة يفضلون الحصول على طفل له صلة قرابة بهم أى صلة وراثية ، ويفضلون ذلك على تبنى (أطفال غرباء) .

ومن حالات الاستنساخ المفيد أيضا حالة الأسرة التى لديها طفل مريض بمرض خطير مثلا ، طفل فى السابعة من عمره مصاب بالليوكيميا أو سرطان كرات الدم البيضاء ، هذا الطفل يمكن أن يتجنب الموت ، بل وأن يشفى بعملية زرع نخاع سليم يتوافق مع جسمه بحيث لا يلفظه . على أن الحصول على هذا النخاع أمر بالغ الصعوبة . ولكن لو أمكن استنساخ هذا الطفل سيصبح لدى الأسرة بعد تسعة شهور طفل آخر هو وراثيا نسخة مطابقة للطفل المريض ، توأم متطابق معه ، ونخاع الطفل الجديد يصلح تماما لأن ينقل للطفل المريض فيشفى ، وبذا يصبح للأسرة طفلان سليمان بدلا من طفل واحد سيموت ؛ ويتساءل مؤيدو الاستنساخ هل إنقاذ حياة طفل مريض يعد شرا أم خيرا ؟

ويتناول مؤيدو الاستنساخ حجة معارضيه ، التى تعترض على صنع إنسان حسب الطلب ، بما قد يؤدى إلى إحداث خلل فى المجتمع . ويزعم المعارضون أنه قد يتم صنع نسخ متطابقة لعالم مثل إينشتين حسب الطلب ، أو لفنان مثل عبد الوهاب أو لطاغية كهتلر . ويرى مؤيدو الاستنساخ أن حجة المعارضين هذه فيها كثير من الخلط والمغالطة العلمية . فالإنسان ليس نتاج تركيبه الوراثى وحده ، وإنما هو نتاج

التفاعل بين المورثات أو الجينات مع البيئة . ومهما كان التركيب الوراثى للأفراد متطابقا كما فى التوائم المتطابقة مثلا ، إلا أن كل فرد سيختلف عن الآخر فى سلوكه حسب تفاعله مع البيئة ومع القدوة من الآباء والمدرسين ، وتولد لكل فرد خبراته وخياراته الخاصة ، بما يؤدى إلى اختلاف واضح فى هوية وذات كل فرد . وهذا أمر قد تم رصده بالفعل فى التوائم البشرية المتطابقة ، التى تعد نسخا متطابقة وراثيا . وكل من له خبرة بتربية التوائم المتطابقة ، يعرف أنها قد تتطابق فى الشكل الخارجى والتركيب الوراثى ، ولكنها لا تكون أبدا متطابقة فى شخصيتها وذاتيها . وتوائم الاستنساخ شأنهم فى ذلك مثل التوائم المتطابقة الطبيعية . بل إن توائم الاستنساخ قد يتوفر لها عامل يجعل من المستحيل أن ينمو كل منها فى نفس البيئة ، وذلك عند وجود فارق سن بين التوأم الواهب والتوأم النسخة ، وبالتالى سيوجد فارق كبير بين بيئة كل جيل . وكمثل فإن أينشيتين النسخة لو درس وهو طفل مبادىء الحساب على يد الأستاذ يعقوب الذى درس لنا الحساب فى المدرسة الابتدائية ، وكان يضربنا بكل قسوة لأتفه سبب ، بحجة أن الخطأ فى الحساب نوع من الكذب والكاذب مثواه جهنم وبئس المصير ، لو أن إينشتين النسخة درس على يد هذا الأستاذ لكره الرياضة كلها ولخاب فيها كما خاب تلاميذ يعقوب أفندى . كذلك لو أن محمد عبد الوهاب النسخة نشأ فى قبيلة بدائية فى غابات الأمازون فلعله سيصبح راميا ماهرا بالقوس والنبال لصيد الحيوان ، أو لعله سيكون قارع طبل فاشل . أما الزعم بإمكان استنساخ طاغية كهتلر فأمر لا يمكن علميا أن يحدث ، لأننا لا يمكننا أن نعيد بالضبط نفس البيئة والظروف التى نشأ فيها هتلر ، ولا أن نعيد نفس تفاعلات مخّه وجهازه العصبى معها . وإنما ستكون نسخةُ هتلر مشابهة

لـه فـى الشـكل الخـارجى فحسـب ، أمـا شـخصيته ونفسـيته وسـلوكه فستختلف من نسخة لأخرى حسب تفاعلها مع بيئتها .

هذا عن حجج المدافعين عن الاستنساخ . أمـا المعـارضون فلديـهم حقًـا أكثر من حجة علمية غاية فى القوة .

أول هذه الحجج أن التكنيـك الـذى استخدِام لاستنسـاخ دوللـى يُعـد علميًا بعيدًا عن الاكتمال والاتقان . فلم تنجح سوى تجربة واحدة من بين حوالى ثلاثمائة . ولا يمكن أن يطبق على البشر تجربة نسبة نجاحها بهذا المعدل الضئيل . إن تجربة دوللى قد أثبتت حقا إمكان حـدوث استنسـاخ للثدييات من الخلايا البالغة ، ولكن ما زال عليها أن تقطع مراحل أخرى من الإتقان والتجويد قبل تعميم استخدامها .

وهناك أيضا مشكلة كبيرة الأهمية ، وهى أن الخلية التـى تؤخـذ مـن الحيوان الواهب قـد أخـذت مـن حيـوان بـالغ قطـع شـوطا مـن عمـره ، تتعرض فيه أجيالُ الخلايا لتغـيرات تقـادم قـد تؤثـر فـى تكوينـها وفـى سلامتها . ولا أحد يعـرفُ بعـد مـاذا سـيكون عمـر النسـخة الجديـدة أو النسيلة الجديدة ، هل ستصل إلى نفس متوسط العمر المعتاد أم أنها سوف تشيخ بسرعةٍ أكبر من المعدل الطبيعى ؟ فيشيخُ الفـردُ النسـخة فـى سـن العشرين مثلا ، ويقع مبكرًا ضحيةً لأمـراضٍ ضمـور واختـلال خلايـا المـخ مثلا ، كمرض الزهايمر أو الشلل الرعاش . ولا يمكن أن يجرؤَ أحـدٌ علـى استنساخ بشر قبل الإجابة عن هذه الأسـئلة العلميـة وإلا تعرضنـا لظـهور أجيالٍ من البشر المرضى أو المصابين بالتشوهات أو العَقْم .

وهناك أيضا مشاكل أخرى فى التكنيك. فما يصلح لاستنساخ النعجة والبقرة قد لا يصلح لاستنساخ الفأر أو الإنسان. وأحد أسباب ذلك أن نواة الخلية المتكاثرة تستغرق وقتا معينا لإعادة برمجتها حتى يصبح فى الإمكان توجيهها لأن تواصل التكاثر لأنتاج كائن جديد. وبالنسبة لجنين النعجة أو البقرة فإن تنفيذ البرنامج لا يبدأ إلا بعد أن تنقسم البويضة من ثلاثة إلى أربع مرات، أى عندما يصبح عدد خلايا الجنين المبكر ثمان خلايا أو ست عشرة خلية. أما فى الفئران فإن البرنامج يبدأ مباشرة بعد الانقسام الأول، أى عندما يصبح عدد الخلايا اثنتين، وفى الإنسان بعد الإنقسام الثانى أى عندما يصبح عدد الخلايا أربع. وفى الظروف الحالية فإن هذا لا يتيح الوقت الكافي لأن يتم إعداد نواة الخلية وإعادة برمجتها.

ثم هناك الحجة القوية بأن هدف الانتخاب الطبيعى، وأيضا هدف علماء الوراثيات، هو العمل على زيادة التنواع البيولوجى. وهذا يتم فى الثدييات من خلال التزاوج أو التكاثر الجنسى، وأندماج البويضة من الأم بالحيوان المنوى من الأب. والتكاثر الجنسى هكذا، خاصة بين غير الأقارب، يزيد التنواع فيعطى فرصة لظهور كائنات أقوى أو ذات تكيف أفضل، وتقاوم الأمراض والمخاطر أحسن من غيرها. أما الاستنساخ فهو تكثير لأفراد متطابقة وراثيا بما يجعل النوع أضعف، بل ويعرض أفراده للإبادة فيها لو ظهر وباء تكون النسخ المتطابقة كلها مستهدفة له بحكم تماثل تركيبها الوراثى.

وإذن، فإن هناك أسبابا وعقبات علمية قوية تعترض استنساخ الإنسان. وبعض العلماء يرون أنه حتى فى حالة الموافقة على إجراء

أبحاثٍ لاستنساخ الإنسان، فإن هذه الأبحاث لن تصل إلى هدفها إلا بعد انقضاء مدة من سنين طويلة. بينما يرى آخرون ومنهم دكتور ويلموت صاحب النعجة، أن استنساخ الإنسان أمرٌ ممكنٌ عمليًا خلال سنتين لا أكثر .

وعموما فإن هناك شبه إجماع للموافقة على إباحة استنساخ النبات والحيوان، لما في ذلك من فوائد اقتصادية ملموسة بدون أضرار جانبية. واستنساخُ النباتِ والحيوان يجرى بالفعل تطبيقُه من عشراتِ السنين. أما بالنسبة لاستنساخ الإنسان، فإن الاتجاه الغالب هو منعه، وبعض الدول الغربية فيها من قبل قوانينٌ تمنعُ استنساخَ البشرِ حتى من الخلايا الجنينية ، وذلك باعتبار أنه أمرٌ ليس فيه فائدة ملحّة وربما أيضًا فيه ضررٌ أكبر وغيرُ أخلاقي، ولكن هناك من يتساءلون هل وجودُ قوانين بالمنع سيؤدى حقيقةً إلى توقف التجارب بالفعل؟ طبعًا، هذا أمرٌ لا يمكن الجزمُ به، فالعالم مليءُ يوميًا بما يفعلُه الإنسان من أمور ليست لها فائدة ملحة بل وهي أيضا غير قانونية وغير أخلاقية. وهناك قوانين فى أمريكا مثلاً تمنعُ إجراء تجارب على الأجنة البشرية، ولكن هذه التجارب مازالت تُجرى سرًا للآن. وقد فُصِلَ عالمٌ من جامعة جورج واشنطن لهذا السبب، كذلك ثمة نقطةٌ مهمة بالنسبة لإمكان الحظر، وهى أن تجارب الإستنساخ سهلة نسبيا، ولا تحتاج إلا لأفراد معدودين ذوى خبرة علمية، يعملون فى معمل صغير قد يكون أحد البدرومات مثلا، ويعملون بأدوات وتمويل بسيطين نسبيًا. وكل هذا مما تصعب مراقبته أو متابعة حظره . والدول الخمس النووية، حينما عملت على حظر تجارب الأسلحة النووية

فى الدول الأخرى، كان ذلك مما تسهل مراقبته ومتابعته، لأن التجارب النووية تحتاج لتمويل كبير ومنشئات ضخمة، وعدد كبير من العلماء المؤهلين، وكل هذا لا يسهل إخفاؤه. ومع هذا كله فإن هناك تجارب نووية أجريت سرا فى بعض المراحل كما حدث فى الهند والباكستان وغيرهما. وهناك عامل آخر بالنسبة لتجارب الاستنساخ، وهو أن الكثيرين من أثرياء العالم تكون لديهم نزعة نرجسية لتخليد أنفسهم، فبعضهم يوصى بتجميد جثته أملا فى تقدم علمى يعيد لها الحياة، وآخرون يجمدون نطفهم، ولا يستبعد أن يظهر من هؤلاء الأثرياء من يمول بحثا سريا لاستنساخ نفسه، حتى ولو عرف أن النسخة ستشبهه فقط فى الشكل الخارجى . وحين سئل عالم الوراثة المشهور ريتشارد دوكنز مؤلف كتاب «الجين الأنانى» إن كان يرغب فى استنساخ نفسه، وافق بشدة، ولكنه برر موافقته بمحض الفضول العلمى.

والخلاصة أن التجارب لم تصل حتى الآن إلى استنساخ الإنسان، ومازال هناك عقبات كثيرة فى سبيل ذلك. على أن عجلة العلم تدور بسرعة هائلة، والكشوف تتوالى بسرعة يصعب معها متابعتها فى التو. وهناك مقولة بأن كل ما يصبح فى إمكان العلم أن يفعله سوف يتم له صنعه، وتاريخ العلم حافل بذلك، ويجب وضع هذا الأمر فى الحسبان.

والمجتمع لابد له قبل إصدار القوانين والأحكام من أن يتروى فى نظر القضايا العلمية، ويتفهمها من وجوهها العلمية أولا، ثم يعمل على تعظيم ما فيه فائدة أقصى تعظيم، وعلى تقليل ما فيه خطر لأدنى حد. ودور المجتمع هو أن يحسن توجيه تطبيقات البحث العلمى، وليس أن يلغى

البحث العلمى نفسه، فالبحث العلمى والعلم فى حد ذاتهما محايدان أخلاقيا. وأبحاث الطاقة النووية أو الهندسية الوراثية أمر محايد لا يحكم عليه أخلاقيا، وإنما يكون الحكم الأخلاقى على التطبيقات العملية أو التكنولوجية، هل تستخدم الطاقة الذرية مثلا لعمل محطات كهرباء، أو لصنع قنابل ذرية؟ وهناك مثل آخر بالنسبة لوسائل منع الحمل؛ لو أن إحدى الحكومات أجبرت الشعب قهرا على استخدام وسائل منع الحمل، فإن هذا شر، ولكن هذا الخطأ فى التطبيق، لايبرر أن نحظر الأبحاث عن وسائل منع الحمل، فالخير والشر هو ما يفعله الإنسان بالفعل، وليس ما يمكن له أن يفعله، والعلم يعطى للإنسان إمكانات التطبيق أو الفعل، وعلى الإنسان أن يختار ما يفيده وأن ينبذ ما يضره.

عندما يختلف العلماء: تتعدد الآراء والمناهج

لا شك أن العلمَ الحديثَ قد أفاد البشرية فوائد عظيمة. فـهو مثـلا قـد أطال عمر الإنسان من ٤٥ سنة في بداية القرن العشرين إلى ٧٠ سـنة فـى أواخره، خاصة في البلاد المتقدمة، كما أنـه وضـع الإنسان فـوق القمـر، وعلى وشْك أن يضعَه فوق المريخ، وجعلَ في الإمكانِ أن يجلس النِاس في بيوتهم ليمثل العالم بأسره بين أيديهم في أجهزة الإعلام المرئى والمسموع، كمـا أنـهم عندمـا يستخدمون شبكات الكمبيوتـر كالانـترنت يستطيعون الحصول على معلومات غزيرة عن أيِّ موضوع من أى مكان فى العالم.

ويزعـم البعـض أن هـذا العلـمْ ينتجُـه علمـاءُ هــم دائمـا موضوعيــون ومحايدون تماما، ورؤيُتهم إنما هي حقائقُ متعاليـة، والعـالِمُ هكـذا كأنـه راهب في محراب تحيـط بـه هالـةُ مـن قداسـةِ العلـم وينعـزلُ عـن سـائرِ المجتمع وعن مشاكلِ الحياة اليوميـة ليُنتـجَ هـذا العلـم المتعـالى. علـى أن العلماء ظلوا وسيظلون دائما أعضاء فى مؤسسة اجتماعية هى مؤسسة العلم التى تؤثـر وتتـأثر ببنيـة كـل المؤسسـات الاجتماعيـة الأخـرى، كالدولـة بمؤسساتها وسياساتها، ومصادر تمويل البحـث مـن شـركات تجاريـة أو صناعية أو حكومات، ومعـاهد التعليـم ومعـامل العلـم. والعلمـاء لايبـدأون حياتهم كعلماء، وإنما يبدأونها ككائنات اجتماعية تنتمى لإحـدى الأسـر التى تنتمى لأحـد المجتمعـات فـى إحـدى الـدول، والعلمـاء ينظـرون إلى الطبيعة من خلال عدسـة تم تشكيلها مـن خـلال ممارساتهم وخبراتـهم

الاجتماعية. وبالتالى فالعلماء مثلهم مثل سـائر البشـر، يتعرضـون لضغـوط اقتصادية واجتماعية وسياسـية. كمـا أنـهم عنـد اتخـاذ مواقفـهم العلميـة يكونون عرضة للخطأ وعرضة للاختلاف وتعدد الرأى. علـى أنـه يحـدث فى الغالب أن يكون فى هذا الخلاف والجدال مـا يفيـد العلم ويـؤدى إلى مزيد من التقدم فيه. ونحن عندما نطرحُ أمثلة لبعض هـذه الاختلافـات لا نقصد بها أن نكون ضد العلم، أو أننا ينبغى أن نتخلَّى عن العلم الحديث لنعود إلى الاسترشاد بالتنجيم وتفسـير الأحـلام. وإنمـا المقصـود بذلـك أن نبين كيف أن تعددُ الرأى العلمى غالبا ما يكون فيه فائدة للعلم، كمـا أن المقصود أن نتعرف على حقيقة العلـم كمؤسسـة للنشـاط الاجتمـاعى، وأن العلماء كثيرا ما تتعددُ آراؤهم بالنسبة للمشكلة الواحـدة، ولابـد أن يتوفـر لدى المتخصص وغـير المتخصـص نزعـة نقـد عقلانيـة بالنسبة للدعـاوى الخلافيـة بـين العلمـاء، خاصـة فيمـا يتعلـق بالتطبيقـات العلميـة أو التكنولوجية فى المجتمـع، كتطبيقـات الطاقـة الذريـة مثـلاً أو الهندسـة الوراثية، فهذه أمور أخطر من أن تترك للعلماء وحدهم.

إلا أنه على الرغم من كل ما قد يوجه من نقد للعلماء والعلم الحديث، فهم مازالوا يقدمون أفضل تفسير ممكن للطبيعة، والتفسـير العلمـى حتـى الآن يتفوق دائمـاً علـى التفسيرات الفلسـفية الميتافيزيقيـة، لأن نظريـات العلم تقبل الإثبـات والتفنيـد، والتغيـير أو التعديـل، ومحكـها فـى ذلـك التجربة فى المعمل، أو القدرة على التنبؤ بأحداث تـترتب علـى النظريـة العلميـة، أمـا التفسـيرات الفلسـفية فتعتمـد علـى التـأمل مـع التخمـين أو الحدس، وشتان ما بين المنهجين.

وتعد الفيزياء الحديثة الآن أهم العلوم الأساسية، وقد أصبحت في الصميم من سائر العلوم الأخرى كالبيولوجيا والكيمياء . وتتناول الفيزياء الآن موضوعين رئيسيين، أحدهما هو الفيزياء الكونية التي تبحث أمر أكبر أجرام الكون من مجرات ونجوم وكواكب والموضوع الآخر هو فيزياء الجسيمات الدقيقة، التي تبحث أمر أصغر جسيمات الكون كالذرة والجسيمات تحت الذرية أو الأصغر من الذرة. ويعد أسحق نيوتن الذى عاش من ١٦٤٣ - ١٧٢٧ أحد علامات الطريق فى تقدم الفيزياء الحديثة. وقد سجل فى كتابه «المبادئ الرياضية» قوانينه للجاذبية على نطاق الكون، ونظريته عن حركة الأجسام فى المكان والزمان. وقوانين نيوتن ونظرياته مازالت للآن تستخدم بنجاح فى مجالات معينة. وقد بين نيوتن أن قوة الجاذبية هى سبب مدار الأقمار حول الكواكب ومدار الكواكب حول الشمس، وأن الشمس وسائر النجوم يجذب بعضها بعضا. على أن العلماء من معاصرى نيوتن تبينوا وجود ثغرة فى نظريته هذه. فإذا كانت النجوم يجذب أحدها الآخر، فما الذى يمنعها من أن تتهاوى معا منجذبة إلى نقطة في المركز؟ وحاول نيوتن الرد على ذلك بالقول بأن عدد النجوم لا متناهى فى مكان لا متناهى، وبالتالى فليس هناك أى نقطة مركز تهوى إليها النجوم، وهذا بالطبع يعد تحايلا من نيوتن أكثر منه حلا. وهو ناجم عما كان يسود وقتها من عقيدة أرسطية بأن الكون ثابت استاتيكي لا يتغير، لا لسبب إلا لأن الثبات أفضل من التغير والحركة! وقد ظلت هذه العقيدة موجودة حتى أوائل القرن العشرين، وظلت هذه الثغرة فى نظرية نيوتن بلا حل حتى ظهرت، بعد نسبية اينشتين، نظرية تحل هذه المشكلة الخلافية.

في أوائل القرن العشرين خرج إينشتين على العالم بنظرية النسبية العامة وموضوعها أيضا الجاذبية . وإينشتين كان يؤمن أيضا بثبات أو استاتيكية الكون. ونظريته وإن كان البعض يعدها امتدادا لنظريات نيوتن، إلا أنها تختلف عنها في وجوه كثيرة . درس أحد العلماء الروس، واسمه فريدمان، معادلات إينشتين في النسبية، وأثبت نظريا في ١٩٢٢ أن إحدى نتائج هذه المعادلات أن الكون يتغير وليس ثابتا، فالكون يتمدد، بمعنى أن مجراته ونجومه يتباعد أحدها عن الآخر مثلما تتباعد بقع ملونة مرسومة على بالون أطفال وهو ينتفخ. وسنجد هنا مثلا لما يحدث عندما يختلف أحد العلماء مع نتيجة ترتبت على نظريته هو نفسه. فقد فزع إينشتين من هذه النتيجة التي لا تتفق مع الاعتقاد السائد عن الكون الثابت، واستنكر إينشتين أن يتمدد الكون، وأدخل على معادلاته ما أسماه الثابت الكوني، حتى يستطيع أن يلغي به استنتاج تمدد الكون. على أن عالم فلك أمريكي، وهو إدوين هابل، استطاع أن يثبت عمليا في ١٩٢٩ أن أرصاده تبرهن على أن الكون يتمدد حقا. وهذا التمدد فيه ما يحل ثغرة تهاوي النجوم في نظرية نيوتن. وعندما تبين إينشتين صحة هذا البرهان العملي الحاسم قال معترفا «إن الثابت الكوني هو أكبر خطأ ارتكبته في حياتي» . وفي أوائل القرن العشرين أخذ العلماء في دراسة الإشعاع، وحينما حاولوا تطبيق ميكانيكا نيوتن على الذرات والطاقة المشعة، ظهر لذلك نتائج مستحيلة، فكان أن أدى ذلك إلى ظهور نظرية جديدة هي ميكانيكا الكم، تقول أن الضوء والأشعة الأخرى تبث في حزمات معينة أو كمات وليس في تدفق لا نهائي. واستخدمت نظرية ميكانيكا الكم الجديدة في دراسة سلوك أصغر مكونات الكون أي الجسيمات تحت الذرية. وفي ١٩٢٦ ترتب على دراسات

هايزنبرج بميكانيكا الكم أن ظهر مبدأ عدم اليقين. وحسب هذا المبدأ لا نستطيع أن نقيس بدقة فى نفس الوقت سرعة أحد الجسيمات وموضعه. وحسب هذا المبدأ فإن ميكانيكا الكم لا تتنبأ بنتيجة وحيدة محددة للمشاهدة، وبدلا من ذلك فإنها تتنبأ بعدد من النتائج المختلفة المكنة، يمكن لنا معرفة مدى احتمال وقوع كل منها. وهكذا بعد أن كان العلماء يؤكدون وجود حتمية علمية مطلقة حسب ميكانيكا نيوتن، دخل على القياس العلمى لغة الاحتمالات والاحصاءات حسب ميكانيكا الكم، وأصبح اليقين العلمى بنسب مئوية وليس بصورة مطلقة. ومازال التنبؤ العلمى ممكن هنا باستخدام مؤشرات احصائية تتناول أعدادا كبيرة من أحداث متشابهة وليس حدثا فرديا واحدا ويسمى هذا أحيانا بأنه حتمية احصائية. مثال ذلك مادة الراديوم المشع – ٢٢٦، وله نصف حياة من ١٦٠٠ سنة، بمعنى أننا نتنبأ أنه بعد ١٦٠٠ سنة سيتحلل نصف هذا الراديوم ككل، ولكننا لا نستطيع أن نتنبأ أو نحدد أى ذرات منه سوف تتحلل بالذات وأيها التى ستبقى بعد هذه المدة.

عموما حدث عند ظهور مبدأ عدم اليقين أن ثارت بشأنه خلافات كثيرة، ومرة أخرى تزعم اينشتين حركة المعارضة لهذا المبدأ الذى يجعل الكون مجرد احتمالات وصدف فى رأيه وقال قولته المشهورة بأن الله لا يلعب النرد بالكون.

وكان هذا بالطبع موقفا فلسفيا من اينشتين وليس موقفا علميا. ومن الطريف أن اينشتين نال جائزة نوبل عن أبحاث له فى ميكانيكا الكم، قبل أن يظهر مبدأ عدم اليقين الذى استنكره، وعموما فإن معظم العلماء ما لبثوا أن تقبلوا نظرية ميكانيكا الكم، بما فيها من مبدأ عدم اليقين،

وهو فيما يعرض عدم يقين محسوب وليس عدم يقين مطلق، وقد أثبتت النظرية نجاحها حيث اتفقت تماما مع التجارب في مجالها. ومازالت ميكانيكا الكم في الأساس من كل العلم والتكنولوجيا الحديثة تقريبا، بما في ذلك الترانسستور والكمبيوتر والثورة الالكترونية، كما أنها أيضا في الأساس من الكيمياء والبيولوجيا الحديثة، والمجال الوحيد الذى لم تندمج فيه بعد ميكانيكا الكم، هو بنية الكون بالمقياس الكبير أى الأجرام الكبرى من مجرات ونجوم، فهذا المجال مازالت تحكمه أساسا إما نظريات نيوتن أو نظريات اينشتين عن الجاذبية، وذلك حسب ميدان التطبيق.

في النصف الثانى من هذا القرن ظهر عالم فيزياء أشل، هو ستيفن هوكنج، فاقت عبقريته كل علماء الفيزياء الأصحاء، وله باع كبير في الأبحاث التنظرية للفيزياء الكونية . فكر هوكنج في تجربة نظرية أو فكرية، وهى لو أننا فرضنا أن الكون قد توقف عن التمدد، وأخذ ينكمش على نفسه، هل سيكون طور الانكماش هذا بمثابة عكس زماني لطور التمدد، وهل نرى الأحداث وهى تنعكس، فيعيش الناس حياتهم وراء، ويموتون قبل ولادتهم وينتقلون مع انكماش الكون من الشيخوخة إلى الشباب إلى أرحام الأمهات؟! وهل نرى أجزاء الكوب المكسور وهى تتجمع معا في كوب صحيح، وكأنما نرى فيلما سينمائيا يدار إلى الوراء بدلا من أن يدور للأمام؟ في أول الأمر اقتنع هوكنج من نماذجه الرياضية بأن هذا ممكن نظريا، وعمل على إثباته بالمعادلات. إلا أن واحدا من تلاميذه بين له وجود خطأ في النموذج الذى استخدمه، وأوضح له بالبرهان أن طور انكماش الكون لن يكون عكسا زمانيا لطور تمدده.

وما لبث هوكنج العالم الكبير، أن أعترف لتلميذه بخطئه، ويقول هوكنج في ذلك أن بعض العلماء قد لا يقرون أبدا بأنهم على خطأ، ويعاندون فيبحثون عن حجج جديدة لدعم النظرية الخطأ، في حين أن الاعتراف، والاعتراف كتابة بالخطأ، أفضل كثيرا من هذا العناد. وإذا كان اينشتين وهوكنج ينتقدان برفق ويعترفان عند اللزوم بالخطأ، إلا أن اسحق نيوتن مثلا كان مشهورا بفظاظته وخلافاته المشتعلة مع العلماء الآخرين. وتجلى ذلك في خلافة المشهور مع العالم الألماني لايبنتز، حين توصل كل منهما إلى اكتشاف حساب التفاضل مستقلا عن الآخر، ونشأ بينهما شجار عنيف عمن سبق منهما الآخر. وتدنى نيوتن بالخلاف إلى حد اتهام لايبنتز بالسرقة العلمية، ولم يتورع نيوتن عن إعلان ارتياحه عند موت لايبنتز.

ويماثل هذا السلوك الخشن ما يحدث حاليا بين بعض العلماء مع ظهور تأثير امبريالية العولمة وسيطرة الشركات العابرة للقوميات على الاقتصاد والمجتمع بما فيه من علم وعلماء. وقد صاحب ذلك ظهور مشروعات العلم الكبير التي تكلف بلايين الدولارات مثل مشروع الجينوم البشري والحيواني، أو رسم خريطة لتركيب وموقع المورثات أو الجينات، وكذلك مشروع مرصد هابل الفضائي. وهذه المشاريع ذات التكلفة الباهظة، تستفيد منها الشركات الضخمة فائدة مزدوجة، فهي تصمم وتبيع لها أجهزة غالية الثمن غير معتادة، كما أن هذه الشركات تحاول دائما أن تستغل اقتصاديا نتائج أبحاث العلم الكبير لصالحها. وتورط بعض العلماء في روابط مالية مع هذه الشركات، فهم إما يشترون أسهمها أو يعملون كمستشارين لها من وراء الستار، ووجد بين العلماء من يحارب أحدهم الآخر لمناصرة شركة على أخرى، أو لمناصرة الشركات ضد الحكومة، عند

استغلال نتائج البحث. من ذلك ما حدث في مشروع الجينوم البشرى حيث حاول جيمس واطسون أحد كبار المشرفين على المشروع والحائز على نوبل لاكتشاف تركيب دنا المادة الأساسية في الجينات، حاول واطسون أن يجعل للشركات الممولة لمشروع الجينوم حق استغلال نتائج المشروع تجاريا. إلا أن معظم العلماء تصدوا رافضين لهذا الاتجاه، وجعلوا حق الاستغلال مقصورا على المعاهد القومية المشرفة على المشروع. ومن الطريف أنه قد حدث أثناء هذا الصراع أن رئيس المشروع قد هدد واطسون بأنه سيكشف عن تملكه لأسهم في الشركات التي يحارب من أجلها، في حين أن رئيس المشروع نفسه كان يساهم بدوره في بعض الشركات الأخرى.

هناك خلاف آخر بين العلماء حاليا، يدور حول ما يسمى بالنظرية الموحدة الكبرى، إن أهم نظريتين علميتين في القرن العشرين هما النسبية العامة التي تفسر سلوك الأجرام الكبرى حسب الجاذبية، وميكانيكا الكم التي تفسر سلوك الجسيمات الصغرى حسب القوى الكهرومغناطيسية والقوى النووية الشديدة والضعيفة. يرى بعض العلماء أنه لو أمكن توحيد النظريتين معا في نظرية واحدة تسمى الكم جاذبية أو جاذبية الكم فإن هذا سيصل بنا إلى نظرية كبرى موحدة تفسر كل العلم.

وثمة محاولات بذلت لذلك ونظريات اقترحت. على أن علماء آخرين يرون أن هذه النظريات حتى الآن لا هي كبرى ولا هي موحدة، وأن العلم ليس في حاجة لها ويمكنه أن يستمر في طريقه بدونها.

وعلماء الفيزياء يصنفون عادة إلى منظرين يغلب عليهم نزعة التنظير الرياضي والاستنباط، ويقابل ذلك العلماء التجريبيون حيث تجرى

التجربة فالمشاهدة والاستنتاج بالاستقراء من الجزئى إلى الكلى. وتجارب الفيزياء الكونية تكون عن طريق إجراء الأرصاد الفلكية وتحليل معطياتها، أما تجارب فيزياء الجسيمات فتكون باستخدام المعجلات النووية حيث تعرض الذرة أو جسيماتها لسرعات هائلة وقذائف من جسيمات أخرى تؤدى إلى تكسير الجسيمات المعجلة إلى مكونات أصغر.

والمنظرون والتجريبيون يسخر كل فريق منهم من الآخر. ففى الفيزياء الكونية يسخر التجريبيون أو العاملون بأرصاد الفلك من العلماء المنظرين مثل هوكنج، الذين يتحدثون عن الكون وبنيته وهم لم يروه قط رأى العين من خلال عدسات التليسكوبات، بينما يكتب المنظرون مثل بوبر أن التجربة هى مجرد خادم للنظرية التى تسبقها عادة. كذلك فإن منظرى فيزياء الجسيمات يسخرون من علماء التجربة الذين يحطمون الذرة وجسيماتها لمعرفة تركيبها، فيكونون مثل من يحطم إحدى الساعات بمطرقة ثقيلة ليعرف تركيبها الداخلى. على أن قراءة تاريخ العلم قديما وحديثا تبين أنه لا غنى عن التنظير والتجريب معا. وأحيانا يحدث أن تكون معطيات التجريب هى الأسبق، ثم تظهر لها النظرية التى ترتب هذه المعطيات وتبررها كما أنه يحدث أيضا أن تسبق الفروض والنظريات التجربة، وتحتاج بعدها إلى تجربة حاسمة تثبت الفرض الجديد أو تفنده. ونرى مثالا للحالين فى تاريخ وتطور الجسيمات الأولية التى تكون الذرة. ففى أوائل القرن، كان الظن أن الجسمين الأوليين هما البروتون فى نواة الذرة والالكترون الذى يدور حول النواة. ثم نتج عن استخدام المعجلات النووية أن ظهر فى منتصف القرن مئات من جسيمات جديدة تحت ذرية، وأصبح هناك حاجة إلى نظرية جديدة لتصنيف هذا الحشد من الجسيمات وتبسيط هذا الوضع الذى يثير البلبلة. وكان أن ظهرت

نظرية الكواركات التى بيّنت أن الكوارك هو الجسيم الأولى الذى تتكون منه بروتونات ونيوترونات النواة، ثم هناك الالكترون الذى يدور حول النواة. وعلى الرغم من أن نظرية الكواركات قد أصبحت راسخة من أواخر الستينيات إلا أن أغلب الطلبة فى مصر لا يعرفون عنها شيئا، ولا يميزون الكوارك عن الكاويرك. هذا عندما تسبق التجارب النظرية، وهناك حاليا وضع فى الفيزياء الكونية تسبق فيه النظريات التجربة. فهناك تناقصات فى النموذج الأساسى لنشأة الكون وبنيته حسب نظرية الانفجار الكبير السائدة، ويحاول المنظرون حل هذه التناقضات بفيض من الفروض والنظريات مثل نظرية الجاذبية الفائقة والأوتار الفائقة، ووجود كون بأحد عشر بعدا وليس ثلاثة أو أربعة، ويشبهون هذه الأبعاد الكثيرة ببرتقالة تبدو ناعمة ملساء من بعيد، ولكن سطحها عن قريب ملئ بالبروزات. وهذه الفروض والنظريات كلها وإن كانت معقولة نظريا إلا أنها يعوزها البرهان التجريبى الحاسم. وبدون هذا البرهان ستظل أقرب إلى التخمين أو الحدس الميتافيزيقى منها إلى النظرية العلمية الراسخة. وقد بلغ من كثرة هذه النظريات وغموض بعضها أن قال جلاشو الفيزيائى الحاصل على نوبل «إن ما لدينا من هذه النظريات الآن يماثل لاهوت القرون الوسطى المظلمة، وسيحل مكان العلم هكذا عقائد متجمدة».

هذا بعض مما يوجد فى العالم المتقدم من اختلاف خلاق فى الآراء العلمية وتعدد فى النظريات والمناهج، يتناول مشاكل مهمة تتعلق بتفسير الكون بأكبر أجرامه وأصغر جسيماته. أما نحن فى مصر فمشغولون بخلافات عجيبة تعكس أوضاع العلم فى مصر. نحن مازلنا نختلف حول قضية زرع الأعضاء وهل تكون الوفاة بموت جذع المخ أم بتوقف القلب.. والمدهش أن هذه القضية قد حسمت فى كل بلاد العالم بما فيها السعودية

مع كل سياستها المتحفظة. وقد تقدمت زراعة الأعضاء فى السعودية تقدما كبيرا، ونحن مازال لدينا بكل أسف أطباء يحاولون إعادة تعريف الوفاة، وهل يكون طلوع الروح حسب قولهم من جذع المخ أو من أصبع القدم الكبير مثلا!؟ ثم نحن مازلنا لا نستطيع الاتفاق على بداية الشهور القمرية، ومازال إعلامنا يناقش أمورا مثل العلاج من عين الحسود بالاستحمام بماء اغتساله، ومازال بيننا من يعالج المريض بضربة لإخراج الجن من جسده. ومادامت لدينا أمية ثقافية بين المتعلمين، وأمية القراءة والكتابة بين أغلبية الشعب، فسيظل هذا مستوى علمنا ومستوى اختلافنا علميا.

القناة الثقافية تخاصم الثقافة العلمية

الحديث عن الثقافة العلمية قد يحتاج إلى تفسير المقصود بهذا النوع من الثقافة واختلافها عن سائر عناصر الثقافة وعن العلم نفسه ، وما هو الهدف المطلوب منها .

ويتفق الجميع على أننا نعيش الآن عصر العلوم العملية حيث يتوالى تراكم الكشوف والنظريات العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية ، الأمر الذى يؤثر فى حياة كل أفراد المجتمع علميين كانوا أو غير علميين . وأصبح كل الناس يستخدمون حاليا واحدا أو أكثر من تطبيقات التقدم العلمى ، مثل تطبيقات الثورة الالكترونية والمعلوماتية كالتليفزيون والكمبيوتر أو حتى الحاسبات الالكترونية الصغيرة فى أيدى التلاميذ ، وكذلك تطبيقات الهندسة الوراثية التى تعمد إلى إدخال تغييرات فى التركيب الوراثى للكائنات الحية من بكتريا ونبات وحيوان وإنسان للوصول إلى أنماط غذائية ودوائية وعلاجية أفضل للمجتمع ، ثم هناك استخدام الطاقة النووية سواء فى الأغراض الحربية أو الأغراض السلمية كتوليد الطاقة الكهربائية وعلاج الأمراض بالاشعاع . وعموما فقد تميز القرن العشرون بغلبة الفيزياء عليه حيث تم شق الذرة (أو دمجها) لاستخلاص الطاقة ، وكذلك استخدام الترانسستور فى الالكترونيات ثم مرققات السليكون الدقيقة وغير ذلك من أوجه التقدم فى فيزياء الجسيمات الدقيقة تحت الذرية ، وفيزياء الأجرام الكونية الضخمة من كواكب ونجوم

ومجرات ، وثقوب سوداء ومادة مظلمة . ويرى الكثير من العلماء أننا حاليا قد بدأنا بالفعل مرحلة سيجلس على عرشها علم البيولوجيا وتطبيقاته في التكنولوجيا الحيوية أو البيوتكنولوجيا ، وهي تطبيقات قد تخطت بالفعل الضجة المبالغ فيها حول استنسال دوللي النعجة الشهيرة ، للبحث فيما هو أجدى . ومن ذلك ما يتم حاليا من رسم خريطة الأطقم الوراثية أو موقع ووظيفة كل جين في خلايا شتى الأنواع الحية من كائنات دقيقة ونبات وحيوان وإنسان ، وكذلك أبحاث إطالة عمر الكائنات الحية من خلايا التركيبات الوراثية ، ورسم خريطة مخ الإنسان ووظائفه .. الخ . وهذه الأبحاث قد يكون لتطبيقاتها خير للمجتمع أو شر يضر به ، تطبيقات قد تفيد المجتمع فائدة هائلة ، وقد تعرضه لمخاطر كبيرة . ولا شك أن في ذلك ما يثير الهواجس بين العلماء كما يثيرها أيضا بين أفراد الجمهور عامة الذين قد تصيبهم هذه الفوائد أو المخاطر . وإذن فلابد وأن توضع حدود تبين ما يجب وما لايجب بالنسبة للتطبيقات العلمية في المجتمع (وليس بالنسبة للبحث العلمي نفسه ، فهذا شأن العلماء المتخصصين) . والجمهور الذى يتلقى هذه التطبيقات ينبغي أن يشارك مع العلماء في وضع هذه الحدود . وحتى يتمكن الجمهور غير المتخصصين من القيام بمسئولية هذه المشاركة ، لابد وأن يحوز أفراده قدرا من الثقافة العلمية يتيح لهم الإلمام بفكرة عامة عن النظريات والأبحاث العلمية الحديثة وتطبيقاتها وتأثيراتها المحتملة أولا بأول .

كذلك فإن الإلمام بفكرة عامة عن العلوم الطبيعية والعملية أصبح الآن ضروريا لأن العلم أساس لا غنى عنه لتقدم المجتمع ، كما أنه ضروري

لاتخاذ المواقف الصحيحة في الحياة حاليا وفي المستقبل . فالإلمام بالنظريات والمنهج العلمي ليس له فحسب دوره في حل المشاكل العلمية، وإنما أيضا دوره الهام في حل مشاكل الحياة العملية اليومية .

والكتابة في الثقافة العلمية تختلف عن الكتابة في العلم البحت . **فالثقافة العلمية تتحدث عن العلم وليس في العلم ، وهي موجهة إلى القارئ غير المتخصص ومجالها في كتب عادية أو أى وسيلة إعلامية .** أما الكتابة في العلم البحت فموجهة إلى العالم المتخصص ومجالها في الدوريات العلمية أو كتب المراجع . وليس من الضرورى لمن يكتب أو يتحدث عن الثقافة العلمية أن يكون هو نفسه عالما متخصصا . وكثيرا ما يكتب في الثقافة العلمية كتاب وصحفيون تخصصاتهم أصلا أدبية أو اجتماعية أو في العلوم الإنسانية عموما . وأوضح مثل لذلك ما يكتبه العالم التربوى الكبير أ . د . حامد عمار ، من مقالات عن معالم التحول في العلم ومناهجه ، قدم لها بتواضعه العلمى قائلا أنها حصيلة قراءات لتثرى ثقافته بقدر من زاد العلوم الطبيعية . على أنه يحدث أحيانا أن يكون دارسو العلوم الطبيعية أنفسهم بعيدين تماما عن الثقافة العلمية والمنهج العلمى ، كأن يقوم أحد علماء الفيزياء بتحضير الأرواح أو أن يقوم عالم طب نفسى بعلاج مرضاه بالتمائم وجلسات استحضار الجان !

هناك إذن حاجة شديدة إلى نشر الثقافة العلمية سواء بين الجمهور العام غير المتخصص أو حتى بين بعض دارسى العلوم العلمية . وأى مجتمع يخطط حقا للارتقاء بنفسه لابد وأن يتيح لأفراده بكل السبل الوصول إلى الثقافة العلمية والمنهج العلمى ، حتى يصبح هؤلاء الأفراد

القاعدة العريضة التى يمكن أن تفرز العلماء والتى تؤثر فيهم وتتأثر بهم بما يؤدى إلى نهضة المجتمع كله .

وقد أدركت المجتمعات المتقدمة أهمية نشر الثقافة العلمية ، وصدرت مجلات كثيرة تتخصص فى الثقافة العلمية وبعضها عنوانه نفسه هو الثقافة العلمية .

وتحفل كل وسائل الإعلام بأبواب ثابتة للثقافة العلمية ، كما تروج إصدارات كتب الثقافة العلمية ويباع بعضها بالملايين ويترجم لشتى لغات العالم . والثقافة العلمية هكذا تختلف تماما عن كتب وأحاديث تبسيط العلوم والتكنولوجيا .

وقد تحوى الثقافة العلمية أحيانا بعض تبسيط للنظريات العلمية ، ولكن ذلك بهدف أكبر هو إتاحة فهم أهداف العلم ومشكلاته الاجتماعية وكيفية حلها ، وليس بهدف مجرد توصيل معلومة مبسطة . وقد بدأ فى مصر مؤخرا بعض اهتمام بالثقافة العلمية ودورها فى تقدم المجتمع . وتبدى ذلك فى إنشاء لجنة للثقافة العلمية فى المجلس الأعلى للثقافة منذ أربع سنوات . ويقوم أعضاء اللجنة بنشاط كبير فى عقد الندوات وإلقاء المحاضرات وتأليف وترجمة الكتب بقدر ما تسمح الإمكانات وبقدر ما تسمح النوافذ المتاحة الضيقة . ثم تواترت الأنباء عن إنشاء القناة الثقافية بالتليفزيون . واستبشر المهتمون بالثقافة العلمية خيرا . فالتليفزيون وسيلة إعلام تكاد توجد فى كل بيت ، وستجد الثقافة العلمية فى القناة الثقافية منفذا واسعا للوصول إلى الجمهور . ثم قرأنا ما ورد فى الأنباء من أسماء أعضاء اللجان فى القناة الثقافية . واتضح أن

لجنة الثقافة تضم حوالى أحد عشر عضوا كلهم من كبار الأدباء والفنانين ورجال الإعلام ، وليس بينهم فرد واحد يشتغل بالثقافة العلمية أو حتى بروايات الخيال العلمي . ولم ترد كلمة العلم أو الثقافة العلمية فى أى لجنة أخرى سوى لجنة تبسيط العلوم ، وهذا كما سبق القول يختلف تماما عن الثقافة العلمية . ترى ما هو سبب ذلك ؟ هل يعتقد القائمون على الإعلام أننا لسنا فى حاجة إلى الثقافة العلمية ؟ لا أظن ذلك ، وفى وقت ما طلب من بعض المشتغلين بالثقافة العلمية ترتيب دورة تدريبية للسادة المذيعين ، وكان لهذه الدورة وقعها الطيب عند الإخوة المذيعين وعند المحاضرين أنفسهم ، وهو أمر اتضح مما دار فى الدورة من مناقشات وتفاعلات .

يغلب على الظن أن القناة الثقافية لن تخاصم حقا الثقافة العلمية ، وأن هذا مجرد سهو . والوقت ما زال متاحا للعمل على تخصيص ساعات إرسال مستقلة ومستمرة لبرامج الثقافة العلمية . اللهم هل بلغت فاشهد .

الثقافة العلمية : اختلاف المفاهيم والأهداف

أسعدنى أن مقالا لى فى الأهرام عن الثقافة العلمية والقناة الثقافية التليفزيونية أثار بعدها سلسلة مقالات أخرى قيمة عن الثقافة العلمية كتبها بعض من خيرة علمائنا فى الأهرام . على أنه يتضح من هذه المقالات أن كل كاتب منهم يكاد ينحو منحى مختلفا فى مفهومه عن الثقافة العلمية وتعريفها وأهدافها . فالصديق د . محمد زكى عويس مثلا يؤكد فى آرائه على أن أهم أهداف الثقافة العلمية هو تبسيط العلوم ، ونشر حقائقها على نطاق جماهيرى واسع . على أن تبسيط العلوم فيما أزعمه ، جانب واحد من الجوانب المهمة فى الثقافة العلمية ، ونشر الحقائق المبسطة ليس بالهدف النهائى للثقافة العلمية . والثقافة بمعناها الواسع هى محصلة العلوم والمعارف والفنون التى يسترشد بها الإنسان لاتخاذ مواقفه وطريقه فى الحياة . ومن أهم أهداف الثقافة العلمية أن يتخذ الإنسان لنفسه الطريق أو المنهج العلمى لحل مشاكله حتى فى الحياة اليومية . والمنهج لغة وهو الطريق الواضح القويم ، والمنهج العلمى هو الطريق الذى يتخذه العلماء فى أبحاثهم للوصول إلى الاكتشافات والنظريات العلمية . وتبسيط العلوم وحده لا يكفى لأن يتشرب القارئ غير المتخصص المنهج العلمى نفسه ليتبعه فى مواقف حياته . وإنما يتطلب ذلك أن يواكب تبسيط العلوم تفسير الطريق أو المنهج الذى يتناول العلماء به مشاكلهم العلمية وكيف يصلون إلى حل لها . والثقافة العلمية إلى

جانب ما تتيحه للجمهور غير المتخصص من الإلمام بالكشوف والنظريات العلمية ، فإنها تتيح له أيضا أن يلم بالمنهج العلمي . وكما هو معروف الآن فإن هذا المنهج العلمى لا غنى عنه لتقدم أى مجتمع ، وهو ضرورى لا فحسب لحل المشاكل العلمية ، وإنما أيضا لحل مشاكل الحياة العملية اليومية . كما أن الجمهور غير المتخصص مطالب بالإدلاء برأيه فى مشاكل مستحدثة تنتج عن التطبيقات التكنولوجية الحديثة للعلم ، مثل تطبيقات التكنولوجيا الحيوية بما فيها الهندسة الوراثية ، والمعلوماتية والطاقة الذرية .. الخ .

وهذه كلها تطبيقات تؤثر فى المجتمع ككل. ومن الضرورى أن يساهم الجمهور برأيه فيها مع العلماء منعا للإضرار بالمجتمع . وحتى تتم هذه المساهمة بأسلم طريق لابد وأن يكون الجمهور ملما بالمعلومة والمنهج معا وليس بالمعلومة وحدها .

ومن بين ما كتب عن الثقافة العلمية إصرار البعض على أنها تعد تخصصا إعلاميا فحسب ! وذلك لأن الثقافة العلمية لها دراسات ودرجات تمنح فى كليات الإعلام . على أن الإعلام ليس إلا وسيلة واحدة من وسائل عديدة يمكن اتخاذها لنشر الثقافة العلمية . والثقافة العلمية قد تتخذ وسيلة نشرها من الإعلام أو من أى وسيلة أخرى مناسبة من صنوف الفنون والآداب ، كالفن التشكيلى والسينما والكتب وروايات الخيال العلمي . كما أنه لا يمكن اعتبار أن وسيلة نشر شيء هى الشيء نفسه ، وإلا لصح القول بأن حامل السفر هو السفر نفسه .

ومما ذكر أيضا الرأى بأن الكتابة فى موضوعات الثقافة العلمية تعنى أن كل عالم متخصص يكتب هو وحده عن موضوع تخصصه العلمى

ليبسطه . فعالم الكيمياء هو وحده المختص بالموضوعات الكيميائية من الثقافة العلمية والطبيب بالناحية الطبية وعلم الفلك بالناحية الفلكية ، وهكذا دواليك على أنه ليس من الضرورى أن يكون كل متخصص هو أفضل من يكتب عن الثقافة العلمية فى تخصصه . وقد قرأنا مقالات رائعة فى الثقافة العلمية كتبها أساتذة فى كليات إنسانية أو أدبية مثل د . حامد عمار و د . السيد النقادى و د . يمنى الخولى . والدكتور النقادى له رأيه السديد عن مفارقة انتشار الفكر الغيبى فى الكليات العملية بين الطلبة بل وبين بعض الأساتذة الحاصلين على أعلى درجات العلوم العلمية . كما أنه له رأى صائب تماما فيما كتبه عن الحاجة إلى تأكيد دور الفكر العلمى فى بناء شخصية الإنسان المصرى أو العربى ، وعن الحاجة إلى تأكيد أوجه الارتباط بين شتى العلوم العملية والإنسانية ، وهذه أمور أعتقد أننا نتفق على أن الثقافة العلمية لها دور أساسى فيها . كذلك فإن تحقيق أمل د . النقادى فى أن يكون لنا إبداع حقيقى علمى وفلسفى يتطلب أيضا نشر الثقافة العلمية بين سائر أفراد الشباب ليكون منهم قاعدة عريضة تؤمن بالمنهج العلمى ويسهل أن يخرج منها أفراد يبدعون العلوم والفلسفة .

والواقع أنى إذا كنت أتفق مع د . النقادى فى معظم آرائه ، إلا أنى أرجو منه أن يسمح لى بالاختلاف معه حول مقال نشر له بعنوان (ثقافة علمية أم فكر علمى ؟) فالعنوان هكذا قد يكون فيه ما يوحى بوجود تعارض بين الثقافة العلمية والفكر العلمى فى حين أنهما يتداخلان تداخلا عظيما . وأخيرا أزجى تحيتى له ولكل من كتب مؤخرا عن قضية أو قضايا الثقافة العلمية ، حتى وإن اختلفت الآراء .

الاختراق: الفكر المصرى وهل يرتد؟

فى أوائل هذا القرن ثار جدل بين صديقين فى مدينة دمنهور حول أبينا آدم، فقال أولهم بأنه من الأنبياء، ونفى الثانى واسمه الشيخ أبو زيد أن يكون سيدنا آدم نبيا وهو أول البشر، فلمن يرسل؟ واحتد الجدل بين الصديقين وتناول معجزات الأنبياء، فرفع الأول قضية أمام المحاكم الشرعية لتحكم بردة الثاني وتفرق بينه وبين زوجته. والمحاكم الشرعية أيامها كان قضاتها شيوخا معممين من خريجى المدارس الأزهرية العليا مثل مدرسة القضاء الشرعى. وحكم القاضى الشرعى فى أول هذا القرن برفض القضية أصلا، وعنف فى حيثياته صاحب الدعوى لأنه يشغل وقته ووقت الناس بتوافه الأمور، بينما البلد مليئة بمشاكل أهم كثيرا تحتاج لجهد الجميع..

فى العشرينيات كتب طه حسين كتابه فى الشعر الجاهلى وأثار ذلك بعض الذين يحبون التفتيش فى ضمائر الناس مثلهم مثل محاكم التفتيش فى العصور المظلمة، وهم دائما يثيرون نفس الحكاية الممجوجة بإعطاء أنفسهم سلطة التكفير وطلب التفرقة رغم أنه لا كهانة فى الإسلام. على أن قضية طه حسين حسمت على يد محمد نور الدين وكيل النيابة المثقف الذى قال أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اجتهادا من طه حسين يحتمل الخطأ والصواب. وأغلقت القضية قبل أن تصل لأى محكمة، ودخل اسم محمد نور الدين هو وطه حسين فى سجلات الخالدين، أما الآخرين فلا يذكر أحد أسماءهم.

في الأربعينيات كان أحمد خلف الله مازال معيدا بكلية آداب جامعة فؤاد الأول، وكان يعمل فى رسالة للدكتوراه يشرف عليها الشيخ الأزهرى المعمم أمين الخولى، وكان موضوع الرسالة عن فنية قصص القرآن وكيف أن المقصود بهذه القصص هو العظة حسب مناسبة التنزيل وليس التأريخ للأحداث. ومرة أخرى يهيج كهان الظلام وتعود الأسطوانة المشروخة بطلب التكفير والتفرقة. ويدافع الشيخ الخولى عن تلميذه ورسالته، كما دافع عنه رجل فكر ليبرالى وهو توفيق الحكيم ورجل فكر محافظ وهو عباس العقاد. ولم يتمكن الكهنة أو لم يجسروا وقتها على رفع القضية إياها، ولكن حكومة الأقلية وقتها رقصت على أنغامهم ونقلت خلف الله من الجامعة إلى وزارة المعارف العمومية، كما ألغيت الرسالة وإن كان د. خلف الله قد أصدرها فى كتاب علنى قرأه كل الناس ليعرفوا أن الرجل أحسن إيمانا من الكهنة، ونال د. خلف الله الدكتوراه عن موضوع آخر. ها قد تقدم كهنة الظلام خطوة..

في السبعينيات أبلغ ضابط شرطة أحداث النيابة بأنه عثر على نسخ من كتاب ألف ليلة! وأن هذه النسخ فيها أمور تفسد فكر الأحداث. طبعا ضابط الشرطة هذا مخترق ولعله أيضا تأثر بعمله مع الأحداث. أما وكيل النيابة فكان أكثر عنفا من ضابط الشرطة وطالب بعدم الاكتفاء بمصادرة ألف ليلة وإنما أيضا بحرقها. وصدر حكم ابتدائى بمصادرة الكتاب، كما صرح رئيس النيابة وقتها بأن كتاب ألف ليلة كتاب مزور. ها قد زاد عدد المخترقين أو عدد من يرقصون على أنغام الكهنة. إلا أن محكمة الاستئناف ردت الأمور إلى طبيعتها وألغت الحكم الغريب الابتدائى. على أن رجال الظلام ظلوا يثابرون على نشاطهم، فقد أدركوا

أنهم بمثابرتهم قد استطاعوا التأثير في أناس يفترض أنهم متعلمون ويمكنهم التمييز بين النور والظلام..

في التسعينيات استدعى الدفاع في قضية مقتل فرج فودة شيوخا كان يحسب أنهم من المعتدلين. وأفتوا بأن المرتد يقتله أى فرد ويمكن لولى الأمر بعدها أن يحاسب القاتل هونا باعتباره عاصيا! ولم يبين هؤلاء الشيوخ من يعطى سلطة التكفير والقتل، وكان في كلامهم ما يدل على إقرارهم بوجود كهانة ذات سلطة بصرف النظر عن القانون الوضعي وولى الأمر..

ترى ماذا سيحدث في هذا البلد بعد كل ما حدث أخيرا. لقد أصبح لدينا الآن أكثر من هيئة أو مؤسسة تدعي لنفسها سلطات التكفير والتفرقة والمصادرة. بل وصل الأمر إلى أن الأفراد زعموا لأنفسهم هذه السلطة، وعندما صدر قانون جديد لوقف ذلك إذ بهذا القانون نفسه يجعل للحسبة وضعا شبه قانوني بعد أن كانت أمرا يشك فيه تماما ويخضع لتفسير كل قاضي وحده. لقد وصل الأمر إلى أن يخترق الظلام الفكرى بعض المتعلمين الذين لا يؤمنون بما تعلموه، ولهم وظائف حساسة في مؤسسات الدولة تؤثر في المجتمع. إن الذى يرتد الآن ليس أفرادا قد ارتدوا عن دينهم فهذا أمر لا يمكن أن يحكم فيه بشر، وإنما الذى يرتد هو بعض قطاعات في الهيئات والمؤسسات ترتد بالبلد إلى الوراء فكريا. ويكاد يصبح الآن من المحرمات مناقشة أى قضايا سبق أن ناقشها السلف الصالح علنا منذ ما يزيد عن ألف عام بدون اتهامات بالتكفير والتفرقة. فهل نحن حقا من أهل القرن الواحد والعشرين أم أننا من عهد ما قبل التاريخ أو من سكان المحميات الطبيعية؟..

ملحوظة: عرضت فكرة هذا الموضوع على أربعة من المشرفين على صفحات فكرية فى إصدارات قومية. ورغم أنى أقسمت بأغلظ الإيمان بأنى لن أتعرض فى حديثى لقضية د. أبو زيد إلا أنهم جميعا رفضوا بطريقة غير مباشرة نشر هذا الحديث ، الأمر الذى أعده أيضا من باب الرقص على نغمات الكهنة. ولم يوافق على نشره إلا الأستاذ رجب البنا، وعموما فالموضوع لا يعبر إلا عن رأيى أنا وحدى ولا مسئولية لغيرى عنه..

لمحات علمية من حرب أكتوبر

لا يكفى لإنجاح الحروب أن تعقد الأمة عزيمتها على الانتصار، وإنما لابد وأن يواكب ذلك اتباع المنهج العلمى فى التخطيط للحرب وإعداد كل ما يتعلق بها استراتيجيا وتكتيكيا مع حسن استخدام الموارد المتاحة وإن كانت محدودة. هناك أكثر من مثل على اتباع المنهج العلمى فى حرب أكتوبر. من ذلك ما تبين من أن الحرب الحديثة بأسلحتها المعقدة وأساليبها الالكترونية الجديدة ينبغى أن يكون عمادها الرئيسى الجندى المتعلم وليس الجندى الأمى. ومن هنا تم استخدام الجنود المؤهلات استخداما جديا وعلى نطاق واسع فى شتى أسلحة الجيش. بل إن بعضهم ظل مجندا لسبع سنوات منذ هزيمة ١٩٦٧حتى أنتصار ١٩٧٣. وكان من المأمول أن نستوعب هذا الدرس العملى وأن يعقب الحرب حملة شاملة جدية لمحو أمية البلاد. وكما أن الحرب الناجحة لا يقوم بها إلا جندى متعلم، فإن النهضة الاقتصادية الناجحة لا يقوم بها إلا أفراد شعب متعلمين بأسرهم. ولكننا مازلنا جد بعيدين عن تحقيق ذلك. وقد تباهى بعض رجال الدولة بأننا فى عشر سنوات قد محونا أمية ١٠٪ من السكان، ومعنى هذا أن الأمية لن تمحى بالكامل قبل أربعين سنة! هل سرعة السلحفاة هذه تصلح للسباق الرهيب والمنافسة العنيفة التى ستحدث فى الألفية الثالثة، وأين روح أكتوبر العلمية من هذا البطء الشديد فى محو الأمية؟..

ومن اللمحات العلمية لحرب أكتوبر الدور الذى قام به علماء مصر من الجيش وخارج الجيش فى تحسين الأسلحة المتاحة للجيش لزيادة كثافة نيرانها وتحسين قدرتها على الحركة والمناورة، كما حدث بالنسبة للطائرات والمدرعات والصواريخ. وكان لخريجى الكلية الفنية العسكرية دور كبير مهم فى ذلك. وهذا المعهد لا يوجد ما يماثله فى جيوش العالم سوى القليل. وقد تخرج منه عدد وافر من المخترعين والمبتكرين العسكريين. ولعله يظل دائما على المستوى الراقى الذى كان عليه عند حرب أكتوبر.

من الابتكارات العلمية التى كان لها دورها البارز فى حرب أكتوبر استخدام مدافع المياه فى فتح ثغرات فى السد الترابى بالضفة الشرقية. وكان هذا الابتكار نتيجة ملاحظة بارعة من المقدم مهندس باقى يوسف الذى سبق له العمل فى السد العالى بأسوان، والتقط بذاكرته هذه المشاهدة ليقترح تطبيقها فى إزالة السد الترابى. وهذا المهندس هو ولاشك صاحب نظرة علمية لماحة. فالمدافع المائية كانت فى أسوان تحت أعين مئات المهندسين والضباط، وهذا المهندس وحده هو الذى أدرك أهمية هذه المدافع لاستخدامها فى حرب أكتوبر. وفيما يعرض فإنه لأسباب غير معروفة ولا مفهومة قلما يذكر اسم هذا المهندس فى وسائل الإعلام. وفيما أتذكره فإن الإعلام فى كل ما مر من سنوات على الحرب لا يكاد يحتفى بالمقدم مهندس باقى يوسف صاحب النظرة العلمية اللماحة، مع أنه قد أفاد بلده فائدة عظيمة بما يستحق كل التكريم ولعله أجدر بأن تقام له حفلات التكريم والمواكب الإعلامية أكثر مما أقيم لعلماء فى المهجر لم يستفد البلد بالشىء الكثير من علمهم الوفير..

ومن الخطط العلمية البارعة فى حـرب أكتوبر الأسلوب الجديد فى تخطيط الخدمات الطبية. ففى الحروب السابقة كانت خدمة التخصصات الطبية العالية تقدم فقط فى مستشفيات كبيرة بعيدة عن الجبهة، بما قد يقلل من فرص الحصول على العلاج التخصصى فى الوقت المناسب. أما فى حرب أكتوبر فقد دفع بالتخصصات العالية إلى مستشفيات صغيرة قريبة من الجبهة ومجهزة بأعلى الخبرات وأحدث الأجهزة اللازمة، كما أنها فى مواقع حصينة غالبا تحت الأرض، بحيث تحقق أن ينال الجندى المصاب بسرعة أعلى خدمة طبية فى أقصر وقت ممكن وعلى أقرب مسافة ممكنة من الجبهة. كذلك كان الإمداد بالدم اللازم نقله للمصابين يتم فى الحروب السابقة بواسطة عربة ثلاجة ضخمة تستخدم كمركز رئيسى للتوزيع على الوحدات الفرعية. وكانت هذه الثلاجة الضخمة هدفا ظاهرا للعدو، كما أنها تمثل عبئا كبيرا فى تحركاتها وبطئها. أما فى حرب أكتوبر فقد صمم أطباء بنك الدم فى القوات المسلحة عربة بنك دم صغيرة تقتصر على ثلاجة ملائمة فوق عربة جيب صغيرة تدفع إلى الخطوط الأمامية بدون أن تكون هدفا واضحا أو عبئا ثقيلا فى تحرك القوات . وأثبتت هذه البنوك الخفيفة الصغيرة كفاءة تامة أثناء الحرب.

ومن اللمحات العلمية التى تتسم بالدقة والجمال فى حرب أكتوبر الدراسات التى تم بناء عليها تحديد يوم وساعة العبور. فقد ذكرت كل المصادر أنه قد أجريت لذلك دراسات تفصيلية للأحوال الجوية فى هذا الوقت من السنة وأحوال المد والجزر فى القناة ومواقع الشمس والقمر.. الخ، وتم بناء على ذلك تحديد أفضل يوم وساعة لعبور القوات. وهناك

فارق كبير بين كل هذا وبين ما تردد قوله من أن بعض المسئولين حاولوا فيما سبق تحديد موعد الهجوم بتحضير الأرواح، والأعجب أن وسيطهم الروحى كان أستاذا بكلية العلوم! وإذا صح أن هذه المحاولة قد حدثت فعلا، فإن هذا دليل آخر على ما يبدو أحيانا فى سلوك بعض المتعلمين من انفصام تام بين ما درسوه من علوم ومناهج علمية وبين سلوكهم عند حل المشاكل حيث لا مانع من اتباع خرافات وخزعبلات واللجوء إلى تحضير الأرواح والمندل والأحجبة والتمائم. وأمثال هؤلاء هم من أصروا أثناء حرب أكتوبر على أنهم قد رأوا بأعينهم الملائكة وهى تحارب مع الجنود. فى حين أن هذه نظرة اتكالية تهدر كل ما بذلته الأمة بأسرها طيلة سنوات عديدة للإعداد علميا لحرب أكتوبر. وبدون إعداد وتدريب علمى ما كان لأى جيش أن ينتصر سواء كان من البشر أو غير البشر.

وأخيرا تحية لحرب أكتوبر بجنودها وضباطها وعلمائها، وكلنا أمل فى أن يظل العلم والمنهج العلمى رائدا لحياة المصريين كلهم عسكريا ومدنيا.

علم الإنسان المصرى

يعقد مركز حوار الحضارات بالهيئة القبطية الإنجيلية سلسلة من الندوات يتناول كل منها نبض مشاكل المجتمع المصرى . وقد دُعيت لحضور بعض هذه الندوات ، منها ندوتان عقدت أولاهما فى الإسكندرية والأخيرة بالزعفرانة فى ديسمبر ٩٨ . وقد شرفت فى هاتين الندوتين بأن أستمع لأول مرة إلى نخبة من علماء الأنثروبولوجيا فى مصر ، هم الأساتذة الدكاترة أحمد أبو زيد وثروت إسحق وحافظ دياب .. وأنا معلوماتى أصلا عن الأنثروبولوجيا جد محددة ولا تتعدى ما حصلته من قراءات متناثرة ، عرفت منها وأنا فخور كطبيب ، أن الأطباء هم أول من بدأ دراسات الأنثروبولوجيا ، وذلك فى بلاد الغرب الاستعمارى ، حيث وصّفوا جسمانيا وعقليا الشعوب والقبائل المحلية فى البلاد المستعمرة أو المرشحة للاستعمار . على أنى حين استمعت إلى أبحاث أساتذتنا المصريين بهرنى ما ذكروه من فيض معلوماتهم الدقيقة العلمية عن المجتمع المصرى والإنسان المصرى، خاصة عند أغلبيته من القاعدة الشعبية الواسعة . وهذه المعلومات ربما تدور حول أمور نراها كلنا فى حياتنا اليومية ، لكنها عندما تُعرض فى الإطار العلمى يكون مغزاها أعمق كثيرا ، بحيث تثير الفكر والأسئلة عما تعرضه الدراسة العلمية من الظواهر وأسبابها والنتائج التى يمكن أن تترتب عليها ، وإذ تجيب هذه الدراسات عن أسئلة ماذا ؟ ، ولماذا ؟ وماذا بعد ؟ ، فإنها تساعدنا على التعرف على هويتنا وذاتنا وتراثنا كمصريين .

عرفنا من الأساتذة أن الأنثروبولوجيا هى علم دراسة الإنسان فى أصله وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته ، أى الإنسان من حيث هو كائن حى ذى عقل وثقافة . كما عرفنا من د . حافظ دياب أن معاهدنا فى مصر لم تعرف الأنثروبولوجيا كدراسة لعلم مستقل إلا فى وقت حديث نسبيا . وأول معهد أدخل الأنثروبولوجيا فى مصر هو معهد الدراسات الأفريقية وذلك فى الأربعينيات ، ولكن دراسات المعهد كانت تركز على الإنسان الأفريقى . أما الجامعات المصرية فكانت لا تدرس الأنثروبولوجيا فى قسم مستقل وإنما كجزء من دراسات قسم الاجتماع . ثم ظهر أول قسم مستقل للأنثروبولوجيا فى آداب الإسكندرية فى أواخر الستينيات وظل هو القسم الوحيد حتى ظهر قسم آخر فى آداب حلوان ٩٦ . وفيما عدا هاتين الجامعتين ما زالت الأنثروبولوجيا تدرس كجزء من الدراسة فى أقسام الاجتماع .

عرض الأساتذة الدكاترة أبو زيد وإسحق ودياب فى ندوتى حوار الحضارات أبحاثا عن أنثروبولوجيا التدين عند الفئات الشعبية وسلوكها ومعتقداتها وخطابها الدينى ، سواء عند المسلمين أو الأقباط. وتبين دراسة د . أبو زيد كيف أن المجتمع المصرى وحدة واحدة متماسكة ومتكاملة رغم فوارق الدين . والمسلمون والأقباط يشتركون فى كثير من جوانب المعتقدات وسلوكيات التدين ، وإن كانت هذه الجوانب المشتركة العامة لا تنفى وجود الخصوصية . والأمر أن هناك تاريخ وتراث طويل مشترك أدى إلى المعتقدات

والسلوكيات المشتركة . وبهذا فإن المجتمع المصرى مجتمع مركّب وليس مجتمعا تعدديا . كذلك تبين دراسة للدكتور إسحق كيف أن الموالد الإسلامية والمسيحية تكاد تتخذ الطابع نفسه ، فهى مناسبات دينية اجتماعية شعبية تختلط فيها الأسر وتمتزج الوجدانيات . ويوضح بحث د . دياب أن الاحتفاليات المصاحبة للموالد فيها بعض من دلالات الحفلات المصرية القديمة التى تهتم بالنعش المقدس . وهذه كلها ممارسات تسربت من تاريخ مصر القديم . ويقام فى مصر حاليا حوالى ٢٨٥٠ مولدا سنويا يحضرها أكثر من نصف المصريين . ومن الطريف ما يذكره د . إسحق من أنه قد لوحظ وجود تشابه بين ألحان بعض الأغانى الدينية فى الموالد الإسلامية وألحان الكنيسة القبطية .

هناك أيضا ظاهرة التوسط بالأولياء والقديسين وإرسال الخطابات والشكاوى لهم كما ذكر الراحل د . عويس فى أبحاثه . وهذه الظاهرة موجودة أيضا عند المسلمين والأقباط معا . وهى أيضا مما تسرب من قدماء المصريين الذين كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا فى قوة تأثير الموتى فى مصير الأحياء . ومن الواضح أن الاعتقاد بوجود حياة بعد الموت ومخاطبة الموتى ظواهر مستمرة بطول التاريخ المصرى . ورجال الدين يحاولون دائما تصحيح الطريقة التى تتعامل بها الطبقات الشعبية مع الأولياء والقديسين . إلا أن المصرى الشعبى يتحايل على النصوص الصريحة التى تنهى عن هذا السلوك بأن يحول الأمر كله إلى أنه مجرد إلتماس للبركة من الأولياء . ومن اللافت للنظر أن

المسلمين قد يوسطون فى شكاواهم قديسين مسيحيين كما أن الأقباط قد يوسطون أولياء مسلمين . فالحس الشعبى يعمل على توسيع دائرة من يطلب شفاعتهم لإزالة المظالم والكروب التى تواجه الشرائح الشعبية المضغوطة اجتماعيا واقتصاديا . ويرى د . إسحق أن المعتقد الشعبى فى القديسيين والأولياء فى مصر له نكهة ثقافية ودينية شديدة الخصوصية ، فهو وسيلة تفرزها الثقافة وتزكيها لمواجهة تحديات الزمان ومعاناة الإنسان من ضغط الحياة المادية .

هذا بعض قليل مما ورد فى أبحاث أساتذة الأنثروبولوجيا فى المنتديين ، وقد تناولوا فى دراساتهم جوانب أخرى كثيرة مثل الحديث عن الجماعات الدينية الشعبية فى بحث د . دياب ، كجماعات الطرق الصوفية التى يوجد منها الآن فى مصر أكثر من ١٢٠ طريقة أكثرها تعترف الدولة به اعترافا مقننا . ثم هناك ما ذكره د . إسحق من ترتيب الأولياء والقديسين حسب عدد من يتردد عليهم ودلالة ذلك ، وغير هذا كثير مما لا يمكن حصره فى هذه العجالة المحدودة .

وأود أن أقدم الشكر لمركز حوار الحضارات للجمعية القبطية الإنجيلية الذى أتاح لنا فرصة التعرف على هذه النخبة من العلماء المصريين الذين يقومون فى صمت بجهد مشرف لا يكاد يحس به أحد من الجمهور غير الأكاديمى ، رغم أهمية هذه الأبحاث لكل المصريين . هذه الدراسات تبين لنا كيف يحمل العالم المصرى الحق هموم وطنه معه دائما ، ويحاول تشريحها وتفسيرها لنتعرف على

ذاتنا ونتوصل إلى حل مشاكلنا ، ولا شك أن هذه دراسات ينبغي أن يتنبه لها ويطلع عليها كل مثقف مصرى .

ومن عجب أن بعض من استمعوا لهذه الأبحاث عزفوا عن كل ما فيها من معلومات قيمة وانصرفوا إلى اعتراض على الشكليات ، فهم يعترضون على وجود معتقدات شعبية دينية بدعوى أن هذا قد يعنى وجود عقيدة شعبية غير العقيدة الإسلامية ، وفاتهم أن هذا أمر محسوم عند علماء الدين منذ قرون عديدة . فالإمام أبو حامد الغزالى نفسه بكل تشدده فى الدين له مقولة مشهورة فى كتابه إحياء علوم الدين وهى أن الإسلام ثلاث : إسلام العامة ، وإسلام الخاصة وإسلام خاصة الخاصة . ذلك أن العامة لا يدركون من الدين إلا وجهه الخارجى فقط أما الخاصة أو النخبة فتدرك الدين إدراكا أعمق . فهل نحن أكثر تشددا من الغزالى ؟ وهل يحرم الآن على مشارف القرن الواحد والعشرين أن نستخدم مصطلحا استخدمه الغزالى منذ قرون خلت ؟ !

كيف تواجه العولمة بنظرة شاملة

أثار الدكتور علاء الدين القوصى مشكلة مهمة فى مقاله «العولمة الثقافية وكيف نواجهها؟». وأود أن أعرب له عن إعجابى بالمقال وأهميته، إلا أنى أود أيضا أن أختلف معه فى بعض النقاط التى أوردها، والاختلاف لا يفسد للود قضية.

الدكتور القوصى يقر بأن الجانب الثقافى من العولمة يرتبط ارتباطا وثيقا مع الجانبين الاقتصادى والسياسى، ومع ذلك فهو يناقش فى مقاله الجانب الثقافى وحده بحجة أنه جانب مغفل مهمل. والواقع أن هذه الجوانب الثلاثة ليست مرتبطة فحسب، بل إنها متشابكة ومتداخلة تداخل العناصر المتحدة معا فى مركب كيميائى واحد، وأى فصل لعنصر فى هذا المركب الكل يختزل الكيان الكلى إلى أجزاء لا يكون مجموعها هو هذا الكل، وبالتالى فإن هذا يؤدى إلى خلل فى الحلول التى نحاول وصفها للجزء الواحد المفصول فصلا تعسفيا. وأى حل فعال نقترحه لابد وأن يتناول العناصر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وهى متحدة معا فى تكامل، وكلما ابتعد تناول المشكلة عن هذا المنهج الشامل انحرفنا بأكثر عن حلها حلا ناجحا.

عرض الدكتور القوصى عرضا سريعا مشكلة العولمة (الثقافية) حيث تحاول الدول الغنية محو ثقافة الدول الفقيرة لتحل مكانها ثقافة أجنبية لا تتناسب مع ثقافة وحضارة الفقراء. وهو يرى أنه لابد من الاستعداد لذلك بالتخطيط الجيد والدراسة العلمية الواقعية التى تدعم مسيرة

الإصلاح الاقتصادى. وهذا كله أمر لا خلاف عليه. ولكن عندما نصل إلى مربط الفرس، أو الحل الذى يقترحه الدكتور القوصى لمواجهة العولمة (الثقافية) نجده يختار حلا أبعد ما يكون عن أى تخطيط أو علم، إنه ببساطة الحل الأمنى، أسهل الحلول وأفشلها! شركة أمن تمنع أن يمر فى إرسال الانترنت والديش (الطبق) المواضيع المنافية للآداب، وأى أفكار ضارة لهويتنا. وهو يبادر فينفى، دون أى تبرير منه، أن فى هذا حجر على الحرية، ويبادر قاطعا الطريق على الغير بأنه لن يتعرض لهذا الرأى بالجدل. وإذا لم يكن هذا حجرا صريحا قاطعا للحرية الفكرية، فماذا يكون إذن؟ وإذا لم يكن هذا الرأى يثير الجدل فماذا يبقى ليجادل؟ ثم أين هو ذلك القياس الذى يتكلم عنه لنقيس به نسبة المخاطر للفوائد لنسترشد به فى عملية الحظر الأمنى الذى سنفرضه، والذى يزعم أنه مقياس متعارف عليه. فمن هم الذين تعارفوا عليه ؟ ومن الذى يحدد الأفكار المنافية لحضارتنا والمضادة لهويتنا؟ أى سلطة رقابية أو بوليسية سنضع فى يدها أن تكمم أفواهنا بهذه الكمامة الجديدة؟ أما كفانا مشايخ التكفير وتفرقة الأزواج وقضايا مصادرات الأفلام وكتب ألف ليلة؟ أم أن الأمر كما قلنا بداية أنه منهج خطأ، يؤدى إلى النتيجة الخطأ؟ وحتى لو تماشينا مع المقال فى منهجه غير السليم، ما هى الوسيلة التى نستطيع بها التدخل فى إرسال الديش؟ هل سندور على البيوت، بيتا بيتا لتجميع الأطباق من فوقها كما يحدث فى بلاد متخلفة ثقافيا، أم أننا سنركز إبداعنا العلمى، إن كان لدينا نصيب منه، فى اختراع الكترونيات التشويش الوقائى على الديش؟.

إن الدول النامية يمكن تشبيهها بالأطفال النامين، فهم أكثر تعرضا للإصابة بسوء التغذية والعدوى من الجراثيم الغازية. ولكن توقى ذلك

لا يكون بوضع هؤلاء الأطفال فى خيمة معزولة معقمة بالإشعاع، وتغذيتهم بالحقن بمحاليل معقمة تدفع فى أوردتهم. فسينتج عن ذلك أطفال شاحبون شائهون لا يستطيعون الصمود لأى طارئ غريب. أما إذا أردنا أن نتوقى ذلك، فإننا نطلق هؤلاء الأطفال فى الخلاء والهواء يمارسون الحياة والفكر واللهو والإنتاج والابداع، لأنهم هكذا سيزدادون قوة جسديا وعقليا، وتزداد مقاومتهم ومناعتهم ضد الجراثيم. وسينالون أحسن عافية عندما يعيشون فى بيئة طبيعية، يأكلون طعاما فيه كل العناصر المفيدة اللازمة، ويشمون أريج الأرض بزهورها وغبارها، بما فى ذلك كله من جرعات محدودة من الجراثيم تحفز الجهاز المناعى للنشاط وإفراز الأجسام المضادة التى تقاوم ما قد يطرأ من غزو وبائى. فلن يكون الحل أبدا بالتقوقع والتشرنق وإنما بالخروج إلى الرياح والتحدى والفعل والتفاعل. وإذا أصيب قله منهم بوعكة أو مرض فإنه يمكن ها هنا تطبيق مبدأ نسبة المخاطر للفوائد التى تكون دائما أكبر كما يحدث فى الواقع الصحى.

يرى الدكتور القوصى أيضا أننا يجب أن نفكر جديا فى (الإسهام) فى العولمة الثقافية إسهاما فعالا ولكن مرة أخرى نجد أن ما يطرحه كإسهام لنا فى العولمة هو حل مخيب محبط لكل الآمال. فهو يقترح أن نستخدم أرقى أساليب البث لنشر ما يزخر به تاريخنا ومكتباتنا التراثية من (خامات) وكنوز ورثناها بما فى ذلك المصريات القديمة والإسلاميات. ولعل الدكتور القوصى قد نسى أن هذه الخامات، والمصريات القديمة بالذات قد كشف عنها مؤخرا بواسطة الغرب وهو الذى قدمها لنا، وأننا

مازلنا فى هذه الدراسات عالة على الغرب. بل أننا حتى الآن نعجز عن وضع نظرية جدية تربطنا بتراثنا، سوى أن نفخر ونتباهى به على نحو بدائى. فى حين أن كتاب المصريات من بلاد الفرنجة قد وضعوا العديد من هذه النظريات الجدية، وكل دورنا هو التعليق عليها. فبرستد مثلا له نظرية بأن دين قدماء المصريين له أثر واضح فى كل معتقدات الشرق الأوسط، وبرنال له نظرية عن أن أصل الحضارة اليونانية من مصر وأفريقيا. فهل يريد الدكتور القوصى أن نبيع الماء فى حارة السقايين، ونحن أصلا ينقصنا المورد؟ بل نحن مازلنا للآن نعانى من فجوات فى تاريخنا وتنقصنا المعلومات السردية، وليس النظريات المجردة، عن تاريخ الحقبة القبطية واليونانية والرومانية فى مصر ودور الشعب المصرى فيها. والحقيقة أننا فعلا نتعامل مع كنوزنا التاريخية على أنها لا غير مواد (خام)، كل ما نفعله إزاءها هو أن نحاول عرضها وبثها للسياح، ولكننا لا نحاول صقل هذه الخامات لتصبح منظورا ثقافيا حضاريا وليس مجرد خامات. ولعل السبب فى ذلك هو عجز فينا، ليس ثقافيا فقط، بل وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

إن مواجهة العولمة الثقافية لا تكون بشركات الأمن والحظر وبث المعلومات الخام، وإنما تكون بمنهج شامل يعمل على أن يكون مجتمعنا مجتمع إنتاج وإبداع وفكر فى كل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية. والسياسية وليس فى الجانب الثقافى وحده، مجتمع يرقى بكل أوضاعه إلى مستوى الحضارة الحالية علميا وتكنولوجيا. وعندى أن من آيات ذلك ثقافيا أن يغلب على المجتمع وجود المتعلمين الذين يتشربون المنهج

العلمى فى كل تفكيرهم سواء فى عملهم أو فى حياتهم اليومية، وأن يختفى من مجتمعنا ما يغلب عليه الآن من أمية ثقافية حيث المتعلمون مصابون بانفصام فى تفكيرهم، فهم يتلقون العلم فحسب كمعلومات تحفظ للحصول على الشهادة والوظيفة لكسب القوت، أما سائر حياتهم فتخضع للخرافات والخزعبلات. وعندما يكون فى المجتمع أستاذ طبيعة جامعى يحضر الأرواح، وأستاذة هندسة تحتمى من عين الحاسد بالاغتسال بماء استحمام أو وضوء الحسود، فإن هذا علامة على خلل أساسى فى هذا المجتمع، وعلى أنه مجتمع لا ينتج ولا يبدع ولا يفكر أعضاؤه فى عمل جدى، وإنما هم يقبعون فحسب مستسلمين لقدرهم وقصارى جهدهم قراءة تميمة تجلب لهم معجزة بلا جهد. ومجتمعنا إلى جانب هذه الأمية الثقافية مازال يعانى من أمية القراءة والكتابة، ولا مفر من إجراء سياسى باتر للتخلص من هذه العاهات. ولن تتم نهضة إنتاج وإبداع حقة إلا إذا توفر المناخ العلمى والديمقراطى مع الإصلاح الاقتصادى. أما عن تفاصيل الوسائل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية اللازمة للوصول إلى هذا المجتمع المنشود الذى يصمد للعولمة فقد كتب ويكتب عنها مفكرون مختصون كثيرون منهم على سبيل المثال لا الحصر سيد ياسين وحامد عمار وسمير حنا ومحمود العالم وشوقى جلال ورؤوف حامد ونبيل عبد الفتاح ويمنى الخولى وغيرهم كثيرون..

الفهرس

كلمة المؤلف ٦

رؤية هابل : علم الفلك بالتليسكوب الفضائى (هابل) ٧

مرحبا بسفن المريخ : بعد انقطاع ٢١ عامًا ٢١

نسيج الكون والجاذبية الكمية ٢٨

الوراثيات الحديثة : أحلام ومشاكل ٣٩

أضواء علمية على الاستنساخ ٥٤

عندما يختلف العلماء : تتعدد الآراء والمناهج ٧٣

القناة الثقافية تخاصم الثقافة العلمية ٨٤

الثقافة العلمية : اختلاف المفاهيم والأهداف ٨٩

الاختراق : الفكر المصرى هل يرتد ؟ ٩٢

لمحات علمية من حرب أكتوبر................................ ٩٦

علم الإنسان المصرى.. ١٠٠

كيف تواجه العولمة بنظرة شاملة ١٠٥

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا

- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

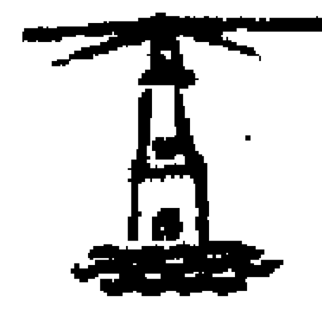
رقم الإيداع	١٩٩٩/١٠٨٨٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5872-5

٧/٩٩/٥١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

ضم هذا الكتاب مجموعة من الفصول
هامة .. التى تلقى الضوء على الجديد فى
لم الكونيات والفضاء، خاصة بعد دراسة
نتائج الخطيرة التى أمدنا بها التليسكوب
فضائى هابل .. وكذلك بعض المشاكل
لخطيرة التى تواجه علم الوراثة
الإستنساخ.

لا يقف هذا الكتاب عند هذا الحد، بل
طرح قضية الثقافة العلمية وما حولها من
ختلافات فى الرأى خاصة حول إسلوب
لأخذ بالمنهج العلمى.



دار المعارف

٤٠٧٠٣٦/٠١

